



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

تفسير القرآن

إلى الأذهان

إمامنا العظيم الإمام

السيد محمد باقر الشيرازي

(أهل البيت)

المجلد الثالث

الطبعة الأولى
الطبعة الثانية
الطبعة الثالثة

1301

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريب القرآن الى الازهان

كاتب:

محمد الحسينى الشيرازى

نشرت فى الطباعة:

ايمان

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٦	تقريب القرآن الى الازهان المجلد ٣
٦	اشارة
٦	اتتمة سورة يوسف
٢٧	١٣ سورة الرعد مكتية/ آياتها (٤٤)
٤٨	١٤ سورة إبراهيم مكتية/ آياتها (٥٣)
٦٩	١٥ سورة الحجر مكتية/ آياتها (١٠٠)
٨٨	١٦ سورة النحل مكتية/ آياتها (١٢٩)
١٢٧	١٧ سورة الإسراء مكتية- مدنية/ آياتها (١١٢)
١٦١	١٨ سورة الكهف مكتية/ آياتها (١١١)
١٨٩	١٩ سورة مريم مكتية/ آياتها (٩٩)
٢٠٧	٢٠ سورة طه مكتية/ آياتها (١٣٦)
٢٣٢	٢١ سورة الأنبياء مكتية/ آياتها (١١٣)
٢٥٥	٢٢ سورة الحج مدنية/ آياتها (٧٩)
٢٧٧	٢٣ سورة المؤمنون مكتية/ آياتها (١١٩)
٢٩٦	٢٤ سورة النور مدنية/ آياتها (٦٥)
٣٢٠	٢٥ سورة الفرقان مكتية/ آياتها (٧٨)
٣٢٤	تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

تقريب القرآن الى الازهان المجلد ٣

إشارة

سرشناسه : شيرازى، محمد
 عنوان و نام پديد آور : تقريب القرآن الى الازهان / محمد شيرازى
 مشخصات نشر : قم: ايمان، [١٣٣٠].
 مشخصات ظاهري : ١٦٨ ص.
 عنوان ديگر : تقريب القرآن الى الازهان
 موضوع : تفاسير شيعه
 موضوع : تفاسير -- قرن ١٤
 رده بندي كنگره : BP٩٨/ح٤٦٤٦١٥٧٠٤٢١٥١٣٠٠ى
 رده بندي ديويى : ٢٩٧/١٧٩
 شماره كتابشناسى ملي : م٦٥-٢١٧٦

[تتمه سورة يوسف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٣ الى ٥٤]

وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَ قَالَ الْمَلِكُ اتَّبُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُكُمْ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)

[٥٤] و مَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ كَلَامِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّوَضُّعُ، أَيِ إِنْ لَمْ يَأْتِ بِأَنْزِهِ نَفْسِي فَإِنْ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الْعِصْمَةِ أَمَّا كَانَ بِحِفْظِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا أُرِيدُ تَرْكِيئَهُ نَفْسِي، وَ الْعَجَبُ مِنْ عَمَلِي وَ طَهَارَتِي، كَمَا يَقُولُ أَحَدُنَا- إِذَا قِيلَ لَهُ أَنْتَ فَعَلْتَ كَذَا-: أَنَا لَمْ أَفْعَلْ وَ إِنَّمَا وَفَّقَنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى «١») وَ إِنْ كَانَ مِنْ كَلَامِ زَلِيخَا- تَمَّتْ لِقَوْلِهَا: لَمْ أَخْنَهُ- كَانَ الْمُرَادُ أَنِي وَ إِنْ اعْتَرَفْتُ حَالًا، وَ قُلْتُ «لَمْ أَخْنَهُ» لَكِنْ لَا أَنْزَهُ نَفْسِي عَنِ الْخِيَانَةِ، فَقَدْ خَنَتِ يَوْسُفَ فِي إِصْطِقِ التَّهْمَةِ بِهِ، وَ إِلقَائِهِ فِي السِّجْنِ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أَيِ كَثِيرَةٌ بِالسُّوءِ وَ الذَّنْبِ، فَإِنْ «أَمَّارَةٌ» صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي «مَا» إِمَّا مَوْصُولَةٌ، أَيِ إِلَّا النَّفْسَ الَّتِي رَحِمَهَا اللَّهُ، أَوْ وَقْتِيَّةٌ، أَيِ إِلَّا الْوَقْتَ الَّذِي رَحِمَ اللَّهُ، فَعَصَمَ النَّفْسَ عَنِ الذَّنْبِ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ لِسَالِفِ الذَّنُوبِ رَحِيمٌ يَرْحَمُ الْإِنْسَانَ فَيَأْخُذُ يَدَهُ عَنِ الزَّلَّةِ وَ السَّقُوطِ.

[٥٥] وَ إِذْ تَمَّتِ الْبِرَاءَةُ وَ ظَهَرَ أَمْرُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ طَهَارَةً وَ عِلْمًا قَالَ الْمَلِكُ اتَّبُونِي بِهِ أَيِ جِيئُوا إِلَيَّ بِيَوْسُفَ أَسْتَخْلِصُكُمْ أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِنَفْسِي فَيَكُونُ وَزِيرِي وَ مَشَاوِرِي، فَإِنْ الْاسْتِخْلَاصُ طَلَبُ خُلُوصِ الشَّيْءِ مِنْ شَائِبِ الْإِشْتِرَاكِ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ وَ أَخْرَجَ يَوْسُفَ مِنَ السِّجْنِ وَ لَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ كَلَّمَهُ فَعَرَفَ عَقْلَهُ وَ فَضْلَهُ وَ أَدْبَهُ حَتَّى صَارَ السَّمَاعَ عَيَانًا قَالَ الْمَلِكُ لَهُ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

(١) الأنفال: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٥]

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ (٥٥)

إنك عندنا ذو مكانة نافذ القول، مؤتمن.

[٥٦] قَالَ يوسف عليه السّلام للملك لما رأى مكانته عنده و منزلته لديه اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَي اجعلنى واليا على خزائنك المالىة و الطعامية و غيرها لأدير شؤونها إِنِّي حَفِيظٌ أَي حافظ ما تستودعنى عليه عَلِيمٌ بكيفية تدبيرها و إدارتها، قال الملك فما ترى فى رؤياى أيتها الصديق؟ فقال يوسف أرى أن تجمع الطعام و تزرع زرعاً كثيراً فى هذه السنين المخصبة و تبنى الأهواء و الخزائن و تجمع الطعام فيها بقصبه و سنبله ليكون قصبه و سنبله علفاً للدواب و تأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذى جمعه لأهل مصر و من حولها و يأتيك الخلق من النواحي و يجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك، فقال الملك و من لى بهذا و من يجمعه و يبيعه و يكفى الشغل فيه؟ فعند ذلك قال يوسف اجعلنى على خزائن الأرض.

و لما سلم الملك الأمر إلى يوسف أقبل عليه السّلام على العمل.

قال الإمام الرضا عليه السّلام: و أقبل يوسف على جمع الطعام فجمع فى السبع السنين المخصبة فوضعه فى الخزائن، فلما مضت تلك السنون و أقبلت السنون المجدبة أقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم فى السنة الأولى بالدرهم و الدنانير حتى لم يبق بمصر و ما حولها ديناراً و لا درهما إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الثانية بالحلى و الجواهر حتى لم يبق بمصر و ما حولها حلى و لا جوهر إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الثالثة بالدواب و المواشى حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبداً و لا أمة إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الرابعة بالدور و العقار حتى لم يبق بمصر و ما حولها إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الخامسة بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصر و ما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩

حولها نهراً و لا مزرعة حتى صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة السادسة برباقهم حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبداً و لا حراً إلا صار عبد يوسف فملك أحرارهم و عبيدهم و أموالهم، و قال الناس ما رأينا و ما سمعنا بملك أعطاه الله ما أعطى هذا الملك حكماً و علماً و تدبيراً، ثم قال يوسف للملك: أيتها الملك ما ترى فيما خولنى ربي من ملك مصر و أهلها أشر علينا برأيك؟ فانى لم أصلحهم لأفسدهم و لم أنجهم من البلاء لأكون وبالاً عليهم، و لكن الله سبحانه نجاهم على يدي، قال له الملك: الرأى رأيك، قال يوسف: أنى أشهد الله و أشهدك أيتها الملك أنى قد أعتقت أهل مصر كلهم و رددت عليهم أموالهم و عبيدهم و رددت عليك أيتها الملك خاتمك و سريرك و تاجك على أن لا تسير إلا بسيرتى و لا تحكم إلا بحكمى، قال له الملك: إن ذلك لشرفى و فخرى ألا أسير إلا بسيرتك و لا أحكم إلا بحكمك و لولاك ما قويت عليه و لا اهتديت له، و لقد جعلت سلطانى عزيزاً كما يرام و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك رسول الله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين، و من ظريف ما ينقل ما نقله على بن إبراهيم، بما ملخصه أن عزيز زوج زليخا مات فى تلك السنين المجدبة و افتقرت امرأة العزيز و احتاجت حتى سألت الناس فقالوا لها ما يضرك لو قعدت للعزيز؟

و كان يوسف يسمى العزيز و كل ملك كان لهم سموه بهذا الاسم، فقالت أستحي منه، فلم يزلوا بها حتى قعدت له، فأقبل يوسف فى موكبه، فقامت إليه زليخا و قالت سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً و العبيد بالطاعة ملوكاً، فقال لها يوسف أنت تيك؟ قالت: نعم، ثم أن يوسف عليه السّلام تزوجها و جعلها فى جملة أهله «١».

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)

[٥٧] وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِالنَّبُوَّةِ وَ سَائِرِ الْمَزَايَا، كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ أَى مَصْرَ يَتَّبِعُ مِنْهَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا وَ يَأْخُذُ الْمَحَلَّ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ فَقَدْ جَمَعْنَا لَهُ النَّبُوَّةَ وَ الْمَلِكُ وَ هَكَذَا كُلُّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَ خَرَجَ مِنَ الْإِمْتِحَانِ نَاجِحًا نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَكِنْ بَعْدَ الْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ لُغْوًا، وَ لَا يَمْنَحُ اعْتِبَاطًا وَ عِبَاثًا وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ فِي الْعَقِيدَةِ وَ الْعَمَلِ.

[٥٨] وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ ثَوَابُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقٌ لَا مَتَّيْهُ لَه، وَ لَيْسَ مَشُوبًا بِالْأَكْدَارِ وَ الْآلَامِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ بِأَنْ جَمَعُوا بَيْنَ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا- يَمْتَلِي شَبَعًا مِنَ الطَّعَامِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمَجْدُبَةِ، فَقِيلَ لَهُ تَجُوعٌ وَ يَبِيدُكَ خَزَائِنُ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ أَخَافُ أَنْ أَشْبِعَ فَأَنْسِيَ الْجِيَاعَ «١».

[٥٩] وَ لَمَّا تَمَكَّنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَ جَاءَ الْجَدْبُ فَأَصَابَ النَّاسَ الْقَحْطَ نَزَلَ بِآلِ يَعْقُوبَ مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ فَجَمَعَ يَعْقُوبَ بَنِيهِ وَ قَالَ لَهُمْ:

بَلِّغْنِي أَنَّهُ يَبَاعُ الطَّعَامَ بِمِصْرَ وَ أَنَّ صَاحِبَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ فَادْهَبُوا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد: ج ١١ ص ٢٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١

سَيَحْسِنُ إِلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَتَجَهَّزُوا وَ أَخَذُوا بَعْضَ الْبُضَائِعِ يَعْطُوهَا فِي مَقَابِلِ الْقَمْحِ وَ سَارَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ بَنِيَامِينَ أُخُوهُ يُوسُفَ حَتَّى وَرَدُوا مِصْرًا وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ «أَخُوهُ» جَمَعَ أُخُوهُ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ عَلَى يُوسُفَ، وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَوَلَّى الْبَيْعَ بِنَفْسِهِ «١»، وَ لِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ أَى عَرَفَ يُوسُفَ إِخْوَتَهُ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ يَنْكُرُونَ يُوسُفَ وَ لَا يَعْرِفُونَهُ لَمَّا مَرَّ مِنَ الزَّمَانِ وَ تَغَيَّرَتِ مَلَاحِجُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ مِنَ الصَّبَاوَةِ إِلَى الشَّبَابِ، فَقَدْ مَرَّ عَلَى فِرَاقِهِمْ لَهُ مَا يَقْرَبُ مِنْ خَمْسَةِ عَشْرَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ، بَلْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْفَاصِلَةُ كَانَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً «٢».

رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ يُوسُفَ قَالَ لِلْأَخُوَّةِ قَدْ بَلِّغْنِي أَنَّ لَكُمْ أُخُوَيْنَ مِنْ أَيْبِكُمْ فَمَا فَعَلْنَا؟ قَالُوا أَمَا الْكَبِيرُ مِنْهُمَا فَإِنَّ الذُّبَّ أَكَلَهُ وَ أَمَا الصَّغِيرُ فَخَلَفْنَاهُ عِنْدَ أَبِيهِ وَ هُوَ بِهِ ضَنِينٌ وَ عَلَيْهِ شَفِيقٌ قَالَ فَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِ مَعَكُمْ إِذَا جِئْتُمْ تَمْتَارُونَ «٣»، وَ قَالَ الْقَمِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَحْسَنُ يُوسُفَ لَهُمْ فِي الْكَيْلِ وَ قَالَ لَهُمْ مِنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ بَنُو يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ الَّذِي أَلْقَاهُ نَمْرُودُ فِي النَّارِ فَلَمْ يَحْتَرِقْ فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَ سَلَامًا، قَالَ: فَمَا فَعَلَ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا شَيْخٌ ضَعِيفٌ، قَالَ: فَلَكُمْ أَخٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: لَنَا أَخٌ مِنْ أَيْبِنَا لَا مِنْ أُمَّنَا قَالَ فَإِذَا رَجَعْتُمْ فَأْتُونِي بِهِ «٤».

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٤٦

(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٢٢

(٣) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٨٧

(٤) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٤٦

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٩ إلى ٦٢]

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِبَآخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ (٦٠) قَالُوا سِنْرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

[٦٠] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جهاز البيت متاعه و جهزت فلانا أى هيات أمتعه سفره، و منه جهاز المرأة، و المعنى أنه حمل لكل واحد منهم طعاما قال يوسف لهم ائتوني أى جيئوا إلى بآخ لكم من أبيكم بنيامين، فإنه لم يكن من أهمهم، و إنما أمه أم يوسف ألا ترون أنى أوفى الكيل أى لا- أبخس الناس شيئا فإذا جاء أحد للطعام أعطيته، فإذا جتمم كان طعامكم أكثر و أنا خير المنزليين بصيغته اسم الفاعل، أى خير المضيفين، فانى حسن الضيافة لكل وارد، حسن التجهيز لكل ممتار، ثم هددهم بأنهم إن لم يأتوا به فى المرة الثانية فإنه لا يعطيهم القمح و لا يضيفهم.

[٦١] فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ بأخيكم بنيامين فلا كيل لكم عندي لا أكيل لكم الطعام و لا تقربون بلادى، فإنه لا حظوة لكم عندي.

[٦٢] قَالُوا قَالَتِ الْأَخُوَّةُ فِي جَوَابِ يَوْسُفَ سِنْرَاوُدَ عَنْهُ أَي عَنْ بَنِيَامِينَ أَبَاهُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَي سَنَجْتَهْدُ فِي طَلْبِهِ مِنْ أَبِيهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ أَي نَفْعَلُ مَا أَمَرْنَا بِهِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْأَخِ.

[٦٣] وَقَالَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِتْيَانِهِ جَمَعَ فَتَى وَهُوَ الْعَبْدُ، وَ الْمَرَادُ هُنَا الَّذِينَ كَانُوا يَكِيلُونَ الطَّعَامَ لَهُمْ وَ الْأَعْوَانُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِشُؤْنِهِ وَ أَوَامِرِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ أَي اجْعَلُوا الثَّمَنَ الَّذِي جَاءُوا بِهِ لِأَجْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٣]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣)

شراء الطعام- و كان مقلا و نحوه- فى متاعهم و أثاثهم و أوعيتهم لعلهم يعرفونها يعرفون البضاعة المردودة إليهم، و إنما قال «لعل» لأن المعرفة غير لازمة فى مثل هذه الأمور فى البيوت الكبار فإن الحمل إذا جاء و دخل البيت لم يكن المكلف بفتحه الرجال الذين كانوا يعرفون الأشياء بل الخدم و النساء، و كثيرا ما لا يدرون هم ما ذهب به، مما جىء به، فيشتبه الأمر عليهم، إذا انقلبوا رجعا إلى أهلهم أبيهم و أقربائهم لعلهم يرجعون حيث رأوا الإكرام و الاحترام و إن بضاعتهم ردت إليهم، يرجعون مرة ثانية إلى مصر لشراء الطعام، و ربما قيل أن احتمال رجوعهم كان لأجل أن يردوا الثمن بظن اشتباه حاشية الملك، و أن يوسف علم أنه ليس لهم غير ذلك فإذا أخذه لم يكن لهم ثمن يرجعون به لشراء طعام جديد.

[٦٤] فَلَمَّا رَجَعُوا الْأَخُوَّةُ إِلَى أَبِيهِمْ وَ مَعَهُمُ الطَّعَامُ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ إِنْ لَمْ نَذْهَبْ وَ مَعَنَا آخِينَا بَنِيَامِينَ فَقَدْ قَالَ الْمَلِكُ: «فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» فالمراد تقرر منعه عنا- و منع بالفعل الماضى لإفادة أنه قرر أن يؤتى به فى المستقبل- كما يقول القائل: هل تفعل كذا؟ فيجيب المسؤول: صار، أى تقرر، و ذلك لأن المضارع المتحقق الوقوع ينزل بمنزلة الماضى، و من المحتمل أن يراد أن الملك منع منا إعطاء الكيل لأخينا بنيامين حيث لم يكن معنا، و لعل ذلك لأجل أن يوسف أعطاهم بعددهم و عدد من تخلف من أبيه و أهله كيلا، دون بنيامين، حرصا لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكُ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥)

يأتوا به فأرسل أيها الأب معنا أخانا في هذه المرة نكتل أي نأخذ الطعام بالكيل للجميع، يقال كلت فلانا، أي أعطيته الشيء كيلا، و اكتلت عليه أخذت منه الكيل، من باب الافتعال، وأصله نكتال حذف الألف، لأن الفعل وقع في جواب الأمر، فجزم، فالتقى الساكنان «الألف و اللام» فحذفت الألف وإنا له أي للأخ بنيامين لحافظون أن يصيبه الأذى فقد كان يعقوب شديد القلق به لا يتمكن من مفارقتها، و بعد فقد يوسف صارت محافظته له أشد حيث كان أخاه من الأبوين، و قد تقدم قول الأخوة «ليوسف و أخوه أحب إلى أينا منا» [٦٥] قال يعقوب عليه السلام في جواب الأخوة هل آمنكم عليه استفهام إنكارى أى لا آمنكم عليه فليستم أنتم موضع الأمن و الثقة إلا كما أمئتكم على أخيه يوسف عليه السلام من قبل و قد قلت في يوسف إنا له لحافظون ثم لم تفوا بضمانكم، و المعنى ليس آمن على بنيامين إلا كأمنى على يوسف- من قبل- فالله خير حافظاً من حفظكم فإذا سلمته إليكم توكلت عليه فى الحفظ لا عليكم و هو أرحم الراحمين يرحم ضعفى و شيخوختى فلا ينالنى مكروه من جهة فقد بنيامين بسبب رحمته و فضله.

[٦٦] و قد كان هذا الحوار بين الأخوة و بين يعقوب قبل أن يفتحوا المتاع و لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ أوعىء الطعام التى ملؤها فى مصر وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٦]

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

التى ذهبوا بها ثمننا للطعام رُدَّتْ إِلَيْهِمْ لما تقدم من أن يوسف قال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم، قالوا يا أبانا ما نَبْغِي ماذا نطلب أكثر من هذا أكرمنا و أعطانا الطعام و لم يأخذ منا الثمن هذه بضاعتنا التى ذهبنا بها رُدَّتْ إِلَيْنَا ردها الملك فلم يأخذها، فأرسل معنا أخانا إلى الملك لنأخذ منه الطعام و نَمِيرُ أَهْلَنَا أى نجلب إليهم الميرة، و هى الطعام الذى يجلب من بلد إلى بلد، يقال مارهم إذا جلب إليهم الطعام و نَحْفَظُ أَخَانَا بنيامين فى السفر لئلا يصيبه أذى و نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ نأخذ من الملك كيل بعير زائدا، لحصه أخينا، فقد كان يكال لكل رجل حمل بعير ذلك الكيل الزائد كَيْلَ يَسِيرٍ عند الملك لمن ذهب إليه.

[٦٧] و قد أثر كلام الأخوة، و ما رأى من إكرام الملك برد البضاعة، و استسلم لإرسال بنيامين، لكنه اشترط عليهم قال لَنْ أُرْسِلَهُ أى قال يعقوب: لن أرسل بنيامين مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ما يوثق به من عهد أو يمين من طرف الله سبحانه، بذكره عن اسمه فى العهد- كأن يقولوا نعاهد الله- فيكونوا فى حرج من جهته سبحانه، كما أنهم فى حرج من جهة عهدهم لَتَأْتِنَنِي بِهِ أى تردون إلى الابن، و لا تغدروا به إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ أى إلا أن تغلبوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٧]

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)

فلا- يكون الأمر تحت اختياركم، كأن يحيط البلاء بهم فلا يتمكنوا من الفرار منه و لا مسلك لهم لإنقاذ بنيامين، يقال أحاط به البلاء فهو محاط به، فَلَمَّا آتَوْهُ أعطى الأخوة، لأبيهم مَوْثِقَهُمْ عهدهم المؤكد قال يعقوب تأكيداً الله على ما نقول و كَيْلُ أى شاهد حافظ إن أخلفتم و خنتم انتصف لى منكم.

[٦٨] و لكن الأب الرؤوف خاف على أولاده من العين فقد كانوا جماعة أبطالا حسنى المنظر و الجمال، و جميعا أولاد رجل واحد

فإذا رآهم الرائي ملؤوا قلبه وعينه، ولذا وصاهم بالتفرق عند دخول المدينة وَقَالَ يَا بَنِيَّ أَصْلِهِ بَنُونِي وَهُوَ جَمْعُ ابْنٍ مُضَافًا إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، لَكِنَّ نَوْنَ الْجَمْعِ حُذِفَ بِالْإِضَافَةِ - عَلَى الْقَاعِدَةِ - وَالْوَاوُ أُدْغِمَ فِي يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ. كَمَا نَقَلْتُمْ ضَمَّةَ النَّوْنِ إِلَى الْبَاءِ لَا تَدْخُلُوا مِصْرَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ حَتَّى تَصِيبَكُمُ الْعَيْنُ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ فَقَدْ كَانَتِ الْمَدِينُ - سَابِقًا - ذَاتَ أَسْوَارٍ وَأَبْوَابٍ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أَى مَا أَدْفَعُ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ كَانَ قَدْ قَضَى عَلَيْكُمْ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ، يُقَالُ: أُغْنَى عَنْهُ، إِذَا دَفَعَ عَنْهُ، وَأَصْلُهُ الْكِفَايَةُ، كَأَنَّ الشَّخْصَ يَكْفِيهِ عَنِ أَمْرِ يَدُهُمْ، وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ يَعْقُوبُ عَلَى وَجْهِ التَّسْلِيمِ لَهُ سَبْحَانَهُ مِنْهَا أَنْ أَمْرِي إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ الطَّوَارِي، أَمَا إِذَا كَانَ شَيْءٌ حَتْمًا فَلَا - دَافِعٌ لَهُ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَى لَيْسَ الْحُكْمُ فِي الْأُمُورِ - الَّتِي مِنْهَا إِصَابَتُكُمْ بِالْعَيْنِ أَوْ عَدَمُ إِصَابَتِكُمْ - إِلَّا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٨]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فِي أَنْ يَرِدَ عَنْكُمْ عَيْنَ الْحَسَادِ وَيَرْجِعَكُمْ إِلَى سَالِمِينَ.

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أَى الْمُرِيدُونَ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى أَحَدٍ، عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَيَفُوضُوا أُمُورَهُمْ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا إِلَى غَيْرِهِ وَ هَذَا لَا يَنَافِي الْأَخْذَ بِالْحَزْمِ حَسَبِ الْمَوَازِينِ الَّتِي قَرَّرَهَا سَبْحَانَهُ فِي الْكُونَ.

[٦٩] وَقَدْ أَجَازَ الْأَبُ اسْتِصْحَابَ بَنِيَامِينَ لَهُمْ، فَشَدُّوا أَمْتَعَتَهُمْ وَ خَرَجُوا جَمِيعًا مِنَ الْمَدِينَةِ قَاصِدِينَ مِصْرَ لِمَرَّةٍ ثَانِيَةً وَ لَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أَى مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ كَمَا وَصَّاهُمْ يَعْقُوبُ مَا كَانَ دَخْلُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ وَ الْمَعْنَى أَنْ أَمْرَ الْأَبِ لَمْ يَفِدْ شَيْئًا وَ إِنَّمَا كَانَ مُطْلَبًا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ. يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قِضَاءَهُ وَ قَدْرَهُ، أَى لَمْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَرَادَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَبْقَى أَحَدُهُمْ - وَ هُوَ بَنِيَامِينَ - فِي مِصْرَ، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ أَنْ يَرْجِعُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا أَى قِضَى تِلْكَ الْحَاجَةَ بِأَمْرِهِمُ الدَّخُولِ مُتَفَرِّقِينَ فَأَظْهَرَهُ، أَمَا التَّقْدِيرُ فَقَدْ عَمِلَ عَمَلَهُ، إِذْ نَسَبُوا إِلَى السَّرْقَةِ، وَ أَخَذَ الْمَلِكُ بَنِيَامِينَ وَ إِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ أَى إِنْ يَعْقُوبُ ذُو يَقِينٍ وَ مَعْرِفَةٌ بِاللَّهِ لِمَا عَلَّمْنَاهُ أَى لِأَجْلِ تَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ وَ لِذَلِكَ قَالَ: وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنْ الْقَدْرُ هُوَ الْحَاكِمُ وَ أَنَّهُ لَا يَغْنَى الْحَذْرُ إِذَا قَدَرَ شَيْءٌ فَيُظَنُّونَ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ الْإِنْسَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٩]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)

وَ إِنَّهُ مَهْمَا فَعَلَ وَ الْحَالُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَ خَلَقَ أَسْبَابًا كُونِيَّةً، وَ جَعَلَ بَعْضَهَا تَحْتَ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ، وَ رُبَّمَا اقْتَضَتْ مَصْلَحَتَهُ أَنْ لَا - يَمَكَّنَ الْإِنْسَانَ - مِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ - إِمَّا بِتَعْجِيزِ الْإِنْسَانَ، وَ إِمَّا بِجَعْلِ مَوَانِعَ فِي تِلْكَ الْأَسْبَابِ، فَلِلْإِنْسَانِ قُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَ لِلْقَدْرِ مَنْفَذَانِ لَصِدِّ هَذِهِ الْقُدْرَةِ، فَمَثَلًا إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ جَعَلَ زَرْعَ الْأَرْضِ تَحْتَ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ، لَكِنَّهُ رُبَّمَا لَا يَشَاءُ ذَلِكَ فَيَعْجِزُ الْإِنْسَانَ عَنِ الزَّرْعِ بِمَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ نَحْوِهِمَا، أَوْ يَخْلُقُ رِيحًا سَامِيَةً، أَوْ مَطْرًا مُؤْذِيًا، أَوْ سَوْسَا آكِلًا، فَلَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَنْفِيزِ قُدْرَتِهِ، وَ لِذَا يَجِبُ التَّوَكُّلُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ، فَمَنْ رَأَى كُلَّ الْأُمُورِ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ حَتَّى عَمِلَ الْعَبْدُ، فَهُوَ جَبْرِي فَاسِدَ الْعَقِيدَةِ، وَ مَنْ رَأَى كُلَّ الْأُمُورِ مَفُوضَةً إِلَى الْإِنْسَانِ فَهُوَ مَنْحَرِفُ الْإِعْتِقَادِ، بَلْ لَا - جَبْرٌ وَ لَا - تَفْوِيزٌ وَ إِنَّمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ... أَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ وَ لَوْ لَمْ يَكُونُوا بِمَفُوضَةٍ لَكِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْأُمُورَ تَحْتَ إِرَادَتِهِمْ وَ اخْتِيَارِهِمْ، وَ يَنْصَرِفُونَ عَنِ التَّوَكُّلِ، وَ لِذَا يَتَعْجَبُونَ فِيمَا إِذَا حَالَ دُونَ إِرَادَتِهِمْ حَائِلٌ، وَ مِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَتَوَكَّلَ الْإِنْسَانُ فِي أُمُورِهِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، حَتَّى يَتَفَضَّلَ اللَّهُ بَعْدَمُ إِيجَادِ الْحَائِلِ، وَ إِقْدَارِ الْعَبْدِ عَلَى مَا أَرَادَهُ.

[٧٠] وَلَمَّا دَخَلُوا أَى دَخَلَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ فِي مَحَلِّهِ الْمَعْدَ لَهُمْ وَكَانَ يُوسُفَ حِينَئِذٍكَ حَاضِرًا أَوَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ أَوَى، يُقَالُ أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ إِذَا صَارَ إِلَيْهِ، وَ مِنْهُ الْإِيْوَاءُ بِمَعْنَى إِعْطَاءِ الْمَكَانِ إِلَيْهِ أَى إِلَى نَفْسِهِ أَخَاهُ بَنِيَامِينَ فَأَنْزَلَهُ مَعَهُ وَ ضَمَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يُوسُفَ الَّذِي أَلْفَوْهُ الْأَخُوَّةَ فِي الْجَبِّ قَبْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٠]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠)

سنوات و قالوا أنه أكله الذئب فلا تبتئس من الابتئاس بمعنى اجتلاب الغم و الحزن و البؤس، أَى لا تحزن بما كانوا أَى كانت الأخوة يَعْمَلُونَ سابقا من الازدراء بك و بأخيك، و من الحسد عليكما.

روى عن الصادق عليه السَّلَام أنه قال: كان يوسف قد هيا لهم طعاما فلما دخلوا عليه قال: ليجلس كل ابن أم على مائدة واحدة، فجلسوا و بقى بنيامين قائما، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال له: إنك قلت ليجلس كل ابن أم على مائدة و ليس لى فيهم ابن أم، فقال: أما كان لك ابن أم؟ قال بنيامين: بلى قال: يوسف فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أن الذئب أكله قال: فما بلغ من حزنك عليه قال: ولد لى أحد عشر ابنا كلهم اشتقت له اسما من اسمه فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء و شممت الولد من بعده قال بنيامين: إن لى أبا صالحا و إنه قال: تزوج لعل الله أن يخرج منك ذرية تثقل الأرض بالترسيح، فقال له: تعال فاجلس معى على مائدتى، فقال أخوة يوسف: لقد فضل الله يوسف و أخاه حتى أن الملك قد أجلسه معه على مائدته، و ورد أن يوسف بعد ما عرّف نفسه لأخيه قال له: أنا أحب أن تكون عندى فقال: لا يدعوننى إختوى فإن أبى قد أخذ عليهم عهدا لله و ميثاقه أن يردونى إليه فقال يوسف: أرى طريقه لبقائك، فلا تنكر إذا رأيت شيئا، فقال بنيامين: لا «١».

[٧١] فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ أَى جَهَّزَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَخُوَّةَ بِجَهَّازِهِمْ بِأَن مَلَأَ

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ١٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠

أوعيتهم بالطعام، و جعل لكل واحد منهم حمل بعير، أمر بعض غلمانة حتى جَعَلَ السَّقَايَةَ أَى الصَّاعَ الَّذِي كَانَ يَكَالُ بِهِ، وَ أَصْلُ السَّقَايَةَ اسْمٌ لِلْإِنَاءِ الَّذِي يُسْقَى بِهِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ أَى فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ، وَ إِنَّمَا أَضَافَ سَبْحَانَهُ «جَعَلَ السَّقَايَةَ» إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ كَانَ هُوَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ الْأَذَانَ هُوَ الْإِعْلَامُ، أَى أَعْلَمَ قَائِلًا أَيَّتُهَا الْعِيرُ أَى الْقَافِلَةَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَدْ سَرَقْتُمْ سَقَايَةَ الْمَلِكِ، أَقُولُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ يُوسُفَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِهَذَا النَّدَاءِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِدَسِ الصَّاعِ فِي رَحْلِ بَنِيَامِينَ وَ كَانَ أَمْرُهُ هَذَا خَفِيَّةً حَتَّى لَا يَظْهَرُ أَحَدٌ عَلَيْهِ، وَ مِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ يَتَفَحَّصُ الْحَاشِيَّةَ عَنِ الْمَفْقُودِ وَ يَتَهَمُوا بَعْضَ النَّاسِ بِالسَّرْقَةِ، وَ لَمْ يَكُنِ الْإِتْهَامُ مِنْكَرًا يَعْلَمُ الْفَاعِلُ بِكَوْنِهِ مِنْكَرًا، حَتَّى يَجِبَ النَّهْيُ عَنْهُ، فَيُقَالُ: كَيْفَ لَمْ يَنْهَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمَنْكَرِ؟ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمَنْكَرِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ عِلْمِ الْفَاعِلِ بِكَوْنِهِ مِنْكَرًا، أَمَا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَاجِبٍ، نَعَمْ يَجِبُ فِي الْأَحْكَامِ مِنْ بَابِ إِرْشَادِ الْجَاهِلِ، وَ لَيْسَ الْإِتْهَامُ حَكْمًا وَ إِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ، وَ هُنَاكَ سُؤَالٌ أَنَّهُ كَيْفَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَدْخُلُ فِيهِ الْغَمُّ وَ الْحُزْنُ عَلَى جَمَاعَةٍ؟ وَ الْجَوَابُ أَنَّ الْإِيْدَاءَ لَا يَجُوزُ أَمَا إِذَا صَنَعَ الْإِنْسَانُ صَنْعًا مَبَاحًا يَتَأَذَى بِهِ الْغَيْرُ فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ بَيْنِ دَارَا وَسِعَةٍ، أَوْ يُؤَلَّفُ مَوْلَا جَيِّدًا، أَوْ يَتَوَلَّى مَنْصَبًا مَرْمُوقًا، يَكْثُرُ حَسَادُهُ وَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْغَمُّ حَتَّى أَنْ بَعْضَهُمْ لَا يَنَامُ اللَّيَالِي وَ لَا يَسْتَقِرُّ الْأَيَّامُ وَ مَعَ ذَلِكَ فَهُوَ جَائِزٌ بَلْ قَدْ يَسْتَحِبُّ أَوْ يَجِبُ، وَ قَدْ كَانَ حَفِظَ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ لَدَيْهِ جَائِزًا، وَ رَبَّمَا يُقَالُ: فَمَا كَانَتْ الْمَصْلِحَةُ فِي أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧١ إلى ٧٢]

قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

لا يبدى يوسف نفسه لهم حتى لا يحتاج إلى تدبير هذه العملية؟

و الجواب أنه لعل الله سبحانه أراد بذلك تخفيف ذنب الأخوة، بالهول و الخجل الذى دخل عليهم، أما الأب فقد كان حزنه رفع درجته- إن لم نقل أنه بسبب ترك الأولى الذى صدر منه فى قصة عدم إطعام الفقير، كما فى التفسير.

[٧٢] قَالُوا أَى قَالَ أَصْحَابُ الْعِيرِ، وَ هُم أَخُوهُ يَوْسُفَ، وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ أَمْ لَا وَ اقْبَلُوا عَلَيْهِمْ أَى عَلَى أَصْحَابِ يَوْسُفَ، وَ كَانَ «اقْبَلْ» عَدَى ب «عَلَى» لِإِشْرَابِهِ مَعْنَى التَّوَجُّهِ وَ الْإِقْبَالَ، كَأَنَّهُ قَالَ: اقْبَلُوا عَلَيْهِمْ كَلَامَهُمْ قَائِلِينَ مَاذَا تَفْقَدُونَ أَى مَا الَّذِى فَتَقَدْتُمُوهُ مِنْ مَتَاعِكُمْ يَا حَاشِيَةَ الْمَلِكِ.

و قد كان أخوة يوسف عليه السّلام واثقين من أنفسهم أنهم لم يسرقوا شيئاً فلما ذا يخافون؟ و لذا قالوا بكل جرأة: «ماذا تفقدون»؟ و استعدوا لإعطاء الجزاء- كما يأتى- إن كانوا هم السارقين.

[٧٣] قَالُوا أَى قَالَ أَصْحَابُ يَوْسُفَ نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ فَتَقَدْتُمْ، وَ لَذَا يُقَالُ: مَفْقُودٌ، وَ الصُّوعُ اسْمُ مَفْرَدٍ بِمَعْنَى الْكَيْلِ، أَى نَفَقْدُ كَيْلِ الْمَلِكِ الَّذِى بِهِ يَكَالُ الطَّعَامَ، ثُمَّ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ الْمَلِكِ وَعَدَ الَّذِى يَأْتِى بِهِ جَائِزَةً قَائِلًا وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ أَى بِالصُّوعِ حِمْلُ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ أَى أَنَا كَفِيلٌ ضَامِنٌ بِالْوَفَاءِ وَ لَيْسَ ذَلِكَ خُدَاعًا نَرِيدُ بِهِ أَنْ يَظْهَرَ الصَّاعُ فَيَعَاقِبُ الْآتِىَ بِهِ عَوْضَ أَنْ نَجِيزَهُ- كَمَا جَرَتْ عَادَةُ الْمُلُوكِ الطَّغَاةِ-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٣ الى ٧٥]

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)

[٧٤] قَالُوا أَى أَخُوهُ يَوْسُفَ تَاللَّهِ نَحْلَفُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمَ، وَ هَذِهِ جَمَلُهُ مُعْتَرِضُهُ، وَ إِنَّمَا مُتَعَلِّقُ الْحَلْفِ قَوْلُهُ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ أَى لِلْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ فِى يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، خَصَّصُوا السَّرْقَةَ بَعْدَ تَعْمِيمِ نَفْيِ الْفَسَادِ لِأَنَّهُ كَانَ مَوْضِعَ التَّوْهَمِ، وَ قَوْلُهُ: «لقد علمتم» أى أنه، ظهر لكم من حسن سيرتنا و كوننا أصحاب حسب و نسب إن مثل هذا العمل لا يصدر منا.

[٧٥] قَالُوا أَى قَالَ غُلْمَانُ يَوْسُفَ وَ حَاشِيَتُهُ فَمَا جَزَاؤُهُ أَى جَزَاءُ السَّرْقَةِ، أَوْ جَزَاءُ السَّارِقِ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ بَأَنَّ ظَهَرَ الصُّوعِ فِى حِمْلِكُمْ؟ وَ إِنَّمَا سَأَلُوا عَنْهُمْ، لِأَنَّ شَرِيْعَهُ يَعْتَقِبُ كَانَتْ تَحْكُمُ بِأَخْذِ السَّارِقِ وَ اسْتِرْقَاقِهِ، أَوْ حَبْسِهِ، عِنْدَ الْمَسْرُوقِ مِنْهُ، وَ ذَلِكَ بِخِلَافِ دِينِ مَلِكِ مِصْرَ، فَتَقَدَّ كَانَتْ لِلْسَّرْقَةِ عِنْدَهُ جَزَاءٌ خَاصًا، فَأَرَادَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ يَحْكُمُونَ حَسَبَ الشَّرِيْعَةِ لِتَسْنِي لَه إِبْقَاءُ الْأَخِ عِنْدَهُ، أَمَا لَوْ جُوزَى حَسَبَ دِينِ الْمَلِكِ، فَتَقَدَّ كَانَ يُعْطَى الْجَزَاءَ وَ يَنْصَرَفُ إِلَى أَبِيهِ.

[٧٦] قَالُوا أَى قَالَتْ أَخُوهُ يَوْسُفَ جَزَاؤُهُ أَى جَزَاءُ السَّارِقِ مَنْ وَجَدَ الْمَسْرُوقَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ أَى أَنَّ السَّارِقَ بِنَفْسِهِ جَزَاءُ السَّرْقَةِ، يَبْقَى مَحْبُوسًا، أَوْ مُسْتَرْقًا، عِنْدَ الْمَسْرُوقِ مِنْهُ كَذَلِكَ الَّذِى ذَكَرْنَا نَجْزِي الظَّالِمِينَ بِالسَّرْقَةِ، لِأَنَّ السَّرْقَةَ نَوْعٌ مِنَ الظُّلْمِ، وَ لَمَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٦]

فَيَدَأُ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَحْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَزِقَ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

تبانى الطرفان على أنه إن وجد الصواع فى رحل أحد منهم يبقى عند الملك، أمر يوسف عليه السلام بتفتيش الرحال.

[٧٧] فَيَدَأُ أَى ابْتَدَأَ يَوْسُفَ، أَوْ بَعْضَ حَاشِيَتِهِ بِأَوْعِيَّتِهِمْ أَوْعِيَةُ الْأَخُوَّةِ الَّتِى كَانَتْ مَلِيئَةً مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ بِنِيَامِينَ، وَ إِنَّمَا فَعَلَ لِإِزَالَةِ التَّهْمَةِ، وَ لَثَلَا يَقُولُوا، أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ مَدْبُرًا ثُمَّ اسْتَحْرَجَهَا أَى السَّقَايَةَ مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ بِنِيَامِينَ، فِى الْمَجْمَعِ: فَأَقْبَلُوا عَلَى بِنِيَامِينَ وَ قَالُوا

له: فضحتنا و سؤدت وجوهنا متى أخذت هذا الصاع؟ فقال:

وضع هذا الصاع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم- يريد، في المرة الأولى حيث وجدوا بضاعتهم ردت إليهم- كذلك أى كذلك الذى ذكرنا كدنا ليوسف الكيد هو التدبير الدقيق الخفى على الناس، كما قال سبحانه: (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) «١»، و معنى كيد الله ليوسف، إلهامه سبحانه إياه بهذا التدبير الذى يسبب إبقاء أخيه عنده، و قد تقدم أن ذلك لعله كان لأجل تخفيف ذنب الأخوة، بالهول و الفزع الذى لحقهم من هذا العار، ثم بين سبحانه وجه التدبير بقوله ما كان ليوسف لأن يأخذ أخاه فى دين الملك أى فى دين ملك مصر، فإن طريقتهم كانت على مجازاة السارق لا أخذه بنفسه جزاء سرقة، فقد دبر له سبحانه أن يقول للأخوة «ما جزاؤه إن كنتم

(١) الأعراف: ١٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٧]

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)

كاذبين» ليقولوا هم جزاؤه المسبب لبقائه عند الملك إلا أن يشاء الله استثناء منقطع، فيدبر هذا التدبير لأخذه، و قد تقدم فى بعض المباحث السابقة، إن الاستثناء إنما يؤتى به كثيرا فى الكلام، لغرض المتكلم أن صلب الموضوع هو الأصل، و إنما القيد السابق على الاستثناء كلام خارجي، فكان الكلام فى المقام هكذا: «ما كان ليأخذ أخاه» «إلا أن يشاء الله» «فإن دين الملك لم يكن يسمح بذلك» نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ كما رفعنا درجة يوسف بالنبوة و العلم و التدبير و فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ فَلِمَ يَكُنْ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمُ الموجودات، بل كل عالم فوّه أعلم منه، حتى يصل الأمر إلى العالم لجميع الأمور و هو سبحانه و كأنه لثلاثا يتوهم أن قوله «نرفع» أنه عليه السلام بلغ آخر مرتبة العلم، حتى أنه حوى كل شىء.

[٧٨] و لما رأى الأخوة أن الصواع خرج من رحل بنيامين، أرادوا أن يبرءوا ساحه أنفسهم، ميين أن السرقة إنما اقترفها هذا الأخ، لعرق لحقه من أمه، و إلا- فيعقوب أجل من أن يسرق ابنه، و استشهدوا لذلك بأن أخا لبنيامين- يقصدون يوسف- قد سرق سابقا أيضا، فهذان الأخوان اللذان من أم واحدة تعاطيا هذه السيئة قالوا أى قالت الأخوة، ليوسف إن يسرق الآن، بنيامين فقد سرق أخ له من أمه من قبل يعنون اتهام يوسف بالسرقة.

روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: كانت لإسحاق النبي عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥

منطقه يتوارثها الأنبياء و الأكابر و كانت عند عمه يوسف، و كان يوسف عندها، و كانت تحبه، فبعث إليها أبوه أن ابغثه إلى و أردّه إليك، فبعثت إليه: أن دعه عندى الليلة أشمه ثم أرسله إليك غدوة، فلما أصبحت أخذت- أى العمه- المنطقه فربطتها فى حقوه «١» و ألبسته قميصا و بعثت به إليه، و قالت «٢»: سرقت المنطقه فوجدت عليه، و كان إذا سرق أحد فى ذلك الزمان، دفع به إلى صاحب السرقة، فأخذته، فكان عندها.

أقول: فإنهم أشاروا إلى هذه السرقة، و لم يكن يوسف عليه السلام سرق شيئا و إنما بهت بها، كما أن بنيامين لم يكن سرق شيئا، و إنما ألصقت به، و لما قالت الأخوة «فقد سرق أخ له» «٣» فأسرها أى أخفى تلك القصة يوسف فى نفسه و لم يبديها لهم أى لم يظهرها لهم، فقد عرف أنهم إنما أخذوا الأمر على ظاهره، و يحتمل أن يكون ضمير «أسرها» للشأن، أى أسر قوله الذى يأتى و هو «أنتم شرر مكانا» نحو «قل هو الله أحد» قال إما بلفظه أو فى نفسه- و ظاهر السياق يعطى الأول، و المناسب لأدب يوسف عليه السلام الثانى، و كثيرا ما يستعمل قال فى النية و شبهها- أنتم شرر مكانا أى من حيث المكانة و المنزل، فإن السارق له منزله و مكانة سيئة، و

إنما كانوا شرا مكانا، لأنهم حسدوه و ألقوه في الجب، أما سرقة الأخ و بنيامين فقد كانت

(١) الحقوة موضع شد الإزار، و هي الخاصة.

(٢) الظاهر أن قولها بعد أن ذهب يوسف إلى دار أبيه.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)

ظاهريه لا واقع لها، «شر» هنا مجرد عن معنى التفضيل، فلم يكن يوسف و أخوه صاحبي شر، كما قال سبحانه (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا) «١» مع أنه لا خير في أصحاب النار و الله أعلم بما تصفون به يوسف من السرقة، فإنه عالم أنه لم يسرق.

[٧٩] و لما رأى الأخوة أن يوسف عليه السلام مصمم على إبقاء بنيامين عنده و قد أعطوا أباهم موثقا أن يرجعوه، جاءوا إليه من باب الرجاء و الالتماس قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ و قد كان الملك، أو كبير الوزراء، يسمى عزيزا في عرف أهل مصر إِنَّ لَهُ أى لهذا الأخ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا يستحق العطف، و لعل المراد بالشيخ العظيم المنزلة، حتى يكون «كبيراً» تأسيسا لا تأكيدا، فإن الشيخ يستعمل في كثير المال، و كثير العمر، و كثير السن، و كثير المنزلة، و كثير الأولاد- على ما قالوا- فَخُذْ أَيُّهَا الْعَزِيزُ أَحَدَنَا أى أحد العشرة مكانه أى عوض بنيامين، فقد أخذ علينا أبونا العهود و المواثيق على أن نرجعه إليه، فلا يمكننا أن نذهب بدوننا إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلى الناس و إلينا، و نحن نأمل هذا منك لإحسانك، فإن المحسن مأمول.

[٨٠] قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ مَعَاذَ اللَّهِ «معاذ» مصدر ميمي من عاذ يعوذ، أى استجار و التجأ، و هو منصوب بالمصدر، أى أعوذ بالله

(١) الفرقان: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٠]

فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)

إعادة، و هذه كلمة يقولها من يريد بيان أنه لا يفعل شيئا قبيحا، كأنه يستجير بالله أن يحفظه من ذلك العمل- و إن كان معناها أعم لغة- أن نأخذ أحدا منكم إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا أى الصواع عنده و هو بنيامين، و كيف نأخذ إنسانا بريئا، و من المعلوم أن بنيامين كان راضيا ببقائه، حيث يعرف الحقيقة، أما أخ آخر فلم يكن راضيا فكان إبقائه جبرا- و لو كان راضيا حسب الظاهر- غير جائز و قد قالوا: أن المناط يدور على الواقع لا على العلم، فلو أعطى عمرو زيدا شيئا بظن أنه خالد، و لم يك راضيا إعطائه زيدا، و عرف زيد ذلك لم يجر له أخذه إِنَّا إِذًا أى وقت أخذنا غير بنيامين لَظَالِمُونَ إذ ظلمنا شخصا بدون رضاه الواقعي.

[٨١] فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ اسْتِئْأَسَ بمعنى يسئ، أى يسئ أخوة يوسف من الملك أن يجيبهم إلى ما سألوهم من أخذ أحدهم مكان بنيامين خَلَصُوا نَجِيًّا أى تنحوا عن الناس في معزل لئلا يسمع الناس بمشورتهم، و أخذ بعضهم يتناجى مع الآخر في وجوه الرأي كيف يصنعون، و النجى مما يتساوى فيه المفرد و الجمع، قال سبحانه (وَ قَوْمَنَا نَجِيًّا) «١» و ذلك لأنه مصدر، فهو نحو جنب، تقول زيد

جنب، و القوم جنب، و المناجاة: المسارة و الاختفاء فى الكلام، و قد تقدم حديث يدل على أن هذه الجملة من الفصاحة و البلاغة بمكان قال كبيرهم أى كبير الأخوة و هو يهودا كما عن الإمام الصادق

(١) مريم: ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٨١]

ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)

ألم تعلموا أيها الأخوة أن أبائكم يعقوب قد أخذ عليكم مؤثقا من الله أى أخذ منكم عهدا تحلفون بالله سبحانه أن لا ترجعوا إلا مع بنيامين، فكيف ترجعون بدونه؟ حيث قال لن أرسله معكم حتى تأتون مؤثقا من الله لتأتنى به و من قبل ما فرطتم فى يوسف لعله عطف على «أباكم» أى ألم تعلموا أخذ أبيكم الموثق، و تفريطكم فى يوسف من قبل، ف «ما» مصدرية، و المحل نصب ... فهما سببان يحدو إن على أن لا ترجع بدون بنيامين فلن أبرح الأرض أى لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى الرجوع إليه، و البراح من هذه الأرض أو يحكم الله لى بالخروج بما يكون عذرا لى، أو أموت، أو أخلص أخى و هو خير الحاكمين إذ لا يحكم إلا بالعدل و الحق، و بقى الأخ الأكبر هناك فى مصر.

[٨٢] و قال الأخ الأكبر لباقي الأخوة ارجعوا إلى أبيكم و إلى بلادكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سارق صواع الملك و ما شهدنا عندك بهذه الشهادة ظنا أو تخمينا إلا بما علمنا حيث رأينا أن الصواع خرج من رحله و ما كنا للغيب حافظين أى إنا لم نعلم الغيب حيث قلنا بعث بنيامين معنا، فلم ندر أنه يسرق و يحفظه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

وَ سَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

الملك، أو لا ندرى أنه سرق أو دس الصاع فى رحله، فذلك كان غائبا عن حواسنا.

[٨٣] ثم أرادوا إثبات أن الابن سرق، و أنهم لم يقصروا فى حفظهم، حتى لا يظن الأب بهم سوءا فقالوا لأبيهم و سئل أيها الأب القرية أى أهل القرية، و ذلك من المجاز حيث نسب ما للحال إلى المحل، فاعلا كان نحو «جرى النهر»، و قد جرى ماء النهر، أم مفعولا، نحو «و سئل القرية» أى أهل القرية أم غيرهما التى كُنا فيها أى أرسل إلى مصر التى كُنا فيها، و أسأل أهلها عن الحادث، و العرب تسمى المدينة قرية، و لذا تسمى مكة أم القرى، و قال سبحانه (و ما كان ربك ليهلك القرى «١» إلى غير ذلك، و لعل المراد أسأل أهل القرية- لا أن يرسل إلى مصر- و قد كان فى القافلة بعض أهل مصر و أسأل أهل العير أى القافلة التى أقبلنا إلى بلدنا فيها أى فى تلك العير، فإن كان المراد من «القرية» المعنى الثانى، كان المراد من العير غيرهم، أى أسأل أهل مصر الذين فى القافلة و أهل غير مصر من سائر من فى القافلة و إنا لصادقون فيما أخبرناك به.

[٨٤] رجع الأولاد إلى أبيهم، و قد خلفوا وراءهم عند الملك أكبرهم و بنيامين، و قصوا عليه القصة بطولها، لكن يعقوب عليه السلام أساء بهم الظن، و حق له أن يسىء، لما سبق من عملهم مع يوسف، و لما علم

(١) هود: ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠

من أنهم يكرهون بنيامين، ألم يقولوا قبل أيام «لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ»؟ أما الشواهد فلم تكن كافية، إذ من المحتمل أنهم هم الذين دسوا الصاع في رحل بنيامين ليسبوا له هذه المشكلة، وقد قرروا هم أن من وجد الصاع في رحله فهو جزاؤه، أما بقاء أكبر الأخوة، فذلك ليس بأعظم من عملهم قبل مدة إذ «جاؤا أباهم عشاءً يبكون» فقد قدروا بقاء الأخ هناك لرفع هذه المكيدة عنهم، وأهل المدينة والعير قد رأوا إبقاء الملك لبنيامين، لكن لعلم علموا أن ذلك لم يكن بكيد منهم، ولذا شك يعقوب بهم وأساء الظن في قصتهم ف قال عليه السّلام بَلْ سَوَّلَتْ أَى زِينت و سهلت لكم أنفُسِكُمْ أمراً فلنسلم أنه سرق، ولكن من علم الملك، باتخاذ إجراء عقوبة السارق في مدينتنا، على السارق في مدينتهم، مع أن حكمهم يختلف عن حكمنا، وليس ذلك إلا الجزاء، لا البقاء أستم أنتم قلم له ذلك؟ وقد كان يعقوب عليه السلام صادقا في ذلك إذ هم الذين قرروا هذا الجزاء أما أن يعقوب عليه السّلام كيف لم يعرف صدقهم؟ فالجواب أن الأنبياء لا يعلمون إلا ما يريد الله سبحانه من الغيب، كما قال (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) «١» فأمرى في هذه القصة- أيضا- كقصه يوسف من قبل فَصَبْرٌ جَمِيلٌ لا شكوى فيه، و لا جزع بأن أقول ما يغضب الله سبحانه عسى لعل الله أن يأتيني بهم يوسف وبنيامين ويهودا أكبر الأخوة الذي بقى هناك

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٤]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)

جميعاً فقد علم يعقوب أن يوسف لم يأكله الذئب وإنه حى مرزوق من طريق الوحي إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بعباده، و ما يعملون الْحَكِيمُ فى تدبيره، فهو إنما فعل ذلك بى لحكمته و مصلحته.

[٨٥] و حينذاك تَوَلَّى أى أعرض يعقوب عَنْهُمْ فإن الإنسان إذا علم أن من حوله لا- يشاركونه المصاب يتنحى عنهم ناحية ليعيش منفردا بحزنه و لوعته وَقَالَ يعقوب يا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ الأسف هو الحزن أى يا طول حزنى على يوسف و «يا» حرف نداء حذف مناداه، أى «يا قوم» أو المراد «يا أسف احضر فهذا وقتك» كما قالوا فى «يا عجباً» و نحوه، و ألف أسفى بدل من ياء المتكلم، و يجوز ذلك فى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، كما قال ابن مالك:

و اجعل منادى صح إن يصف ليا كعبد عبدى عبدا عبديا

و إنما ذكر «يوسف» لأنه هو الذى غاب عنه خبره، أما الولدان الآخرون فقد علم بمكانهما، و الإنسان لا بأسف لمن غاب و علم بمكانه، كما بأسف لمن لا يدري محله، و أين هو، و كيف يعيش و ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ أى و قد كان عليه السّلام «ابيض» سواد عينيه مِنَ الْحُزْنِ و البكاء على يوسف، نسب الابيضاض إلى الحزن، مع أنه من البكاء، من باب نسبة الشىء إلى سببه، قالوا و قد ثبت فى الطب الحديث، أن نفس بعض الطبقات فى العين تبيض، لا أن ماء ينزل، كما ظن بعض الأطباء القدامى، فإن كان الأمر كما ذكروا، فذاك من خوارق القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٥]

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)

الحكيم، و ما أكثرها ثم أنه لم يثبت أن يعقوب عليه السّلام عمى من جهة ابنه و بكائه، و ليس فى قوله سبحانه «ارتد بصيرا» شاهد لذلك فإن هذا التعبير كثيرا ما يؤتى به لإفادة جلاء البصر و ذهاب الحزن- فلا منافاة لذلك، مع قاعدة و جوب كون الأنبياء تامى الخلقه، و الكلام فى المقام طويل نكتفى منه بهذا القدر،

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف، قال: حزن سبعين ثكلى بأولادها «١» فَهُوَ كَظِيمٌ أَى ملىء بالغَيْظِ على الأولاد و الحزن على ولده، و لكنه كان لا يظهر غيظه، و لا يشكو حزنه لأحد.

[٨٦] و أين للأخوة قلب يعقوب حتى يدركوا ما يدركه من الهم و الحزن، بل انهم رأوا أنفسهم فى سعة حيث تخلصوا من يوسف و لذا كان يزعمهم بكاء الأب، و إذا رأوا منه ذلك من جديد قالوا لأبيهم يعقوب تالله لا تفتنوا أى لا تزال تذكرك يوسف أى ما هذا الذكر الدائم له؟ فهو استفهام استنكارى، و إنما حذف حرف النفى، و هو «لا» من «تفتنوا» لعدم الالتباس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات، كان على النفى، كما أنه إذا كان مع النفى كان للإثبات، قال سبحانه: (لا أقسم بهذا البلد) «٢» و (لا أقسم بالنفس اللوامة) «٣» إلى غير ذلك، و لكن إنما ذلك حيث الأمن من اللبس، حتى تكون حرضاً مريضاً من الهم مشرفاً على الهلاك، يقال رجل حرض و حارض، أى

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٢.

(٢) البلد: ٢.

(٣) القيامة: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ (٨٧)

مشرف على الهلاك، و هو مصدر يأتى للمفرد، و الجمع بلفظ واحد أو تكون من الهالكين فتموت و تنفى و تذهب عن الحياة. [٨٧] قَالَ يعقوب عليه السلام فى جوابهم ما استفاد منه أننى لست أشكوا إليكم و لا- أمل منكم حتى يوذيكم شكواى أو يرهقكم أملى، بل إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي أى همى و مصيبتى، فإن البث هو الهم الذى لا يقدر صاحبه على كتمانها، فيضطر إلى نشره و إفشائه و حُزْنِي و كان الحزن هنا ما يقابل البث و هو الكامن فى النفس، فالمعنى أشكوا الحزن الظاهر و الخفى إلى الله و معنى الشكاية إظهار الألم و طلب رفعه و أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ أى أعلم أشياء غائبة عن الحواس، من حفظ يوسف ورده إلى سالما، و جزيل الأجر فى الصبر- و ما أشبهه- ما لَا تَعْلَمُونَ أيها الأبناء.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى يعقوب: لو أمتهما- أى يوسف و بنيامين- لأحييتهما لك حتى أجمع بينك و بينهما،

و روى عن الباقر عليه السلام أن يعقوب دعا الله سبحانه فى أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابه فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرنى هل مرّ بك روح يوسف فى الأرواح، فقال: لا، فعلم أنه حى «١»

[٨٨] ثم توجه يعقوب إلى أولاده قائلاً يا بني جمع ابن مضافاً إلى ياء المتكلم- كما تقدم- ادْهَبُوا إلى أرض مصر، أو المراد اضربوا فى

(١) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤

الأرض هنا و هناك فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ بنيامين، و التحسس هو طلب الشىء بالحواس، مقابل التنبؤ الذى هو طلب الشىء بالظن و الخبر، و إنما لم يذكر «يهودا» لأنه كان فى مصر بإرادة نفسه، فلم يكن غيابه مهماً، أما يوسف فقد احتاج أمره إلى التحسس،

لأن يجده الأولاد، و بنيامين كان أمره محتاجا إلى التحسس ليرى هل يمكن إطلاق سراحه عند الملك أم لا؟.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أن أعرابيا اشترى من يوسف طعاما، فقال له: إذا مررت بوادي كذا، فناد يا يعقوب، فإنه يخرج إليك شيخ، فقل له: إني رأيت رجلا بمصر يقرؤك السلام، و يقول:

إن وديعتك عند الله محفوظة، لن تضيع، فلما بلغه الأعرابي، خرّ يعقوب مغشيا عليه،

إلى آخر الحديث، فقد علم يعقوب من الشواهد والأدلة، أن يوسف حى مرزوق، و لذا أمر أولاده بطلبه، و فى المجمع، قيل أنهم لما أخبروه بسيرة الملك، قال لعله يوسف، فلذلك قال يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف و أخيه، أى استخبروا من شأنهما، و اطلبوا خيرهما، و انظروا أن ملك مصر ما اسمه و على أى دين هو؟ فإنه ألقى فى روعى، أن الذى حبس بنيامين هو يوسف و لا يتأسوا من رُوحِ اللَّهِ أى لا- تقنطوا من رحمته، و لعل الإتيان بلفظ الروح، لأجل أن المهموم المكظوم المحتبس النفس، يحتاج إلى روح و نسيم ليروح عنه و يخفف و طى الأنفاس المحترقة الموجبة لخنقه، و احتباس نفسه إنّه لا- ييأس من رُوحِ اللَّهِ و رحمته إلا القوم الكافرون بالله، و بفضلها، أما المؤمن فإنه يرجو من الله الفرج من الشدة و الخلاص من الكربة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٨]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

[٨٩] و لمرة ثالثة تجهز الأخوة للرحيل إلى ملك مصر لتحصيل الطعام، و فى هذه المرة كانوا فى شدة، فقد أضرت بهم المجاعة، و بضاعتهم التى جاءوا بها ثمنا للطعام رديئة، و قد أخذ منهم كلام الأب الشيخ الكسير «تحسسوا من يوسف و أخيه» مأخذا عظيما، و ساروا حتى وصلوا أرض مصر فلما دخلوا عليه أى على الملك قالوا يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضرر أى أصابنا و من يختص بنا الجوع و الحاجة و الضرر من شدة القحط و المجاعة و جئنا ببضاعة مزجاءة و قد كانت بضاعتهم مقلا رديئا- كما هو العادة فى أيام القحط أن النباتات تردأ لقله المطر- و قد كانت أراضيهم تنبت المقل و هو قسم من صمغ الشجر و «مزجاءة» اسم مفعول للمؤنث، من باب الأفعال على وزن «مكرمة» من أزجى يزجى، و الأجزاء فى اللغة السوق و الدفع قليلا قليلا، فالمعنى بضاعة دفعت إلينا قليلة قليلة، فإن الشجر يعطى هذا الصمغ فى أيام الخصب كثيرا و افرا، و فى أيام الجذب قليلا يسيرا، أو المراد أن البضاعة دفعت إلينا، و حصلناها قليلة قليلة، فلا تتمكن إلا منها، و لم تدفع البضاعة إلينا كثيرة وافية، حتى تتمكن من الوافى الكافى، لنعطىها ثمنا للطعام فأوف لنا الكيل أى أعطنا الكيل وافية- تفضلا- لا أن تعطينا بمقدار بضاعتنا، قليلا منقوصا و تصدق علينا من الصدقة، أى اجعل ما تعطيه صدقة، لا فى مقابل بضاعتنا، فإنها لا تفى بالكيل الوافى، أو المراد تصدق علينا، و تفضل برد أخينا بنيامين إن الله يجزى المتصدقين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يُصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)

أى يثبتهم على صدقاتهم.

[٩٠] و إذ بلغ الأمر بالأخوة هذا المبلغ يسترحمون و هم فى انكسار و ضيق، لم يبق مجال لبقاء يوسف- فى صورة العزيز الملك- و قد شاء الله سبحانه أن ينهى الامتحان و يرفع الشدة، و لذا قال يوسف عليه السلام لهم هل علمتم أيها الأخوة ما فعلتم بيوسف من إلقاءه فى البئر بعد ما أردتم قتله، ثم بيعه بدراهم معدودة و ب أخيه بنيامين، فقد كنتم تذولونه و تنظرون إليه بالازدراء و الإهانة، كما هو العادة فى أولاد الضرة، و خصوصا إذا كان ولد الضرة قريبا إلى قلب الأب إذ أنتم جاهلون و لعل هذه الكلمة كانت معذرة من قبلهم

يعنى إنما فعلتم ذلك فى زمان لم يكمل رشدكم، و قد كان هذا مصداقا لقوله سبحانه - كما سبق - «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا»، و عن الصادق عليه السلام أن كل ذنب عمله العبد، و إن كان عالما، فهو جاهل حين خاطر بنفسه معصية ربه «١»، أقول: و قد كان ذلك تلقينا لهم بأن يعتذروا به، و أن ذلك حقيقة و ليس بمجاز لأن للجهل مراتب فقد يجهل الإنسان أصل الموضوع، و قد يجهل مزاياه و مراتبه، فهل ترى أن من الممكن أن ينام إنسان وعده ملك بإعطاء قصر له، إذا هو قام فى ليلة واحدة؟ أو من المعقول أن يقترب عملا، إذا أوعده بأنه إن عمله ضربه ألف سوط؟ كلا؟ لكنه ينام و يقترب مع أن وعد الله و إيعاده حق، لا ريب له، و كلاهما أرفع منزلة من وعد الملك و إيعاده. [٩١] و تبين الأخوة فى نبرات الملك صوت يوسف، فإن الإنسان مهما طال

(١) القصص للجزائرى: ص ١٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٩١]

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)

الزمان، و تغير مظاهر الاخوان، و نسى أشياء يبقى فى خاطره بعض المزايا، إنهم لم يكونوا ليعرفوا بعد سنوات، حيث كان فى زى الملك و لم يدر فى خلداهم أن ذلك الغلام الصغير المهين يصبح ملكا بهذا الشكل الراقى، و لذا قالوا فى استفهام و تعجب أ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ هل أنت أيها الملك ذلك الأخ الذى تركناه فى أيدي القافلة عبدا بعد سنوات قال الملك أَنَا يُوسُفُ أخوكم و هذا بنيامين أَخِي من أبى و أمى، و إنما قال ذلك مع إنهم كانوا يعرفونه، تعريفا لنفسه و تأكيدا لنفسه، أنه هو هو، كما إذا سألك سائل، هل أنت ذهبت إلى مكة، تقول أنا ذهبت و أنت ذهبت فى السنة التى ذهبت، أو لعله، إنما ذكره ليفخم من شأنه، و إنه أصبح أخا للملك بعد ما كان مهينا لديكم قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالسَّلَامَةِ و الكرامة إِنَّهُ الضَّمِيرُ للشَّانِ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَيَمْتثلُ أوامره و يجتنب عن نواهيه و يَصْبِرُ على البلية و الطاعة، بأن لا يظهر الجزع من المصيبة و لا يتكاسل عن الطاعة فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بل يفضل عليهم بالأجر، و قد صبرت و اتقيت فجزانى الله ذلك.

[٩٢] و هنا تملأ نفوس الإخوة مكانة يوسف، التى لم يكونوا يقصدونها، كما تتجلى فى نفوسهم الخبيثة التى اقترفوها بالنسبة إليه، فيتقدموا إليه، مهئين معتذرين قالوا تَاللَّهِ لَلنَّاءِ لِلْقَسَمِ، و لها لطف ليس للواو، و كثيرا ما تأتى فى مقام الاستغراب، أو فيما كان هناك نكتة أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٩٢]

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

مزية لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا أى اختارك علينا، أولا بحسب الأب، و ثانيا بالملك - مع مالك من حسن الصورة و لطف السيرة، و نقاء السيرة - و إن كُنَّا لَخَاطِئِينَ «إن» مخففة من الثقيلة، أى إنا كنا خاطئين مذنبين فى ما فعلنا بك من الحسد و الإلقاء فى البئر، و قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنهم قالوا له: فلا تفضحنا و لا تعاقبنا اليوم، و اغفر لنا. «١»

[٩٣] قال يوسف عليه السلام فى جوابهم لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لا عيب و لا تأنيب و لا تفرغ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ دعا لهم بالغفران، أنه عليه السلام أولا - عفى عنهم بالنسبة إلى حق نفسه، و ثانيا دعا لهم بأن يعفر الله لهم. بالنسبة إلى حقه سبحانه وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فإذا رحمت أنا بكم، كان هو أولى بالرحمة و الغفران، ثم لا بأس بنقل كتاب يعقوب إلى الملك، بعد أن أخذ بنيامين، ليستعطفه، فقد روى عن الصادق عليه السلام أن يعقوب كتب إلى يوسف: «بسم الله الرحمن الرحيم إلى عزيز مصر و مظهر العدل و موفى الكيل

من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صاحب نمروذ الذي جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه بردا و سلاما و أنجاه منها، أخبرك أيها العزيز، إنا أهل بيت لم يزل البلاء إلينا سريعا من الله ليلونا عند السراء و الضراء، و إن

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٩٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩

المصائب تابعت عليّ منذ عشرين سنة، أولها إنه كان لي ابن سميته يوسف، و كان سروري من بين ولدي و قره عيني و ثمره فؤادي، و إن اخوته من غير أمه سألونني أن أبعثه معهم يرتع و يلعب، فبعثته معهم بكره، فجاءوني عشيا يبكون، و جاءوا على قميصه بدم كذب، و زعموا أن الذئب أكله، فاشتد لفقده حزني، و كثر عليّ فراقه بكائي حتى ابيضت عيناى من الحزن، و إنه كان له أخ و كنت به معجبا، و كان لي أنيسا، و كنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري، و إن إخوته ذكروا إنك سألتهم، و أمرتهم أن يأتوك به و إن لم يأتوك به منعتم الميرة، فبعثته معهم ليتماروا لنا قمحا، فرجعوا إليّ و ليس معهم، و ذكروا أنه سرق مكيال الملك، و نحن أهل بيت لا نسرق، و قد حبسته عني و فجعتني به و قد اشتد لفراقه حزني حتى تقوس لذلك ظهري، و عظمت فيه مصيبتى مع مصائب تابعت عليّ، فمن عليّ بتخليه سييله و إطلاقه من حبسك و طيب لنا القمح، و اسمح لنا فى السعر و أوف لنا الكيل، و عجل سراح آل إبراهيم» قال: فمضوا بكتابه حتى دخلوا على يوسف فى دار الملك، و قالوا: يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضر إلى آخر الآيات و تصدق علينا بأخي بناامين و هذا كتاب أيينا يعقوب أرسله إليك فى أمره يسألك تخليته سييله، فمن به علينا، فأخذ يوسف كتاب يعقوب و قبله و وضعه على عينيه و بكى و انتحب «و الانتحاب أشد البكاء» حتى بلت دموعه القميص الذى عليه ثم أقبل عليهم، و قال: علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه من قبل؟. (١)

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٣ إلى ٩٤]

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَمَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّنِي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)

[٩٤] ثم أعطى يوسف عليه السلام قميصه - و هو قميص إبراهيم عليه السلام الذى جاء به جبرئيل من الجنة ليلبسه فيقيه حر النار و حين أراد نمروذ أن يلقيه فيها، و قد كان تميمه فى عضد يوسف عليه السلام - إلى إخوته، و قال لهم أذهبوا أيها الإخوة بقميصي هذا إلى بلدنا فألقوه على وجه أبي و قد عرف من الغيب أنه إذا ألقى على وجهه يأت بصيرا تترد عينه كما كانت، بأن يتبدل بياضها بالسواد، و تجلوا كما كانت، و لعل التعبير «يأت» لأجل إفادة الأمرين «الارتداد بصيرا» و «الأتان إلى يوسف» و أتوني أى تعالوا إلي أيها الإخوة بأهلكم أى مع أهلكم أجمعين فلا يبقى أحد منكم فى تلك المدينة، و قد أراد يوسف عليه السلام أن يجعل لأبيه الفرح، و الفرج و البشارة قبل أن يتلقى معه، و فى بعض التفاسير إن يوسف قال لهم إنما يذهب بقميصي من ذهب به أولا، فقال يهودا: أنا ذهبت به و هو ملطخ بالدم، فأخبرته أنه أكله الذئب، قال: فاذهب به أنت أيضا فأفرحه كما أحزنته.

[٩٥] وَلَمَّا فَصَمَتِ الْعَيْرُ أَي لَمَّا خَرَجَتِ الْقَافِلَةُ مِنْ مِصْرَ، وَ انْفَصَلَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ نَحْوَ الشَّامِ مَحَلَّ يَعْقُوبَ قَالَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ لِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ وَ قَدْ شَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَ كَانَتْ الْمَسَافَةُ ثَمَانِينَ فَرَسَخًا - كَمَا وَرَدَ - وَ هَلْ الْمُرَادُ بِالرِّيْحِ الْعَطْرُ، أَوِ الْمُرَادُ اسْتِشْعَارُ ذَلِكَ - فَإِنَّ اللَّفْظَ يَطْلُقُ عَلَيْهِمَا - اِحْتِمَالًا لَوْ لَا أَنَّ تُفَنِّدُونِ الْفَنْدُ ضَعْفُ الرَّأْيِ وَ الْعَقْلُ عَلَى إِنْ لَمْ تَنْسَبُونِي إِلَى الْفَنْدِ، وَ جَوَابُ لَوْ لَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٥ الى ٩٧]

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧)

محذوف، أى لصدقتمونى.

[٩٦] لكنهم لم ينفع معهم كلام يعقوب، ورجائه أن لا- ينفدوا لرأيه، بل قالوا أى من حضر ممن كان فى طرف خطابه عليه السلام تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ أى اشتباهك و انحرافك عن الصواب فى أمر يوسف القديم فقد كنت من السابق تظن أنه لم يمت، و الحال أنه قد مات، و ذهب و أكله الذئب، فلم يقل يعقوب شيئاً حتى جاء يهودا، ولده الأكبر الذى كان معه القميص.

[٩٧] فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْمُبَشِّرُ بِيُوسُفَ أَلْقَاهُ عَلَى الْقَمِيصِ يُوَسِّفُ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَى وَجْهِهِ وَجَهَ يَعْقُوبَ فَارْتَدَّ أى رجع كما كان بَصِيرًا تقدم أنه من المحتمل إرادة ارتداد قوة نور البصر إليه، بعد أن ضعف لكثرة البكاء، فإن الإنسان إذا بكى كثيرا غشاها غبار يحول بينه و بين حدة الإبصار ف قال يعقوب عليه السلام لمن فند قوله «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوَسُفَ» أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَفْنَدُونَ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ أى من طرفه سبحانه و بإلهامه إلى ما لا تَعْلَمُونَ إذ قد و عدنى يارجاع يوسف إلى.

[٩٨] و جاءوا إلى أبيهم يعقوب ليغفر لهم ذنبهم الذى اقترفوه و سببوا له تلك الأحزان و اللواعج، لكنهم لا يريدون أن يغفر لهم هو وحده، بل يطلبون فوق ذلك أن يطلب من الله غفران ذنبهم، فإن ذنبهم كان مزدوجاً أمام الله، و أمام أبيهم- بعد ما كان ذنباً بالنسبة إلى أخيهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)

يوسف بالذات- قالوا قالت الأخوة يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا أى كلفوه بالاستغفار لهم، لأنهم كانوا يعلمون باستجابته دعائه فإن دعاء الوالدين فى حق الولد مستجاب، خصوصاً مثل يعقوب النبى الجريح الفؤاد إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ فى ما ارتكبناه من العمل.

[٩٩] قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى جوابهم سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي طلب غفرانه لكم، ورد فى الأحاديث أنه إنما أصر الاستغفار بغية أن يستغفر لهم وقت السحر، لأنه أقرب إلى الإجابة، إِنَّهُ سبحانه هُوَ الْغَفُورُ الذى يغفر الذنب و يمحيه الرَّحِيمُ الذى يرحم عباده و يتفصل عليهم،

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه سئل عن أولاد يعقوب قال: ما كان أولاد يعقوب أنبياء، و لكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، و لم يكونوا يفارقوا الدنيا إلا سعداء تابوا و تذكروا ما صنعوا «١».

[١٠٠] و لما أن بَشَّرَ يعقوب و أهله بأن ولدهم يوسف أصبح ملك مصر، بيده الأمر و النهى، و إنه أرسل إليهم، تجهزوا للرحيل بكل سرعة، و جاءت القافلة و ملؤها الفرح يحدوها السرور و الرغبة حتى وصلت أرض مصر فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى أى ضمّ، من الإيواء بمعنى إعطاء المحل و المكان إِلَيْهِ أى إلى نفسه أَبَوَيْهِ يعقوب و راحيل، و قد كان لقائهم خارج المدينة، فقد استقبلهم يوسف عليه السلام،

(١) راجع القصص للراوندى: ص ١٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٠]

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السُّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

و هناك تلاقي معهم و رحب بهم، و ضم الأبوين إلى نفسه- و لعله بالمعانقة و التقبيل و ما أشبه- كما هو المعتاد عند لقاء الأحب، و بالأخص العائلة و قال لهم يوسف اذخلوا مدينة مصر إن شاء الله بمشيئته و إرادته آمين في حال كونكم في أمن و أمان.

[١٠١] و رفَع يوسف أبَوَيْهِ يعقوب و راحيل على العرش أي سرير المملكة أعظما لهما، و قد كان لا يجلس على السرير إلا الملك و خرُّوا أهل يوسف له ليوسف سجداً جمع ساجد، كما أن ركع، جمع راعع، احتمال بعض العلماء أن السجود لغير الله سبحانه- ياذنه تعالى- كان جائزاً في الأمم السابقة، كما سجدت الملائكة لآدم، و سجد أهل يوسف ليوسف، حسب ما يظهر من القرآن الكريم، و كم من حكم كان في الأمم السابقة جائزاً و لم يجر في هذه الأمة- و ذلك ليس خلافا للعقل، فإنه كما يجوز العقل التعظيم دون الركوع و السجود، يجوز التعظيم إلى أحدهما، أقول: لكن في المقام نص خاص دل على السجود لم يكن لآدم و ليوسف، و إنما لله سبحانه، و كأنهما عليه السلام كانا محل التوجه كما نسجد نحو الكعبة لله سبحانه، و في ذلك تعظيم ضمنى لمن يسجد نحوه،

فقد سئل يحيى ابن أكرم موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضهما على أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام، فكان إحداها أن قال: أخبرني أسجد يعقوب و ولده ليوسف و هم أنبياء؟ فأجاب أبو الحسن عليه السلام: أما سجود يعقوب و ولده فإنه لم يكن ليوسف، و إنما كان ذلك منهم طاعة لله و تحية ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لآدم عليه السلام، كان منهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤

طاعة لله و تحية لآدم، فسجد يعقوب و ولده و يوسف معهم شكرا لله تعالى

«١»، لاجتماع شملهم، ألم تر أنه يقول في شكره في ذلك الوقت: رب قد آتيتني من الملك و قال يوسف عليه السلام يا أبتِ التاء عوض ياء المتكلم، قال ابن مالك:

و في النداء أبت عرض قبل النداء و من اليا التاء عوض

هذا الذي تراه من سجودكم لي تأويل رؤياي التي رأيتها و أنا عندكم، و إن الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا سجدوا لي من قبل في زمان صغرى قد جعلها أي جعل الرؤيا ربي حقا أي صدقا مطابقا للواقع، و آلت رؤياي إلى هذه النتيجة حيث صرت ملكا، و سجد لي أبواي و إخواني الأحد عشر، و قد أحسن ربي بي إذ أخرجني من السجن الذي ابتليت به سبع سنوات و إذ جاء بكم من البدو أي من البادية «ليجمع شملنا» فقد كانوا يسكنون البادية، و يرعون أغنامهم فيها، و في سنة القحط قد هلكت أغنامهم، و أحوجهم العوز إلى السفر إلى مصر، حتى تم هذا اللقاء، و لعله لم يذكر نعمه الله عليه في إخراجهم من الجب، لئلا يذكر الأب بصنيع الأخوة به، كرما منه و إحسانا، فإن من الأخلاق أن ينسى الإنسان إساءة الغير إليه،

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠١]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

و إحسانه إلى الغير من بعد أن نزع الشيطان أي أفسد بيني و بين إخوتي و كان الإفساد بالقاء الحسد على قلب الأخوة، حتى صنعوا ما صنعوا إن ربي لطيف في تدبير عباده لما يشاء من الأمور و معنى اللطيف أنه يفعل الأشياء الدقيقة النافعة، مما لا يتمكن الإنسان عليها إن شاء الله سبحانه هو العليم بالمصالح الحكيم فيما يفعل، و الحكمة هي وضع الأشياء مواضعها.

روى أن يعقوب سأل يوسف عن ماذا صنع الأخوة به؟ فقال يوسف: يا أبة لا تسألني عن صنيع إخوتي بي، و سل عن صنع الله بي. [١٠٢] ثم يتوجه يوسف إلى الله سبحانه، يشكره ما أنعم عليه، و يعدد لطفه به، و يسأله حسن الخاتمة، قائلاً- يا رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ أَيَّ بَعْضِ مَلِكِ الدُّنْيَا وَ سُلْطَانَهَا وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ تَفْسِيرِ الْمَنَامَاتِ، بِمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ، أَنْتَ رَبِّي فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ خَالِقَهَا وَ مَبْدِعَهَا، فَلِكِ الْخَلْقِ وَ مِنْكَ الْأَمْرُ وَ الْفَضْلُ أَنْتَ دُونَ سِوَاكَ وَ لِي الَّذِي يَتَوَلَّى كُلَّ شَأْنِي، كَمَا تَوَلَّى خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَتَوَلَّى فِي الدُّنْيَا إِصْلَاحَ حَالِي، وَ فِي الْآخِرَةِ سَعَادَتِي وَ نَجَاتِي تَوَفَّنِي يَا رَبِّ، أَيَّ خِذْ رُوحِي- وَ قَدْ مَاتَ - مُسْلِمًا لَكَ فِي جَمِيعِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٢]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

الأمر و الْحَقْنِي إِذَا تَوَفَّيْتَنِي بِالصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْأَنْمَاءُ وَ الشَّهَدَاءُ، وَ مِنْ فِي زَمْرَتِهِمْ، وَ هُنَا تَنْتَهِي قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَ الْعِظَاتِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَ هِيَ مِنْ أَبْلَغِ الدَّرُوسِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الْحَيَاةِ بِكُلِّ طَهَارَةٍ وَ نِظَافَةٍ، فَبِهَا التَّنْبِيهُ عَلَى الطَّهَارَةِ وَ عَاقِبَتِهَا، وَ اللَّوْثِ وَ عَاقِبَتِهِ، وَ فِي الْأَحَادِيثِ، أَنَّ يُعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاتَ - بَعْدَ لِقَاءِ طَوِيلٍ، وَ رُبَّمَا بَلَغَتِ السَّنَوَاتِ - وَ دَفَنَهُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ زَمَانٍ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ دَفَنَ فِي شَاطِئِ النَّيْلِ فِي صَنْدُوقِ مَرْمَرٍ، حَتَّى حَمَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ جَاءَ بِهِ إِلَى الشَّامِ. «١» [١٠٣] ثُمَّ عَادَ سَبْحَانَهُ بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ، لِيَذْكَرَ مَا ابْتَدَأَ بِهِ، حَيْثُ قَالَ سَبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ تَفَاصِيلِ قِصَّةِ يُوسُفَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَيَّ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ نَشَأَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ تَكُنْ بَحِثٌ يَتَطَّلَعُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ بِهَذِهِ التَّفَاصِيلِ حَسَبَ الْبَيْتِ وَ الْجَمَاعِ، لَوْ لَا إِخْبَارَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَهُ وَ مَا كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَدَيْهِمْ أَيَّ حَاضِرًا عِنْدَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا أَطْرَافَ الْقِصَّةِ مِنْ أَوْلَادِ يُعْقُوبَ وَ زَلِيخَا وَ النَّسُوءِ إِذْ أَجْمَعُوا إِخْوَةَ يُوسُفَ أَمْرَهُمْ أَيَّ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَكِيدُوا يُوسُفَ، وَ هُمْ يَمْكُرُونَ يَمْكُرُ بَعْضُهُمْ لِإِقَائِهِ فِي الْجَبِّ،

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥]

وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَضْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ مَا تَسْتَأْتِلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَ كَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)

وَ يَبِيعُ فِي الْعِيرِ، وَ بَعْضُهُمْ لِسُوقِهِ نَحْوَ الْخَطِيئَةِ، وَ إِقَائِهِ فِي السَّجْنِ، إِنْ كُلَّ ذَلِكَ أَنَا أَخْبَرْتَهُ بِالْوَحْيِ، وَ إِلَّا فَكَيْفَ يُمْكِنُ التَّحْصِيلُ عَلَيْهَا بَدُونَ أَنْ يَكُونَ الْمَخْبِرُ حَاضِرًا، وَ بَدُونَ أَنْ يَكُونَ مَجْتَمِعًا هُوَ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِهِ؟

وَ لَكِنِ الْكُفَّارَ يَمَعُونَ فِي التَّكْذِيبِ، فَلَا تَنْفَعُ مَعَهُمْ هَذِهِ الْقِصَصُ الْغَيْبِيَّةُ لِإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ، وَ صَدَقَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

[١٠٤] فَإِنَّهُ وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَضْتَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ أَيَّ بِمُصَدِّقِينَ لَكَ فِي دَعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَ لَوْ أَقَمْتَ لَهُمُ الْأَدْلَةَ وَالشَّوَاهِدَ.

[١٠٥] وَ الْحَالُ إِنَّكَ مَا تَسْتَأْتِلُهُمْ عَلَيْهِ أَيَّ الْإِيمَانِ وَ الْإِهْتِدَاءِ بِكَ مِنْ أَجْرٍ وَ لَوْ قَلِيلٍ، فَلَمَّا ذَا لَا يُؤْمِنُونَ، هَلْ لِأَنَّهُ كَذَبٌ؟ فَقَدْ دَلَّتِ الْأَدْلَةُ وَ الْحُجُجُ عَلَيْهِ، أَمْ لِأَنَّهُمْ يَفْرُونَ مِنْ إِعْطَاءِ الْأَجْرِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ أَيَّ مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَاءَ لِتَذْكَيرِ النَّاسِ بِاللَّهِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْمَعَارِفِ، وَ وَعِظِهِمْ.

[١٠٦] وليس هذا فقط ذكرا، بل هناك من الآيات الكونية كثرة هائلة، لكنهم ذاهلون عنها غافلون عن دلالتها على المبدأ والمعاد- وَكَأَيِّنْ أَى كَم- وهى للتكثير هنا- مِنْ آيَةٍ دَالَةٍ عَلَى الصَّانِعِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالسَّحَابِ، وَ مَا إِلَيْهَا، وَالْإِنْسَانَ وَالْحَيَاةَ وَالنَّبَاتِ، وَ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا يَشَاهِدُونَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٦]

وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

و يبصرونها وَ هُمْ عَنْهَا أَى عَنْ تِلْكَ الْآيَاتِ مُعْرِضُونَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَ لَا يَعِيرُونَهَا الْاهْتِمَامَ، حَتَّى تَدْلِهِمْ عَلَى خَالِقِهَا وَ مَبْدَعِهَا. [١٠٧] حَتَّى أَنْ الْمُؤْمِنِينَ لَا- يَتَخَلَّصُونَ عَنِ الشَّرِكِ كَثِيرًا مَا وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ أَى أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ- وَ ذَلِكَ يَعْرِفُ مِنَ السِّيَاقِ- بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ فَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجْعَلُونَ غَيْرَ اللَّهِ مُؤَثِّرًا فِي الْأَشْيَاءِ، وَ هُنَا هُوَ الشَّرِكُ، إِذْ لَا- مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا- اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ مَا سِوَاهُ أَسْبَابَ جَعْلِهَا تَعَالَى، وَ قَدْ وَقَعَ النَّاسُ- كَثِيرًا- بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَ التَّفْرِيطِ، فَمَنْ مَفْرَطٌ ظَنَّ أَنَّ الْاسْتِعَانَةَ بِالطَّيِّبِ وَ الْمُهَنْدِسِ وَ الْقَاضِيِ وَ مَا أَشْبَهَ شَرِكًا، حَتَّى أَنَّهُمْ مَنَعُوا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ «يَا مُحَمَّدُ» «يَا عَلِيٌّ» وَ مَنْ مَفْرَطٌ ظَنَّ أَنَّ الطَّيِّبَ هُوَ الشَّافِي الْحَقِيقِيَّ وَ الْمَعْطَى لَهُ مَا لَيْسَ هُوَ الرِّزَاقُ الْحَقِيقِيَّ، وَ كِلَاهُمَا بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَالَ «يَا مُحَمَّدُ» وَ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا، إِنَّمَا يَفْعَلُ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ مَحْضِ الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا ظَنَّ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْاسْتِعَانَةَ غَيْرَ جَائِزَةٍ فَهُوَ جَبْرِي فَاسِدِ الْعَقِيدَةِ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْمَسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ، بَدُونَ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ مَدْخَلٌ أَصْلًا فَهُوَ مَفْوُضٌ مَنْحَرِفٌ الْإِيمَانَ،

قال الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير الآية- كما روى عنه:- هل الرجل يقول لو لا فلان لهلكت، و لو لا فلان لأصبت كذا و كذا، و لو لا- فلان لضاع عيالى، ألا- ترى أنه قد جعل لله شريكا فى ملكه، يرزقه و يدفع عنه؟ قيل، فيقول: لو لا- أن من الله على فلان لهلكت؟ قال: نعم لا بأس بهذا «١»، أقول: و إنما

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ٢٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٧ الى ١٠٨]

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

ذكر الإمام ذلك من باب المثال، و إلا فهذا الاعتقاد كاف لمن يقول «لو لا فلان لهلكت»

و قد روى أن بعض الأئمة عليهم السلام بعد ما تناول الطعام، قال: اللهم هذا منك و من رسولك فقال رجل منحرف- معترضا على الإمام- لقد أشركت، فقرأ له الإمام هذه الآية (وَ مَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) «١» و هذه الآية (وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ) «٢» فقال الرجل: كأنى لم أمر بهذه الآية.

[١٠٨] ثم هدّد سبحانه المشركين بالعذاب فى الدنيا قبل الآخرة، أَفَأَمِنُوا أَى هَلْ أَمِنَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ عَقُوبَةٌ تَغْشَاهُمْ وَ تَحِيطُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ كَالْفَقْرِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَوْضَى أَوْ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ كَالصَّاعِقَةِ أَوْ الْأَرْضِيَّةِ كَالهَدَّةِ وَ الْخَسْفِ وَ الزَّلْزَلَةِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أَى يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَوْ الْمَوْتِ، لِأَنَّهُ إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، فَقَدْ قَامَتِ قِيَامَتُهُ، وَ الْقَبْرُ إِذَا حَفَرَ مِنَ حَفْرِ النِّيرَانِ، أَوْ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ بَعْتَهُ بَدُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَ الْإِنَابَةِ وَ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ شَرِكٌ وَ لَوْ الْخَفَى مِنْهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بوقت مجيء العذاب أو الساعة.

[١٠٩] و إذ انحرف أكثر الناس كفرا، و كثرة من المؤمنين شركا خفيا، فالرسول لا يهمله كل ذلك، بل هو جاد في طريقه، يسير نحو هدفه،

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) التوبة: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٩] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٩٩

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِمَا أُخْرِجُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)

بلا- كلل و لا ملل قل يا رسول الله لهؤلاء هذه الطريقة التي ترونها في أقوالى، و أفعالى سببى طريقى فى الحياة لا أحمدها عنها أذعوا إلى الله على بصيرة من أمرى فلتست مقلدا و لا مغفلا و لا غافلا أنا و من اتبعنى أذعوكم أنا، و يدعوكم من آمن بى و سبحان الله أى تنزيها له عن النقائص، فليس كالالهة الحجرية و الخشبية و المعدنية جاهلة لا تملك شيئا و ما أنا من المشركين الذين يشركون بالله شركا خفيا أو جليا، فمن شاء فليتبع طريقى و من لم يشأ، فهو و ما اختار، [١١٠] ثم يلفت الله الكفار إلى حقيقة الرسالة و أحوال الغابرين، الذين تركوا اتباع الرسل، ليهزمهم نحو الاتباع، و يعظهم بما قد علموه من أحوال الماضين، لعلهم يرتدعون عن غيرهم و ما أرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رِجَالًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ كَادِمٍ وَ نُوْحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ غَيْرِهِمْ، نُوحِي إِلَيْهِمْ نَلْقَىٰ إِلَيْهِمْ أَوْامِرًا وَ إِرْشَادَاتًا مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلَمْ يَكُونُوا مَلَائِكَةً وَ لَا جِنَّةً وَ لَا نِسَاءً، وَ إِنَّمَا رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ، لَا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، لِيَكُونُوا أَلطَفَ مَعَاشِرَةٍ، وَ أَكْرَمَ أَخْلَاقًا، وَ أَحْسَنَ عَشْرَةَ لَغْلَبَةِ الْجَفَاءِ وَ الْخَشُونَةَ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، أَوْ لِأَنَّهُ لَوْ بَعَثَ فِي الْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِهَا، كَانَ أَهْلُ الْمَدِينِ أَبْعَدَ مِنَ الْإِيمَانِ، أَوْ لِأَنَّ الْبَدْوِيَّ لَقَلْبُهُ عِلْمُهُ يَتِمَكَّنُ أَنْ يَدْعَىٰ النَّبُوَّةَ لَهُ كُلٌّ مِنْ كَانَتْ مِنْهُ أَدَقُّ فِطْنَةً، بِخِلَافِ أَهْلِ الْمَدِينِ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَوْعِبُونَ لِلْعُلُومِ، فَلَا يَتِمَكَّنُ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١

[سورة يوسف (١٢): آية ١١٠]

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)

يغشهم فطن خال عن الاتصال بالسماء أفلم يسبوا أى هؤلاء الكفار فى الأرض ليطلعوا على أحوال الماضين، كيف أهلكوا لما خالفوا الرسل، فإن العلم بأحوال الأمم المختلفة ماضيهم، و حاضرهم لا يحصل غالبا إلا بالسفر و السير فينظروا أى يعلموا كيف كان عاقبة الذين من قبيلهم من الأمم المكذبين لرسولهم، فإنهم قد أهلكوا بأنواع العذاب فى الدنيا، و أما الآخرة فإن لهم جهنم لا يموتون فيها، و لا يحيون و لدار الآخرة خير للذين اتقوا معاصى الله سبحانه، فهم فى الدنيا نعموا، و الآخرة خير لهم،

روى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قال: لشبر من الجنة خير من الدنيا و ما فيها

«١»، أَ فَلَا تَعْقِلُونَ تعملون عقولكم، لتعرفوا مصير كل من الكافر و المؤمن، فى دنياه و آخرته؟

[١١١] إن الكفار دائما يغترون بما يرون من ظواهر اتباع الأنبياء فى بدء الدعوة، أنهم قلة لا حول لهم و لا طول، و لكن لا يغر ذلك كفار قريش، مما يرون بالرسول من الضعف فى الاتباع و القلة فى الأشياء، فقد جرت عادة الله سبحانه أن يبدأ الإيمان بمثل ذلك، حتى يكون أقوى أساسا و أشد مراسا، و إلا فالنصر آت لا محالة و هكذا تستمر الحالة، فالرسل فى ضعف من الاتباع، و الكفار فى قوة حتى إذا استيأس أى يئس الرسل من تلبية الناس و استجابتهم و ظنوا أنهم قد كذبوا

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢

[سورة يوسف (١٢): آية ١١١]

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

بصورة عامة، فلا مصدق لهم، فإن كذب- مخففا- يأتي بمعنى كذب- مشددا- كما قال سبحانه (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) «١» وإنما جيء ب «ظنوا» لأن الرسل رجحوا ذلك، و لم يتيقنوا، وإنما رجحوا لأنهم رأوا عدم التلييه من الناس مع طول المدّة، و تمام الحجج البيّنات جاءهم أي جاء إلى الرسل نَصِيرُنَا بإرسال العذاب على الكفار، و تقوية أمر الرسل فَتَجَّيَ أي نخلص من العذاب مَنْ نَشَاءُ و هم المؤمنون الذين اتبعوا الرسل و آمنوا بهم و لَا يُرَدُّ بِأُسْنَا أي عذابنا عن الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ الذين أجرموا بانحراف العقيدة و ارتكاب الآثام، و هكذا أنت يا رسول الله مع هؤلاء القوم، و هكذا كل داع إلى الصلاح، قائم بواجب الإرشاد، أما قتل الأنبياء عليهم السّلام- قبل ذلك- كما كان، فإنه لا ينافي ذلك، فإن المراد بالنصر المبادئ التي دعوا إليها، و هو النصر حقيقة، لا العزة و الشوكة في الدنيا، و على هذا فقولُه سبحانه «و ظنوا» لا يراد به الظن الظاهري، الذي هو صفة قائمة بالذات، بل ذلك حكاية عن ظاهر الحال، يعني أن المورد يكون مورد ظنّ بأن الرسل قد كذبهم الناس، فلا مؤمن و لا مصدق.

[١١٢] و تأتي الخاتمة، كما ابتدأت به السورة، فهناك «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» و هنا لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ أي قصص

(١) التوبة: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣

الأنبياء عليهم السّلام مع الأمم، و قصه يوسف- بصورة خاصة- عِبْرَةٌ أي اعتبار لمن اعتبر، و بصيرة عن الجهل لِأُولِي الْأَلْبَابِ أي أصحاب العقول، فإن اللب هو العقل ما كَانَ الَّذِي جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ قَصصِهِمْ حَدِيثًا يُفْتَرَى قصةً مختلفةً مكذوبةً وَ لَكِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي تصديقا للكذب، و الوقائع التي سبقت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ كَانَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ما يحتاجه الناس في أمور دينهم و دنياهم، و ليس المراد بالتفصيل بيان الجزئيات، بل تفصيل الخطوط العامة حول العقيدة و الأحكام و الآداب وَ هُدًى أي هداية و إرشادا للناس وَ رَحْمَةً تسبب رحم الناس و نجاتهم من كوارث الدنيا و عذاب الآخرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و إنما خصهم لأنهم هم الذين ينتفعون به، و إلا فقد جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، بما جاء به للبشر عامة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤

١٣ سورة الرعد مكية / آياتها (٤٤)

سميت السورة ب «الرعد» لاشتمالها على هذه الكلمة، و هي كسائر السور المكية على ما قال بعض المفسرون- تعالج شؤون التوحيد و البعث و ما إليهما.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء بذكر اسم الله عز و جل، للدلالة على تمام السورة السابقة، و الشروع في سورة جديدة، و أي شيء أفضل من اسم الله حتى يتبدأ به؟ و ذكر «الاسم» لأن الله لا يتبدأ به، و إنما يبدأ باسمه، أنه الله الرحمن الرحيم، الذي أظهر صفاته الرحمة و التفضل، لا الانتقام و العقاب، و القوة و العذاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تلمك آيات الكتابِ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

[٢] المر تلمك آيات الكتاب من جنس «الف، لام، ميم، راء» آيات القرآن الحكيم، فإن الآيات مركبة من هذه الحروف التي يتلفظ بها كل الناس، ولكنهم هيهات أن يتمكن أفراد البشر أن يأتوا بحيوان واحد يركبونه من الأجزاء المذكورة فيصير حيوانا، وعلى هذا ف «المر» مبتدأ، وتلك آيات الكتاب، خبره، واسم الإشارة «تلك» إشارة إلى هذه الحروف وما أشبهها، أو أن «المر» رمز بين الله وبين الرسول، أو غير ذلك من الأقوال البالغة أربعة عشر قولاً، في فواتح السور، وعلى هذا ف «تلك» مبتدأ، خبره «آيات الكتاب» أى أن هذه التي بين يديك، أيها القارئ هي آيات الكتاب، وإنما جرى بلفظ البعيد، إشارة إلى بعد الآيات مقاما، وعلوها شأنًا، عن قرب الناس، كما تقول: ذلك الفقيه يقول، وليس بينك وبينه فاصل، وإنما تأتي «بذلك» إشارة إلى رفعة الفقيه منزلة، حتى كأنه بعيد عنك، لا- تناله أنت- كما ذكروا في علم البلاغة- وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَى القرآن الذى أنزل من ربك هو إليك الحق «خبر» لقوله و «الذى» فإنه مطابق للواقع لا انحراف فيه ولا زيغ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون أى لا يصدقون، مع أنهم يرون أن القرآن حق.

[٣] ثم يبدأ سبحانه بإله الكون، وأنه هو الذى جعل الكون بما فيها من الآيات المدهشة، ثم يأتي دور التعجب من الذين ينكرون البعث الله هو الذى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ أَى جعلها ربيعة، وأيا كانت السماوات، سواء هي المدارات، أم أجسام ضخام، أم المراد جهة تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦

العلو وطبقات الجو، فهي شىء رفيع يعرفه كل أحد، فمن رفعها وجعلها، أليس الله سبحانه؟ بِغَيْرِ عَمَدٍ جمع عماد، وهي الدعائم، وهذا أغرب، فقد نرى أن كل شىء رفيع لا بد له من عماد يستند إليه، فكيف رفعت السماوات بغير عماد، تَرَوْنَهَا ظاهرة لكم، فإن كل ناظر يرى السماوات- بأى معنى كان-، ثم أن هناك قولين: الأول أن «ترونها» جملة منفصلة. وعلى هذا يكون المعنى لا- عمد للسماوات، الثانى أن «ترونها» صفة ل «عمد» أى لا- عمد مرثية لها، والمفهوم منه أن لها عمد غير مرثية، وعلى هذا فالمعنى أن للسماوات عمد، ولا تنافى بين القولين، فإن السماوات لا عماد لها خارجا، ولها عمد- من قدرة الله سبحانه- لا يرى ذلك العماد ثم بعد رفع السماوات بغير عمد استوى الله سبحانه، أى استولى و سيطر على العرش أى على كرسى الملك، وذلك شىء مهول لا يرى، كما أن السماوات شىء عظيم يرى، يعنى أنه سبحانه بعد ما خلق السماوات، استولى على أزمه الأمور، يقال: استوى الملك على عرش المملكة، يراد أنه أخذ بيده أزمه الحكم و سيطر و تسلط عليه لا يزحزحه مزحج لا أنه جلس على كرسى خارجى- فهو معنى كئائى- وعلى هذا فالإتيان ب «ثم» مع أنه سبحانه لم يزل كذلك، من باب أنه سبحانه بعد إيجاد الكون سيطر عليه، أما قبله، فلا سيطرة من باب السالبة بانتفاء الموضوع- وهذا الذى ذكرناه فى تفسير «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» أحد المعانى المحتملة فى الآية- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذَلَّهِمَا لِمَنَافِعِ خَلْقِهِ، وجعلهما يطيعانه، كما يريد كل من الشمس والقمر يجرى و يسير فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧

[سورة الرعد (١٣): آية ٣]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)

دووب واستمرار لأجل أى وقت مُسَمًّى سمي عنده سبحانه، فوقت ووقوفها عن الحركة، و انتهاء أمر سيرهما، معلوم عنده سبحانه مسمى فى لوحه المحفوظ، وإنما أتى باللام، و لم يقل «إلى أجل» لإفادة أن السير إنما هو لإدراك تلك الغاية، فكأنهما يسيران ليأتيا بيوم القيامة، حيث الشمس تكور، و النجوم تنكدر و القمر ينخسف .. أنه سبحانه خلق هذه الأشياء و هو يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فيها و فى غيرها على

وجه الصلاح والحكمة، فمنه الخلق ومنه الأمر، مقابل السلاطين الذين لهم الأمر فقط - في الجملة - فهو تعالى هو الخالق المطلق، و الأمر المطلق وهو سبحانه يُفَضِّلُ الآياتِ بينهما تفصيلاً آيةً فآيةً، لأجل الإرشاد، فهو الخالق الأمر المرشد، وإنما يفصل الآيات لَعَلَّكُمْ أيها البشر بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ عند الجزاء والحساب، والمراد لقاء موعده، لا - لقاء ذاته فإنه منزه من أن يرى تَوَقُّونَ فلا تنكرون البعث والنشور والكتاب والحساب.

[٤] و إذ صورت الآيه السابقة خلق السماوات، فلننظر إلى خلق الأرض وَهُوَ سبحانه الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ أَي بسطها طولاً وعرضاً، لتصلح مكاناً للإنسان والحيوان، ومحلاً للنبات والأشجار، و لفظه «مد» أكثر دلالة على القدرة من لفظ «خلق» لأن «مد» يشمل الخلق وأكثر وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ جَمْعَ رَاسِيَةٍ، وهي الجبل، لأنها ترسو في الأرض، كما ترسو السفينة في الماء، وحكمة خلق الجبال أنها تمسك الأرض عن التفتت والاضطراب، كما أن المسامير تمسك المصنوعات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨

[سورة الرعد (١٣): آية ٤]

و فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِهْنُونَ وَغَيْرُ صِهْنُونَ يُشْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

الخشبية عن التفتت والتفرق و شق فيها أنهاراً لتجرى فيها المياه، و لولاها لضاعت المياه، و لم يمكن الاستفادة الصحيحة منها و مِنْ كَدِّ الثَّمَرَاتِ جَعِلَ فِيهَا أَي في الأرض زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذكر و أنثى، فإن «زوج» يطلق على كل فرد من فردي «الزوجين» و لذا جيء له التأكيد «اثنين» حتى لا يتوهم أنه تثنية «زوج» الذي يراد به «اثنان» و قد ثبت في العلم، أن كل صنف من أصناف النباتات يشتمل على ذكر و أنثى - و هذه إحدى معاجز القرآن الكثيرة - و في الأرض يُعْشَى أَي يستر الليل النهارَ بقدرته، و الليل و النهار مفعولان ل «يعشى»، و فاعله الضمير العائد إليه تعالى، أي يأتي سبحانه بالليل ليستر النهار، فكأنه سائر له عن الأبصار، و هذا من باب التشبيه، و إلا فالنهار يذهب إذا جاء الليل، و إنما لم يعكس، كأن يقول «يذهب الليل بالنهار» لأن الليل فيه الراحة و الهدوء، و لأنه الأصل، إذ الظلمة سابقة على الضياء - فقد قالوا أن بينهما تقابل العدم و الملكة - إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي تقدم من السماء و الأرض، و الشمس و القمر، و الجبال و الأنهار، و الزوج و الزوج من النبات، و الليل و النهار - من الأمور البديعة المتقابلة - لآياتٍ دلالات و اضحات، و حجج ظاهرة على وجود الله سبحانه و علمه و قدرته، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في هذه الموجودات، فيدركون، أن لها صناعاً قديراً عليمًا.

[٥] ثم نظر إلى تفاصيل أدق من تلك الخطوط العريضة في الأرض، لنرى آثار القدرة في الجزئيات، كما رأيناها في الكليات و فِي الْأَرْضِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩

قِطْعٌ جَمْعُ قِطْعٍ مُتَجَاوِرَاتٌ فهي مختلفة مع أنها متجاورة بعضها في جوار بعض، فمن فصلها مع جوار بعضها البعض؟ جبل و هدهد صلبة و رخوة، طيبة و سبخة، ريفية و منخفضة، إلى غير ذلك و جَنَّاتٌ أَي بساتين، جمع جنة، و إنما سمي البستان بها، لأن الأشجار تجنى الأرض و تسترها مِنْ أَعْنَابٍ تتسلق على الجدران و الأخشاب، و ما أشبههما وَ زُرْعٌ من بقول و أزهار يرتفع قليلاً وَ نَخِيلٌ يرتفع في الجو، بلا - استناد على شيء، و لا تخرج النباتات عن هذه الأمثال الثلاثة، أما ريفية - كالنخل - أو لا - كالزروع - و إما مستقلة، أو غير مستقلة - كالعنب - صِهْنُونَ وَ غَيْرُ صِهْنُونَ جمع صنو و هو المثل، أي بعض هذه الأشياء متشابهة، فنخل يشبه نخلا، و زرع يشبه زرعاً، و عنب يماثل عنباً، و بعضها غير متشابهة، فنخل يعطى البرين، و آخر يعطى الزهدى، و عنب أبيض و عنب أسود، و زهر عطر و آخر قليل الرائحة، و هكذا، و المدهش حقا أن كل ذلك يُشْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ و ينبت في أرض واحدة، و الضياء و التربية، و كل ذلك غير مختلف، و مع ذلك لكل لون، و رائحة و طعم، و خاصية، و شكل، و حجم، و وزن، إلى غيرها، فشكل هذا مدور، و ذاك مربع، و حجم هذا كبير و ذاك صغير - و لو كان كلاهما مدورا مثلاً - و وزن هذا أوقية، و ذاك أوقيتان - و إن كان كلاهما في شكل و حجم

واحد- وَنُفِضْلُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ أَي نَفِضْلُ نَحْنُ- و المراد بالفاعل هو الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠

[سورة الرعد (١٣): آية ٥]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)

سبحانه- بعض تلك الثمار على بعضها الآخر في الطعم، فهذا حلو قليل الحلاوة، و ذلك حلو كثير الحلاوة، كما أن الثالث مر، و الرابع مالح و إن لم تختلف الأشكال، كما نرى في اللوز الحلو و المر، و ما أشبه و «الأكل» هو الثمر الذي يؤكل، أي أنها مختلفة في الثمار، مع أن الماء واحد.. إلى آخره- إِنَّ فِي ذَلِكَ الذي عرضناه من الأرضين المختلفة، و الثمار المتفاصلة لآيات حجج و براهين دالة على وجود الله و علمه و قدرته، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتبعون عقولهم، بعد أن يعملوها لإدراك الحقائق و التوصل من الأثر إلى المؤثر.

[٦] إن كل ذلك لا يكفي هؤلاء للإذعان بالله سبحانه و بما أخبر به من الحساب و الجزاء- و حيث كان ما تقدم تكلمنا حول المبدأ، يأتي دور التكلم حول المعاد- و إن تَعْجَبْ يا رسول الله من شيء فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَي فالحقيق بالعجب قول المنكرين للبعث، أو المراد، و إن تعجب من إنكارهم البعث فحقيق عجبك، إذ هو في محله، و ما هو قولهم الحقيق بالتعجب؟ أ إذا متنا و كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟! نخلق من جديد بشرا سويا لنحاسب و نجازي، إن ذلك لا يكون، و هل هذا القول، إلا من أغرب الأمور، فإن الله الذي خلق السماوات و الأرض، و تلك الأشياء الهائلة، التي سبق ذكرها، بدون سابق كونها، بل أخرجها من كتم العدم، ليس قادرا على إعادة هؤلاء إلى الحياة، أُولَئِكَ المنكرون للبعث هم الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ و إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١

[سورة الرعد (١٣): آية ٦]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)

اعترفوا به، إذ من لا يؤمن أنه تعالى قادر على الإعادة، أو يعترف بالقدرة، و لكنه لا يذعن بالإعادة، فهو كافر بالله، بما له من الصفات، أو كافر بأقواله و أخباره، و أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ فِي الآخرة جزاء لإنكارهم في الدنيا، أو المراد أغلال الثقاليات و الخرافة في أعناقهم- هنا- فلا- يتبعون الحق، كالمغلول الذي ليس له حرية التصرف، حتى يتصرف كما يشاء، أو المراد أغلال المعاصي و السيئات، يعني أنهم لا يتمكنون من الفرار عن معاصيهم بإنكارهم البعث، كما قال سبحانه: (وَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَةً فِي عُنُقِهِ) «١» و أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الملامون لها الخالدون فيها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ليس لهم عنها تحول و انتقال.

[٧] إن هؤلاء المنكرين للبعث، يطلبون من النبي أن يعجل لهم بالعذاب- استهزاء- و يقولون «متى هو؟» فقد سفهت عقولهم، فعوض أن يطلبوا الهداية و الخير و السعادة، يطلبون سرعة العذاب، كأنهم لم يعتبروا بما أصاب الأمم الخالية، حيث خالفوا الرسل، و كذبوا بالمعاد، و يَسْتَعْجِلُونَكَ يا رسول الله بِالسَّيِّئَةِ أَي بالعذاب، أي يطلبون منك أن تعجل عليهم بالعذاب، بأن تدعوا الله ليعذبهم قَبْلَ الْحَسَنَةِ قَبْلَ الرِّحْمَةِ و السعادة و الهداية، و المراد أنهم يطلبون ذاك، دون هذا، لا أنهم يطلبون العذاب، ثم يطلبون السعادة- و هذا تعبير مجازي-

(١) الإسراء: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢

[سورة الرعد (١٣): آية ٧]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)

وَقَدْ خَلَّتْ أَى مُضت مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ أَى الْعُقُوبَاتُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْإِعْتَابَارُ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ، مِنَ الْمَسْخِ وَالْغُرُقِ وَالْهَلَاكِ بِالْعَوَاصِفِ وَالصَّيْحَةِ، وَقَلْبِ الْأَرْضِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِهَا، وَمَثَلَاتٍ، جَمْعُ مَثَلَةٍ، بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّ النَّاءِ، وَهِيَ الْعُقُوبَةُ، سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّهَا تَمَثَلُ، وَأَنَّهَا تَسِيرُ بِهَا الْأَمْثَالُ، وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَدُو مَعْفَرَةٌ لِلنَّاسِ أَى يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا دَابَّةً، وَإِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ «عَلَى» لِبَيَانِ عُلُوِّ الْمَغْفَرَةِ عَلَى الظلم، كَأَنَّ الْمَغْفَرَةَ تَتَجَلَّلُ بِالظلم حَتَّى تَسْتَرَهُ وَتُخْفِيهِ وَلكِنْ لَا- يَعْنِي غَفْرَانَ الظالمين، حَتَّى يَتِمَادُوا فِي غِيهِمْ فِإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ فَإِنَّ عِقَابَهُ لَا يَشْبَهُ عِقَابَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ،

رَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

لَوْ لَا نَصَرَ اللَّهُ وَتَجَاوَزَهُ مَا هُنَا أَحَدُ الْعَيْشِ، وَ لَوْ لَا وَعِيدَ اللَّهُ وَعِقَابَهُ لَا تَكَلَّ كُلُّ أَحَدٍ.

[٨] إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ «أِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» وَيُنْكِرُونَ الرِّسَالَةَ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مُحَمَّدٌ مَرْسَلًا، وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَأُنزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ كَالْيَدِ وَالْعَصَا، وَ إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ، وَ مَا أَشْبَهَهَا فِ لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ وَ قَدْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، إِلَى غَيْرِهَا، لَكِنْ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ فَارِغٌ، فَإِنَّهُمْ إِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٨]

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)

يُرِيدُوا الْإِيمَانَ وَالْإِذْعَانَ بِالْخَوَارِقِ، فَقَدْ زُوِّدَ النَّبِيُّ بِالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَعْجَزَاتِ، وَ إِنْ يُرِيدُوا الْجِدَلَ، فَلَا يُؤْمِنُونَ، وَ إِنْ يَرَوْنَ كُلَّ آيَةٍ إِنَّمَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُنذِرٌ مَرْسَلٌ لِلْإِنذَارِ كَغَيْرِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ، وَ مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْإِتْيَانُ، بِمَا يَصِحُّ بِهِ أَنْكَ رَسُولٌ مَخُوفٌ مُنذِرٌ، وَ الْآيَاتُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةٌ فِي حُصُولِ الْغُرُضِ، فَطَلِبُهُمْ لِآيَةٍ جَدِيدَةٍ لَيْسَ إِلَّا- تَعْنَتَا وَجَدَلَا وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ فَلَسْتُ بِدَعَا جَدِيدًا، حَتَّى تَأْتِيَ بِالْإِقْتِرَاحَاتِ، وَ إِنَّمَا كَانَ لِكَلَامِهِ هَادٍ، يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، أَمَا إِنْزَالُ الْآيَاتِ، فَهُوَ مُرْتَبَطٌ بِخَالِقِ الْكُونِ، إِنْ شَاءَ أَنْزَلَ، وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَنْزِلْ، وَ إِنَّمَا اللَّزِمُ أَنْ يَفْعَلَ بِقَدْرِ إِتْمَامِ الْحِجَّةِ، وَ قَدْ فَعَلَ، وَ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ، أَنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ الْهَادِي، فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصْدَقِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ- كَمَا لَا يَخْفَى-

[٩] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِبَيَانِ جَمَلَةِ أُخْرَى مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ، وَ تَدَلُّ بِالْمَلَاذِمَةِ إِلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَ النُّشُورِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَىٰ تَامَ أَوْ نَاقِصَ حَسَنَ أَوْ قَبِيحَ، سَعِيدَ أَوْ شَقِيحَ فِي الْإِنْسَانِ، وَ فِي غَيْرِ الْإِنْسَانِ، وَ لَوْ لَمْ يَعْلَمْ لَمْ يَتِمَّ أَنْ يَخْلُقَهُ وَ يَصُورَهُ، وَ يَتَقَنَّ صَنْعَهُ وَ يَعْلَمُ مَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ يَقَالُ غَاضُ الْمَاءِ- أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَائِعَاتِ- يَغِيصُ بِمَعْنَى قَلَّ فِي الْأَرْضِ، أَى يَعْلَمُ مَا تَنْقِصُهُ الْأَرْحَامُ مِنَ الْمَدَّةِ، أَوْ الْحَمْلُ بِأَنَّ تَخْرُجَ الْأَرْحَامُ الْوَالِدَ دُونَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، أَوْ دُونَ كَمَالِ جِسْمِهِ، بِأَنَّ كَانَ نَاقِصًا، فَالْمَفْعُولُ لِتَغْيِصٍ مَحذُوفٍ «أَى تَغْيِصُهُ الْأَرْحَامُ» وَ نِسْبَةُ الْغِيصِ إِلَى الرَّحْمِ مُجَازٌ، وَ مَا تَزْدَادُ الْأَرْحَامُ لَهُ مِنَ الْمَدَّةِ وَ الْخَلْقَةِ، بِأَنَّ تَخْرُجَ الْوَالِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٩]

عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ (٩)

أشهر- كعشره أشهر أو أكثر- أو تزيد في الخلقة، كأن تصنعه ذا رأسين أو ستة أصابع أو نحوها، والحاصل أن الله يعلم المحل، و

يعلم وقت الولادة، زيادة أو نقيصة من المدة المقررة للولادة، و يعلم أن الولد ناقص أو زائد، روى عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى «وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ» ما كان دون التسعة، و هو غيض «وَ مَا تَزْدَادُ» ما رأت الدم في حال حملها ازداد به على التسعة أشهر (١)»

وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ تَعَالَى بِمِقْدَارٍ فَلَيْسَ زِيَادَةُ الْمُدَّةِ وَ الْخَلْقَةُ، أَوْ نَقْصَانُهُمَا، كَالزِّيَادَةُ وَ النِّقْصَانُ مِنْ مَصْنُوعَاتِ النَّاسِ، حَيْثُ يَخْرُجُ الْأَمْرُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، بَلْ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ، يَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ بِتَقْدِيرٍ وَ حِكْمَةٍ، فَالزِّيَادَةُ وَ النِّقْصَانُ بِقَدْرِ وَ تَقْدِيرٍ.

[١٠] إنه سبحانه عالِمُ الْغَيْبِ أَى مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ ظَاهِرُهَا وَ بَاطِنُهَا، سِوَاءَ كَانَ مَوْجُودًا، أَوْ مَعْدُومًا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْدُومَ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ وَ الشَّهَادَةُ أَى تَدْرِكُهُ الْحَوَاسِ، مِنْ شَهِدَ بِمَعْنَى حَضَرَ، كَأَنَّهُ يَحْضُرُ عِنْدَ الْحَوَاسِ الْكَبِيرِ الشَّأْنَ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ لَدَيْهِ حَقِيرٌ وَ ضَعِيفٌ الْمَتَّعَالِ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ «تَعَالَى يَتَعَالَى» بِمَعْنَى الْمَتَّعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِعَظَمَتِهِ، فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ كُلِّ قَادِرٍ، وَ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ، وَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، كَمَا أُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ - وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَبِيرِ وَ الْمَتَّعَالِ، أَنَّ الْأَوَّلَ صِفَةُ ذَاتٍ، وَ الثَّانِي صِفَةُ فَعْلٍ، فَإِنَّ الْمُمْكِنَ أَنْ يَكُونَ الْكَبِيرَ غَيْرَ مَتَّعَالٍ، أَوْ أَنَّ الْمَتَّعَالِ غَيْرَ كَبِيرٍ.

(١) مستدرك الوسائل: ج ٢ ص ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٠ الى ١١]

سِوَاءَ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

[١١] إنه بعمله يعلم كل شيء سواء منكم أى متساو فى عمله، أى شخص منكم من أسر القول أى أخفاه، فإنه يعلمه و من جهر به أى أبداه و أظهره و من هو مستخف بالليل من هو مستتر متوارى بالليل، و كان الإتيان بباب الاستفعال، لإفادة أنه كان طالب الخفاء بالليل، فليل و استخفاء، و مع ذلك يعلمه سبحانه و سارِبٌ أى بارز، من «سرب سروبا» إذا برز، أى ظهر بالنهارِ فله ظهور فى ذاته، و ظهور لكونه فى النهار،

قال الإمام الباقر عليه السلام: يعنى أن السر و العلانية عنده سواء «١»

[١٢] لَهُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْبَشَرِ مُعَقَّبَاتٌ مَلَائِكَةٌ يَعْقُبُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَى إِلْهَامِ الْإِنْسَانَ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي حِفْظِهِ يَحْفَظُونَهُ حِفْظًا نَاشِئًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَ لَا يَخْفَى أَنْ التَّعْقِيبَ، وَ إِنْ كَانَ فِي الْأَصْلِ الْمَجِيءُ عَقِبَ شَيْءٍ أَوْ شَخْصٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْحَافِظِ الْمُرْتَقِبِ لِأَعْمَالِ الْإِنْسَانَ، وَ إِنْ كَانَ فَوْقَهُ أَوْ أَمَامَهُ،

روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه ملائكة يحفظونه من المهلك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيخلون بينه و بين المقادير «٢»

و عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال فى تفسير الآية: هما ملكان يحفظانه بالليل، و ملكان بالنهار «٣»، فهو سبحانه مع علمه الشامل و قدرته

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٨٢.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٥١.

(٣) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦

الكاملة، يرسل ملائكة لحفظ الإنسان، فلا يخرج الإنسان من تحت قدرته و اطلاعه بواسطة أولئك الملائكة، كما أنه ليس بخارج

بالذات، و كان أمثال هذه الأمور، من باب أن الله جعل لكل شيء سببا، و إلا لم يحتج تعالى إلى أى من ذلك، ثم أنه سبحانه يتعقبهم بالحفظه، لمراقبة أمورهم، و ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم و أحوالهم، ليرتب عليه تغييرا لهم ف إنَّ الله لا يُعَيِّرُ ما بِقَوْمٍ أَى الحالة التى هى نازلة بقوم، من عز أو ذل، نعمة أو نقمة، رفعة أو انحطاط، صحة أو مرض، إلى غيرها حتَّى يُعَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ أَى يغيروا الحالة التى هى بأنفسهم، فإذا جدوا و اجتهدوا فى العمل، أورثهم العز و السيادة، و إذا كسلوا أورثهم الانحطاط و الذل، و إذا تناولوا المحرمات أورثهم الأمراض، و إذا اتقوا أورثهم الصحة، و هكذا، فإن كل حالة فردية أو اجتماعية، فإنما هى وليدة عمل الفرد و الجماعة، و إذا عمل القوم بالمعاصى و المنهيات ف أراد الله بذلك القوم سوءاً من عذاب، أو ذلة أو مرض، أو فقر، أو ما أشبه فلا مَرَدَّ لَهُ أَى لا دافع له، فلا يظن الناس أنهم يعملون بأسباب البلاء، ثم يقف المال أو السلطة، أو ما أشبههما حسداً دونه و ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ من دون الله مِنْ وال يلي أمورهم، و ذلك واضح، فإن الله سبحانه جعل للحياة السعيدة خطوطاً عريضة، فمن انحرف عنها شقى، و من سار عليها سعد، و الانحراف موجب للشقاء، و إن توسل الإنسان بألف وسيلة و وسيلة لسعادته، و الاستقامة موجبة للسعادة، و إن كاد له كل شيء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٢ الى ١٣]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبُرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (١٢) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَ هُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

[١٣] ثم شرع فى آيات كونيته جديدة، تدل على ذاته و صفاته و هُوَ اللهُ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبُرْقَ وَ هُوَ النور الذى يرى عند وجود السحاب خَوْفًا وَ طَمَعًا أَى تخويفاً من الصاعقة المهلكة، و تطمينا فى الغيث المحيى للأرض، و هما حالان، أى فى حالة التخويف و التطميع، فأقيم قيام المصدر، قال ابن مالك.

و مصدر منكر حالاً يقع بكثرة، كبغته زيد طلع

وَ يُنْشِئُ أَى يوجد السَّحَابَ الثَّقَالَ بالمطر، و إنما وصف السحاب، و هو مفرد، بالثقال، و هو جمع ثقيل، لأن اللام فى السحاب للجنس، فهو فى المعنى الجمع، كما قالوا فى «أهلك الناس الدينار الصفر و الدرهم البيض».

[١٤] وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ وَ هُوَ الصوت الظاهر من السحاب عند البرق بِحَمْدِهِ إن الرعد من صنعه سبحانه، فهو حمد و تسبيح بالقدرة التى جعلت هذا المصنوع، كما أن كل مصنوع جميل يسبح و يحمد لصاحبه، فإن التسبيح هو التنزيه عن الجهل و العجز، و الآثار تدل على عدمهما، و الحمد هو الثناء لجميل الطرف، و الرعد يدل على جميل فعل الله سبحانه و إنما خص الرعد بذلك، لأن صوته يناسب ذلك، إذ المسبح الحامد يظهر من نفسه صوتاً و إلا فكل شيء يسبح و يحمد الله سبحانه، و من المحتمل أن يراد الحمد و التسبيح حقيقة، بلسان لا نفقهه، كما قال سبحانه (وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨

لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) «١» بل مقتضى «لا تفقهون» إنها تسبح و تحمد حقيقة، إذ لو كان المراد بالتسبيح الدلالة - كما ذكر فى المعنى الأول - لكان ذلك مفهوماً لنا - و الله أعلم - و معنى «يسبح بحمده» أن التنزيه إنما هو بذكر الجميل، فإن النزاهة و الجمال، لا تتلازمان خارجاً، فربّ نزيه غير جميل، كما أنه رب جميل ليس بنزيه، و التنزيه الجميل، قد ينزه الإنسان، فيقول إن فلانا «غير قبيح» و قد ينزهه بذكر جماله، فيقول فلان «جميل» فإن «جميل» تنزيه له عن القبح بالثناء - الذى هو الحمد - و تسبيح الرعد بالحمد، فإن الرعد يدل على العلم و القدرة، و ذلك تنزيه عن الجهل و العجز و يسبح الْمَلَائِكَةُ أَى ينزهونه سبحانه عن النقائص مِنْ خِيفَتِهِ من خوفه سبحانه، فإن التسبيح قد يكون لمجرد ذكر الجميل، و قد يكون رغبةً، و قد يكون رهبةً، و إنما جاء بذلك - هنا - للتناسق مع الرعد المقرقع المخوف، و البرق الخالب المخيف، و الصاعقة وَ يُرْسِلُ اللهُ سبحانه الصَّوَاعِقَ وَ الصاعقة هى جسم معدنى، محمى حتى الاحمرار تقذف من أعالي الجو عند السحاب و البرق و الرعد - غالباً - و علل فى العلم الحديث، بأنها من كراهة آخر، تحميها الحركة السريعة

فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْجَوِّ الرَّهِيْبِ، نَرَى الْبَشَرَ الْعَاتِيَّ، وَ هُمْ يُجَادِلُونَ فِي وَجُودِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ مَعَ ضَعْفِهِمْ وَ عِزِّهِمْ، وَ قَدْ رَأَوْا تِلْكَ الْمَشَاهِدَ الْكُونِيَّةَ الرَّهِيْبَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ عَالَمٍ قَدِيرٍ وَ هُوَ سَبْحَانَهُ شَدِيدُ الْمِحَالِ أَى

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩

[سورة الرعد (١٣): آية ١٤]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)

شديد الأخذ بالعقاب، فإن المحال مصدر باب المفاعلة، يقال ما حله مما حله و محالا، و على وزنه ضاربه، يضاربه، ضرابا، بمعنى قاواه، حتى يتبين أيها أشد.

[١٥] إنهم يدعون مع الله شركاء، و يجادلون فيه، و الحال أن دعوته - وحدها - هي الحق، فمن دعاه كان محقا، و من دعا غيره كان مبطلا، له دَعْوَةُ الْحَقِّ فَالدَّعْوَةُ لَهُ هِيَ حَقٌّ، لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُطَابِقَةٌ لِلْوَاقِعِ، وَ مَعْنَى «لَهُ» الْإِخْتِصَاصُ، أَى دَعَا إِلَهَهُ - إِذَا أُرِيدَ أَنْ يَكُونَ حَقًّا - فَهُوَ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَى الْأَصْنَامُ الَّتِي تَدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَمِصْدَاقُ «الَّذِينَ» هِيَ الْأَصْنَامُ، وَ إِنَّمَا جِئَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ الْعَاقِلِ، تَمَاشِيَا مَعَ زَعْمِ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّهَا تَعْقَلُ - كَمَا مَرَّ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلَ ذَلِكَ - وَ الْعَائِدُ فِي «يدعون» مَحْذُوفٌ أَى «يدعونهم» لَا يَسْتَجِيبُونَ أَى تِلْكَ الْأَصْنَامُ الْمَدْعُودَةُ لَهُمْ أَى لِلدَّاعِينَ الْمُشْرِكِينَ بِشَيْءٍ لَا قَلِيلَ، وَ لَا كَثِيرَ، لَا مِنْ شُؤْنِ الدُّنْيَا، وَ لَا مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ، إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ هَذَا مِثْلَ لِمَنْ دَعَا الْأَصْنَامَ، لِيَقْضُوا حَاجَتَهُ، فَالدَّاعِي لَهَا كَمِثْلِ رَجُلٍ بَسَطَ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ، لِيَتَنَاوَلَهُ، وَ يَسْكُنُ بِهِ غَلْتَهُ، وَ ذَلِكَ الْمَاءُ لَا - يَبْلُغُ فَاهُ لِبَعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا وَ مَا هُوَ أَى الْمَاءُ بِبَالِغِهِ فَالْمَاءُ كَالصَّنْمِ كِلَاهِمَا لَا يَعْقَلُ وَ لَا يَسْتَجِيبُ، فَالدَّاعِي لِلصَّنْمِ، كَالطَّالِبِ لِلْمَاءِ، وَ بَسَطَ الْكُفَّ لِلدَّعَاءِ كَبَسَطَ الْكُفَّ نَحْوَ الْمَاءِ، وَ بَعْدَ الْمَاءِ كَبَعْدَ الصَّنْمِ، فِي عَدَمِ الْاسْتِجَابَةِ، فَكَمَا أَنَّ الطَّالِبَ لِلْمَاءِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ لَا يَتَحَصَّلُ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي يَرُودُ عَطْشَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠

[سورة الرعد (١٣): آية ١٥]

وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ ظَلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَ الْأَصَالِ (١٥)

كذلك الداعي للصنم لا يتحصل على الإجابة التي تقضى حاجته، قال بعض المفسرين: ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء؟ انظروا هذا واحد منهم: ملهوف ظمآن، يمد ذراعيه، و يبسط كفيه، و فمه مفتوح يلهب بالدعاء، يطلب الماء ليلبغ فاه، فلا يلبغه، و ما هو ببالغه، بعد الجهد و اللهفة و العناء، و كذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء و ما دُعَاءُ الْكَافِرِينَ لِأَصْنَامِهِمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ يَضِلُّ وَ يَتِيهِ وَ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِهَذَا الْمِثَالِ، لِيُنَاسِبَ السِّيَاقَ مَعَ السَّحَابِ وَ الرَّعْدِ وَ الْبُرْقِ الْمَوْحِيَةِ بِجُودِ الْمَاءِ وَ الْمَطْرِ.

[١٦] إن الكفار يأتون من السجود لله سبحانه، و إنما يسجدون لأصنامهم، كما يدعون أصنامهم، و لا يدعون الله الواحد وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَ غَيْرِهَا، حَتَّى نَفْسُ السَّمَاءِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا أَى سِوَاءَ كَانُوا طَائِعِينَ أَوْ مُكَرِّهِينَ لِلسَّجُودِ، كَالْكَافِرِ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ السَّجُودَ، لَكِنْ شَخْصِهِمْ تَسْجُدُ وَ تَخْضَعُ لِلَّهِ خُضُوعًا تَكْوِينِيًّا، وَ إِن لَمْ يَخْضَعُوا خُضُوعًا إِرَادِيًّا، وَ الْمُرَادُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَعْمَ مِنَ الْعَاقِلِ وَ غَيْرِهِ، حَتَّى نَفْسُ الْأَرْضِ، حَتَّى غَلَبَ الْعَقْلَاءُ، وَ إِن أُرِيدَ الْأَعْمَ، كَمَا غَلَبَ الْمَظْرُوفُ، وَ إِن أُرِيدَ الْأَعْمَ مِنْهُ وَ مِنَ الظُّرْفِ، وَ إِنَّمَا اسْتَفَدْنَا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ وَ ظَلَالُهُمْ أَى حَتَّى أَظْلَمْتُمْ، فَكُلُّ مَا فِي الْكُونِ مِنَ الْأَشْخَاصِ وَ الْأَصْلَةِ يَسْجُدُ لِلَّهِ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ السَّجُودِ، لِأَنَّهُ رَمَزٌ لِغَايَةِ الْخُضُوعِ أَى إِنَّهَا جَمِيعًا خَاضِعَةٌ غَايَةَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ ذَلِكَ وَاضِحٌ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١

[سورة الرعد (١٣): آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَشْفِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَشْفِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورَ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ (١٦)

منقادة لإرادة الله تعالى لا يحيد عنها قدر شعرة، و ذكر بِالْغُدُوِّ أى الصباح وَالْأَصَالِ جمع أصيل و هو العصر، كأنه لتعميم الظل، حتى لا يتوهم أنه خاص بالظل قبل الظهر مقابل الفياء الذى هو ظل بعد الظهر؟ من فاء يفاء إذا رجع، و كان الإتيان ب «بالأصال» جمعا مع الإتيان بالغدو مفردا للتناسب مع «فى ضلال» فى الآية السابقة، و لا يخفى أن الكافر و الملحد أيضا يسجد لله، و يسجد ظله، لكن بالسجود التكويني الذى يسجد بنحوه جميع الأشياء، فجسد الكافر، خاضع لناموس الكون الذى قرره الله سبحانه غاية الخضوع، لا يتمكن أن يحيد عنه قدر شعرة، و إنما يأبى السجود التشريعى له سبحانه، فلا يضع جبهته على الأرض، و لا يخضع لله غاية الخضوع، جهلا.

[١٧] و فى هذا الجو المدهش، يتوجه إليهم بالأسئلة، ليجيبوا عنها، كما شاهدوا من ذى قبل، فإنك إذا أردت أن تلجأ إنسانا إلى السير معك فى فكرك و نظرك، جئت إليه بالواقع الذى لا يتمكن أن يحيد عنه ثم تسأل منه، كما أنك لو أردت اعترافه بأن سيارتك أجمل من سيارته، جئت إليه بها، ثم تقول له أيهما أجمل، و قد أتى السياق هنا جملة من الآيات الكونية، و ألفت الأنظار إليها، ثم يسأل قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هل هو الله أم أصنامكم؟ إنهم لا يحرون جوابا، لأن الجواب الحقيقى لا يريدونه، و الجواب الذى لا يناسب عبادتهم لا يرون له مجالا، فكيف يقولون إن رب تلك الآيات الكثيرة المدهشة المتقدمة هى الأصنام التى لا تعقل؟ ف قُلْ أنت يا رسول الله فى الجواب: إن رب السماوات و الأرض هو الله وحده، ثم قُلْ يا رسول الله لهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢

أَفَاتَّخَذْتُمْ هل عبدتم من دونه من دون الله أولياء أصناما تتولونها و تعبدونها و تمحضون لها الولائية و المحبة؟ إنه عمل قبيح، أن يترك الإنسان خالق السماوات و الأرض، و يتخذ إليها غيره لا يسمع و لا يعقل، و الحال أن هذه الأصنام لا يملكون لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فلا يقدر الصنم أن يجلب لنفسه نفعا، و لا أن يدفع عن نفسه ضرا فكيف يكون إلها ما لا يقدر حتى على نفع نفسه، و دفع الضر عنه؟ و قد تقدم، أن الإتيان بالجمع العاقل نحو «لا يملكون» تماشيا مع زعم المشركين، و من المعلوم أن المشركين يسكتون هنا أيضا، إذ يرون الحق فى جانب الرسول، و لكنهم لا يقدرن على الجواب ف قُلْ لهم يا رسول الله هَلْ يَشْفِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ؟

و الجواب- طبعاً- لا يستويان، فكيف اتخذوا الصنم الأعمى- الذى لا يبصر- إلها، و تركوا الخالق البصير بكل شىء؟ ثم قل لهم أَمْ هَلْ تَشْفِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورَ؟ و الجواب- طبعاً- لا يستويان، فكيف اتخذوا الصنم الذى هو ظلمة- لا ظاهر بنفسه و لا مظهر لغيره- إلها- و تركوا الخالق الذى هو نور السماوات و الأرض، ظاهر بذاته مظهر لغيره؟ أَمْ كيف جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ؟ بعد تمام الحجج و وضوح الدليل، فهل خَلَقُوا أى خلقت هذه الأصنام التى جعلوها شركاء لله، أشياء كَخَلْقِهِ أى مثل ما خلق سبحانه أشياء فَتَشَابَهُ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ أى فاشتبهت مخلوقات الله بمخلوقات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣

[سورة الرعد (١٣): آية ١٧]

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدْرِهَا فَخْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الرِّبْدُ فيذهب جفاءً و أمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فيمكثُ فى الأرض كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأمثالَ (١٧)

الأصنام، فعبدوا الأصنام، كما عبدوا الله سبحانه، حتى يكونوا معذورين فى الشرك، و إنما جىء بقوله «فتشابه» مع إنه ليس من مصب

الكلام، و مورد النفي و الإثبات، لبيان أنه لو كانت الأصنام خلقت شيئاً، كان لهم الحق، في أن يقولوا: إنا قد تشابه الأمر علينا، إذ رأينا أن الأصنام تخلق كما خلق الله، فقلنا إنها آلهة، كما إن الله إله، أما و الأصنام، لم تخلق شيئاً، فلا يحق لهم عبادتها، إذ ليس لها من مقومات الالهية شىء، ... و أخيراً قُلْ يا رسول الله لهم اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فلا خالق سواه، فإن قيل: فما معنى «أحسن الخالقين» مما يدل على أن غيره أيضاً خالق؟ قلنا أن ذلك على ضرب من المجاز و التشبيه، لا الحقيقة - كما هو واضح - وَهُوَ الْوَاحِدُ لا شريك له الْقَهَّارُ الْغَالِبُ على كل شىء، فلا شىء فى عداده، إذ لو كان شىء مثله، لم يعمه قهر الله سبحانه و غلبته، فإذا كان تعالى غالباً على كل شىء، دل على أنه ليس شىء فى عداده، خارج عن قهره و غلبته.

[١٨] ثم ضرب - سبحانه - مثلاً للحق الباقى، و الباطل الذاهب، بما يلائم سياق الآيات السابقة، فقد كان الكلام سابقاً حول البرق، و الرعد، و السحاب المثقل بالمطار، و باسط كفيه إلى الماء، و يأتى المثل ليمثل للحق بالماء الهادئ الساكن النافع الباقى، و للباطل بالزبد الذى يطفو فوق الماء، حتى يراه الإنسان أعلى من الماء، لكن هذا الباطل الرابى، لا يمر زمان حتى يذهب و يبطل، و ذلك الماء يبقى ليحى و ينتفع به، و كذلك من هذا القبيل ما يذاب من المعادن، فإن الزبد يطفو فوقه، و الخالص يبقى تحته، فيبطل الزبد، و يبقى الخالص، ليتجمل به

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤

الإنسان و ينتفع منه، فالحياء و الجمال هما من الباقى الذى هو مثل للحق، و الباطل لا يمثل إلا دور الزبد الذى يعلو - فى النظر - أولاً، ثم لا يلبث أن يذهب و يضمحل، فلا يبقى منه شىء، و لم ينفع شيئاً، الزبد مثال للباطل الذى يتخذة هؤلاء المشركين، كالأصنام، التى لا تنفع، و إن ظهرت أول الأمر غالباً على الحق، و الماء و الحلية مثال للحق، الذى يتخذة المؤمنون للحياة و التجمل، و إن علاه الباطل - كالزبد الرابى على الماء، و الحلية - ابتداءً، أنزل سبحانه من السماء ماءً أى المطر، و المراد من السماء، جهة العلو فسألت أى جرت أوديته جمع وادى، و هو النهر بقدرها أى كل بقدره، فالنهر الصغير أخذ من ذلك الماء قدراً قليلاً، و النهر الكبير، أخذ من ذلك الماء قدراً كثيراً - و كان بيان إنزال الماء من السماء لتشبيه الحق المنزل به، فإن الحق ينزل من الماء، ثم يختلط به الباطل، إذ الباطل إنما يروج نفسه باسم الحق، و بعد ذلك، يذهب الباطل، و يبقى الحق، و هكذا الماء، فإنه ينزل من السماء صافياً، ثم يعلوه الزبد فى الأرض، و كان وجه ذكر «فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا» بيان أن الحق هكذا فى مجارى الأمم، فرب أمه أخذت من الحق كثيراً حسب طيب نفوسها، و حسن الدعوة فيها، و رب أمه أخذت من الحق قليلاً، حسب خبث نفوسها و بعد الدعوة عنها، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ أى أخذ السيل، الذى يمر فى الأودية، من سال الماء، إذا جرى زبداً رايياً أى طافياً على الماء، من ربي بمعنى علا، فإن الماء لا يلبث أن يظهر، و الزبد لا يلبث

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٥

أن يذهب، و هكذا الحق يبقى - ليحيا - و الباطل يفنى و يذهب وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ يُقَالُ أَوْقَدَ النَّارَ، بمعنى أشعلها، و ضمير «عليه» يرجع إلى «ما» الموصولة فى «مما» الذى مصداقه «الفلزات» كالفضة و الذهب و الحديد، و سائر المعادن، و إنما قال «عليه» لأن الإيقاد، يكون «على الفلز» كأنه يضرب به، إذ يخضعه للذوبان، كالذى يتسلط على غيره فى النار حال تقديره ثابتاً فى النار، أى فى حال كون ما يوقد عليه، ثابتاً فى النار، فإن الفلز يجعل على النار حتى يذوب ابتغاء حليته أو متاع حال عن الضمير فى «يوقدون» أى الذين يوقدون الفلز فى النار، فى حال كونهم يبتغون و يطلبون بذلك الزينة - كما لو أذابوا الذهب و الفضة، للسوار و القلادة و نحوهما - أو يطلبون بذلك «المتاع» أى ما يمتع به، و يستعمل فى الحوائج - كما لو أذابوا الزنك، و الحديد و النحاس، لصنع الأواني و المحرثات، و الإبريق و نحوها - فهنا حالان، «فى النار» حال عن الضمير فى «عليه» و «ابتغاء» حال عن الضمير فى «يوقدون» وَ زَبَدٌ مِثْلُهُ مبتدأ و «مثله» صفته، خبره «مما يوقدون» المتقدم، و إنما تقدم الخبر، لأن المبتدأ، إذا كان نكرة، قدم خبره الذى هو ظرف، أو جار و مجرور عليه، قال ابن مالك.

و لا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تغد كعند زيد نمره

و المعنى أن بعض الفلزات الذى يشعل الناس النار «عليه» أى على ضرر ذلك الفلز لأجل إخضاعه و إذابته، فى حال كون ذلك الفلز فى النار، و فى حال كون الناس يبتغون بالإذابة، صنع الزينه، أو صنع الأمتعة، زبد خبيث، مثل زبد الماء، فيطفوا على البوتقة، حتى يغطى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٦

[سورة الرعد (١٣): آية ١٨]

لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)

الفلز المذاب الصالح كذلك الذى مثلنا من الماء و زبده و الفلز و زبده يضرِبُ اللهُ مثلال الحَقِّ و الباطل فالحق يحيى، و يسبب الجمال، كالماء الذى يحيى، و الفلز الذى يسبب الجمال و رفع الحاجة، و الباطل يفنى و يذهب كالزبد الذى يطفو على الماء و على البوتقة، و لعل التعبير - ب «الضرب» فى المثل، لأجل اصطدام الدهن به، فإن الدهن يتأثر بالمثل أكثر مما يتأثر بأصل المطلب، و لذا أن من فنون البلاغة أن يكثر الإنسان المثل، فإنه يوجب توضيح المطلب و ترسيخه فأما الزيد الطافى، فيذهب جفاء أى باطلا متفرقا، بحيث لا ينتفع به، من جفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، و أما ما ينفَعُ النَّاسَ من الماء الجارى فى الأودية، و الفلز الصافى فيمكثُ فى الأرض يبقى ليسقى الزرع و الحيوان و الإنسان، أو يمتع به فى حوائجه كذلك الذى تقدم من المثل يضرِبُ اللهُ الأمثال للناس واضحة جلية، ليرسخ الحق فى أدمغتهم، و يتركز فى نفوسهم.

[١٩] و إذا تقرر أن الله سبحانه أنزل من السماء «الحق» لاستفادة الناس - كما أنزل من السماء ماء - فمن استجاب لله، و قبل الحق، له خير الدنيا و سعادة الآخرة، و من لم يستجب له، فإن له سوء العاقبة و عذاب الآخرة ف للَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى «الحسنى» مبتدأ و «الذين» خبره، و لعل الإتيان ب «استجاب» دون «أجاب» مع أن كلا منهما بمعنى الآخر، لبيان أن إجابة الله سبحانه، تحتاج إلى التهيؤ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٧

و الاستعداد، كما يشعر بذلك كونه من باب الاستفعال، الذى كان الأصل فيه الطلب، يقال: استخرج بمعنى طلب الخروج و «الحسنى» صفة لمحذوف، أى الحالة الحسنه، فى الدنيا و الآخرة، فإن مناهج الله سبحانه و دساتيره فى الحياة، توجب الراحة و الرفاه و السعادة فى الناشئين، فالذين قبلوا أوامر الله سبحانه، فلهم الحالة الحسنه و الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ أى لله تعالى، فلم يؤمنوا به، و لم يمتثلوا بأوامره، فلهم أسوأ الحالات، أما فى الدنيا «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» و أما فى الآخرة - و هى العمدة - فإنهم فى شقاء و عذاب، حتى لو أن لهم ما فى الأرض من الثروة جميعاً، لا يشاركون فيها أحد، فلهم كل المناصب، و كل الأموال، و كل الأراضى و الأنهار، و كل الخدم و الحشم و مثله معه حتى كأن هناك أرضين، و لهم اثنتان - و هذا من باب المثل، و إلا فالمراد، أن كل الأشياء لا تنفعهم، و إن كانت آلاف الأراضى، كما تقدم شبه ذلك فى قوله سبحانه، «إِنْ تَسْتَعْفِفْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً» - لَافْتَدَوْا بِهِ أى جعلوا ذلك كله فدية لأنفسهم من العذاب، و الفدية هى التى تعطى لإنقاذ النفس، كالفداء، و لكن لا تنفعهم الفدية، أولئك لهم سُوءُ الْحِسَابِ و المراد بسوء الحساب العدل فيه، و إنما سُمى سوءاً، لأنه يسىء إلى المحاسب المذنب، و هذا بخلاف المؤمن المطيع، فإنه يحاسب حساباً يسيراً، و يتفضل عليه بغفران ذنبه، و عدم المناقشة معه فى حسابيه، و لذا ورد: ربنا عاملنا بفضلك، و لا تعاملنا بعدلك و مأواهم أى مصيرهم من أوى يأوى، بمعنى اتخذ المأوى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٨

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ

(٢٠)

و المحل و المكان جَهَنَّمُ وَ بئس المهاد المهاد الفراش، سمي بذلك، لأن الإنسان يمهده لنفسه، و يهيئه لراحته، أى بئس ما مهدوا لأنفسهم من النار.

[٢٠] و هنا يأتى الفرق بين المؤمن و الكافر، بعد ما بين الفرق بين الإيمان و الكفر- و إن الأول كالماء، و الفلز، و الثانى كالزبد- أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا موصولة، أى أن القرآن الذى أُنزلَ إِلَيْكَ يا رسول الله مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فَيُؤْمِنُ، و يخضع و يطيع، فهو بصير بالحق يراه، و يعمل به كَمَنْ هُوَ أَعْمَى لا يرى الحق و لا يبصره، و الاستفهام إنكارى، أى ليس هذان متساويين إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ أى أصحاب العقول، فإنهم هم الذين يعملون أفكارهم، ليتذكروا الحقائق، و يستدلون من الأثر إلى المؤثر، و من الكون إلى إله الكون.

[٢١] ثم وصف المؤمن المشار إليه بقوله «أ فمن يعلم» و قال فى حقهم أنهم أولوا الألباب، فإنهم هم الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ المودع فى فطرتهم، و لو لا عهده معهم، لم تكن فطرتهم ترشدهم إلى ذلك، إذ لا يمكن للإنسان أن يترشح منه إلا ما هو فيه، و إلا فكيف يعرف الإنسان أن للكون إلهها، و هكذا كيف يعرف أن العدل حسن، لو لم يودع فيه ما يترشح منه ذلك؟ هذا بالإضافة إلى أخذ الأنبياء العهد من أممهم، و العهد المأخوذ، و إن كان من الآباء، لكن الأبناء، حيث أدخلوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٩

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

وَ الَّذِينَ يَصْتَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)

أنفسهم فى اطار الآباء، كان العهد مستقرا عليهم، و هذا هو السر فى أخذ الأمم بما يفعله الآباء أو الكبراء، فإن الالتزام بالإطار، التزام بما يكون فيه، و يدور فى حلقتة و لا يُتَقَضُونَ الميثاق أى العهد الأكيد، الذى أخذه سبحانه منهم بالإيمان بالله و رسله، و الميثاق مشتق من «وثق» كأنه يوجب ثقة كل جانب بالآخر، إذا أبرم العهد.

[٢٢] وَ الَّذِينَ يَصْتَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فكل ما أمر الله بصلته، و الاتصال به من الأنبياء عليهم السلام و المرسلين، و عبادة الصالحين، و الأعمال الحسنه، و العبادات و غيرها، أنهم يصلون به، و يتصلون إليه، اتصالا قلبيا، أو لسانيا، أو عمليا، و ذلك موجب للانقطاع عما أمر الله به أن يقطع بالتلازم وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فلا يخالفونه بالعصيان، و لعل المراد بالأول الإطاعة، و بهذا العصيان وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ليس المراد الظلم، فإن الله سبحانه لا يظلم، و إنما المراد العدل، فإن الحساب لو كان عادلا- و لم يجر على مقتضى الفضل- أساء إلى الذى يحاسب، و لذا سمي سوءا.

[٢٣] وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ هذا، و إن كان داخلا فى «يصلون» إلا أنه ذكر خاصا لأهميته، و هكذا الفقر التالية، فقد جمعت الآياتان السابقتان المبدأ و المعاد و الشؤون المتوسطة بينهما، فالمبدأ ذكر ب «الذين يوفون» و المعاد ب «و يخافون» و ما بينهما ب «الذين يصلون» ثم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة بأن يصبر الإنسان على أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٠

يطيع، و صبر على المعصية، بأن يأخذ الشخص زمام شهوته عند المعصية، و صبر على المصيبة، بأن لا يجزع الإنسان عند نزول كارثته به من فقر أو مرض، أو ما أشبه، ثم اللازم، أن يكون الصبر لأجله سبحانه، لا لانتهاز أمور دنيوية، و إلا فلا قيمة له، و أقاموا الصلوة داوموا عليها باستمرار، و أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ من كل شىء رزقوا، و إنفاق كل شىء بحسبه، فإنفاق العلم بذله، و إنفاق الجاه قضاء الحوائج، و إنفاق المال إعطائه، و إنفاق الساسة، إدارة الأمور، و هكذا سِرًّا وَ عَلَانِيَةً أى فى جميع الأوقات و الأحوال، فإن مثل هذا الإنسان، هو الذى ينفق فى سبيل الله تعالى، و يكون الإنفاق مقصده، لا الرياء و السمعة، و ما أشبه وَيَدْرُونَ أى يدفعون بسبب الحسنه السَّيِّئَةَ إما بمعنى أنهم إذا ساءوا، و فعلوا شيئا من المعاصى، فعلوا بعد ذلك بعض الحسنات، فإن الحسنه تمحى السيئه، قال سبحانه (إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (١)

و روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ بن جبل إذا عملت سيئة، فاعمل بجنبها حسنة تمحها
 (٢). و إما المراد أنهم إذا أساء إليهم أحد لم يسيئوا إليه، بل يحسنون إليه، وهذا غاية الفضيلة، كما
 في دعاء مكارم الأخلاق، للإمام السجاد عليه السلام «اللهم صل على محمد وآل محمد، و سددي لأن أعارض من غشني بالنصح، و
 أجزى من هجرني بالبر، و أثيب من

(١) هود: ١١٥.

(٢) راجع وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٠٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨١

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

جَنَاتٍ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
 صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

حرمنى بالبذل، و أكافى من قطعنى بالصلة، و أخالف من اغتابنى إلى حسن الذكر

«١» أولئك المتصفون بهذه الصفات لهم عُقْبَى الدَّارِ أى عاقبة الجنة، فإنهم يدخلونها خالدين فيها.

[٢٤] ثم فسر سبحانه «الدار» بقوله جَنَاتٍ عِدْنٍ أى بساتين إقامة من عدن بالمكان بمعنى أقام فيه إقامة طويلة، و فى الأحاديث أنها
 جنات خاصة، فإن كلا من فردوس، و عدن، و ما أشبههما، اسم لجنة خاصة من الجنان الكثيرة يَدْخُلُونَهَا أى يدخلها هؤلاء المتصفون
 بتلك الصفات و يدخلها مَنْ صَلَحَ أى من كان صالحاً قولاً و عملاً و عقيدةً مِنْ آبَائِهِمْ الأبوين و الأجداد و أزواجِهِمْ زوج المرأة، و
 زوج الرجل، أو الأعم من ذلك، و من سائر الأقران، فإن الزوج يطلق على المثل، كما قال سبحانه، (وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) «٢» وَ
 ذُرِّيَّاتِهِمْ أولادهم مهما نزل- و هذه نعمة كبيرة، أن يتنعم الإنسان بهؤلاء فى الجنة- وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ من أبواب
 الجنة قائلين.

[٢٥] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يحيونهم بالسلام تكريماً لهم، و معنى السلام، أن تكونوا سالمين من الآفات، و الجنة و إن كانت محل النعيم و
 الراحة،

(١) الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٢٠ المسمى بدعاء مكارم الأخلاق.

(٢) ص: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٢

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
 (٢٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

لا تحمل الآفات و العاهات، إلا أن التسليم هناك، نوع من التكريم بما صَبَرْتُمْ أى أن تكريمنا لكم بسبب صبركم على مكاره الدنيا، و
 أن سلامتكم هذه فى الجنة بسبب صبركم فى الدنيا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ أى نعم عاقبة للدار ما أنتم فيه من النعيم و الكرامة.

[٢٦] هذا كان عاقبة المؤمنين العاملين، فلننظر إلى حال الكفار و الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ بالإيمان، بما أودع فيهم من الفطرة، و
 أخذ عليهم بلسان الأنبياء مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ من بعد توثيقه و ابرامه و يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فلا يصلون الأنبياء عليهم السَّلام و
 الأئمة الصالحين، و لا يصلون الأرحام و الفقراء و المساكين و يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالدعاء إلى الضلال، و الظلم و الفتنة، و ما أشبه

أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ الطرد عن رحمة الله سبحانه، و الإبعاد عن الجنة و لَهُم سُوءُ الدَّارِ أى نار الدار الآخرة و عذابها.

[٢٧] إن هؤلاء الذين نقضوا عهد الله، أخذوا يوسعون فى أمور دنياهم تاركين الآخرة، كأنها ليست بشىء، و كان الدنيا هى التى يجب العمل لها وحدها، مع أنه ليس كذلك ف الله وحده بيده أزمة الدنيا و الآخرة، فهو يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ يوسع عليه و يَقْدِرُ أى يضيق الرزق لمن يشاء، من قدر، بمعنى ضيق، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٧]

و يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ (٢٧)

قال سبحانه (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) «١» و قال (فَطَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) «٢» و إذا كان الله سبحانه هو الذى تكفل بالدنيا، فما هذا الاهتمام- من نقض عهد الله- للأمر الدنيوية؟ و فرحوا أى فرح هؤلاء الناقضون بالحياة الدنيا، و بطروا بها ناسين الآخرة مخصصين فرحهم كله للدنيا و الحال أنه ما الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها فى الآخرة «فى» بمعنى النسبة، و الاضافة، أى بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع قليل، يتمتع به الإنسان، و أما الآخرة فهى الدار الباقية، التى فيها أنواع النعم و الكرامة، ثم أن كون الله سبحانه، هو الباسط للرزق، و المضيق له، بمعنى أنه يقدر هذا لهذا، و ذاك لغيره، و لذا نرى رب فطن كاد ليس له إلا القليل، و رب بليد كسول، تأتبه الدنيا صاغرة، قال الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه و جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى أوجب الإيمان فى «أحد» يدبر الأمر توسيعا و تضيقا «٣»

نعم للعمل حظ بقدر ما جعله سبحانه سببا، فإن العمل- بقدر- و الغيب كلاهما دخيلان فى أمر من الأمور الإدارية.

[٢٨] و إذ تقدم الكلام حول الذين ينقضون عهد الله بعدم الإيمان به، فإنهم هم الذين لا يؤمنون بالرسول، لأعذار واهية

(١) الطلاق: ٨.

(٢) الأنبياء: ٨٨.

(٣) البيت الثانى للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٨]

الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)

و يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ لَوْ لَا أى هلا أنزل عليه أى على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم آية معجزة خارقة من ربه مما نقترحها من المعجزات و الخوارق، و لم يكن لهم حق الإجابة، فإن الآية نزلت، و هى القرآن الحكيم، لكنهم كانوا معاندين يريدون التعنت قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِي سَبَبٌ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، أنكم تتركون الإرشادات العقلية، فترككم الله، و لا يلفظ بكم حتى تؤمنوا، بعكس المؤمنين الذين عملوا عقولهم فآمنوا، و لذا لطف سبحانه بهم ف إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بترك لطفه به، بعد ما أراه الطريق فلم يسلكه، كما تقول: أن الحكومة ضيعت فلانا، تريد انها لم تعتن به حتى ضل و ضاع، بعد أن أرتبه الحكومة الطريق، فلم يسلكه و يَهْدِي إِلَيْهِ أى إلى نفسه و طريقه مَنْ أَنْابَ أى رجع عن غيه، فمن رجع عن الغي، و أراد الهدى، لطف به سبحانه أطفاه الخاصة، حتى يهتدى حقيقة، و يكون من الأعلين حظا و رشدا.

[٢٩] و من ذاك الذى يهديه الله سبحانه؟ إنهم هم الَّذِينَ آمَنُوا بأن اتبعوا الحق، فإنهم يهديهم الله- أى يلفظ بهم أطفاه الخفية-

كالولد الذى يسمع كلام أبيه، فيلطف به بالتوسعة، فى أموره، و معاضدته فى حوائجه و مهامه و هؤلاء المؤمنون تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ

اللَّهُ الْقَرَّانَ الْحَكِيمِ، فلا- يطلبون خوارق و آيات، تعندا و اعتباطا، أو المراد الأعم من ذلك، فإن كل مؤمن مطمئن القلب، غير قلق، إذ الاعتماد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٥

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٩]

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ (٢٩)

على الله يهون المصائب، كما تحفظ القلوب عن البطر، فإن الإيمان كالزمام الذي يعدل سير الحيوان، لا يبطر عند النعمة، لما يرى من رقابة عليه، ولا- يجزع عند البلية، لما يعلم ما أعد الله للمؤمنين الصابرين من الأجر ألا فلينتبه الإنسان بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ التي دخلها ذكر الله، فإنك إذا عرفت أن عليك سيديا، إذا أنعم أراد الشكر، وإذا أبلى جزاك بالأجر اطمئن قلبك، و لم يكن كالقلب القلق الذي تخرجه النعمة إلى الإفراط، و البلية إلى التفريط، و لذا

كان يقول الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء: «هون ما نزل بي أنه بعين الله»

«١».

[٣٠] ثم ابتدأ بقوله الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، و اليوم الآخر، و ما يجب الإيمان و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، مما أمر الله به، و يدخل فيه- بالتلازم- و الاجتناب عن الأعمال القبيحة طُوبَى لَهُمْ مؤث طيب، أى أن لهم الخلة و المقامة الطيبة الحسنة فى الدنيا، أو الأعم، و حَسُنَ مَا أَجْرُهُ أى المرجع الحسن فى الآخرة، أما فى الدنيا، فإنهم آمنون مطمئنون تهديهم مناهج الله سبحانه إلى السعادة و الرفاه، و أما فى الآخرة، فإن لهم جنات النعيم، و من المعلوم أن «شجرة طوبى» التى هى شجرة خيرة فى الجنة، إنما هى مصداق من مصاديق ما يناله المؤمن من المنزلة الطيبة فما فى بعض الأحاديث من تفسيرها بتلك، فإنما هو إشارة إلى أحد المصاديق.

(١) اللهوف على قتلى الطفوف: ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٦

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٠ الى ٣١]

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْبُرُوجُ أَوْ كَلَّمَتْ بِهِ الْمَرْجُومُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَآ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَدَّقُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

[٣١] إن هؤلاء الذين يطلبون الخوارق حالهم كحال من سلف من الأمم، و قد أرسلنا فى تلك الأمم رسلا، لكنهم أبوا إلا الكفر، كما أن ذلك لم يضر الرسل، فلتمضى يا رسول الله على نهجك كذلك أى كما أرسلنا فى الأمم السابقة رسلا أرسلناك يا رسول الله فى أُمَّةٍ من الناس، و هم المعاصرون لك قَدْ خَلَتْ أى مضت من خلا بمعنى مضى مِنْ قَبْلِهَا أُمَّةٌ أرسلت إليهم الرسل، و إنما أرسلناك لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ من القرآن، و سائر الأحكام المنزلة وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ الذى يرحمهم، و يتفضل عليهم، أنه فى غاية العجب أن يتفضل الله بالرحمة، و يتلو رسوله عليهم الآيات، ثم هم يعرضون عن الرسول، و يكفرون بالله، فإن أعرضوا قُلْ يا رسول الله هُوَ رَبِّي و امض فى طريقك فى الإعلان و الإرشاد لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فما عداه من الأصنام و المعبودات باطله، لا تستحق العبادة عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فوضت أمري، مستمسكا بطاعته و إِلَيْهِ مَتَابٍ من تاب بمعنى رجع، أى إليه مرجعى، فإنه مصدر ميمي يقال تاب يتوب و متابا.

[٣٢] إن الكفار يطلبون الخوارق، و لا- يطمئنون إلى ذكر الله القرآن الحكيم، و إنا قد أرسلناك، لتتلو عليهم القرآن، و ما أعظمه من

كتاب، فإنه من العظمة والتأثير، حتى لتكاد تسيير به الجبال، و تتقطع به الأرض، و يكلم به الموتى، لما فيه من قوة و طاقه و تأثير، و لكن هؤلاء قست

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٧

قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلا- يؤمنون به، و يطلبون آية غيره، إنا أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن و لو أن قرآناً أى مقروء، أى لو كان هناك قرآن سِيَّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ بأن يقرأ على جبل فيسير من شدة تأثيره و طاقته المسيرة للجماذ أو قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ بأن يقرأ على الأرض، فتتنشق من طاقته الهائلة، التي تنشق الأرض من هيئته أو كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بأن يقرأ على الميت، فيتكلم الأحياء بسببه، أو المراد يحيى الميت- فالتكلم كناية عن الحياة- أى لو أن قرآنا كان كذلك، لكان هو هذا القرآن، و لكن الكفار مع ذلك يطلبون غيره، و لا يكتفون به، فجواب «لو» محذوف و هذا كما يقال: فلان يبكي حتى يتأثر به الحجر يراد أن فى بكائه من الحرارة و اللوعة، ما يكفى لأن يؤثر فى الحجر، و فلان منطيق، يؤثر كلامه فى الأموات، يراد أن فى نطقه من التأثير ما يجعله صالحاً لأن يؤثر فى الأموات ثم أن هذا القرآن يؤثر- بالفعل- هذه التأثيرات، و لكن بشرط أن يتلوه الإنسان الصالح، فهو كالسيف الذى يصلح أن يجز الرقاب، و لكن إذا كان بيد الشجاع،

و قد روى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: قد ورثنا نحن هذا القرآن الذى فيه ما تسيير به الجبال، و تقطع به البلدان، و تحيى به الموتى (١).

و المراد بإرثه بذلك المعنى، لا إرث ألفاظه و أوراقه، فإنهما عامان لكل المسلمين، كما أنه ربما أطلق الإرث و أريد به إرث المعانى مما خفى على كثير من الناس، و لذا انحرفوا فصاروا مجسمة و مجبرة، و ما أشبه

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٨

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً إنهم يطلبون الآيات الخارقة، لكن النبى ليس مكلفاً بذلك، و إنما مكلف بالإنذار، و أن يكون معه ما يصدقه أنه نبى مرسل، و قد فعل الأمرين، فجاء بالقرآن شاهداً، ثم أُنذِر و بشر، أما سائر الآيات، التي يقترحونها، فإنها بيد الله، كما قال سبحانه: (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) (١) فهو ينزلها حسب المصلحة و الحكمة- كما سبق تفصيل ذلك- و إذا أتى هؤلاء الكفار، هذا القرآن العظيم الذى من شأنه تلك التأثيرات الهائلة، ثم لم يؤمنوا به، فليأس المؤمنون من هدايتهم، و ليتظروا عذاب الله و عقابه، جزاء إعراضهم أ فَلَمْ يَبْسُ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ هَؤُلَاءِ؟ و ألم يعلموا أن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَيَّدَى النَّاسَ جَمِيعاً بِالْإِجْبَارِ، فإذا رأوا أنه لا يهدى أحداً بالإجبار، فاللازم أن يأسوا، فإن هناك إما الإيمان بالاختيار، و إما الإيمان بالجبر، و إما اليأس عنهم، فإذا علم المؤمنون أن الله لا يجبر أحداً بالإيمان، و رأوا عناد هؤلاء عن الإيمان الاختيارى، فاللازم أن يأسوا عنهم، و يتركوهم فى ضلالهم يعمهون، و قد ظهر بما ذكرنا: أن «أ فلم يأس» أشرب معنى «أ فلم يعلم» و لذا عمل فى «أن لو يشاء» و إذ لا- يريد الله إجبار الكفار، و لا- أنهم يؤمنون بالاختيار، فليعلم المؤمنون أنه لا يزال الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَيَّعُوا قَارِعَةً ما تفرعهم و تضربهم، فإنه سبحانه لم يشاء إهلاك هذه الأمة دفعه كبعض الأمم

(١) الأنعام: ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٩

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وَلَقَدْ اسْتَمْتَهَرَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ

جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

السالفه، لكنه تعالى يعذبهم مرة، فمرة بقوارع من الضيق والفقر والضر، و تسلط الأعداء عليهم، و نحو ذلك أو تحل القارعة قريباً من دارهم فتروعهم و تخيفهم و تدعهم في قلق و انتظار لمثلها حتى يأتي وعد الله الذي وعده باستئصال المجرمين و نصر المؤمنين عليهم إن الله لا يخلف الميعاد و وعده آت لا محالة.

[٣٣] إن الله سبحانه لا بد و أن يصيب الكفار بالقوارع، كما فعل بمن غبر من الأمم ممن كذبوا الرسل و لقد استهزئ برسل من قبلك يا رسول الله، كما استهزئ بك، فإن من عادة الجهال أن يستهزءوا، إذا لم تكن لهم حجة في قبال المرشد الناصح فأملت للذين كفروا الإملاء، هو أن يقرأ الإنسان شيئاً يكتبه غيره، و هذا كناية عن إمهال الكفار أي شرعت أعدد ما يفعلون من الآثام و الاجرام، لتملاء القائمة المقدرة لهم ثم حين استوفوا الأجل المقدر أخذتهم أهلكتهم، و أنزلت عذابي عليهم فكيف كان عقاب أي فكيف حل بهم عقابي، و هو استفهام للتفخيم، إشارة لعظمه عذابه سبحانه الذي عذبهم به.

[٣٤] و إذا تمت الحجة مع الكفار الذين استهزءوا بالرسل، و أنكروا المبدأ و المعاد، فليعطف الكلام مع المشركين الذين يجعلون مع الله شركاء أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت فهو ناظر إلى أعماله مطلع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٠

على نياته، كمن ليس كذلك من الشركاء الذين يشركونهم مع الله سبحانه؟ إنهما ليسا متساويين طبعاً، ولدى كل عاقل، فكيف يساوى هؤلاء المشركون الله سبحانه بأولئك الشركاء و جعلوا لله شركاء في العبادة و الإطاعة قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين سمؤهم من هم أولئك الذين هم شركاء مع الله، إنها نكرات مجهولة لا شأن لها، حتى أن المشركين هم بأنفسهم يخجلون من تسميتها على الملأ، فكيف يتخذونهم شركاء، أم تنبؤونه أي تخبرون الله سبحانه بما لا يعلم في الأرض فتخبرون الله بآلهة لا يعلمها الله و أنتم تعلمونها، إنه كلام للاستهزاء كما إنهم كانوا يستهزئون بالرسول، و يا للسخرية أن يقولوا هؤلاء الكفار القائم على كل نفس بالأصنام، أو يجعلون لله شركاء، سافلة إلى حد لا يقدر على مجرد تسميتها، أو يخبرون الله، بما لا يعلم هو، و هم يعلمون، فيكونون أعلم من الله سبحانه؟؟

ثم إن من المعلوم، إن الشركاء لا- وجود حقيقي لهم، و إنما هي موجودة في أدمغة المشركين، فعدم علمه سبحانه بالشركاء سألبة بانتفاء الموضوع، و هناك احتمال آخر، و هو أن يكون ضمير «لا يعلم» عائداً إلى الصنم، أي أ تخبرون الله بصنم لا يعلم في الأرض فكيف بالسما، و هل يقاس ما لا علم له بشؤون الأرض، وحدها، بالله الذي يعلم كل شيء، أم إن جعلهم الشركاء ليس على نحو الحقيقة، و إنما بظاهر من القول أي بكلام سطحي، فلا اعتقاد لهم بالشركاء و إنما يتلفظون بها، مجرد لفظ فكلامهم حول الشركاء، ككلامهم حول القصص الخيالية التي يعلمون بها أنها سطحية لا نصيب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩١

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٤]

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

لها من الواقع و الحقيقة بيل الواقع أن جعل هؤلاء الله شركاء من جهة أنه زين للذين كفروا مكروهم فإن الإنسان إذا عرض عن الحق بمكر، أي يدبر خفية أمراً، ليحمله في قبال الحق، و هذا في بادئ الأمر يكون مجرد عمل ضد الحق، و مكر لإطفاء الهدى، ثم لا يلبث أن يتزين في نفسه، لأن مرور الزمان يوجد العلاقة بينه و بين المكر، كما قال سبحانه (أ فمّن زين له سوء عمّله فرآه حسيناً) «١» و ثم يتعلق به تعلقاً شديداً، حتى يكون عقيدة راسخة و صدوا عن السبيل الواضح سبيل الله تعالى، و إنما صدهم استمرارهم في مكافحة الحق، حتى صارت وقفتهم ضد الحق حالة لهم، و لذا تركهم الله سبحانه و شأنهم و من يضل الله يتركه و شأنه حتى يستحكم ضلاله،

بعد أن أُرشده، فلم يقبلَ فما لَهُ مِنْ هَادٍ يَهْدِيهِ إِذِ الْهَادِي هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَ قَدْ أَعْرَضَ عَنْ هِدَاةِ.

[٣٥] لَّهُمْ أَى لَهُوْلَاءِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الانْحِرَافَ عَنْ نَهْجِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، حَيْثُ يَصَادَمُ نَوَامِيسَ الْكُونِ، لَا بَدَ وَ أَنْ يَسْبَبَ لِلْمُنْحَرِفِينَ الْعَذَابَ الْجَسْمِيَّ وَ الرُّوحِيَّ بِالْأَمْرَاضِ وَ الْعِدَاءِ وَ الْقَلْقِ، وَ مَا أَشْبَهَهُ، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى تَعْذِيبِهِمْ بِالْقَتْلِ وَ الأَسْرِ وَ السَّبِيِّ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَ لِعَذَابِ الآخِرَةِ الْمَعْدُ لَهُمْ أَشَقُّ أَكْثَرَ مَشَقَّةً،

(١) فاطر: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٢

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)
وَ أَغْلَظَ وَ مَا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ «وَقَى» أَى مِنْ حَافِظٍ يَحْفَظُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ وَ إِذْ لَا حَافِظَ إِلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ، فَلَا حَافِظَ لَهُمْ إِطْلَاقًا.

[٣٦] إِنْ فِي الآخِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ عَذَابًا شَدِيدًا، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَهُمْ الْجَنَّةُ، إِنْهُمْ وَقُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي وَ اتَّقَوْا، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْعَذَابِ، بَلْ هِيَ لَهُمْ الْجَنَّةُ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ دُخُولُهَا وَ التَّنْعَمُ فِيهَا، وَ لَعَلَّ الْإِنْيَانَ بِالمَثَلِ لِإِفَادَةِ أَنْ حَقِيقَةَ الْجَنَّةِ لَا تَتَصَوَّرُ، وَ إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانَ شَبْهَهَا، كَمَا إِنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْهَمَ طِفْلاً حَقِيقَةَ الْكَهْرِبَاءِ سَالِبَهُ وَ إِجَابَهُ، لَا يَتَصَوَّرُهَا، فَتَقُولُ أَنْ مِثْلَهُ أَنْ تَأْخُذَ حَبْلًا فَتَجْرَهُ مَرَّةً إِلَى الْيَمِينِ، وَ أُخْرَى إِلَى الشَّمَالِ، وَ لِذَا

وَرَدَ أَنْ هُنَاكَ يَرَى الْإِنْسَانَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَ لَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ

«١» «و-لا- يخفى ما فى هذه الكلمة الأخيرة من معنى مدهش» أَنْ مِثْلَهَا جَنَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَى تَحْتَ قُصُورِهَا وَ أَشْجَارِهَا الْآنْهَارُ وَ لَعَلَّ الْإِنْيَانَ بِكَلِمَتِهِ تَحْتَ، لِإِفَادَةِ أَنَّهَا لَيْسَتْ كِبَعْضِ الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا، الَّتِي هُنَاكَ نَهْرٌ، بِلَا شَجَرٍ وَ بِنَاءٍ، وَ إِنَّمَا الْآنْهَارُ- فِي الْجَنَّةِ- تَجْرِي تَحْتَ الْقُصُورِ وَ الأشْجَارِ، حَيْثُ تَشَابَكَتِ الأشْجَارُ، وَ تَرَاصَفَتِ الْقُصُورُ أُكُلُهَا الأَكْلُ، هُوَ الثَّمَرَةُ دَائِمٌ أَى أَنْ ثَمَارِهَا دَائِمَةٌ لَيْسَتْ كَثَمَارِ الدُّنْيَا، تَظْهَرُ فِي فَصْلِ دُونَ فَصْلِ وَ ظِلُّهَا دَائِمٌ لَا يَكُونُ مَرَّةً شَمْسًا وَ مَرَّةً ظِلًّا، بَلْ دَائِمٌ الظَّلَالُ، لَا تَلْفَحُ الْإِنْسَانَ، شَمْسٌ، أَوْ حَرٌّ، أَوْ بَرْدٌ

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٦]

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبٍ (٣٦)

تِلْكَ الْجَنَّةُ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا عَاقِبَتَهُمْ وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ عَاقِبَتُهُمْ النَّارُ فَمَنْ أَرَادَ اتَّقَى لِيَصِلَ إِلَى تِلْكَ وَ مِنْ شَاءَ كَفَرَ لِيَعَاقِبَ بِهِذِهِ.

[٣٧] وَ إِذْ يَفْرَغُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمَ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمُشْرِكِينَ، وَ يَبِينُ أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُتَّقِينَ يَعِطِفُ نَحْوَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ مَوْقِفَهُمْ مِنَ الرَّسُولِ وَ الْقُرْآنِ وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ أَى أَعْطَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ السَّمَاوِيَّ، كَالْتُورَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ، يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُسْتَقِيمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَعْصِبْ عَيْنُهُمُ الْحَقْدُ وَ الْحَسَدُ، وَ التَّقْلِيدُ الأَعْمَى، لَا بَدَ وَ أَنْ يَفْرَحُوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يَجِدُونَهُ يَصَدِّقُهُمْ، وَ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ فِي مَقَابِلِ الْكُفْرِ وَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَفْرَحُ بِنَاصِرِهِ وَ مَعَاوِدِهِ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ نِسْبَةَ الأَشْيَاءِ الْحَسَنَةِ إِلَى قَوْمٍ، إِنَّمَا يَرَادُ بِهَا النِّسْبَةُ إِلَى عَقْلَائِهِمْ وَ مَفْكَرِيهِمْ وَ مُسْتَقِيمِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ صَادِقُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ

موفون لعهودهم، لا تريد أن جميع أفرادهم كذلك، وإنما تريد المستقيمين منهم في الإسلام، وكذلك أمثال هذه النسبة، وقد كان في أصحاب النبي زمرة من خيرة اليهود والنصارى، الذين اتبعوه، لما رأوا فيه الحق والصدق، لكن من تحزب ضد الرسول من أهل الكتاب، لا بد وأن يخالفوا الكتاب، فإنهم بطبيعتهم الحزبية، لا بد وأن يتلقوا الأوامر من كبرائهم الحاسدين وقد كان شأن الأحزاب هكذا قديما وحديثا فإنهم حيث يدخلون أنفسهم في إطار طاعة الحزب لا بد لهم أن يتمثلوا ما يقوله الحزب حقا أم باطلا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٧]

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)

و يحاربوا من يخالف الحزب حقا كان أم باطلا، فالمعيار الحق عندهم ينقلب إلى معيار الحزب، ولذا نرى أن الله سبحانه لم يسلم أزمة الأمور إلا بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام، ثم بيد الفقيه العادل، حيث علم سبحانه، بأن الناس يتبعون من ألقى الزمام بيده، ولو أمر بالباطل، فتحفظا عن اتباع الناس للباطل، لم يجعل أزمتهم إلا بيد من لا يعمل إلا بالحق لما فيه من الملكة الراسخة، والصفة النفسية المعدلة لسلوكه، طبق أوامر الله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، إلا فيما سهى أو نسى، مما لا استثناء له، إلا بالنسبة إلى المعصوم عليه السلام- وَمِنَ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا ضِدَّ الْإِسْلَامِ، من أهل الكتاب مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ أَى بعض القرآن، مما لا يطابق كتبهم المنحرفة أو ينافي سيادتهم ورشوتهم، أما ما طابق الكتابين، فلا مجال لهم بإنكاره قل يا رسول الله، لمن ينكر بعض ما أنزل إليك إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ غَيْرِهِ، فإنكاركم لذلك، كما ترعمون أن عيسى أو عزيز ابني الله، أو أن الآلهة الثلاثة، لا يضرنى فى توحيدى و تزيهى إِلَيْهِ أَى إلى الله وحده أَدْعُوا فهو مبدئى وَإِلَيْهِ مَأْبِ أَى مرجعى، من آب بمعنى رجع.

[٣٨] وَكَذَلِكَ أَى كما أنزلنا إلى من تقدم من النبيين، كتابا بلغتهم ليفهموه، ويفهمه أمهم أَنزَلْنَاهُ أَى أنزلنا القرآن- المستفاد من

قوله، و ما أنزل إليك- حُكْمًا عَرَبِيًّا أَى أنزلنا هذا الحكم فى حال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٥

كونه بلغة العرب، التى هى لغتك، و لغة قومك لتفهمه تماما، و يفهمه القوم تماما، فالرسول على يقين منه، و لقاتل أن يقول: و ما هو الاختصاص بهذه اللغة؟ الجواب: الأمر دائر بين اللغة، و بين سائر اللغات، و إذا نزل بلغة أخرى فللقائل أيضا أن يقول: ما هو الاختصاص بتلك اللغة؟ بالإضافة إلى أن هذه اللغة كانت أرجح من حيث أنها اللغة الملتفة ببيت الله الحرام الذى هو ملتقى الشعوب و القبائل قديما و حديثا، لوجوب الحج فى جميع الأديان، فقد حج عليه السلام، فمن بعده، و الشرق الأوسط أوسط من حيث المعمورة، تقريبا، فنسبته إلى العالم سواء و إطلاق الحكم على كل القرآن للتغليب، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْوَاءَهُمْ أَى عقائد الكفار و أهل الكتاب، و سميت أهواء لأن المخترع لها هو الهوى، إذ لم يدل عقل أو نقل على الكفر و التلثيث، و ما أشبه بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ «من» بيان «ما» ما لَكَ أَى ليس لك من طرف الله سبحانه مِنْ وَلِيٍّ يلى أمرك و ينصرك و لا- واقٍ أَى حافظ يحفظك من عذابه، فلا ولاية، بل عداوة، إذ عدم الولاية لا يلزم العداوة، و لذا صرح بقوله «و لا واق» من وقى يقى إذا حفظ، و الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و إن كان لا يتبع أهواءهم- بالإضافة إلى أن «إن» الشرطية لا يربط إلا المقدم باتساع- إلا كأنه، لوحظ كون التهديد موجها إليه صلى الله عليه وآله وسلم ليكون أبلغ من تقرير العقاب القطعى بالنسبة إلى متبع الأهواء، كما إنك إذ أردت تهديدا جديا إلى صديقك مع إنك تعلم أنه لا يقترف الإثم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٦

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ

ما يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

[٣٩] قد كان الكفار يناقشون في كل من المبدأ والمعاد والرسول وكتابه، وقد كانت مناقشتهم حول الرسول أنه كيف يمكن أن يكون الرسول بشرا يأكل و ينكح و يمشى، و يكون له أولاد، و يأتي الجواب بصدد هذه المناقشة، أن الرسل سابقا أيضا، كانوا كذلك، فكيف تؤمنون بأولئك الرسل و تناقشون هذا الرسول؟ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا نِسَاءً وَ ذُرِّيَّةً أَوْلَادًا، فما ذا يستنكر هؤلاء منك أن يكون لك أزواج أو ذرية؟ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِنِ الْخَارِقَةُ إِنَّمَا يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، و ليست بيده حتى أن كل اقتراح يجيبه، و كل ما طلبوا منه يأتي به، فإن كان اعتراض هؤلاء عليك، أن لك أزواجاً و ذرية؟ فهم معترفون بأنه كان لسائر الأنبياء أزواج و ذرية، و إن كان اعتراضهم أنك لم تأتي بما اقترحوا عليك؟ فالآيات بيد الله سبحانه، و قد جئت لهم بقدر ما يتم الحجة، فإن كان اعتراضهم بأنه كيف اختلف هذا الكتاب، مع كتاب موسى و عيسى، فإن كان ذلك الكتاب حقا، فكيف أتيت بخلافه؟ فَإِنِ لِكُلِّ أَجَلٍ أَى مَدَّةٍ، و زمان كتاب خاص به، فإذا انقضى ذلك الزمان جاء كتاب آخر يلائم البشرية في أوارها.

[٤٠] و قد كان لموسى عليه السلام كتاب، ثم جاء عيسى عليه السلام و أتى بما يختلف مع كتاب موسى عليه السلام، كما قال: (وَ لِأَجَلٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٧

عَلَيْكُمْ) «١» فإنه يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ يرفع حكمه لانهاء الصلاح بالنسبة إليه وَ يُثَبِّتُ مكانه ما يشاء، لأنه مثله في ملائمة هذا العصر، أو أفضل منه، كما قال: (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) «٢» وَ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ، في علمه و اطلاعه أُمُّ الْكِتَابِ أى أصل الكتاب الذى فيه ما يمحي و ما يثبت، و إلى أى قدر يبقى ما يمحي هذا حسب ما يتعلق بالسياق، و إلا فالظاهر أن الآية أعم من الأحكام، فالتقديرات منها قابلة للتغيير، و منها غير قابلة، و قد وردت أحاديث في باب المحو و الإثبات، و أم الكتاب، و لعل خلاصة القول في تلك كلها، أن هناك علما خاصا بالله سبحانه يعلم الأشياء التى تقع إلى الأبد، و لا تغيير في ذلك، و لا تحرير، و هناك لوح يثبت فيه أشياء ثم ربما تقتضى المصلحة، فيمحي ذلك الميث ليكتب مكانه شيء آخر،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إن المرء ليصل رحمه، و ما بقى من عمره إلا ثلاث سنين، فيمدها الله إلى ثلاث و ثلاثين سنة، و إن المرء ليقطع رحمه، و قد بقى من عمره ثلاث و ثلاثون سنة فينقصه الله إلى ثلاث سنين، أو أدنى. قال الراوى: أن الصادق عليه السلام لما حدث بهذا الحديث قرأ هذه الآية، أى «يمحو الله ما يشاء»

«٣» و هنا سؤالان، الأول هل أن الله يعلم أن الشخص الفلانى يموت في أم الكتاب أم لا؟

فإن علم أنه يموت فما فائدة الصدقة و الدعاء و إن علم بأنه لا يموت، فالصدقة و الدعاء اعتبار؟ و الجواب أن الله يعلم، أنه يتصدق، فلا يموت، كما أنه سبحانه يعلم أن زيدا يقرأ العلم، فيصبح عالما، فلا

(١) آل عمران: ٥١.

(٢) البقرة: ١٠٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٥٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٨

[سورة الرعد (١٣): آية ٤٠]

وَ إِنِ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)

يصح أن يقول الجاهل، إن كان في علم الله، أنا أصبح عالما، فما فائدة تعبي لما يأتي بلا تعب؟ و إن كان في علم الله، أنا لا أصبح

عالمًا، كان تعبى في تحصيل العلم هباءً، فإن رده واضح أنه في علم الله أنك تتعب حتى تكون عالمًا، الثاني - ما فائدة لوح المحو و الإثبات، بينما لا يصير في الخارج، إلا على طبق أم الكتاب؟

و الجواب أن ذلك ليتعلم الملائكة و الأنبياء، و من إليهم، فإنه كان يكتب في اللوح، أن عمر زيد ثلاث سنوات، ثم إذ رأى الملائكة و من له اتصال بذلك اللوح أن «الثلاث» محيت و كتب مكانها «ثلاث و ثلاثون» عرفوا السبب، و صار ذلك محفزًا للفضائل، و زاجرا عن الرذائل بالنسبة إلى من علم، كما لو رأى أحد موظفى الدولة أن فى الدفتر غير مقدار راتب أحد الموظفين إلى أرفع أو أنقص لخدمته أو كسالة، حفزه ذلك، إلى اجتناب المنقصة، و العمل بالمنقبة، و تمام الكلام فى علم الكلام.

[٤١] قد سبق إنذار الكفار بقوله سبحانه «و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةً أو تحل قريبا من دارهم» و الآن يأتى السياق لبيان أنه سواء أخذ الله الكفار بالعذاب فى حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو توفاه صلى الله عليه و آله و سلم قبل ذلك، فإن ذلك لا يغير من طبيعة الرسالة، فإن الرسول يأمر بالبلاغ، سواء انتصر على الكفار، و وصلت بهم القوارع، أم لا و إن ما أصله «إن» الشرطية و «ما» الزائدة، حيث زينة للكلام تُرِيَّتْكَ يا رسول الله بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أى بعض العقوبات التى وعدناها الكفار، و إنما قال بعض لأن كل العقوبات لا تقع فى حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فإنها تدريجية طيلة بقاء الكفر و الكافرين أو تَتَوَفَّيْتْكَ و نقبض روحك إلينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٩

[سورة الرعد (١٣): آية ٤١]

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْبُلَاغُ أَنْ تَبْلُغَ الْقَوْمَ وَ تَنْذِرَهُمْ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ بِأَنْ نَحَاسِبَهُمْ وَ نَجَازِيَهُمْ وَ نَنْتَقِمَ مِنْ كُفْرِهِمْ، إما عاجلا أو آجلا.

[٤٢] لقد أُنذِرَ الكفار بالعقاب، و القارعة تصيبهم، ألا فلينظروا إلى الأمم السابقة كيف عاقبهم الله سبحانه، فقد ضيق سبحانه ملكهم و سعتهم، بعد أن كانوا كبارا أقوياء أو لَمْ يَرَوْا استفهام إنكارى، أى لقد رأى هؤلاء الكفار أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أى نقصدها، و نتوجه نحوها نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أى نقص أراضى الكفار من هنا و هناك، بأن تصبح أرضهم يابا بعد أن كانت عامرة، و مدنهم صغيرة، بعد أن كانت كبيرة، و حدودهم ضيقة، بعد أن كانت واسعة، كل ذلك لانهيأهم و ضعفهم، فلا يقدرُوا على الزراعة و العمارة، و فقد شبابهم و قواهم، فلا يتمكنوا من حفظ حدودهم من الدول المعتدية، و قوله سبحانه «الأرض» لا دلالة فيها على مجموع أرض الكرة، فإن مثل هذا التعبير كثير فى مثل المقامات التى ذكرنا يقال: الرئيس الفلانى، أفسد الأرض، و الرئيس الفلانى عمرها، أو وسع فيها، أو ضيقها مما هو كثير متداول فى ألسنة الناس،

و قد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: يعنى بذلك ما يهلك من القرون، فسماه إتيانا.

أما ما ورد من تفسير الآية بموت العالم، فإن ذلك من أسباب نقص الأرض، إذ العالم قوة تحفظ سعة الأرض، و عمارتها و نشاطها و قد يظن بعض الناس، أو بعض الدول إنما أنهم يوسعون و يعمرون، فلا قدرة فوقهم لكنه سراب خادع، فإن الله يَحْكُمُ بكل شىء و منها السعة و الضيق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ١٥١

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

والعمارة و الخراب لا مَعَقَبَ لِحُكْمِهِ فلا أحد يعقب الحكم الصادر منه تعالى بالتغيير و التبديل وَ هُوَ سَبْحَانَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا يظن القوى، أنه يبقى، و إن طغى، بل يأخذه الله سبحانه بسرعة مذهلة، حتى كأنه لم يغنى بالأمس، و من نظر إلى سرعة انهيار الكفار و الظالمين، ليأخذه العجب.

[٤٣] إن هؤلاء الكفار ليسوا بأشد مكرًا- لإطفاء الدين- من قبلهم، فقد كان أولئك يمكرون، و يأخذون التدابير الخفية، لمحو هدى الأنبياء عليهم السّلام، و لكن تدبير الله كان أقوى منهم فقد نصر أوليائه في الدنيا، و سينصرهم في الآخرة، بإعطاء الثواب الجزيل، و إخلاص الكفار النار و قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فقد مكر الكفار في الأمم السابقة، للرسول المؤمنين باتخاذ تدابير خفية لاستئصالهم فأبطل الله مكرهم، إذ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا فإنه سبحانه عالم بجميع التدابير، فيرد على الكفار تدابيرهم و يتخذ هو سبحانه تدابير خفية لنصرة الأنبياء يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من التدابير الخفية و الجلية، فيضع لتدابير الكفار معوقًا و مبطلًا، هذا في الدنيا وَ سَيَعْلَمُ في الآخرة الْكُفَّارَ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ أى العاقبة المحمودة في الدار الآخرة- فإنها طبعًا- للمؤمنين دونهم.

[٤٤] ابتدأت السورة بقوله «وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ» فقد كان الابتداء لإثبات الرسالة، و يأتي الختام ليفهم ما ابتدأت به من إثبات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠١

الرسالة، مع الإلماع إلى خلاصة ما يقوله الكفار في الرسول الذي سبق أنهم أنكروا رسالته، لأنه لا يأتي بآية، و لأن له أزواجًا و ذرية، و ما أشبه ذلك و يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْسَلًا من قبل الله قُلْ لَهُمْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أنه يشهد برسالتي و شهادته إعطاء هذه المعجزة الخالدة- القرآن- لى، فإنه إمضاء عملي و كفى شهيدا مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ و هم اليهود و النصارى الذين وجدوا في كتبهم وصف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أظهره المنصفون منهم و ما ورد من أن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام مراد بهذا فإنه مصداق ظاهر ممن عنده علم الكتاب، يعلم الكتب السابقة، و القرآن الحكيم جميعًا، و أنه عليه السّلام ليشهد للرسول، و يأتي بالدلالة لرسالته التي منها إخراج وصفهم من كتب الأنبياء السابقين «١»، و قد أخرج حفيده الإمام الرضا عليه السّلام- في مجلس المأمون- ما أبان ذلك، و إنهم أهل بيت عندهم علم لكل الكتب «٢»

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٤٣٢.

(٢) راجع وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٢

١٤ سورة إبراهيم مكية / آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على اسم «إبراهيم عليه السّلام» و قصته، و السياق العام في هذه السورة، كالسور المكية- غالبًا- حول أصول العقيدة من توحيد و رسالته و معاد، فقد كانت مكة ثلاثم مثل هذه الأمور، لعدم تأسيس دولة تحتاج إلى النظم و التشريعات- بعد- قال بعض المفسرين أن مصب جو السورة إلى أمرين مهمين، أولاً وحدة دعوة الرسل، و الثانى نعمة الله على البشر، و مقابلة أكثرهم لها بالكفر.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله في حوائجنا، و نجعله في ابتداء أمورنا و هل هناك أرفع شأنًا منه حتى يتبدأ باسمه، فإنه الله الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم لكل الأشياء، أليس هو الرحمن المطلق فقد وسعت رحمته كل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٣

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)

[٢] ولما ختم الله سبحانه سورة الرعد بإثبات الرسالة و إنزال الكتاب افتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة و الكتاب فقال الر الف، و لام، و راء، أى من هذا الجنس كتاب أنزلناه إليك و هو القرآن الكريم، و الإنزال إن كان من السماء- كما هو الظاهر من الآيات و الروايات- كان اللفظ حقيقة، و إن كان بالإلقاء في القلب و ما أشبه كان الإنزال مجازاً، تشبيهاً بالعلو الحقيقي للمنزل، بالعلو الخارجى، يقال: تلقيت الأمر من الأعلى، و يراد أعلى درجة و رتبة لا أعلى مكاناً، لُتُخْرِجَ يا رسول الله النَّاسَ جَمِيعَ الْخَلْقِ، و عدم خروج بعضهم لعدم بلوغه الدعوة أو عناده لا- ينافى كون الغرض من الإنزال ذلك من الظلمات إلى النور فإن الإنسان المنحرف العقيدة و المنهج في ظلمة، فكما أن من في الظلمة الخارجية لا يبصر مكان قدمه و لا يبصر ما حوله من الحقائق الخارجية، كذلك من في الظلمة العقيدية و المنهجية، لا يرى الحق بالنسبة إلى العقائد، فأى فرق بين من لا يبصر بعينه الكتاب الموضوع في الرف، و بين من لا يرى بقلبه للكون خالفاً، أو لا يرى كيف يعامل رباً أو بدون رباً، بل الظلمة الظاهرية أهون، فإن الأعمى أكثر ما يخشى عليه التردى، و الذى في ظلمة الكفر، فى تعاسة الحياة كلها، و سوء المنقلب- قطعاً- بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَذِنَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ، لَمَّا أَوْحَى إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالتَّبْلِيغِ، وَالتَّعْبِيرِ بـ «الإذن» دون «الأمر» لعله للمقابلة مع ما كان ينسب الكفار إلى الله من الخرافات فى العقيدة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣]

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

و العمل، فتلك لم يأذن بها الله، كما قال: (أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) «١»؟ و هذا أذن به الله، و يحتمل أن يكون المراد أن الرسول لا- يقدر إلا- على البلاغ، أما إخراج الناس إخراجاً خارجياً، بأن يطاوعه الناس فى الخروج من الظلمات، إلى النور فإن ذلك ليس فى مقدور الرسول و إنما هو بإذن الله، وفق سنته التى سنهها فى الكون، التى هى أن من أعطى القلب و هو شهيد مريد للحق، دخل فى قلبه هذا النور، و من ألقى السمع، و ليس بشهيد لا يدخل فى قلبه هذا النور إلى صراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ هذا بدل من قوله «إلى النور» فالنور هو صراط الله سبحانه «العزیز» مالك العزة و القوة و القدرة و الإرادة «الحميدة» الذى يحمل العارفين لما له من الإنعام و الإفضال، فهم إنما يخرجون من صراط الذلة و الجذب إلى صراط العزة و الحمد، فمن كفر فليعلم أن الله عزيز قاهر، و من شكر فليعلم أن الله متفضل حميد.

[٣] ثم فسر سبحانه «العزیز الحميد» بقوله اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ خَالِقُهَا وَمَبْدَعُهَا وَمَسِيرُ أَمْرِهَا، و المراد بالمظروف أعم من الظرف، كما سبق فى مثل هذه الآية الكريمة، أن مصير المؤمنين بهذا الإله واضح لا مريية فيه، فهو خير الدنيا و سعادة الآخرة، و أما الكافرون به، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ وَ الْوَيْلُ

(١) يونس: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣]

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

كلمة تقال لسوء الحال- غالباً- و العذاب الشديد فى الدنيا بالشقاء، و فى الآخرة بالنار.

[٤] ثم وصف سبحانه الكافرين بصفة تحمل العلة في كفر الكافرين، فالكافرون هم الَّذِينَ يَشْتَبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا و لعل الإتيان بباب الاستفعال «يستحبون» دون «يحبون» لإفادة أن من طبيعتهم لم يكن الحب الزائد لها، وإنما طلبوا حبها، حتى صار ملكة لهم، فإن الاستفعال فيه معنى الطلب عَلَى التَّأخَّرَةِ أى استحباب الآخرة، و كأنه عدى بعلى لإشراب الفعل معنى الترجيح، أى يستحبون الحياة مرجحين لها على الآخرة،

فإن حب الدنيا كما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: رأس كل خطيئة،

فتصطدم دنياهم بآخرتهم، فيقدمون الدنيا على الآخرة، حيث نشب بقلبيهم حبها، فمثلا الآخرة تنهى عن الربا، و الدنيا تطلبه، و عن الزنى و عن القمار، و عن النظر إلى أموال الناس، و أعراضهم، و التطلب للجاه، و لو بألف حرام، و هكذا، وَ يَصُدُّونَ أى يمنعون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى طريقته فى العقيدة، و النظام، فمن أراد الإيمان أو الإطاعة منعه عن ذلك وَ يَبْغُونَهَا أى يطلبون السبيل - و لفظه السبيل يجوز فيها التذكير و التأنيث- عَوْجاً أى منحرفاً، فلا يسرون على الطريق المستقيم صراط الله سبحانه، وإنما يسرون على الطريق المعوج، و إنما كان طريقهم معوجاً، لأنه لا يصل إلى المطلوب، فمثلا المطلوب فى الدنيا الصحة، و الزنى يوجب الأمراض الزهرية، و هكذا، و يحتمل أن يراد ب «يبتغونها عوجاً» أنهم يريدون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٦

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤]

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

جعل طريق الله أعوج فى نظر الناس، حتى لا يتبعوه، فيزينون لهم أشياء ملصقة بطريقه سبحانه، ليعبدوا الناس عنه أولئك الكفار الذين هذه صفاتهم فى ضلال و انحراف من الحق بعيد كأنهم ابتعدوا عن المنهج السوى كثيراً، فى قبال الكافر الذى لا يصد عن سبيل الله، فإنه أقرب من الأول، و الفاسق الذى يعتقد صحيحاً، و يعمل فاسداً، فإنه فى ضلال أقرب إلى الطريق من الفئتين السابقتين.

[٥] إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى قومه بلغة العرب، كما أن سائر المرسلين أرسلوا بلغة أقوامهم، و إن كانت رسالته بعضهم عامه كموسى و عيسى عليه السلام، و ما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ امتناناً من الله سبحانه عليهم حتى لا يصعب عليهم الفهم، و إن كانت الحججة تتم بدون ذلك، ثم أنه ليس المراد من القوم عشيرته، بل القوم يطلق على من جمعهم لسان واحد، كما أنه يطلق على من جمعتهم عشيرة واحدة، أو ما أشبه ذلك لِيُبَيِّنَ لَهُمْ عِلْمَهُ إرسال الرسول بلسان القوم فجاء الرسول، و بين و فهم، ثم يأتي دور اللطف الخفى و الخذلان، فمن آمن لطف به سبحانه لطفه الخفى، و من أعرض خذله تعالى و تركه، و هذا معنى قوله فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ أى يتركهم فى ضلالهم، و ليست مشيئة اعتبارية، و إنما يشاء بالنسبة إلى من أعرض، وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فيلطف به الألفاظ الخفية، بعد أن أذعن و اعترف، و جاء فى حظيرة المؤمنين، فإن الهداية و الضلال لهما مراتب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)

ثلاث، البيان و الترك، و اللطف الخفى و الخذلان، و الإيصال إلى المطلوب و هى الجنة و عدم الإيصال - كما بين ذلك فى علم الكلام- وَ هُوَ سبحانه العَزِيزُ الغالب القاهر ذو العزة و العفة، فهو قادر على الهداية و الإضلال الْحَكِيمُ يفعل كل ذلك حسب الحكمة و الصلاح، فمن أبى الهداية تركه فى ظلمات الضلال، و من رغب فيها أخذ بيده درجة فدرجة، كالمعلم الذى يترك تلميذه الذى لا يحفظ، و يأخذ بيد تلميذه الذى يحفظ حتى يرتقى - بعد أن يلقى الدرس عليهما على حد سواء-.

[٦] ثم ذكر سبحانه مثالا لإرسال الرسل بلسان قومهم بقوله وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أى مع المعجزات و الدلالات المصدقة له أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ هذه كانت رسالته موسى عليه السلام، أى أرسلنا موسى قائلين له أن أخرج، و جملة «بآياتنا»

معترضه، وقد كانت صيغته رسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» كصيغته رسالة موسى «أن أخرج» وقد تقدم معنى كون الناس في ظلمة، وأن الرسول يخرجهم منها إلى النور وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَهِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا أُمُورٌ خَارِقَةٌ مِنَ النِّعَمِ أَوْ النِّقَمِ، وَالتَّذْكَيرُ بِهَا يَفِيدُ الْعَاقِلَ لَزُومِ إِطَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى يَنَالَ مِنَ تِلْكَ النِّعَمِ، وَلَزُومِ تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِي مِثْلِ تِلْكَ النِّقَمِ، كَالتَّذْكَيرِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نُوحًا وَالمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّجَاةِ فِي السَّفِينَةِ، وَبِمَا نَقَمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الكَافِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٦]

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)

بالغرق والهلاك إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّذْكَيرَ لِآيَاتٍ دَلَالَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ كَثِيرٍ الصَّبْرَ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ شُكْرًا كَثِيرًا الشُّكْرَ عَلَى نِعْمَاتِهِ، وَ يَعْنِي أَنَّ مِنْ لَه نَفْسٌ وَاعِيَةٌ تَصْبِرُ فِي الْبَلَاءِ وَتَشْكُرُ فِي الرِّخَاءِ، لَا بَدَّ وَأَنَّ يَعْتَبَرُ بِأَيَّامِ اللَّهِ السَّابِقَةَ الَّتِي مَضَتْ عَلَى الْأُمَّمِ، وَ لَا بَدَّ أَنْ يَعْلَمَ وَجُوبَ الصَّبْرِ فِي الْبَلَاءِ، وَ وَجُوبَ الشُّكْرِ عَلَى الرِّخَاءِ.

[٧] وَ أَخَذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسَبَ أَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يُوَدِّي رِسَالَتَهُ، وَيَذْكَرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ «إِذْ» مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ، أَيْ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقْتَ قَوْلِ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَكَانَ النِّعْمَةُ تَغْمِرُ الْإِنْسَانَ، وَ لِذَا تَعْدَى ب «عَلَى» إِذْ أَنْجَاكُمْ أَيْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَيْ فِرْعَوْنَ وَ ذَوِيهِ، فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَغْلِبُ أَنْ يَقَالَ «آلِ فِرْعَوْنَ» وَ يَرَادُ هُوَ وَآلُهُ يَسُومُونَكُمْ مِنْ سَامِهِ إِذَا أَذَاقَهُ الْهُوَانَ سُوءَ الْعَذَابِ أَيْ الْعَذَابِ السَّيِّئِ، بِاتِّخَاذِهِمْ عَمَالًا فِي الْأَبْنِيَةِ مَعَ إِذْلَالِهِمْ وَ إِهَانَتِهِمْ وَ سَجْنَتِهِمْ، وَ بَقْرَ بَطُونَ نِسَائِهِمْ وَ يُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ خَوْفًا مِنْ ظُهُورِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ، فَقَدْ أَمَرَ فِرْعَوْنَ أَنْ يَذْبَحَ كُلَّ وَلَدٍ يُولَدُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ الْإِتْيَانُ بِيَابِ التَّفْعِيلِ «يُدَّبُّونَ» لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّكْثِيرِ، كَمَا قَالُوا فِي «غَلَقَتِ الْأَبْوَابُ» وَ «قَطَعَ الْجِبَالَ» وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ أَيْ يَقْتُلُونَ الْبَنَاتِ أَحْيَاءً لِلخِدْمَةِ وَ الْاسْتِمْتَاعِ، وَ الْإِتْيَانُ بِيَابِ الْاسْتِفْعَالِ، لِإِفَادَتِهِ مَعْنَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٧]

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)

الطلب، فليس الأمر تركهن أحياءً وإنما طلب حياتهن، لفوائدهم، و هل ذلّه أكثر من هذا؟ وَ فِي ذَلِكُمْ «ذَا» إِشَارَةٌ إِلَى مَا كَانَ يَعْمَلُهُ آلُ فِرْعَوْنَ وَ «كَمْ» خُطَابٌ بَلَاءٌ أَيْ امْتِحَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ حَتَّى يَمِيزَ الْبَاقِيَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مَبْدَأِ آبَائِهِ وَ أَجْدَادِهِ، مِنَ التَّارِكِ مِنْهُمْ وَ اتِّخَاذِهِ طَرِيقَةَ فِرْعَوْنَ، فَقَدْ كَانَ فِي مِصْرَ نَسْلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ هُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، عِبَادَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، مُتَّخِذِينَ طَرِيقَةَ إِبْرَاهِيمَ، وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أَجْدَادِهِمْ كَمَا كَانَ فِيهِ الْقَبْطُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِالْوَهْمِيَّةِ فِرْعَوْنَ - مَلِكِهِمُ الْمُجْرِمِ - وَ كَانَ الْمَلِكُ وَ قَبِيلَتَهُ يَطَارِدُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ لِتَرْكِهِمْ طَرِيقَتَهُمْ، وَ يَدْخُلُوا فِي طَبَقَةِ الْقَبْطِ، ثُمَّ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ، تِلْكَ النِّعْمَةُ بِالْإِنجَاءِ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تِلْكَ الْبَلِيَّةُ بِفِرْعَوْنَ وَ زَمَرَتِهِ.

[٨] ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِذْ تَأَذَّنَ أَيْ اعْلَمْ، هُوَ بَابُ التَّفْعِيلِ مِنَ الْأَذَانِ، بِمَعْنَى الْإِعْلَامِ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، لِإِفَادَتِهِ التَّكْثِيرَ، أَيْ اعْلَمْ مَرَاتٍ وَ مَرَاتٍ رَبُّكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَئِن شَكَرْتُمْ النِّعْمَ بِصَرْفِهَا فِي مَا أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِصَرْفِ الْعَقْلِ فِي التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ صَرْفِ الْجَوَارِحِ فِي إِطَاعَتِهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ، صَرْفُهَا فِي الْمَصْرَفِ اللَّائِقِ بِهَا لِأَزِيدَنَّكُمْ نِعْمَةً عَلَى نِعْمَةٍ، وَ لَطْفًا عَلَى لَطْفٍ، وَ سَبَبَهُ وَاضِحٌ، فَإِنَّ اسْتِقَامَةَ النَّفْسِ، تَوْجِبُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، الَّتِي تُوْدِي إِلَى الْخَيْرِ وَ الرَّفَاهِ وَ الزِّيَادَةِ، وَ لَئِن كَفَرْتُمْ بِأَنَّ صَرْفَتِ النِّعْمِ فِي غَيْرِ وَجْهٍ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ يَعْنِي أَعَذِبْكُمْ عَذَابًا شَدِيدًا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٨ الى ٩]

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)

فإن النفس غير المستقيمة، لا بد و أن تسبب هدماً لمنهاج الحياة، و ذلك يسبب الشقاء و التعاسة في الدنيا و الآخرة، ثم أن الشكر باللسان، أضعف أقسام الشكر و إن كان مطلوباً أيضاً، فإنه شكر بالقلب، و شكر باللسان، و شكر بالجوارح، كما قال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) «١» أي اتوا بالشكر العملي،

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية، أيما عبد أنعمت عليه نعمة، فأقر بها بقلبه، و حمد الله عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتى يأمر الله له بالزيادة «٢».

[٩] وَقَالَ مُوسَىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ - بِمَنْسَبِهِ قَوْلُهُ السَّابِقُ: وَ لئن كفرتم- إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بَلَا اسْتِثْنَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْجَمِيعِ لَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ شَيْئًا حَمِيدٌ بِذَاتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ حَمْدِ النَّاسِ وَ شُكْرِهِمْ، وَ إِنَّمَا الشُّكْرُ وَ الْإِيمَانُ تَعُودُ فَائِدَتُهُمَا إِلَىٰ نَفْسِ النَّاسِ، بِاسْتِقَامَةِ حَيَاتِهِمْ، وَ طَهَارَةِ نَفْسِهِمْ.

[١٠] وَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ يَا قَوْمِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَىٰ أَلَمْ يَصِلْ إِلَيْكُمْ أَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ عَصَوْا اللَّهَ سَبْحَانَهُ، فَأَخَذَهُمْ بَعْدَابَهُ الشَّدِيدِ، أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ؟ قَوْمِ نُوحٍ بَدَلٌ مِنْ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» حَيْثُ أَهْلَكُوا بِالْغُرُقِ وَ عَادِ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ ثَمُودَ

(١) سبأ: ١٤.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١١

قوم صالح عليه السلام و الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ قَوْمِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهِمْ بِالصِّدْقِ وَ الْحَقِّ، فَلَجَنُوا إِلَىٰ الْبَاطِلِ، وَ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْوَامَ، حَيْثُ كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْ مَحَلِّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ مِصْرَ وَ سُورِيَا، كَانَتْ أَخْبَارُهُمْ وَصَلَتْ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمَا سَائِرُ الْأَقْوَامِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهَا (وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) «١» فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَ لَا دَاعِيَ إِلَىٰ ذِكْرِهِمْ، فَالْأَنْمُودَجُ كَافٍ لِلتَّذْكِيرِ وَ الْإِرْشَادِ، جَاءَتْهُمْ أَىٰ جَاءَتْ تِلْكَ الْأَقْوَامُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَىٰ بِالْحُجُجِ الْوَاضِحَةِ، وَ الْبَرَاهِينِ الصَّرِيحَةِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ أَىٰ رَدُّ الْقَوْمِ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِأَنْ مَنَعُوهُمْ مِنَ التَّكْلِمْ، فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ مَنْ يَرِيدُ إِسْكَاتِ مَتَكَلِّمْ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ فَمِ ذَلِكَ الْمَتَكَلِّمْ، وَ ذَلِكَ تَشْبِيهِ، كَمَا لَا يَخْفَىٰ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرَانِ إِلَىٰ الْقَوْمِ، يَعْنِي أَنْ الْقَوْمَ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ، فِي أَفْوَاهِ أَنْفُسِهِمْ مَشِيرِينَ بِذَلِكَ إِلَىٰ الرِّسْلِ أَنْ اسْكُتُوا وَقَالُوا أَىٰ قَالَتْ الْأَقْوَامُ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ أَىٰ بِرِسَالَاتِكُمْ حَوْلَ الْعَقِيدَةِ وَ النِّظَامِ وَ إِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ وَحْدَةِ اللَّهِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْأَفْعَالِ مُرِيبٍ أَىٰ مُوجِبٍ لِلرِّيبِ وَ التَّرَدُّدِ، فَإِنَّ الشَّاكَّ قَدْ يَكُونُ لَهُ اطمئنان نفسى لا يربيه شكه، بل يمضى حسب اطمئنانه، و قد يقوى شكه، حتى يوجب ريبه و تردده.

(١) فاطر: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٢

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٠]

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَا فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَرِّجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)

[١١] قَالَتْ رُسُلُهُمْ فِي جَوَابِ قَوْلِهِمْ «إِنَّا لَفِي شَكٍّ» أَلَا فِي اللَّهِ شَكٌّ أَى هَلْ يُمْكِنُ الشَّكُّ فِي اللَّهِ بَعْدَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي تَنْتَقِ كُلَّهَا، فِي وَضُوحٍ وَجَلَاءٍ، بِأَنَّ لَهَا خَالِقًا عَلَيْهَا قَدِيرًا، فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَالِقَهُمَا وَمَبْدِعَهُمَا، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ بِمَنْزِلَةِ الْبِرْهَانِ وَالْدَلِيلِ يَدْعُوكُمْ اللَّهُ أَتَيْهَا الْأَقْوَامَ لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أَى بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ، وَإِنَّمَا أَتَى ب «مِنْ» التَّبَعِيَّةِ، لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يَغْفِرُ كُلَّ الذُّنُوبِ كَالشَّرِكِ، قَالَ سَبَّحَانَهُ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) «١» كَذَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ وَإِلَّا وَفَقِ الْقَوَاعِدِ، أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِلْجِنْسِ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَبُوا الدَّعْوَةَ، كَانُوا مُحَلًّا لِغُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، إِذْ لَا يَبْقَى شَرِكٌ حَيْثُذُ، وَإِنْ لَمْ يَلْتَبُوهَا لَمْ يَكُنْ غُفْرَانًا، فَالْمُرَادُ لِغُفْرَانِكُمْ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ الذَّنْبُ، وَيُخَرِّجُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَا يَعْجَلُ عَلَيْكُمْ بِالْعَذَابِ، بَلْ إِنَّمَا يُؤَخِّرُ آجَالَكُمْ إِلَى الْمَدَّةِ الْمَقْرَرَةِ لَكُمْ، فَإِنْ مِنْ سَلَكٍ مِنْهَاجَ اللَّهُ لَمْ يَعْزَبْ عَاجِلًا لِأَنَّ بَعْذَابَ الْاسْتِثْنَاءِ، وَلَا بَعْذَابَ مِنْ خَالَفَ الْمَنْهَاجَ، فَوَقَعَ فِي مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ قَالُوا أَى قَالَ الْقَوْمُ فِي جَوَابِ الرِّسْلِ إِنْ أَنْتُمْ أَى مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الرِّسْلُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا عَلَى خَلْقَتِنَا، وَمِنْ آيَاتِنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا أَى تَمْنَعُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

(١) النساء: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١١]

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ فَأَتُونَا أَى جِئُوا إِلَيْنَا عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أَى حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ مِنْ سُلْطٍ بِمَعْنَى غَلَبَ وَ قَهَرَ، كَأَنَّ الْحُجَّةَ تَغْلِبُ وَ تَقْهَرُ، وَ قَدْ كَانَتِ الْأَقْوَامُ -غَالِبًا- تَتَّقِيْدُ بِتَقَالِيدِهَا، وَ تَرَى الْمَعْجَزَاتِ بِأَنَّهَا سِحْرٌ، وَ تَسْتَعْرَبُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ بِالْمَزَايَا الْبَشَرِيَّةِ، مِنْ أَكْلٍ وَ مَشْيٍ، وَ نِكَاحٍ وَ أَوْلَادٍ، وَ لَذَا نَرَى هَذِهِ الْاِحْتِجَاجَاتِ كَثِيرَةً فِي كَلَامِ الْأَقْوَامِ ضِدَّ الرِّسُولِ.

[١٢] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ صَاحِبٌ مَا تَقُولُونَ إِنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي مَزَايَا الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِنْ نَحْنُ أَى مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الصُّورَةِ، وَ سَائِرِ الْخُصُوصِيَّاتِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِالنَّبُوَّةِ وَ الْوَحْيِ، وَ قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا سَبَّحَانَهُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْخَوَارِقِ الَّتِي تَشَاهَدُونَهَا، مِمَّا أَجْرَاهَا سَبَّحَانَهُ عَلَى أَيْدِينَا، فَإِنَّهُ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ أَى حُجَّةٍ وَ بَرْهَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِرَادَتِهِ، فَمَا أَتَيْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ كَانَ بِإِذْنِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَانَا وَ صِدْقِنَا، وَ مِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، رَدَّ لِمَا طَلَبْتَهُ الْأَقْوَامُ مِنْ خَوَارِقٍ مَقْتَرَحَةٍ، وَ جَوَابِ الرِّسْلِ، أَنْ الْخَوَارِقُ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، إِنْ شَاءَ أَتَى بِهَا، وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَأْتِ، أَمَا الْمَقْدَارُ الْكَافِي لِصِحَّةِ دَعْوَانَا، فَقَدْ زُوْدْنَا بِهِ، وَ جُنَّانَا بِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٢]

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

وَ هَذِهِ كِتْسَلِيَّةٌ لِلرِّسْلِ يَسْلُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، يَرِيدُونَ إِنَّا نَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ سَبَّحَانَهُ فِي تَكْذِيبِكُمْ وَ نَصَبِكُمْ الْعِدَاءَ لَنَا - كَمَا يَقُولُ مَوْظِفُ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ رَأَى عَدَمَ فَائِدَةِ الْحِجَاجِ مَعَ مَنْ يَرِيدُ تَطْبِيقَ الْقَانُونِ عَلَيْهِ «اعْتِمَادِي عَلَى الدَّوْلَةِ» يَرِيدُ التَّهْدِيدَ وَ الْاسْتِغْنَاءَ، بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ.

[١٣] ثُمَّ نَرَسِمُ لِلرِّسْلِ مِنْهَاجَهُمْ فِي الْحَيَاةِ بِصُورَةِ سُؤَالٍ وَ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الْأَقْوَامِ تَلْطِيفًا لِلْجَوِّ، فَإِنَّ فِي السُّؤَالِ إِظْهَارًا لِقُوَّةِ الْخُصْمِ، مِمَّا يَسْبَبُ لَهُ الْلِينُ وَ الْعُطْفُ، حَيْثُ اتَّبَعَ حَسَّ كَبْرِيَّاتِهِ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ أَى أَى شَيْءٍ لَنَا، إِذَا لَمْ نَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَ لَمْ نَفُوضْ

أمورنا إليه، بمعنى أنه لو تركنا التوكل عليه، لم يبق لنا شيء، إذ لا اعتماد لنا، لا من البشر، حيث نصبوا لنا العدا، ولا من الله حيث لم نلجأ إليه وقد هدىنا الله سبحانه شئبنا طرقنا في الحياة السعيدة، والآخرة المرفهة، والمعنى إنا إذا كنا مهتدين، فلا ينبغي لنا أن لا نتوكل على الله ف «الواو» في «وقد هدانا» للحال، ثم أخذت الأنبياء في اجتلاب عطف الأقسام، بقولهم وكنصبرن على ما آذيتنونا نصبر- على إيدائكم، ولا نقابلكم بالمثل، وهذا بالإضافة إلى كونه حقيقة، فقد كانت الأنبياء تصبر في مقابل أذى الأقسام، ليعطفوا قلوب الناس إليهم، لأن الناس مع المظلومين وعلى الله فليتوكل المتوكلون من أراد التوكل والتفويض إلى أحد في أمره، فاللازم أن يتوكل على الله، لأنه ينصره، ويسعفه بحاجته، وقد تقرر في علم البلاغة، أن «الفعل»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٥

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَنَشْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)

و «الإرادة» يستعمل كل منهما في معنى الآخر، فمثلا «إذا أقمت الصلاة» معناه، إذا أردتم القيام إليها، و «يريد الله بكم اليسر» معناه، أنه يسر عليكم، وعليه فالمراد ب «المتوكلون» من أراد التوكل.

[١٤] و إذ تمت الحجّة على الأقسام، وأظهروا القوة، كما هو شأن كل جاهل حين تتم الحجّة عليه، ولا يريد الإذعان وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعوذن في ملتنا أي إلا أن ترجعون إلى أدياننا وطريقنا، وتسمية ذلك رجوعا باعتبار أن الكفار كانوا يظنون أن الرسل - قبل ادعائهم الرسالة - كانوا على طريقتهم، ذاهلين أنهم كانوا على مبدأ التوحيد، ولكنهم لم يكونوا مأمورين بإظهاره، فأوحى إليهم أي إلى الرسل ربهم بعد إتمام الحجّة، و وصول الأمر إلى هذا الحد لنهلكن الظالمين بكل تأكيد، ولا- يحضرني الآن تاريخ يدل على أن رسولا نفى بعد مثل هذا الاحتجاج، وإنما خرج بعض الرسل بأنفسهم هربا- كموسى عليه السلام بالإضافة إلى أنه لم يكن بعد مثل هذا الاحتجاج، [١٥] وكنسكننكم أيها الرسل الأرض من بعدهم أي نجعل لكم فيها مسكنا ومستقرا، وإنما نخرج المكذبين بالهلاك والفناء،

وقد ورد في الحديث «من أذى جاره حرم جواره»

«١» و ليس إخراج الكفار من

(١) راجع روضة الواعظين: ج ٢ ص ٣٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٦

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)

الأرض وإسكان الأنبياء فيها، وكذلك إسكان التابعين لهم، جزافا واعتباطا، وإنما ذلك الإسكان، وإخراج الأعداء بالهلاك لمن خاف مقامي أي خافني، وإنما أضيف الخوف إلى المقام مجازا، بعلاقة الحال والمحل، أو المراد الخوف من نفس المقام والمنزلة، فإن الشخص إنما يخاف من منزلة الحاكم - مثلا - لا من نفس الحاكم، ولذا نرى أنه لو جرد عن تلك المنزلة، لم يكن محل خوف، والمراد بالخوف هنا عدم ارتكاب المعاصي وخاف وعيد أي خاف وعيدى بالهلاك في الدنيا والنكال في الآخرة، فلم يعصني.

[١٦] واستفتحو أي طلب الرسل الفتح والنصرة على أعدائهم، وإنما سمي النصر بالفتح، لأنه يفتح الطريق أمام المنتصر لفضاء حوائجه، بعد ما كان العدو صدا يمنع عن ذلك وخاب أي خسر كل جبار يجبر الناس على ما يريد عنيد معاند للحق، والجبار يطلق عليه سبحانه، لكنه هنا كحق، لأنه يجبر ما هو ملكه وخلقته، وليس كسائر الجبارين، والذين يجبرون ما ليس لهم، فإن الإنسان

مسلط على ماله و نفسه، و قد يقال الجبار له سبحانه، باعتبار أنه يجبر الكسر من كل شيء، كما في الدعاء يا جابر العظم الكسير.

[١٧] و خيبة الجبارة، كما هي في الدنيا كذلك في الآخرة، أما في الدنيا فإنهم لا يهتؤون بالعيش، حيث يرون الناس كلهم أعداء لهم، و إذا كان للإنسان عدوا واحدا لا يهنا له عيش، فكيف إذا كان له أعداء؟

و الغالب أن الجبارة يذلون أخيرا و يقتلون، و يبقى التاريخ ليلعنهم مدى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٧]

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)

الأجيال، هذا مع الغض عن أن لطف الله بعباده يحفر للجبار ألف حفيرة، كما قال:

تنام عيناك و المظلوم متبه يدعو عليك و عين الله لم تنم

و أما في الآخرة ف من ورأيه أى من خلفه، كأن الزمان الماضى مقابل الإنسان و الزمان المستقبل خلف الإنسان، يأتيه فيلحقه جهنم فإنه إذا مات، كان قبره حفرة من حفر النيران و يُسقى من ماء صديد الصديد القويح يسيل من الجرح، و إنما سمي صديدا لأنه يصد

حتى لا يسيل، إن المكان الحار يتطلب الماء البارد، لكن الجبار إذا طلب ذلك أتى بالقويح،

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: يسقى مما يسيل من الدم و القويح من فروج الزواني، فى النار «١».

[١٨] يَتَجَرَّعُهُ أَى يتكلف جرعه و شربه جرعه جرعه و لا- يكاد أى لا- يقارب- بطبعه أن يسىغه و الإساغه إجراء الشراب فى الحلق

بسهولة، أى لا يتمكن أن يشرب هذا الصديد، لكن العطش المفرط يضطره إلى الشرب،

و قد روى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير الآية قال صلى الله عليه و آله و سلم: يقرب إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى

وجهه و وقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز و جل: (و سَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) «٢»، و

يقول:

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٤٣.

(٢) محمد: ١٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٨]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ

(١٨)

(و إن يشتغيوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوى الوجوه)

«١» و يأتيه الموت من كل مكان حتى أنه لو كان، بالإمكان أن يموت بمكان واحد منه، إذ كيف حال من جوانبه الستة، ممتلئة بالنار و

العذاب و داخله هكذا صديد؟ و ما هو بميت إذ لا موت حتى يستريح هناك، فإنهم فى جهنم خالدون و من ورأيه وراء هذا العذاب

عذاب غليظ أشد منه و أغلظ.

[١٩] أما أعمالهم التى عملوها فى الدنيا- و لو كانت حسنات فى نفسها- فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، فليأخذوا الأجر ممن عملوا له،

فإن كل عمل لا يبنى على أساس الإيمان بالله و أمره، لا يستحق العامل جزائه على الله مثل الذين كفروا بربهم فى الآخرة أعمالهم التى

أتوا بها فى الدنيا كرماد اشتدت به الریح أى توجهت ریح شديدة إليه، فذرتة فى الهواء، مما لا يبقى منه أثر فى يوم عاصف شديد

الريح، فكما أن أحدا لا يقدر على جمع ذلك الرماد فى مثل هذا اليوم، كذلك أعمال الكفار تنتشر و تذهب هباء لا يقدر أحد على

جمعها حتى ينتفع بها لا يقدرون أى أولئك الكفار مما كسبوا أى من أعمالهم التى كسبوها على شئٍ لا قليل، ولا كثير، كما قال سبحانه فى آية أخرى

(١) الكهف: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٩]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) «١» ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي عَمِلُوهُ هُوَ الضَّلَالُ البُعِيدُ أى الذهاب أبعد عن النفع، فكأن العمل نفس الضلال - مجازاً - بعلاقة الصفة و الموصوف، كقوله (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) «٢» أو المراد، أن ضلال هؤلاء الكفار - المستفاد من المثل - هو الضلال البعيد، مقابل الضلال القريب، وهو ضلال العصاة، من أهل التوحيد، فإن الكافر أبعد عن الجادة المستقيمة، من المؤمن العاصي.

[٢٠] إن عمل هؤلاء الكفار، كالرماد المتطاير، أما هم بأنفسهم، فإنهم تحت سيطرة إله قدير، يتمكن أن يذهبهم جميعاً، كما أذهب أعمالهم كالرماد، فكفرهم و طغيانهم لا يخرجهم عن قدرته سبحانه و كيف يخرجون عن قدرة إله خلق السماوات و الأرض، إنها قدرة مدهشة، لا يتمكن أحد أن يتحداها أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي، و المراد بالرؤية العلم، و الاستفهام تنبيهي، أى تفكر لكى تعلم أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ فلم يكن خلقها عبثاً و اعتباطاً، و إنما لغاية و حكمه و مصلحة، كالذى يبنى المدرسة، لمصلحة الناجحين من التلاميذ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ يفتيكم و يمتكم أيها البشر، و يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ و هذا لتأكيد القدرة، حتى أن إفناء البشر كلهم، و الإتيان بمثلهم شئ هين معلق بإرادة واحدة.

(١) الفرقان: ٢٤.

(٢) هود: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَمْ جَزَيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ (٢١)

[٢١] و مَا ذَلِكَ الإفناء و التجديد على الله بعزٍ أى بمتنع أو متعسر، فذلك له سهل يسير، أليس خلق السماوات و الأرض شاهداً على يسر ذلك عليه سبحانه؟

[٢٢] ثم ينتقل السياق، بعد أعمال الكفار المتطايرة، إلى مشهد آخر من مشاهد الآخرة، يقع فيه النزاع و التخاصم بين الرؤساء، و المرؤسين و الشيطان، فقد أعزى بعضهم بعضاً، و هناك تنازع و تخاصم هذه الفئة تلك: لماذا أوصلتها إلى هذا المصير المرّ الأليم؟ وَبَرَزُوا أى ظهر الكفار يوم القيامة لله فى ساحة عدله - تشبيهاً بظهور الخصماء أمام الحاكم فى ساحات المحكمة فى الدنيا - جميعاً فليس أحد منهم غائباً، حتى لا يتم الخصام و يؤجل إلى غد و بعد غد، و حيث أن ذلك مستقبل متحقق الوقوع، جاء بلفظ الماضى «برزوا» فَقَالَ الضُّعَفَاءُ التابعون لرؤساء الكفار للَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و هم الرؤساء الذين رأوا فى قبول الإيمان ذهاباً لكيانهم، و تنقيصاً لرئاستهم فبقوا على الكفر، و جروا إليهم الضعفاء، إِنَّا كُنَّا لَكُمْ أيها المستكبرون تَبَعًا أتباعاً فى الدنيا، و تبع جمع تابع، كغيب جمع غائب، فَهَلْ أَنْتُمْ أيها الرؤساء مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ أى هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله الذى قد نزل بنا،

فإن لم تقدرُوا على دفع الكل فادفعوا البعض، جزء لنا حيث اتبعناكم في الدنيا، فإن التابع إنما يتبع، لأن يدفع المتبوع عنه ضراً، أو يجلب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٢]

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعِدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

إليه نفعا قالوا أي قال الرؤساء المتبوعون في جواب استفهام التابعين لَوْ هَدَانَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لَهَدَيْنَاكُمْ لَكُنَّا ضَلَلْنَا فَأَضَلَّلْنَاكُمْ، فلا تبعه علينا، إنما التبعة على من عنده ولا يعطى، أما من ليس عنده فلا لوم عليه أن لا يعطى، وهذا جواب فرارى، يريدون بذلك التخلص من أيدي الضعفاء الذين ضعفت نفوسهم، فجعلوا أنفسهم عبيداً مقلدين لأولئك الرؤساء المستكبرين، وإلا، فالله سبحانه هداهم، لكنهم أعرضوا، كما قال سبحانه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى «١») أو المراد أنهم يقولون: لو هدانا الله هنا إلى طريق الوصول والخلاص من العقاب لأريناكم ذلك الطريق لتنجوا أنتم أيضاً، ولكن لا نعرف الطريق حتى نهديكم إليه، ثم يعلن المتكبرون أن الأمر قد قضى وأنهم لا محالة في العذاب، من غير فرق بين أن يصبروا أو يجزعوا، فليس هناك كالدنيا يفيد الجزع حيناً، والصبر حيناً سواءً عَلَيْنَا أَمْ صَبَرْنَا أَمْ صَبَرْنَا أَمْ صَبَرْنَا ضد الصبر ما لنا مِنْ مَحِيصٍ أَي لَيْسَ لَنَا مَحِيصٌ وَمَهْرَبٌ عَنِ عَذَابِ اللَّهِ، من حاص يحيص، بمعنى حاد يحدد وفر عن المكروه.

[٢٣] و هنا يأتي الشيطان ليلوم أتباعه، في أتباعه و يتبرأ منهم، و يقطع بذلك آخر أمل لهم في النجاة، فقد اتبعوا الشيطان في الدنيا، فلعله يخلصهم بمكر أو حيلة، مما يشاهدونه وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَأَتَّبِعَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا فَيَكْفُرُوا أَوْ يَعْصُوا، مما أوردتهم النار في عاقبة الأمر لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

(١) فصلت: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٢

و فرغ الحاكم من الحكم على أتباعه بالنار و العذاب، و لعل الإتيان بهذه الجملة، بيان أنه لا يفيد شيء أصلاً، فقد انتهى الموضوع تماماً، إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ الْعَاصُونَ، إنكم إذا آمنتم و عملتم الصالح جزاكم بالجنة و النعيم وَعِدَ الْحَقُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ بَاطِلٌ وَ كَذِبٌ وَ خَدَاعٌ وَ وَعَدْتُكُمْ أَنْ لَا بَعَثَ وَ لَا نَشُورَ وَ لَا حِسَابَ وَ لَا عِقَابَ، فافعلوا ما شئتم فَأَخْلَفْتُكُمْ أَي كَذَبْتُكُمْ، و نسبة الخلف إلى نفسه، للتشبيه بالذي وعده فيخلف، للتقابل مع وعد الله سبحانه الذي يوفى، و إلا فالخلف ليس من الشيطان، و إنما اللازم أن يقول فكذبتم في الوعد- أو على الأدق في الأخبار بأنه لا شيء هناك وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْعَصَاةُ مِنْ سُلْطَانٍ تَسْلُطُ وَ قَهْرٌ، فلم يكن امتثالكم أمري جبراً مني لكم، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَقْضِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَ مَخَالَفَتِهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي وَ قَدْ كَانَتْ دَعْوَتِي بِالْوَسْوَسَةِ وَ الْخِفَاءِ، فلم تكن كدعوة الله سبحانه ببعث الرسل و نصب الحجج، و إقامة الأدلة و البراهين و بيان المصالح في الأوامر و المفاسد في الزواجر، و الاستثناء منقطع إذ الدعوة لا تكون سلطاناً و قد ذكرنا سابقاً أن الاستثناء المنقطع إنما يوتى به لفرض الكلام سابقاً مطلقاً، ففي المقام، كأنه قال «فلم يكن مني بالنسبة إليكم «إلا الدعوة» «أما السلطة فلا» فلا تَلْمُزُونِي مِنَ الْمَلَامَةِ، أي لا تلقوا تبعه عقابكم عليّ وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ فَانْتَمَّ خَالَفْتُمُ الْحِجَّةَ بِمَجْرَدِ الْوَسْوَسَةِ وَ الْإِغْرَاءِ حَيْثُ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَادِعٌ زَائِفٌ، أما الحال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٣]

وَ أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)

فاعلموا أنه ما أنا بِمُضِيرِ حُكْمٍ من صرخ، و الإصراخ الإغاثة بإجابة الصراخ، يقال: استصرخني فلان فأصرخته، أى استغاث بى فأغثته، و المعنى أنا لا أتمكن من إغاثتكم و خلاصكم من العذاب و ما أنتم بِمُضِيرِ حُجَى و أنتم لا تتمكنون من إغاثتى من عذاب الله الذى يحل بى، فإن للشيطان النصيب الأوفر من العذاب، و لا مصرخ له- كلما يستغيث- فإن أتباعه يتبرءون منه، كما تبرأ منهم، و لا يتمكنون هم علاجاً لأنفسهم فكيف يتمكنون من علاج للشيطان؟ أما الله و أنبيائه، و سائر عباده الصالحين، فهم أعداء الشيطان، كما هو عدوهم، فهل ينقذونه من العذاب، إني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلِ أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ، أى إني جحدت، الآن أن أكون شريكاً لله تعالى، فيما أشركتموني فيه، فقد كان المشركون يشركون الشيطان عملياً مع الله سبحانه، فيعملون قسماً من أعمالهم حسب أمر الله، و قسماً أكبر حسب أمر الشيطان، و هذا هو الشرك، ثم قال لهم كلمته الأخيرة إِنَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه، فلا مناص و لا خلاص.

[٢٤] و إذ رأينا عاقبة الكفار، و أنها التخاصم و النار، فلننظر إلى عاقبة المؤمنين و أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، و بما أمر به من اتباع الرسول، و الإيمان بالمعاد و ما أشبهه، من سائر الأصول الاعتقادية و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، بإتيان الواجبات، و ترك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٤]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)

المحرمات، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أى تحت قصورها و أشجارها الأَنْهَارُ فى حال كونهم خالدين فيها فليس لهم عنها زوال بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فإنه سبحانه يأذنهم بذلك، حيث يريدون البقاء بعد الدخول تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ فيسلم بعضهم لبعض مقابل أهل النار الذين يخاصم بعضهم بعضاً كما مر.

[٢٥] و إذا تم الكلام حول الفرق الخبيثة العاصية التى مصيرها النار، و الفرق الطيبة المطيعة التى مصيرها الجنة، يأتى مثال للكلام الطيب و الخبيث ليدل على أن مصائر الطيبات إلى ازدهار و نمو و تملك للحياة و مصائر الخباث إلى الانهيار و المحو من الوجود و هكذا أجزت سنة الله، و هذا المثل بدوره يقوى من عزائم الطيبين و إن رأوا بادية ذى بدء أن الخبيث كثير و أنه قد أخذ عرض الحياة و طولها أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، و الاستفهام تنبيهى يراد به الإلفات و التذكير، و المراد بالرؤية العلم، أى ألم تعلم، و إنما يؤتى بلفظ الرؤية للدلالة على أن هذا العلم قريب من الرؤية فليس من الأمور الغامضة، و إنما رؤيته و حس كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى بين الله مثالا لكل خبيث و طيب، و إنما تستعمل كلمة ضرب لأن المثل يصطدم مع الذهن فيوجد فيه تأثيراً و تمويجاً لا يحصل ببيان أصل المطلب بدون المثل.

ثم بين سبحانه ذلك المثل المضروب بقوله كَلِمَةً طَيِّبَةً الكلمة تطلق على كل ما فى الوجود لفظاً كان- كما هو المتبادر منها- أم غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٥]

تُوتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)

لفظ حتى الإنسان يسمى كلمة، كما قال سبحانه: (وَ كَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرِيَمَ) «١» و (لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) «٢» و فى الزيارة فى وصف الأئمة «كلمة التقوى و أعلام الهدى» فإن الشىء الطيب إنساناً كان، أو عملاً أو لفظاً، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أى كالشجرة الزاكية النامية الراسخة أصولها فى الأرض، و الساقفة فروعها فى السماء، فكما أن الشجرة الطيبة هكذا، كذلك الكلمة الطيبة أضلها ثابتٌ فى الأرض و فَرْعُهَا فى السَّمَاءِ سامق عال فنرى الإنسان الطيب قوى الجذور فى المجتمع كثير البقاء، منتشر فى النفوس- و إن كان الباطل منتفخاً فى المنظر- مضيقاً عليه دروب الحياة فى أيام و هكذا كل شىء طيب.

[٢٦] تُؤْتِي أَكْلَهَا الْأَكْلَ الثَّمْرَةَ، أى تعطى ثمرتها كل حين أى فى جميع الأوقات بإذن ربها فإن الله سبحانه أذن و أجاز ذلك، فإنه لو لا إجازته سبحانه لم تكن و لم تؤت ثمرا، و لذا جاء بلفظ «الإذن» دون «الأمر» فإن الحياة لا تكون إلا بإذنه و يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة السليمة، و كم هذا المثل بالذات من القيمة، فإن غالب الناس - فى كثير من الأحيان - ينظرون إلى ما للباطل من جولة فيظنون أن الحق قد ذهب و اضمحل، و لكن

(١) النساء: ١٧٢.

(٢) الأنعام: ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٦

الأمر ليس كذلك بل الحق راسخ الأقدام على البنيان لا تزعه الأعاصير و لا العواصف و إنما يبقى ليثمر و يعطى الناس فوائده الطيبة.

و السر أن الحق يدخل القلوب بما أودع الله فيها من حب ذاتي للحق، و كره ذاتي للباطل و الباطل إنما يأخذ السطوح، و ما يبقى فى القلب فى أمن من الخطر و الغير، أما ما فى السطوح فإنه يزول بأقل حركة، و لذا قال الفرزدق للإمام الحسين عليه السلام: قلوبهم معك و سيوفهم مع بنى أمية (١) و قد رأينا كيف زالت بنوا أمية لما وقعت من أيديهم السيوف، و كيف بقى الحسين عليه السلام و فى الآية الكريمة:

(فَأَجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ) (٢) و

فى الزيارة «و فى قلب من يهواه قبره»

أى قبر الإمام عليه السلام، و لهذا السر بقيت أنبياء الله تعالى فى الحياة بينما لم يبق من الجبارين أقل شىء و من بقى ليلعن و يكون مسبه و مثالا للرديلة ليتجنبها الناس.

و قد ذكرت الأحاديث تفسير الآية الكريمة بالرسول و الصديقة و الأئمة عليه السلام و الشيعة لهم، و ذلك من باب أظهر المصاديق - كما بينا ذلك مكررا -

فقد سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الشجرة فى هذه الآية؟

فقال: رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أصلها و أمير المؤمنين عليه السلام فرعها، و الأئمة من ذريتهما أغصانها و علم الأئمة ثمرتها و شيعتهم المؤمنون ورقها، قال:

و الله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها و إن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها

(٣). أما العمل الطيب و الكلمة الطيبة فإنهما يؤثران فى الحياة السعيدة و يورقان و يزهران و يثمران كالحبة الصغيرة التى تصبح شجرة

(١) دلالة الإمامة: ص ٧٤.

(٢) إبراهيم: ٣٨.

(٣) الكافي: ج ١ ص ٤٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٧

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

كبيرة موقرة، و لذا نرى العمل الطيب يبقى مثالا محفزا للخير، و الحكمة الجارية على لسان الصالحين تبقى لترشد و تسعد .. هذا بالاضافة إلى ما تعقبه الكلمة الطيبة- أيما كانت- من الذكر الجميل فى الدنيا، و السعادة الأبدية فى الآخرة.

[٢٧] وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ قَوْلًا كَانَتْ أُمُّ عَمَلًا أَمْ إِنْسَانًا كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ غَيْرَ زَاكِيَةٍ وَ لَا نَامِيَةٍ، وَ لَا رَاسِخَةَ الْجُدُورِ وَ لَا عَالِيَةَ الْفُرُوعِ، وَ إِنَّمَا هِيَ كَالشَّيْءِ الْمَفْرُوشِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، بَلَا- أَصُولٍ وَ لَا- فُرُوعٍ فَلَا مَجَالَ لَهَا فِي أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ وَ لَا بَقَاءَ لَهَا فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَجْيَالِ، وَ كَأَنَّهَا اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أَى اقْتَلَعَتْ جَنَّتَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَ إِنَّمَا وَصَفْتَ بِهَذَا الْوَصْفِ لِيُبَيِّنَ أَنَّهَا لَا بَقَاءَ لَهَا، حَتَّى لَا تَسْتَحِقَّ أَنْ يُقَالَ عَنْهَا إِنَّهَا ثَابِتَةٌ- وَ لَوْ حِينَ كَانَتْ ثَابِتَةً- أَفَلَا تَصِيرُ بَعْدَ أَيَّامٍ مَجْتَنَّةٌ؟ وَ هِيَ اجْتَنَّتْ «مِنْ فَوْقِ» فَلَا جُدُورَ لَهَا فِي الْأَعْمَاقِ حَتَّى تَسْتَحِقَّ أَنْ يُقَالَ «مِنْ الْأَرْضِ» مَا لَهَا أَى لَيْسَ لَتَلِكِ الشَّجَرَةِ مِنْ قَرَارٍ ثَابِتٍ وَ اسْتِقْرَارٍ، فَأَقْلَ رِيحٍ تَسْفِهَا، وَ أَصْغَرَ حَرَكَةٍ تَقْلَعُهَا وَ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ مِثَالُ لَبْنِي أَمِيَةٍ، فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ، وَ قَدْ صَدَّقَ الْمَثَلُ فَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ، اجْتَنُّوا مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، وَ ذَهَبَتْ دَوْلَتُهُمْ الْمُنْتَفِخَةُ الْخَلَابَةُ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا بِاللَعْنِ، وَ لَا يَسْجُلُونَ إِلَّا لِيُبَيِّنَ مَخَازِيَهُمْ.

[٢٨] وَ كَمَا لِلشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ثَابِتٌ وَ اسْتِقْرَارٌ كَذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِ الطَّيِّبِ أَنَّهُ يَثْبِتُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ يَجْعَلُهُ دَعَامَةً لِلْحَيَاةِ، كَمَا يُؤْوِلُ أَمْرَهُ إِلَى الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَ كَمَا لَيْسَ لِلشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ ثَابِتٌ وَ اسْتِقْرَارٌ كَذَلِكَ لِلظَّالِمِ الْعَاتِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٨

أنه يضلله الله سبحانه، كالإنسان الذى لا ينتفع بشيء فإنه يلقى مع النفايات ليذهب و ينقطع أثره، و لماذا يبقى؟ أنه لا ينتفع به حتى يتعاهده الإنسان يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَى يَبْقِيَهُمْ أَعْمَدَةً لِلْحَيَاةِ وَ أَمْثَلَةً لِلْمَكْرَمَاتِ، وَ إِنَّمَا يَبْقِيَهُمْ بِسَبَبِ الْقَوْلِ الثَّابِتِ الَّذِي تَمَسَّكُوا بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَهَمُ هَاهُنَا ثَابِتُونَ رَاسِخُونَ يَعْرِفُهُمُ النَّاسُ وَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ كَأَمْثَلَةٍ لِلْمَعَانِي الْخَيْرَةِ وَ فِي الْآخِرَةِ فَهَمُ الشُّفَعَاءُ الْحُكَّامُ أَصْحَابُ الْجَاهِ الْكَبِيرِ فِي الْجَنَّةِ.

و فى الآية احتمال آخر- و إن كان الأول أنسب إلى السياق- و هو أن الله سبحانه يثبت المؤمنين على إيمانهم، فلا تزحزحهم الفتن و الانحراف بسبب القول الثابت الذى هو الإيمان و كلمة الشهادة فلا يمكن إضلالهم «فى الحياة الدنيا» و لا يتلعثمون إذا حوسبوا «فى الآخرة» لما انطوا عليه من الإيمان و الإذعان و يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَنْفِيهِمْ وَ يَبْعِدُهُمْ، وَ يَتْرِكُهُمْ حَتَّى يَغْمُرُوا فِي الْجَهَالَةِ وَ الضَّلَالَةِ، كَمَا يَتْرِكُ الشَّجَرَةَ الْخَبِيثَةَ حَتَّى تَقْلَعُ بِسَبَبِ الرِّيَّاحِ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِمَّا أَجْرَى سَنَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ إِبْقَائِهِمْ، وَ خَذْلَانِ الظَّالِمِينَ وَ إِضْلَالِهِمْ- وَ قَدْ سَبَقَ مَكْرَرًا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِضْلَالِ إِذَا نَسَبَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ: تَرْكُ الشَّخْصِ الَّذِي لَمْ يَقْبَلِ الْأَمْرَ حَتَّى يَضِلَّ وَ يَفْسُدَ- وَ مَا وَرَدَ فِي جَمَلَةٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ مِنْ إِثْبَاتِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ أَوْ فِي الْقَبْرِ عَلَى الشَّهَادَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (٢٨)

الحق، فإن ذلك من باب أحد المصايق للآية الكريمة.

فقد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث سؤال القبر فيقولان «منكر و نكير» له: من ربك و ما دينك و من نبيك؟ فيقول: الله ربى، و دينى الإسلام، و نبيى محمد صلى الله عليه و آله و سلم. فيقولان: ثبتك الله فيما يحب و يرضى، و هو قول الله يثبت الله الذين آمنوا، الآية «١».

[٢٩] وَ بِمَنَاسِبَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الظَّالِمِينَ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمْ كَيْفَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى ضَلُّوا سِوَاءَ السَّبِيلِ أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، وَ الْمُرَادُ بِالرُّؤْيَةِ الْعِلْمُ، وَ الْاسْتِفْهَامُ تَذَكِيرِي- كَمَا تَقَدَّمَ- إِلَى الَّذِينَ يَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا؟ أَخَذُوا بِدَلِّ النِّعْمَةِ الْكُفْرَ، فَلَقَدْ كَانَ مَقْتَضَى الْعَقْلِ أَنْ يَأْخُذُوا النِّعْمَةَ بِشُكْرِهَا، فَأَخَذُوا الْكُفْرَ، فَكَأَنَّ النِّعْمَةَ شَيْءٌ قَابِلٌ لِلْأَخْذِ، فَلَمْ يَأْخُذُوهَا، وَ إِنَّمَا أَخَذُوا

مكانها الكفر، وهذا عام يشمل كل من يترك النعمة ليأخذ مكانها الكفر، فمن يترك الرسول ليتخذ مكانه الكفر، و من يترك الولاية لأهل البيت ليأخذ مكانهم الكفر بهم، و من يترك شكر النعمة ليأخذ مكانه الكفران بها، و غيرهم من أمثالهم كل أولئك بدلوا نعمة الله كفرا و ما ورد من تفسيرها بكفار قريش فإنه من باب المصداق الظاهر.

و الحقيقة أن النعمة لا تبدل بالكفر، و إنما الشكر للنعمة يبدل بكفرانها، و إنما جرىء بهذا المجاز - بعلاقة السبب و المسبب - تهويلا و أحلوا قومهم دار البوار فهم - الرؤساء - قد قادوا قومهم و أتباعهم

(١) تأويل الآيات: ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٩ الى ٣١]

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ يَسْسُ الْقَرَارُ (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَ لَا خِلَالَ (٣١)

إلى دار الهلاك، فإن البوار بمعنى الهلاك.

[٣٠] جَهَنَّمَ بدل من دار البوار يَصْلَوْنَهَا أى يصلها الذين بدلوا مع أقوامهم، و اللفظة حال عن الفاعل و المفعول فى «أحلوا قومهم» و يَسْسُ الْقَرَارُ جهنم، فإنها مقر سيئ.

[٣١] لقد استبدل هؤلاء الكفار بنعمة الرسول و دعوته إلى التوحيد كفرا فتركوا الدعوة و الوحدة و جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا جمع ند، و هو المثل، أى أمثالا فى العبادة، فعبدوها كما عبدوا الله تعالى لِيُضِلُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ أى سبل الآلهة الباطلة، و اللام للغاية، و إن لم يقصد الإضلال المضل، نحو (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» و الظاهر بقريته - و أحلوا قومهم - أن المراد بمن «جعل» القادة الكبراء.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْجَاعِلِينَ لِلَّهِ أَنْدَادًا تَمَتَّعُوا قليلا فى هذه الحياة بالتعم من متعها، و المراد به التهديد، و إن كان فى صورة الأمر فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ فإنكم - بكفركم - إليها تصيرون.

[٣٢] و انصرف يا رسول الله عن هؤلاء الكفار، و ولّ وجهك تلقاء المؤمنين و قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بالله و ما جئت به يُقِيمُوا الصَّلَاةَ استمروا على أدائها، و جزم يقيموا، لأنه وقع فى جواب الأمر، أى أن

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٢]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِيَتَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢)

تقل لهم يقيموا و يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مختلف الأرزاق، رزق العلم، و رزق الجاه، و رزق الأولاد، و رزق المال، و غيرها سِرًّا وَ عَلَانِيَةً فإن الإنفاق كذلك دليل على رسوخ ملكة الإنفاق فى النفس، بخلاف من ينفق فى وقت دون وقت من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ أى هو يوم القيامة، أو يوم موت الإنسان لا يَبِيعُ فِيهِ فِلا يمكن الإنسان أن يبيع شيئا ليشرى نفسه من العذاب و لا خِلَالَ أى لا الصداقة، فإن الصديق لا ينفع هناك صديقه فى نجاته من العذاب، أو المراد ادخروا الأعمال الصالحة ليومكم ذاك فإن ذلك اليوم لا يكون فيه نماء بتجارة أو صداقة، و إنما يستعمل الإنسان نتائج أعماله السابقة.

[٣٣] إن الكفار تركوا عبادة الله الواحد، و أخذوا الأنداد، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالملك، و ليس معه من شريك الله هو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنشَأَهُمَا و أبدعهما و أوجدهما من كتم العدم و أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ أَى جَهَّةَ الْمَطَرِ مَاءً يَنْزَالُ الْمَطَرُ فَأَخْرَجَ بِهِ أَى بسبب ذلك الماء مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ أَيها البشر، و إنما قال من الثمرات، لأن جميعها لا تكون أرزاقا للبشر، فقسم منها يسقط و يتلف، و قسم منها يصير رزقا للبهائم و الحيوانات، و المراد بالرزق أعم من المأكول و الملبوس و المفروش و سائر ما ينتفع به الإنسان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٢

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَسَيَخَّرْ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

وَسَيَخَّرْ لَكُمْ الْفُلْمَكَّ أَى السفن و المراكب، حيث تحملكم على ظهر الماء من محل إلى محل، بأن جعل الماء بحيث لا تغرق فيه السفينة لِتَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ سبحانه لأنه المهَيَّئِ لوسائل الجريان من رشاء الماء، و جرى الهواء، أو دفع الحرارة- فى السفن البخارية و شبهها- و سَيَخَّرْ لَكُمْ أَيها البشر الْأَنْهَارَ المياة الجارية، لتجرى إليكم من كل مكان، و لو كانت المياة راكدة، لم ينتفع بها كثير من الناس إِلَّا بصعوبة.

[٣٤] وَسَيَخَّرْ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ أَى ذللهما و سيرهما لمنافعكم، فإن الإنسان ينتفع بالشمس فى ضوءها و حرها، للدفع و نضج الثمار و غير ذلك، كما ينتفع بالقمر فى ضوءه- ليلا- و تأثيره الطبيعى فى بعض الأشياء، كالجزر و المد، و تقويمه الحساب للسنين و الشهور و الأيام، إلى غيرها دَائِبِينَ أَى فى حال كونها مستمرين فى عملهما، شروقا و غربا، مدى السنين و الأزمان و سَيَخَّرْ لَكُمْ لمنافعكم اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ تستريحون فى الليل و تعملون فى النهار مع ما لهما من المنافع للأبدان و الأرواح، بعدم الضجر و الملل من استواء الحالة، و غير ذلك.

[٣٥] وَآتَاكُمْ أَعْطَاكُمْ سبحانه مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ من مال و أولاد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٥]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)

و أزواج و صحه و أمن و غيرها، من الأسئلة التى لا تحصى كثرة يسألها الإنسان من الله تعالى فيعطيهما و إِنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ التى أنعم بها عليكم، من كل صغيرة و كبيرة لا تُحْصُوهَا أَى لا تقدرتون على إحصائها، كيف و الإنسان لا يتمكن من عد ما فى بدنه فقط- من النعم- فقد ذكروا أن فى بدن الإنسان اثنتى عشرة ألف قوة تشتغل ليل نهار، أما علماء الغرب فقد ذكروا أن كل قطرة من الإنسان فإنها تحمل اثنى عشر مليون من الحيوانات المجهرية الصغيرة، و من المعلوم أن كل واحدة منها نعمة، و بهذا الشبه قالوا فى كل ذرة من ذرات الجسم، و النعمة اسم أقيم مقام المصدر، و لذا لا يجمع، ثم أ ليست كل هذه النعم من الله سبحانه؟ فلما ذا يتخذ الإنسان إليها دون الله إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ صِغَةً مبالغه أَى كثير الظلم لنفسه و لغيره كَفَّارٌ أَى كثير الكفر لنعم الله تعالى، فإن الكفر بمعنى الستر و عدم الشكر للنعم.

[٣٦] و إذ سبق وجوب شكر النعمة و ذم كفرانها، و ظهر مصير المؤمن و الكافر، فلننظر إلى نموذج من الإنسان المؤمن، كيف آمن و شكر، و كيف كان كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها فى السماء، فى مثال قريب إلى أذهان البشرية جمعاء، و إلى أذهان أهل مكة بصورة خاصة، و قد جرى دأب البلغاء أن يعقبوا الحكم الكلى و القاعدة العامة بمثال واضح ليرتكز الحكم فى الذهن، و يتشوق الذهن إلى الانطباع بمثله، و الاقتداء به، و اذكر يا رسول الله إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فى دعائه مع الله سبحانه رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَى مكة، و ذلك اليوم لم يكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٦]

رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)

بلدا، وإنما علم إبراهيم بأنه سيصبح بلدا آمنا أي محل أمن، لا يسودها الفوضى والاضطراب، كما قال سبحانه، وقد استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام: (جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) «١» فقد كانت مكة آمنه، بينما كانت حواليتها مضطربة بالسلب والنهب والقتل والسفك.

وَاجْتَبَيْتَنِي أَيْ بَعْدَنِي، مَنْ جَنَّبَهُ بِمَعْنَى بَعْدَهُ وَبَنَى أَيْ بَعْدَ بَنَى - أَوْلَادِي - أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ مَعْنَى هَذَا الدَّعَاءِ أَلْطَفَ عَلَيْنَا بِلُطْفِكَ حَتَّى لَا نَعْبُدَهَا، لَا ابْتِدَاءً، وَلَا اسْتِمْرَارًا، فَلَا يَقَالُ أَنْ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَمَا مَعْنَى هَذَا الدَّعَاءِ؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَرَادَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ «بَنَى» أَوْلَادِهِ مِنْ صِلْبِهِ، أَوِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ مِنْهُمْ وَمَنْ فِي سِلْسِلَتِهِمْ، فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: فَانْتَهتِ الدَّعْوَةُ إِلَيَّ وَإِلَى أَخِي عَلِيٍّ، لَمْ يَسْجُدْ أَحَدٌ مِنَّا لَصْنَمٍ قَطُّ فَاتَّخَذَنِي اللَّهُ نَبِيًّا وَعَلِيًّا وَصِيًّا «٢».

أقول: وقد وردت روايات وأطبقت عليه الشيعة على أن في سلسلة النبي والإمام لا يكون كافر إطلاقاً، وعلى ما تقدم فلم يكن دعاء إبراهيم عليه السلام عامًا لجميع ذريته، وإلا فقد كان من نسله من عبد الأصنام، كبنى إسرائيل الذين عبدوا العجل، وغيرهم كأبي لهب.

[٣٧] يَا رَبِّ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَإِنَّمَا أَتَى بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ تَمَاشِيًا مَعَ الْمَعْتَقِدِ السَّائِدِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَهَا عُقُولٌ

(١) العنكبوت: ٦٨.

(٢) أمالي الطوسي: ص ٣٧٨ مجلس ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٧]

رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءُ كُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مِنْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ وَإِنَّمَا نَسَبَ الْإِضْلالَ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، فَلَوْ لَا الْأَصْنَامَ لَمْ يَضِلَّ الَّذِينَ عَبَدُوهَا بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الضَّلَالِ، وَيَتَبَيَّنُ مِنْ هَذَا أَنَّ عِبَادَةَ الصَّنَمِ فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ كَانَ شَيْئًا كَثِيرًا حَتَّى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَخَوَّفَ عَلَى وَلَدِهِ مِنَ الْانْجِرَافِ وَالانْحِرَافِ.

فَمَنْ تَبِعَنِي مِنَ النَّاسِ فِي إِيْمَانِي وَأَعْمَالِي، بَأَنَّ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ مِنِّي لِي مَا لَهُ وَعَلَيَّ مَا عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِنَا «فَلَانٍ مِنْ فَلَانٍ» يَعْنِي عَلَى لَوْنِهِ وَمَزَايَاهُ، وَإِنَّهُ مُشْتَرِكٌ مَعَهُ فِي الْحُكْمِ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا وَمَنْ عَصَانِي فَلَمْ يَتَّبِعْ طَرِيقَتِي وَسَبِيلِي فَإِنَّكَ يَا رَبِّ غَفُورٌ سَاتِرٌ لِمَعَاصِي الْعِبَادِ رَحِيمٌ بِهِمْ تَرْحَمُهُمْ وَتَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ، وَلا- يُقَالُ أَنَّهُ كَيْفَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ذَلِكَ مَعَ أَنَّ الْكُفْرَانَ لَيْسُوا بِقَابِلِينَ لِلْغَفْرَانِ؟ إِذِ الْجَوَابُ: أَنَّ مِنْ عَصَى أَعْمَ مِنَ الْكَافِرِ، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ الْعَاصِيَ، وَلَمْ يَقُلْ إِبْرَاهِيمُ غَفُورٌ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ فِي الدُّنْيَا يَرْحَمُ اللَّهُ الْكُفْرَانَ وَيَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ يَسْتَعْتَظِفُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، بَأَنَّ يَفْعَلُ بِالْعَاصِي مَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ مِنَ الْغَفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ.

[٣٨] ثُمَّ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعَائِهِ رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءُ كُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَيْ جَعَلْتُ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِي السُّكْنِ وَمَحَلِّ الْإِقَامَةِ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي

زَرْعٍ أَيْ أَرْضٍ غَيْرٍ مَزْرُوعَةٍ، وَقَدْ أَرَادَ بِذَلِكَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ أَنَّهُ جَعَلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٦

هناك إسماعيل وأمه هاجر، دون إسحاق وأمه سارة، فقد كانا عنده قرب فلسطين، حيث مخيمه ومضيفه وماشيته، وقد أمر الله سبحانه إبراهيم بهذا الإسكان، عند البيت لينتشر البلاغ والدعوة من هناك، وقد كان إبراهيم يتراوح بين مكة وفلسطين، وقد صار ما قدره الله سبحانه من انتشار الدعوة من هناك، ولعل جعل إسماعيل الصغير وأمه هاجر، في تلك الصحراء القفر الموحش حكمته جلب أنظار المارة، ومن حولهم - بعيدا - في الأخبية من البدو النزل، إلى هذا البيت، فيكون ذلك سببا للهداية فإن الفطرة البشرية تعطف على المظلوم والغريب والكسير ومن إليهم، مما يهيئ الجو المستعد للبلاغ والإرشاد.

عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ وَإِنَّمَا قَالِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ بَيْتِكَ وَلَمْ يَبِينْ بَعْدَ، لَأَنَّ الْبَيْتَ كَانَ سَابِقًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَلِذَا وَرَدَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَجَّ الْبَيْتَ، وَإِنَّمَا خَرَّبَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى ذَهَبَ أَثَرُهُ، إِمَّا بِفَعْلِ الطَّبِيعَةِ، أَوْ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ أَنَّهُ خَرَّبَهُ «طَسْمٌ» وَ«جَدِيسٌ» وَإِضَافَةَ الْبَيْتِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ تَشْرِيفِي، وَوَصْفِ الْبَيْتِ بِالْمَحْرَمِ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِالْإِحْرَامِ، أَوْ بِمَعْنَى الْعَظِيمِ الْحَرَمِ، أَوْ لِأَنَّهُ يَحْرَمُ فِيهِ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ كَالصَّيْدِ وَ مَا أَشْبَهَ.

رَبَّنَا إِنِّي قَدْ أَسْكَتَهُمْ هُنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَعَلَّ الْمَرَادَ إِقَامَتَهَا بِإِرْشَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الصَّلَاةِ، لَا أَنَّهُمْ يَصِلُونَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مُمْكِنًا حَتَّى عِنْدَ غَيْرِ الْبَيْتِ، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّ كَوْنَهُمْ فِي الْبَيْتِ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهُمْ عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ فِي مَرَاكِرِ الْقُدْسِ، يَمِثِلُ نَفْسَهُ إِلَى الْإِبْتِهَالِ وَالْإِتِّهَالِ وَالْإِتِّهَالِ بِاللهِ سَبْحَانَهُ، بِخِلَافِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٨]

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)

الإنسان الذي هو بعيد فإن المحيط يوحى بما يحمل معه من المعاني الخيرة أو الشريرة فأجعل يا رب أفئدة جمع فؤاد، وهو القلب من الناس تهوى إليهم أي تميل إليهم وتهوهم، وذلك سبب لتعمير البيت أولاً، وإقبال الناس على الحق ثانياً، وسيادة الذرية ثالثاً، ومن المعلوم أن من المرغوب فيه أن يكون أبناء الإنسان سادة، سواء للدين أو الدنيا، كما قال سبحانه حكاية عن المؤمنين (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) «١» هذا بالإضافة إلى إصلاح أمور معاشهم إذا هوتهم الأفئدة فاختلف الناس إليهم.

وَارْزُقُهُمْ يَا رَبَّ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَلَعَلَّ هَذَا الدَّعَاءُ كَانَ لِأَجْلِ أَنَّ مَكَّةَ لَجَدِبَ أَرْضُهَا لَا تَنْبِتُ ثَمَرًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ أَنْ يُؤْتِيَ إِلَيْهَا بِالثَّمَرِ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ كُلَّ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي مِنْهَا هَذَا الدَّعَاءُ، فَإِنَّ مَكَّةَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ يَجِبِي إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، فَالْحَاجُّ يَرَى هُنَاكَ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرِ الْمَجِيبَةِ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ مَا يَدْهَشُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ أَي لَكِي يَشْكُرُوا نَعْمَكَ وَيَعْرِفُوا فَضْلَكَ فَيَفُوزُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَ«لَعَلَّ»، عَلَّةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَدْعِيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَي أَفْعَلْ بِهِمْ كَذَا وَكَذَا لَكِي يَشْكُرُوا، أَوْ رَجَاءُ أَنْ يَشْكُرُوا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ جَبَلَ عَلَى شُكْرِ الْمَنَعِمِ.

[٣٩] ثم يظهر إبراهيم عليه السلام أن دعائه بتلك الدعوات ليس لمظاهر ريائية، وإنما الأدعية انقطاع إليه سبحانه، وتضرع وطلب من الله، وكيف

(١) الفرقان: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٩]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)

يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يريد المظهر في دعائه أو يجد الرياء إلى عمله سبيلا - كبعض الداعين - وهو العالم بأن الله سبحانه يعلم

ما خفى و ما علن؟ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي فِي نفوسنا، أو نخفيه عن الناس و ما نُغْلِنُ بإظهاره أمام الملائكة، فلا نفعل شيئاً إلا لك و من أجلك، في حال نراك رقيباً علينا تعلم خفايانا و ما يُخْفِي عَلَيَّ اللهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ فهو المطلع على كل شيء، و لعل ذكر هذه الأدعية هنا، للتعريض بكفار قريش حيث استجاب الله فيهم دعاء إبراهيم، فالحرم آمن، و الثمرات تجبي، و القلوب تهوى محلهم، مع ذلك هم يكفرون بالله، و لا يقيمون الصلاة، و أعمالهم رياء و مكاء و تصديه.

[٤٠] ثم أخذ إبراهيم عليه السلام في الشكر، فإن الشكر مفتاح إجابة الأدعية، إذ الشاكر يزداد و الكفور يزداد، كما قال سبحانه (لئن شكرتم لأزيدنكم) «١» فقال عليه السلام الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ أَي كبر سنِّي إِسْمَاعِيلَ ابن هاجر و إِسْحَاقَ ابن سارة إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ أَي يسمع دعاء من دعاه، و ليس كسائر العظماء لا يسمعون إلا دعاء بعض الناس لهم، أو المراد بسميع الدعاء، أنه يستجيب، لأنه ربما يكون كناية عنه.

(١) إبراهيم: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٩

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٠ الى ٤١]

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

[٤١] يَا رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ بِأمر الناس لها و الإرشاد إليها، أو المراد آدم توفيقك لأكون في المستقبل مقيماً كما كنت في الماضي كذلك، مثل «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي اجْعَلْهُمْ مُقِيمِينَ للصلاة، و دخول «من» هنا و في قوله عليه السلام «من الناس» إما للنشوء و الجنس أي أفئدة من هذا الجنس، و اجعل من جنس ذريتي فيكون الدعاء عاماً، و لا منافاة بين دعاء الخير للعموم و إن علم الإنسان أنه لا يستجاب إلا لبعض، كما في الدعاء: «اللهم اغفر للمسلمين و المسلمات»

و إما للتبويض و إنما دعاه لبعض، لأنه علم عدم الاستجابة بالنسبة إلى الكل رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ أَي دعائي، و حذف ياء المتكلم تخفيفاً، لدلالة الكسرة عليه.

[٤٢] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ المراد بالغفران الستر، و ذلك لا ينافي عدم العصيان فإن للمعصومين عليهم السلام حالات مباحة، بل راجحة هي دون شأنهم لا يحبون أن تظهر للملائكة، كما أن كل أحد فهو قاصر أو مقصر بالنسبة إلى مقامه سبحانه، و إن صرف كل وقته في طاعته، كما نجد هذا بالوجدان فيما لو استضاف الإنسان ملكاً و هيأ له كل إمكاناته، مما كانت قاصرة عن شأن الملك، فإنه يعتذر و يطلب غفرانه، و على هذا يحمل (لِيُغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ) «١» و أمثال ذلك - على وجه - و التفصيل في علم الكلام وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يدخل فيهم المؤمنات، و إنما أتى بالمذكر تغليبا يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

(١) الفتح: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَ لَا تَحْسِبَنَّ اللهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَزِدُّهُمْ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً (٤٣)

أى يقوم الخلق للحساب، فالإسناد مجاز عقلي.

[٤٣] و إذ يفرغ الكلام حول المثال بالنبي العظيم إبراهيم عليه السلام، للعبد الصالح لله سبحانه يرجع السياق نحو «الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ

اللَّهُ كُفْرًا» فلا يظن أولئك أنهم عملوا ما شاؤوا بلا رقيب ولا حساب، بل أنهم يؤخرون حتى يأتي دورهم يوم القيامة ولا تحسب أي لا- تظن يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه التفكير في أمثال هذه الشؤون الله غافلاً عما يعمل الظالمون بأنفسهم، أو بغيرهم، فإن الله سبحانه عالم بكل حركة و سكون منهم، و أن كل أعمالهم تكتب في كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها، و إنما لا يعجل بالأخذ و الانتقام لمصلحته مقرر، و أن يثيب المظلوم، و يظهر ما في نفس الظالم، لئلا يكون له حجة إنما يؤخروهم أي الظالمين يؤخر عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار شخوص البصر ذهولها و عدم غمضاها، فإن يوم القيامة لا يدع المجرم أن يغمض بصره، بل هو كالإنسان المسافر الذي لا يهدأ، شاخص نحو الأحوال الجارية في القباضة ليرى ماذا يصنع به؟.

[٤٤] في حال كون الظالمين مُهْطِعِينَ الإهطاع الإسراع، أي يسرعون إلى هنا و هناك لعلهم يجدون شفيعا أو مخلصا مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ الإقناع رفع الرأس، أي رافعين رؤوسهم إلى السماء ليروا ماذا ينزل من طرفها حيث يرون الآيات الهائلة المتتالية التي تنزل من طرف العلو،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤٤]

وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)

أو المراد ناكسى رؤوسهم - قيل و هو لغة قريش - كما قال سبحانه:

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤْسِهِمْ) «١» و لا تنافى فإن مواقف القيامة كثيرة، ففي موقع يكونون هكذا، و في موقع هكذا لا يرتد أي لا يرجع إليهم طرفهم أي عينهم فإنهم لا يطبقونها و لا يغمضونها، إذ هي مفتوحة مدهولة مبهوتة و أفقدتهم أي قلوبهم هواء أي مجوفة لا تعى شيئا للخوف و الفزع، شبهت بهواء الجو، و ذلك لأن الإنسان الخائف لا تحضر نفسه لفهم شيء حيث توجهت جميع حواسه إلى ذلك الخوف الهائل.

[٤٥] وَ أَنْذِرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ عَنْ يَوْمٍ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أو يوم الموت، فإن العذاب يشتر من هناك، أو المراد عذاب الدنيا حين الاحتضار و نحوه فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى الدُّنْيَا، أو مد في أعمارنا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أي مدة قصيرة نُجِبْ دَعْوَتَكَ «نجب» مجزوم بكونه جواب الأمر، أي إن تؤخرنا نجب دعوتك و أوامرك و نتبع الرسول فيما قالوا و أمروا و لكن هيهات أن يردوا أو يؤخروا، لأنهم استوفوا مدتهم، و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، و هنا يتوجه الخطاب إليهم بالتقريع أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَيُّهَا الظَّالِمُونَ

(١) السجدة: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٢

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)

أَقْسَمْتُمْ حَلْفَتُمْ مِنْ قَبْلِ فِي دَارِ الدُّنْيَا مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ و انتقال عن دار الدنيا إلى دار الآخرة، و من نعيم الدنيا إلى جحيم العذاب؟ فهل كان ذلك صحيحا؟

[٤٦] وَ سَكَنْتُمْ أَيُّهَا الظَّالِمُونَ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَكُمْ فلم تعتبروا بأحوالهم، فكيف تطلبون الآن أن تؤخركم إلى أجل قريب حتى تتوبوا؟ فإن كانت نفوسكم مستعدة للتوبة، لتبتم قبل هذا اليوم حيث رأيتم مساكن الظالمين، و سكنتم فيها و تبين لكم

كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالْإِسْتِصَالِ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَيْفَ عَتَا عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ عَاقِبَهُمْ وَأَخَذَهُمْ، فَلَمْ يَنْفَعْ فِيكُمْ ذَلِكَ، أَوْ الْمَرَادُ ضَرْبُ الْمَثَلِ عَمَلًا بِإِهْلَاكِ الطَّغَاةِ وَإِبَادَتِهِمْ عَنِ الْوُجُودِ.

[٤٧] ثم يأتي السياق لبيان ما يفعله الكفار فعلا من المؤامرات ضد الإسلام و الرسول و المؤمنين و قَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ أَى اتخذوا تدابيرهم الخفية، ما أمكنهم ذلك، فلم يدعوا بابا من أبواب المكر إلا طرقوه، و العموم يستفاد من قوله «مكرهم» الظاهر في أنهم أتوا بغاية ما تمكنوا من المكر، و يحتمل أن يكون المراد: أن الكفار مكروا بالأنبياء عليهم السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٣

قبلك يا رسول الله، كما مكروا بك، فعصمهم الله من مكر الكفار، فيكون تسلياً للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، فيما يفعله هؤلاء به. وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ لَدَيْهِ سَبْحَانَهُ، غَيْرُ خَافٍ عَلَيْهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَوْلَئِكَ أَنْ يَنْفِذُوا مَكْرًا دُونَ أَنْ يَعْلَمَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ هَذَا كَقَوْلِكَ لِمَنْ خَاصَمَكَ: عِنْدِي مَا تَفْعَلُهُ، تَعْنِي إِنَّكَ مَطْلَعٌ عَلَيْهِ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مَطْلَعًا عَلَى طَرُقِ مَكْرِ الْخَصْمِ، لَا يَتِمَّكَنُ الْخَصْمُ مِنْ إِغْفَالِهِ، وَ إِنْفَاذِ مَكْرِهِ بِهِ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَ الدَّقَّةِ بَحِثْ لَوْ أَنْفَذُوهَا عَلَى اقْتِلَاعِ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَتَرَوْا مِنْهُ الْجِبَالَ لَكِنَّهُ لَا يَنْفِذُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ مِنْ فِي زِمْتِهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ مَطْلَعٌ يَحْبِطُهُ فَلَا يَتِمَّكَنُونَ مِنْ إِضْرَارِ الْأَنْبِيَاءِ بِذَلِكَ الْمَكْرِ، وَ لَا يُقَالُ: إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ تُمْكِنُ بَعْضُ الْأُمَّمِ مِنْ إِنْفَاذِ مَكْرِهِمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى قَتَلُوهُمْ أَوْ شَرَدُوهُمْ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّ الَّذِي أَرَادَهُ الْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَنْفِيذُ مَنَهَاجِ السَّمَاءِ فِي النَّاسِ وَ قَدْ تُمْكِنُوا مِنْ ذَلِكَ، أَمَا أَشْخَاصَهُمْ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأَنْبِيَاءِ هَمٌّ فِي بَقَاءِ حَيَاتِهِمْ، بَلْ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِنْ غَايَةُ آمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأُمَّةِ لِقَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ قِتْلًا وَ نَحْوَهُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ إِنْ كَانَتْ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أَنْشَأَتْ * فَقَتَلَ امْرَأَةً بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلَ (١)

(١) ديوان الإمام على عليه السلام: ص ٣١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤٧]

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧)

و قال على عليه السلام: «و الله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بمحالب أمه»

«١»

و قال عليه السلام: «لا أبالي أوقعت على الموت أو وقع الموت علي»

«٢» و في القرآن الحكيم: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ) «٣» و قال سبحانه: (إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ) «٤» إلى غير ذلك.

[٤٨] أنه ليس لمكر هؤلاء أثر فإن الله سبحانه يحبطه و ينصر رسله فلا تحسبن أي لا تظنن يا رسول الله أو أيها المتدبر في الأمور، من كل من يمكن أن يتأتى منه هذا الظن، و إن كان الخطاب للرسول فليس النهي لأن الرسول كان يظن ذلك بل للتنبية على أن هذا المكر لا ينفذ، على طريق المجاز، أو طريق الكفاية، نحو إياك أعنى الله مُخْلِيفٌ وَعْدِهِ رُسُلُهُ الَّذِي وَعَدَهُ إِيَاهُمْ بِقَوْلِهِ: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) «٥»، و أي نصر أعظم من أنهم باقون في القلوب مورد احترام البشرية، يذكرونهم بكل تجلته، و يزورونهم و من يمت إليهم، بينما ذهب الفراعنة و الجبابرة حتى لم يبق لهم اسم، و من بقى فهو للعن و البراءة و ليكون مثلاً للظلم و الطغيان، ليجتنب سبيله الناس.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ قَاهِرٌ، ذُو انْتِقَامٍ يَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ جَبَّارٍ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ كَمَا نَرَى التَّارِيخَ الْغَابِرَ وَ الْحَاضِرَ مَلِيءًا بِالشَّوَاهِدِ وَ

الأمثلة، فإنه سبحانه لا يدع الظالم بلا جزاء، ولا يذر

(١) الاحتجاج: ج ١ ص ٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٢٣٣.

(٣) التوبة: ١١١.

(٤) الجمعة: ٧.

(٥) غافر: ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٥

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٨ الى ٤٩]

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)
الماكر بلا عقاب.

[٤٩] إن عدم الخلف، أو الانتقام، إنما هو يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ أو أن العامل فيه محذوف تقديره، اذكر يا رسول الله، ولعل هذا أقرب إلى المعنى، وإن كان الأول أقرب إلى اللفظ غَيْرَ الْأَرْضِ و تبدل و السَّمَاوَاتُ غير السماوات، بمعنى أنهما يصبحان في غير شكلهما المؤلف الحالى، فإن الجبال تدك، و الأرض تسوى حتى لا- ترى عوجا و لا- أمتا، و البحار تسجر، و الشمس تنكسف، و القمر ينخسف، و النجوم تكدر، إلى غيرها من آيات القيامة.

وَبَرَزُوا أى ظهر الجميع، أو الظالمون- حيث أن الكلام فى الآيات السابقة حولهم- لِلَّهِ أى أمام حكمه و عدله كما يظهر المتخاصمان أمام الحاكم، عند المحاكمة الْوَاحِدِ فلا شريك مزعوم هناك، و لا أحد يحكم إلا هو الْقَهَّارِ الذى يقهر الظالمين، فلا مجال للتملص و التخلص.

[٥٠] وَتَرَى يا رسول الله أو أيها الرائي الْمُجْرِمِينَ الذين أجرموا و عملوا السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ أى فى ذلك اليوم، و هو يوم القيامة مُّقَرَّنِينَ فى الْأَصْفَادِ أى مجمعين فى الأغلال قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم، أو مصفدين بعضهم مع بعض، من التقرين و هو جمع الشيء إلى نظيره، و الأصفاد جمع صفد و هو الغل الذى يقرب به اليد مع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٦

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعْشَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)
العنق، أو مطلق السلسلة.

[٥١] سَرَابِيلُهُمْ جمع سربال و هو القميص، أى ألبستهم مِنْ قَطْرَانٍ و هو شيء أسود لزج متنن يقبل الاحتراق سريعاً، يطلى به الجمل الأ-جرب، أى أن ألبستهم من هذا الجنس حتى تكون النار فيهم أسرع لكونها أسرع فى الاشتعال و أبلغ فى شدة العذاب وَتَعْشَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ أى تحيط النار بوجوههم حتى تكون على الوجه كالغشاء، و بيان ذلك بالخصوص لما يعلمه كل إنسان من أن الوجه يتأذى بأقل شيء من الألم فكيف بالنار المحيطة بها كالغشاء.

[٥٢] و إنما يفعل سبحانه بالمجرمين هذا العذاب المدهش لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ فقد كسبت أنفس الظالمين فى الدنيا الظلم و المكر فليذوقوا جزاء أعمالهم، و لا يظن ظان أن عذاب الآخرة بعيد ف إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
فقد قال الإمام عليه السلام: كل آت قريب و الموت أقرب

، وها نحن ننظر أين أولئك الذين عارضوا الرسول؟ أو عارضوا الوصى والصديقة والزكى والشهيد وغيرهم ممن تقدم من الأنبياء عليهم السلام والصالحين أو تأخر من الأئمة عليهم السلام والمتقين؟ أليس الكل قد ماتوا ونالوا نصيبهم من العذاب - و من مات قامت قيامته -.

[٥٣] هذا القرآن بلاغ للناس أى تبلغ لهم، حتى يأخذوا حذرهم، وإلا فعن قريب يلاقون هذا المصير المهول وليتذروا به فهو بلاغ تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٧

لكل وعد وعيد وحكم وعظة، بصورة عامة، كما أنه جىء به لينذر الناس، فيأخذوا حذرهم - وإنما أتى بهذا الخاص بعد ذلك العام لأنه مورد الكلام فى الآية السابقة - وليعلموا أنما هو إله واحد لا شريك له، مما قد كان مصب كلام السورة، وإنما يعلموا بالقرآن لأنه يبين لهم الحجج والأدلة فلا يقال أن الإذعان بالقرآن متوقف على الإذعان بالإله فكيف يمكن أن يكون الإذعان بالإله متوقفاً على الإذعان بالقرآن؟ وليتذكر من تذكر «باب التفعّل» ثم أدغمت التاء فى الذال، و جىء بهمزة الوصل لاستحالة الابتداء بالساكن أولوا الألباب أى يتعظ أصحاب العقول، فإن ألباب جمع لب، وهو العقل، وإنما خصص بهم تنبيهاً على أن غير المتعظ إنما هو مجنون، حيث ترك الآخرة العظيمة لشهوات زائلة، والله العالم وهو العاصم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الرابع عشر من آية (١) سورة الحجر إلى آية (١٢٩) سورة النحل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥١

١٥ سورة الحجر مكية / آياتها (١٠٠)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الحجر» وهو اسم البلد الذى كانت فيه قبيلة «ثمود» قوم صالح عليه السلام وهذه السورة تدور حول العقيدة، وعاقبة المكذبين بما أرسل به المرسلون، كغالب السور المكية. ولما ختم سبحانه سورة «إبراهيم» بكون القرآن بلاغاً، ابتدأت هذه السورة بذكر «القرآن» مع التناسب الكلى بين السورتين فى استعراض العقيدة وعاقبة الكاذبين بها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين بالله الرحمن الرحيم فى أمورنا ونجعله بدء أعمالنا، ليكون عوناً لنا، فى ختم العمل، وأن يطبع بطابعه، فإن ما لمستته رحمة الله العظيم، لا يكون إلا صالحاً باقياً، موجبا للسعادة ولنستمطر شآبيب رحمته، فيرحمنا بلطفه وإحسانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٢

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ١٩٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)

[٢] الر ألف، ولام، وراء تلمكك ومن هذا الجنس من الحروف تتركب آيات الكتاب وآيات قرآن مبين واضح لا لبس فيه ولا غموض ولا التواء، وقد ذكرنا غير مرة أن «فواتح السور المقطعة» فيها احتمالات: أحدهما ما ذكرنا، والآخر أنها رموز بين الله سبحانه والرسول، وهناك احتمالات أخرى، يمكن الجمع بين كثير منها، وعلى الاحتمال الأول ف «الر» مبتدأ و «تلك» خبره، وتأنيث الإشارة باعتبار أن المقصود «حروف، الر».

وقد تكرر «الر» فى فواتح السور، بينما كان بالإمكان أن «ج م د» مثلاً، أو غيره، ولعل لسر أن الرمز الحاوى له «الر» كان مهماً يحتاج

إلى التأكيد، كتكرار بعض الآيات: نحو (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) «١»، أو لعله كان ذلك تعبيراً عن حروف الهجاء، كما أن «الضاد» تعبير عن لغة العرب، فيقال لغة الضاد و إنما قال: «آيات الكتاب و قرآن» بعطف القرآن على الكتاب مع أنهما واحد، لإفادة أنه يكتب و يؤلف، فإن القرآن من قرأ و هو بمعنى الجمع و التأليف، و كأنه أكثر تأكيداً في مقام التعجيز، أو من جنس «أ، ل، ر» كتبت و ألفت هذه السور و الآيات فكيف لا تقدرين على الإتيان بمثله، إذا لم يكن من جانب الله؟ و هكذا كما يقول المهندس متحدياً سائر زملائه: إني من «الآجر، و الحديد، و الجص» صنعت هذا البناء و ألفت هذا القصر فاصنعوا مثله؟- و الله أعلم بمراده-

[٣] و إذ كذب بهذا الكتاب و القرآن المبين بعض الناس، بعد أن عجزوا عن

(١) الرحمن: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٣

[سورة الحجر (١٥): آية ٣]

ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ اللَّهُمُّ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)

الإتيان بمثله فسيأتي يوم يندمون على كفرهم و تكذيبهم، و يتمنون أن كانوا مسلمين في الدنيا غير مكذبين، حتى لا ينالهم العذاب الشديد ربما يودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ «رب» مشددة، و تخفف كثيراً إذا دخلت على «ما» الكاف، و هي لفظة تأتي عقب رب ليصلح دخولها على الفعل و الا فإن «رب» تدخل على الاسم، فإنها من حروف الجر، أى ربما يتمنى الكفار الإسلام في الآخرة حيث رأوا عذاب الكافرين و نعيم المسلمين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ينادى المنادى يوم القيامة يسمع الخلائق أنه لا يدخل الجنة إلا مسلم فتم يودُّ سائر الخلائق أنهم كانوا مسلمين

«١»، ثم أن الظاهر كون رب للتكثير أى كثيراً ما يودون ذلك، فإن الإنسان المعذب يتمنى كثيراً إن كان عمل عملاً لا يؤديه إلى هذا العذاب الذى هو فيه، و لكن لا ينفع التمنى و الندم هناك.

[٤] إن ذلك تهديد للكفار، بأن ورائهم هذا اليوم، و يأتي تهديد آخر، فى صورة الأمر استهزاء ذَرُّهُمْ أى دع يا رسول الله هؤلاء الكفار، و اتركهم و شأنهم يَأْكُلُوا ما شاءوا من الحرام و الحلال و يَتَمَتَّعُوا باللذائذ و الشهوات، كما يشتهون من غير ارتقاب العاقبة و عدم النظر إلى متعتهم هل هى جائزة أو محظورة و ذرهم يُلْهِمُهُمُ اللَّهُمُّ الْأَمَلُ من «ألهاه» بمعنى أشغله، و «الأمل» توقع سعادة الدنيا فى المستقبل، أى تشغلهم آمالهم الدنيوية الزائلة عن التفكير فى مصيرهم فى الآخرة،

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ٢٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤ الى ٥]

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

والتجهز له بالأعمال الصالحة فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ و بال ذلك فى ما بعد، حين ما عاينوا جزاء أعمالهم، إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كلما دعاهم و لم يقبلوا، فليدعهم حتى يلاقوا مصيرهم السيئ.

[٥] فلا يغرّن هؤلاء الكفار تأخير العذاب عنهم، و أنهم عاجلاً لا يرون جزاء تكذيبهم، فقد جرت سنة الله سبحانه، أن لا يهلك أمة إلا فى الوقت المقدر المحدد و ما أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ أى من بلد، و المراد بها أهلها، بعلاقة الحال و المحلِ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ أى وقت و سمي الوقت كتاباً لأنه يكتب أجملهم هناك، فهو مجاز بعلاقة الظرف و المظروف، إذ المدة مكتوبة فى الكتاب معلومٌ لدى الله سبحانه، فلا

يأخذ القرية قبل انتهاء مدتهم، و من المحتمل أن يراد أن هذا قبل قرب وقت تعذيبهم، لأنه جاءهم الكتاب السماوي، و بين لهم الأحكام، و قد جرت سنة الله أن يأخذ الظالمين بعد البيان، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) «١».

[٦] ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَى لم تكن أمة تسبق أجلها فتهلك قبل الوقت المحدد لموتها و ما يَسْتَأْخِرُونَ أَى لا تتأخر أمة عن أجلها المقدر لها، بأن تهلك بعد الأجل، فلو كان أجل أمة فى يوم الجمعة لا تسبقه بأن تموت الخميس و لا تتأخر عنه بأن تموت يوم السبت، و كأنه جاء بلفظ «الاستفعال» لإفادة أن الأمة لا تطلب التأخير، لأنها تعلم بأن الأجل لا يتأخر، و هذا لبيان حتمية الأجل حتى أنه لا موقع لطلب التأخير.

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦ الى ٧]

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)

و ما ورد من أن الأدعية و الصدقات و ما أشبههما تؤخر الأجل «١»، فالمراد أنها تؤخر الأجل المعلق، لا الأجل المحتوم، و معنى الأجل المعلق، أنه لو لا هذه الصدقة لكان يموت فى الخميس، لكن الله يعلم أنه يصدق فيموت يوم الجمعة.

[٧] لقد جاء لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالكتاب و القرآن المبين و بصيرهم و أقام عليهم الحجّة، لكن الكفار لم يدعوا لذلك كله بل أخذوا فى الفساد و اللجاج راكبين رؤوسهم مستهزئين بالرسول و قالوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءٌ و إلفقد كانوا ينكرون نزول الذكر على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ حيث تزعم مزاعم المجانين، بأنك أوحى إليك، و إننا سوف نكون لك تبعاً، و هكذا يلجأ المبطلون إلى رمى المصلحين بالجنون و ما أشبهه، إذ لم يتمكنوا من رد حججهم الصحيحة، و لم يحروا جواباً لما يرشدون إليه من الإصلاح.

[٨] لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ أَى لماذا لا تأتينا بملائكة يشهدون بصدق دعواك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك إنك نبي مأمور من عند الله سبحانه، فإن النبي يقدر على كل شىء.

لكن حججهم هذه كانت تافهة إلى أبعد الحدود، فإن النبي إنما يثبت نبوته بالخارقة و قد أثبت النبي بإتيان القرآن، اما أن يأتي بكل خارقة تتخيلها أدمغة المعاندين، فإن ذلك عبث لا طائل تحته، إن

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٤ ص ٢٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨ الى ٩]

مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ و مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ و إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)

المطالبين بإنزال الملائكة و ما أشبهه إن كانوا منصفين كفاهم الدليل، و إن كانوا معاندين لم يفهم ألف دليل، فلما ذا يأتي النبي بالملائكة، و ها نراهم يقولون للنبي فى آية أخرى (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) «١».

[٩] لكن القرآن يردهم بأسلوب آخر، هو أن الملائكة لا ينزلون إلا للعذاب و الهلاك، فهكذا اقتضت مشيئة الله سبحانه، حتى فى بدر نزلت الملائكة لعذاب الكفار، فإذا أنزلنا الملائكة عذبوهم و أهلكوهم فلا يستفيدون من إنزال الملائكة شيئاً، و قد جرت سنة الله كذلك فى القرون الماضية و الأمم الخالية ما نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ لا للعبث و اللغو، كما يطلبه هؤلاء فإن إجابة المعاند بعد إثبات الحجّة عليه لغو و عبث و ما كانوا إذاً حين نزول الملائكة مُنْظَرِينَ أَى مؤخرين مهملين، بل الملائكة إذا نزلت فإنما تنزل للعذاب و

الهلاك فهل يريدون هلاك أنفسهم بهذا الطلب؟ ثم ألم نر الكفار يوم بدر رأوا الملائكة بعيونهم، و لكنهم لم يؤمنوا و قالوا أنه سحر؟

[١٠] إنهم إن كانوا صادقين في طلبهم الحجّة، فأية حجة أقوى من القرآن الحكيم، الذي مع كبره و سعته و إنه بلغتهم عاجزون عن إتيان سورة من مثله ف إنا نحن نزلنا الذكر و سمي القرآن ذكرا لأنه يذكر الإنسان بالعقيدة و النظام مما فطر في جبله الإنسان لكنه ذهل عنه و إنا له لحافظون من التغيير و التحريف و الزيادة و النقصان، و الذي أعتقده

(١) الأعراف: ١٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١)

وفاقا لغير واحد من علمائنا الأخيار أن هذا القرآن الذي هو بأيدينا اليوم بين الدفتين هو عين ما أنزل بلا أىّ تغيير أو تبديل و إن السور و الآيات إنما رتبت كما أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إن كان النزول مختلفا، و الرسول لم يفعل هذا الترتيب إلا بأمر الله سبحانه، كما قال سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ «١») و هكذا كان اعتقاد والدى قدس سره، كما ذكره في نشرة «أجوبة المسائل الدينية» الكربلائية، و ذكرت طرفا من الكلام في أوائل نشرة «الأخلاق و الآداب» الكربلائية، في تفسيرى لسورة الحمد و بعض سورة البقرة.

و ربما يتعجب الإنسان من هذه التأكيدات الواردة في هذه الآيه، و هى اثنتى عشرة أو أكثر «إن» و «نا» بضمير الجمع و «نحن» تكريرا و جمعا و «نزل» بالتفعل و «نا» جمعا و «إن» و «نا» و «له» باللام و «لام» لحافظون و «إتيانه جمعا» و كون الجملتين اسميتين.

[١١] ثم يسلى سبحانه الرسول أن لا يضيق باستهزاء المستهزين، فقد كانت عادة الأمم أن يستهزءوا بالرسول و لقد أرسلنا من قبلك يا رسول الله رسلا في شتى جمع شيعه و هم الطائفة من الناس الذين يتبعون طريقة معينة، من المشايعة بمعنى المتابعة، فكان كل جماعة يتبعون مسلكا و رئيسا لذلك المسلك و مخترعه الأولين أى الأمم السابقة، فقد أرسل في كل فرقة من السابقين رسول.

[١٢] و قد كان دأبهم أنه ما يأتيتهم من رسول «من» زائده تدخل في

(١) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٢ الى ١٣]

كَذَلِكَ نَسُفُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)

المنفى لإفادة التعميم، حتى لا- يظن أن عموم النفى مجاز إلا كانوا به يستهزؤون و الاستهزاء دائما حيلة العاجز عن الحجّة حيث يريد تحطيم خصمه، و هذا كالتسليّة للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه لا يهتم باستهزائهم فإن ذلك عادة الأمم كافه بالنسبة إلى رسل الله سبحانه.

[١٣] و لكن إنما لا- نأبه باستهزاء هؤلاء الكفار بالقرآن، فاللازم في الحكمة أن تتم عليهم الحجّة، و إن استهزءوا به و علمنا أنهم لا يؤمنون كذلك الذى ذكر نسفك أى القرآن في قلوب المجرمين يقال سلكه و أسلكه إذا أدخله، يعنى إنا في هذه الحالة الاستهزائية، و مع هذا الواقع السيء لدى المكذبين، ندخل القرآن في قلوبهم، حتى تتم الحجّة عليهم.

كما إذا قيل لك أنك كيف تفعل كذا و الحال أن جماعة ينتقدون عليك؟ تقول: هكذا نعمل، تريد أنك تعمل و إن جلب العمل

الانتقاد.

[١٤] إنهم لا يُؤْمِنُونَ بِهِ هذا كالبديل لقوله «كذلك» أى إنهم مع عدم إيمانهم بالقرآن و استهزائهم لكك نلقى عليهم الحجة وَ قَدْ خَلَتْ أى مضت سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ طريقه الأمم السابقة، فى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالأنبياء عليهم السَّلام و يستهزئون بهم و مع ذلك كنا نلقى عليهم الحجة، فالطغاة المكذبون من عنصر واحد، و هم أشباه فى كل زمان و مكان، و ليس تكذيبهم و استهزائهم سببا لكفنا عن الإرشاد و البلاغ، سواء فى ذلك السابقون أو من فى زمانك يا رسول الله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٤ الى ١٦]

وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُيِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّشْحُورُونَ (١٥) وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦)

[١٥] إن هؤلاء الكفار لا يريدون الإيمان، و لو أقيم لهم ألف دليل، أما ما طلبوا من إنزال الملائكة، فإنه حجة للعناد لا للتفهم فإنهم معاندون لا يؤمنون وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء المشركين باباً مِّنَ السَّمَاءِ بأن رأوا أن موضعا من السماء كالباب يمكن المرور منه. فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ أى أخذوا طوال نهارهم يصعدون إلى السماء من ذلك الباب، لم يفدهم هذا الإعجاز الذى لمسوه فى أن يؤمنوا. [١٦] بل لَقَالُوا إِنَّمَا سُيِّرَتْ أَبْصَارُنَا أى سدت و غطيت كالإنسان المسحور الذى يرى غير الواقع واقعا لما عمل فيه من السحر و الشعوذة بل ليس لهذا الشئ من واقع و إنما نَحْنُ قَوْمٌ مَّشْحُورُونَ قد سحرتنا فظننا أن للسماء بابا و إنما أخذنا نصعد فيه، إذن فهل يكفى إنزال الملائكة لإيمان هؤلاء؟.

[١٧] أخذ سبحانه يعدد الأدلة على وجوده سبحانه، و ذلك بتعدد الآيات الكونية، التى تشهد كل واحدة منها، على وجود إله قدير حكيم عالم وَ لَقَدْ جَعَلْنَا أى خلقنا و أبداعنا فى السَّمَاءِ بُرُوجًا جمع برج، و أصله الظهور، و منه يسمى شرفه الحصن برجا، لأنه ظاهر منه من بعيد، و سمي بروج السماء بروجاً، لظهورها

قال الصادق عليه السلام: اثني عشر برجا

«١».

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٠

[سورة الحجر (١٥): آية ١٧]

وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧)

أقول: لقد قسموا السماء إلى اثني عشر قسما يسمى كل قسم برجا و يميز بين البرج و البرج بالكواكب الموجودة فى كل واحد منها. و البروج هى: «حمل» و «ثور» و «جوزاء» و «سرطان» و «أسد» و «سنبله» و «ميزان» و «عقرب» و «قوس» و «جدى» و «دلو» و «حوت» ففى كل برج عدة كواكب لو ربطت بينها بخيوط لصارت بصورة هذه الأشياء وَ زَيَّنَّاها أى السماء لِلنَّاظِرِينَ الذين ينظرون إليها، و لو لم تكن فيها الكواكب لم تكن ذات زينة و جمال.

[١٨] وَ حَفِظْنَاهَا أى حفظنا السماء مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ أى مرجوم مرمى، و يوصف الشيطان بهذا الوصف لأنه يرمى باللعن، أو لأنه إذا حاول دخول السماء رجم بالشهب كما يرمى المجرم بالحجارة، فالسماء مع جمالها الظاهرى بالكواكب جميلة معنى بطهارتها عن دنس الشيطان و لوته، فلا منفذ للأبالسة فى السماء، و إنما محلها الأرض، و من أين تبدأ هذه السماء التى ليست محلا للأبالسة لم نعرفها بعد.

نعم دلّ العلم الحديث - كما يظهر من الأحاديث أيضا - أن محل الشياطين إنما هو الطبقة فوق الأرض بعد بضعة أذرع، ولذا كره تعليه البنيان (١).

ثم أن الظاهر أن في السماوات ملائكة مطهرون، لا يقترب منهم الشيطان بالسوسة، فعدم دخول الشيطان في السماء، لأجل عدم

(١) أنظر كتاب علي حافة الأثيرى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٨ الى ١٩]

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَإِلَّا نَبْتَنَا فِيهَا رَوَاسِيٌّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) اقترابه من أولئك الملائكة المنزهين عن المعاصى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

[١٩] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَالسَّرْقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ أَخْذِ الشَّيْءِ خَفِيَةً، وَكَمَا أَنَّ مَنْ يَسْرِقُ الْمَالَ يَأْتِي إِلَيْهِ خَفِيَةً لِثَلَا تَرَاهُ الْعَيُونَ، كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَرِيدُ اسْتِرْاقَ الْمَسْمُوعِ - وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسَّمْعِ - أَى الْكَلِمَةُ الَّتِي تَسْمَعُ وَتَدَارُ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ «حِفْظِهَا» أَى أَنَّ السَّمَاءَ مَحْفُوظَةٌ إِلَّا مِنَ الشَّيْطَانِ السَّارِقِ وَكَانَ هُنَاكَ تَدَبُّرُ أُمُورِ الْأَرْضِ - كَالْبَلَاطِ الَّذِي يَدَبِّرُ فِيهِ أُمُورَ الْمَمْلَكَةِ - وَالشَّيَاطِينُ يَرِيدُونَ الْإِطْلَاعَ عَلَى مَا يَدَبِّرُ هُنَاكَ، فَيَذْهَبُ بَعْضُهُمْ لِلْعِلْمِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدَارُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، لَكِنْ ذَهَابُهُمْ خَفِيَةً، حَتَّى يَسْرِقُوا بَعْضَ الْكَلِمَاتِ، وَ لَوْ سَمِعَ وَاسْتَرَقَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ أَى لِحَقَّتْهُ شِعْلَةٌ نَارٌ ظَاهِرَةٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، كَمَا نَرَى مِنَ الشَّهْبِ، لِأَجْلِ طَرْدِهِ، الشَّهَابُ كَمَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ شِعْلَةٌ مِنْ نَارٍ تَتَحَرَّكُ مَسَافَةً ثُمَّ تَنْطَفِئُ وَ مَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ الْفَلَكَ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الشَّهْبَ أَحْجَارٌ تَرْمِي مِنْ أَعَالَى الْجَوْ، وَتَشْتَعِلُ بِالْحَرَكَةِ، لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَا سَبَبَ رَمِيهَا - لَوْ صَحَّ مَا قَالُوا - إِنَّمَا هُوَ طَرْدُ الشَّيَاطِينِ، وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الشَّيَاطِينُ كَانَتْ تَخْتَرِقُ السَّمَاوَاتِ حَتَّى وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فَمَنْعَ عَنْ ذَلِكَ.

[٢٠] تَلَكُ هِيَ السَّمَاءُ وَنَجْمُهَا وَحِفْظُهَا، وَالشَّيَاطِينُ الصَّاعِدَةُ إِلَيْهَا، وَ الشَّهْبُ الْمُنْقَضَةُ مِنْهَا، فَلْنَعْتَظِفْ إِلَى الْأَرْضِ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَذَا أَى بَسَطْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا طَوِيلَةً عَرِيضَةً لِتَقْبَلِ السَّكْنَ وَ سَائِرَ لَوَازِمِ الْإِنْسَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

وَ أَلْقَيْنَا أَى جَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ جَمْعُ رَاسِيَةٍ وَ هِيَ الْجِبَلُ، وَ إِنَّمَا قَالَ «رَوَاسِيٌّ» لِأَنَّهَا السَّبَبُ فِي اضْطِرَابِهَا فِي الْمَاءِ وَ عَدَمِ تَفْتِتِهَا كَمَا تَرَسُو السَّفِينَةَ فِي الْمَاءِ وَ تَسْتَقِرُّ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ فِي دَقَّةٍ وَ إِحْكَامٍ وَ تَقْدِيرٍ، فَالنبات ليس اعتبارا حجه و شكله و لونه و سائر مزاياه، بل كل ذلك بالوزن و التقدير، و ليس المراد بالوزن - معناه الخارجى - بل تشبيه بالموزون الذى ليس فيه زيادة و نقصان، يقال فلان شخص موزون، أى دقيق الصفات متساوى الجهات، لا زيادة فى حركاته و سكناته و لا نقصان.

[٢١] وَ جَعَلْنَا لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ مَعَايِشَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ، وَ هِيَ آلَةُ الْعَيْشِ، وَ الْبَقَاءُ مِنْ مَأْكَلٍ وَ مَشْرَبٍ وَ مَسْكَنٍ وَ مَلْبَسٍ وَ غَيْرِهَا وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ عَطْفٌ عَلَى لَكُمْ، أَى جَعَلْنَا لَكُمْ الرِّزْقَ كَمَا جَعَلْنَا لِلْعَبِيدِ وَ الْبَهَائِمِ الرِّزْقَ، وَ إِنَّهُمْ مِمَّنْ نَرْزُقُهُمْ، لَا أَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَرْزُقُ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، وَ هُوَ خَطَأٌ بَلِ الْإِنْسَانُ أَوْضَعُ الْأَسْبَابِ بَيْنَ أَلُوفِ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ الْمُؤَدِّيَةُ لِلرِّزْقِ إِلَى الْحَيِّ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ مَنْ لَيْسَ تَحْتِ يَدِكُمْ مِنَ الطُّيُورِ الْمُحَلَّقَةِ فِي الْهَوَاءِ، وَ الْأَسْمَاكِ السَّابِحَةِ فِي الْمَاءِ وَ الْحَيَوَانَاتِ السَّارِحَةِ فِي الْغُبَرَاءِ، كُلُّهَا نَرْزُقُهَا نَحْنُ.

[٢٢] وَ بِمَنْاسِبَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الرِّزْقِ، فَلْيَعْلَمِ الْبَشَرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِرِزَاقٍ، وَ لَا مَنْ عِنْدَهُ أَسْبَابُ الْبَقَاءِ بَلِ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ أَى مَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ

الرِّزْقِ وَ غَيْرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٣

[سورة الحجر (١٥): آية ٢٢]

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)

الرزق إلا عندنا خزائنه فهي تخرج من خزائن الله سبحانه، وذلك تشبيهه بالخزينه التي يدخر فيها الملوك النقود و المجوهرات يعنى أن مصدره منا و إنا نحن نعطيه و ما ننزله أى ننزل ذلك الشئ، و التنزيل هنا بمعنى الإتيان من جانب إله رفيع، فإنه قد يستعمل فى الرفعة الحسية، نحو نزلت من السطح، و قد يستعمل فى الرفعة الحقيقية، نحو نزلت من عند الملك- كما تقدم سابقا-

إلا بقدر معلوم حسب المصلحة، فليس ما يشاهده الإنسان من النبات الكثير فى الصحراء الكبيرة و المياه الزاخرة فى الأنهار التى تصب فى البحار، و الحشرات الكثيرة فى الأرض- إلى غيرها- بلا قدر و تعداد و ميزان، بل كلها بقدر معلوم لدى البارئ سبحانه، و قد خلق الله سبحانه هذا الكون و هو الذى يديره، فالشمس و الماء و أملاح الأرض و الهواء تولد النبات، و ليس النبات إلا مركبا من هذه الأشياء، و إنما يجمع بينها و يعطى صورة النبات، ثم يهيج و يفنى برجوع كل جزء إلى أصله، و هكذا دواليك تجمع و تفترق، فالشمس من الخزائن، و الماء من الخزائن، و هكذا .. و قد حصر القدماء هذه الخزائن الأولوية فى أربعة «الماء» و «النار» و «التراب» و «الهواء» فسبحانه من إله عليم قدير.

[٢٣] و من تلك الخزائن: الرياح و الماء، و إن شئت قلت من تلك الأشياء لا ينزلها الله سبحانه إلا بقدر معلوم و أرسلنا الرياح لواقح و

هذا كيان لكيفية إنزال الأشياء و صنعها ليكون معيشة للبشر، و الرياح إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٤

تتولد- بقدرة الله سبحانه- من الهواء المخلوق حيث يمدده الحر و يقلصه البرد، فيأتى من هنا إلى هناك ليملاً الفراغ، فهي من إرادة الهواء، كما أن من إرادة الماء أن يصعد ماء البحر إلى الهواء ثم ينزل مطرا ثم يسيل عيونا و أنهارا حتى ينتهى إلى البحر ليصب فيه، و هكذا، لواقح جمع لاقحة، أى تلقح السحاب بالمطر، فإن من المعلوم أن الرياح تأتى بالأقطار، و لذا فرع عليه سبحانه فأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً أى المطر، و يحتمل أن يراد تلقيح الهواء للأشجار، ثم إنزال الماء، ليأتى النبات بالثمر.

فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ «الهاء» يعود إلى الماء- و الظاهر من هذا التفريع كون الاحتمال الأول هو المقصود- أى أسقيناكم ذلك الماء المنزل من السماء، و المراد من السماء جهة العلو و ما أنتم له أى للماء بخازنين فليستم أنتم أحرزتموه فى البحر أولا، ثم فى أعماق الأرض ثانيا، ثم فى العيون و الأنهار ثالثا، حتى توصلتم إليه و استعملتموه فى حوائجكم، بل كل ذلك بفعله سبحانه و قدرته العظيمة، كما قال: (وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) «١» و قد يزعم بعض الناس أنه ما فائدة هذه الإدارة فى الماء مع ما نرى أن الأنهار تصب فى البحار كما كانت سابقا؟ و هذا جهل محض فهل أن الماء خلق للشرب أو سقى الحيوان و النبات فقط؟ إن من فوائد الأنهار تلطيف الأجواء و تجميل الأرض للناظرين، و هما

(١) الحجر: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٣ إلى ٢٥]

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

حاصلان، و إن لم يشرب أحد قطرة و لم ينتفع بالماء حيوان أو نبات.

[٢٤] و إذ تبين أن الأمور الكونية بيد الله سبحانه، فلنعطف، إلى لون آخر من الأمور، و هى الأحياء، فإن خزائن الحياة و الموت أيضا

له سبحانه وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا الْمَظَاهِرَ أَمَا الْمَهِيَّةُ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ سبحانه، والأشياء كلها و إن كانت مجهولة الهوية حتى الماء والهواء، لكن الحياة أعمض مهية، و أبعد عن الفهم حقيقة، و من زعم أن الطاقة أيضا تحت قدرة الإنسان فقد أخطأ، إذ الإنسان لا يأتي إلا لسبب واحد من عشرات الأسباب المتسلسلة لإيجاد هذا المسبب- أى الموت- و كون ما يأتي به الإنسان سببا- أيضا- بجعله سبحانه وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَا عَلَيْهَا بَعْدَ فَنَاءِ الْجَمِيعِ [٢٥] و إذ كانت الحياة بيد الله سبحانه، فلا ينفع أن يستقدم أحد الموت أو يستأخره، لأنه (ما تَشْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ) «١» وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُشْتَقِدِينَ مِنْكُمْ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَقْدِيمَ مَوْتِهِمْ وَ تَعْجِيلَ أَجْلِهِمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَأْخِيرَ مَوْتِهِمْ عَنِ مَوْعَدِهِ الْمَقْرَرِ، فالحياة بيدنا، و نعلم من يريد تقديم أجله أو تأخيره، و أن الحشر إلينا.

[٢٦] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَحْشُرُهُمُ الْحَشْرَ هُوَ الْجَمْعُ، أَى

(١) الحجر: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)

يجمعهم ليوم القيامة إِنَّهُ حَكِيمٌ فِى أَعْمَالِهِ يَفْعَلُهَا حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ عَلَيْهِمْ بِكَيْفِيَةِ الْإِدَارَةِ وَ مَا يَصْدُرُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، فكل شىء بقدرته و عمله، و كل شىء يجريه حسب المصلحة.

[٢٧] ثم بعد تلك المقدمات العامة حول الكون و خلق السماء و الأرض و أن بيد الله كل شىء من حياة و موت و حشر، يأتي السياق لبيان قصة البشر الذى من أجله خلق الكون و الذى هو المقصود من إرسال الرسل و إنزال الكتب و بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و نزول القرآن وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ أَى الْبَشَرَ، و المراد آدم عليه السلام و حواء عليه السلام مِنْ صَلْصَالٍ أَى طِينٍ يَابَسٍ يَسْمَعُ لَهُ عِنْدَ النَّقْرِ صَلْصَلَةٌ أَى صَوْتٍ مِنْ صَلَّ إِذَا صَوَّتَ مِنْ حَمَإٍ هُوَ جَمْعُ حَمَاءٍ وَ هُوَ الطِّينُ الْمُتَغَيَّرُ إِلَى السَّوَادِ مَسْنُونٌ مِنْ سَنَنْتَ الْمَاءَ بِمَعْنَى صَبَبْتَهُ، أَى مَصْبُوبٌ كَأَنَّهُ أَفْرَغَ حَتَّى صَارَ صُورَةً، فَإِنَّ طِينَ آدَمَ صَبَّ عَلَى شَكْلِهِ حَتَّى صَارَ صَلْصَالًا، فَالصلصال من الحمأ المصبوب.

[٢٨] وَ الْجَانَّ اسْمٌ لِأَبَى الشَّيَاطِينِ، عَلَى وَزْنِ «فَاعِلٍ» اسْمِ فَاعِلٍ مِنْ «جَنٍّ» بِمَعْنَى اسْتَرَّ وَ إِنَّمَا يُسَمَّى الشَّيْطَانَ جَانًّا، لِأَنَّهُ يَجْنُ وَ يَسْتَرُّ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَ الْمُرَادُ بِالشَّيَاطِينِ غَيْرَ الْمُرَادِ بِالْجَانِّ، فَهُمَا قِسْمَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ سبحانه يطلق على كل واحد منهما الجان لاستتارهما عن الأبصار خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ أَى قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ مِنْ نَارِ السَّمُومِ السَّمُومُ هِيَ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَدْخُلُ الْمَسَامَ لِلطَّفْهِ وَ حَرَارَتِهَا، أَى أَنَّ الْجَانَ خَلِقَ قَبْلَ آدَمَ، مِنْ نَارِ بَهَذَا الْقِسْمِ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٧

[سورة الحجر (١٥): آية ٢٨]

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)

لفائدة التنوع فإن السموم نار و ريح، و التى خلق منها إبليس هى هذا القسم من النار، لا النار الغليظة الخليطة، روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: الآباء ثلاثة آدم و ولد مؤمن و الجان و ولد مؤمن و كافرا و إبليس و ولد كافرا و ليس فيهم نتاج إنما يبيض و يفرخ و ولده ذكور و ليس فيهم إناث

«١»، و كان المراد كون طبيعة الإنسان الإيمان لما أودع فيه من فطرة التوحيد.

[٢٩] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ أَى سَاخِلِقٌ، فَإِنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ يَأْتِ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ بَشَرًا أَى هَذَا الْجِنْسِ، قِيلَ وَ سَمِيَ الْإِنْسَانَ بَشَرًا، لِظُهُورِ بَشَرَتِهِ- أَى جِلْدِهِ- بِخِلَافِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ صَلْصَالٍ طِينٍ يَابَسٍ مِنْ حَمَإٍ أَصْلُ ذَلِكَ الصَّلْصَالِ مِنْ

طين مائل إلى السواد مَسْنُونٍ أى مصبوب ذلك الصلصال، قال بعض المفسرين: إن هذه القصة كررت في سورة البقرة أولاً، ثم سورة الأعراف ثانياً، ثم هنا ثالثاً، ونقطة التركيز مختلفة في هذه المواضع كما أن الأسلوب و السوق مختلف، ففي سورة البقرة كانت نقطة التركيز استخلاف آدم في الأرض، و في الأعراف رحلة الإنسان الطويلة من الجنة و إليها و إبراز عداوة إبليس، و هنا سر التكوين في آدم و سر الهدى و الضلال. أقول: و لعل السر في لزوم التركيز على مبدأ الإنسان لثلا ينحرف الناس نحو آراء «دارون» و من إليه.

(١) الخصال: ج ١ ص ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)

[٣٠] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ أى صنعت هذا البشر، بأن أتممت صورته و قلبه وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي الإضافة تشريفية، أى من الروح التي هي من قبلي، و الأشياء كلها من قبل الله، و لكن ربما يضاف شيء إليه لبيان شرافته، كما أن البيوت كلها له، لكن يضاف البيت الحرام إليه تشريفاً، كما أن الإضافة في (وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) «١» كذلك، و إن كانت الأشياء كلها كلمات الله، و النفخ هو إجراء الريح في الشيء باعتماد، و لو كان النفخ بآلة أو ضغط الهواء، كما أنه هو المراد هنا، فَقَعُوا الفاء عاطفة، و «قعوا» أمر من وقع يقع، نحو «قفوا» لَهُ أى لآدم سَاجِدِينَ أى وقوعاً بهيئة السجود.

[٣١] وضع الله آدم، و نفخ فيه من روحه، حتى جاء دور السجود من الملائكة فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ و إنما جيء بهذا التأكيد بعد التأكيد لأمرين:

الأول: التأكيد على استيعاب الملائكة، فإن الذهن الأولى يستبعد أن الملائكة على كثرتها الخارجة من الفكر، و اختلاف أعمالها، و تفرق جهاتها، تجتمع كلها للسجود فيظن أن العموم مجازي، و ذلك لا يرفعه حتى تأكيد واحد، ألا ترى إنك لو قلت استقبل الفقيه من في المدينة كلهم، لا يكاد يظن الإنسان إلا أن المراد ب «كل» الأغلب، لاستبعاد أن يستقبله كل من في المدينة من رجل و امرأة و مسلم و ذمي،

(١) النساء: ١٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣١ الى ٣٣]

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)

إلى غير ذلك.

الثاني: التلميح إلى قبح عمل الشيطان، إذ لو لم يكن بعض الملائكة سجد، كان مخالفته الشيطان هيناً، أما و قد وقع سجود الجميع، و بقى هو وحده مخالفاً فالأمر من البشاعة بمكان.

[٣٢] إِلَّا إِبْلِيسَ مع شمول الأمر له، و إن لم يكن من الملائكة، فإنه أبى و امتنع أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ لآدم عليه السلام.

[٣٣] قَالَ اللهُ سبحانه لإبليس يا إبليس ما لك أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ أى أى شيء لك في عدم كونك مع الساجدين؟ و على هذا فالجار هو «في» محذوف من «ألا» و هو شائع مطرد، قال ابن مالك:

و الحذف في أن و إن يطردهم امن لبس، كعجبت أن يدو

ثم أن سؤاله سبحانه لم يكن إلا لإظهار كبر إبليس و تمرده، و إلا فهو عالم بجهه عدم سجوده.

[٣٤] قال إبليس في جوابه سبحانه لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ أَي لَيْسَ مِنْ شَأْنِي السُّجُودَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ طِينٍ جَافٍ، كَانَ صَنَعَ مِنْ حَمِيمٍ طِينٍ مَائِلٍ إِلَى الْغَبْرَةِ مَسْتُونٍ مَصْبُوبٍ، وَ ذَلِكَ لِأَنِّي مِنَ النَّارِ وَ النَّارُ أَشْرَفُ مِنَ التَّرَابِ فَكَيْفَ يَخْضَعُ الْأَشْرَفُ لِلْأَخْسَرِ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَيَأْتِيكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)

[٣٥] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِإِبْلِيسَ، وَ إِذْ تَكْبَرْتَ وَ خَالَفْتَ الْأَمْرَ «١» فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَي مِنَ الْجَنَّةِ فَإِنَّكَ يَا إِبْلِيسَ رَجِيمٌ مَطْرُودٌ مَلْعُونٌ تَرْجَمُ بِاللَّعْنِ.

[٣٦] وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ يُقَالُ لَعْنَهُ بِمَعْنَى طَرَدَهُ وَ عَذَبَهُ أَي إِنَّكَ مَعَذَّبٌ مَطْرُودٌ مِنَ الْخَيْرِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أَي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ «الدين» بِمَعْنَى الْجَزَاءِ، وَ كَوْنُ الشَّيْطَانِ طَرِيدًا بِمَعْنَى أَنَّهُ يَمْنَعُ عَنِ السَّمَاءِ، وَ يَمْنَعُ عَنِ اقْتِرَابِ أَمَاكِنِ مَقْدَسُهُ وَ أَشْخَاصِ ذَاكِرِيْنَ كَمَا وَرَدَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا بَسَمَلَ طَرَدَتِ الْمَلَائِكَةُ الشَّيَاطِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَ لَفْظُهُ «عَلَيْكَ» لِإِفَادَةِ مَعْنَى الضَّرْرِ، وَ تَقْدِيمُهُ عَلَى «اللَّعْنَةَ» لِأَنَّ الْكَلَامَ حَوْلَ الشَّيْطَانِ، وَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي الْبَلَاغَةِ الْبَدءُ بِمَا سَبَقَ الْكَلَامَ لَهُ، فَإِذَا أَرَدْتَ تَعْدَادَ الشُّعْرَاءِ - مَثَلًا - تَقُولُ: الشَّاعِرُ زَيْدٌ وَ خَالِدٌ، وَ إِذَا أَرَدْتَ تَعْدَادَ فَصَائِلِ زَيْدٍ تَقُولُ: زَيْدٌ شَاعِرٌ وَ كَاتِبٌ.

[٣٧] قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَا رَأَى مَا نَالَهُ مِنَ الْخِزْيِ يَا رَبِّ فَأَنْظِرْنِي أَي أَمْهَلْنِي فِي الدُّنْيَا، وَ لَا تَمْتَنِي إِلَيَّ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أَي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي فِيهِ يَبْعَثُ وَ يَحْيِي الْخَلَائِقَ، لَعَلَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ أَصْلًا حَيْثُ أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَوْتَ بَعْدَهُ.

[٣٨] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي جَوَابِهِ فَإِنَّكَ يَا إِبْلِيسَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

(١) لا أريد بمثل هذا التفسير إلا تفسير الحالة و المستفاد من اللفظ، لا العبارة و الدقة، حتى تكون النسبة و ما أشبهها كذبا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)

لا يلازم هذا أن يكون هناك عدة أشخاص منظرين يكون إبليس أحدهم، و ذلك لأن الإتيان بالجمع من أبواب البلاغة، كأن المراد أن هذا من ذلك الجنس و إن لم يكن في الخارج منه إلا واحد، و لذا جرت العادة أن يقول الإنسان: قال المفسرون، أو كذا يقول الحكماء، أو وجدت في كتاب الفقهاء، و هو يريد أن هذا الكلام صادر من ذلك الجنس، إلا أن جماعة منهم قالوا: أو يقال أن الملائكة منظرون فإبليس منظر كأحدهم.

[٣٩] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ

الوقت المعلوم هو بين النفختين - كما ورد عن الصادق عليه السلام

«١» - فالمعنى إنك تبقى إلى ذلك اليوم.

[٤٠] و لما عرف إبليس بأنه منظر إلى ذلك الوقت قال يا رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي أَي بِسَبَبِ إِغْوَائِكَ لِي وَ الْإِغْوَاءُ هُوَ الدَّعَاءُ إِلَى الْغِيِّ وَ الضَّلَالِ، يُقَالُ لَهُ الْإِغْوَاءُ إِذَا أَثَرَ وَ صَارَ الْمَدْعُو ضَالًّا مُنْحَرَفًا، وَ قَدْ كَانَ إِبْلِيسَ كَاذِبًا فِي مَقَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَغْوِهِ، وَ إِنَّمَا هُوَ تَكْبَرٌ وَ حَسَدٌ مِمَّا سَبَبَ طَرَدَهُ، بَيْنَمَا أَرَادَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ كَرَامَتَهُ بِأَمْرِهِ بِالسُّجُودِ، إِلا أَن يَرِيدَ بِالْإِغْوَاءِ تَهْيِئَةَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوْدَى إِلَى ذَلِكَ، مَجَازًا، نَحْوُ وَ مَنْ يَضِلُّ اللَّهَ، أَوْ عَدَمَ اللَّطْفِ الْقَاهِرِ بِهِ حَتَّى لَا يَنْحَرِفَ لِمَا زَيَّنَّ الْمَعَاصِيَ لَهُمْ أَي لِأَبْنَاءِ آدَمَ - الْمَعْلُومُ مِنَ السِّيَاقِ - وَ ذَكَرَ

فوائدها، و إغفالهم عن مضارها حتى يرتكبوها، و أكون قد أخذت انتقامي بذلك من آدم الذي صار سببا لطردي في الأرضِ أى يقع التزيين منى فى

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ١٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٠ الى ٤٢]

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)

الأرض و لأغويينهم أجمعين أضلهم و أحرفهم عن طريق الصواب، و كان هذا من إبليس غلطا آخر إذ لو فرض أن آدم هو السبب فما ذنب ذريته؟

[٤١] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ أى من أولاد آدم الْمُخْلَصِينَ بفتح اللام اسم مفعول أى الذين أخلصتهم لطاعتك و طهرتهم عن الآثام، فإنهم لا يعمل كيدى فيهم.

[٤٢] قَالَ اللهُ سبحانه فى جواب إبليس هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ أى أن صراط الحق على أن أراعيه، فإن إبليس لما قال أنه يغوى الناس إلا المخلصين، فهم منه أن هناك صراط من تعدها كان غاويا، فقال سبحانه على أن أراعى هذا الصراط و هو مُسْتَقِيمٌ لا انحراف فيه، أما من انحرف فلا أبالى به، و هذا كما لو قال أحد لمدير مدرسة: «أنى أغوى تلاميذك عن تحضير الدرس، فيقول: «هذه المدرسة على، أما من أغوى فليس على شىء منه، و الطلاب الأذكياء يتبعون المنهاج» و الفقرة الأخيرة مثل قوله سبحانه.

[٤٣] إِنَّ عِبَادِي الْحَقِيقِينَ لَيْسَ لَكَ يَا إِبْلِيسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أى سلطه و قدره حتى تحرفهم و تغويهم إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ الاستثناء منقطع، و كأن الأصل «إن الناس لا تتسلط عليهم» «إلا من غوى» «أما العباد فلا تقدر عليهم».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٣

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦)

[٤٤] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أى محل وعد إبليس و أتباعه الغاوين، فإن «موعد» اسم مكان من وعد أجمعين هناك يجتمعون جميعا جزاء لأعمالهم السيئة.

[٤٥] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ أى أن لجهنم أبواب سبعة لكل بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ أى قسم من الغاوين مَقْسُومٌ و كان الغاوين اعتبروا وحدة واحدة، فلكل باب جزء يدخل منه إليها، و لعل اختلافهم بسبب اختلاف أعمالهم، كما أنه ورد فى أبواب الجنة الثمانية ذلك.

[٤٦] و بمناسبة الحديث عن أهل النيران يعطف السياق إلى أهل الجنان إِنَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ سبحانه، و لم يكن للشيطان عليهم سلطان فى جَنَّاتٍ جمع جنه بمعنى البستان و عُيُونٍ أى بين العيون، أو المراد إنهم يسبحون فيها فالظرف حقيقى.

[٤٧] و كان المشهد حاضر، إذ نرى المتقين فى ساحة المحشر يقال لهم ادْخُلُوهَا أى الجنات بِسَلَامٍ أى ادخلوها مع سلامه من الآفات و برائته من المضرات آمينين فى حال كونهم آمنون على أنفسهم و جميع ما يتعلق بكم تبكون فى الجنان أبدا فى سعادة و رفاه، و لعل تقديم «فى جنات» على «ادخلوها» لقصد سرعة المقابلة بين «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ» و «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ» ثم ذكر التفصيل هناك بقوله:

«لكل باب» و هنا بقوله: «ادخلوها».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٧ إلى ٤٩]

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) - لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)

[٤٨] و أهل الجنة بالإضافة إلى النعم التي تحيط بهم، فهم في نعمة نفسية، فليس هنالك حسد و غل و حقد يخلق راحتهم و ينقص عيشهم و نزعنا ما في صدورهم و إنما قال صدورهم، لأن القلب في الصدر من غل أي الحقد و الحسد و التنافس و التباغض في حال كونهم إخواناً متجاورين فيصفوا عيشهم و لا يكدر سعادتهم منغص خارجي أو غل داخلي كائنين على سرور جمع سرير، و هو الكرسي و يسمى سريرا لأنه محل السرور و الفرح متقابلين بعضهم لبعض، و هذا من النعم فإن الإنسان يأنس بأخيه الإنسان.

[٤٩] - لَا يَمَسُّهُمْ و إنما جاء بلفظ المس لإفادة أن أقل أذى يحصل بالمس، لا يكون هناك في الجنة نصب أي عناد و تعب، فهناك دار راحة و استراحة، و ما هم منها أي من الجنة بمخرجين لا يخرجهم أحد بل باقون أبد الأبد، و هذا من أعظم النعم.

[٥٠] و بمناسبة ذكر مصير المتقين و مصير الغاوين يأتي السياق ليذكر الناس برحمة الله و عذابه حتى ينقلع عن المعاصي من اشتاقت نفسه لتلك النعم الدائمة، و تتم الحجّة على من تمادى في غيّه بعد هذا الإعلان تبئى يا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أي أخبر، فعل أمر من النبأ بمعنى الخبر عبادي عام يشمل كل إنسان أني أنا الغفور الرحيم أغفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٠ إلى ٥٢]

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَ تَبَيَّنَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)

للعاصين ذنوبهم إذا تابوا و أرحم بالفضل على من سلك السبيل، و ذلك زيادة على الغفران.

[٥١] وَأَنَّ عَذَابِي للعاصين هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ المؤلم الموحج فليجتنبوها حتى لا يمسهم.

[٥٢] ثم يأتي السياق لبيان نماذج من الرحمة و الغفران، و نماذج من العذاب و العقاب، مع مناسبة لما تقدم في أول السورة حيث طلب الكفار من الرسول إنزال الملائكة، فأجابهم بأن الملائكة لو نزلت ما كان الكفار منظرين، كما أنه لما جاءت الملائكة لوطا عليه السلام لم ينظر القوم بعد بل أهلكوا.

و تكرار هذه القصة كتكرار سائر القصص فيها فائدة التكرير الموجب لتركيز الأمر في النفس، و إن في كل مرة يظهر جانب خاص من القصة، و مزايا زائده مختلفة عن السابق، بالإضافة إلى تأكيد أمر الإعجاز، فإن قصة واحدة تصب في قوالب مختلفة و مع ذلك لا يتمكن أن يأتي بمثلها الكفار- و قد تقدم الإلماح إلى ذلك- وَ تَبَيَّنَهُمْ أَي أَخْبَرَ الْكُفَّارَ- أَوْ أَخْبَرَ النَّاسَ- عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ وَ الضيف لفظ يستعمل للمفرد و التثنية و الجمع بلفظ واحد، و المراد بهم الملائكة الذين نزلوا عند إبراهيم عليه السلام ليشروه بإسحاق، في طريقهم لإهلاك قوم لوط عليه السلام.

[٥٣] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ أَي وَقْتُ دَخَلَ الضيوف على إبراهيم في محله فقالوا له سلاماً إما جاءوا بهذا اللفظ مجرداً، و إما هو كناية عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٣ إلى ٥٥]

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)

إنهم سلموا عليه سلاماً كاملاً- كأن قالوا «سلام عليكم» و أجاب إبراهيم جوابهم و جاء إليهم بالطعام فلم يأكلوا، فخاف منهم ف قال لهم إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ أَي خائفون، و ذلك لأنه رآهم لا يأكلون الطعام، فظن أنهم أرادوا به شراً، إذ العادة جرت إن من لا يأكل الطعام

يريد الشر.

[٥٤] قالوا أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام لا توجل أى لا تخف إنا نبشرك بك بولد يرزقك الله من سارة عليم عالم ليس من الجهلاء، وقد كان المراد إسحاق النبي عليه السلام.

[٥٥] قال إبراهيم عليه السلام أ بشرتُمونى بالمولود على أن مسنى الكبر أى وأنا على حال الكبر، والاستفهام إنكارى أى كيف تبشرونى بالولد والحال أنا كبير السن، ومقتضى العادة أن الرجل الكبير لا يولد له لضعف المنى فيه أن يكون منشأ ولد؟ فبم تبشرون أى بماذا تبشرون؟ هل تبشرون بما لا يكون؟ وأصل «بم» «بما» و من القاعدة أن تحذف الألف من «ما» إذا دخله حرف الجر، نحو «عم» و «فيم» و غيرها.

[٥٦] قالوا أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام بشرناك بالحق فبشارتنا مطابقة للواقع حتى لا بطلان فيها فلا تكن يا إبراهيم من القانطين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

قال وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قال فما خطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجهم أجمعين (٥٩)

الذين يقنطون من رحمة الله، و القنوط هو اليأس.

[٥٧] قال إبراهيم عليه السلام، كلا لا أقنط من رحمة الله و من ذا الذى يقنط من رحمة ربه إلا الضالون استفهام إنكارى أى هل يقنط من رحمة ربه إلا-الذى ضل عن الطريق سوى؟ لكنى لم أك قانطا، بل رأيت أن المجرى الطبيعى عدم الولد فى زمن الكبر، مع إذعانى بقدرة الله سبحانه على أن يفعل ما يشاء.

[٥٨] و قد صرحت الملائكة لإبراهيم فى أثناء كلامهم أنهم رسل من قبل الله سبحانه، و طالت القصة فى أمر البشارة بالولد، و لكن حيث كان مصب القصة هنا عذاب قوم لوط أسدل القرآن الستار على أمر إبراهيم عليه السلام ليأتى بقصة قوم لوط قال إبراهيم عليه السلام للملائكة فما خطبكم أيها المرسلون الخطب هو الأمر الجليل العظيم، فقد سأل إبراهيم عن مأمورية الملائكة، و إنها ما هى؟ فقد أرسل الله تلك الملائكة لأمر مهم.

[٥٩] قالوا أى قالت الملائكة إنا أرسلنا أرسلنا الله سبحانه إلى قوم مجرمين الاجرام هو الذنب، و معنى الإرسال إليهم هو إهلاكهم.

[٦٠] إلا آل لوط من يخصه من أهله، فإنهم ناجون فلا يشملهم العذاب، و قد سبق أنه كثيرا ما يقال «آل فلان» و يراد: هو و آله إنا لمنجهم أجمعين فلا يهلك منهم أحد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٠ الى ٦٣]

إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين (٦٠) فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال إنكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (٦٣)

[٦١] إلا امرأته أى امرأه لوط لأنها كانت مجرمة كسائر قومه قدّرنا أى هكذا جرى تقدير الله سبحانه إنها لمن الغابرين أى الباقين فى البلدة لتهلك فيمن يهلك.

[٦٢] و طال الحوار بين إبراهيم عليه السلام و بين الملائكة فى شأن هلاك قوم لوط، ثم أن الملائكة خرجوا من عند إبراهيم و جاءوا إلى لوط ليبشروه بهلاك القوم فلما جاء آل لوط المرسلون أى الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه، و إنما قال «آل لوط» لأنهم وردوا فى محله، و لتناسب السياق مع الجملة السابقة، حيث عبرت بآل لوط.

[٦٣] لم يعرفهم لوط عليه السلام ابتداءً و إنما رأى جماعة من الشباب الجميلى الوجه قال لوط عليه السلام لهم إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أَى لا أعرّفكم فعرّفونى أنفسكم، أو أنه أراد الإنكار عليهم فى دخولهم هذه المدينة، فان ذلك مما يسبب لهم و له الأتعاب حيث ظن أنه لو علم القوم بهم لأتوهم للفاحشة، و لم يعرف أنهم ملائكة الله سبحانه.

[٦٤] قالوا لا تنكرنا، فإننا ملائكة الله سبحانه بل جئناك كأن الإضراب كان لتوهم لوط أنهم ضيوف، أى لسنا ضيوفا آدميين، بل رسل مهلكين جئناك بما أى بالعذاب الذى كانوا كان القوم فيه يمتزّون أى كانوا يشكون، فإنهم كلما كان لوط يخوفهم بالعذاب شكوا فى صدق مقاله فى أنفسهم و أظهروا الإنكار عليه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)

[٦٥] وَ أَتَيْنَاكَ أَى جئنا إليك يا لوط بِالْحَقِّ أى أن الإتيان بالحق، مقابل الإتيان بالباطل كالسارق الذى يكون مجيئه باطلا، أو أن المراد جئنا الحق إليك و هو العذاب، مقابل الذى يأتى الباطل كالكاذب الذى يأتى بباطل الكلام وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ فى مقالنا أن الله قدر العذاب لهؤلاء.

[٦٦] فَأَسْرِبْ من سر بمعنى سار ليلا، قال الشاعر:

أبيت أسرى و تبيتى تدلكى وجهك بالعنبر و المسك الزكى
بأهلك أَى مع أهلك، فإن الباء تأتى بمعنى مع بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أى بهذا الوقت، و هو حين ما يمضى معظم الليل، و كأنه جمع قطعة، مثل تمره و تمر وَ اتَّبِعْ يا لوط أَدْبَارَهُمْ أى من وراء أهلك فهم يسيرون أمامك، لئلا يبقى أحد منهم، كما هو العادة فى الناظر على القوم وَ لَا يَلْتَفِتْ أى لا ينظر خلفه فى حال السير و الفرار مِنْكُمْ أَحَدٌ لئلا يروا العذاب فيفزعوا، أو هو كما يقول القائل «امض فى طريقك و لا تلتفت إلى شىء» يريد المضى بلا اعتناء بشىء وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أى فى وقت أمرنا بذهابكم، أو إلى المكان الذى أمرتم بالذهاب إليه.

[٦٧] وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ أَى أعلمنا لوطا، و أنهينا علم قضائنا فى القوم إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ (٦٩)

لوط، و ما كان القضاء؟ ذَلِكَ الْأَمْرَ و هو أنه أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ القوم، و الدابر بمعنى الأصل، أى أصل القوم مَقْطُوعٌ فى حال كونهم مُّصْبِحِينَ أى داخلين وقت الصباح، فإن الفجر كان موعد عذابهم.

[٦٨] و قد كان الملائكة فى مرأى من قوم لوط، و لذا قصدوا بهم الفاحشة وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إلى دار لوط يَسْتَبْشِرُونَ يبشر بعضهم بعضا بالأضياف المرد و قد كان هذا قبل أن يعرف لوط أنهم ملائكة- و إنما قدّم قصة إخبارهم عن عذاب القوم على هذه الآيات، حيث أن نقطة التركيز فى القصة كسائر قصص هذه السورة عذاب المجرمين كما ذكرنا سابقا.

[٦٩] قَالَ لوط عليه السلام لهم مستعظفا إِنَّ هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ ضَيْفَى الضيف يقع بلفظ واحد على المفرد و التثنية و الجمع فَلَا تَفْضَحُونِ أى لا تفضحونى فى أمرهم، و الفضيحة هى العار، أى لا تلمونى عارا بالعمل السيئ معهم حتى يقولوا و يقول الناس فى المستقبل أن لوطا، يفعل القوم بضيوفه.

[٧٠] وَ اتَّقُوا اللَّهَ أَى خافوا عقابه فلا تفعلوا ما نهاكم عنه وَ لَا تُخْزُونِ أى لا تجعلونى مخزيا، فإن الخزى بمعنى الإذلال و الإهانة، فإن

الإنسان إذا أهين ضيفه فقد أذلّ وأهين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٠ إلى ٧٣]

قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣)

[٧١] قالوا أى قال القوم فى جواب لوط أ و لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ

استفهام إنكارى، أى إنا قد نهيناك أن تحول بيننا وبين الناس، أو المراد النهى عن ضيافة الناس و إنزالهم، فقد كانوا نهوه سابقا عن ذلك، لئلا يولد لهم مشكلة الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون بالنسبة إلى المارة.

[٧٢] قال لوط عليه السلام متوسلا إليهم، مشيرا إلى بناته هؤلاء بناتى خذوهن عوض هؤلاء الأضياف و اعتدوا عليهن، لقضاء شهوتكم إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ أى تريدون الفعل، فقد سبق أن الفعل يأتى بمعنى الإرادة، كقوله «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» أى أردتم القيام إليها.

[٧٣] ثم أن الملائكة عرّفوا لوط أنفسهم، و أشاروا إلى القوم المتجمهرين على باب دار لوط فعميت أعين القوم، و ألقى الرعب فى قلوبهم، فرجعوا خائبين، و قد حسوا بنزول العذاب لَعَمْرُكَ أى قسما بحياتك يا رسول الله، أو أيها السامع، و إنما كان «عمر» بمعنى الحياة، لأنه من «عمر يعمر» بمعنى مدة البقاء و العيش، و منه العمارة، كأن الإنسان معمور ما دام حيا فإذا مات فقد خرب و انهدم إِنْهُمْ أى القوم لَفِي سَكْرَتِهِمْ أى الغفلة التى سكرت و غطت عقولهم، و منه السكر يَعْمَهُونَ من العمه و هو أشد العمى، أى قد كانوا فى أشد أقسام العمى الموجب لترديهم فى عذاب الله دنيا و آخرة.

[٧٤] و قد فرّ لوط عليه السلام بأهله مخلفا امرأته فى المدينة فَأَخَذْتَهُمْ أى القوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ (٧٦) الصَّيْحَةُ الصوت الهائل مُشْرِقِينَ وقت إشراق الشمس فقد قلع جبرئيل - و هو أحد أضياف لوط - مدنهم و دفع بها إلى السماء ثم صاح بهم صيحة عظيمة خبلت ألبابهم و أنزل الله عليهم الحصباء فرجمهم بالحجارة، و قلب جبرئيل مدنهم حتى جعل أعلى الأرض أسفله و ظهرها بطنها.

[٧٥] فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا أى على المدينة سَافِلَهَا بأن قلبناها ظهرها لطن و أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً أى جنس الحجارة، و هى الحصباء مِنْ سِجِّيلٍ من طين متحجر، و قد كانت من حصباء جهنم.

[٧٦] إِنْ فِي ذَلِكَ الْإِهْلَاكُ لآيَاتٍ و دلالات بالنسبة إلينا و إلى رسلنا و إلى عذاب الدنيا لمن كفر و طغى، فإن الإهلاك يدل على ذلك، و لذا قال سبحانه «لآيات» لِّلْمُتَوَسِّمِينَ أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته و علامته، من توسم بمعنى رأى السمء و العلامة فى الطرف المقابل، أى سمء كانت، فإن من تفكر فى أحوال قوم لوط ثبت لديه وجوده سبحانه و صدق رسله، و إن العاصى يعذب.

[٧٧] وَ إِنَّهَا أى تلك المدن التى قلبت لَبَسِيلٍ أى بطريق مقيم أى ثابت ذلك السبيل يسلكه الناس، فقد صارت تلك المدن فى الطريق بين المدينة و الشام، و قوله مقيم من باب التشبيه، فكما أن الشخص

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٣

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٧ إلى ٧٩]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لِيَأْمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)

المقيم في محل باق ظاهر، كذلك الطريق المقيم باق لم يندثر ظاهر لمن مرّ به.

[٧٨] إِنَّ فِي ذَلِكََ الطَّرِيقِ الْبَاقِيَ الْمَعْلُومَ الَّذِي يَرَاهُ كُلُّ مَنْ مَرَّ عَلَيْهِ لآيَةً دَلَالَةً عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَصَدَقَ رَسَلُهُ وَعَذَابُ الْعَصَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا خَصَّصَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَا يَمُرُّ عَلَيْهِمَا إِلَّا وَهُوَ مَعْرُضٌ غَيْرٌ مُنْتَفِعٌ بِهَا.

[٧٩] وَإِذْ يَقَعُ الْفَرَاغُ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ لُوطَ، فَلِنَظَرِ إِلَى سَائِرِ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَذَبُوا الرِّسَالَ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ قَوْمُ شُعَيْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ كَانَ أَى أَنَّهُ كَانَ، فَإِنَّ مَخْفَفَهُ مِنَ الْمُثْقَلَةِ، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ مَحذُوفٌ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الشَّجَرَةُ الْمُتَكَثِفَةُ، وَجَمْعُهَا «أَيْكٌ» مِثْلُ شَجَرَةٍ وَشَجَرٍ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ شَجَرَةٌ مُلْتَفَةٌ عِنْدَ «مَدِينِ» مَدِينَةِ قَوْمِ شُعَيْبٍ، نَسَبُ الْقَوْمِ إِلَيْهَا، أَوِ الْأَيْكَةُ هِيَ الْغِيضَةُ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ أَصْحَابَ غِيَاضٍ لظَالِمِينَ كَمَا مَرَّتْ قِصَّتُهُمْ سَابِقًا.

[٨٠] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ أَى مِنْ أَوْلِيائِكَ الْأَشْخَاصِ، وَالْمَرَادُ بِالْإِنْتِقَامِ إِحْلَالُ الْعَذَابِ بِهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: إِنَّهُ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ فِي تَكْذِيبِ رُسُولِهِمْ وَكَانُوا أَصْحَابَ غِيَاضٍ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحَرِّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ غَمَامَةً فَاسْتَظَلُّوا بِهَا يَلْتَمِسُونَ الرُّوحَ فِيهَا فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا أُرْسِلَ مِنْهَا صَاعِقَةٌ فَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعًا «١»

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٠ إلى ٨١]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١)

وَإِنَّهُمَا أَى مَدِينَةُ لُوطَ وَ مَدِينَةُ شُعَيْبِ لِبِإِمَامِ أَى وَاقِعِ فِي الطَّرِيقِ، وَ يُسَمَّى الطَّرِيقَ إِمَامًا لِأَنَّهُ يُؤَمُّ وَيُقَصَّدُ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ الْمَدِينَتَيْنِ بِطَرِيقِ يَوْمٍ وَيَتَّبِعُ وَيَسْلُكُ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ مُبِينٍ وَاضِحٌ لَمْ يَنْدَثِرْ بَعْدَ، وَ كَوْنِ الْآثَارِ فِي الطَّرِيقِ أَدْعَى إِلَى الْإِعْتِبَارِ.

[٨١] وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ «الحجر» اسم مدينة قوم صالح عليه السلام، وهم ثمود، كما قال سبحانه (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) «١» الْمُرْسِلِينَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا أَتَى بِلَفْظِ الْجَمْعِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي تَكْذِيبِ صَالِحٍ تَكْذِيبًا لِلْأَنْبِيَاءِ لِأَنَّهُمْ سَلْسَلَةٌ وَاحِدَةٌ فَمَنْ كَذَبَ بَعْضُهُمْ فَقَدْ كَذَبَ جَمِيعُهُمْ، أَوْ لِأَنَّهُ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ عِدَّةٌ أَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَكَذَّبُوا الْجَمِيعَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ صَالِحًا فَقَطْ فِي قِصَّتِهِمْ لِأَنَّهُ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ، أَوْ الْإِتْيَانِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ - لَمَّا تَقَدَّمَ سَابِقًا - مِنْ أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ الْجِنْسَ، كَمَا يَقُولُ أَحَدُنَا، هَكَذَا رَأَى الْأَطْبَاءَ فِي هَذَا الْمَرِيضِ، يَرِيدُ الْجِنْسَ لَا الْجَمْعَ، أَى أَنَّ هَذَا الْفَصِيلَ هَكَذَا، وَ هُوَ كَثِيرُ الْإِسْتِعْمَالِ عَرَفًا.

[٨٢] وَآتَيْنَاهُمْ أَى أَعْطَيْنَا أَصْحَابَ الْحِجْرِ آيَاتِنَا أَى الْأَدْلَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ الْمَعَادِ، وَ هِيَ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي كَانَ مِنْهَا النَّاقَةُ وَ مِنْهَا فَصِيلُهَا فَكَانُوا عَنْهَا أَى عَنِ الْآيَاتِ مُعْرِضِينَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَ الْإِسْتِدْلَالَ بِهَا عَلَى الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْآيَاتُ مِنَ الْإِطَاعَةِ وَ الْإِيمَانِ.

(١) الأعراف: ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٢ إلى ٨٥]

وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)

[٨٣] وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَقَدْ كَانَ بِلَدِّهِمْ بَيْنَ الْجِبَالِ، فَيَصْنَعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بَيْوتًا جَبَلِيَّةً، بِمَا أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَ الْقُدْرَةِ

آمِنِينَ فِي حَيَاتِهِمْ لَا- يَزْعَجُهُمْ مَزْعَجٌ، وَ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ فِي الْجِبَالِ غَالِبًا يَكُونُونَ أَكْثَرَ قُوَّةً وَ أَمْنَا لِلْحَوَاجِزِ الطَّبِيعِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ قَصَدَ بِهِمْ سُوءًا، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذِهِ الصَّفَةِ، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ مَعَ قُوَّتِهِمْ وَ مَنَعَتِهِمْ أَخَذَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ حَيْثُ طَعَوْا وَ لَمْ يُؤْمِنُوا.

[٨٤] فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ صَاحَ بِهِمْ جَبْرَائِيلُ صَيْحَةً هَائِلَةً خَبِلَتْ أَلْبَابُهُمْ مُضْرِبِينَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاحِ، فِي وَقْتِ هُدُوءٍ وَ اسْتِرَاحَةٍ وَ جَمَالِ الْأَقْفِ وَ هُمْ أَمْنَاءُ فِي بِيُوتِهِمُ الْحَصِينَةَ.

[٨٥] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ أَى مَا أَفَادَهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْمَنَاصِبِ وَ الْأَوْلَادِ وَ سَائِرِ الْمَلَازِ الدُّنْيَوِيَّةِ، إِنَّهَا لَمْ تَدْفَعِ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، وَ هَكَذَا قَتَلَتِ الْأُمَّةَ الْأُمَّةَ فِي الْكُفْرِ وَ تَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ هَكَذَا أَخَذَ اللَّهُ الْجَمِيعَ وَ أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

[٨٦] إِنَّ بِالْحَقِّ خَلَقَ هَذَا الْوُجُودَ بِسَمَائِهِ وَ أَرْضِهِ، وَ الْحَقُّ هُوَ مُصِيرُ الْجَمِيعِ، فَمَنْ حَادَ عَنِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا يَكُونُ نَصِيْبِهِ إِلَّا الْعَذَابُ وَ الْخُسْرَانُ كَمَا رَأَيْنَا فِي الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ كَذَبُوا وَ حَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِالْحَقِّ فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ لِعُثْبِ بَلْ غَرَضٌ وَ غَايَةٌ وَ صِلَاحٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)

وَ حِكْمَةً وَ إِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَجَازِي فِيهَا الْإِنْسَانُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَ إِنْ شَرًّا فِشْرٌ لَأْتِيَةٌ لِيَحْكُمَ فِيهَا بِالْحَقِّ، فَمَا بَالُ الْإِنْسَانِ يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ وَ يَكْفُرُ بِالْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ؟ فَاصْفَحْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَى أَعْرَضَ عَنِ الْكُفَّارِ إِعْرَاضًا جَمِيلًا، وَ الْإِعْرَاضُ الْجَمِيلُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِعْرَاضُ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ إِنْ اقْتَضَتِ الْإِعْرَاضُ بِخَشُونَةٍ فِي بَعْضٍ فَلْيَفْعَلْ كَذَلِكَ وَ إِنْ اقْتَضَتِ الْإِعْرَاضُ بِلُطْفٍ وَ لِينٍ فَلْيَفْعَلْ كَذَلِكَ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: (وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) «١» وَ حَيْثُ أَنْ الْحَقُّ هُوَ الْمَبْدَأُ وَ الْمَعَادُ، فَلَا عَلَيْكَ كُفْرَ الْكَافِرِينَ، إِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَ، فَإِذَا أَعْرَضُوا فَلَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتْرَكَهُمْ تَرَكَامًا جَمِيلًا، لَا تَحْمِلُ لَهُمْ حَقْدًا أَوْ غَلًّا، فَإِنَّ الْحَقَّ يَقَرُّ مُصِيرِهِمْ، وَ سِيْلَاقُونَ جَزَائِهِمْ مِمَّنْ خَلَقَهُمْ وَ عَلَّمَ بِهِمْ وَ بِأَعْمَالِهِمْ.

[٨٧] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْخَلَّاقُ لِلْسَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ لَهُوَلَاءِ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ بِكُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ هُوَلَاءُ، فَدَعِهِمْ وَ اصْفَحْ عَنْهُمْ حَتَّى يَجَازِيَهُمْ خَالِقُهُمُ الْعَالَمُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَ هَذَا كَمَا يَقُولُ مَدِيرُ الْمَدْرَسَةِ لِلْمَعْلَمِ: أَنْتَ دَرَّسَ وَ لَا عَلَيْكَ مِمَّنْ لَمْ يَحْفَظْ، فَإِنَّ بَانِي الْمَدْرَسَةِ عَالِمٌ، وَ هُوَ الَّذِي هَتَيْتُ أَثَاثَ الْمَدْرَسَةِ وَ بِيَدِهِ امْتِحَانُ الطَّلَابِ.

[٨٨] إِنَّكَ رَسُولُنَا الَّذِي أَرْسَلْنَا وَ آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ فَمَنْ كَذَبَكَ فَاصْفَحْ عَنْهُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ عِنْدَ الْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ أَى أَعْطَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) الفرقان: ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ سَبْعًا أَى سَبْعَ آيَاتٍ مِنَ الْمَثَانِي وَ هُوَ سُورَةُ الْحَمْدِ تَسْمَى «الْمَثَانِي» لِأَنَّهَا تَتَنَّى فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَى إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ سَبْعَ آيَاتٍ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي تَتَنَّى فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا وَ آتَيْنَاكَ سَائِرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَ تَخْصِيصَ «الْمَثَانِي» بِالذِّكْرِ لِأَهْمِيَّتِهَا، وَ قَدْ وَرَدَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَ تَفْسِيرِ السَّبْعِ الْمَثَانِي بِالْحَمْدِ، رَوَايَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

[٨٩] وَ إِذْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُتَّصِلًا بِالْوَحْيِ مُرْتَبِطًا بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَ السَّمَاءِ، وَ مِنْ بِيَدِهِ الْجَزَاءُ، الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ بِاسْتِجْمَالٍ أَوْ ثَمْنٍ أَوْ اسْتِحْسَانٍ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ أَى إِلَى مَتْعِ الْحَيَاةِ وَ لِذَائِدِهَا الَّتِي أَعْطَيْنَاهَا أَصْنَافًا مِنْ

هؤلاء الكفار، فلا تلقى إلى متع الحياة الدنيا نظرة اهتمام بأن تهتم بها، أو نظرة تمنى بأن تتمنى مثلها لنفسك، و الزوج هو الصنف، و يقال له زوج لأن بعض الصنف يشبه بعضا، و المراد أن ما أعطيناك من النبوة، و ما وعدناك من الآخرة أعظم من ذلك كله و لا تحزن عليهم أى على هؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا، فإنما أنت أدت ما عليك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات و أخفض جناحك للمؤمنين كما يخفض الطائر جناحه لولده أو قرينه تواضعا و تلطفا و المراد أن جانبك لهم و احلم عنهم إذا أخطوا، و تواضع الرئيس يوجب كثرة الأتباع - دائما-.

[٩٠] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أَى الْمُنذِرُ الْوَاضِحُ، أَنْذِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَ عِقَابِهِ، فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَ نَهْيَهُ كَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٠ الى ٩٤]

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهْم أجمعين (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) لا يصيبكم ما أصاب الأمم السابقة.

[٩١] لقد أتيناك القرآن العظيم، كما أنزلنا الكتاب على الْمُقْتَسِمِينَ و هم اليهود و النصارى - من قبل - و إنما سموا مقتسمين لأنهم قسموا الكتاب فما وافق آراءهم و شهواتهم قبلوها و ما خالفها تركوها، و لذا فسرههم سبحانه بأنهم هم:

[٩٢] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع «عضة» بمعنى الجزء، من عضى الشاة أى فصل بين أجزائها، أى فرقوا القرآن و جعلوه عضوا عضوا، فآمنوا بما وافق أهواءهم و كفروا بما خالفها، كما قال سبحانه فى آية أخرى (تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ) «١» و الحاصل إنا أنزلنا الكتاب كما أنزلنا الكتب السابقة على هؤلاء الذين ينكرون كتابك الذين اقتسموا الكتاب و جعلوه أقساما فقبلوا قسما و ردوا قسما.

[٩٣] و إنا لناخذهم كما أخذنا المكذبين السابقين من الأمم الخالية فَو رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و الفاء للتعقيب أى عقيب تكذيبهم لَنَسْتَلَنَّهْم أى نسأل من المقتسمين أَجمعين بلا استثناء.

[٩٤] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الكفر و المعاصى حتى نجازيهم، و السؤال منهم إنما هو للإقرار على أنفسهم، و إلا فالله سبحانه عالم بما عملوه.

[٩٥] أما أنت يا رسول الله فإنك مكلف بالبلاغ سواء قبلوا أم لم يقبلوا

(١) النساء: ١٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٩

[سورة الحجر (١٥): آية ٩٥]

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)

فَاصْدَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ الصَّدْعُ هو الإظهار و الإعلان، و أصل الصدع هو كسر الزجاجه بصوت و كان الرسول يجهر بتفريق الناس الذين على لون واحد فمنهم من يؤمن و منهم من لا يؤمن، كما أن الزجاجه إذا كسرت تصير قطعيتين بما تؤمّر من الإنذار و التبليغ و أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فلا تهتم لهم و لا تبال بشأنهم، فإن الإنسان إذا اهتم بشأن المناوئين و الحاسدين لا يتمكن من تقديم مشروعه إلى الأمام.

[٩٦] إِنَّا كَفَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ،

ورد أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و مروا ذات يوم به مهددين قائلين: يا محمد إنا ننتظر

بك إلى الظهر فإن رجعت عن قولك و إلا قتلناك فدخل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منزله مغموما فنزل جبرئيل و بشره بأن الله قد كفاه شرهم، و كفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شرهم في ذلك اليوم، و قد كان أولئك وليد و عاص و أسود بن عبد يغوث و أسود بن المطلب و الحرث. أما الوليد فمَرَّ بنبل فأصابه شظية منه فانقطع أكحله حتى أدماه فمات و هو يقول: قتلني رب محمد، و أما العاص فقد خرج في حاجة له إلى موضع فهَدَّ تحته الحجر فتقطع قطعة قطعة فمات و هو يقول: قتلني رب محمد، و أما ابن عبد يغوث فنطح رأسه بشجرة فمات من أثر الصدمة و هو يقول: قتلني رب محمد، و أما ابن المطلب فخرج عن مكة و إذا به لا يبصر شيئا قد أعمى بصره و أكله الله بولده و بقي أعمى ثاكلا حتى مات، و أما الحرث فضربتة السموم حتى غيرت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)

وجهه و سمته و لما رجع إلى أهله صار بينهم و بينه كلاما أدى إلى أن قاموا فقتلوه و هو يقول قتلني رب محمد، و لما أن بشر جبرئيل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن الله قد كفاهم خرج الرسول مناديا: يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله و إنى رسول الله أمركم بخلع الأنداد و الأصنام فأجيبوني تملكوا به العرب و يدين لكم العجم و تكونوا ملوكا في الجنة فأخذ القوم يضحكون منه قائلين جن محمد، لكنهم لم يجسروا عليه لموضع أبي طالب عليه السلام «١».

[٩٧] ثم وصف سبحانه المستهزئين بقوله الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ يَعْبُدُونَهُ، أن هؤلاء السخفاء هم الذين يستهزئون بالرسول، و كان الإتيان بهذا الوصف للإشارة إلى مقدار عقولهم فمثلهم كمنجنون يضحك من عاقل فَسَوْفَ إِذَا مَاتُوا، أو قامت القيامة يَعْلَمُونَ جزائهم السيئ حيث لا مناص.

[٩٨] ثم سلا سبحانه نبيه لما يرد عليه من الآلام و الكوارث وَ لَقَدْ نَعَلِمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ بما يقوله الكفار فيك و في دينك من الطعن و الاستهزاء، و هذا تسلية للرسول فإن الإنسان إذا علم أن ما يصنع به إنما هو في محضر حاكم عادل يخفف له علمه بذلك و طأ الحادثه، و لذا

قال الإمام الحسين عليه السلام: «هَوْنٌ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ».

و ضيق الصدر إنما هو بسبب أن الإنسان المهموم تتولد فيه حرارة

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

زائدة تحتاج الرئة لدفعها و إيراد القلب إلى جذب هواء أكثر من المعتاد، و ذلك سبب لكبرها عند التنفس، و حيث أن مكان الرئة الصدر، فالصدر يضيق بكبرها- لدى اجتذاب الهواء- عند الهَمِّ.

[٩٩] فَسَبِّحْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِحَمْدِ رَبِّكَ أَي نَزَّهَ اللهُ سبحانه بالحمد، فإن التنزيه قد يكون بالسلب- كأن يقال: فلان لا يؤذى الناس- و قد يكون بالإيجاب- كأن يقال: فلان يرحم الناس و يعطف عليهم- و هذا أبلغ من التعظيم و التجليل، أي اجعل تسبيحك بهذه الكيفية الإيجابية وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ وَ يَخْضَعُونَ لِعِظْمَةِ اللهِ سبحانه، و ذلك مما يخفف وقع التكذيب و الاستهزاء، لأن بذكر الله تطمئن القلوب، كما قال سبحانه: (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) «١» فهو موجب للانصراف أولاً و لتذكر نعمائه و آلائه و إنه المجزى لما يصيبه ثانيا.

[١٠٠] وَأَعِذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ الْيَقِينُ أى الموت، وإنما سُمي الموت يقينا لأنه موقن به، بعلاقة تسمية المضاف باسم المضاف إليه كما يقال لابن زيد؛ زيد، ويقال لعشيرة هاشم «هاشم» وهكذا، ويحتمل أن يكون وجه التسمية أن الموت - فى أغلب الناس - يسبب اليقين الكامل بالمعاد فسمى الموت يقينا، حتى بالنسبة إلى من لا يريد يقينه كالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(١) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٢

١٦ سورة النحل مكية / آياتها (١٢٩)

سميت السورة باسم «النحل» لاشتغالها على هذه الكلمة، وهو الحيوان الذى يفرغ العسل و الشمع. وهى كغالب السور المكية تعالج شؤون العقيدة و ما إليها، أما أنظمة الدولة و ما يتبعها فإن الغالب كونها فى السورة المدنية حيث ترسخت دولة الإسلام، و أرسدت دعائمها.

و حيث ختم سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بذلك أيضا، فقال:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ افتتاح باسم الله خالق كل شىء الجامع لجميع الصفات الكمالية خلافا للكفار و من إليهم حيث لا يفتتحون كتبهم بشىء من غير لونه، أو يفتتحونه بأسمى الأصنام و قد جرت عادة بهرتهم المدنية الحديثة، أن يقتدوا أثر أولئك فلا يفتتحون الكتاب إلا بالمقدمة أو الإهداء أو الفصل - بدون ذكر لاسم الله سبحانه إطلاقا- و من هو هذا الإله الذى نبتدى باسمه؟ إنه الذى يرحمنا و يرحم جميع البشر، فلنستعن به و نستقى رحمته.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

[٢] لقد طلب الكفار أن ينزل الله عليهم عذابا، إن كان الرسول صادقا فيما يقول - استهزاء - كما كانوا يقولون: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) «١» فقال الله سبحانه فى جواب طلبهم العذاب: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ أى قرب إتيانه، و يقال للشىء الذى قرب أنه أتى، لمجاز المشارفة، أو أنه من باب إنزال الفعل المتحقق الوقوع منزله الماضى كقوله سبحانه (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) «٢» فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ أى لا تطلبوا تعجيله سبحانه مصدر منصوب بفعل محذوف أى أنزهه تنزيها و تعالى أى أنه أعلى و أرفع عَمَّا يُشْرِكُونَ أى عن الأصنام التى يشركونها معه تعالى، فقد قرب وقت إتيان أمر الله المنزه عن الشريك و استعجال هؤلاء لا يغير من مقتضى حكمته فى جعل المواقيت و الآجال، و ها نحن الآن نرى أنه قد وقع على الكفار المعاصرين للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العذاب و قضى كل شىء.

[٣] أنه سبحانه لا يدع المشركين فى ضلالهم و شركهم بل لا بد و أن يتم الحجة عليهم فإنه يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَى الرُّسُلِ بِالرُّوحِ أى بما هو روح و حياة للكون فإن الإنسان لا روح له ما دام ليس متشرعا بشريعة الله سبحانه و إنما هو جماد فى صورة متحرك مِنْ أَمْرِهِ أى الروح المتصف بأنه كائن من أمره تعالى، و تأثر عن إرادته عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) الكهف: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣ إلى ٥]

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)

من الصفوة المختارة من البشر و هم الأنبياء أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فهذا هو الروح الذي ينزله إله الكون بواسطة أظهر النفوس و هم الملائكة إلى أخير الناس، فيوحى إليهم أن أنذروا الناس الذين يشركون بأن عاقبه هذا الشرك و خيمه، فإنه لا إله إلا الله فاتقون أى خافوا عقابه و نكاله فى اتخاذكم الشركاء.

[٤] أنه تعالى هو خالق كل شىء فكيف تتخذون غيره شريكا له؟ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لا لغوا و عبثا حتى يترك كل إنسان و ما اختاره من التوحيد أو الشرك و إنما يجب أن يعمل كل إنسان بالحق و يعتقد كل إنسان ما هو حق و واقع من مسألة الألوهية تعالى أى إنه: أعلى و أرفع عَمَّا يُشْرِكُونَ و الفعل و هو «تعالى» قد انسلخ من معنى الماضوية، كما أنه كذلك بالنسبة إلى جميع صفات الذات، فليس المراد من «علم الله» و «قدر الله» و «استغنى الله» أنه حدثت فيه هذه الصفات فى الزمان الماضى.

[٥] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ النطفة هى الماء القليل، أى أن بدء هذا الإنسان الكبير إنما هى قطرة من ماء قليل مهين فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ أى مخاصم لأنبياء الله و للهادين، مجادل فى أوامر الله الذى خلقه، مبين واضح الخصومة.

[٦] و فى هذا المجال يستعرض السياق جملة من الآيات الكونية، حتى يرى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦ إلى ٧]

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيُقِضَ الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ (٧)

المشركون أنها ليست من خلق شركائهم و إنما هو من خلق الله وحده، لعلهم يرجعوا عن غيهم و الأنعام جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم سميت بها لنعمه مشيها أو لأنها نعمه فى جميع منافعها خَلَقَهَا أى الأنعام لكم أيها البشر فيها فى الأنعام، و الظرف مجازى دِفْءٌ ما يدفأ به من أصوافها و أشعارها فى اللباس و الفرش و الخباء و غيرها، قال بعض العلماء: إن الشعر لا يدفأ بذاته و إنما لا ينفذ الدفء الحاصل من البدن و نحوه منه و لذا يحس الإنسان بالدفء فيه بخلاف سائر الألبسة و لكم فيها منافع من ركوب و حمل و حراثته الأرض للزرع و غيرها و مِنْهَا تَأْكُلُونَ لحمها و لبنها و شحمها.

[٧] و لكم أيها البشر فيها أى فى الأنعام جمالاً أى منظر حسن و زينة حِينَ تُرِيحُونَ للأنعام، من أراح بمعنى ردها إلى المراح و هو محل استراحة الحيوانات و حِينَ تَسْرَحُونَ أى ترسلونها صباحا إلى محل السرح و الرعى، فإن فى هذه الحيوانات حين تذهب صباحا و ترجع عصرا منظر جميل، يزيد فى جمال أصحابها، فيقال: هذه قطع فلان و هكذا و ربما يقال أنه جمال فلان، فيطلق الجمال على تلك الأنعام غادية رائحة.

[٨] وَ تَحْمِلُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَ هِيَ الْإِبِلُ أَثْقَالَكُمْ أَى أمتعتكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٦

[سورة النحل (١٦): آية ٨]

وَ الْخَيْلِ وَ الْبُغَالِ وَ الْحَمِيرِ لِيَتْرَكِبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

الثقيلة، فإنه جمع ثقل و هو المتاع الذى يثقل حملة إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ أى لا تقدرون أنتم و حدكم بلوغ ذلك البلد البعيد إلا

بِشَقِّ الْأَنْفُسِ فَكَيْفَ تَبْلُغُونَهُ مَعَ الْأَحْمَالِ؟ وَ شَقَّ الْأَنْفُسَ مَعْنَاهُ مَشَقَّةُ النَّفْسِ، فَإِنَّ شَقَّ مَصْدَرٌ شَقَّ يَشُقُّ أَي صَعِبَ وَ الْأَنْفُسَ جَمْعُ نَفْسٍ إِنَّ رَبُّكُمْ لَرَوْفٌ وَ مِنْ رَأْفَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ لِتَحْمِلَ أَثْقَالَكُمْ وَ تَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي سَائِرِ حَوَائِجِكُمْ رَحِيمٌ يَرْحَمُ بِكُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ بِالْإِحْسَانِ وَ الْإِنْعَامِ، وَ لَعَلَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَ الرَّحْمَةِ، أَنَّ الرَّأْفَةَ صِفَةُ الْقَلْبِ، وَ إِنْ لَمْ تَتَّعَدْ، وَ الرَّحْمَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيمَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَفْضَالِ وَ الرَّحْمِ.

[٩] وَ خَلَقَ الْخَيْلَ وَ هِيَ الْفَرَسُ وَ الْبِغَالَ جَمْعُ بَغْلٍ وَ هُوَ مَا يُولَدُ بَيْنَ الْحِمَارِ وَ الْفَرَسِ وَ الْحَمِيرِ جَمْعُ حِمَارٍ لِيَتَرَكَّبُوا فِي حَوَائِجِكُمْ، وَ لَمْ يَذْكَرْ هُنَا الْحَمْلَ، وَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لَمْ يَذْكَرْ الرُّكُوبَ لِتَنْفَنَ فِي الْكَلَامِ وَ هُوَ مِنْ أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ، وَ الْإِبِلُ أَنْسَبُ بِحَمْلِ الْأَثْقَالِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، كَمَا أَنَّ الثَّلَاثَةَ أَنْسَبُ لِلرُّكُوبِ وَ زِينَتُهُ أَي خَلَقَهَا زِينَةً وَ جَمَالًا لَكُمْ، حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَكِبَهَا كَانَ لَهُ جَمَالٌ وَ جَلَالٌ، كَمَا أَنَّهَا حِينَ تَرْتَبُطُ أَوْ تَنْتَقِلُ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ تَظْهَرُ لِلْمَالِكِ جَمَالًا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ سَائِرِ وَسَائِلِ الْحَمْلِ وَ الزِينَةِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ لِيَجِدَ الذَّهْنَ مَتَسَعًا فِي الْآفَاقِ فَلَا يَجْمَدُ، وَ نَسَبَةُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ وَ مَا أَشْبَهَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٧

[سورة النحل (١٦): آية ٩]

وَ عَلَى اللَّهِ قَضْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

صحيح، فإن صانعها ليس إلا جزءاً صغيراً في سلسلة العلل المهيئة لها من معدن، و نار، و هواء و غيرها.

[١٠] وَ فِي سِيَاقِ السَّفَرِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ وَ السَّيْرِ بِوَسْطَةِ الْمَرْكُوبَاتِ الْمَحْسُوسَةِ، يَأْتِي بَيَانُ السَّيْرِ نَحْوَ الْمَقْصِدِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنْ سَيْرِ جَسْمَانِي إِلَى سَيْرِ رُوحَانِي وَ عَلَى اللَّهِ قَضْدُ السَّبِيلِ أَي السَّبِيلِ الْقَاصِدِ، وَ هُوَ السَّبِيلُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي إِذَا سَلَكَهُ الْإِنْسَانُ أَوْصَلَهُ إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، كَأَنَّ السَّبِيلَ قَاصِدٌ إِلَى هَدَفٍ وَ لَذَا لَا يَنْحَرِفُ وَ لَا يَلْتَوِي، كَالْإِنْسَانِ الْقَاصِدِ ذِي الْغَايَةِ الَّذِي يَسِيرُ مُسْتَقِيمًا نَحْوَ هَدَفِهِ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، نَحْوَ وَضَحِ النَّهَارِ، أَي النَّهَارِ الْوَاضِحِ، وَ مَعْنَى عَلَى اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَبَيِّنَهُ وَ يُرْشِدَ النَّاسَ إِلَيْهِ وَ مِنْهَا أَي مِنَ السَّبِيلِ جَائِزٌ مَنْحَرِفٌ كَأَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ جَارَ فَلَمْ يَسْتَقِمْ كَالْإِنْسَانِ الظَّالِمِ الَّذِي يَجُورُ وَ يَنْحَرِفُ وَ قَدْ كَانَ مِنَ الْإِنْهَزَامِيَّةِ الْغَرِيبَةِ، الْقَوْلُ بِأَنَّ «الْجَائِزَ» مَأْخُوذٌ مِنْ «جَارَ» بِمَعْنَى صَوْتٍ، وَ الْمُرَادُ بِهِ «الطَّائِرَةُ» وَ نَحْوَهَا مِنَ الْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَحْدُثُ الصَّوْتُ عِنْدَ حَرَكَتِهَا، وَ قَدْ مَنَى الْمُسْلِمُونَ بِأَنَاسٍ مِنْهَزِمِينَ يَرِيدُونَ تَطْبِيقَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْغَرْبِ وَ يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ كَسْبٌ لَهُمْ، وَ لِلْإِسْلَامِ، غَافِلِينَ أَنَّ ذَلِكَ انْتِصَارٌ لِلْغَرْبِ، فَإِنَّهُمْ أَخَذُوهُ، وَ مَا خَالَفَ الْإِسْلَامَ لَهُ، أَوْلُوا الْإِسْلَامَ لَهُ لِيُؤَافِقُوا بَيْنَهُمَا بِهَزِيمَةِ الْإِسْلَامِ.

وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ بِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠ الى ١١]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)

الهدى، لكنه تعالى خلق الدنيا للامتحان و ذلك لا يكون إلا بالاختيار، فهو سبحانه لا يشاء إلا أن يكون كل أحد مختاراً فيما يأخذ و يدع.

[١١] ثم انتقل السياق من المركوبات و ما إليها مما خلقها لنفع الإنسان، إلى قسم آخر من الآيات الكونية التي جعلها لنفع البشر هو الله سبحانه وحده الذي أنزل من السماء أي من جهة العلو ماء هو المطر لكم أيها البشر منه أي من ذلك الماء شراباً تشربونه و تستعملونه في سائر حوائجكم و منه شجر أي ينبت من ذلك الماء الشجر و المراد به كل نبات فإنه يطلق على ما ينبت من الأرض قام على ساق أولم يقم فيه أي في ذلك الشجر تُسِيمُونَ يقال أسام ماشيته إذا رعاها، أي ترعون أنعامكم، و لو لا ماء المطر بم كانت تنقوت الأنعام؟

[١٢] وَ يُنْبِتُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ بِهٖ أَى بَمَاءِ السَّمَاءِ الزَّرْعَ مِمَّا يَزْرَعُ وَ يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ، أَوْ يَتَجَمَّلُ بِهِ، أَوْ يَتَنَزَّهُ بِمَنْظَرِهِ، أَوْ الْأَعْمَ مِنْ ذَلِكَ وَ مِمَّا تَرْعَاهُ الْمَاشِيَةَ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْعَامِ بَعْدَ الْخَاصِّ وَ الزُّبُنُونَ وَ النَّخِيلَ جَمْعَ نَخْلٍ وَ هُوَ مَا يَثْمُرُ التَّمْرَ وَ الْأَعْنَابَ جَمْعَ عُنْبِ أَى أَشْجَارِ الْأَعْنَابِ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ أَى يَنْبِتُ لَكُمْ بِالْمَاءِ كُلِّ الثَّمَارِ، وَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَشْجَارُ الْمَثْمِرَةُ، فَلَوْ لَا مَاءُ السَّمَاءِ «الْمَطَرِ» لَمْ يَنْبِتْ شَيْءٌ، وَ الْعْيُونَ وَ الْأَنْهَارُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٩

[سورة النحل (١٦): آية ١٢]

وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

أيضاً، فلا يقال كان يكفيننا العيون والأذهان إن في ذلك الإنزال للماء من السماء لإنبات هذه الأشياء والانتفاع به في سائر حوائج البشر لآية دلالة واضحة على وجود إله عليم قدير غير هذه الشركاء التي لا تعقل شيئاً لقوم يتفكرون في الأمور فيعرفون أن هذه النعم من الله سبحانه لا من غيره، وخص المتفكرين لأنهم الذين ينتفعون بهذه الآية وغيرها.

[١٣] و من ثم ينتقل السياق إلى آية أخرى، و منفعة جليئة لا حياة للإنسان بدونها، و سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ أَجْرَاهُمَا وَ خَلَقَهُمَا بِحَيْثُ تَتَنَفَعُونَ بِهِمَا فِي حَيَاتِكُمْ وَ حَوَائِجِكُمْ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ لَعَلَّ ذِكْرَ الشَّمْسِ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لِمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا مِنْ فَوَائِدٍ، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ، أَمَّا الْقَمَرُ فَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ لَيْلٌ وَ لَا نَهَارٌ وَ لِذَا كَانَ ذِكْرُهُ تَأْسِيسًا وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ سَبْحَانَهُ فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَ هُوَ الَّذِي يَسِيرُهَا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّسْخِيرَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يَعْمَلُونَ عَقُولَهُمْ لِيَدْرِكُوا الْحَقَائِقَ وَ يَعْرِفُوا الْأَشْيَاءَ وَ إِلَّا- فَهَلْ يَتِمَكَّنُ عَاقِلٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّهَا خَلَقْتَ مِنْ أَنْفُسِهَا؟ أَوْ خَلَقَهَا صَنَمٌ عَاجِزٌ جَاهِلٌ؟ إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ- حَسَبَ الظَّاهِرِ- لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ خَلْقٍ أَوْ تَسْيِيرِ أَتْفَةِ الْأَشْيَاءِ مِنْ نَفْسِهِ بَأَن يَكُونَ جَمِيعَ اللُّوْازِمِ وَ الْأَسْبَابِ مِنْهُ فَكَيْفَ بغير الإنسان؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٢٤٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٣ إلى ١٤]

وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

[١٤] و سخر لكم ما ذرأ أي خلق لكم إما بمعنى سخر لكم ما خلق في الأرض، فيكون المعنى أن كل شيء في الأرض فهو مسخر لكم، وإما بمعنى أن ما خلق لكم في الأرض هو مسخر لكم، فيكون المعنى إن الذي خلق لكم مما في الأرض مسخر لكم وهذا أخص من المعنى السابق، والظاهر من السياق الثاني في الأرض من أنواع المأكول والملابس والمشارب والمراكب والمساكن والمناجح وغيرها، في حال كون ما ذرأ مختلفاً ألوانه لا يشبه بعضها بعضاً، وذلك مما يزيد الخلق جمالاً والإنسان نشاطاً وانشراحاً إن في ذلك التسخير لما ذرأ دلالة واضحة على وجود الله وعلمه وقدرته لقوم يذكرون أصله يتذكر قلب التاء ذالاً ودخلت همزة الوصل عليه لتعذر الابتداء بالساكن فصار «اذكر» والتخصيص بهم لأن من سواهم لا ينتفع بهذه الآيات، ولعل الإتيان بلفظ «آية» هنا و «آيات» في الآية السابقة للتفنن في الكلام الذي هو نوع من أنواع البلاغة.

[١٥] وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ صَنْعَهُ وَ جَعَلَهُ بِحَيْثُ تَتَنَفَعُونَ بِهِ فِي حَوَائِجِكُمْ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ هُوَ السَّمَكُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَصْطَادُ السَّمَكَ الطَّرِيَّ مِنْهُ، فِي حَالِ أَنْ كَثِيرًا مِنَ اللَّحْمِ الَّتِي يَصْنَعُ مِنْهَا الْقَدِيدَ يَابَسَ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ الطَّعْمُ وَ الْمَذَاقُ وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً أَى لثَالِي وَ نَحْوَهَا مِمَّا يَسْتَعْمَلُ فِي الزَّيْنَةِ، وَ لَعَلَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠١

[سورة النحل (١٦): آية ١٥]

وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)

الإتيان بباب الاستفعال لما في الغوص من الطلب و الصعوبة تلبسونها تلبسون تلك الحلية المستخرجة من البحر، فمن جعل البحر بحيث يعطى هذه الأشياء؟ و من ذلله لكم حتى تتمكنون من الاقتراب منه و الغوص فيه و الاصطياد لأسماكه؟ و ترى أيها الإنسان الفلّك و هي السفن فإن فلّك على وزن قفل مفرد، و الفلّك على وزن أسد «جمع أسد» جمع، و الثاني هو المراد هنا بدليل وصفها بقوله سبحانه مواخر جمع «ماخرة» على وزن «طالبة» و «طوالب» من المخر، يقال مخرت السفينة الماء أى شقته عن يمين و شمال، و اسم الفاعل «ماخرة» فيه أى فى البحر، فمن جعل الماء بحيث لا تغرق فيه السفينة الثقيلة، بل تتمكن من شقه و الوصول إلى المحلات البعيدة بواسطته؟

وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِمَّا عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ «لتأكلوا» أى سخر لكم البحر «لتأكلوا» و لتبتغوا، و إما عطف على مقدر أى «و ترى الفلّك مواخر فيه لتركبوا و لتبتغوا» و المعنى أنه جعل البحر كذلك بحيث يحمل السفن الماخرة لتطلبوا من فضله سبحانه بالتجارة و الاكتساب لصاحب السفينة بالإيجار و الراكبين بالتجار، و تسمى النعمة فضلا، لأنها زيادة على سائر الأنعام، و لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى لكى تشكروا الله سبحانه، فإن غاية خلق الأشياء للإنسان أن يشكروا فيستحقوا بذلك الثواب.

[١٦] وَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ جَمْعَ رَاسِيَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَ عَلامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَ فَلَآ تَذَكَّرُونَ (١٧)

و هي الجبل، أى جعل جبلا عالية ثابتة، و التعبير بالإلقاء تعطى صورة طريفه عن ثقلها و شدتها و طأتها، ل أن لا تَمِيدَ من ماد بمعنى مال يمينا و شمالا بِكُمْ أى معكم، يعنى أنه سبحانه جعل فى الأرض الجبال لئلا تتحرك الأرض بكم يمينا و شمالا فلا يكون لكم قرار و استقرار فإن الجبال تحفظ توازن الأرض، فهي كالمسامير فى الألواح المتصلة بعضها ببعض، لولاها لتفككت الأرض - من جهة- و لمالت إلى هنا و هناك بفعل الجاذبيات - من جهة أخرى-.

وَ جعل فيها أنهاراً فمن يا ترى خلق الأنهار التى ينتفع بها الإنسان فى بقاءه و عمارته و زراعته و سائر لوازمه؟ وَ جعل فيها سُبُلًا أى طرقا للسير من هنا إلى هناك لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أى لكى تروا تلك الآيات فتهدتوا إلى وجود خالقها و جاعلها.

[١٧] وَ جعل لكم فيها علاماتٍ معالمٍ يهتدى بها للطرق من جبال و ترع و مرتفعات و منخفضات فإن الإنسان يهتدى بها إلى مقاصده أو المراد أنه سبحانه جعل العلامات بصورة عامه كعلامات الصحة و المرض و الجيد و الزدىء و العلامات الفارقة لجنس من جنس و هكذا وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فجعل علامات فى الأرض و علامات فى السماء يهتدى بها السالكون، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟

[١٨] و إذ ينتهى السياق من ذكر جملة من الآيات الكونية، يلتفت إلى البشر ليوقظه من رقدته و ينبهه على خطئه فى اتخاذ الشركاء مع الله سبحانه أَ فَمَنْ يَخْلُقُ وَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ الَّذِي تَقَدَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَ إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (١٩)

و لغيرها كَمَنْ لَا يَخْلُقُ شيئا، كالأصنام و الأوثان؟ و من الطبيعى الجواب: بأنهما ليسا بمتساويين أَ فَلَآ تَذَكَّرُونَ هذه الحقيقة؟ فكيف تجعلون من لا يخلق شريكا مع من يخلق، و تعبدوهما على حد سواء؟

[١٩] إن ما تقدم ذكره من النعم إنما هى جملة من الأمور التى خلقها الله سبحانه لمنافعكم، أما جميع نعمه فهى خارجة عن قدرتك

على إحصائها و إن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ أَى تَرِيدُونَ تعدادها و إحصاءها لا تُحْصُوهَا لا تقدرُونَ على العَدِّ و الإحصاء لكثرتها الخارجة عن طرق عَدِّكم كيف و قد ذكر العلم أن ملايين الأعصاب موجودة في جسم الإنسان و من المعلوم أن كل عصب نعمة و هكذا و هلم جرا إلى ما لا يحصى من النعم، و لعلّ الإتيان ب «نعمته» مفردة لمراعاة نكتة لفظية هي أن العَدِّ لنعمة نعمة متعذر و أما عد «النعم» جملة جملة فلا تتعذر إنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ لَكُمْ فى عدم شكر النعم، فإن الإنسان مهما شكر فهو مقصر فى الشكر كما قال الإمام عليه السلام: «و لا يؤدى حقه المجتهدون»

«١» رَجِيمٌ يرحمكم بالأنعام عليكم و إن لم تؤدوا شكرها.

[٢٠] و هنا تأتي بعض المقارنات بين الله سبحانه، و بين ما زعموه من الآلهة، بمناسبة السياق مع قوله «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ» وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ أَى ما تفعلونه فى السِّرِّ وَ مَا تُعْلِنُونَ أَى ما تفعلونه

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٠ الى ٢٢]

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)

فى العلانية فهل الأصنام كذلك؟ إنها- كما يأتى- «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» فكيف تعلم شيئا؟ و إذ يعلم سبحانه كل سر و جهر فإنه يجازى بكل ما يصدر من الإنسان فى خفاء أو ملاء.

[٢١] وَ الأصنام الَّذِينَ إِنَّمَا جِئَءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ لَزَعْمِ الْقَوْمِ أَنَّهَا تَعْقِلُ يَدْعُونَ أَى يدعونها المشركون مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الأصنامِ وَ الأوثانِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا فهل هم كمن خلق كل الأشياء؟ وَ هُمْ يُخْلَقُونَ فَإِنَّ الأصنامِ مخلوقة لله سبحانه، أولا، ثم منحوتة للناس ثانيا! [٢٢] إنها أَمْوَاتٌ لَا حَيَاةَ لَهَا، فَإِنَّ الْمَوْتَ يَطْلُقُ لَهَا مِنْ شَأْنِهِ الْحَيَاةَ، وَ لَهَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ الْحَيَاةَ- إِذَا قُبِلَ مَعَ الْحَيِّ- غَيْرُ أَحْيَاءٍ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِذَلِكَ لِإِفَادَةِ أَنَّهَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِطْلَاقًا، فَلَيْسَتْ حَتَّى كَالْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ الَّذِى لَهُ حَيَاةٌ بَرَزِيَّةٌ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَى ما تشعر تلك الأصنام أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أَى فى أَى وقت يكون بعثها و نشورها، و هذا للمقابلة و إلا فليس للأصنام بعث بالمعنى الواقعى، و الحاصل أن ما هو ميت لا يقدر على حس و حركة، و من هو لا- يعلم حتى يبعث كيف يكون إليها، و الحال أن الإله يجب أن يكون حيا حتى يكون خالقا مدبرا، و يجب أن يعلم متى يبعث المخلوقين للجزاء و الحساب؟

[٢٣] و إذ تقرر أن هذه الأصنام لا تكون آلهة ف إِلَهُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ إِلَهٌ وَاحِدٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

لَا جِرْمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لَا شَرِيكَ لَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ طَبْعًا مِنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِلَهِ الْوَاحِدِ، وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) دَخَلَتْ الْفَاءُ فِى «فَالَّذِينَ» فَهُوَ كَقَوْلِكَ زَيْدٌ عَالِمٌ، فَمِنْ نِيَّاتِهِ يَكُونُ كَذَا، لِلتَّلَازُمِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَ لَزُومِ الْإِحْتِرَامِ. قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ جَاحِدَةٌ لِلْحَقِّ، فَلَيْسَ مَرَضُهُمْ سَطْحِيًّا قَابِلًا- لِلْعَلَّاجِ، وَ إِنَّمَا الدَّاءُ كَامِنٌ فِى قُلُوبِهِمْ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ الْإِسْتِكْبَارُ طَلَبُ التَّرْفَعِ- لِمَنْ لَيْسَ رَفِيعًا- فَهُمْ يَتَرَفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْإِذْعَانِ بِلَا حَقٍّ أَوْ حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ وَ إِنَّمَا مَانِعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ الْكِبَرُ وَ الطُّغْيَانُ.

[٢٤] لَا- جِرْمَ أَى حَقًّا، مِنْ جَرْمٍ «بَابِ ضَرْبٍ» بِمَعْنَى قَطْعٍ، يُقَالُ جَرَمَ الشَّيْءُ أَى قَطَعَهُ وَ مِنْهُ «الْجَرْمُ» كَأَنَّهُ قَطَعَ لِرُوبِاطِ الْجَمَاعَةِ، فِى «لَا جَرْمٍ» يَعْنِى لَا- قَطْعٍ، وَ إِنَّمَا الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَ لِذَا يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى لَا بَدَّ وَ لَا مَحَالَةَ، وَ كَثِيرًا مَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مَعْنَى الْقِسْمِ، يُقَالُ «لَا جَرْمَ

لأفعلن» أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ يفعلونه سرا و ما يُعْلِنُونَ أى يفعلونه علنا، فهو عالم بجميع أعمالهم فيجازيهم على ما ارتكبوا من الآثام إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُشْكِرِينَ الذين يتكبرون و يأنفون اتباع الأنبياء، و عدم محبة الله يلازم كرهه و غضبه.

[٢٥] إنهم لا يؤمنون بالله، و لا بالمعاد، أما بالنسبة للرسالة فمن الطبيعي أن ينكرونها بعد إنكارهم لدينك الأمرين و إذا قيل لهم أى للمشركين عبدة الأصنام ما ذا أنزل ربكم يريد السائل أن يستخبر اعتقادهم حول القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٦

[سورة النحل (١٦): آية ٢٥]

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥)

و هل أنهم يعتقدون به أم لا-؟ قالوا فى الجواب أساطير الأولين جمع أسطورة، أى قصصهم الخيالية الوهمية فقد كانوا يقولون عن القرآن إنه خرافات القدماء لا- حصه له من الحقيقة و الواقع، و ليس المراد لهم أنه منزل من عنده سبحانه لأنهم ينكرون الإله، و ينكرون ما أنزل، و إنما يريدون رمى القرآن بالخرافة و الأسطورة، و قد كان أحدهم يقول: إن محمدا يأتيكم بأخبار أنبياء الروم- يريدون الأنبياء المبعوثين حول الشام، فقد كان الشام يومئذ من ممتلكات الروم- و إنما أتيتكم بأخبار ملوك الفرس، ثم يقص عليهم قصصا وهمية من الأكاسرة و من إليهم.

[٢٦] و إنما كان هؤلاء المشركون يكفرون بالله و المعاد و الرسالة ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة اللام للعاقبة، نحو (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» فإن قصد أولئك ليس حمل الأوزار، و إنما عاقبه تكذيبهم أن يحملوا ذنوبهم- فإن الوزر بمعنى الذنب- كاملة بلا- نقص فى يوم القيامة فإن من لا إيمان له يحمل ذنبه كاملا بخلاف من له الإيمان فإنه ينقص من ذنبه و يعفى عنه لمكان إيمانه و يحملون هؤلاء الكفار- الرؤساء- فى يوم القيامة، بالإضافة إلى أوزار أنفسهم من أوزار أى بعض ذنوب الذين يضلونهم من أتباعهم، فإن الرؤساء سبب إضلال الأتباع، و إنما يحملون بعض ذنوب أولئك مما صار الرؤساء السبب أما غيرها من سائر ذنوبهم، كما لو قتلوا إنسانا أو شربوا خمرًا، أو ما أشبه مما لا يرتبط بهؤلاء الرؤساء فهم المسؤولون عنها دون الرؤساء بغير علم

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٧

[سورة النحل (١٦): آية ٢٦]

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)

أى أن إضلالهم كان بغير علم إذ إن الرؤساء لم يعلموا بصحة عبادة الأصنام و مع ذلك دعوا الناس إليها، و هذا لزيادة تفرعهم، إذ كيف يجوز لهم أن يدعوا الناس إلى شىء هم لا- يعلمون صحته؟ ألا- فلينتبه السامع ساء ما يزرون أى بنس الحمل حملهم لأوزار أنفسهم و بعض أوزار أتباعهم، فإن ذلك موجب للعذاب و العقاب.

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئا و أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا «١»

[٢٧] و إذ سبق أن المشركين يقولون عن القرآن أنه أساطير الأولين، و بطبيعة الحال إنهم يمكرون و يحتالون لإخماد صوت الأنبياء، فليعلموا، و يعلم معهم غيرهم أن لا- محصيل لمكرهم و لا- نجاح لخططهم ف قد مكر الذين من قبلهم من الكفار و دبروا المؤامرات لإبطال الدين، و إخماد صوت المرسلين فآتى الله بنيانهم أى توجه سبحانه نحو بنائهم، و المراد بالبنيان، ما بنوه من المكر و الحيلة، تشبيها بالبنية الخارجية من القواعد أى من أسسه، كالذى يهدم بناء بهدم أساسه و أصله فقد أبطل سبحانه أصل حيلتهم و مكرهم.

فَحَرَّ عَلَيْهِمْ أى سقط على الكفار السقف أى سقف بنيانهم

(١) المستدرک: ج ١٢ ص ٢٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٨

[سورة النحل (١٦): آية ٢٧]

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)

مِنْ فَوْقِهِمْ فَلَمْ يسْقِطْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، فَإِنَّ السَّقْفَ قَدْ يسْقِطُ لَكِنْ عَلَى جَانِبِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَتَأَذَى مِنْهُ كَثِيرًا، أَمَا إِذَا سَقَطَ مِنْ فَوْقِهِ، طَبَقَهُ، مِمَّا يُوْجِبُ هَلَاكَهُ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ أَى عَذَابِ الْهَلَاكِ تَحْتَ السَّقْفِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ إِذْ كَانُوا يزْعُمُونَ أَنَّ بِنْيَانَهُمْ قَوِيٌّ مُحْكَمٌ، فَكَانَ احْتِمَالُهُمْ لِلْهَلَاكِ مِنْ نَاحِيَةٍ خَارِجِيَةٍ غَيْرِ جِهَةِ بِنْيَانِهِمْ، فَإِذَا بِالْبِنَاءِ الَّذِي بَنَوْهُ لِيَكُونَ لَهُمْ مَلْجَأٌ وَمَحْتَمَى صَارَ قَبْرًا لَهُمْ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَبْنِي الْبِنَاءَ ثُمَّ يَحْبِسُ فِيهِ لِيَسْتَرِيحَ، لَكِنْ شَخْصًا يَأْتِي وَيُهْدِمُ الْبِنَاءَ مِنْ أَسَاسِهِ حَتَّى يَقَعَ السَّقْفُ عَلَى الْبَانِي، إِنَّ هَذَا مِثْلَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَهُمْ يَمْكُرُونَ لِإِخْمَادِ صَوْتِ الْحَقِّ، حَتَّى إِذَا ظَنُّوا أَنَّ مَكْرَهُمْ قَدْ اسْتَحْكَمَ وَأَنَّهُمْ يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ ظِلِّهِ، فَلَا يَلْفَحُهُمُ الدِّينُ، دَبَّرَ سَبْحَانَهُ مَا يَهْدِمُ مَكْرَهُمْ مِنْ أَصْلِهِ، فَإِذَا بِهِمْ يَنْكَشِفُونَ لِلْمَجْتَمَعِ بِصُورَتِهِمْ الْبَشْعَةَ، وَقَدْ تَعَالَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَعَلَا صَوْتُ الْحَقِّ، حَيْثُ ذَهَبَ الْكُفَّارُ وَمَكَانُهُمْ أَدْرَاجُ الْخُسْرَانِ وَالْهَلَاكِ، وَكَثِيرًا مَا يَأْخُذُهُمْ عَذَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ إِنَّهُمْ غَافِلُونَ غَيْرَ شَاعِرِينَ.

[٢٨] هذا حال من مكر بالأنبياء عليهم السلام في الدنيا، أما حالهم في الآخرة ثم بعد الدنيا يوم القيامة يُخْزِبُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَيَذْلَهُمْ وَيُفْضِحُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ وَيَقُولُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الْمُوْهُومُونَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَهُمْ مَعِيَ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَائِيَ فِي الْخَلْقِ وَالْعِبَادَةِ وَسَائِرِ شُؤْنِ الْأَلْوَهِيَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٩

[سورة النحل (١٦): آية ٢٨]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ تَعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ أَى بِسَبَبِهِمْ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا يَعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ آلِهَةً، فَهُمْ لِأَجْلِ الْجَمَادَاتِ الصَّمِّ الْبِكْمِ كَانُوا يَعَادُونَ إِخْوَانَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَلَا يَجِدُ الْكُفَّارَ جَوَابًا فَقَدْ تَكْشِفُ لِدِيهِمُ الْأُمُورَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَهَذَا يَتَعَرَّضُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْجَوَابِ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأئِمَّةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالصَّالِحِينَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ الْفَضِيحَةَ وَالْعَذَابَ، فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، فَإِنَّ الشَّمَاتَةَ تَوْثِرُ فِي النَّفْسِ مَا لَا يُوْثِرُ الْعَذَابُ فِي الْجِسْمِ.

[٢٩] و إذ رأينا أحوال الكافرين في دنياهم حيث «أتاهم العذاب» و في آخرتهم حيث لهم الخزي و السوء، فلننظر إلى أحوالهم حال النزح و عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الآخرة، فها هم الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ أَى تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أَى فِي حَالِ كَوْنِ أَوْلَيْكَ الْكُفَّارَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، بِأَنَّ عَصَا فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَ الْهُوَانَ، وَ النَّوْنَ مِنْ «ظَالِمِي» مَحْذُوفٌ لِإِضَافَتِهِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ.

فَأَلْقَوْا السَّلَمَ أَى أَظْهَرُوا أَوْلَيْكَ الْكُفَّارَ الْمَسَالِمَةَ، وَ هُوَ تَشْبِيهِ بِمَنْ يَلْقَى شَيْئًا، لَكِنْ الْإِلْقَاءُ هُنَا مَعْقُولٌ كَمَا يَقَالُ «فَلَانٌ يَلْقَى الْخَطَابَةَ» فِي مِقَابِلِ الْإِلْقَاءِ الْمَحْسُوسِ نَحْوِ «أَلْقَى عَصَاهُ» ثُمَّ ... مَاذَا هُوَ السَّلَمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)

الذى يلقونه؟ إنه قولهم ما كنا نعمل من سوء فقد أنكروا عند الملائكة كفرهم وعصيانهم فى دار الدنيا و ظنوا أن الملائكة كالحكام فى الدنيا يتمكن المراوغ إنكار ما سبق من جرمه عندهم، وإن إنكارهم يفيدهم وقد تستمر هذه المراوغه بهم حتى فى الآخرة يأتون حالفين لله قائلين (وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» إذ يأتى الجواب (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) «٢» و هنا عند قبض الروح يأتى الجواب بلى إنكم كنتم تعملون السوء إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من المنكرات و المعاصى و الكفر و الشرك، و لا- ينفعكم الإنكار.

[٣٠] فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ كُلَّ صَنَفٍ مِنْ بَابِهِ الْخَاصَّ بِهِ خَالِدِينَ فِيهَا أَى فى حال أنكم تخلصون فيها و تبقون هناك أبداً الأبدى فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ أَى بئس منزلهم، فإن مَثْوَى، محل من «ثوى» بمعنى اتخذ محلاً- و مكاناً، و قد كان هؤلاء الكفار متكبرين يستكبرون و يترفعون عن الإذعان لله و رسوله و الأحكام.

[٣١] و إذ رأينا الحوار بين السائلين و بين الكفار و ما صاروا إليه أخيراً من الخلود فى النار، فلننظر إلى المحاوره بين السائلين و بين المؤمنين وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَى للمؤمنين الذين اتقوا معاصى الله سبحانه، و القائل لهم الأنبياء أو الملائكة أو الأئمة أو نحوهم

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) الأنعام: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١١

[سورة النحل (١٦): آية ٣١]

جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)

ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ هل أنه صدق أو كذب خير أم شر؟ قالوا فى الجواب أنزل خيراً فإن القرآن خير و سعادةً للدنيا و الآخرة، ثم يفصلون أنه كيف يكون خيراً، قائلين لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْإِيمَانَ و الأعمال فى هذه الدُّنْيَا حَسَنَةٌ أَى لهم مكافأة حسنة، فإن الإيمان موجب لاطمئنان القلب و سعادة الحياة، لأنه بما يقرره من المناهج يضمن خير الإنسان و سعادته.

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ لَمَنْ آمَنَ و اتقى خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا، لأن نعيمها لا يشوبه الكدر، و ليس له زوال و اضمحلال بخلاف دار الدنيا و لَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ أَى و الآخرة نعم دار المتقين الذين اتقوا الكفر و المعاصى، و هذا تأكيد لقوله «خير».

[٣٢] جَنَّاتٍ عَدْنٍ بدل عن «دار» و الجنة هى البستان، و عدن بمعنى الخلود، من عدن بالمكان أَى أقام فيه و منه «المعدن» لأنه المقيم فى الأرض يَدْخُلُونَهَا أَى يدخل المتقون تلك الجنات تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ من تحت قصورها و أشجارها لَهُمْ أَى للمتقين فيها أَى فى تلك الجنات ما يَشَاءُونَ من المملذات كائنه ما كانت، اما ما يستحيل فإنهم لا يشتهونه كَذَلِكَ الذى تقدم من الخلود فى الجنات و لهم ما يشتهون يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الذين يتقون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ و لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)

الكفر و المعاصى.

[٣٣] هذه آخرة المتقين، و تلك دنياهم، فلننظر وقت انتقالهم من الدنيا إلى الآخرة، كما نظرنا إلى حال الكفار حال الانتقال الَّذِينَ

صفة «المتقين» تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ أى تقبض أرواحهم ملائكة الرحمة بأمر الله سبحانه طَيِّبِينَ أى حال كونهم طيبى القلوب و الأعمال، لم يظلموا أنفسهم و لا- أحدا غيرهم يَقُولُونَ أى تقول الملائكة لهم عند الوفاة سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فأنتم فى سلام من كل سوء و مكروه اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

فقد ورد أن من مات قامت قيامته، و أن القبر للمؤمن روضه من روضات الجنان «١»، و لذا يصح أن يقال لهم حال الفزع ادخلوا الجنة.

[٣٤] و إذا تم السياق فى المقابلة بين حال المؤمنين و حال الكافرين فى الدنيا و عند الفزع و فى الآخرة، رجع إلى الحوار مع المشركين و الاحتجاج عليهم و بيان عقائدهم و أقوالهم و أعمالهم هَيْلٌ يَنْظُرُونَ أى هل ينتظر هؤلاء الكفار إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لقبض أرواحهم، إنه استفهام إنكارى، أى ما ينتظر هؤلاء الكفار شيئاً إلا الموت، فقد تمت عليهم الحجة، و بانت لديهم المحجة، فإنهم معاندون لا يستعدون للإيمان، و إنما ينتظرون أن تأتيهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم أو يَأْتِيَ أَهْرَ رَبِّكَ

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَ قَالَ الَّذِينَ أَسْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)

ياهلا-كهم بعذاب الاستئصال كَذَلِكَ أى كفعل هؤلاء الذين لا يؤمنون حتى يموتوا أو يعذبوا فَعَلَ الكفار الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فإنهم لم يؤمنوا بالرسول، حتى جاء أمر الله ياهلا-كهم و تدميرهم و ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ حيث أهلكهم و أرسل عليهم العذاب وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالكفر و العصيان و كان العذاب جزاء أعمالهم، كالقطع الذى يصيب السارق فإنه جزاء سرقة لا أن القاضى ظلمه.

[٣٥] فَأَصَابَهُمْ أى وصل إلى أولئك الذين من قبلهم من الكفار سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا أى عقاب أعمالهم و سمي العقاب سيئة لأنه يسيئ إلى الشخص، و للتجانس اللفظى كقوله سبحانه (وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) «١» وَ حَاقَ بِهِمْ أَحَاطَ بِهِمْ و وصل إليهم ما كانوا أى العذاب الذى كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أو المراد نتيجة استهزاءهم و عاقبة سخرتهم.

[٣٦] ثم يأتى السياق ليبين مقوله جديدة من مقالات المشركين، إنهم فى هذه المرة يتفلسفون ناسبين كفرهم و أعمالهم السيئة إلى إرادته سبحانه وَ قَالَ الَّذِينَ أَسْرَكُوا بَأْنَ جَعَلُوا مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ نَعْبُدَ وَحْدَهُ وَ لَا نَتَّخِذَ مَعَهُ شَرِيكًا مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ مِنْ

(١) الشورى: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٤

الأصنام و الأوثان، فإننا حين نرى أنا عبدناها علمنا أن الله أراد عبادتنا لها، إذ لو لم يرد عبادتنا لها لمنعنا عن ذلك بالجبر. نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا بدل عن الضمير فى «عبدنا» أى لم نكن نعبد نحن و آباءنا، الأصنام لو لم يرد الله وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ أى لو شاء الله عدم تحريمنا للسانة و البحيرة و غيرهما لمنعنا عن ذلك، فلم نكن لنحرم شيئاً من دون إرادته و رضاه، فقد اعتقدوا الخرافة و عملوا المعاصى، و نسبوها إلى الله سبحانه حين قيل لهم أنهم على باطل و أن أعمالهم توجب السخط و العقاب كَذَلِكَ أى كفعل هؤلاء فى الكفر و العصيان و نسبة أعمالهم إليه تعالى فَعَلَ الكفار الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و إنما قال «فعل» مع أن الاعتقاد ليس فعلاً؟ للتغليب، أو لأن الكلام كان فى العبادة، و هى فعل، و لقد كان كلامهم من السخافة بحيث لا يستحق الجواب، فهل سبحانه يجبر أحدا

على عمل؟ إنه خلاف العقل والوجدان، وإلا لارتفعت جميع القوانين وكان المجرم كالمحسن، وبطلت الحكومات والأقضية فهل على الرّسول إلاّ البلاغُ المُبينُ استفهام إنكارى، أى ليس على الرسل إلا- أن يبلغوا أوامر الله سبحانه بكل جلاء ووضوح ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وإن هذا هو اللازم فى اللطف أن يبعث الله رسولا مبينا، أما أن يمنع العاصى بالجبر والإكراه فإنه خلاف العقل والبرهان، وإلا كان الإنسان كآله صماء لا فرق بينه وبين الحديد المسير فى جهاز متحرك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٥

[سورة النحل (١٦): آية ٣٦]

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦)

[٣٧] وكيف يشاء سبحانه الكفر والمعاصى، والحال أنه قد بعث الأنبياء والرسل لإرشاد الناس وهدايتهم ولقد بعثنا أى أرسلنا فى كل أمة رسولا كما بعثناك يا رسول الله إلى هؤلاء، ليقول لهم الرسول أن اعبدوا الله وحده لا شريك له واجتنبوا الطاغوت أى لا تطيعوه، والمراد بالطاغوت، الشىء الكثير الطغيان من شيطان أو إنسان أمر بالقبيح، ويستعمل الطاغوت فى الآلهة الحجرية مجازا بالمشابهة، لأنها تعبد كما يعبد الرؤساء والشياطين كما قال سبحانه: (اتخذوا أخبارهم وذهبانهم أربابا) «١» فمنهم أى بعض تلك الأمم من هدى الله أى هداه سبحانه إلى الإيمان بأن لطف به الألفاظ الخفية حتى استقام على الطريق بعد أصل الإيمان وقد كان ذلك بمعنى الهداية المتوسطة بين الهداية التى هى إرائة الطريق، والهداية التى هى الإيصال إلى المطلوب، فإن الإنسان إذا أراه الله سبحانه الطريق فسار عليه، لطف به ألقافا خفية، كما قال سبحانه: (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبيلنا) «٢» ومنهم أى بعض تلك الأمم من حققت عليه الضلالة أى ثبتت عليه وألزمته، لأنه أعرض عن الرشد فانحرف حتى صارت الضلالة من ملازماته فسببوا أيها الناس فى الأرض إلى هنا

(١) التوبة: ٣١.

(٢) العنكبوت: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٦

[سورة النحل (١٦): آية ٣٧]

إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

وهناك لتعتبروا بآثار الأمم السابقة فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين الذين كذبوا الرسل، فإنكم ترون بلادهم خالية وآثارهم دارسة، وقد جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد كما قال سبحانه: (كم تركوا من جنات وغيون وزروع ومقام كريم ونعمية كانوا فيها فاكهين) «١» ومن غريب الأمر أنا نرى ذلك فى غالب البلاد والأصقاع فعندنا خرائب «بابل» و«سامراء» و«أطراف» «الطاق» ببغداد.

[٣٨] وإذ قد جرت سنة الله سبحانه أن يترك الضال فى غوايته لا يلفظ به الألفاظ الخفية، كما كان سابقا حال الأمم الخالية كذلك فهذه الأمة أيضا كتلك إن من ضل وحاد عن الطريق لا ينفعه اهتمام الرسول بإيمانه ف إن تحرض يا رسول الله و تتعب نفسك على هدايتهم أى على أن يهتدوا ويؤمنوا فإن حرصك لا ينفع إذ إن الله لا يهدى من يضل أى لا يلفظ بمن تركه ليضل - كما شاء هو - بعد أن أراه الطريق فلم يقبل، كالأب الذى لا يعتنى بولده إذا رآه لا يطيع أوامره، فنقول لمن حاول الإصلاح بينهما: لا تفعل فإن الأب لا يلفظ بهذا الذى تركه ولم يعتن له وما لهم أى لأولئك الضالين من ناصرين ينصرونهم ويخلصونهم من عذاب الله وانتقامه.

(١) الدخان: ٢٦-٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٧

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)

[٣٩] و لقد كان الكفار ينكرون البعث و يجادلون لنفيه، و حيث يعجزون عن الإتيان بالحجة يلتجئون إلى الحلف، كشأن العاجزين في مقام الاحتجاج و الدليل وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَى حلف هؤلاء الكفار بالله سبحانه جهداً أَيْمَانِهِمْ مجتهدين في أيمانهم قد بلغوا في اليمين مبلغ التأكيد بما قدروا عليه، فإن «جهداً» مصدر وضع موضع الحال، و التقدير «يجتهدون اجتهاداً في أيمانهم» مثلاً قالوا «و اللات و عزی و مناه و كل مقدساتنا ..» لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ أَى لا يحييه للحساب و الكتاب و الجزاء، و قد كذبهم سبحانه بقوله بلى ليس الأمر كما تقولون بل يبعثهم الله جميعاً، و قد وعد الله ذلك و عِدًّا يكون ذلك الوعد عَلَيْهِ أَى على الله حَقًّا ليس له خلف، فإن المخلف لا يكون إلا جاهلاً أو عاجزاً أو خبيثاً و الله سبحانه منزّه عن ذلك كله وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ البعث، لكفرهم بالله، و عدم إيمانهم بالأنبياء المخبرين.

[٤٠] و إنما يبعث الله الخلاق، و يحشرهم للجزاء و إلا لكان ظلم الظالم الذي لم ينتقم منه في الدنيا خلاف عدله سبحانه، فإنه كيف أمكن الظالم من الظلم و هو قادر على دفعه، بلا جزاء شىء للظالم، و لا جزاء حسن للمظلوم، و فى يوم الجزاء يبين الله لَهُمْ أَى للناس الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ من العقائد و الأعمال، فيقول عمل فلان كان حَقًّا، و عمل فلان كان باطلاً، و هكذا، و البيان، كناية عن الجزاء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)

لأنه إنما يقع بعد البيان، كما تقول للمجرم: سأعلمك غداً، تريد إنك تجزيه بإجرامه وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فى كفرهم بالله، و إنكارهم للبعث، و جحدهم الأنبياء، يعلمون كذبهم فيجازون عليه.

[٤١] و لقد كان أكبر حجج المنكرين للبعث أنه غير ممكن، فكيف يمكن أن تعود العظام الرميم إنساناً سوياً؟ (قال مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ) «١»؟

و لذا ردهم سبحانه بقوله: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَإِنَا نَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ بِمَجْرَدِ الْإِرَادَةِ الَّتِي تَجْلُو فِي كَلِمَةِ «كُنْ» و بمجرد هذا القول يكون ذلك الشىء المراد، فكيف لا نقدر على إحياء الأموات، و قد كان خلق الإنسان ابتداءً أصعب - فى نظر الناس - من إعادته، فهل نقدر على ذلك الأصعب و لا نقدر على الأسهل؟

[٤٢] أولئك الكفار تلك معتقداتهم و أعمالهم و جزائنا لهم و أما المؤمنون ف الَّذِينَ هَاجَرُوا دِيَارَهُمْ وَ بِلَادَهُمْ فِي اللَّهِ أَى فى سبيل الله و لأجل أمره و ابتغاء مرضاته فرارا بدينهم مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ظلمهم الكفار، كما كان أهل مكة يظلمون المسلمين و يؤذونهم، فهاجر قسم منهم إلى الحبشة و قسم إلى المدينة لَنَبُؤَنَّهُمْ أَى نعطيمهم مَبُوءً و منزلاً، نحو

(١) يس: ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)
(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) «١» فِي الدُّنْيَا دَارًا حَسَنَةً يَسْكُنُونَ فِيهَا بِكُلِّ هُدُوءٍ وَاطْمِنَانٍ.

وَأَجْرُ الْآخِرَةِ لَهُمْ جَزَاءٌ أَنْ ظَلَمُوا أَوْ شَرَدُوا أَكْبُرُ مِنْ حَسَنَةِ الدُّنْيَا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَى لَأَوْصَلَ عَمَلُهُمْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، لَعَرَفُوا أَنَّ ذَلِكَ الْأَجْرَ خَيْرٌ مِنْ أَجْرِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةُ لِيَبَانَ أَنَّهُمْ مَعَ إِيمَانِهِمْ بِالْبَعْثِ لَا يَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ بِذَلِكَ إِجْمَالًا،

وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمَعْذِينَ بِمَكَّةَ، مِثْلَ صَهَبٍ وَعِمَارٍ وَبَلَالٍ وَخَبَابٍ وَغَيْرِهِمْ مَكَّنَهُمُ اللَّهُ بِالْمَدِينَةِ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ صَهَبِيًّا قَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ: أَنَا رَجُلٌ كَبِيرٌ إِنْ كُنْتُ مَعَكُمْ لَمْ أَنْفَعَكُمْ وَإِنْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ لَمْ أَضْرِكُمْ فَخَذُوا مَالِي وَدَعَوْنِي فَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ وَهَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٤٣] ثُمَّ وَصَفَ سَبْحَانَهُ الَّذِينَ هَاجَرُوا بِقَوْلِهِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يَفُوضُونَ أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ شُؤْنُهُمْ إِلَى جَنَابِهِ سَبْحَانَهُ، وَلَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ لِإِفَادَةِ اسْتِمْرَارِهِمْ فِي التَّوَكُّلِ، وَإِنْ انْقَضَى صَبْرُهُمُ الَّذِي صَبَرُوهُ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

[٤٤] وَإِذْ قَابَلَ السِّيَاقَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ، رَجَعَ إِلَى الْاِحْتِجَاجِ مَعَ الْكُفَّارِ، فَقَدْ كَانُوا يَنْكُرُونَ أَنَّ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا فَقَالَ سَبْحَانَهُ

(١) الحج: ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٠

[سورة النحل (١٦): آية ٤٤]

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَى الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ إِلَّا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ، لَا مَلَائِكَةً وَلَا جِنًّا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَهَمُ بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ فِي الْخَلْقَةِ وَالطَّبِيعَةِ إِلَّا- أَنَّهُمْ، يَمْتَازُونَ بِالْوَحْيِ، وَهَذَا لِأَنَّ بَشَرِيَّةَ الْبَشَرِ، لَا مَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ فَسَيُتَلَوُّوا أَيُّهَا الْمُنْكَرُونَ لِبَشَرِيَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ الذِّكْرِ أَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ أَنْبِيَاءِهِمْ هَلْ كَانُوا بَشَرًا أَمْ غَيْرَ بَشَرًا؟.

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ كَانُوا بَشَرًا أَمْ لَا؟ وَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ هُمُ آلُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ مِنَ الْمَصَادِقِ الظَّاهِرَةِ لِأَهْلِ الذِّكْرِ الَّذِينَ يَجِبُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِمْ، حَيْثُ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ قَاعِدَةٌ كَلِيَّةٌ عَقْلَانِيَّةٌ مَقْرَرَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ، هِيَ سُؤَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْإِنْسَانُ، وَبَطْبِيعَةُ الْحَالِ يَجِبُ أَهْلَ الذِّكْرِ أَنْ مِنْ أَرْسَلَ سَابِقًا كَانُوا بَشَرًا، حَتَّى الْمَسِيحِيُّونَ الْمَأْلُوهُونَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَنْكُرُونَ بَشَرِيَّةَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ كَادَمَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَغَيْرِهِمْ.

[٤٥] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ مُتَعَلِّقٌ بِ«نُوحِي إِلَيْهِمْ» أَى كُنَّا نُوحِي إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ السَّابِقِينَ بِالْأَدْلَةِ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ، وَالزُّبُرِ «الْكِتَابِ الْمَتَفَرِّقَةِ» مِنْ زُبُرٍ بِمَعْنَى كِتَابٍ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِأَرْسَلْنَا، أَى «مَا أَرْسَلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ إِلَّا رِجَالًا» وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الذِّكْرَ أَى الْقُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مَذْكُورٌ بِاللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٥ إلى ٤٦]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦)

سَبْحَانَهُ، بَعْدَ مَا نَسِيَهُ الْإِنْسَانُ، وَالذِّكْرَ يُشِيرُ إِلَى مَا أُوْدِعَ فِي فَطْرَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ سَبْحَانَهُ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى

المعارف، و ما فرضه سبحانه عليهم من الأحكام و لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أى لكي يتفكروا فى الآيات الكونية، فإن الإنسان إذا ألفت إلى شىء أخذ يفكر حوله، و الحاصل إن الإنزال لسببين تبيينك للناس، و تفكرهم.

[٤٦] ثم يعد سبحانه المشركين و العصيين بالعذاب إن تمادوا فى كفرهم و غيهم فأَمِنَ الَّذِينَ مَكَّروا السَّيِّئَاتِ أى عملوها، و المراد دبروا المكائد لإخماد صوت النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هدم الإسلام أن يَحْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون و الاستفهام تهويلى جىء لبيان أنه يلزم عليهم أن يحتملوا ذلك أو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بإنزال صاعقه عليهم، أو غلبه النبى عليهم فى حرب فجائيه، فيقتلون و يؤسرون.

[٤٧] أو يَأْخُذُهُمُ اللَّهُ فِي تَقَلُّبِهِمْ أى فى حاله من حالات تحوّلهم من هنا إلى هناك، أو من عمل إلى عمل، فى ليل أو نهار، بأن يميتهم موت فجأة فما هم بِمُعْجِزِينَ لا يتمكنون من تعجيز الله حتى لا يقدر عليهم، فإنه سبحانه لا يمتنع عليه شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّيُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)

[٤٨] أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ منهم أى فى حال يقظة و حذر، فإن التردد و الحذر لا ينفع فى الفرار من عذاب الله سبحانه فَإِنَّ رَبَّكُمْ أيها البشر لَرُؤُوفٌ بكم رَحِيمٌ حتى بالعاصين أنه مع قدرته لا يفعل بكم ذلك لكي تتوبوا و تعودوا، فإن قطعتم الصلة تماما، و ما بقى فيكم رجاء عود، فإن هناك يحل العقاب و لا يفيد كونكم من حضر، أو سفر، فى غفلة أو تخوف، و من غريب أمر الإنسان أنه مع ما يرى من أحوال الأمم السابقة و ما يحلّ بمن حوالبه من العذاب و النكال، يسدر فى غيّه و لا يرعوى عن ضلاله و إثمه! [٤٩] إن كل ما فى الكون يوحى بالإيمان فكيف لا- يؤمن هذا الإنسان؟ و كل ما فى الكون يوحى بقدره الله و إرادته الشاملة، فكيف لا- يخاف الإنسان قدرته و بطشه و يسدر فى غيّه؟ أَوْ لَمْ يَرَوْا أى أليس قد رأى هؤلاء الكفار إلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ من حجر أو شجر أو إنسان أو حيوان أو غيرها يَتَفَتَّيُوا من الفىء، و هو الظل الراجع بعد ما فى الشمس، فالظل بعد الظهر يسمى فيئا، و قبل الظهر لا يسمى ذلك ظلاله أى ظل ما خلق الله من شىء، يعنى يتراجع ظل كل شىء عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ أى عن الطرفين، فهذا ظل يمتد و يتناول نحو اليمين فيما إذا طلعت الشمس، و ذلك ظل يمتد و يتناول نحو اليسار فيما إذا مالت الشمس عن دائرة نصف النهار، و مشهد الظلال مشهد مثير يوحى بمعنى الحياة المتحركة، فالظل يمتد و يتقلص و ينعدم دلالة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٣

على حركة الكون دائما سريعا، فمن يا ترى سخر هذا المتحرك ليسير من هنا و هناك؟ أو ليس هناك إله له؟ أو ليس أن الإله الذى يحرك هذا الفلك العظيم و سيع القدرة و يقدر على كل شىء؟

و لعل ذكر «اليمين» مفردا و «الشمال» جمع «شمال» جمعا، لنكتة معنوية هى أن الخير من جنس واحد، فهو كالواحد، دون غيره فهو كأجناس، فاليمين لأنه أشبه بالخير جاء مفردا، و الشمال لأنه أشبه بمقابله جاء جمعا، كما قال سبحانه: (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) «١» و (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) «٢» و كما نشاهد من أن الراحة شىء، و الأتعاب أشياء، و الصحة شىء و الأمراض أقسام، أو لأن الفىء دائما يفىء نحو الشمال، فإن الشمس إذا طلعت وقع لكل شاخص ظل طويل نحو المغرب، فياخذ فى النقصان قليلا قليلا، إلى أن يبلغ ناحية المشرق و هكذا يرجع حتى تغرب الشمس فكل هذا حركة للظل نحو الشمال، فالحركة نحو اليمين مرة واحدة و نحو الشمال طول اليوم سَجْدًا جمع ساجد، أى أن تلك الأشياء كلها بظلالها خاضعة لله كما قال سبحانه فى آية أخرى: (وَ ظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) «٣» و الخضوع هو السجود ففى الإنسان بشكل و فى غيره بشكل آخر وَ هُمْ دَاخِرُونَ أى خاضعون كمال الخضوع من دخر، بمعنى صغر و خضع.

فإن السجود قد يكون مع كمال الصغار، وقد يكون بدون، وإنما

(١) المائدة: ١٧.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

(٣) الرعد: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَشْتَكِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

جىء بجمع العاقل لوجود العقلاء فيهم فالتغليب أوث ذلك، لأنه حيث وصفهم بالسجود الذى هو فعل العقلاء ناسب الإتيان بجمع العاقل، أو لأن الأشياء تعقل وإن لم يكن لها كعقول البشر، كما قال سبحانه: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) [٥٠] و إذ ذكر سبحانه إن الأشياء بظلالها تسجد لله تعالى، بين سجود الأحياء بصورة خاصة، تخصيصاً بعد التعميم لأهميتها، وربما يقال أن «سجدا» فى الآية السابقة ترجع إلى الظلال، فيما فى هذه الآية ليس تأكيداً بل تأسيساً وَلِلَّهِ يَسْجُدُ أى يخضع غاية الخضوع ما فى السَّمَاوَاتِ من الطيور ونحوها وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تدب فى الأرض أو فى البحر، فإن «دب» بمعنى مشى، و السباحة نوع من المشى وَالْمَلَائِكَةُ يسجدون لله، فما بال الإنسان لا يسجد لله سبحانه فى هذا الجو الذى يسجد له كل جماد و نبات و حيوان و ملك؟

وَهُمْ أَى أَنْ الْمَلَائِكَةُ لَا يَشْتَكِرُونَ فى سجودهم لله.

[٥١] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ و الإتيان بهذا البيان زيادة فى الخوف، فإن خوف الشخص بما يصيبه من فوقه أكثر، فهم يخافون عقاب الله أن يشملهم من فوقهم، و أما لبيان أن الخوف من الله الذى هو فوقهم - فوقاً منزلياً لا- مكانياً- و من المعلوم أن الخوف من ذى الرتبة العالية

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا يَأْتِي فَاذْهَبُونَ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)

أكثر من المساوى و نحوه وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ فليس امتثالهم خاصاً بالسجود، بل إنهم يفعلون كل ما يأمرهم به سبحانه، و على هذا فخوفهم من عظمته سبحانه، فإن الشخص يخاف العظيم و يهابه، و إن عرف أنه لا- يعذبه و لا يؤذيه، أو أن خوفهم من أن يعصون فيعاقبهم، كما عوقب «فطرس».

[٥٢] و إذ تحقق خضوع الكون لله الواحد، فما بال هؤلاء الكفار المشركين يتخذون آلهة متعددة وَقَالَ اللَّهُ بلسان أنبيائه عليهم السلام و أصفيائه، للبشر لا- تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ هذا نهى عن أقل التعدد، و المراد به المثال، فالأكثر لا يصح بطريق أولى، و لأن من أخذ الأ-كثر فقد أخذ الإ-ثنين، و لا- مفهوم للعدد هنا من حيث الزيادة، بل من حيث النقيضة، و جىء باثنين للاتساق مع قوله إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ لا شريك له فَإِذَا يَأْتِي فَاذْهَبُونَ الرهبة هو الخوف، أى خافوا منى وحدى، و تقديم «إياى» لإفادة الحصر.

[٥٣] وكيف تتخذون آلهة متعددة والحال أن له وحده ما في السماوات والأرض فالكمل ملكه و من خلقه ظرفا و مظروفا، و قد تقدم أنه قد يطلق الظرف و يراد به الأعم، كما قد يطلق المظروف و يراد به الأعم و له وحده الدين أي الطريقة التي يتبعها الإنسان لسعادته واصباً من وصب، بمعنى دام و وصل، أي واصلا من السابق إلى هذا الوقت، فلا دين صحيح إلا دينه، أو المراد بالدين «الجزاء» أي أن تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

الجزاء بيده نحو «مالك يوم الدين» دائما، فليس الجزاء بيد غيره، فهو إله واحد، و مالك واحد، و الدين له وحده فكيف تتخذون إلهها غيره و تجعلون له شريكا؟ و بعد هذا كله أفعير الله من الأصنام و شبهها تتقون و تخشون أيها المشركون، و هو استفهام استنكارى للتوبيخ و التقرير.

[٥٤] ثم بعد مقام الألوهية و الملكية و الدين و ما بكم من نعمته فمن الله أي أن جميع ما يرتبط بكم من النعم إنما هو من الله سبحانه وحده، فله النعم وحده- أيضا- ثم إذا مسكم و نزل بكم الضر من خوف أو مرض أو فقر أو شدة فإليه سبحانه- وحده- تجترون أي تتضرعون لكشفه و إزالته، فهو وحده كاشف ضركم، أيضا، فأين تذهبون باتخاذ غيره إلهها؟

[٥٥] و بعد ذلك كله إن الإنسان لمشرك كفور ثم إذا كسف الضر عنكم أي دفع الضر الذي وصل إليكم، و حيث أن الضر كأنه شيء يحيط بالإنسان، عبر عن دفعه بالكشف، فكأن الإنسان مستور تحته ثم يظهر، إذا رفع عنه إذا فريق منكم فجأة و من غير ترقب، جماعة منكم أيها البشر برّبهم يشركون يجعلون له شريكا.

[٥٦] إنهم يشركون لمقابلة نعمتنا بالكفران، من باب «اتق شر من أحسنت إليه» و «يجزى كما يجزى سنمار» إنهم يشركون ليكفروا اللام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٧

[سورة النحل (١٦): آية ٥٦]

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

للمقابلة أي أن شركهم لقصدهم الكفر بما آتيناهم أي أعطيناهم من النعم، كأنهم لا غرض لهم إلا مقابلة النعم بالكفران فتمتعوا أيها الكفار، تلتذوا بمتاع الحياة و هو أمر قصد به التهديد و الوعيد فسوف تعلمون عاقبه أعمالهم، في القبر أو القيامة، أو في الدنيا، فإن الانحراف عن مناهج الله سبحانه يوجب الدمار و الانهيار.

[٥٧] إن الانحراف في عقيدة هؤلاء المشركين أوجب الانحراف في عباداتهم و سلوكهم الاجتماعي، فهم يجعلون لغير الله بعض ما رزقهم الله سبحانه، فيندرون للأصنام، كما يندون البنات خوف العار فهم يعبدون غير الله، و يندرون لغير الله، و يخرقون مناهج الله و يجعلون أي يجعل هؤلاء المشركون لما لا يعلمون أي لما لا يعلم المشركون بواقعه و حقيقته- الأصنام- فضمير الجميع للمشركين، و عائد «ما» محذوف، أو المراد «للأصنام التي لا تعلم هي» و جيء بلفظ العاقل لها، تماشيا مع زعم المشركين أنها تعقل، و قد تكرر مثل ذلك في القرآن الحكيم نصيباً و قسما مما رزقناهم من الأنعام و الحرث فقالوا هذا لله بزعمهم و هذا لشركائنا و عجب أن يجعل رزق الله لغير الله، فقد كانوا يتقربون إلى الأصنام بالذبائح و الندورات تالله أي و الله و «التاء» تأتي لقسم يستغرب فيها لتستلن أيها المشركون في الآخرة عما كنتم تفترون فإنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)
كانوا ينسبون أعمالهم إلى الله سبحانه كما قال سبحانه في آية أخرى:

(اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) «١»؟

[٥٨] وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ مِنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ، مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ أَيْ أَسْبَحَهُ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ أَيْ يَجْعَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الْأَوْلَادِ الْبَنِينَ دُونَ الْبَنَاتِ، فَهَمُ يَرُونَ أَنَّ مِنْ نَصِيبِهِمُ الذَّكَورَ، وَ مِنْ نَصِيبِ اللَّهِ الْبَنَاتِ، وَ هَذَا تَجَرُّؤٌ مُزْدَوِجٌ: جَعَلَ الْأَوْلَادَ لِلَّهِ وَ كَوْنَهُمْ بَنَاتًا، بَيْنَمَا أَنَّ الذَّكَورَ مِنْ حَصْتِهِمْ وَحَدَّهُمْ - فِي زَعْمِهِمْ - [٥٩] وَ إِلَىٰ أَيْ حَدِّ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْبَنَاتِ - الَّتِي جَعَلُوهَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ - إِلَىٰ حَدِّ أَنَّهُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ بِأَنَّ امْرَأَتَهُ الْحَامِلَ بِمَوْلُودٍ مُؤَنَّثٍ، وَ هِيَ بَشَارَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، فَإِنَّ الْأَوْلَادَ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ نَعَمٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ظَلَّ أَيْ اسْتَمَرَّ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى اللَّيْلِ، فَإِنَّ ظِلَّ بِمَعْنَى بَقِيَ إِلَى اللَّيْلِ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أَيْ مَائِلًا - إِلَى السَّوَادِ، مِنْ كَثْرَةِ الْكَرَاهِيَةِ وَ الْغَضَبِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا تَوَجَّهَ الدَّمُ الْكَثِيرُ نَحْوَ خَارِجِ بَدَنِهِ، يَحْمِلُ مَعَهُ الرُّوحَ، لِدَفْعِ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ، وَ حَيْثُ أَنَّ جِلْدَ الْوَجْهِ رَقِيقٌ تَظْهَرُ آثَارُ الدَّمِ الْمَتْرَاكِمْ عَلَيْهِ، وَ لَوْنُ الدَّمِ لَدَى التَّرَاكِمْ مَائِلٌ إِلَى السَّوَادِ وَهُوَ كَظِيمٌ أَيْ مَمْتَلِئٌ غِيظًا وَ غَضَبًا، لَكِنَّهُ يَكْظُمُ غِيضَهُ، لِمَا لَا يَجِدُ لَهُ مَنفَعًا.

(١) يونس: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٩ إلى ٦٠]

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُّ مَسَكَةً عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا - سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

[٦٠] يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ أَيْ يَسْتَرُّ مِنْ أَهْلِهِ وَ عَشِيرَتِهِ حَيَاءً وَ خَجَلًا مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ مِنْ وِلَادَةِ الْبِنْتِ لَهُ، وَ يَأْخُذُ بِتَفَكُّرٍ فِي أَمْرِ الْبِنْتِ أَيْ يُمَسِّكُهُ أَيْ هَلْ يَبْقَى الْمَوْلُودُ - الْبِنْتُ - عَلَىٰ هُونٍ أَيْ ذُلٍّ وَ هَوَانٍ، لِنَفْسِهِ، أَوْ لِبِنْتِ أَمْ يَدُسُّهُ أَيْ يَدْفِنُ الْمَوْلُودَ - الْبِنْتُ - حَيًّا فِي التُّرَابِ فَقَدْ كَانُوا يَدْفِنُونَ الْبَنَاتِ وَ يَقُولُونَ نَعَمُ الصَّهْرُ الْقَبْرِ، وَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَضَايَا، وَ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: (وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) «١» أَلَا فَلْيَنْتَبِهِ السَّمَاعُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ أَيْ بِسُّ الْحَكْمِ حَكْمٌ هُوَ لَا بَانَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ - الَّتِي يَكْرَهُونَهَا هَذِهِ الْكَرَاهِيَةُ الشَّدِيدَةُ - وَ لَهُمُ الْبَنِينَ - وَحَدَّهُمْ لَا يَشْرِكُهُمْ فِيهِمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - كَيْفَ اخْتَارُوا لَهُ الشَّيْءَ الْقَبِيحَ - فِي نَظَرِهِمْ - وَ لَهُمُ الْأَفْضَلُ؟

[٦١] لَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ مَثَلًا لِلشَّخْصِ الْقَبِيحِ - فِي نَظَرِهِمْ - فَهُوَ أَبُ الْبَنَاتِ، وَ يَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ مَثَلًا لِلشَّخْصِ الْحَسَنِ، فَهَمُ آبَاءُ الْبَنِينَ، وَ لَكِنَّ الْوَاقِعَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالتَّوْحِيدِ - لِلتَّلَازِمِ بَيْنَهُمَا - وَ قَدْ كَانَ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِالْجِزَاءِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَ أَقْوَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ جَرَأَتُهُمْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْبَنَاتِ مَثَلُ السُّوءِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ السَّيِّءَ عَقِيدَةً وَ عَمَلًا يَمَثَلُ لَهُ بِالْمَثَلِ السَّيِّئِ فَيَقَالُ عَنِ الْيَهُودِ -

(١) التكويز: ٩ و ١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٠

[سورة النحل (١٦): آية ٦١]

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَائَةٍ وَ لَكِنَّ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَفْتِمُونَ (٦١)

مثلاً: - كمثل الحمار، و عن بلعم: كمثل الكلب و لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى كالتور، في (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ) «١» فإن أعلى الأمثلة الخيرة الجميلة

له سبحانه، لأنه المنزه عن كل دنس وهو العزيرُ القاهرُ الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم في أفعاله، فعدم أخذه لهؤلاء الكفار عاجلاً، إنما هو بمقتضى الحكمة، لا لأنه عاجز لا يقدر.

[٦٢] إن الله سبحانه بحكمته يمهل العاصين لعلمهم يرجعوا، ومن علم أنه لا يرجع فإنه يمهلهم ليعلمهم عليه الحجة ويأتي الوقت المحدد له حسب الحكمة البالغة ولو يؤاخذ الله بأنواع العقاب الناس العاصين بسبب ظلمهم بالكفر والعصيان ما ترك عليهما أى على الأرض - المعلوم من السياق - من دابة تدب إما هلاك الإنسان فلأنه ظلم وإجرام، وإما هلاك سائر الدواب فلأنها خلقت لأجل الإنسان «كما في الحديث القدسي: خلقت الأشياء لأجلك و خلقتك لأجلي»

فإذا هلك الأصل هلك الفرع، أو المراد بالدابة «الإنسان الظالم» والتعبير «ما» عنهم للإهانة، والعموم المقصود هو الإنسان - على هذا - لأنه هو محور الكلام، ومن القاعدة أن العموم ينصب على المحور، فإذا قال الصياد: ليس في هذه الصحراء شيء، أراد ما يصاد - لا الحطب - بخلاف ما لو قال الحطاب: ليس فيها شيء، فإنه يريد الحطب - لا الصيد - ولكن لا يؤاخذهم سبحانه بأعمالهم

(١) النور: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣١

[سورة النحل (١٦): آية ٦٢]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)
الظالمة بل يؤخروهم أى يؤخر إهلاكهم إلى أجلٍ مسمى قد سمي عنده، أى يمهلهم إلى وقت سماه وأجل حدّه، وهو الوقت المضروب لهلاكهم وموتهم.

فإذا جاء أجلهم أى وقت هلاكهم لا يسيء تأخرون ساعة لا يطلبون التأخير - لعلمهم بأنه لا يفيد - والمراد بالساعة، المدة من الزمان قليلة كانت أم كثيرة ولا يسيء تقدّمون لا يطلبون تقديمه، فإن كان وقت هلاكهم الساعة الرابعة فجاء أجلهم ليصل إليهم فى ذلك الوقت، لا يتقدم بأن يميتهم فى الساعة الثالثة، ولا يتأخر بأن يميتهم فى الساعة الخامسة - وقد مرّ تفسير هذه الآية سابقاً.

[٦٣] وَيَجْعَلُونَ أَى يجعل هؤلاء المشركين لله ما يكرهون كالبناات والشركاء وأمثال ذلك مما يكرهونه هم بأنفسهم، فقد كانوا يكرهون البناات ويكرهون الشركاء وتصف ألسنتهم الكذب أى تخبر ألسنتهم بالكذب، فى نسبة الحسن - أى البنين - إلى أنفسهم، و إنما قال «و تصف ألسنتهم» للإشارة إلى أن وصفهم لفظى لا - عمقى فهم لا - يعتقدون بذلك عن صميم القلب و إنما ذلك لفظ يقولونه - تقليداً و بلا حجة - أن لهم الحسنى هذا بدل عن «الكذب» أى أن قولهم لنا الصفة الحسنى - و ذلك أن لنا البنين - كذب و صفته ألسنتهم. و كان تسمية ذلك و صفا باعتبار أنهم كانوا يقولون أن الله أب البناات، و نحن آباء البنين، فقد كانوا يصفونه سبحانه بما هو قبيح لديهم، و يصفون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٢

[سورة النحل (١٦): آية ٦٣]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)
أنفسهم بصفه هى حسنة لديهم، و إنما ذكر ذلك بعد ما سبق من قوله سبحانه «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ» لأمرين:
الأول: إن هذا عام يشمل البناات و غيرها.

و الثانى: لترتيب الحكم عليهم بالنار لمقاتلتهم هذه - هنا - لا جرّم أى حقا، و من هذه الجهة - و قد تقدم تفصيل هذه الكلمة - أن لهم النار جزاء لقولهم ذلك و نسبتهم إليه سبحانه ما لا يليق به و أنهم مفرطون أى معجلون إلى النار، يلاقونها سريعا، من الفرط بمعنى ما

يسبق،

ففى الدعاء على الطفل الميت: «اللهم اجعله لأبويه ولنا سلفا و فرطا و أجرا»

و قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: «إنى فرطكم على الحوض» (١)

[٦٤] و القوم ليسوا بأول أمه كذبت و عصت، فقد كانت عادة الأمم السالفة أن تكفر و تأثم- و كان هذا تسلية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لما يلاقيه من تكذيبهم و أذاهم- تَأَلَّه النَّاءُ لِلْقَسَمِ، وَ هى كثيرة الإتيان فى الأمر المستغرب لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا إِلَى أُمَّمٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَ لَمْ يَطِيعُوا وَ زِين لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَكَانَ الْكُفْرَ وَ الْإِنْحِرَافَ فى نظرهم أحسن من الإيمان و الاستقامة، فتركوا الرسل و اتبعوا الشيطان فَهَوَّ وَ لِيَهُمْ أَى أَنَّ الشَّيْطَانَ مَتَوَلَى أُمُورَهُمْ وَ هُم يَتَّبِعُونَهُ الْيَوْمَ فى الدنيا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه فى

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَشْمَعُونَ (٦٥)

الآخرة، و يتبرأ كل من الشيطان و تلك الأمم بعضهم من بعضهم إذ يقول لهم (فَلَا تُلُومُنِىْ وَ لُؤْمُوا أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ) (١) و قوله «اليوم» و قد انقضى ذلك اليوم- إذ الكلام حول الأمم السالفة- من باب حكاية حال ماضية، نحو (وَ كَلَّبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ) (٢) [٦٥] و هناك تليسات من الشيطان و اتباع له، منهم المشركون الذين جعلوا الله البنات، و منهم أهل الكتاب الذين ضلوا، فإنزال هذا الكتاب للفصل بين قضاياهم و بين الحق من الاختلافات، هل هو مع إحداها أو مخالف للجميع؟ و ما أنزلنا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أَى الْقُرْآنَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ أَى لِلنَّاسِ- المفهوم من السياق- الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فمثلا اختلفوا فى التوحيد و الشرك، و كون الله أبا أم لا، و إنه جسم أم ليس بجسم، و إن الشيء الفلانى حرام أم حلال؟ و هكذا وَ هُدًى أَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ مِنَ الْإِخْتِلَافَاتِ وَ رَحْمَةً سَبِيًّا لِلرَّحْمَةِ فَإِنَّ مِنْ تَمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ تَفَضُّلَ عَلَيْهِ بِالْغُرْفَانِ وَ النِّعْمَةَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم هم المستفيدون، و إن كان فيه صلاحية الهداية و الرحمة لكل البشر.

[٦٦] ثم يرجع السياق إلى تعداد نعم الله الدالة على وجوده و علمه و قدرته و لطفه و سائر صفاته وَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ

(١) إبراهيم: ٢٣.

(٢) الكهف: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٤

[سورة النحل (١٦): آية ٦٦]

وَ إِنَّ لَكُمْ فى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)

ماءً أَى الْمَطْرَ فَأَحْيَا بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَاءِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَإِنَّ مَوْتَ الْأَرْضِ جَدْبُهَا وَ عَدَمُ النَّبَاتِ وَ حَيَاتُهَا الْخَضْبُ وَ النَّبَاتُ، وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ حَيَاةً لِأَنَّ الْأَرْضَ عِنْدَ نَزُولِ الْمَطْرِ تَشْتَعِلُ وَ تَعْمَلُ وَ هُمَا مِنْ آثَارِ الْحَيَاةِ بِخِلَافِ الْأَرْضِ حِينَ انْقِطَاعِ الْمَطْرِ فَهِيَ جَامِدَةٌ رَاكِدَةٌ إِنَّ فى ذَلِكَ الْإِحْيَاءَ بَعْدَ الْمَوْتِ لآيَةً حُجَّةً وَ بَرهَانًا لِقَوْمٍ يَشْمَعُونَ سَمَاعَ تَفْهَمَ وَ تَعْقَلَ، فَإِنَّ السَّمَاعَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ كِنَايَةً عَنِ ذَلِكَ، بِعِلَاقَةِ السَّبَبِ وَ الْمَسْبَبِ.

[٦٧] وَإِنَّ لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِي الْأَنْعَامِ الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ لَعِبْرَةً أَى عِظَةً وَاعْتِبَارَ كَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْبُرُ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ- بِسَبَبِهَا- إِلَى الْعِلْمِ وَالْهُدَى، كَالَّذِي يَعْبُرُ مِنْ هَذَا الشَّاطِئِ إِلَى ذَاكَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ عِبْرَةً لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَبَدِيعِ صَنْعِهِ نُشْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ أَى بطن كل واحد منها، فإنه يجوز إرجاع ضمير المفرد إلى الجمع، باعتبار كل واحد، كما قال سبحانه: (فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) «١» مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ هُوَ الْمُدْفُوعُ لِلْحَيَوَانَ وَدَمٍ فَإِنَّ الْغِذَاءَ إِذَا دَخَلَ الْجِسْمَ تَحْوُلُ إِلَى سَائِلِ غَلِيظٍ أَوْ رَقِيقٍ فِي الْمَعْدَةِ، ثُمَّ تَشْرَبُ الْكَبِدُ صَفْوَهُ وَتَبْقَى فِي الْكَرْشِ ثِقَلَهُ، ثُمَّ إِنْ الْكَبِدُ تَحْوَلُ الصَّفْوَةَ إِلَى الدَّمِ وَهُوَ يَصْعَدُ إِلَى الْجِسْمِ كُلَّهُ لِغِذَايِهِ وَيَصِيرُ بَدَلُ مَا يَتَحَلَّلُ مِنَ الْأَجْزَاءِ- بِفَعْلٍ

(١) البقرة: ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)

الحرارة الخارجية والداخلية- وإذا وصل الدم إلى غدد اللبن في الضرع تحوّل إلى اللبن لبنًا خالصًا عما سواه فليس مخلوطًا بشيء من فرث أو دم فقد تخلص اللبن من الفرث أولاً و من الدم ثانياً، فهو خارج من بينهما سائغاً يسوغه الإنسان، فلا يؤذى الحلق والحنجرة للشاربين فهل هناك غيره سبحانه يعمل هذا؟

[٦٨] وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَى مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ- عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ- سَكَرًا أَى خِلا- كما في بعض التفاسير- وَرِزْقًا حَسَنًا فَمَنْ جَعَلَ الثَّمَرَةَ؟ وَ مِنْ جَعَلَهَا بَحِيثٍ تَتَقَبَّلُ أَى تَحْوَلُ خَلًّا، أَوْ طَعَامًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً دَلَالَةٌ عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أَى يَعْمَلُونَ عَقُولَهُمْ لِيَدْرُكُوا الْحَقَائِقَ وَيَنْتَقِلُوا مِنَ الْأَثَرِ إِلَى الْمَوْثَرِ.

[٦٩] وَمِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ، الْعَسَلُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي يَنْتِجُهُ النَّحْلُ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَى أَلْهَمَهَا إِلْهَامًا خَفِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْحَيَوَانَاتِ تَشْعُرُ بِمَا عِنْدَهَا مِنَ الشُّعُورِ وَالْإِدْرَاكِ أَنَّ اتَّخِذِي وَ إِنَّمَا أَنْتَ لِأَنَّهُ لِلْجِنْسِ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَإِنَّ بَعْضَهَا تَتَّخِذُ بَيْتَهَا فِي الْجِبَلِ وَمِنَ الشَّجَرِ وَبَعْضَهَا تَتَّخِذُ بَيْتَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ أَى يَجْعَلُونَهُ عَرِيشًا كَالْكُرُومِ وَالسَّقُوفِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّحْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٦

[سورة النحل (١٦): آية ٦٩]

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُمِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا- يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

تتخذ في الأعلى بيتها ليسهل لها المراودة إليها، ويكون أبعد عن تناول العاشين.

[٧٠] ثُمَّ كُلِي يَا أَيَّتُهَا النَّحْلُ، أَصْلُهُ «أَكَلٌ» حَذَفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا، وَ كَذَا «مَرٌّ» مِنْ «أَمْرٍ» مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ النَّقِيَّةِ، مِنْ أَى نَوْعٍ مِنْهَا شَبَّتْ فَاسْلُمِي فِي ذَهَابِكَ إِلَى الثَّمَارِ وَرَجُوعِكَ إِلَى بَيْتِكَ سُبُلَ رَبِّكِ الطَّرِيقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْهَوَاءِ وَ هَذَا لِلإِشَارَةِ إِلَى الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الَّذِي يُولَدُهُ ذَهَابُ النَّحْلِ وَ إِيَابُهَا، فَيَرَاهَا الْإِنْسَانُ ذَاهِبَةً عَائِدَةً لِتَصْنَعِ الْعَسَلَ فَيَعْطِفُ قَلْبَهُ وَ تَتَأَثَّرُ بِالْحَنَانِ أَعْصَابُهُ ذُلًّا جَمَعَ ذَلِيلٌ، أَى مَذَلَّةٌ مَوْطئةً هَيْئَةً، وَ هِيَ حَالٌ عَنِ السَّبْلِ، أَى الطَّرِيقِ فِي حَالِ كَوْنِهَا مَذَلَّةٌ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا أَى بَطُونِ النَّحْلِ شَرَابٌ طَيِّبٌ، هُوَ الْعَسَلُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فَمِنْهُ شَدِيدُ الْبِيَاضِ، وَ مِنْهُ أَصْفَرٌ، وَ مِنْهُ مَائِلٌ إِلَى الْحُمْرَةِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ فَإِنَّ الْعَسَلَ يَنْفَعُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ، فَيَسِّرُ الْمَرَادَ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِجَمِيعِ الْأَمْرَاضِ، وَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ، كَقَوْلِكَ الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ مَلِينًا لَا تَرِيدُ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَزَاجٍ وَ

طبع و حاله، بل تريد أن طبيعته كذلك.

إِنَّ فِي ذَلِكَ الشَّانِ الْمَتَعَلِقِ بِالنَّحْلِ، مِنْ صِنْعِ بِيوتِهَا بِتِلْكَ الْهِنْدَسَةِ الْمَسْدَسَةِ، وَ ذَهَابِهَا وَ إِيَابِهَا وَ شَرْبِهَا رَحِيقَ الْأَزْهَارِ، وَ إعْطَائِهَا الْعَسْلَ الْمَلُونِ الشَّافِي لَأَيَّةٍ دَلَالَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي الْآثَارِ وَ يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْمُؤَثِّرِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَ قَدْ تَقْرِبُ الْقُرْآنُ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٢٣٧

[سورة النحل (١٦): آية ٧٠]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

أردف سبحانه في هذه الآيات نعمة جميلة متشابهة في كونها عصيرة الأشياء فالمطر عصير السحاب، و اللبن عصير الفرث و الدم، و السكر و الرزق الحسن عصير الثمار و الأشجار، و العسل عصير النحل، و قد هيا الله سبحانه هذه الأرزاق الطيبة النظيفة للإنسان، من السماء و الأرض، و الجبال و الأشجار، و الطيور و البهائم، ليشكر الإنسان و يعرف باريه.

[٧١] و قد جعل الله لكم حياة و رزقا، و أزواجا، بعد تلك النعم السابقة، فهل تؤمنون بعد ذلك بالباطل (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) «١»؟ و اللَّهُ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ يَمِيتُكُمْ، فحياتكم و موتكم منه و مِنْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ أَخْسَهُ وَ أَحْقَرَهُ وَ هُوَ الْهَرَمُ الَّذِي يَشَابَهُ الطُّفُولِيَّةَ فِي نَقْصَانِ الْعَقْلِ وَ الْقُوَّةِ، فَيَنْحَرِفُ، وَ لَعَلَّ تَسْمِيَتَهُ «رَدًّا» لِأَنَّهُ ارْتَدَادٌ إِلَى حَالِهِ الصَّغِيرِ فَيَعُودُ كَمَا كَانَ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، أَي عَاقِبَةُ الرَّدِّ عَدَمُ عِلْمِهِ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ خَرَفَ وَ ذَهَبَ عَقْلُهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ عَالِمًا، يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ، وَ يَعْرِفُ الْأُمُورَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمُصَالِحِ عِبَادِهِ وَ لَذَا يَفْعَلُ بِهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالَ قَدِيرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ تَدْبِيرِ أُمُورِهِمْ وَ إِمَاتَتِهِمْ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ «و مِنْكُمْ ...» لِكَسْرِ كِبَرِيَاءِ الْإِنْسَانِ وَ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا يَصِيْبُهُ بَعْدَ الْقُوَّةِ وَ الْعِلْمِ، مِنْ الضَّعْفِ وَ الْجَهْلِ، لَعَلَّهُ يَتُوبُ وَ يَتُوبُ ... كَمَا إِنْ نَفْسُ تِلْكَ الْحَالَةِ مِمَّا تَقْرِبُ الْإِنْسَانَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ تَحَطَّمَتْ فِيهِ الشَّهْوَاتُ،

(١) العنكبوت: ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٨

[سورة النحل (١٦): آية ٧١]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلْيَسَ اللَّهُ يُجْحَدُونَ (٧١)

و لم يبق منه إلا قلب خافق ضعيف يتأثر سريعا، و يتوب بعد ما عمل المعاصي و الآثام.

[٧٢] و اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ إِنْ الْحَى - الَّذِي أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ يَحْتَاجُ إِلَى الرِّزْقِ - وَ نَرَى أَنَّ الْأَرْزَاقَ مُخْتَلِفَةً، فَمَنْ جَعَلَ هَذَا التَّفَاضُلَ؟ إِنَّهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ، وَ لِمَاذَا جَعَلَ؟

ذلك لإدارة شؤون الكون فلو لا هذا التفاضل من كان يقوم بالأعمال الخدمية من تنظيف و تصنيع و هكذا؟ و لو لا الأغنياء من كان يزرع الأراضي الشاسعة لتخزين الحنطة و الشعير و سائر المأكول و من كان يجلب الأجناس من البلاد النائية؟ و قد افترج الجهال أن يهدموا نظام الله سبحانه في التفاضل، فأولدوا- الشيوعية- لكنهم باءوا بالفشل أولا- حيث إن المجتمع عاد إلى طبقتين أيضا: الأغنياء و الفقراء، فالأغنياء هم الحزب، و الفقراء هم سائر الناس، و قد أضيف إلى التجار قوة الدولة ليستنزفوا حتى الحبة الأخيرة من كيس الفقير، و لذا يعيش الناس في بلاد الشيوعيين في أتعس حاله، و ذلك ليس من جهة عدم تطبيق النظام، بل من جهة غلطيته النظام، و تردوا إلى الحضيض ثانيا- فلم يكن الإنسان يسمح بأن يعمل ليأكل ثم عمله غيره، و لذا لجأ التجار الجدد إلى الظلم و الجبر- الديكتاتورية- فاضطهد الشعب، و لم ينتج ذلك عن عمله بكل قواه فتأخر الاقتصاد.

و أقل نظرة إلى البلاد المختلفة في النظام الشيوعي و غير الشيوعي- مع حفظ نسبة كبر الدولة، عند المقارنة- كاف لإدراك هذه

الحقيقة المرة، و الإسلام كما لا يرتضى الشيوعية لكونها خطأ، لا يرتضى الرأسمالية لكونها خطأ أيضاً، و إنما له نظام خاص لا كهذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٩

و لا كتلك، و المقصود هنا الإشارة إلى أن التفاضل موجود لا محالة حتى عند من يزعم الشيوع و الاشتراك، و إن العمل لأجل إزالته خطأ يعود بأفطع الجرائم و بلا- فائدة .. و المراد بالرزق جميع أنواع الاحتياج من مأكّل و ملبس و مسكن و غيرها فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا فضلهم الله سبحانه بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَى لا يرد المثرى رزقه على عبيده حتى يكون هو و إياهم سواء، فهل وجدت أحداً فعل ذلك؟ و إذ لا- يرد المثرى رزقه على عبيده حتى يتساوون فكيف تجعلون مخلوقات الله سبحانه- و هى الأصنام- متساوية له فى العبادة و الطاعة؟ إن من لا يستعد أن يكون هو و عبيده متساويين فى الرزق، كيف يجوز أن يكون الخالق و المخلوق متساويين فى الألوهية؟ قال ابن عباس: يقول: إذا لم ترضوا أن تجعلوا عبيدكم شركاءكم فكيف جعلتهم عيسى إلهاً معه و هو عبده؟ و نزلت فى نصارى نجران ... و «رادى» من ردّ، اسم فاعل حذف علامة الجمع و هو «النون» للإضافة، و على متعلق ب «رادى» أى لا- يردون على ما ملكت أيمانهم- و هم العبيد- حتى ينتج ذلك أن يكونوا سواء، و لذا جىء ب «فاء» العطف أَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ استفهام إنكارى أى هل يجحد هؤلاء نعمه الله على البشر حتى يجعلوا عبيده أمثاله؟ أم لا يجحدون النعمة فكيف يجعلون المنعم و المنعم عليه سواء فى الألوهية، و هم لا يرضون التساوى فى المال بين السادة و العبيد؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)

[٧٣] وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا فليست النساء من جنس آخر، و هذا فضلان، الأول جعل الأزواج، و الثانى كونهن من نفس الجنس، لأن الإنسان بجنسه آلف، و لنوعه أميل، قال الشاعر «كل جنس لجنسه يألف» وَ جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا تأنسون بهم، و يكونون عوناً لكم، و سبباً لامتنادكم فى الحياة وَ حَفَدَةً جمع حفيد، و هم أبناء البنات و أبناء البنين، أو الخدم و من يشبهه، أو الأعم منهمما، لأن معنى الحافد المسرع إلى الخدمة، فإن كان المراد الأول كان عطفاً على البنين، و إن كان غيره كان عطفاً فى المعنى، أى جعل لكم حفدة وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الأشياء الطيبة من اللذات أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ استفهام إنكارى أى كيف يؤمن الكفار بالباطل و هو الأصنام وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ فإن كفران النعمة أن يعبد الإنسان غير رازقه، و المتفضل عليه، كأن يأخذ الأجر من زيد و يعمل لخالده.

[٧٤] ثم بين سبحانه، كيف أنهم يؤمنون بالباطل وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى سواه سبحانه ما لا يملك لهم رِزْقًا فإن الأصنام لا تملك و لا تقدر أن ترزق أحداً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا متعلق به «رزقاً» أى لا تملك رزقاً من السماء، كالمطر، و لا من الأرض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مِنْ رَزْقِنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)

كالشمر، و شيئاً بيان لرزقها، أى لا يملك أى شىء من رزق السماء و الأرض و لا يَسْتَطِيعُونَ أن يملكوه، لأن الملك بيده سبحانه.

[٧٥] فَلَا تَضْرِبُوا أَيُّهَا النَّاسُ لِلَّهِ الْأَمْثَالَ أى الأشباه، و هى الأصنام، فقد كانوا يجعلونها أشباهاً لله فى الألوهية، و يضربون لله المثل بها، فإنك إذا جعلت خالداً قرين زيد، ضربت المثل لزيد بخالده، فقلت، إن شخصاً كزيد، و هو خالد يفعل كذا، أو لا يفعل كذا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ، وَ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بعدم المثل له، لأنهم ما كانوا يتفكرون، و إلا فلو تفكروا لعلموا ذلك.

[٧٦] و إذ تقدم المثل بالعبيد و السادة في قوله «فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا» يأتي السياق ليعين هذا المثل، بوجه آخر فيقول سبحانه ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْأَصْنَامَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ وَ إِنَّمَا بَيْنَ هَذَا الْمَثَلِ، لِيُقَيِّسُوا عَلَيْهِ أَمْرَ الْأُلُوهِيَّةِ، فَيَدْرِكُوا خَطَأَ جَعْلِهِمُ الشُّرَكَاءَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ، لَيَعْرِفُ بِالْمَثَلِ مَا لَا يَعْرِفُهُ بِالْبَرَاهِينِ وَ الْأَدْلَةَ عَجْبًا مَمْلُوكًا عَطْفَ بَيَانِ عَلَى الْمَثَلِ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ السَّادَةُ مِنَ الْأَخْذِ وَ الْعَطَاءِ، وَ سَائِرِ التَّصَرُّفَاتِ، وَ هُنَا تَنْبِيهُ لَا بَدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ، وَ هُوَ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ حَرْبٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَ غَيْرِهِمْ - وَ الْحَرْبُ لَا تَكُونُ طَبْعًا مِنْ جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ تَعْدِيًا - كَمَا قَرَّرَ فِي مَحَلِّهِ، قَرَّرَ الْإِسْلَامُ أَخْذَ الْأَسْرَى، ثُمَّ التَّفْدِيَةَ وَ الْاسْتِرْقَاقَ، فَالْاسْتِرْقَاقُ، إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنَ الْمُتَعَدِّينَ فِي الْحُرُوبِ، وَ هَذَا يَبْقَى رَقًّا هُوَ وَ عَقِبُهُ مَا لَمْ يَتَحَرَّرْ - وَ التَّحَرَّرَ لَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٢

أسباب كثيرة، اضطرارية أو اختيارية، مما لا يبقى العقب رقا غالبا- وقد جعل الإسلام هذا النظام مراعاة لمصالح شتى، منها أن لا يرهق كاهل الدولة بالمساجين، و منها أن يكون الأسراء موزعين حتى يذوب الكفر و الباطل شيئا فشيئا، و يتعلموا معالم الإسلام، بطبيعته كونهم في بيوت المسلمين و تحت رقابتهم و معاشرتهم، و منها أن لا- يتجرأ الكفار على المحاربة و الاعتداء لأن الناس مستعدون للسجن، و لا يستعدون للاسترقاق، و منها توسعة البلاد، و اختلاط الأمم في بوتقة واحدة، و تقدم الحياة و منها غير ذلك، .. و هذا النظام أفضل بكثير من نظام الدول في أسرى الحرب إيجابيا و سلبيًا، ثم الرق محترم معال، من قبل مولاه، و إذا صار في شدة أعتقه الإسلام من بيت المال، كما قال سبحانه (وَ فِي الرِّقَابِ) «١» و مثل هذا النظام من أصح الأنظمة، إلا أن الرقيق لما كان في الغرب كان بغير هذا الشكل، بل بشكل مزرى فظيع- في جميع موارده و مصادره- جاء «لنكولن» ليحرر العبيد و أخذ بعض المسلمين المنهزمين- امام التيار الغربي- هذا التحرر شيئا بديعا، فجعلوا يرددونه من غير وعى و إدراك، حتى أن جماعة من المتنورين، قالوا إن الإسلام أراد تحرير العبيد تدريجيا و لكن الظروف لم تسمح له، تمشيا مع خطة «إذابة الإسلام في بوتقة الغرب» كما صنعوا بأحكام كثيرة هذا العمل المشين، و لذا كان من اللازم أن نقول: إن النظام الإسلامي في الرقيق، و في غيره، باق على حاله، و لم يتبدل من الإسلام شيء أبدا و من يريد التبدل، فهو بين جاهل بالأنظمة الإسلامية و فلسفتها و جمال أحكامها أو معاند، و من يفعل ذلك، فقد أخذ معول

(١) البقرة: ١٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٣

[سورة النحل (١٦): آية ٧٦]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

الهدم لجميع أحكام الإسلام، إذ لو فتح هذا الباب في حكمه، لكان منفتحاً في كل حكم، فما الفارق؟ و مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا وَ هُمُ السَّادَةُ الَّذِينَ رَزَقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا، بِلَا وَسَاطَةِ سَيِّدٍ فَإِنَّ الرِّزْقَ كَمَا كَانَ أَقْلَ وَ وَسَاطَةُ كَانَ أَنَّهُمْ يَنْفَعُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا لِأَنَّهُ مَالِكٌ لَا- يَخْشَى أَحَدًا، وَ لَيْسَ عَلَيْهِ رَقِيبٌ فِيمَا يَعْطِيهِ هَلْ يَسْتَوُونَ أَوْلَئِكَ الْعَبِيدُ، وَ هُوَ لَاءُ السَّادَةِ؟ وَ إِنَّمَا أَتَى بِصَيغَةِ الْجَمْعِ لِأَنَّ الْمُرَادَ «عبيدا» و «من» الجنس؟ و إذا كان الجواب، أنهما لا- يتساويان قيل لهم: فكيف تساؤون بين الله المالك، و بين الأصنام المملوكة؟ فتعبدون كليهما على حد سواء، و تجعلون للأصنام، ما للإله من الألوهية و الربوبية؟

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَ لَيْسَ حَمْدٌ لِغَيْرِهِ فَإِنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ، دُونَ سِوَاهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ وَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَ هِيَ أَنَّ الْحَمْدَ لَهُ وَحْدَهُ وَ لَا يَسْتَحِقُّ مَا سِوَاهِ الْحَمْدِ.

[٧٧] وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا آخَرَ لِيَبَيِّنَ عَدَمَ اسْتِوَاءِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِالْأَصْنَامِ، لَيَعْرِفُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمَثَلِ خَطَأَ طَرِيقَتِهِمُ الْاِشْتِرَاقِيَّةَ رَجُلَيْنِ بَدَل

مثلاً أحدهما أبكم لا ينطق لا يقدر على شئ من التفهيم، و التفهم، لأنه عاجز عن الكلام- و الغالب أن الأبكم أصم- و هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٤

[سورة النحل (١٦): آية ٧٧]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

أى هذا الرجل الأبكم كل أى ثقل و وبال، يقال كل عن الأمر، إذا ثقل عليه على مؤلأه و ليه المتولى لأمره أئتما يؤججه مولاه لا يأت الأبكم بخير فلا منفعة لمولاه فيه، فإنه أينما بيعته لقضاء حاجة من حوائجه، لا يقدر على قضائها إذ لا يتمكن على التفهيم، و التفهم و هما عماد قضاء الحوائج هل يشئوى هو أى هذا الأبكم الذى صفته ذلك و من يأمر بالعدل فهو ذو كلام واضح و بالإضافة إلى ذلك يأمر بالحق و العدل فهو كامل فى ذاته، مكمل لغيره، مقابل الأبكم الذى لم يكن كاملاً لذاته و لا قادراً على قضاء الحوائج ليكمل نواقص غيره و هو على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق سوى لا- ينحرف كما ينحرف الأبكم لعدم تفهمه عن الناس، ليمشى مستقيماً، بل يمشى حسب جهله فيضل و ينحرف؟؟ و بالطبع يكون الجواب: كلا، إنهما لا- يتساويان، و هنا يأتى التفرع فكيف تساوون مع الله الأصنام، و النسبة بينهما أبعد من النسبة بين الأبكم و الناطق؟

[٧٨] و إذ قد تحقق أنه لا شركة فى الألوهية، و إنه لا إله إلا إله واحد، فلنعلم أن لله غيب السماوات و الأرض فما غاب عن الحواس، لعدم وجوده أو لوجوده، و لكن الإنسان لا- يدركه لضعف حواسه، إن جميع ذلك لله، فإنه القادر على إيجادها، كما أنه هو القادر على الموجود فيها بالتصرف فى شؤونها، و هى تحت سلطة الله سبحانه، و يعلم جميع مزاياها، فهو إله واحد مالك عالم، و أمر الآخرة بيده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٥

[سورة النحل (١٦): آية ٧٨]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

و ما أمر الساعة أى ساعة الحشر و وقت القيامة، أمره و إيجادها، و إنفاذه إلا كلمح البصر فهو فى مثل هذا الوقت القليل يأتى به إن شاء، و اللوح هو الطرف أو هو أقرب من ذلك، و التردد للإيضاح فى التشبيه، فإذا قلت: زيد كالأسد احتمال فى القوة، أو فى القتل، أو فى الشجاعة، فإذا قلت: أو هو أشجع أفاد إنك قصدت الشجاعة، ثم أن لمح البصر لا بد له من زمان، و الأقرب منه أن يكون زمانه نصف ذلك الزمان، و نحوه إن الله على كل شئ قدير و من قدرته يأتى بالساعة فى أى وقت شاء، سريعاً بدون حاجة إلى تعب و تهيئة مقدمات، فليخضع الإنسان لهذا الإله المالك، العالم، الذى بيده الجزاء و الحساب و لا يجعل له شريكاً.

[٧٩] ثم يرجع السياق، ليعدد جملة أخرى من النعم، و كان الفصل بين كل جملة و جملة بأمور مرتبطة خارجة عن صميم النعم، للايقاظ و التنفن، كما هو أسلوب البلاغ فى الكلام، فإن الكلام ذا الوقع الواحد، يوجب الكل و الممل و الله أخرجكم أيها البشر من بطون أمهاتكم فمن يا ترى، يقدر على هذا الإخراج بالأجهزة و اللوازم التى جعلها فى داخل الرحم إلى فم المخرج؟ لا تعلمون شيئاً فإن الإنسان جاهل محض عند الولادة و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة السمع يراد به الجنس، و الاختلاف بين الألفاظ بالجمع و المفرد للتنفن، و الأفئدة جمع فؤاد و هو القلب، أى أنه تفضل عليكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَمْسُكُوهُنَّ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى

حين (٨٠)

بالحواس لتستقوا بها المعلومات، و بالقلب لتعوا الأشياء لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لكي تشكروا نعمه سبحانه.

[٨٠] أَلَمْ يَرَوْا أَلَمْ يَنْظُرُوا و يتدبروا إِلَى الطَّيْرِ المراد به الجنس و لذا جىء له بالحال جمعا، مُسَيَّخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ إنه تشبيه بالشىء المسخر الذى يجىء و يذهب لمصلحة الذى سخره فإن الإنسان يرى الطير يجىء و يذهب و يعلو و يسف فى وسط السماء، و المراد بها جهة العلو ما يُمَسِّكُهُنَّ أى ما يحفظهن من السقوط على الأرض إِلَّا اللَّهُ سبحانه، بما جعل فى الكون من نواميس، ففى داخل الطير ناموس، و فى الهواء ناموس، يتعاونان على تحليق الطائر، فمن جعل هذه النواميس غيره سبحانه؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِمَّاكَ لَثَلَا يَسْقُطُ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ على عظيم القدرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بالله، أما غير المؤمن فإنه لا- يتفكر حتى تنفعه الآيات فتخصيص المؤمنين، لأنهم المنتفعون بهذه الآيات.

[٨١] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا مَحَلًّا لِلسَّكَنِ و الاطمئنان، فجعل الأرض بحيث تقبل السكنى، و تهيئة المجتمع بحيث يكون الإنسان فى محله مطمئنا، نعمتان عظيمتان، و الذين عندهم علم الجيولوجيا يقولون: إن الإنسان لا يتمكن من الاستقرار هناك- لعدم الجاذبية- و المشردون الذين لا مأوى لهم، يطمئنون فيه، يعلمون قدر هذه النعمة العظيمة، و قد تبادر إلى الذهن من هذه البيوت الأبنية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٧

[سورة النحل (١٦): آية ٨١]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا و جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا و جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ و سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَ كُم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلِمُونَ (٨١)

و هناك قسم آخر من البيوت، فإنه سبحانه قد جعل لكم أيها البشر من جُلُودِ الْأَنْعَامِ إما المراد الجلد بالذات، أو الأعم منه و من الشعر، فإن الشعر أيضا «من جلد» يُبَيِّنُ تَبَيُّنًا هُوَ الْخَبَاءُ تَسْتَخْفُونَهَا تطلبون خفتها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أى وقت ارتحالكم من مكان إلى مكان من ضمن بمعنى ارتحل و يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ فى مكان، فإنها سهلة النصب و التقويض فإن أهل الصحراء يطلبون الماء و المرعى فينزلون هنا و هناك، و هذه الأخبية سهلة لهم فى النصب و الطى و الحمل و جعل لكم مِنْ أَصْوَابِهَا أى صوف الأنعام و هى للضأن و أوبارها جمع وبر، و هو للابل و أشعارها جمع شعر، و هو للماعز أُنَاثًا و هو كل ما يفرش و يلبس، و يستعمل فى مثل هذه الشؤون و متاعاً آله للتمتع بالبيع و الشراء و سائر الشؤون التى لا تسمى «أُنَاثًا» إلى حين إلى مدة من الزمان، فإن هذه تبقى مدة و ليست تفنى سريعاً.

[٨٢] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا أى أشياء تستظلون بها فى الحر و البرد، فمن جعل الأبنية و الأشجار بحيث يمنع الشمس عن النفوذ فيها، فلو كانت جميعها كالزجاج، كان الإنسان يتأثر و يتأذى من حر الشمس و جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا جمع «كن» أى مواضع تسكنون بها من كهوف و بيوت تنحتون من الجبال للمسكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٢ الى ٨٣]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا و أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

و جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ جمع سربال، و هو اللباس، كالقميص و نحوه تَقِيكُمُ من وقى يقى بمعنى حفظ، أى تحفظكم تلك الألبسة من الْحَرِّ كما تَقِيكُمُ من البرد، و ذكر «الحر» من باب المثال، كما تقول اقرأ «قل هو الله» أو قل «بسم الله» تريد جمع السورة و الآية، و لعل تخصيص الحر بالذكر دون البرد، لأن الحر هو الشائع عند أهل الحجاز، فبلادهم بلاد حارة و جعل لكم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ أى تحفظكم من بَأْسِكُمْ أى الحروب، كالدروع و نحوها، فمن يا ترى خلق القطن و الكتان و الحرير و الصوف، ليستعملها الإنسان فى سرباله؟

و من يا ترى خلق الحديد و جعله خاضعاً للنار، حتى تصنع منه الدروع، و نحوها؟ إنه هو الله وحده لا شريك له كَذَلِكَ أى كما جعل لكم هذه الأشياء يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بأن يتفضل عليكم فى سائر حوائجكم التى هى لا تدخل تحت الإحصاء- فى مختلف دروب

الحياة المعقدة- لَعَلَّكُمْ لِكى تُسَلِّمُونَ لله سبحانه، و تخضعون لإرادته.

[٨٣] فَإِنْ تَوَلَّوْا أَعْرَضُوا عَنِ التَّسْلِيمِ لله سبحانه فلا يضرك يا رسول الله ذلك، إذ إنما عَلَيْكَ الْبُلَغُ الْمُبِينُ الواضح، و قد فعلت ذلك.

[٨٤] إِنْ الْكُفَّارَ لَا يَنْكُرُونَ مَا يَنْكُرُونَ لَجَهْلِهِمْ و عدم معرفتهم و إنما يجحدون الله و آياته، تعنتا و عنادا إنهم يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ الدالة على وجوده،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

و يَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)

و سائر صفاته ثُمَّ يُنَكِّرُونَهَا أى ينكرون كونها من الله سبحانه، و يتخذون الكفر و الشرك طريقة لأنفسهم و أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ و إنما جعل الكفر لأكثرهم، لأن منهم من لم تتم عليه الحجّة، فقله «يعرفون» بهذه القرينة صفة لمن قامت لديه الحجّة لا لجميعهم.

[٨٥] ثم يرجع السياق إلى موقف الكفار يوم القيامة و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَبِّئُ أى نحضر للشهادة مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يشهد على الكفار بأنهم كفروا و أشركوا و عصوا، و لعل المراد بالشهداء- هنا- النبيون بقرينة أنه لكل أمة شهيد و ما سيأتى من إسهاد الرسول على الكفار فى زمانه، و هناك الشهيد يتكلم بما علم من أعمال القوم و معتقداتهم، و يظن الكفار أنهم كالدنيا يتمكنون من المغالطة و التهريج، لبيروا ساحتهم و لكن ليس هناك كذلك ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فى الكلام و الدفاع، فى هذا الموقف، فإن للقيامة مواقف، لكل موقف شأن، و لفظه «ثم» للترتيب فى الكلام، لا فى الخارج- كما قرر فى الأدب- و لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ يقال استعتب زيد، أى أَرْضَى من العتبي بمعنى الرضا، أى لا- يسترضون و لا- يستصلحون، كما كان يفعل بهم فى الدنيا فليس هناك أحد يقول لهم: أرضوا ربكم بإطاعة أوامره، إذ ليست الآخرة دار تكليف.

[٨٦] و فى ساحة القيامة يرى الكفار العذاب، و قد جرت العادة فى الدنيا أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٢٩٩

[سورة النحل (١٦): آية ٨٦]

وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) أهل السجن لما يرون السجن يستنقدون بالناس، و كثيرا ما يوجد من ينقذهم، و لكن الآخرة ليست كذلك و إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم، أو غيرهم بالكفر و المعاصى الْعَذَابُ المهيئ لهم فاستنقدوا لم يقدّم ذلك، فإنه لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ تخفيفا فى الكم و الزمان، أو الكيف و المقدار و لا- هُمْ يُنظَرُونَ يمهلون، كما كان المجرم فى الدنيا يمهّل و يؤجل أمره بالوسائط و نحوها، حتى يجد مخرجا.

[٨٧] و هناك فى ساحة المحشر، يرى المشركون بعض الآلهة التى كانوا يعبدونها و يشركون بالله بسببها، كالمسيح عليه السلام، و الملائكة، و على عليه السلام و إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا بالله شُرَكَاءَهُمْ أى الشركاء الذين زعموا أنهم شركاء لله، و هنا يضاف الشركاء إليهم، لا إلى الله سبحانه قَالُوا أى المشركون مشيرين، إلى الشركاء يا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فى ساحة المحشر شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا فى الدنيا نَدْعُوا هُمْ مِنْ دُونِنَا و كأنهم يريدون بذلك تخفيف الأمر على أنفسهم، ليأتوا بعنصر جديد فى معرض المحاكمة، فإن المجرم المراوغ دائما يأتى بعنصر جديد فى المحاكمة، ليصرف وجوه الناس إليه، و ليتحمّل معه شيئا من ثقل المحاكمة، و عند ذاك يفرغ الشركاء من هذه المفاجئة المدهشة فَأَلْقَوْا أى الشركاء إِلَيْهِمُ إلى المشركين الْقَوْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

يلقون إليهم هذا الكلام قائلين: إنكم أيها المشركون لكاذبون فلم يكن لله شريك ولا يرتبط الأمر بنا.

[٨٨] وَ أَلْقُوا المشركون إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ فِي يوم القيامة السَّلْمَ أى الاستسلام والخضوع، فقد كانوا فى الدنيا يتكبرون على الله، و ينفرون من أوامره، و يحاربونه، أما فى ذلك اليوم، فإنهم مستسلمون، لم يجدوا نصيرا ولا ظهيرا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يفترون فقد ذهبت افتراءاتهم أدراج الرياح، و لم يجدوا فى آلهتهم المزعومة من يشفع لهم.

[٨٩] و هنا يأتى دور العذاب بعد أن تمت الحجته، و قد هىء لهؤلاء عذاب مع عذاب الَّذِينَ كَفَرُوا فلم يؤمنوا وَ صَدُّوا أى منعوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بأن صرفوهم عن الإيمان به سبحانه زِدْنَاهُمْ عَذَابًا ثانيا لإضلالهم فَوْقَ الْعَذَابِ الأول المتهى لهم لضلالهم بسبب ما كانوا يُفْسِدُونَ فى الأرض، بالصد عن سبيل الله.

[٩٠] تقدم أن على كل أمة شهيد، و هنا يأتى الكلام لبيان أن الشهداء من أنفس الناس، بالإضافة إلى الملائكة الشهود و أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يشهد على أمته، تخصيصا، لبيان موقفه مع الكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان به، و فيه تسليء له، و تهديد لهم أن خصمكم غدا يكون صاحب الفضل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٢

[سورة النحل (١٦): آية ٩٠]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) فيكم فاحذروه و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَإِنِ الصَّالِحِينَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ، يشهدون على الطالحين بالكفر و الشرك و الفسق و العصيان وَ جِئْنَا بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ المعاصرون لك، وَ هناك لا حجة لقومك، فقد نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ أى القرآن تِبْيَانًا بَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ فلا مجال لهم، لأن يقولوا ما عرفنا، و ما علمنا، و المراد ب «كل شىء» الأمور العامة التى يحتاج إليها الإنسان فى أمر دينه و دنياه، فقد اشتمل القرآن الحكيم على الخطوط العامة للمبدأ و المعاد و النظام العام للدنيا السعيدة وَ هُدًى أى هدايته عن الضلال وَ رَحْمَةً أى سبب تفضل و ترحم فإن من اتبع القرآن رحمه الله سبحانه، و تفضل عليه وَ بُشْرَى بشاره لسعادة الدنيا و الآخرة لِلْمُسْلِمِينَ الذين آمنوا بك و أسلموا لله سبحانه و لأوامره.

[٩١] ثم يأتى السياق، لبيان بعض ما فى الكتب من الهدى و الرحمة و البشرى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ بأن يعدل الناس فى سلوكهم، فلا يجوروا ولا- يظلموا، من غير فرق بين أفراد الإنسان فإن كل إنسان لا- بد له من عمل لنفسه و لغيره، و هو إما عادل فى عمله، أو منحرف وَ الْإِحْسَانِ و هو فوق العدل، فإهدائك إلى من أهدى إليك عدل،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٣

[سورة النحل (١٦): آية ٩١]

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) و إلى من لم يهد إليك إحسان، و هكذا وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى أى إعطاء الأقرباء حقوقهم، و هذا عام بالنسبة إلى كل أحد، و خاص بالنسبة إلى أقرباء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، فإنه سبحانه أمر بمودتهم و صلحتهم

و قد قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «إنى مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما، لن تضلوا

من بعدى أبدا»

«١» وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ أَى الْخَلَّةِ الْفَاحِشَةِ، وَ هِى مَا كَانَ مِتْفَاحِشِ الْقَبْحِ مَجَاوِزَةً كَالزَّنَا وَ نَحْوَهُ وَ الْمُنْكَرِ وَ هُوَ كُلُّ مَعْصِيَةٍ، وَ إِنْ لَمْ تَكُنْ فَاحِشَةً، كَتَرَكَ جَوَابَ الْمُسْلِمِ، وَ إِنْمَا ذَكَرَ الْفَحْشَاءَ مَعَ دَخُولِهِ فِي الْمُنْكَرِ، لِأَهْمِيَّتِهِ وَ الْبُغْيِ أَى الظُّلْمِ وَ ذَكَرَهُ لِأَهْمِيَّتِهِ أَيْضًا يَعْظُمُكَمُ اللَّهُ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَإِنْ أَمْرُهُ وَ نَوَاهِيهِ لِخَيْرِكُمْ وَ صَلَاحِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَى لِكى تَتَفَكَّرُوا، فَتَذَكَّرُوا مَا أَوْدَعَ فِي فِطْرَتِكُمْ مِنْ حَسَنِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَ قَبِحِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

[٩٢] وَ أَوْفُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِعَهْدِ اللَّهِ فَإِنَّ الْمِعَاهِدَةَ مَعَ أَى شَخْصٍ كَانَ، عَهْدٌ لِلَّهِ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِوَفَائِهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ أَوْ الْمَرَادُ إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ عَهْدٌ لِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، لَزِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ جَمْعَ يَمِينٍ وَ هِىَ الْحَلْفُ، أَى لَا تَتْرَكُوا مُتَعَلِّقَهَا بَعْدَ تَوْكِيدِهَا بَعْدَ مَا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٤

[سورة النحل (١٦): آية ٩٢]

وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنْمَا يُبْلِغُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَ لَيْسِنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

أَكْدْتُمْ لَهَا بِذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ، قَدْ يَحْلِفُ بِدُونِ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، كَأَنْ يَقُولَ «أَحْلَفُ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا» وَ قَدْ يُؤَكِّدُهَا بِقَوْلِهِ «أَحْلَفُ بِاللَّهِ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا» وَ هَذَا يَحْرَمُ نَقْضَهُ وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ فِي عَهْدِكُمْ وَ أَيْمَانِكُمْ كَفِيلًا إِذْ تَسْمِيَةُ اللَّهِ مَعْنَاهَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ كَفِيلٌ بِإِنْجَازِ هَذَا الْوَعْدِ وَ الْإِتْيَانِ بِمُتَعَلِّقِ الْقَسْمِ، فَلَا تَخَالَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِ إِنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَ الْيَمِينِ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى فِعْلِكُمْ السَّيِّئِ.

[٩٣] إِنْ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ مِنْ أَكْثَرِ الْأُمُورِ تَأَكِيدُهَا لَدَى الْإِسْلَامِ، سِوَا مَا كَانَ الْعَهْدُ مَعَ اللَّهِ أَوْ مَعَ رَسُولِهِ، أَوْ مَعَ الْأُمَّةِ، أَوْ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ، وَ لِذَا لَا يَتْرَكَ هَذَا الْحُكْمَ سَبْحَانَهُ إِلَّا وَ يُؤَكِّدُهُ بِضَرْبِ الْمَثَلِ، لِيَكُونَ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ، وَ يَتَعَاوَنَ الْعَقْلُ وَ الْعَاطِفَةُ فِي إِنْفَازِهِ وَ لَا تَكُونُوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي نَقْضِ الْأَيْمَانِ وَ الْعَهْدِ كَالْمَرْأَةِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا وَ فَلْتَهُ مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةٍ بَأَنَّ غَزْلَتْ ثُمَّ نَقَضَتْ بَعْدَ تَكَرُّرٍ وَ فِشَلٍ وَ شِدَّةٍ، قَالُوا: فَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةٌ تَسْمَى رِبْطَةً مِنْ تَمِيمٍ، وَ كَانَتْ حَمَقَاءً، فَإِذَا أَصْبَحَتْ أَخَذَتْ هِىَ وَ جِيرَانُهَا تَغْزَلُ إِلَى انْتِصَافِ النَّهَارِ، ثُمَّ هِىَ تَنْقُضُ غَزْلَهَا وَ تَأْمُرُهُنَّ أَنْ يَنْقُضْنَ مَا غَزَلْنَ وَ لَا يَزَالُ هَذَا دَأْبَهَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَنْقُضُ الْعَهْدَ وَ الْيَمِينِ، يَكُونُ كَتَلِكِ الْمَرْأَةِ، فِي أَنَّهُ بَعْدَ إِبْرَامِ الْعَهْدِ، يَنْقُضُهُ أَنْكََاثًا جَمْعَ «نَكَثَ» وَ هُوَ الْغَزْلُ مِنَ الصَّوْفِ وَ الشَّعْرِ بِرِيمٍ ثُمَّ يَنْكُثُ وَ يَنْقُضُ لِيُغْزَلَ ثَانِيَةً، وَ لَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمِعَاهِدِينَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ مَعَهُمْ، بِحُجَّةٍ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابَهُ قَلَّةٌ ضَعِيفَةٌ، وَ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٥

قَرِيشٍ، وَ سَائِرِ الْكُفَّارِ كَثْرَةُ قُوَّتِهِ، وَ لَكِنْ هَذَا الْمَبْرَرُ مِنْ عَمُومٍ لَا وَجْهَ لَهُ، وَ إِلا فَمَا فَائِدَةُ الْعَهْدِ وَ الْأَيْمَانِ؟ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ أَى لَا تَكُونُوا بِحَيْثُ تَتَّخِذُونَ عَهْدَكُمْ وَ حَلْفَكُمْ دَخَلًا أَى خِدْعَةً وَ مَكْرًا، فَإِنَّ أَصْلَ الدَّخْلِ مَا أَدْخَلَ فِي الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ بَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْيَمِينِ دَخَلَتْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ، لِأَنَّهَا تَسَبَّبُ أَنْ يَتَنَازَلَ جَانِبٌ - وَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ - عَنْ بَعْضِ مَنَافِعِهِمْ مَرَاعَاةً لِلْيَمِينِ وَ الْعَهْدِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْكَافِرِينَ، بَيْنَمَا أَنَّ الْجَانِبَ الثَّانِي - وَ هُمُ الْكُفَّارُ - لَا يَتَنَازِلُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ شُؤْنِهِمْ، فَهَمَّ مَا دَامُوا يَرُونَ ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ مَقَاوِمَةِ الْمُسْلِمِينَ يَحْتَمُونَ بِالْيَمِينِ، فَإِذَا رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ أَقْوِيَاءَ نَقَضُوا، لِيَكُونُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَ هَذَا بِخِلَافِ الْعَهْدِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْوَفَى، فَإِنَّهُ دَخَلَ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ، وَ إِذْ يُعْطَى الطَّرْفَيْنِ الْأَمْنُ وَ الطَّمَأْنِينَةُ وَ إِنْمَا كَانَ الْكُفَّارُ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ حَيْثُ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ «أَرْبَى» أَفْعَلَ مِنَ الرِّبَا، وَ هُوَ الزِّيَادَةُ، وَ مِنْهُ الرِّبَا فِي الْمِعَامَلَةِ، أَى لَا تَتَّخِذُوا الْأَيْمَانَ دَخَلًا بِسَبَبِ كَوْنِ أُمَّةٍ أَكْثَرَ عِدَدًا وَ

قوة من أمة، و الحاصل، لا تتكثوا أيما نكم، في حال كونكم اتخذتموها خديعة تريدون بالنكث الوصول مع أمة أخرى هي أكثر عددا من الأمة الأولى التي كانت طرف عهدكم إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ أَي يَفْعَلُ بِكُمْ فَعَلَ الْمُخْتَبِرُ بِهِ أَي تَكُونُ أُمَّةٌ أَرَبِيٌّ مِنْ أُمَّةٍ، ليظهر مدى وفائكم بالعهد، فإن الوفاء بالعهد لا تظهر قيمته فيما كان الأمر على قدم المساواة مع طرف المعاهدة و غيرهم، و إنما تظهر القيمة فيما كان الميزان غير معتدل، و تكون الأمة غير المعاهد معها، أقوى من المعاهد معها، هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٣ الى ٩٤]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ لَتَسْتَبْلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا الشَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وظيفتكم أيها المعاهدون، أما الجانبان المتخالفان الذين عاهدتم مع أحدهما، فإن الفصل بينهم سيكون في يوم القيامة، بعد أن لم يرضخ أحدهما للحق الذي يراه في جانب خصمه، و لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيَانًا يَعْجِبُ الْجَزَاءَ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أو أن المراد لزوم وفاء المعاهد بعهد، و إن رأى أنه على خلاف مع من عاهد معه، فإن وظيفته الوفاء، أما التخالف بينهما، فإنه سيفصل يوم القيامة، و هذا أظهر باعتبار الخطاب في «لكم».

[٩٤] إن الخلاف لا بد و أن يفصل في الآخرة، أما في الدنيا، فإن الطبيعة البشرية ركبت بحيث لا تتفق، فبعض يختار الضلال، و بعض يختار الهدى و لو شاء الله أن يجبركم جميعا على الهداية لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ذات دين واحد، و طريقة واحدة، و لكنه لا يشاء ذلك، لأنه يبطل الثواب و العقاب و المدح و الذم و إنما أراد سبحانه أن تكونوا مختارين و لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ أَي يتركه حتى يضل بعد أن أراه الطريق، فلم يسلكه، كالملك الذي يترك المدينة العاصية، حتى تفعل ما تشاء من الاجرام و القتل و السفك، بعد أن بين لهم القوانين فلم يتبعوها و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِالْأَلطاف الخفية، بعد أن أراه الطريق فسلكوها و لَتَسْتَبْلُنَّ أَيها البشر ضالكم و مهديكم عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ من الخير و الشر و الهدى و الضلال.

[٩٥] ثم يمضى السياق يؤكد على الوفاء بالإيمان- و اليمين و العهد يطلق كل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٧

واحد منهما على الآخر- وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ غِشًا وَ خِدْعَةً تريدون بذلك انتهاز المنافع و اهتبال الفرص، فتعاهدون هذا لتأمنوا جانبه، فإذا رأيتم عدم أمنكم من جهة أخرى، نقضتم هذا العهد، لتعاهدوا ذلك الجانب الثانى، فقد صارت الأيمان داخله بينكم للإفساد، لأن الجانب المقابل يركن إليها، فلا يستعد، و ذلك موجب لاضمحلاله و انهياره فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا فإن العهد قد أثبت القدم إذا صار كل جانب مطمئن خاطر مرتاح البال، لا يهمه من جانب صاحبه شيء أما إذا نقض العهد كان النقض زلّة للقدم، فلا اطمئنان، و ذلك يوجب زعزعة الحياة السعيدة، و ارتفاع الثقة بين الناس فى معاملاتهم و معاهداتهم وَ تَذُوقُوا الشَّوَاءَ وَ بال نقض أيمانكم فى الدنيا و الآخرة بما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي بسبب صدكم عن طريقه سبحانه، فإن الوفاء بالعهد طريقه الذى جعله للسعادة و الطمأنينة فالنقص صاد عن هذا الطريق، لأنه يجزئ الناس على مثل عمله، و لا يكون حينئذ اطمئنان من أحد على أحد وَ لَكُمْ بِالْإضافة إلى ذلك عَذَابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة، و ما ورد من كون الآيات فى على عليه السلام بالنسبة إلى قصة الغدير، فإن ذلك بيان لمصادق ظاهر من مصاديق الآيات، و إلا فالحكم عام، و العلة مستوعبة، و لا يظن الناقض، أنه ربح، حيث اختار الربح على الوفاء، فإنه إذا راج النقيض سيأتى يوم ينقض عليه، و هو خسران، فأضاع بذلك شرف المعاهدة و لحقه الخسر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٥ الى ٩٦]

وَ لَا- تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ

صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

الذي فر منه، وهكذا جميع أحكامه سبحانه، فإن من تخلف عنها للذة أو منفعة، كيل له الصاع صاعين.

[٩٦] وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا بَأَنْ تَنْقُضُوا عَهْدَكُمْ مَعَ غَيْرِكُمْ، لثمن قليل، و منفعة ضئيلة، فإن عهدا بينكم هو عند الله، و من خالفه لأجل مصلحة، فإنه إنما باع عهد الله و اشترى تلك المصلحة التي مهما عظمت فإنها قليلة بالنسبة إلى الأجر و المصلحة المترتبين على الوفاء بالعهد - عهد الله - إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا أَعَدَّ لِمَنْ وَ فِي بِالْعَهْدِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَنِ الْقَلِيلِ، و تلك المصلحة التي تترتب على نقض العهد فيما بينكم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى إِنْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ.

[٩٧] مَا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ يَنْفَدُ يَتِمُّ وَيُخْلَصُ، و لنفرض أنكم حصلتم من وراء نقضكم للعهد على ملك الدنيا، فإنه فإن زائل و ما عند الله من الأجر و الثواب المترتب على الوفاء بالعهد باقٍ أبداً الأبدية و لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا فِيمَا أَمَرْنَا بِهِ، و بالأخص بقواعد عهودهم، و إن أوجب ذلك ذهاب مصالح كثيرة من أيديهم أَجْرَهُمْ وَ ثَوَابَ بَقَائِهِمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فلا نعطيهم جزاء أعمالهم السيئة، و إنما جزاء أعمالهم الحسنة، التي هي أحسن أعمالهم، ليس ذلك في الآخرة، فحسب، بل في الدنيا أيضاً، و إنا لنرى الإمام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٩

[سورة النحل (١٦): آية ٩٧]

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

المرتضى عليه السلام حين قيل له في الشورى: نبايعك على كتاب الله، و سنة رسوله، و سيرة الشيخين، رفض الأخير من الفقرات الثلاث، و لم ينل الإمبراطورية الإسلامية، لأجل هذا الرفض، و قبل عثمان الثلاث، لكنه خالف، فقد حمد الإمام في الدنيا لصبره، بما نرى إلى اليوم، أما عثمان، فكان جزاؤه في نقضه للعهد، ما رأينا إلى هذا اليوم، و ثم قيل للإمام إن إبقاء معاوية أيام قلائل، يمهد له الإمبراطورية الهادئة، لكن الإمام رفض، و معاوية عثر و اهتبل، فما مصيره في الدنيا، إلا اللعن و العار، بينما مصير الإمام الصابر ما نراه، و في الإسلام أمثلة كثيرة ترشد إلى مصير الوفي الصابر، و إن رَفَّتْ أَلْوِيَةُ الْغَادِرِ الْمُسْتَعْجِلِ أَيَّامًا، قال الشاعر:

للمتقين من الدنيا عواقبهاو إن تعجل فيها الظالم الآثم

[٩٨] و ليس الجزاء الأحسن خاصا بمن و في بعده و صبر، بل كل من عمل صالحا، فإن له نفس ذلك الجزاء الأحسن مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا لَا يَشُوبُهُ فِسَادٌ وَ بَاطِلٌ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَأْكِيدٌ حَتَّى يَشْمَلَ الْحُكْمَ، لكلا الصنفين، و لا يتوهم أنه خاص بالذكر و هُوَ مُؤْمِنٌ فَإِنَّ الْإِيمَانَ شَرْطٌ قَبُولِ الْأَعْمَالِ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، إنما تهى باتباع منهاج الله سبحانه، فإذا عمل الجميع بذلك المنهاج، صارت الحياة كلها بردا و سلاما، أما إذا عمل البعض، فهو يستفيد من طيب الحياة بقدر عمله، و لناخذ أن الحياة الطيبة ترتكز على الفضيلة و الأمن و الغنى، فإذا عمل صار من نصيب كل واحد تلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٠

الحياة، أما إذا عمل البعض، كانت له فضيلة الاطمئنان القلبي، و فضيلة القناعة، و فضيلة الأخلاق الطيبة و ما إليها، و إن تكدرت حياته، بما يتوجه إليه من غيره، من الاضراب و الفقر الذين أحدثهما غيره، ممن لا يسير على منهاج الله سبحانه، نعم لو لم يعمل صالحا، فقد مع فقد الأمن و الغنى - الفضيلة أيضا، فلا اطمئنان له و هو ضجر من الحياة، سيئ الخلق، و هكذا و لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَى نعطيهم أَجْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كما مرّ، فإن الدنيا كالآخرة تظهر فيها نتائج الأعمال، فمن أهان الناس أهين، و من احترامهم احترم، و على هذا المنوال من أكل كثيرا أتخم، و من أكل قليلا سلم، و من اقتصد لم يفتقر، و من أسرف تمسكن.

ورد أن رجلا - من حضر موت، يقال له عبدان الأشرع، قال: يا رسول الله، إن امرئ القيس الكندي، جاورني في أرض، فاقتطع من أرضي، فذهب بها مني، و القوم يعلمون إنى لصادق، و لكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله امرء القيس عنه؟ فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود، فخذ بيمينه، فلما قام ليحلف أنظره،

فانصرفا، فنزل قوله: (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) «١» الآيتان، فلما قرأهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال امرئ القيس: أما ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه، ولم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه، ومن عمل صالحا الآية.

(١) النحل: ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

[٩٩] و إذ تقدم الكلام حول الهدى والضلال، والرسول والمرسل إليه يتكلم السياق حول الكتاب الذي نزل على الرسول ليبين شيئا من آدابه، وعن أقوال المشركين حوله، وقد مر أن هذه السورة تعالج جوانب العقيدة والمبدأ والمعاد فإذا قرأت يا رسول الله أو أيها القارئ القرآن والمراد إذا أردت قراءة القرآن، وقد تقدم أن كلا من الفعل والإرادة يستعمل في معنى الآخر فاستعذ بالله أي الجأ إليه من الشيطان الرجيم أي المطرود، الذي يرمى إليه باللعن، كما يرجم الزاني بالحجارة، وإنما استجبت الاستعاذة، ليسلم الإنسان في التلاوة من الغلط، الذي يلقيه الشيطان في فم التالي.

[١٠٠] إِنَّهُ يَعْنِي الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ أَى تَسْلُطٌ وَقَدْرَةٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فِي أُمُورِهِمْ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَطْرُدُ مِنْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، وَفِي الْأَحَادِيثِ، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَطْرُدُهُ، فَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ حَفِظَهُ سَبْحَانَهُ مِنْ شَرِّهِ.

[١٠١] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ أَى تَسْلُطُ الشَّيْطَانِ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ أَى يَطِيعُونَهُ، وَيَقْبَلُونَ أَمْرَهُ، فَإِنَّهُ مَسْلُطٌ عَلَيْهِمْ، مَوْجِهٌ لَهُمْ سَبِيلَ الْغَىِّ وَ الضَّلَالِ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ أَى بِسَبَبِ الشَّيْطَانِ مُشْرِكُونَ فَالْمُنْحَرِفُ فِي الْعَقِيدَةِ بِالشَّرْكِ، وَ الْمُنْحَرِفُ بِالْعَمَلِ بِإِتْيَانِ الْمَعَاصِي، يَتَسَلَطُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٢

[سورة النحل (١٦): آية ١٠١]

وَ إِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

عليهما الشيطان، ويستدرجهما في المعصية والكفر، حتى يأتيهم الموت، وهم بتلك الحالة، ومن أظهر مصاديق «من به مشرك» الطائفة التي تعبد الشيطان وتتخذها إلهها.

[١٠٢] وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ بَأَن نَسَخْنَا حَكْمًا، كَانَ فِي الشَّرِيعَةِ السَّابِقَةِ، وَ أَتَيْنَا بِحَكْمٍ آخَرَ مَكَانَهُ، لِأَنَّهُ أَصْلَحَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ الْحَكْمِ الْمَنْسُوخِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْمَصَالِحَ الْكَامِنَةَ فِي الْأَحْكَامِ، وَ إِنْ لِكُلِّ حَكْمٍ ظَرْفًا خَاصًا، وَ لِذَا يُبَدَّلُ حَكْمًا إِلَى حَكْمٍ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) «١» قَالُوا أَى قَالَ الْكُفَّارُ إِنَّمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ مُفْتَرٌ تَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ، فَكَيْفَ أَنَّهُ نَسَخَ الْحَكْمَ السَّابِقَ، وَ قَدْ حَاجَّ بَعْضُهُمُ الرَّسُولَ قَائِلًا: إِنْ كَانَ الْحَكْمُ الْأَوَّلُ صَالِحًا، كَانَ الْحَكْمُ الثَّانِي فَاسِدًا، فَكَيْفَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْفَسَادِ؟ وَ إِذَا كَانَ الْحَكْمُ الثَّانِي صَالِحًا، فَكَيْفَ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْحَكْمِ الْأَوَّلِ؟ وَ الْجَوَابُ وَاضِحٌ، فَإِنَّ الْأَحْكَامَ كَالْأَدْوِيَةِ، فَكَمَا لَا يَصْلِحُ أَنْ يُقَالَ لِلطَّيِّبِ، لِمَاذَا بَدَلْتَ الدَّوَاءَ؟ كَذَلِكَ لَا يَصْلِحُ أَنْ يُقَالَ لِلرَّسُولِ ذَلِكَ، إِنْ الْبَشَرِيَّةُ تَرَقَّتْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ، وَ اسْتَعَدَّتْ لِإِعْطَاءِ النُّسخَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ، كَالطَّالِبِ الَّذِي يَدْرُسُ فِي الثَّانَوِيَّةِ، مَا لَا يَدْرُسُ فِي الْإِبْتِدَائِيَّةِ، ثُمَّ أَنْ قَوْلُهُمْ «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ» كَانَ مُطْلَقًا، وَ تَخْصِيصُهُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ- أَى حَالَةِ تَبْدِيلِ الْآيَةِ- لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرَجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ، وَ يَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُفْتَرٍ عَلَى

(١) البقرة: ١٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٢ إلى ١٠٣]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)

الله بل أكثرهم لا يعلمون ولا يدركون المصالح والمفاسد، أي لست مفتريا، وإنما هذا القول ناشئ عن جهل أكثرهم، وتخصيص الأكثر لأن جماعة منهم كانوا يعلمون - كما قال سبحانه: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ) «١»-، وإنما يخفون عنادا وحسدا.

[١٠٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءَ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَنْتَ مَفْتَرٌ نَزَّلَهُ آي نَزَلَ النَّاسِخِ، أَوْ نَزَلَ الْقُرْآنِ رُوحُ الْقُدُسِ وَالْمَرَادُ بِهِ جِبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لِلنَّزَاهَةِ، كَأَنَّ النَّزَاهَةَ وَالْقُدَاسَةَ جَسْمٌ، وَجِبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُوحَهَا مِنْ رَبِّكَ إِزْزَالَ- بِالْحَقِّ فَلَمْ يَكُنِ الْإِنْزَالُ مِنَ الشَّيَاطِينِ - كَمَا كَانَ يَزْعَمُ بَعْضُهُمْ - وَلا بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ حَقًّا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، وَلكِنْ قَوْلُهُ وَإِنْزَالُهُ بَاطِلٌ، كَمَا كَانَ يَقُولُ الْخَوَارِجُ «لا- حَكْمَ إِلا- اللهُ» فَإِنَّهَا كَلِمَةٌ حَقٌّ، لَكِنْ قَوْلُهُمْ لَهَا فِي مَوْرَدِ التَّحْكِيمِ كَانَ بَاطِلًا، وَالْقُرْآنُ هُوَ حَقٌّ بِذَاتِهِ، وَإِنْزَالُهُ أَيْضًا بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَهُدًى آي أَنَّ الْقُرْآنَ هِدَايَةٌ لِلنَّاسِ نَحْوَ السَّبِيلِ الصَّحِيحِ وَبُشْرَى آي بَشَارَةٌ بِمَا يَسْعُدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ أَمَا غَيْرُهُمْ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَنْزِرُهُمُ بِالنَّارِ وَالْجَحِيمِ لا بِالْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ.

[١٠٤] لَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ الْقُرْآنَ بِكُلِّ مَا يَأْتِي فِي مَخِيلَتِهِمْ، قَاصِدِينَ

(١) البقرة: ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٤

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٤]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

الانتقاص منه، وإنزال مرتبته لدى الجهال، فكانوا يقولون أنه كلام الرسول، أساطير الأولين، سحر، كهانة، شعر، كلام الشياطين، إلى غيرها، ومن جملة ما يقولون ما حكى سبحانه هنا وَلَقَدْ نَعَلِمَ قَدْ لِلتَّحْقِيقِ، وَإِنْ كَانَ دَخَلَ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَأْتِي كَثِيرًا لِدَلِّكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّقْلِيلِ، وَهَذَا يَكُونُ شَبَهَ التَّهْدِيدِ، حَتَّى لَا يَسْتَرِيحَ الْمُجْرِمُ، كَمَا تَقُولُ لَوْلَدِكَ يُمْكِنُ أَنْ أَفْهَمَ مَا تَعْمَلُهُ فِي الْخَفَاءِ أَنَّهُمْ آي الْكُفَّارِ يَقُولُونَ عَلَى الْقُرْآنِ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ آي يَعْلَمُ الرَّسُولُ بِالْقُرْآنِ، بَشَرٌ هُوَ أَبُو فِكَيْهَهُ مَوْلَى ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ، كَانَ أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ، وَكَانَ قَدْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَآمَنَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَتْ قَرِيشٌ هَذَا وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَدَّ سَبْحَانَهُ مَقَالَةً هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَلْحَدِ، بِمَعْنَى أَمَالٍ، وَمِنْهُ «الْمَلْحَدُ» لِمَيْلِهِ، وَ«الْمَلْحَدُ» لِأَنَّهُ مَائِلٌ عَنِ الْحَقِّ، آي أَنَّ لِسَانَ الرَّجُلِ الَّذِي يَنْسَبُونَ الْقُرْآنَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ لا يَفْصَحُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْأَعْجَمِيِّ وَالْعَجَمِيِّ، إِنْ الْأَوَّلُ لِمَنْ لا يَفْصَحُ، وَلو كَانَ عَرَبِيًّا، وَالثَّانِي، لِمَنْ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ، وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا وَهَذَا الْقُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ وَاضِحٌ، وَإِذَا كَانَتْ فَصْحَاءُ قَرِيشٍ، عَاجِزِينَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَصَاحَةٌ وَجَمَالًا، فَهَلْ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَعْجَمِيٌّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؟ لَكِنْ الْمَعَانِدُ لا يَسْمَعُ الْحُجَّةَ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ الطَّعْنَ.

[١٠٥] ثم يسلى سبحانه نبيه، عن هذا الوحي الظالم، بقوله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٥ إلى ١٠٦]

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

بِالْإِيمَانِ وَ لَكِنَّ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ مَا أَمَّ اللَّهُ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ، بِإِرَاءِ تَهْمِ الطَّرِيقِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ لَا يَلْطَفُ بِهِمُ الْأَلْطَافَ الَّتِي يَلْطَفُ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ يَجَازِيهِمْ بِجَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، يَقْطَعُ اللَّطْفَ عَنْهُمْ، بَيْنَمَا يَسْبِغُهُ عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَوْلَمٌ مَوْجِعٌ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَظَاهِرٌ، وَ أَمَا فِي الدُّنْيَا، فَهُمْ يَحْتَرِقُونَ بِنِيرَانِ الْحَسَدِ وَ الْحَقْدِ، وَ عَيْشُهُمْ ضَنْكٌ، وَ لَا اطمئنان لقلوبهم.

[١٠٦] إنهم كانوا ينسبون الرسول إلى الافتراء، بينما الافتراء من شأنهم، فغير المؤمن بالله الذي لا يرى تبعه لأعماله هو الذي يفترى، أما المؤمن، فإنه نزيه عن الافتراء، فكيف بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الْاِفْتِرَاءَ أَصْلَهُ مِنْ بَابِ «فَرَى» بِمَعْنَى قَطَعَ، فَكَأَنَّ الْمَفْتَرِيَ قَطَعَ شَيْئًا مِنَ الْبَاطِلِ لِيُرِيَهُ بِصُورَةِ الْحَقِّ، وَ لَذَا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ إِلَى الْكُذْبِ، أَيْ يَقْطَعُ الْكُذْبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ الْمَعَادِ، وَ لَا- يَخَافُونَ الْجَزَاءَ وَ الْحِسَابَ، وَ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ هُمُ الْكَاذِبُونَ فَالْكَذِبُ مَنْحَصَرٌ فِيهِمْ، لَا إِنَّكَ كَاذِبٌ- كَمَا يَقُولُونَ-.

[١٠٧] وَ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ الْكُفَّارِ، يَذْكَرُ سُبْحَانَهُ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ بَعْدَ أَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَ عَرَفَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَ هَذَا مَبْتَدَأُ خَبْرِهِ «فَعَلَيْهِمْ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٦

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٧]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)

وَ قَدْ اسْتَشْنَى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتِثْنَاءً، كَمَا أَوْضَحَ الْكَافِرَ مِنْ بَعْدِ الْإِيمَانِ بِتَوْضِيحٍ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ أَنْ أَكْرَهَهُ الْكُفَّارَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَفْرِ، فَأَظْهَرَ الْكُفْرَ تَقِيَةً، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) «١» وَ الْحَالُ أَنْ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ فَلَمْ يَرْتَدِدْ، وَ إِنْ أَظْهَرَ اللَّفْظَ فَقَطْ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِهَذَا الْحَالِ، لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ، يَدْخُلُونَ فِي أَمْرِ إِكْرَاهِهَا، لَكِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَدْعُونَ لَهُ إِذْعَانًا، فَلَيْسَ الْمُسْتَشْنَى مِنْ «كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانِهِ» مِثْلَ هَذَا، وَ إِنَّمَا مِنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، وَ الثَّانِي قَوْلُهُ وَ لَكِنَّ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا أَيْ أَنَّ الْمُرَادَ بِ«مَنْ كَفَرَ» مَنْ اتَّسَعَ قَلْبُهُ لِلْكَفْرِ مِقَابِلَ مَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ- وَ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّهُ كَيْفَ يَضِيقُ الصَّدْرُ- أَمَا شَرْحُهُ وَ اتَّسَاعُهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ارْتَاحَ إِلَى شَيْءٍ، فَإِنَّهُ يَهْدَأُ جِسْمَهُ وَ يَخْفُ دَمَهُ، فَيَكُونُ انْتِشَارَ رِثْتِهِ أَقْلًا، وَ لَذَا يَحْسُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّوَسُّعِ فِي صَدْرِهِ فَعَلَيْهِمْ خَيْرٌ «مَنْ» وَ جَاءَ «الْفَاءُ» فِي الْخَبْرِ، لِأَنَّ الْمَبْتَدَأَ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ يَعَامَلُ مَعَهُمْ مَعَامَلَةَ الْغَضَبَانِ، وَ هِيَ تَرْكُهُمْ، وَ عَدَمُ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَ هُوَ عَذَابُ النَّارِ، الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا، وَ لَا اضمحلال.

[١٠٨] وَ إِنَّمَا عَلَيْهِمُ الْغَضَبُ وَ لَهُمُ الْعَذَابُ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا أَيْ آثَرُوا وَ قَدَمُوا، وَ طَلَبُوا حُبَّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ التَّلَذُّذَ

(١) آل عمران: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٧

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٨]

أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)

بِنَعِيمِهَا الْفَانِي الزَّائِلِ الْمَكْدَرِ عَلَى الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ الصَّافِيَةِ وَ بَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَأَى إِعْرَاضَهُمْ، لَمْ يَهْدِهِمْ بِالطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ، فَصَارُوا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ بِاسْتِمْرَارِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَ الْفَسَادِ حَتَّى اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ وَ الْعَذَابَ.

وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» هُوَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» وَ قِصَّتُهُ عَلَى مَا ذَكَرُوا أَنَّ قَرِيْشًا أَكْرَهُوهُ، كَمَا أَكْرَهُوا أَبَاهُ يَاسِرًا، وَ أُمَّهُ سَمِيَّةٌ عَلَى الْارْتِدَادِ، فَأَبَى أَبَوَاهُ، فَتَقَاتَلَا شَرَّ قَتْلَةٍ- وَ هُمَا أَوَّلُ شَهِيدَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ- وَ أَمَا عِمَارٌ فَإِنَّهُ أَعْطَاهُمْ بِلِسَانِهِ مَا أَرَادُوا- مَكْرَهًا- فَجَاءَ الْبَعْضُ إِلَى الرَّسُولِ قَاتِلِينَ. إِنْ عِمَارًا قَدْ كَفَرَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: كَلَّا إِنْ عِمَارًا مَلَىءَ إِيمَانًا مِنْ

قرنه إلى قدمه و اختلط الإيمان بلحمه و دمه، فأتى عمار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْكِي فَيَجْعَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ، قَائِلًا:
مالِك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت
(١)، و

ورد أيضا أن قوله «و لكن من شرح» نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، من بني عامر بن لؤي (٢)
[١٠٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ شَرَحُوا بِالْكَفْرِ صَدْرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، هُمُ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يَفْقَهُونَ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ فَلَا يَحِلُّوْنَ كَلَامَ الْحَقِّ فِي آذَانِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ فَلَا يَنْظُرُونَ

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

إلى الحق بنظر كونه حقا، و إنما بنظر الإهانة و الاحتقار، فإنهم لما أعرضوا عن الهدى الذى أراهم الله سبحانه إياه تركهم، حتى يكون طابعهم الكفر فى حواسهم الباطنة و الظاهرة، و هكذا يهوى الإنسان إلى الدركات، كما يترقى إلى الدرجات، و بلوغ الأمرين، اتباع هذا السبيل، أو ذاك السبيل و أولئك هم الغافلون إنهم نزلوا منزلة الغافلين، و إنهم لم يكونوا بغافلين عن المبدأ و المعاد، و لوازمهما لأن التارك للأثر ينزل منزلة الجاهل و الغافل، فإذا رأى زيد الأسد المقبل، فلم يفر، يقال عنه، أنه جاهل، أو غافل عن وجود الأسد، و إلا لماذا لم يفر؟

[١١٠] لَا جَرَمَ أَى حَقًّا- وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ- أَنَّهُمْ أَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، شَارِحِينَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ، وَ كُلُّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، بَيْنَمَا رِبِحَ الْمُؤْمِنُونَ أَنفُسَهُمْ وَ الْجَنَّةَ.

[١١١] أما من أكره، و قلبه مطمئن بالإيمان ثم للتراخي فى اللفظ، أو المراد التراخي فى الزمان إنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَكَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا عَنْ دِينِهِمْ وَ أَكْرَهُوا، حَتَّى نَالُوا بِلِسَانِهِمْ مَا أَرَادَ الْكُفَّارُ ثُمَّ جَاهِدُوا بَعْدَ مَا هَاجَرُوا مَعَ الرَّسُولِ وَ صَبَرُوا عَلَى تَعَبِ الْجِهَادِ، وَ عَلَى مَكَارِهِ الْأَيَّامِ الْوَارِدَةِ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٩

[سورة النحل (١٦): آية ١١١]

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

المسلمين إنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهَا أَى بَعْدَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ لَعَفُورٌ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ رَحِيمٌ يَرْحَمُهُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ، إِنْ عَمِلَهُمْ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ مَوْجِبًا لِلْعَصِيَانِ، لَكِنْ حَيْثُ أَنْ كَوْنَ الْفِتْنَةُ تُؤَدِي بِبَعْضِ النَّاسِ حَتَّى يَرْتَدُوا حَقِيقَةً، كَانَ ظُهُورُ الْغَفْرَانِ وَ الرَّحْمَةِ، إِنْ مَا هُوَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ وَ الْجِهَادِ وَ الصَّبْرِ، وَ كَثِيرًا مَا يُطْلَقُ الْفِعْلُ عَلَى ظُهُورِهِ، يُقَالُ:

كفر فلان، أى أظهر كفره و إن كان كافرا قلبا قبل ذلك، و فى بعض التفاسير، إن هذه الآية نزلت بالنسبة إلى من فتنوا من ضعفاء الإيمان، الذين فتنوا حقيقة، و كفروا قلبا و لفظا، ثم رجعوا إلى الإسلام و حسن إيمانهم، فإن قبول توبتهم كان مشروطا بالهجرة و الجهاد و الصبر، و قد أكد «من بعد» لتقرير ذلك.

[١١٢] و إذ ذكر عقاب الكافرين، و ثواب المؤمنين، جاء السياق ليبين وقت الجزاء، فاذا ذكر يا رسول الله يَوْمَ تَأْتِي كُلَّ نَفْسٍ صَالِحًا كَانُ أَمَّ طَالِحًا، و هو يوم القيامة تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا أَى تَخَاصِمُ الْحُكَّامَ وَ الشُّهُودَ وَ تَبَاحُثُ مَعَهُمْ حَوْلَ شَخْصِهَا، فيقول الكفار (وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» و يقول الاتباع (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا) «٢» و يقولون (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كِبْرَاءَنَا) «٣» إلى غير ذلك وَ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) الأعراف: ٣٩.

(٣) الأحزاب: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٠

[سورة النحل (١٦): آية ١١٢]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)

أى تعطى جزاء أعمالها و افيها غير منقوص، خيرا كان عملها أم شرا وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ فِي الْجَزَاءِ، بأن يعاقب البرىء، أو يزداد على عقاب المجرم، أو ينقص من أجر المحسن.

[١١٣] إن الكفار فى الآخرة، يجزون جزاء كفرهم، فهل الدنيا تمر عليهم بسلام؟ كلا! فإن الله سبحانه، جعل الكون، و قرر فيه مناهج، ثم أرشد إلى تلك المناهج على لسان الأنبياء، فمن أطاع سعد، إذ هو يمشى على المنهاج الكونى فلا يصطدم، و من عصى اصطدم بالمنهاج و صارت عاقبته الدمار، كمن يخالف أمر الطبيب فإنه يشتد به المرض حتى يهلك، و قد سبق أن ضرب الله سبحانه مثلين للشركاء، و هنا مثل ثالث للبلدة التى تطغى و تخالف أمر ربها وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِكُلِّ قَوْمٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَأَبْطَرْتَهُمْ النِّعْمَةَ، فكفروا بها، فأنزل الله بهم نعمته قَرْيَةً أَى مَدِينَةً، فإن القرية تطلق على المدينة، كما قال: (وَ تِلْكَ الْقَرْيَةُ أَهْلَكْنَاهُمْ) «١» (مِنْ قَرْيَتِكَ) «٢» كانت تلك القرية آمِنَةً يعيش أهلها فى أمن مُطْمَئِنَّةً من جهة معيشتها، فهى ساكنة هادئة لا يحتاج أهلها إلى التحول و الانتقال يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا أَى وَاسِعًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فإن القرية، إذا سكنت و هدأت حسن زرعها و تجارتها، فالأرزاق تأتيها من أطرافها القريبة و البعيدة، فَكَفَرَتْ أَى تَلَكَّ

(١) الكهف: ٦٠.

(٢) محمد: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧١

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا - طَيِّبًا وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)

القرية، و المراد أهلها بعلاقته الحال و المحل بِأَنْعَمِ اللَّهُ فَلَمْ يُوَدُّوا شُكْرَهَا، فإن شكر النعم الإطاعة و الإيمان، فإذا كفروا و عصوا كان كفرانا للنعمه فَأَذَاقَهَا اللَّهُ أَى أَذَاقَ سَبْحَانَهُ تَلَكَّ الْقَرْيَةُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ أَى أَخَذَهُمُ بِالْجُوعِ، فذهب رزقهم، و بالخوف فذهب أمنهم بما كانوا يَصْنَعُونَ أَى بسبب صنيعهم الكفر و الطغيان، و قد كان التعبير باللباس بليغا جدا حيث دل على أن الخوف و الجوع شمل جميع البدن، لا- البطن و القلب فقط، للدلالة على كثرة الأمرين، فإن الإنسان إذا جاع كثيرا ظهر الهزال فى جميع جسده، و إذا

خاف كثيرا ظهر أثر الخوف الذي هو الانكماش للجلد، و الاصفرار على جميع البدن، و قد قال سبحانه «أذاقها» فليس مجرد إمساس، بل ذوق، فإنه أعمق تأثيرا عن الإمساس، و لقد كان هذا المثل منطبقا على مكة تماما، حيث كفر أهلها بعد ذلك الأمن و الرفاه. [١١٤] وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ كَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الَّذِي جَاءَ أَهْلَ مَكَّةَ، وَ قَدْ كَانَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَكَذَّبُوهُ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَ بِرِسَالَتِهِ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ بِالْجُوعِ وَ الْخَوْفِ وَ هُمْ ظَالِمُونَ فَلَمْ يَكُنْ تَعْدِيهِمْ ظُلْمًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، بَلْ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْمَالِهِمْ وَ ظَلَمَهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَ غَيْرَهُمْ.

[١١٥] وَ حَيْثُ عَرَفْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ جَزَاءَ الْكُفْرَانِ، فَلَا تَتْرَكُوا الشُّكْرَ وَ الْإِيمَانَ، إِنْ أُرِدْتُمْ دَوَامَ النِّعَمِ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ مِنَ الْأَطْعَمَةِ الْمَحَلَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٢

[سورة النحل (١٦): آية ١١٥]

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلٌ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)

حللنا شرعا طيباً طبا و مذاقا، فإن كل حلال طيب، و كل طيب حلال، و «كلوا» أمر بمعنى الإباحة و أشكروا نِعَمَتَ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ وَ الْإِطَاعَةِ، فَإِنَّكَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ زَيْدٌ ثُمَّ أَنْكَرْتَ وَجُودَهُ أَوْ خَالَفْتَ أَمْرَهُ كُنْتَ مُعْرِضًا نَفْسَكَ لِسُخْطِهِ إِذْ كَفَرْتَ بِنِعْمَتِهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ أَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعْبُدُونَ أَمَا مِنْ لَا يَعْبُدُ الْإِلَهَ فَالْأَمْرُ بِإِقَامَتِهِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَ أَنْ يَشْكُرَ إِحْسَانَهُ تَعَالَى، عِبْتُ، إِذْ مِنْ لَا يَقْبَلُ الْأَصْلَ لَا يَقْبَلُ الْفَرْعَ، فَلَيْسَ مَفْهُومُ الْآيَةِ، لَا تَشْكُرُوا إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ سَالِبَةٌ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ حَيْثُئِذْ.

[١١٦] وَ حَيْثُ أَبَاحَ سُبْحَانَهُ الْمَحَلَّاتِ الطَّيِّبَاتِ، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْمَحْرَمَاتِ، لِتَمَيُّزِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَ هَذَا فِي قِبَالِ مَا كَانُوا يَحْرُسُونَ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَ السَّائِبَةِ وَ الْوَصِيلَةِ وَ الْحَامِ، لِأَنَّ الْحَصْرَ حَقِيقِي، حَتَّى يُقَالَ مَا بِالْأَشْيَاءِ لَمْ تَذَكَرْ هُنَا وَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي الْبَلَاغَةِ، أَنَّ الْحَصْرَ إِضَافِي إِذَا كَانَ فِي قِبَالِ شَيْءٍ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ: أَنْ فِي الدَّارِ مَلِكَيْنِ، تَقُولُ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَلِكٌ وَاحِدٌ، تَرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَلِكٌ ثَانٍ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرَ الْمَلِكِ فَإِنَّ هَذَا الْحَصْرَ لَا يَنَافِي وَجُودَ الْعِشْرَاتِ مِنَ النَّاسِ فِيهَا إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ الَّتِي مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا وَ الدَّمَ غَيْرَ الْمُتَخَلَّفِ فِي الْأَجْزَاءِ الْمَحَلَّةِ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ سَائِرِ أَشْيَائِهِ، كَالشَّحْمِ وَ اللَّبَنِ وَ نَحْوَهُمَا، وَ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ حُرِّمَتْ لِمَا يُوجِبُ مِنَ الضَّرَرِ الْبَالِغِ عَلَى الْجِسْمِ وَ مَا أَهْلٌ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ أَى سَمِيَ غَيْرَ اسْمِ اللَّهِ عِنْدَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٣

[سورة النحل (١٦): آية ١١٦]

وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنْ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)

ذبحه، فإن الكفار كانوا يسمون الأصنام لدى ذبحهم للذبائح- و قد تقدم تفصيل ذلك- و هنا إنما حرم، لأنه يوذى العقيدة، و كذا نرى في الإسلام أن الأحكام تشرع لصيانة العقيدة، كما تشرع لصيانة الجسم، فالبول نجس لضرره، و الكافر نجس لأنه يضر العقيدة، و هكذا فمن اضطرَّ أى تناول هذه المحرمات غير باغٍ أى لم يكن طالبا له، حتى أوقع نفسه فيه، بل اضطراره صار صدفةً و لا عادٍ أى غير متعد لحد الاضطرار، كأن يكون مضطرا إلى نصف رطل، فياكل رطلا، فإنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَسْتَرُ هَذَا الْعَمَلَ الْقَبِيحَ فِي نَفْسِهِ- و إن لم تكن معصية- رَحِيمٌ يَرْحَمُ الْمُتَتَابِلَ، وَ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَ غَالِبًا يَأْتِي وَصْفُ «رَحِيمٍ» بَعْدَ «غَفُورٍ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَالْبَشَرِ مُنْتَهَى عَطْفِهِمْ وَ لَطْفِهِمْ أَنْ يَغْمُضُوا عَنِ الْمَجْرَمِ، فَإِنَّهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعَفْوِ عَنْهُ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ.

[١١٧] وَ إِذْ تَبَيَّنَ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، فَمَا بِالْأَحْكَامِ حَسَبِ أَهْوَائِهِمْ بَلَا حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ؟ وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ أَيُّهَا النَّاسُ الْكُذِبَ مَفْعُولٌ تَصِفُ مُصَدَّقٌ ل «مَا» أَى لَا تَقُولُ لِلْكَذِبِ الَّذِي تَصِفُهُ أَلْسِنَتُكُمْ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ فَإِنَّ الْوَاقِعَ يُوصَفُ بِالصِّدْقِ وَ الْكُذْبِ، فَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ قَائِمٌ، وَ صِفْتَ الْخَارِجَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ زَيْدٌ، فَإِنَّكَ مَطَابِقًا لِلْخَارِجِ كَانَ صِدْقًا، وَ إِلَّا كَانَ

كذبا، والحاصل لا تقولوا لما حللتموه بأنفسكم مثل الميتة هذا حلال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٧ إلى ١١٨]

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

ولما حرمتهم مثل السائبة، هذا حرام لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أى لتكذبوا على الله فى إضافة التحريم إليه، اللام للعاقبة أى نتيجة تحليلكم و تحريمكم، وعاقبة الافتراء على الله، بمعنى أن هذا العمل، لا يكون إلا افتراءً إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ لا يفوزون بالجنان، إذ مصيرهم إلى النار.

[١١٨] إنما الدنيا التى يكذبون لأجلها مَتَاعٌ قَلِيلٌ أى هى شىء ينتفعون به، ويتمتعون منه فى أيام قلائل وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه يوم القيامة، و أى عاقل يشتري العذاب الأليم، لمتاع قليل؟

[١١٩] وهنا يتساءل الإنسان، كيف أن بعض الأشياء محرمة على اليهود، وهى طيبات، وقد سبق أن الطيبات محللة؟ والجواب، أن التحريم عليهم كان لحكمه خارجية، وهى أنهم ظلموا، وإذا حرم سبحانه بعض الطيبات كما تحرم ابنك عن بعض الأمتعة- المباحة لسائر أبنائك تأديبا- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا أى صاروا يهودا، والصيرورة باعتبار أن اختيار الدين، إنما هو بعد البلوغ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ يا رسول الله مِنْ قَبْلُ إما متعلق ب «عليك» أو ب «حرمانا» كما قال سبحانه فى سورة الأنعام: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ) «١»

(١) الأنعام: ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٩ إلى ١٢٠]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِتَحْرِيمِهِمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ عَلَيْهِمْ وَحَرَمْنَاهُمْ مِنْهَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ و كان جزاء ظلمهم تأديبهم بتحريمهم بعض الطيبات عليهم.

[١٢٠] ولا- يظن اليهود وغير اليهود، أن من عصى فأذبه سبحانه، أو أوعده النار فإن الأمر قد تحتم ولا مرجع بعد ذلك، فإن الله سبحانه يغفر لمن تاب ثُمَّ بعد الوعيد والتحريم إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ أى الشىء القبيح السىء بِجَهَالَةٍ و كل عاصى، فهو جاهل فى عصيانه، و إن علم بأنه معصية، لأنه لا- يعلم مدى تأثيرها، و لو علم لا نقلع ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ السوء وَ أَصْلَحُوا أعمالهم، فيما بعد، بأن لم يعصوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أى بعد التوبة لَغَفُورٌ يغفر ذنبهم رَحِيمٌ يتفضل عليهم بالإنعام والإحسان.

[١٢١] و قد كان كل من اليهود والمشركين- الذين تقدمت أحوالهم- ينسب آراءه و أعماله إلى إبراهيم عليه السلام، حيث يدعى كل طائفة من الطائفتين إن إبراهيم أباه، و إنه هو الذى اتبع تعاليمه، فاليهود من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، و كفار مكة- غالبا- من أولاد إسماعيل بن إبراهيم، و لذا يأتى السياق ليفند مزاعم الجانيين، و إن إبراهيم لم يكن كما يزعمون إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً و إنما كان بقیة أهل العالم أمة،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢١ إلى ١٢٣]

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

و إبراهيم أمه، لأنه كان مسلماً، و الباقون كفاراً قانتاً لله أى مطيعاً لله من القنوت بمعنى الخضوع و الانقطاع إليه سبحانه حنيفاً ماثلاً عن طريق الكفار، فإنه من حنف، بمعنى مال أو بمعنى مستقيماً،

قال الباقر عليه السلام فى تفسير الآية: إنه كان على دين لم يكن أحد غيره، فكأنه أمه واحدة و أما قانتاً فالمطيع، و أما الحنيف فالمسلم و لم يك من المشركين كما تزعمون أنتم أيها المشركون.

[١٢٢] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَنْعَمَ جَمْعُ نِعْمَةٍ، أَى أَنَّهُ كَانَ شَاكِرًا لِنِعْمِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَمْ يَكْ يَكْفُرْ بِهَا كَمَا هُوَ دَأْبُكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ الَّذِينَ تَنْسِيُونَ أَنْفُسَكُمْ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ اجْتِبَاءً أَى اخْتَارَهُ سَبْحَانَهُ لِلرَّسَالَةِ وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ هُوَ صِرَاطُ التَّوْحِيدِ وَ الْإِسْلَامِ، وَ لَمْ يَكُنْ ذَا صِرَاطٍ مُنْحَرَفٍ كَطَرِيقِ الْمَلْتَوِيَّةِ، فَكَيْفَ تَنْسِيُونَ أَنْفُسَكُمْ إِلَيْهِ؟

[١٢٣] وَ آتَيْنَاهُ أَى أَعْطَيْنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً أَى نِعْمَةً، وَ الْمُرَادُ بِهَا الْحَسَنَةُ الْكَامِلَةُ، الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ مِنَ النَّبُوَّةِ وَ الْعِلْمِ وَ الْمَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ غَيْرِهَا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) «١» وَ لَيْسَ الْإِنْفَادُ فِيهَا لِقَصْدِ الْفَرْدِ، كَمَا لَا يَخْفَى وَ إِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فَلَهُ جَزَاؤُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَ النِّعَمِ.

[١٢٤] وَ إِذْ تَبَيَّنَ حَالُ إِبْرَاهِيمَ، فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَتَّبِعُ لَهُ، لَا الْيَهُودَ

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٧

[سورة النحل (١٦): آية ١٢٤]

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

و المشركون ثم أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - بعد فترة طويلة بينك و بين إبراهيم - أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَى طَرِيقَتَهُ وَ سُنَّتَهُ فِي التَّوْحِيدِ، وَ سَائِرِ الْمَعَارِفِ، مُقَابِلَ اتِّبَاعِ طَرِيقَةِ الْكُفَّارِ أَوْ طَرِيقَةِ الْيَهُودِ حَنِيفًا فِي حَالِ كَوْنِكَ حَنِيفًا عَنِ الْبَاطِلِ، أَوْ فِي حَالِ كَوْنِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَمَا يَزْعَمُ هَؤُلَاءِ، وَ هَذَا لِلتَّكْيِيدِ، بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَمَا زَعَمُوا، وَ إِنْ كَانَ قَدْ سَبَقَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكْ مُشْرِكًا.

[١٢٥] وَ حَيْثُ نَدَّدَ سَبْحَانَهُ بِالْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ «وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» عَطَفَ عَلَى الْيَهُودِ بِالتَّشْدِيدِ بِهِمْ فَكَيْفَ يُدْعُونَ اتِّبَاعَ إِبْرَاهِيمَ، فَهَمْ غَافِلُونَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَ الشَّاهِدُ لِذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ فِيهِ الصَّيْدَ لَهُمْ، فَاسْتَحْلَوْهُ، وَ صَادُوا فِيهِ، فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَسَخَهُمْ قَرْدَةً وَ خَنَازِيرًا إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ أَى قَرَّرَ تَحْرِيمَ الْإِصْطِيَادِ فِيهِ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أَى فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، فَتَبِعَ بَعْضُ سَبِيلِهِ، بِأَنَّهُ اتَّبَعُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ خَالَفَ بَعْضُ، بِأَنَّهُ انْحَرَفُوا عَنِ الدِّينِ، أَوْ أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى «السَّبْتِ» أَى جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى أَوْلِيئِكَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي السَّبْتِ، فَحَرَمَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ بِكُفْرِهِمْ عَنِ الْإِصْطِيَادِ، وَ أَحْلَوْهُ جَمَاعَةٌ بِالْإِصْطِيَادِ فِيهِ، وَ لَيْسَ السَّبْتُ - كِنَايَةً عَنِ الدِّينِ الَّذِي لَهُمُ السَّبْتُ - مُرْتَبَطًا بِالْمُسْلِمِينَ وَ بِمَنَاجِكِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمَا نَقُولُ «السَّبْتُ لِأَصْحَابِهِ» تَرِيدُ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ لِلْيَهُودِ لَا تَرْتَبِطُ بِنَا وَ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَى بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)

من أمور دينهم فيميز المحق من المبطل و يجازى كلما حسب عمله، أما أنت فلا ترتبط بهم، وإنما ترتبط بإبراهيم عليه السلام، كما نقول لمن يقف متفرجا على تخاصم، اذهب أنت في طريقك، أما هؤلاء، فإن المحكمة تفصل بينهم.

[١٢٦] و إذ كنت يا رسول الله متبعا طريق إبراهيم عليه السلام، غير مرتبط باليهود و المشركين فعليك أن تدعو الناس إلى هذه الطريقة ادع إلى سبيل ربك أي ادع الناس إلى طريقه سبحانه بالحكمة و هي وضع الشيء موضعه، بأن تكون الدعوة حكيمة في الأسلوب و الزمان و المكان و الموعظة الحسنة بأن تكون الدعوة و عطا حسنا، لا يسبب تشريد الناس، بل إقبالهم، فقد يقول الإنسان للفاقد: يا فاسق و يبصق في وجهه- فإنه يزيد عنادا- و قد يقول له: أيها الأخ إنك شاب لطيف، فلما ذا لا تسلك سبيل ربك الذي نهاك عن العمل الكذائي، و هكذا و جادلهم أي حاجج و ناظر من كفر و عصى بالتي أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق، حيث لا تثير عنادهم، و لا- تجرح كبريائهم إن ربك يا رسول الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله و أعرف بطباعهم و نفسياتهم، فأمره إياك بالدعوة هكذا ليس إلا- لأنه أعلم بما يصلحهم و هو أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا فجزاؤهم عليه، و ليس عليك إلا الدعوة بهذه الكيفية.

[١٢٧] و لقد كانت الدعوة معرضة لأصناف الأخطار، و الداعي و من تبعه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٩

لصنوف الإهانة و الأذى، و لذا كان من اللازم تشريع قانون المجازاة، إلى جنب الأمر بالدعوة فما ذا يصنع النبي و من تبعه بالكفار الذين يؤذونهم في سبيل الدعوة؟ و إن عاقبتهم أي أردتم معاقبه من آذاكم و أهانكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به أي بقدر ما تعدوا عليكم، بلا زيادة، فإن المظلوم قد يخرج عن الاعتدال، فينتقم أكثر مما أهين، أ رأيت من يكثر السباب لمن سبه مرة، أو من أشبهه و لكن صبرتم فلم تعاقبوا أصلا و تركتم القصاص و المجازاة لهو أي الصبر خير للصابرين لأنه يعود عليهم بخير الدنيا و سعادة الآخرة، و في صيرورة الإنسان مظلوما انتصار له، بينما أن المقتضى لا يأخذ محلا من القلوب، و من مصاديق هذا الحكم ما

ورد عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم- في تفسير الآية- أنه قال يوم أحد: من له علم بعمى حمزة؟ فقال الحارث بن الصامت: أنا أعرف موضعه، فجاء حتى وقف على حمزة، فكره أن يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأمر المؤمنين عليه السلام: اطلب يا علي عمك، فجاء علي عليه السلام فوقف على حمزة، فكره أن يرجع إليه، فجاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: حتى وقف عليه، فلما رأى ما فعل به بكى، ثم قال: ما وقفت موقفا قط أغيظ علي من هذا المكان، لأن أمكنني الله من قريش، لأمثلن سبعين رجلا منهم، فنزل عليه جبرئيل، فقال: «و إن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به و لن صبرتم لهو خير للصابرين و اصبر» فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: بل أصبر «١»

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٧ إلى ١٢٨]

وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

أقول: فإن قيل كيف قال الرسول لأمثلن، مع أن كلام الرسول ليس إلا و حيا؟ و الجواب أنه ما المانع في كونه و حيا، أن ينزل لإظهار سوء فعلهم، و أنهم استحقوا مثل ذلك الجزاء، و كان و حيا ما نزل من القرآن؟ و خلف الوعيد ليس قبيحا.

[١٢٨] وَ اصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا تَلَاقيه من المكاره في سبيل الدعوة، و لا تنافي بين الأمرين، فإن التأخير عام لكل واحد، و هذا خاص بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم و ما صبرك إلا بالله إلا بتوفيقه و أمره و تحت نظره و لا تحزن عليهم فإن من يدعو إلى الرشاد، لا

بد و أن يحزن إذا رأى الإعراض، لكن الله سبحانه ينهى نبيه عن الحزن - نهى إشفاق و إرشاد - كى لا يضيع حزنه عبثا و لا تكَّ يا رسول الله فى ضَيْقِ أى لا يضيق صدرك مِمَّا يَمْكُرُونَ يدبرون من الحيل و المكائد، لإطفاء الإسلام، و إخماد صوت الحق، فإنهم لا يقدرُونَ على ذلك.

[١٢٩] و الزم جانب التقوى فى الدعوة، و فى سائر الأمور ف إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر و المعاصى، معهم بالمعونة و النصر و النجاة و الحفظ و مع الَّذِينَ هُمْ مُخْسِتُونَ يحسنون فى أعمالهم، و هو فوق التقوى، فإن التقوى - مثلا - أن لا تكذب، و الإحسان، أن تسبح الله بلسانك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الخامس عشر من آية (١) سورة الإسراء إلى آية (٧٥) سورة الكهف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٣

١٧ سورة الإسراء مكية - مدنية / آياتها (١١٢)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتغالها على الفعل من «الإسراء» فى قوله تعالى «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» و تسمى أيضا سورة «بنى إسرائيل» لاشتغالها على لفظة «بنى إسرائيل»، و هى مكية، إلا آيات، و لذا نرى الجو العام فيها، كالجو فى غالب السور المكية، يعالج قضايا العقيدة، و تشمل هذه السورة على إحدى معجزات النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الكفار، و هى ذهابه ليلا من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، حينما عرج به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إلى السماء، ليرى آيات الله سبحانه فى الملكوت عيانا. و حيث أن سورة النحل اختتمت بذكر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، تفتح هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الرحمن الرحيم، فهو إله كل شىء، مستحق لجميع أنواع الإعظام و الإكرام، أليس هو الله - و إنه اسم للذات المستحق لجميع أصناف المحامد -؟ و أليس هو رحمانا رحيمًا، متفضلا على العباد - حتى العاصين - بأنواع الإحسان و الامتنان، فمن أحق منه بذكر اسمه فى أول الأشياء، و ابتداء الأعمال و الأمور؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

[٢] سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ «سبحان» منصوب بفعل مقدر، أى أسبح سبحان الإله الذى سار بالنبى ليلا، فإن الإسراء هو السير ليلا، و المراد بالعبء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فإنه من أفضل صفاته أن يكون عبدا - كامل العبودية - لله، قالوا: و لذا قدم على الرسالة فى التشهد «و أشهد أن محمدا عبده و رسوله» لئلا للتوضيح و التأكيد مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فى مكة، و الكثيرون على أن ذلك كان من دار «أم هانئ» بنت «أبى طالب» و إنما أطلق المسجد الحرام عليه، بعلاقة الكل و الجزء، فإن الجزء قد يطلق على الكل، للملابسة بينهما، فمكة يطلق عليها المسجد الحرام إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أى الأبعد، فقد كان أهل مكة يسمون بيت المقدس بالمسجد الأقصى، لبعده عن محلهم، مقابل المسجد الأدنى الذى هو المسجد الحرام - عندهم - ثم أن هذا السير من مكة إلى المسجد الأقصى، يسمى فى عرفنا ب «الإسراء» لأنه سير من هنا إلى هناك، ثم صعود الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من المسجد الأقصى إلى السماء يسمى «معراجا» لعروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من هناك إلى السماوات، و قد كان الإسراء و المعراج فى ليلة واحدة، فى

اليقظة ببدنه الشريف، حسب ما انعقد عليه إجماع علمائنا، ودلّ عليه ظاهر القرآن الحكيم، و الروايات المتواترة، الذي باركنا حوّلته فإن حول المسجد الأقصى، كان مبعث الأنبياء، و خصوصاً العظام منهم، كموسى و عيسى و إبراهيم و صالح و شعيب و يعقوب و إسحاق و إسماعيل و غيرهم عليهم السّلام، و لعل هذا الإسراء كان لأجل التلميح إلى ربط الديانات الكبرى العالمية و اليهودية و المسيحية و الإسلام بعضها ببعض، فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٥

أصل جوهرها قبل التحريف فى الدينين السابقين، و على أى فقد كان حول المسجد الأقصى مباركا ببعث الأنبياء، و نشر تعاليم السماء، و كأنه سبحانه اختار هذه المناطق، لأنها الوسط بين الشرق و الغرب، فزحف الدين منها إلى العالم هين يسير بخلاف ما لو كان الدين من أقصى الشرق و الغرب، و إنما أسرينا بالرسول لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا أى لبعض الآيات الكونية فى الأرض و السماء إِنَّهُ تعالى هُوَ السَّمِيعُ لكل الأصوات فيسمع قول المكذب و المصدق الْبَصِيرُ بما يرى، فىرى المؤمن و الكافر و الحركات و السكنات، ثم أن قصة المعراج ليست عجيبة على الله سبحانه، و من يؤمن بأصل القرآن، و إمكان الوحي و الرسالة لا بد و أن يؤمن بهذه القصة، و الا فأى فرق بينه و بينها؟

نعم يستغرب هذه القصة الطبيعيون، و من إليهم ممن ضيقوا دائرة معارفهم فى المحسوسات، و لم يؤمنوا بما وراء الطبيعة (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا) «١» و لا بأس بالإشارة إلى مجمل من القصة، و تفصيلها فى الكتب المفصلة: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: أتانى جبرئيل و أنا بمكة، فقال: قم يا محمد، فقامت معه، و خرجت إلى الباب، فإذا جبرئيل و معه ميكائيل و إسرافيل، فأتى جبرئيل بالبراق، و كان فوق الحمار دون البغل، خدّه كخد الإنسان و ذنبه كذنب البقر، و عرفه كعرف الفرس، و قوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنة، و له جناحان من فخذه، فقال لى جبرئيل: اركب، فركبت و مضيت، حتى انتهيت إلى بيت المقدس، فلما انتهيت إلى بيت المقدس، إذا بملائكة

(١) الجاثية: ٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٦

من السماء نزلت بالبشارة و الكرامة من عند رب العزة، و صليت فى بيت المقدس، و بشرنى إبراهيم فى رهط من الأنبياء، ثم وصف موسى و عيسى ثم أخذ جبرئيل ييدى إلى الصخرة، فأقعدى عليها، فإذا معراج إلى السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا، فصعدت إلى السماء الدنيا، و رأيت عجائبها، و ملائكتها يسلمون علىّ، ثم صعد بى جبرئيل إلى الثانية فرأيت عيسى ابن مريم و يحيى ابن زكريا، ثم صعد بى إلى الثالثة، فرأيت فيها يوسف، ثم إلى الرابعة، فرأيت فيها إدريس، ثم إلى الخامسة، فرأيت فيها هارون، ثم صعد بى إلى السادسة، فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم فى بعض، و فيها الكرويين، ثم إلى السماء السابعة، فرأيت فيها إبراهيم، قال ثم جاوزناها متصاعدين إلى أعلى عليين و وصف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ذلك إلى أن قال: ثم كلمنى ربي و كلمته، و رأيت الجنة و النار و العرش و السدرة، ثم رجعت إلى مكة، فلما أصبحت حدثت به الناس، فكذبنى أبو جهل و المشركون، و قال مطعم بن عدى: أترعم أنك سرت مسيرة شهرين فى ساعة؟ أشهد أنك كاذب، ثم قالت قريش: أخبرنا عما رأيت، فقلت: مررت بعير بنى فلان، و قد ضلوا بعيرا لهم، و هم فى طلبه، و فى رحلهم قعب مملوء من ماء، فشربت الماء، ثم غطيته كما كان، فاسألوهم، هل وجدوا الماء فى القدر؟ قالوا هذه آية قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مررت بعير بنى فلان، فنفر بكرة فلان، فانكسرت يدها، فاسألوهم عن ذلك؟ فقالوا هذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتمون نحو الثنية، و هم يقولون: لقد قضى محمد بيننا و بينه قضاء بيننا، و جلسوا ينتظرون حتى تطلع الشمس، فيكذوبه، فقال قائل: و الله إن الشمس قد طلعت، و قال آخر: و الله هذه الإبل قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٣]

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)
طلعت يقدمها أورك، و لما جاءت العير و سألوهم عن ما ذكره الرسول؟

تبين صدقه صلى الله عليه و آله و سلم، لكنهم أبوا إلا الكفر و الفساد، و لم يؤمنوا «١».

[٣] و بمناسبة الحديث عن المسجد الأقصى، يأتي السياق لبيان أحوال موسى عليه السلام، و بنى إسرائيل الذين كانوا هناك، و ما جرى عليهم حين أفسدوا و عملوا بالمعاصي و آتينا أعطينا موسى الكتاب هو التوراة، كما أعطيناك يا رسول الله القرآن و جعلناه أى الكتاب الذى هو التوراة هدى هداية و إرشادا إلى الحق لىبنى إسرائيل و هم اليهود، سموا بذلك، لأنهم من أبناء يعقوب، و كان يسمى «إسرائيل» و معناه «عبد الله»، و كان أول الهدى الذى أنزل لأجله التوراة أَلَّا تَتَّخِذُوا أَيُّهَا الْيَهُودُ مِنْ دُونِي وَكَيْلًا رَبًّا تَتَّوَكَّلُونَ عَلَيْهِ فِي أُمُورِكُمْ، بل هو الله الواحد الذى لا شريك له.

[٤] يا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ مِنْ أَوْلَادِ أَوْلِيَاءِ الطَّاهِرِينَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِإِنجَائِهِمْ مِنَ الْغُرُقِ، حيث آمنوا بالله و رسله فلا- تنحرفوا، بعد ما رأيتم نعمتى عليكم و على آبائكم من قبل، و فيه تلميح إلى ذكر نوح، بعد ذكر محمد صلى الله عليه و آله و سلم و موسى عليه السلام إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا فهو عبد كمحمد صلى الله عليه و آله و سلم «أسرى بعده» شكور يقابل نعم الله سبحانه بالشكر لا بالكفر. و هو تعريض باليهود الذين كفروا.

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٨

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤]

وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ تَتَّعَلَّنَّ عُلُومًا كَبِيرًا (٤)

[٥] وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيُّ أَعْلَمْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى مُوسَى، و هو التوراة لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ أَيُّ تفسدون فى الأرض التى تسكنونها و هى بيت المقدس مرتين، بالكفر و إظهار المعاصي، قال ابن عباس: كان فسادهم الأول قتل زكريا، و الثانى قتل يحيى بن زكريا، ثم سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف ملكا من ملوك فارس فى قتل زكريا، و سلط عليهم فى قتل يحيى بخت نصر، و هو رجل من بابل، أقول: من عجيب أمر اليهود، أنهم يعملون و يعملون حتى يكون لهم سلطان و قوة، ثم يتخذون ذلك وسيلة للفساد، فيسلط الله عليهم من يبيدهم و يكثر القتل فيهم،- كما هى السنة الجارية أن من تكبر و فسد يبتلى بمن ينتقم منه- و إذا ذهب سلطانهم أخذوا فى العمل من جديد، و هكذا دواليك، و فى التاريخ القريب، لما قويت شوكتهم، أخذوا فى الفساد، حتى سلط عليهم «هتلر» فقتلهم و شردهم، ثم نراهم من جديد- بعد تلك الاضطهادات، و بعد أن صارت لهم قوة- أخذوا يعيشون فى فلسطين الفساد، فمن يا ترى يسلط عليهم هذه المرة؟ وَ تَتَّعَلَّنَّ أَيُّ تَرْتَفَعْنَ بَعْدَ ذَلِكَ عُلُومًا كَبِيرًا إما المراد قوتهم و شوكتهم بعد المراتين أو المراد استكبارهم و ظلمهم و تعديهم، كما حدث فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، حيث استكبروا و طغوا بالكفر بالرسول و أذى المؤمنين، و ما ورد فى بعض الروايات من تطبيق الآية على هذه الأمة فى ظلمهم الأئمة عليهم السلام، فإن ذلك من باب القاعدة الكلية التى تنص على أن مثل القرآن مثل الشمس التى تطلع كل يوم على جميع الناس، فالقرآن ينطبق فى كل زمان على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٩

[سورة الإسراء (١٧): آية ٥]

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥)

الناس، مدائح على الأخيار و تنقيصاته على الأشرار.

[٦] فَبِإِذَا جَاءَ وَقْتُ وَعْدِنَا بِالْإِنْتِقَامِ عَنْ أَوْلَاهُمَا وَ الْمَرَادُ بِالْوَعْدِ الْمَوْعُودِ، وَ الْمَرَادُ بِأَوْلَاهُمَا أُولَى الْمَرْتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَفْسِدُونَ فِيهِمَا بَعَثْنَا

عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ عِبَادًا لَنَا أَيُّ سُلْطَانًا عَلَيْكُمْ بَعْضُ الْمُلُوكِ أَوْلَىٰ بِأَسِّ شَدِيدٍ أَيُّ أَصْحَابِ شَوْكَةٍ وَقُوَّةٍ وَنَجْدَةٍ، وَمَعْنَى بَعَثَهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ يَخْلِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ حَتَّىٰ يَفْعَلُوا بِهِمْ مَا يَشَاءُونَ، وَهَكَذَا كَقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: (أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ) (١) «فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا قَوَى طَائِفَةً وَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ حَتَّىٰ يَفْسُدُوا فِيهِمْ، يُقَالُ أَنَّ الْمَلِكَ أَرْسَلَهُمْ، فَجَاسُوا أَيُّ الْعِبَادِ الْمُنْتَقِمُونَ خِلَالَ الدِّيَارِ أَيُّ طَافُوا وَسَطَ دِيَارِ الْيَهُودِ، وَتَفَحَّصُوا وَتَحَسَّبُوا هَلْ بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَقْتُلُوهُ وَيَأْسُرُوهُ وَكَانَ مَا وَعَدْنَا مِنْ إِرْسَالِ الْعِبَادِ لِلانْتِقَامِ مِنْهُمْ وَعَدًّا مِنْهَا مَفْعُولًا كَانْنَا لَا- مَحَالَةً لَا خَلْفَ فِيهِ، قَدْ كَانَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ التَّارِيخُ، وَ مِنْ لَطِيفِ الْمَقَارَنَةِ أَنْ يَرَى الْإِنْسَانَ أَنْ اللَّهُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ بَعَادَهُ حَتَّىٰ أَنْ مِنْ لَطْفِهِ يَبْعَثُ الرَّسُولَ عَلَى الْكُفَّارِ لِيَهْدِيَهُمْ (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (٢)» يرسل على أهل الكتاب عبادا ليطيشوا بهم و يكثروا فيهم القتل و الهتك و السبي، حيث يخالفون الأوامر، و يفسدون و يعملون بالمعاصي.

(١) مريم: ٨٤.

(٢) آل عمران: ١٦٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦ الى ٧]

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَرَّلُوا تَتَّبِعُوا (٧)

[٧] ثم بعد التدمير و الفناء جزاء لأعمالكم السيئة رَدَدْنَا لَكُمُ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْكَرَّةَ أَيُّ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَلِكِ وَ السُلْطَانِ وَ الْقُوَّةِ وَ الشُّوْكَةِ عَلَيْهِمْ أَيُّ عَلَى أَوْلِيَّكَ الْأَعْدَاءِ- وَ هُمْ عِبَادٌ لَنَا- فَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ مَا فَقَدْتُمُوهُ- بَعْدَ تَمَامِ الْعِقَابِ، لَمَّا ارْتَكَبْتُمُوهُ- وَ أَمْدَدْنَاكُمْ أَيُّ أَعْطَيْنَاكُمْ مَدَدًا وَ كَثْرَةً بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ فَأَكْثَرْنَا أَمْوَالَكُمْ وَ نَفُوسَكُمْ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا أَيُّ عَدَدًا وَ أَنْصَارًا مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَ نَفِيرٌ جَمْعُ «نَفْرٍ» كَعَبْدِ جَمْعُ عَبِيدٍ، وَ النَّفْرُ هُوَ الشَّخْصُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَ قَبْلَ أَنْ يَبِينَ سَبْحَانَهُ قِصَّةَ فِسَادِهِمُ الثَّانِي، وَ الْانْتِقَامَ مِنْهُمْ، يَبِينُ أَنَّ الْأَمْرَ بِأَيْدِيكُمْ، فَإِنَّ شَتْمَكُمْ أَحْسَنْتُمْ حَتَّىٰ لَا يَصِيبَكُمْ الْمَكْرُوهُ، وَ إِنْ شَتَّمْتُمْ أَسَأْتُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ، فَإِنَّ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَ إِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

[٨] لَكِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ لَا- يَعْتَبِرُونَ، وَ إِنْ رَأَوْا أَلْفَ مَرَّةٍ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَ قَالَ لَهُمْ سَبْحَانَهُ إِنْ أَحْسَنْتُمْ عَمَلْتُمْ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ تَرُونَ جَزَاءَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ حَسَنًا مَرْضِيًّا وَ إِنْ أَسَأْتُمْ عَمَلْتُمْ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فَلَهَا أَيُّ فَلَأَنْفُسِكُمْ عَمَلْتُمْ، وَ تَرُونَ جَزَاءَهَا سَيِّئًا وَ قَبِيحًا، وَ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ فَعَلِيهَا- بَلْفِظَتْهُ عَلَى- حَتَّىٰ يَقَابِلَ «لَأَنْفُسِكُمْ» فِي اللفظ فيفسدون مرة ثانية فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْانْتِقَامِ لِفِسَادِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ أَيُّ الْفِسَادِ الثَّانِي لِيَسْلُطَ عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءُ مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّىٰ لِيَسُوءُوا بِالْقَتْلِ وَ النَّهْبِ وَ الْهَتِكِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨ الى ٩]

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)

وَ الْأَسْرُ وَ وُجُوهَكُمْ فَيُظْهِرُ آثَارَ الْمَسَاءَةِ عَلَى وَجُوهِكُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَلَى قَلْبَهُ بِالْإِسَاءَةِ وَ الْإِذْلَالِ، ظَهَرَ أَثَارُهَا عَلَى وَجْهِهِ، فَهُوَ كَنَابِيَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْمَسَاءَةِ وَ لِيَدْخُلُوا أَوْلِيَّكَ الْأَعْدَاءِ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، أَقْدَسُ مَحَلَّتِكُمْ بِالْإِذْلَالِ وَ الْاسْتِخْفَافِ كَمَا دَخَلُوهُ الْأَعْدَاءُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عِنْدَ الْانْتِقَامِ الْأَوَّلِ وَ لِيَتَّبِعُوا أَيُّ الْأَعْدَاءِ مِنْ تَبْرٍ بِمَعْنَى أَهْلِكَ وَ دَمَّرَ مَا عَرَّلُوا أَيُّ كُلِّ شَيْءٍ تَمَكَّنُوا مِنَ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِ، وَ غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِكُمْ وَ أَمْوَالِكُمْ وَ نَسَائِكُمْ وَ غَيْرَهَا تَتَّبِعُوا أَيُّ تَدْمِيرًا كَامِلًا شَامِلًا، بِحَيْثُ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَ لَا فَرْدٌ مِنْكُمْ.

[٩] عَسَىٰ أَى لَعَلَّ رَبُّكُمْ يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَمَكُم بَعْدَ ذَلِكَ، إِنْ أَطَعْتُمْ، بَعْدَ هَذَا الْإِنْتِقَامِ الثَّانِي، وَ تَصْفِيَةِ الْحِسَابِ وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ عُدْنَا إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَالْعِقَابِ، وَ هَلْ انْقَلَعُوا؟! كَلَّا إِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ فِرْصَةً إِلَّا وَ يَفْسُدُونَ وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا أَى مَحَلَّ حَصْرٍ وَ حَبْسٍ، فَالْيَهُودَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا لَمْ يَكُنِ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ، بَلْ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ فِهِمْ فِيهَا فِي ذَلٍّ وَ سَجْنٍ، لَا خِلَاصَ لَهُمْ عَنْهَا.

[١٠] وَ بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ كِتَابِ مُوسَى يَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْ كِتَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي الْبَشَرَ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الطَّرِيقِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠ الى ١١]

وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَ أَحْسَنَهَا وَ أَشَدَّ اسْتِقَامَةً مِنْ جَمِيعِهَا، فَإِنَّ الطَّرِيقَ السَّابِقَةَ، وَ إِنْ كَانَتْ مُسْتَقِيمَةً، لَكِنهَا مُسْتَقِيمَةً فِي ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ، أَمَا الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ يَرشِدُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ أَبَدًا، وَ لِذَا فَهُوَ لَا يَنْسَخُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَى إِنَّهُمْ مَعَ إِيمَانِهِمْ يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بَأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا فِي الْآخِرَةِ، وَ ثَوَابًا عَظِيمًا.

[١١] وَ يَبِينُ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَى جَنْبِ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ بَأَنَّ فَسَدَتْ عَقِيدَتُهُمْ، وَ ذَكَرَ هَذَا لِلتَّلَازُمِ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْإِلَهِ أَوْ بِالرَّسَالَةِ أَعْتَدْنَا أَى هِيَ أَنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمَا مَوْجَعًا فِي الْآخِرَةِ.

[١٢] إِنْ الْقُرْآنُ يَبَشِّرُ الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ بِالصَّالِحَاتِ، الثَّوَابَ، وَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ بِالْعِقَابِ، فَهَلِ الْإِنْسَانُ يَتْرَكَ مَا يَضُرُّهُ، وَ يَفْعَلُ مَا يَنْفَعُهُ؟ كَلَّا، إِنْ الْإِنْسَانُ يَطْلُبُ مَا هُوَ شَرُّ لَهْ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الصَّالِحَ، لِدَفْعِ مَا هُوَ شَرُّ فِي الْآخِرَةِ؟ وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ أَى يَطْلُبُ مَا هُوَ شَرُّ لَهْ، فَالزُّنَا وَ الْقَمَارُ وَ الْخَمْرُ وَ سَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَعُودُ شَرُّهَا إِلَى الْإِنْسَانِ، نَرَاهُ يَطْلُبُهُ لِلذُّعَاءِ عَاجِلَةً مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَ لَوْ كَانَتْ قَرِيبَةً فِي الدُّنْيَا دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ أَى كَمَا يَطْلُبُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ الْمُبَاحَاتِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا يَتَعَجَّلُ بِاللَّذَائِدِ، وَ إِنْ كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٣

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٢]

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتِينَ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)

لِهَا عَاقِبَةٌ وَ خِيَمَةٌ وَ مُسْتَقْبَلٌ سَيِّئٌ.

[١٣] ثَمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنْ قَضَايَا الرَّسْلِ وَ الْأُمَمِ إِلَى الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَ مَوْقِفِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ مَا سِيَاقِي مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ جَزَاءَ أَعْمَالِهِ وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتِينَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَفِي خَلْقِهِمَا وَ تَنْظِيمِ الْمَعَاشِ وَ الْإِسْتِرَاحَةِ لِلْبَشَرِ بِهَا، دَلَالَةٌ عَلَى وَجُودِ إِلَهٍ عَلِيمٍ قَدِيرٍ حَكِيمٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ إِضَافَةً إِلَى اللَّيْلِ بِيَانِيَّةٍ، أَى جَعَلْنَا اللَّيْلَ - الَّذِي هُوَ آيَةٌ - مَمْحِيًا، فَكَمَا أَنَّ الْخَطَّ إِذَا مَحِيَ يَبْقَى بَعْضُ آثَارِهِ، وَ الْبِنَاءُ إِذَا أُزِيلَ يَبْقَى بَعْضُ أُطْلَالِهِ، كَذَلِكَ الْأَشْيَاءُ تَظْهَرُ فِي اللَّيْلِ، كَالشَّيْءِ الَّذِي مَحِيَ، فَيَرَى بَعْضُهَا وَ لَا يَرَى بَعْضُهَا، فَنَسَبَةُ الْمَحْوِ إِلَى اللَّيْلِ وَ هُوَ لِلْأَجْسَامِ الَّتِي فِيهَا - مَجَازًا - بِعَلَاقَةُ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، وَ هَذَا مِنْ بَدَائِعِ الْبَلَاغَةِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ أَى النَّهَارَ الَّذِي هُوَ آيَةٌ مُبْصِرَةٌ فَقَدْ نَسَبَ الْإِبْصَارَ الَّذِي هُوَ لِلْإِنْسَانِ وَ الْحَيَوَانَ إِلَى النَّهَارِ، مَجَازًا بِعَلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، أَوْ السَّبَبِ وَ الْمَسْبُوبِ أَوْ النَّهَارِ سَبَبَ الْإِبْصَارِ، وَ إِنَّمَا جَعَلْنَا كَذَلِكَ لِنَبْتَغُوا أَى تَطْلُبُوا بِسَبَبِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي النَّهَارِ الْمَالِ وَ الْمَعَاشِ، وَ فِي اللَّيْلِ الرَّاحَةِ وَ الْأَوْلَادِ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ فَإِنَّ السَّنَةَ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْأَيَّامِ، كَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْأُسْبُوعُ وَ الشَّهْرُ وَ الْحِسَابُ آجَالَ الْعُقُودِ وَ الْمَفَاوِضَاتِ وَ الدِّيُونِ وَ الْأَسْفَارِ وَ غَيْرِهَا مِمَّا يَعُدُّ، فَيُؤْتِي بِهِ أَوَّلَ مَوْعِدِهِ وَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ كَلِمَاتِ مَا

يحتاج إليه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٤

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٣ إلى ١٤]

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)

البشر في دنياه و آخرته فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا فَأُصُولُ الْعَقِيدَةِ وَ الْاجْتِمَاعِ وَ غَيْرَهُمَا كُلُّهَا مَفْصَلَةٌ فِي الْكِتَابِ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ، قَدْ رُوِعِيَتْ فِيهَا الدَّقَّةُ وَ التَّفْصِيلُ - أَيْ التَّمْيِيزُ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ خُلِقَ صَدْفَةً أَوْ جَزَافًا، أَوْ بِإِعْرَافِ جِهَاتِهَا وَ خُصُوصِيَّاتِهَا، وَ يَشْهَدُ لِذَلِكَ هَذَا النِّظَامُ الْوَاضِحُ فِي الدَّوْرَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْمُوَلَّدَةِ لِلَّيْلِ وَ النَّهَارِ بِكُلِّ دَقَّةٍ وَ إِتْقَانٍ.

[١٤] وَ إِذَا كَانَ لِلْكُونِ إِلَهُ مُدَبِّرٌ، وَ إِذْ كَانَ كُلُّ مَا فِي الْكُونِ تَحْتَ نِظَامٍ وَ دَقَّةٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْرُجُ عَنِ هَذَا النِّظَامِ وَ الدَّقَّةِ، إِنْ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ، إِنَّمَا هُوَ تَحْتَ حِسَابِ إِلَهٍ قَدِيرٍ عَالِمٍ، وَ إِذَا قَامَ الْجَزَاءُ انْكَشَفَ لَهُ وَ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا عَمَلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، صِلَاحٌ أَوْ فُسَادٌ وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ أَيْ عَمَلَهُ، وَ سُمِّيَ طَائِرًا، لِأَنَّهُ يَسْنَحُ كَالطَّائِرِ الَّذِي يَطِيرُ عَنِ يَمِينِ الْإِنْسَانِ أَوْ شِمَالِهِ، وَ مَعْنَى الْإِلْزَامِ أَنَّهُ مَعَهُ لَا يَفَارِقُهُ، فَلَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ الْخِلَاصَ مِنْ تَبَعَةِ عَمَلِهِ، إِلَّا إِذَا أَعْدَمَ الْعَمَلَ بِالتَّوْبَةِ فِي عُنُقِهِ فَإِنَّ الْعَنْقَ مَوْضِعَ الْقِلَادَةِ الَّتِي تَزِينُ، أَوْ الْجَامِعَةَ الَّتِي تَشِينُ وَ نُخْرِجُ لَهُ أَيْ لِلْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا مَكْتُوبًا فِيهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ، وَ فِي الْأَحَادِيثِ، أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ حَتَّى النَّفْخُ فِي النَّارِ يَلْقَاهُ يَلْقَى كِتَابَهُ مَنْشُورًا مُفْتُوحًا، لِيُطَّلَعَ عَلَيْهِ هُوَ وَ غَيْرُهُ.

[١٥] وَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَئِذٍ أَقْرَأْ كِتَابَكَ الَّذِي أَمْلَيْتَهُ وَ كَتَبَهُ الْحَافِظَانِ،

وَ قَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَذْكَرُ الْعَبْدُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَ مَا كَتَبَ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَلِذَلِكَ قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٥

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٥]

مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

«١» كَفَىٰ بِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْيَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْكَ أَيْ عَلَىٰ نَفْسِكَ حَسِيبًا مُحَاسِبًا، لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَعْمَالَهُ، وَ جَزَاءَ كُلِّ عَمَلٍ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَتَّىٰ يَحَاسِبَهُ، وَ هَذَا غَايَةُ فِي الدَّقَّةِ وَ الْإِنصَافِ، حَيْثُ أَنَّ الْعَامِلَ هُوَ الْمُحَاسَبُ، وَ إِنَّمَا كَانَتِ الدَّقَّةُ، لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى السَّيِّئَاتِ شَيْئًا، وَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَسَنَاتِ شَيْئًا.

[١٦] وَ إِذْ تَبَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ حِسَابَ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَ أَنَّ خَيْرَهُ وَ شَرَّهُ، لَا بَدَّ وَ أَنَّ يَلَاقِيهِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْجَزَاءِ فَمَنْ اهْتَدَىٰ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْإِطَاعَةِ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ فَإِنَّ نَفْعَ هِدَاةٍ يَعُودُ إِلَيْهِ وَ مَنْ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَيْ يَعُودُ ضَرَرُ ضَلَالِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ حَامِلَةً لِلذَّنْبِ وَازِرَةٌ أُخْرَىٰ أَيْ ذَنْبُ نَفْسٍ أُخْرَىٰ، فَلِكُلِّ إِنْسَانٍ ذَنْبُهُ، أَمَا مَنْ ضَلَّ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ ذَنْبَ نَفْسِهِ وَ ذَنْبَ إِضْلَالِهِ، فَهُوَ أَيْضًا حَامِلٌ لِلذَّنْبِ نَفْسَهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) «٢» وَ عَلَىٰ هَذَا، فَلَا يَظُنُّ إِنْسَانٌ، أَنَّ مَنْ يَأْمُرُ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ يَحْمِلُ تَبَعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ أَيْ إِنَّمَا لَا نَعَذِّبُ أَحَدًا مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاءِ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا يَبِينُ أَنَّ عَلَى الْكُفْرِ

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٨٤.

(٢) النحل: ٢٦.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

و العصيان العقاب، و للإيمان و الإطاعة الثواب، ثم إذا خالفوا عذبتهم، بعد إتمام الحجّة، و قيام الأدلّة و البراهين، فالأوامر العقلية قبل إتمام الحجّة الخارجية، لا توجب عقاباً لمن خالفها.

[١٧] إن الله لا يعذب حتى يبعث رسولا و حجة ليدل الناس على مواقع المحذور- كما سبق- فإذا عنت قرية عن الطريق المستقيم، لا يعذبها الله سبحانه بمجرد ذلك، و إنما يبعث الرسول بالأوامر و النواهي، و هناك يخالف المترفون و السادة الأعلون- و يتبعهم الجمهور طبعاً- فيستحقوا العقاب بعد تمام الحجّة و إذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً لأنها أسرفت في الكفر و الفساد، لم نهلكها بدون إتمام الحجّة، بل أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بأوامرنا، و إنما خص المترفين، مع أن الأمر عام لكل الناس، لأنهم هم الذين إن أطاعوا أطاع الناس، و إن عصوا عصى الناس، و لذا كان الأنبياء، يذهبون إلى الملوك، و يعارضون السلطان بادئ ذي بدء، فإن الناس على دين ملوكها و كبرائها فَفَسَقُوا فِيهَا أى خرجوا عن الطاعة في تلك القرية، تقول: أمرته فعصاني، أى أمرته بأوامري فعصاني، و لم يمثل، و هناك حيث خالفوا أوامر الرسل، و تمت عليهم الحجّة فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ أى ثبت على تلك القرية، قولنا بالهلاك و الدمار فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا أى أهلكناها إهلاكا.

[١٨] و قد جرت هذه السنة في الأمم السابقة وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ جمع قرن و هو الأمة يقال لها قرن، لتقارن سن أفرادها تقريبا، كما يقال للزمان قرن، باعتبار تقارن أعمار من فيه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٨ الى ١٩]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِيحُ فِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)

مَنْ بَعْدِ نُوحٍ و إنما خص بما بعد نوح، لأن المعروف عند المخاطبين كان هذا الزمان، أما قبل نوح، فالتاريخ لديهم مجهول، و من البلاغة، أن يتكلم الإنسان مع الناس على قدر مداركهم، فإنه أقل مؤونه، و أقرب إلى القبول وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا أى يكفيه مطلقاً، فليخف الإنسان من الإله العالم بالذنوب، فلا يفعل ما يوجب سخطه و عذابه بَصِيرًا يبصر الذنوب، فليخجل الإنسان أن يعصى أمامه.

[١٩] و إذ تبين عاقبة العاصي، و عاقبة المطيع، فليتقدم كل إنسان بما يختاره من الأمرين، فإن الطريق أمامه مفتوح مَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ فقط بدون تفكير لما يأتي، و إرادة للدار الآجلة عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا أى في العاجلة ما نَشَاءُ من الثروة و الفقر، و الصحة و المرض، و الأمن و الخوف، و غيرها لِمَنْ نُرِيدُ فليس كل من يريد العاجلة يعطاها، كما أن من يعطى العاجلة لا يعطاها كما يشاء، و إنما كما يشاء سبحانه حسب حكمته البالغة، و تقديره الحكيم ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ يَصِيحُ فِيهَا أى يصل بصلاها، و يحترق بنارها في حال كونه مَذْمُومًا ملوماً مَدْحُورًا مطروداً عن الخير و السعادة.

[٢٠] وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فِي ضَمَنِ إِرَادَتِهِ لِلدُّنْيَا، كما قال سبحانه في آية أخرى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) «١» فعمل للآخرة،

(١) البقرة: ٢٠٢.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٠ الى ٢١]

كُلًّا نَبِّئُكَ هُوَ لَاءِ وَ هُوَ لَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

كما يعمل للدنيا، و لم يأت بما ينافى الآخرة و سعى لها أى للآخرة سعيها السعى المناسب لها، و اللائق بشأنها، بأن عمل الأعمال الصالحة و هو مؤمن فإن العمل الصالح بدون الإيمان لا يفيد فأولئك كان سعيهم مشكوراً يشكره الله سبحانه، بأن يعطى جزاؤهم، فإن الشكر لشيء إعطاء جزائه، و إكرام العامل له.

[٢١] ثم ذكر سبحانه أنه فى الدنيا لا يمنع لطفه عن الشخصين، فهو كما يعطى المؤمن يعطى الفاسق، لكن الفرق فى السعادة هنا، فإن الفاسق لا يهنأ بالسعادة، كما أن الآخرة خاصة بالمؤمن كلاً من المؤمن و الكافر نُمِدُّ أى نعطيهم من الدنيا هؤولاء الذين يريدون الآخرة و هؤولاء الذين يريدون العاجلة من عطاء ربك يا رسول الله، أى نعمته و فضله و ما كان عطاء ربك محظوراً أى ممنوعاً، فإنه يشمل البر و الفاجر.

[٢٢] و إذ يريد أهل الدنيا الدرجات الرفيعة هنا، فليرد أهل الآخرة إياها هناك أنظر يا رسول الله كيف فضلنا بعضهم على بعض أى بعض الناس على البعض الآخر فى الدنيا، فبعضهم أغنياء إلى منتهى الحد، و بعضهم متوسطون، و بعضهم فقراء، و بعضهم أصحاب مناصب، و بعضهم عاديون و هكذا و للآخرة اللام للتأكيد أكبر درجات أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَ لَا تَنْهَرُهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)

درجاتها أكبر من درجات الدنيا و أكبر تفضيلاً فمدى المفاضلة هناك أوسع، و فى بعض الأحاديث، أن أقل المؤمنين ثواباً من يعطى من الجنان بقدر الدنيا سبع مرات (١).

[٢٣] و بمناسبة الحديث عن الآخرة، و عطاء الله سبحانه، و من يريد العاجلة و الآجلة، يأتى الحديث حول طائفة من الأحكام التى توجب السعادة، أو الشقاء، مبتدئاً بتصحيح العقيدة لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلهاً آخر فلا إله إلا هو فتقعد مذموماً مخذولاً يعنى إن فعلت ذلك، بأن اعتقدت بأكثر من إله واحد، تبقى بقيه عمرك - فإن قعد يطلق على البقاء و الاستمرار - مذموماً، يذمك العقلاء، و أهل الدين، مخذولاً يخذلك الله سبحانه، بمعنى أنه يقطع لطفه الخاص عنك، حتى تبقى بغير عنايته و نصرته.

[٢٤] و كما نهى سبحانه عن الشرك فى العقيدة نهى عن الشرك فى العبادة و قضى ربك أى أمر إلزام و فرض ألا تعبدوا أيها البشر أصله «أن لا» أدغمت النون فى اللام، لقاعدة «يرملون» إلا إياه فالعبادة خاصة، و هى مشتقة من «عبد» أى الإتيان برسوم العبودية، و كون الإنسان عبداً له سيد و بالوالدين إحساناً أى قضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين، و هما الأب - يسمى والداً لأنه يلد بإخراج المنى -

(١) قريباً منه فى بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٣٤٩

و الأم، و الإحسان فوق العدل كما تقدم، ثم بين سبحانه لزوم الإحسان فى حال كبرهما، لأن الإنسان، إذا كبر يسىء خلقه، و يكتر طلبه، و من طرف ثان، أن الولد - كما هو عادة كل إنسان - إذا كبر و رشد، رأى نفسه فى غنى عنهما، فكان مقتضى عدم الإحسان

إليهما موجودا عنده من جهتين، و لذا يخص سبحانه هذا الحال بالذكر، و قد قال بعض العارفين: إن أباك و أمك أحسنا إليك، و هما يريدان بقاءك، و يهفو قلبهما إليك، و أنت تحسن إليهما- إن تحسن- و أنت ترى استغناك عنهما، فلا يبلغ إحسانك إحسانهما- مهما أحسنت- و ليعلم الولد أن الدار دار مكافات، فمن أحسن إلى أبيه أحسن أولاده إليه، و من أساء إليهما أساءوا إليه، **إِنَّمَا يَتْلُغَنَّ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْوَلَدُ وَ «إِذَا» أَصْلُهُ «إِنْ مَا» دَخَلَتْ مَا الزَّائِدَةُ، عَلَى إِنْ الشَّرْطِيَّةَ لِلتَّرْتِيْنِ الْكَبْرِ الشَّيْخُوخَةِ، وَ الْكَثْرَةَ فِي السَّنِ أَحَدُهُمَا أَى أَحَدِ الْوَالِدَيْنِ، وَ هُوَ فَاعِلٌ «يَبْلُغَنَّ» وَ الْكَبْرُ مَفْعُولُهُ، أَى إِنْ عَاشَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَكَ حَتَّى كَبُرَا، وَ بَلَاغًا مَبْلُغًا كَبِيرًا مِنَ الْعَمْرِ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَ هِيَ كَلِمَةٌ تَسْتَعْمَلُ عِنْدَ الضَّجْرِ، فِي قَوْلٍ مِثْلِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ الْبَسِيطَةِ، مَنِهَى عَنْهُ فِي الشَّرِيعَةِ، وَ قَدْ قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ لَفْظَةَ أَوْجَزَ فِي تَرْكِ عَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ مِنْ أَفٍ لِأَتَى بِهَا «١» وَ لَا تَنْهَزُهُمَا النَّهْرُ هُوَ الزَّجْرُ بِإِغْلَازٍ وَ صِيَاحٍ، أَى لَا تَزْجِرُهُمَا، وَ إِنْ أَرَادَا مِنْكَ شَيْئًا لَا تَطْرُدُهُمَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَهِ) «٢» وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا أَى**

(١) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٤٢.

(٢) الضحى: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

خاطبهما، و تكلم معهما بكلام لطيف حسن جميل.

[٢٥] وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ فَكَمَا أَنْ فَرَّخَ الطَّائِرُ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ لِأَبْوِيهِ، تَذَلُّلاً وَ خُضُوعًا، فَافْعَلْ أَنْتَ ذَلِكَ بِأَبْوَيْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَى اعمل هذا العمل من جهة الرحمة، و العطف بهما، لا كالطائر الذي يفعل ذلك من جهة طلب الغذاء، فإن الإنسان قد يتواضع رحمة، و قد يتواضع طمعا أو طلبا، أو ما أشبهه وَقُلْ دَاعِيَا لَهُمَا رَبِّ ارْحَمْهُمَا تَفْضِلُ عَلَيْهِمَا بِاللِّطْفِ وَ الْكِرَامَةِ كَمَا رَبَّيَانِي أَى جزاء تربيتهما لى فى حال كونى صِيغَةً فَإِنَّكَ يَا رَبُّ أَجْزَهُمَا عَلَى اتِّعَابِهِمَا، فَإِنِى لَا أَقْدِرُ عَلَى جَزَائِهِمَا، وَ فِى الْآثَارِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْأَنْمَةِ الطَّاهِرِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثْرَةَ مَدْهَشَةٍ مِنَ التَّأَكِيدَاتِ الْعَجِيبَةِ حَوْلَ الْوَالِدَيْنِ، وَ خُصُوصًا الْأُمِّ «١».

[٢٦] أَيُّهَا الْوَالِدَانِ إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَ أَقْوَالَكُمْ وَ نَوَايَاكُمْ حَوْلَ الْوَالِدَيْنِ فَاحْذَرُوا مَخَالَفَتَهُ، كَمَا يَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ، ظَاهِرٌ وَ خَفِيٌّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ وَ سَاوَسَ الصُّدُورَ، وَ بَلْبَلَةُ النُّفُوسِ، فَاحْذَرُوا النَّوَايَا السَّيِّئَةَ، فَكَيْفَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ تَجَاهُ الْوَالِدَيْنِ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فِي أَعْمَالِكُمْ وَ أَقْوَالِكُمْ وَ نَوَايَاكُمْ فَإِنَّهُ تَعَالَى كَانَ لِلأَوَّابِينَ الَّذِينَ كَلَّمَا أذْنَبُوا آبَاءَ- أَى

(١) عدة الداعى: ص ٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٢

[سورة الإسراء (١٧): آية ٢٦]

وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لَا تُبْذِرْ تَبْدِيرًا (٢٦)

رجعوا و استغفروا- غُفُورًا يغفر لهم، فإذا صدرت منكم زلّة تجاه الوالدين، أو نويتم نية سوء، و قد كان علم سبحانه أنكم صالحون، فتبتم تاب عليكم، و إذ تكثر الإساءة تجاههما، جاء بلفظ «الأواب» فإن غير الصالحين يتمادون فى إساءاتهم، أما الصالح، فإنه كلما مرّ به خاطر، أو يعمل عملا منافيا، فإنه يثوب و يرجع، و يتوب إلى الله سبحانه، و هو يغفر له إذ يعلم صلاحه.

[٢٧] و إذ ذكر السياق المنعم الأول- وهو الله- و لزوم إطاعته و شكره و عبادته، و المنعم الثاني، و هما الأبوان، و لزوم يزهما جاء إلى سائر ذوى الحقوق، فقال سبحانه و آت أى أعطى ذَا الْقُرْبَى ذَا- بمعنى صاحب- و القربى مؤنث الأقرب، و هى صفة لمحذوف هو «صلة» أى صاحب الصلة، و النسبة القريبة إليك من الإخوان و الأجداد، و الأعمام و الأخوال و الأولاد حَقَّةً الذى قرره الله سبحانه له من النفقة و الإكرام، و المزاوره و غيرها، و ما ورد فى الأحاديث، أن المراد بذلك أقرباء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أو خصوص الصديقة الطاهرة صلوات الله عليها «١»، فإنما ذلك من باب المصدق،

فقد روى الشيعة و السنة، أنه لما نزلت هذه الآية، سأل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ جبرئيل: من ذا القربى؟ و ما حقه؟ فقال جبرئيل: ذا القربى فاطمة، و حقه فذك، و قال: أمرك ربك أن تعطى فذكا لفاطمة عليها السلام، فأعطاها إياها «٢»، و كانت فى يدها، حتى غصبها منها بعد وفات النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الْمَسْكِينِ أى

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٠٥.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ائْتِيَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)

أعطى المسكين- و هو الفقير- حقه من الحق الواجب، كالزكاة و الخمس، أو المستحب، كالصدقة و ابن السبيل و هو المنقطع فى سفره، ينسب إلى الطريق لعدم معرفه أبيه، و إعطاء حقه من الزكاة و الخمس، أو الصلة و الخير و لا- تُبَدَّرُ فى الإعطاء، بأن تفرق أموالك على نحو الإسراف حتى تبقى بغير زاد تبذيراً مصدر تأكيدى، و هذا كما قال سبحانه: (وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) «١» فكل من البخل و الإسراف منهى عنه، و الأوسط السخاء.

[٢٨] إِنَّ الْمُبْدِرِينَ الَّذِينَ يَسْرِفُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَ الْإِسْرَافُ هُوَ أَنْ يُعْطَى الْإِنْسَانَ الْمَالَ فِي غَيْرِ حَقِّ، سِوَاءَ أُعْطِيَ قَلِيلاً لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، أَوْ جَاوَزَ فِي الْكَثْرَةِ حَدَّ الْوَسْطِ، فَإِنْ كَلَا-الطرفين باطل لا يجوز كانوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ يقال فلان أخو فلان، أى قرينه و شبهه، أى إن المبذر قرين الشيطان، و شبه له فى المعصية و الانحراف وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا كثير الكفر، يكفر مرة ثم أخرى، لأن كل عمل يمكن أن يؤتى به بإيمان أو كفر، و كان تخصيص هذه الصفة بالذكر- هنا- لأن المبذر يكون بكل مرة من تبذيره كافراً بالنعمة، إذ لم يشكرها بجعلها فى موضعها، كما أمر الله سبحانه.

[٢٩] وَ إِمَّا أَى «إن ما» فَإِنَّ لِلشَّرْطِ وَ مَا زَائِدَةٌ لِلزَّيْنَةِ، أَى إِنْ

(١) الإسراء: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٢٩]

وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)

تُعْرِضَنَّ عَنْ ذَى الْقُرْبَى وَ الْمَسْكِينِ، وَ ابْنِ السَّبِيلِ، بَأَنْ لَيْسَ لَكَ مَالٌ تَنْفِقُ عَلَيْهِمْ، فَتَضْطَرُّ لِلْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ حِيَاءً وَ اسْتِتَارًا ائْتِيَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا بَأَنْ لَمْ يَكْ إِعْرَاضُكَ عَنْهُمْ عَنْ خَسَّةِ نَفْسٍ، وَ إِنَّمَا تَبْتَغِي بِذَلِكَ أَنْ يَنْفِضَ اللهُ عَلَيْكَ فَتَعْطِيَهُمْ، وَ فِي هَذَا أَدَبُ النَّفْسِ، بَأَنْ يَكُونَ الْمَعْدَمُ يَنْوِي الْإِنْفَاقَ إِنْ وَجَدَ فَقُلْ لَهُمْ أَى الْمَسْئُولُ عَنْهُ قَوْلًا مَيْسُورًا أى قولاً بلطف و لين يتيسر عليك، فإن

القول اللين ميسور، ممكن أن يقال، بخلاف القول الغليظ البذيء، الذى هو معسور يصعب أن يقال.

[٣٠] و إذ أمر سبحانه بالإنفاق، ونهى عن الإسراف شبه جانبى الرذيلة و هما البخل و الإسراف بمن يده مغلوله إلى عنقه لا يمكن أن يحركها، و بمن بسط يده حتى لا يبقى فيها شىء، إذ لا قبض فيها لبقى فيها مال، و الآية و إن كانت بهذا الصدد، لكنها عامه لكل إفراط و تفريط فى الجهات الحيويه و لا تجعل أيها الإنسان يدك مغلوله إلى عنقك بأن لا تعطى شيئاً فتكون كالإنسان الذى يده مغلوله، لا يتمكن على القبض و البسط، و جاء بالعنق لأن الغل، كذلك مانع عن كل تحريك، بخلاف غل اليد وحدها و لا تبسطها أى لا تبسط يدك كل البسط بأن تعطى جميع ما عندك، حتى لا يبقى لك شىء، فتكون كالذى بسط يده لا يستقر فيها أى شىء فتتعد أى تبقى ملوماً يلومك العقل و الشرع محسوراً من حسر إذا انكشف، يقال حسر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا (٣١)

عن ذراعها، و المحسور هو العريان، كما

قال الصادق عليه السلام: فهو كناية عن الإنسان الذى لا مال له، كأنه عريان من الثياب

«١»، و ما دل على إن الإمام الحسن عليه السلام بذل جميع ماله لا ينافى ذلك، لأنه كان علم أنه لا يقعد محسوراً، و إنما يأتيه المال من الحقوق، و غيرها.

[٣١] إنك ببخلك لا تقدر أن تضيق على الناس، أو تبقى لنفسك، و لا بسرفك تقدر أن توسع عليهم، بل الله سبحانه هو المقدر للأرزاق يبسطها أو يقبضها، فلا تفعل ما يضرك و لا ينفع غيرك إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر أى يضيق فلا بخلك ينجيك من الضيق إن قدر لك، و لا إنفاقك يسبب لك ضيقاً، إن وسع الله عليك.

قال الشاعر:

إذا أقبل الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تتفلت

فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت و لا البخل يبقها إذا هي ولت

إنه كان عباده خبيراً بصيراً فهو عن خبره و بصيره يضيق و يوسع، و عن خبره و بصيره يأمر بالتوسط بين البخل و الإسراف.

[٣٢] و لقد تفتت فى المجتمع الجاهلى سيئات عجيبه، فقد كانوا يثدون البنات خوف العار، و يقتلون الأولاد خوف الفقر و يكرهون فتياتهم

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٣٢]

وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)

على الزنى لاكتساب الأموال، و يتعاطون الخمر و المسير افتخارا، حتى جاء القرآن الحكيم و نهى عن كل ذلك و لا تقتلوا أولادكم بنين و بنات خشية إملاق الفقر، يقال أملق الرجل إذا افتقر، و «خشية» مفعول له، أى لا تقتلواهم لخوف الفقر و العجز عن النفقة عليهم نحن نرزقهم و إيّاكم فإن الرزق منه سبحانه، فلا كل عليكم منهم، و الأسباب الظاهرية فى ذلك واضحة فإن الأرض و الشمس و الماء و الهواء مصدر الأرزاق، و يحصلها الإنسان من الطبيعة بالعمل، فبحسب كل فرد الرزق مخزون، و بعمله يخرج ذلك

الرزق، وهذه الآية تناسب مجتمعنا الحاضر الذى يمنع من النسل خوف الفقر، فإن أهل الخبرة، ذكروا أن الكون يتحمل أضعاف هذا البشر الموجود الآن إن قتلهم كان خطأ أى إنما كبيراً فإنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً- و من قتل الأولاد- إسقاط الجنين- فإنه محرم أكيد و موجب للديء، كما قرر فى الفقه.

[٣٣] وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ وَهُوَ إِتْيَانُ الْمَرْأَةِ بِغَيْرِ حِلِّيَّةٍ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْاِقْتِرَابِ مِبَالِغَةٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ، فَإِنْ مِنْ اقْتِرَابٍ إِلَى شَيْءٍ كَادَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً أَىٰ مَعْصِيَةً عَظِيمَةً مُتَعَدِيَةً عَنِ حُدُودِ الْعَصِيانِ الْعَادِي، فَإِنْ فَحِشٌ بِمَعْنَى تَعَدَى الْحُدُودِ، وَ مِنْهُ الدَّمُ الْفَاحِشُ أَى الْأَكْثَرُ مِنَ الدَّرْهِمِ- الْمَعْفُو عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ- وَ سَاءَ سَبِيلًا أَى أَنْ سَبِيلَ الزُّنَى سَبِيلٌ سَيِّئٌ، لِأَنَّهُ يُوجِبُ الْأَمْرَاضَ وَ إِسْرَافَ الْمِيَاهِ وَ اخْتِلَافَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُشْرِكُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)

الأنساب، و هدم نظام العائلة، إلى غيرها من المفاسد.

[٣٤] وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا مِقَابِلَ الْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ الْمَهْدُورِ دَمِهِ، وَ الَّذِي يَقْتُلُ لِحَدِّ أَوْ قِصَاصٍ إِلَّا بِالْحَقِّ وَهُوَ مَا كَانَ لِحَدِّ- كَالْمَرْتَدِّ- أَوْ قِصَاصٍ- كَمَا لَوْ قُتِلَ إِنْسَانًا عَمْدًا- أَوْ لِأَنَّهُ كَافِرٌ حَرْبِيٌّ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا قَتَلَهُ شَخْصٌ ظَالِمًا فِي قَتْلِهِ إِيَّاهُ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ أَى وَلِيَّ الْمَقْتُولِ، وَهُوَ الْأَوْلَى بِهِ، حَسَبَ مَرَاتِبِ الْإِرْثِ سُلْطَانًا أَى تَسَلُّطًا عَلَى قَتْلِ الْقَاتِلِ قِصَاصًا فَلَا يُشْرِكُ الْوَلِيَّ فِي الْقَتْلِ وَ الْقِصَاصِ، بِأَنْ يَقْتُلَ غَيْرَ الْقَاتِلِ- كَالثَّارِ- أَوْ يَمَثِلَ بِالْقَاتِلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا أَى إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ يَنْصُرُ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ، وَ نَصْرَتَهُ أَنْ سَمَحَ لَهُ بِقَتْلِ الْقَاتِلِ، وَ أَمْرَ الْحُكَّامِ بِتَنْفِيذِ ذَلِكَ، وَ قَدْ كَانَتْ عَادَةُ الْجَاهِلِيِّينَ السَّائِدَةُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ عِنْدَ بَعْضِ جُهَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ مِنْ عَشِيرَةِ الْقَاتِلِ الْبَرِيءِ، لِأَنَّهُ صَدَرَ الْقَتْلُ مِنْ أَحَدِ أَفْرَادِ عَشِيرَتِهِ، وَ هَذَا هُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْقَتْلِ.

[٣٥] وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ مِبَالِغَةً، فِي النَّهْيِ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ حَقِّ، وَ لِأَنَّ مِنْ رَعَى حَوْلَ الْحَمِيِّ، أَوْ شَكَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَى بِالصَّفَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الصِّفَاتِ، وَ بِالقَرْبَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ أَنْوَاعِ الْاِقْتِرَابِ، وَ ذَلِكَ بِأَنْ يَصْرِفَهُ عَلَى الْيَتِيمِ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ وَ الْاِقْتِصَادِ، أَوْ يَتَاجَرَ لَهُ فِيهِ تِجَارَةً مَأْمُونَةً مِنَ الضَّرْرِ، رِبْحَهَا لِلْيَتِيمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٨

[سورة الإسراء (١٧): آية ٣٥]

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)

حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْيَتِيمَ أَشُدَّهُ أَى قِوَاهُ الْكَامِنَةُ فِيهِ الَّتِي تَظْهَرُ لَدَى الْبُلُوغِ وَ الرَّشْدِ- كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ- وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ وَ مَعَ النَّاسِ، وَ لَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ، بِأَنْ تَخَالَفُوا مَقْتَضَاهُ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا عَنْهُ، يَسْأَلُ اللَّهُ الْمَعَاهِدَ، هَلْ وَفَيْتَ بِعَهْدِكَ؟ فَإِنْ وَفَى، فَلَهُ الْجِزَاءُ الْحَسَنُ، وَ إِنْ لَمْ يَفِ، فَلَهُ الْخِزْيُ وَ الْعِقَابُ.

[٣٦] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِأَنْ لَا تَعْطُوا نَاقِصًا، وَ لَا تَأْخُذُوا زَائِدًا بِلِ الْوَفَاءِ هُوَ الْأَخْذُ وَ الْعِطَاءُ حَسَبَ الْوِزْنِ وَ الْكَيْلِ الْمَقْرَرُ وَ زِنُوا مِنْ «وِزْنٍ» بِالْقِسْطِ طَاسٍ هُوَ الْمِيزَانُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا يَنْحَرِفُ، أَى إِذَا أَرَدْتُمْ التَّعَامُلَ، فَلْيَكُنْ بَيْنَكُمْ الْوِزْنُ بِالْمَوَازِينِ الصَّحِيحَةِ الْمَعْتَدَلَةِ، الَّتِي لَا تَنْحَرِفُ قَلْبُهُ أَوْ كَثْرَةُ ذَلِكَ الْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَ الْوِزْنِ خَيْرٌ لَكُمْ إِذَا اجْتَمَعَ إِذَا صَارَ بِاخْسَاءٍ، يَتَضَرَّرُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشِّرَاءِ، بِقَدْرِ مَا يَسْرِقُ عِنْدَ الْبَيْعِ، وَ يُوجِبُ رَفْعَ الثَّقَةِ، وَ ذَهَابَ الْبِرْكَهَةِ؛ وَ تَفْشَى الْمَخَاصِمَةَ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أَى أَنْ أَوْلَهُ وَ مَرْجِعَهُ وَ مَصِيرَهُ أَحْسَنُ مِنْ مَصِيرِ التَّطْفِيفِ وَ التَّلَاعِبِ بِالْمَكَايِلِ وَ الْمَوَازِينِ، وَ مِنْ آلِ يُؤُولُ بِمَعْنَى رَجَعَ وَ صَارَ إِلَيْهِ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ، فَالْعَذَابُ وَ النِّكَالُ لِمَنْ يَخْسُ النَّاسَ حَقُوقَهُمْ، وَ تَلَاعَبَ بِالْكَيْلِ وَ الْوِزْنِ (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) «١».

(١) المطففين: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٦ إلى ٣٧]

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)

[٣٧] وَلَا تَقْفُ القفو اتباع الأثر، ومنه القيافة، فإن القائف يتبع الآثار، ليلحق بهذا أو ذاك أى لا تتبع ما ليس لك به علم ومعنى الاتباع أن يظهر ما جهله على نحو يرى أنه علمه، بأن يقول ما لا يعلم، أو يكتب ما هو مجهول لديه ونحوهما، فإذا قال «زيد فى الدار» وهو لا يعلم ذلك، فقد تبع مجهولا، فإن كونه فى الدار مجهول له ومع ذلك، فقد قاله - كأنه تابع له - إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ أى القلب كُلُّ أُولَئِكَ الثلاثة كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا فيما صدر منه، فالسمع مسئول لم سمع ما سمع؟ والبصر مسئول لما نظر إلى ما نظر؟ والقلب مسئول لم عزم، ووعى ما عزم عليه ووعاه؟ فإذا عمل كل واحد من هذه الثلاثة، ما لا يعلمه استحق العقاب، وهذا من باب المثال، وإلا فجميع الجوارح مسئولة عما اقترفتها خيرا كان أم شرا، فيلزم التثبت فى كل شىء، حتى يعلم الإنسان وجهه، ثم يعمل به أو يدهه، أما أن يتحرك وراء المجهول، فيسمع ما لا يعلم حليته، أو ينظر إلى ما لم يعلم جواز نظره إليه، أو يظن - بقلبه - سوءا فيما لا يدرى، ونحوه أن يعقد قلبه على اعتقاد لا يدرى صحته، وهكذا أعمال اليد والرجل والفرج واللسان وغيرها، فإن ذلك موجب للحظر.

[٣٨] وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا الْمَرْحَ الخيلاء والتكبر، وإنما قال «فى الأرض» لأن المشى كثيرا ما يستعمل فى غير معنى الذهاب، كما قال سبحانه (وَإِنْ طَلَّقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا) «١» وكثيرا ما يأخذ الإنسان

(١) ص: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

الكبر، فيظن أنه عظيم، حيث رأى لنفسه مالا أو جمالا، أو منصباً أو ما أشبهه، لكنه غافل عن أنه صغير عاجز، فهذه الأرض تحت رجله، وهذه الجبال مطة عليه، أيهما أعظم، أهو، أم هما، وهل يتمكن الإنسان، أن يشق الأرض شقا، فيجعلها نصفين؟ أو هل يمكن أن يطول نفسه حتى يبلغ طول الجبال؟ كلا، فما هذا الضرب على الأرض بغرور، وما هذا الكبر والاستعلاء، فالأرض التى يضربها برجله، لا يتمكن من التصرف فيها، والجبال التى تعلوه لا يتمكن من الوصول فى طولها إليها إِنَّكَ أَيُّهَا المَرِحَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ أى لن تقدر على شق الأرض وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا وارتفاعا.

[٣٩] كُلُّ ذَلِكَ الذى تقدم من المحرمات التى نهى الله عنها كَانَ سَيِّئُهُ إنما قال «سئته» للدلالة على أنها سيئات، وإلا فمقتضى القاعدة أن يقال «كان» فقط عِنْدَ رَبِّكَ يا رسول الله مَكْرُوهًا فإنه سبحانه يكره هذه الخصال الخمس والعشرين التى ذكرت من قوله سبحانه (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) «١» إلى هنا.

[٤٠] ذَلِكَ الذى تقدم من النواهي عن الكفر والقبايح مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ يا رسول الله مِنَ الْحِكْمَةِ وهى العلم بوضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، فإن ترك المعاصى من الحكمة، ثم يرتد السياق إلى ما

(١) الإسراء: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١١

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٠]

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)

ابتدأ به النواهي من قوله «لا- تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بِأَنْ تَعْبُدَ إِلَهَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، وَ الْخَطَابُ عَامٌ، وَ إِنْ كَانَ فِي الصُّورَةِ مَوْجِهَا إِلَى النَّبِيِّ عَلَى طَرِيقَةِ «إِيَّاكَ أَعْنَى وَ اسْمَعِي يَا جَارَةَ» فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ تَطْرَحُ فِيهَا جِزَاءً لِلشَّرِكِ مَلُومًا تَلُومَكَ نَفْسِكَ، وَ النَّاسُ وَ الْمَلَائِكَةُ مَذْهُورًا مَطْرُودًا عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ، مِنْ دَحْرٍ بِمَعْنَى طَرَدَ.

[٤١] وَ إِذْ جَرَى الْكَلَامُ حَوْلَ الشَّرِكِ الْمُرْتَبِطِ بِالْعَقِيدَةِ نَحْوِ الْمَبْدَأِ، جَاءَ السِّيَاقُ لِيُعْطِفَ بَعْضَ خِرَافَاتِ الْكُفَّارِ إِلَى ذَلِكَ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ زَوْجَهُ جَنِيَّةً، كَمَا قَالَ (وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا) «١» فَأَوْلَدَتْ لَهُ بَنَاتٌ هِيَ الْمَلَائِكَةُ، أَمَا الْبَنُونَ، فَقَدْ جَعَلَهَا سُبْحَانَ لَهُمْ فَقَطْ، فَلَمْ يَتَّخِذْ أَبْنَاءً، فَقَالَ فِي مَعْرُضِ الْإِنْكَارِ وَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، أَفَأَصْفَاكُمْ أَي هَلْ خَصَّكُمْ رَبُّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الْقَائِلُونَ، بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٌ لِلَّهِ بِالْبَنِينَ فَجَعَلَ لَكُمْ الْأَوْلَادَ الذَّكَورَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا «مِنْ»، إِمَّا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، أَي اتَّخَذَ جِنْسَ الْمَلَائِكَةِ بَنَاتًا، أَوْ لِلتَّبَعِيضِ، أَي جَعَلَ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا بِجَعْلِكُمُ الْأَوْلَادَ لِلَّهِ ثُمَّ تَفْضَلُكُمْ عَلَيْهِ، بِجَعْلِ الْبَنِينَ لِأَنْفُسِكُمْ، وَ الْبَنَاتِ لِلَّهِ سُبْحَانَ.

(١) الصفات: ١٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

وَ لَقَدْ صَيَّرْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)

[٤٢] وَ لَقَدْ صَيَّرْنَا الْحَقَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ فَجِئْنَا بِأَسَالِبِ شَتَّى، وَ طَرُقَ مُتَنَوِّعَةٍ، لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ وَ قَضِيَةِ الْمَبْدَأِ، وَ التَّصْرِيفِ التَّحْوِيلِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ، وَ مِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ لِيَذَّكَّرُوا أَي يَتَذَكَّرُوا خَالِقَهُمْ، وَ يَعْرِفُوا الْحَقَّ وَ لَكِنْ عَكَسُوا الْأَمْرَ فِي مَا يَزِيدُهُمْ بَيَانَ الْحَقِّ، وَ الْقُرْآنَ إِلَّا نُفُورًا أَي تَبَاعَدًا عَنِ الْحَقِّ، وَ نَفْرَةً مِنَ الْوَاقِعِ وَ الْحَقِيقَةِ.

[٤٣] ثُمَّ عَطَفَ سُبْحَانَهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، لِيَسْتَدِلَّ عَلَيْهِمْ، بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَعَدُّدُ الْآلِهَةِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَي مَعَ اللَّهِ الْآلِهَةُ كَمَا يَقُولُونَ وَ الْاسْتِدْلَالُ عَامٌ، حَتَّى لَنْ يَقُولَ بِالْهَيْنِ اثْنَيْنِ، وَ إِنَّمَا ذَكَرَ «الْآلِهَةَ» حَسَبَ اعْتِقَادِ الْكُفَّارِ، لِيَطَالِبَ الْاِحْتِجَاجَ كَلَامِهِمْ إِذَا فِي حِينِ التَّعَدُّدِ لِمَا بَتَّغَوْا تِلْكَ الْآلِهَةَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ صَاحِبِ الْعَرْشِ، وَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَ سَبِيلًا أَي طَلَبُوا طَرِيقًا يَقْرِبُهُمْ إِلَى مَالِكِ الْعَرْشِ، أَوْ طَلَبُوا سَبِيلًا إِلَى مِغَالِبَةِ مَالِكِ الْعَرْشِ وَ التَّرْفَعِ عَلَيْهِ، لِيَكُونُوا هُمُ الْآلِهَةُ الْعَلِيَا، لَا مَالِكُ الْعَرْشِ، فَإِذَا قِيلَ: أَي تَلَاوَمَ بَيْنَ التَّعَدُّدِ وَ بَيْنَ تَقَرُّبِ تِلْكَ الْآلِهَةِ إِلَى ذِي الْعَرْشِ؟ وَ مَا الدَّلِيلُ عَلَى إِنْهَامَ لَا- يَتَّبِعُونَ، حَتَّى يَبْطُلَ الْمَقْدَمُ- وَ هُوَ التَّعَدُّدُ- «عَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى» وَ أَي تَلَاوَمَ بَيْنَ التَّعَدُّدِ وَ التَّغَالِبِ بَيْنَ تِلْكَ الْآلِهَةِ، وَ بَيْنَ إِلَهِ الْعَرْشِ؟ وَ مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَتَّغَالِبُونَ؟ «عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي» قُلْنَا: إِنْ الْآلِهَةُ الصَّغْرَى، لَا بَدَّ وَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً وَ مَدْرَكَةٌ نَقْصَهَا قَابِلَةٌ لِلَاكْتِمَالِ- وَ لَوْ نَوْعًا مَا- فِإِدْرَاكُهَا يَدْفَعُهَا إِلَى التَّقَرُّبِ، لِتَكْمِيلِ النِّقْصِ- فَالتَّلَاوَمُ مَبْنَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

سُبْحَانَهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهًا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

على مقدمات أربع: نقصها وإدراكها وقابليتها للكمال، وحفظها نحو الكمال، وكلها مسلمة، لأنها من لوازم الإله، وأما الدليل على أنهم لا يبتغون، لأنهم لو ابتغوا لعلمنا ذلك، فيخبرنا الأنبياء الصادقون، فعدم إخبارهم لذلك، دليل على العدم «هذا كله على المعنى الأول» وأما التلازم، ونهى التالى على المعنى الثانى، فنقول لو كان هناك آلهة متعددة، لكانت متساوية، والتساوى نقص فى الإله، لأنه يوجب عدم استقلاله فى الكون، وهذا النقص لا يندم، إلا بإعدام الإله الآخر، وذلك مقتضى للخصومة بين الآلهة، ولا يقال إن كل إله يعلم أنه لا يقوى على إعدام الآخر، فلا يخاصمه؟ لأننا نقول: إن قدر هذا الإله على إعدام ذلك خاصمه، وإن لم يقدر على إعدامه لم يكن إلهاً، إذ الإله هو القادر على كل شىء، وأما الدليل على عدم المخاصمة، ما نرى من سير الكون باعتدال، فلو وقعت الخصومة، لاضطربت الأكوان تبعاً للخصام والمشاجرة (١) [٤٤] سُبْحَانَهُ أَنْزَهَهُ تَنْزِيهَا وَتَعَالَى أَى تَرْفَعُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَرْفَعُ وَأَسْمَى عَمَّا يَقُولُونَ أَى يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ التَّعَدُّدِ، وَاتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ عَلُوًّا كَبِيرًا فَلَا نَسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَا تَقُولُ، إِنْ الْفَقِيهَ أَعْلَى مِنَ الْحَمَالِ عَلُوا كَثِيرًا، فَلَا نَسْبَةَ بَيْنَهُمَا - فى العلم -.

[٤٥] تُسَبِّحُ لَهُ أَى تَنْزَهُهُ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكَ، وَكُلُّ نَقْصِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهَا أَدْلُهُ عَلَى وَجُودِهِ وَنَزَاهَتِهِ، إِذْ غَيْرَ الْمَنْزَهِ عَنِ

(١) إن الدليل مفصل مذكور فى الفلسفة والكلام، نكتفى منه بهذا القدر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٥]

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥)

النقائص المتصف بالمحامد، لا يمكن أن يكون إلهاً لها، والمراد بالسموات، إما أجرام، يعلمها الله سبحانه، فى الفضاء المهول، وإما المدارات السبع السيارة - كما قالوا - وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا أَى فى السماوات والأرض، وإنما جىء بضمير العاقل، للتلازم بين التسييح وبين العقل، ولعل لهذه الأشياء إدراك لا نعرف كيف هو وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ «إِنْ» نَافِيَةٌ، أَى مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ يَنْزَهُهُ بِالنَّهَى الْجَمِيلِ، فَإِذَا أَتَى الْإِنْسَانَ بِالْجَمِيلِ عَلَى أَحَدٍ - كَأَنَّ قَالَ فَلَانَ عَالِمٌ - كَانَ تَنْزِيهَا عَنِ الْجَهْلِ، وَتَحْمِيدًا بِالْعِلْمِ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ التَّسْبِيحَ، قَدْ يَكُونُ بِالْحَمْدِ، وَقَدْ يَكُونُ بغيرِ الْحَمْدِ، فَقَدْ يَقَالُ فَلَانٌ غَيْرُ زَانَ فَهُوَ تَنْزِيهِهُ فَقَطْ وَقَدْ يَقَالُ فَلَانٌ عَفِيفٌ فَهُوَ تَنْزِيهِهُ بِالْحَمْدِ، وَلكِنْ لَا تَفْقَهُونَ أَيْهَا الْبَشَرَ تَسْبِيحَهُمْ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ تَسْبِيحَهُمْ تَنْزِيهِهِمْ لِهَيْبَتِهِمْ لِسَانَ الْحَالِ، مِنْ بَابِ أَنْ الْمَصْنُوعَ الْمَتَّقْنَ، يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَعَدَمُ فَهْمِنَا لَتَسْبِيحِهِمْ بِمَعْنَى عَدَمِ إِدْرَاكِكَ ذَلِكَ بِالْحَوَاسِ أَصْلًا، إِذْ لَيْسَ صَوْتٌ فَيَسْمَعُ أَوْ طَعْمٌ فَيَذَاقُ أَوْ مَنْظَرٌ فَيَرَى، وَهَكَذَا، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ تَنْزِيهِهِمْ لَهُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ، فَعَدَمُ فَهْمِنَا لَتَسْبِيحِهِمْ لِقُصُورِ مَدَارِكِنَا عَنِ الدَّرَكِ، كَمَا تَقْصُرُ حَوَاسِنَا عَنِ إِدْرَاكِ الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَانَ خَلِيمًا وَمِنْ حَلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَعْجَلُ بِالْعِقَابِ عَلَى مَنْ يَنْسَبُ إِلَيْهِ هَذِهِ النِّسْبَ غَفُورًا يَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ فَلَا يَأْسُ مِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ لِمَنْ تَمَادَى فِي غِيهِ، ثُمَّ أَقْلَعُ وَأُنَابُ.

[٤٦] إِنْ الْكُفَّارِ قَدْ عَرَفْنَا مَقَالَاتِهِمُ التَّافَهُةَ السَّخِيفَةَ حَوْلَ التَّوْحِيدِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ، فَلِنَنْظُرْ إِلَى عَمَلِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٥

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٦]

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)
وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا يَعْبُرُ عَنِ ذَلِكَ، بِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، لِلتَّلَازُمِ بَيْنَهُمَا، وَبَيَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِالتَّوْحِيدِ، لَا بَدَّ وَ إِنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا عَنِ الْأَعْيُنِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْحِجَابَ لَا يَرَاهُ النَّاسُ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الْكُفَّارِ لِيَرْهَبُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُؤْذُوهُ،

فقد ورد أن الكفار كانوا يؤذون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالليل إذا تلى القرآن، و صلى عند الكعبة، و كانوا يرمونه بالحجارة، و يمنعونهم من دعاء الناس إلى الدين، فحال الله سبحانه بينه و بينهم، حتى لا يؤذوه «١»، و قد يقال عن هذا الحجاب أنه طبعي لكل إنسان يدعو إلى الحق في سلام، فإن الحق، إذا أثار أهل الباطل، كان السلام المحتف به يولد فيهم هيبه لا يتمكنون من الاقتراب إلى الداعي.

[٤٧] و من المعلوم أن المبطل إذا ركب رأسه، مصمما على الإعراض، تولدت فيه ملكة تغلف قلبه عن الانصياع، كما أن سمعه يخرج عن النطاق العادي للإسماع، إذ لا يستعد لاستماع الحق، و الله سبحانه، حيث يريهم أنهم أعرضوا عن الحق بادئ ذي بدء تركهم و شأنهم، فلا يلفظ بهم الألفاظ الخفية التي يلفظها على المؤمنين الذين رأوا الحق فاتبعوه، و بمناسبة بيان الحجاب الفاصل بين الرسول و بين الكفار، يأتي الكلام حول سائر الأشياء الحائلة، بينهم و بين الرسول عن أذاهم و حجاب يمنعهم عن الاستفادة من الحق و جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٧]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧)
 أى أغطيه و أغلفه أن يفقهوه أى كراهه أن يفهموا القرآن، أولئك يفقهوه و جعلنا في آذانهم جمع أذن وقرأ و هو الثقل، أى إنما تركناهم متى أصبحت قلوبهم كأنها فى غطاء، حيث الإنكار ملكة لهم، و حتى أصبحت آذانهم كأن فيها الثقل، و إنما نسب سبحانه الجعل إلى نفسه لأنه تركهم حتى وصلت حالتهم إلى ذلك و إذا ذكرت يا رسول الله رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ بَأْنِ قَلْتِ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، و قرأت القرآن الدال على التوحيد، و بطلان التعدد و الشرك و لَوْ أَى أَعْرَضُوا هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ عَلَى أَذْبَارِهِمْ إِفَادَةٌ لِتَأْكِيدِ الْإِعْرَاضِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْرُضُ وَ هُوَ جَالِسٌ أَوْ وَاقِفٌ، وَ قَدْ يَعْرُضُ وَ يَذْهَبُ مَدْبِرًا دَلَالَةٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِنْكَارِ نُفُورًا مُصَدَّرًا تَأْكِيدِي، لَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ، وَ لَوْ أَى نَفَرُوا نُفُورًا.

[٤٨] إنهم قد يحضرون مجالسك للاستماع، لكن لا لتفهم، بل ليروا ذلك فيحيكون المؤامرة ضد القرآن، و ضد الرسول نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ أى بالنحو الذى يستمعون به- فما، موصوله- فإن الاستماع على أنحاء قد يكون للتفهم، و قد يكون للاستهزاء، و قد يكون للرد، إلى غير ذلك، فإننا نعلم غرضهم فى الاستماع، و سنجازيهم عليه إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أى زمان استماعهم لقراءتك و إِذْ هُمْ نَجْوَى أى و الزمان الذى يناجى بعضهم بعضا، ماذا يقولون عن القرآن، و عن الرسول، فيقول بعضهم إنه سحر، و آخر إنه كهانه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٨ الى ٤٩]

انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَ قَالُوا أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أِإِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)
 و آخر إنه شعر، إلى غير ذلك و قوله «هم نجوى» من باب «زيد عدل» مبالغه، أو التقدير «ذوو نجوى» إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ أى ما تتبعون، و المراد بالخطاب المؤمنون، و إلا فهم ما كانوا تابعين إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا أى قد سحره، فاختلط عقله، فإنه كثيرا ما يختلط عقل المسحور.

[٤٩] انظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَى هَوْلَاءِ الْمَعَانِدِينَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَقَالُوا شَاعِرٌ وَ كَاهِنٌ، وَ مَجْنُونٌ، وَ سَاحِرٌ، وَ مَسْحُورٌ، وَ غَيْرَ ذَلِكَ فَضَلُّوا ضَلَالًا شَدِيدًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ضَلَّ ابْتِدَاءً، فَلَمْ يَتِمَادِ فِيهِ رَجْعٌ عَنْ غِيهِ، أَمَا إِذَا تِمَادَى وَ جَعَلَ يَجْمَعُ اللَّقَطَاتِ حَوْلَ ضَلَالِهِ يَسْتَحْكِمُ ضَلَالَهُ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لِتَكْذِيبِكَ، وَ الْوَقِيعَةَ فِيكَ سَبِيلًا صَحِيحًا، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ طَرِيقًا لِلرَّجُوعِ، لِأَنَّهُمْ، قَدْ تِمَادَوْا، فَصَارَتْ

الضلالة ملكة لهم، و الإنسان إذا صار كذلك صعب رجوعه، فالمراد بعدم الاستطاعة العرفى لا الحقيقى.

[٥٠] و إذ رأينا مقالاتهم السخيفة حول المبدأ، و حول الرسول و القرآن، فلنسمع كلامهم حول المعاد و قالوا أى قال هؤلاء الكفار أ إذا كُنَّا عِظَامًا استفهام إنكارى استهزائى يعنى متنا، و ذهب لحومنا، و بقى من أجسامنا العظام المجردة، و رُفَاتًا هو ما يتكسر، و يبلى من العظام و غيرها، و اللفظ مفرد، من رفت، بمعنى بلى و تحطم أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ نحىي للحساب خَلْقًا جَدِيدًا بعد الفناء و البلى؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٠ الى ٥١]

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤْسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)

هذا لا يكون أبدا.

[٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ مُسْتَهْزِئَاتٌ بِهِمْ - كما يستهزئون هم - كُونُوا حِجَارَةً بعد الموت أَوْ حَدِيدًا مما هو أبعد فى نظركم، من الرفاء من جهة قبول الحياة.

[٥٢] أَوْ خَلْقًا آخَرَ غيرهما و غير الرفاء، كأن ليصبحوا خزفا أو مدرا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ من حيث بعده عن الحياة، تصوروا ما شئتم، فإنكم ستبعثون، و الله القادر على الابتداء، قادر على الإعادة (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) «١» فَسَيَقُولُونَ إذا صرنا كذلك ف- مَنْ يُعِيدُنَا إلى الحياة، بعد أن صرنا حجرا، أو حديدا، أو ما أشبه؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمُ الَّذِي فَطَرَكُمْ و خلقكم أَوَّلَ مَرَّةٍ و هو الله سبحانه، بل الخلق أول مرة أبعد فى نظر الإنسان من الإعادة، و إن كان الأمران عند الله سيان فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤْسَهُمْ أى يحركون نحوك رؤوسهم تحريك استهزاء و تعجب و تكذيب، يقال أنغض رأسه إذا حركه بارتفاع و انخفاض و يَقُولُونَ مَتَى هُوَ أى فى أى وقت يكون البعث؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى جوابهم عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا لعله قريب، فإن كل آت قريب، و قد كتب الإمام

(١) يس: ٨٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَ قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣)

الحسين عليه السلام إلى محمد بن على «بسم الله الرحمن الرحيم، كأن الدنيا لم تكن، و كأن الآخرة لم تزل، و السلام» «١»

[٥٣] إن البعث إنما يكون يَوْمَ يَدْعُوكُمْ الله من قبوركم فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ أى يكون جوابا مقارنا لحمده خوفا منه، فإن الإنسان الخائف يمدح المخوف منه، ليستعطفه و يستجلب رضاه وَ تَظُنُّونَ فى ذلك اليوم إن لَبِثْتُمْ أى ما لبثتم و بقيتم فى الدنيا إلاً قَلِيلًا فقد استقلوا مدة بقائهم فى الدنيا، حتى أنه حين يقال لهم: (كَمْ لَبِثْتُمْ فى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) «٢»، و فى آية أخرى (كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ..) «٣» و نحن نرى ماضى أعمارنا، كأنه لم يكن إلا مدة يسيرة.

[٥٤] و إذا رأينا عاقبة المكذبين القائلين سيئا، فليتوجه المؤمنون إلى مقالهم، فلا يكون إلا حسنا، سواء كان مرتبنا بالاعتقاد، أو بغيره وَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِعِبَادِي الَّذِينَ يَسْمَعُونَ مِنْكَ يَقُولُوا جِزْمَ الْفِعْلِ، لأنه فى جواب الأمر، المقالة و الكلمة الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ من سائر المقالات و الكلمات، و هى فى الاعتقادات كلمة الشهادتين، و فى الاجتماعيات كلمة الإصلاح، و هكذا، فإن الكلمة توجب الفتن و الاضطراب إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ أى يفسد و يغرئ بعضهم

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٨٧.

(٢) المؤمنون: ١١٣ و ١١٤.

(٣) يونس: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يُزَحِّمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (٥٤) وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)

ببعض، إذا صدرت منهم الكلمة السيئة إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا أى ظاهر العداوة، و أيه عداوة أكثر من إفساد الدنيا والآخرة.

[٥٥] ولا بد بعد هذه التوصية، وغيرها، أن تخرج من الإنسان الكلمة السيئة، فليكن الإنسان عند ذلك بين الخوف والرجاء، ولا يكن يزك نفسه، فإله أعلم به من غيره، وحتى من نفسه، إذ كثيرا ما لا يعلم الإنسان مقدار الجرم الذي اقترفه، بينما الله عالم بذلك، رُبُّكُمْ أيها البشر أَعْلَمُ بِكُمْ وبما أجرتم من الآثام إِنَّ يَشَأُ يُزَحِّمُكُمْ وليست إرادته اعتبارية، بل تابعة لموازن عادلة أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبُكُمْ بما عملتم من المعاصي، و قلمت من الكلمات السيئة وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى الْبَشَرِ وَكَيْلًا حتى تكون أنت المسؤول عن جرائمهم، بل أنت داع و هاد، فعليك أن تقول كما أمرنا «قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن» و عليهم العمل، فإن لم يعملوا، كان حسابهم على ربهم، إن شاء رحم و عفى، و إن شاء عذب و أهان.

[٥٦] إن علم الله ليس خاصا بهؤلاء وَرُبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فكل تحت علمه الشامل ملائكة كانوا، أم بشرا أم جنا، و بمقتضى علمه الشامل بالبواطن، فضل بعض النبيين على بعض، و منه يعرف وجه تفضيل النبيين على سائر الناس، و إنما جىء بهذا الأمر هنا، لأن سوق الآيات حول العقيدة مبدؤها و رسالتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَزُجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

و معادها وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ حيث إن نفسياتهم كانت مختلفة، بعضها أرقى من بعض و آتينا داود النبي عليه السلام زَبُورًا كما أتيناك القرآن، فلا مجال للكفار، أن يقولوا: إن الأنبياء عليهم السلام جاءوا بخوارق كونية، فما معنى مجيئك، بهذا الكتاب؟

و هلا كان كعصى موسى أو إبراء الأكمه و الأبرص كعيسى؟

[٥٧] و لقد كان المشركون يعبدون من دون الله المسيح و عزيز و الملائكة، فأتى السياق للاحتجاج عليهم، حيث أن الجو العام حول العقيدة قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ بأنهم آلهة مِنْ دُونِهِ أى من دون الله، ادعوهم ليكشفوا ضرركم، و ما يصيبكم من البلاء و المحنة فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ بأن يرفعوا البلاء رأسا و لَا تَحْوِيلًا بأن يحولوه من مكان إلى مكان، إنهم إنما يفعلون ما يفعلون بإذن الله و أمره و إرادته، أما أن يستقلوا بلا دخل الله سبحانه إطلاقا، فإنه لا يكون.

[٥٨] أُولَئِكَ الْآلِهَةُ الَّذِينَ يَدْعُونَ أى يدعونهم هؤلاء المشركون آلهة يَبْتَغُونَ و يطلبون إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ يتوسلون إليه سبحانه للتقرب منه، أَيُّهُمْ أَقْرَبُ الأقرَب من هؤلاء الآلهة - كعيسى - عليه السلام يطلب القرب إلى الله فكيف يكون إلها من حاله كذلك؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

وَيُجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنْ الْأَقْرَبُ مِنْ آلِهِمْ يَطْلُبُ الْقُرْبَ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَهُوَ خَائِفٌ مِنْهُ، رَاجٍ لَطْفَهُ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا فِي عَرْضِ إِلَهِ السَّمَاءِ، كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ؟ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ مَحْذُورًا أَيْ يَحْذَرُ مِنْهُ وَيَتَّقِي، حَتَّى أَنْ أَكْبَرَ آلَهُمْ هَؤُلَاءِ يَخَافُهُ، فَكَيْفَ لَا يَخَافُونَ هَؤُلَاءِ، وَيَتِمَادُونَ فِي الشَّرْكِ وَالضَّلَالَةِ وَالْعِصْيَانِ؟

[٥٩] فليخف هؤلاء الكفار عذاب الله سبحانه، وليحذروا أن يحل بهم العذاب المقرر لبعض القرى حين يتمادون في الغي وإن من قَرْيَةٍ أَى مَا مِنْ بَلَدَةٍ، وَالْقَرْيَةُ هِيَ الْبَلَدَةُ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَاتَةِ، فَإِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ الْجَمِيعِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا أَى مُعَذِّبُوا أَهْلَهَا، بِعَلَاقَةِ الْحَالِ وَالْمَحَلِّ - كَمَا سَبَقَ - عَذَابًا شَدِيدًا فَلَا يَتِمَادَى هَؤُلَاءِ فِي غِيهِمْ، فَإِنْ مَصِيرُهُمُ الْمَوْتُ وَالْعَذَابُ هُنَاكَ، إِنْ لَمْ يَعَذِّبُوا هُنَا كَانَ ذَلِكَ الْإِهْلَاكَ إِمَاتَةً، وَالْعَذَابُ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا أَى قَدْ سَطَرَ وَكُتِبَ، فَلَا مَفْرَ لِأَحَدٍ، وَلَا مَنْجَى لِبَشَرٍ.

[٦٠] وليترك هؤلاء الكفار غيهم وطلباتهم السخيفة التي طلبوها، بأن تأتي يا رسول الله بالخوارق، فقد كفاهم القرآن حجة وبرهانا وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ الرِّسَالَ بِالْآيَاتِ الْخَارِقَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٣

[سورة الإسراء (١٧): آية ٦٠]

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)

إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ أَى الْأُمَّمُ السَّابِقَةُ، فَقَدْ كَانَتْ الْخَوَارِقُ الْمَقْتَرَحَةُ تَصَاحِبَ الرِّسَالَاتِ، لِتَصَدِيقِ الْكُفَّارِ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ عَاقِبَةِ التَّكْذِيبِ، لَكِنْ حِينَ لَمْ تَكُنِ الْخَارِقَةُ تَنْفَعُ، فَإِنَّ الْمُنْصَفَ يُؤْمِنُ بِدُونِهَا، وَالْجَاحِدَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى بِهَا - كَمَا حَدَثَ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ، حَيْثُ طَلَبُوا النَّاقَةَ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا - جَاءَتِ الرِّسَالَةُ الْأَخِيرَةُ، بِدُونِ تَلْيِيبِ لِمَثَلِ هَذَا الطَّلَبِ، وَهَذَا سَوْأَلٌ:

إِنَّ الْخَارِقَةَ لَوْ كَانَتْ تَنْفَعُ، فَلَمَاذَا تَجَرَّدَتْ مِنْهَا الرِّسَالَةُ الْأَخِيرَةُ؟ وَإِنْ كَانَتْ لَا تَنْفَعُ، فَلَمَاذَا صَاحَبَتْهَا الرِّسَالَاتُ السَّابِقَةُ؟ وَالْجَوَابُ إِنَّهَا لَا تَنْفَعُ، وَلَكِنْ جِئَءَ بِهَا حَتَّى تَكُونَ حِجَّةً لِنُكُوحِ الْأُمَّةِ وَلسَائِرِ الْأُمَّمِ بِأَنَّ الْخَارِقَةَ لَا تَفِيدُ فِي إِيمَانِ الْمَعَانِدِ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ وَجَرَّبْتُمُوهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنَ الْأَزْلِ وَآتَيْنَا ثَمُودَ أَى قَبِيلَهُ ثَمُودَ، قَوْمِ صَالِحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ النَّاقَةَ الْعَجِيبَةَ، آيَةً مُبْصِرَةً لَهُمْ، تَبْصِرُهُمْ صَدَقَ صَالِحٌ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِهَا إِذْ كَفَرُوا، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ الَّتِي نُرْسِلُهَا مَعَ الرِّسَالِ إِلَّا تَخْوِيفًا وَإِذْ لَمْ يَنْفَعِ هَذَا النُّوعُ مِنَ التَّخْوِيفِ - كَمَا جَرَّبْتُمْ - فَلَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَتَمَّ الْحِجَّةَ، أَمَا إِعْطَاءُ الْخَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَا يَلْزَمُ فِي الْحِكْمَةِ.

[٦١] وَاذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ فَهُوَ يَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ وَنَفْسِيَّاتِهِمْ، كَالْمَحِيطِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَحَاطِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ، إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَحِيطٌ بِالنَّاسِ مَطَّلَعٌ عَلَى جَمِيعِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٤

خصوصياتهم، أَى فَهَلْ تَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ قِصَّةِ نَاقَةَ صَالِحٍ، شَاهِدًا لِمَا ذَكَرْنَا، مِنْ أَنَّ النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْخَارِقِ؟ وَهَذَا كَمَا إِذَا قَلَّتْ لَزِيدٌ:

إِنَّ عَمْرًا رَجُلًا بَخِيلًا، ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ شَاهِدًا عَلَى بَخْلِهِ، بِأَنَّهُ نَهَرَ الْفَقِيرَ الْفُلَانِيَّ، تَقُولُ: وَإِذْ قَلَّتْ لَكَ أَنْ عَمْرًا بَخِيلٌ. وَهَذَا يَأْتِي سَوْأَلُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لَوْ كَانَ لَا يَأْتِي بِالْخَارِقِ، فَكَيْفَ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَيْكُمْ وَ مَقْصُرِينَ) «١» أليس الإخبار بما يأتي خارقالا؟ وكيف أخبر بأنه رأى عند المعراج شجرة الزقوم فى الجحيم، أليس الإخبار عن الغيب خارقالا؟ والجواب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبر بذينيك الأمرين، دليلا على نبوته «كما جاء صالح بالناقاة دليلا على نبوته» وإنما أخبر بذلك فتنه و امتحانا للناس، ليظهر المؤمن إيمانا راسخا من غيره، كما ظهر شك البعض فى قصة الحديدية، و كما يكون الإخبار عن الزقوم فى النار، محلا لشك بعض ضعفاء الإيمان، كيف تنبت فى النار الشجرة؟ و هنا أمور، الأول، أن ما ذكرنا من كون «الرؤيا» قصة دخول مكة، لا ينافى عدم كون هذه السورة مدنية، لأنه ذكر جمع من المفسرين، أن جملة من آيات هذه السورة مدنية، الثانى إنا لا نعلم مراده تعالى من هذه الآية الكريمة، و إنما ذكرنا ذلك التفسير اتباعا لجماعة من المفسرين، و حيث رأيناه أقرب إلى ارتباط الآية، بما قبلها، و ارتباط بعض أجزاءها ببعض، أما مراده سبحانه، فهو خاف علينا، و لم يرد شىء مفصل من المعصوم، نقطع، بأنه عليه السلام فسر الآية تفسيراً، لا تأويلا، و من باب المصدق، و ما أشبهه، حتى نتبعه، الثالث، ورد فى جملة من

(١) الفتح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٥

الروايات، أن المراد بالرؤية، ما أرى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى منامه، من أن نبى أمية يزور على منبره كنز القرد، و أنهم المراد بالشجرة الملعونة،

فقد روى أن الإمام سئل عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله نام، فرأى أن بنى أمية يصعدون منبره، يصدون الناس، كلما صعد منهم رجل، رأى رسول الله الذلة و المسكنة «أى لأمتة» فاستيقظ جزوا من ذلك، فكان الذين رأهم اثنى عشر من بنى أمية، فأتاه جبرئيل بهذه الآية

«١»، إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة، و الذى احتمال أن هذا من باب التأويل، و ذكر المصدق للآيات فى كل زمان، كما ذكرنا مكرراً، و إن كان من المحتمل أن «الرؤيا» يراد بها هذه، فىكون الارتباط فى أجزاء الآية، إن إخبارك يا رسول الله بهذه الرؤيا، و أنه سيكون ذلك مستقبلا ليس من الخوارق التى ذكرنا فى شأنها «و ما معنا» و إنما هى للفتنة و الاختبار، و سنجرى فى تفسير الآية، على ما ذكرنا أولاً- و الله العالم- و ما جعلنا يا رسول الله الرؤيا التى أريناك حيث رأيت أنك تدخل المسجد الحرام آمناً، و أخبرت بذلك قومك، عن الغيب إلا فتنه و اختباراً للناس لىتميز المؤمن الحقيقى من غيره، و لم تكن خارقالا تزيد إثبات نبوتك بها- من قبيل ناقه صالح- و ما جعلنا الشجرة الملعونة التى رأيتها فى معراجك فى الجحيم، و هى شجرة الزقوم، و معنى كونها ملعونة أنها مبعدة عن الخير، لا تأتى بخير، و إنما تأتى بشر، و عذاب للكفار، إلا فتنه للناس لىتميز المصدق بها من

(١) بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٢٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٦

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (٦٢)

المكذب، فقوله «و الشجرة» عطف على «الرؤيا» و قوله فى القرآن بمعنى أنها ذكرت فى القرآن، فالظرف متعلق ب «الشجرة» و نَحْوْفُهُمْ أى نخوف هؤلاء الكفار، بما نأتى لهم من الأدلة على هلاك المكذبين، و سوء مصير الكافرين فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً كبيراً فإن المعاند، كلما رأى قوة حجة الطرف، زاد عنادا و إصراراً، ليقاوم بعناده و إصراره الحجة أكثر فأكثر.

[٦٢] وَاذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءَ - لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، و يعرفون أن الشيطان قد خدعهم، حسب سابق وعده بإهلاك الناس - إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ وَ قَد كَانَتِ السَّجْدَةُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ التَّعْظِيمَ لِآدَمَ، حَيْثُ جَعَلَ قَبْلَهُ، كَمَا أَنَّ سَجَدْنَا لِلَّهِ، وَ فِيهَا تَعْظِيمُ الْكِعْبَةِ، حَيْثُ أَنهَا إِلَيْهَا فَتَسْجُدُوا جَمِيعًا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَسْجُدْ كِبْرًا وَ حَسَدًا قَالَ مَبْرُورًا لِفَعْلِهِ ذَلِكَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ يَا رَبُّ فِي حَالِ كَوْنِهِ طِينًا؟ وَ أَنَا أَشْرَفُ مِنْهُ، فَكَيْفَ يَسْجُدُ الْأَشْرَفُ لِلْأَدْنَى؟.

[٦٣] وَ حِينَ رَأَى الشَّيْطَانَ، أَنَّهُ طَرَدَ عَنِ سَاحَةِ الْقُرْبِ، عَلَى كِبَرِهِ، فِي عَدَمِ سَجُودِهِ لِآدَمَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَأَيْتَكَ أَيُّ أَخْبَرَنِي هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنِي عَلَى اسْتِفْهَامِ اسْتِنْكَارِي، هَذَا آدَمُ هُوَ الَّذِي كَرَّمْتَهُ عَلَيَّ، وَ فَضَلْتَهُ وَ شَرَفْتَهُ عَلَى مِثْلِي؟ ثُمَّ قَالَ لِيِنَّ أَخْرَجْتَنِي وَ لَمْ تَمْتَنِي، يَا رَبُّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَ اسْتَفْزَزَ مِنْ اسْتِطْعَتِ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَ أَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجَلِكَ وَ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ عَدَّهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَسَبَ مَا وَعَدَهُ سُبْحَانَهُ (فَبِأَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) «١» لَمَّا خَتَنَكَ ذُرِّيَّتُهُ الْاِحْتِنَاكَ الْاِقْتِطَاعِ مِنَ الْأَصْلِ، أَي لَأَقْطَعْنَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ، إِلَى سَبِيلِ الْغَوَايَةِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ مِنْ حَفِظْتَهُ يَا رَبُّ عَنِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) «٢».

[٦٤] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي جَوَابِ إِبْلِيسَ، وَ تَهْدِيدِهِ بِإِغْوَاءِ ذُرِيَّةِ آدَمَ أَذْهَبَ يَا إِبْلِيسَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَي مِنْ ذُرِيَّةِ آدَمَ، بِأَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ أَنْتَ عَلَى كِبْرِكَ وَ اغْوَايِكَ، وَ هُمْ عَلَى غَوَايَتِهِمْ وَ ضَلَالَتِهِمْ جَزَاءً مَوْفُورًا كَامِلًا غَيْرَ نَاقِصٍ، مِنَ الْوَفْرِ بِمَعْنَى الْكَمَالِ.

[٦٥] وَ اسْتَفْزَزَ يَا إِبْلِيسَ مِنْ اسْتَفْزَزَ، بِمَعْنَى اسْتَهْضَ، كَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَطْلُبُ نَهْوضَهُمْ لِلْكَفْرِ وَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ اسْتِطْعَتِ مِنْهُمْ أَي مِنْ ذُرِيَّةِ آدَمَ، وَ الْمَرَادُ بِالْأَمْرِ التَّهْدِيدَ بِصُوتِكَ تَشْبِيهُهُ لِهَ الدَّاعِي الَّذِي يَصِيحُ بِالنَّاسِ حَتَّى يَتَّبِعُوهُ وَ أَجْلَبَ يَا إِبْلِيسَ، يُقَالُ أَجْلَبَ الرَّجُلُ عَلَى صَاحِبِهِ، إِذَا تَوَعَّدَهُ بِالشَّرِّ، وَ جَمَعَ عَلَيْهِ الْجَيْشَ، لِأَنَّهُ جَلَبَ وَ أَحْضَرَ عَلَى ضَرَرِ صَاحِبِهِ عَلَيْهِمْ عَلَى ذُرِيَّةِ آدَمَ بِخَيْلِكَ بِفِرْسَانِكَ

(١) الحجر: ٣٨ و ٣٩.

(٢) الحجر: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (٦٥) رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)

الرَّاكِبِينَ وَ رَجَلِيكَ أَي رَاجِلِيكَ، وَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ إِعْمَالِ جَمِيعِ قَوَاهِ، كَمَا أَنَّ مِنْ يَرِيدُ هَزِيمَةَ عَدُوهِ يَجْمَعُ لَهُ كُلَّ فَارِسٍ وَ رَاجِلٍ لَهُ وَ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ بِأَنْ تَعْطِيَهُمْ بَعْضَ الْحَرَامِ، وَ تَأْخُذُ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِ الْحَرَامِ وَ الْأَوْلَادِ بِأَنْ تَأْتِيَ إِلَيْهِمْ بِأَوْلَادِ الْحَرَامِ، وَ تَجْعَلُهُمْ يَضْعُونَ أَوْلَادَهُمْ فِي الْمَحْرَمَاتِ، وَ يَضْلُونَهُمْ، كَأَنَّ الْمَالَ وَ الْوَلَدَ الْحَلَالَ، مَا هُوَ مِنَ اللَّهِ وَ إِلَى اللَّهِ، أَمَا الْحَرَامُ مِنْهُمَا، فَمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَ إِلَى الشَّيْطَانِ - بِجَمِيعِ صُورِ ذَلِكَ - وَ عَدَّهُمْ أَي مِنْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ الْمَسْبِيَةِ لِضَلَالَتِهِمْ وَ عَصِيَانَتِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَلْتَفَتًا إِلَى الْمَخَاطِبِينَ، الَّذِينَ سَيَقَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ لِإِرْشَادِهِمْ، وَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الشَّيْطَانَ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا فَإِنَّهُ يَزِينُ لَهُمُ الْخَطَأَ كَأَنَّهُ صَوَابٌ، وَ الْبَاطِلَ كَأَنَّهُ حَقٌّ، فَيَغْرَهُمْ بِذَلِكَ وَ يَغْشَهُمْ.

[٦٦] ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ ذُرِيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامِ إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ أَطَاعُونِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ سَلْطَةٌ وَ

قدره، لأنهم الأصفياء الذين لا يرضخون لإغوائك، ولا يتبعون خطواتك و كفى برِّك يا رسول الله على العباد وكيلاً حافظ للعباد الصالحين من مكائد إبليس.

[٦٧] ثم عطف السياق نحو الآيات الكونية الدالة على وجوده، محذراً إياهم عقابه، بعد ما أراهم وقعوا في حبال الشيطان، فمن الجدير بهم أن يخلصوا أنفسهم ربُّكم أيها البشر هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (٦٧) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُزِيلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)

الَّذِي يُزْجِي الْإِرْجَاءَ سَوْقَ الشَّيْءِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ لَكُمْ الْفُلُوكَ أَى يسوقها و يجريها باستمرار على الماء في البحر فمن يفعل ذلك بكم غيره سبحانه؟ لَبَّتُّعُوا مِنْ فَضْلِهِ أَى لتطلبوا من فضله سبحانه الأموال بالتجارة، و نحوها إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً فقد تفضل عليكم بهذه النعمة، فجعل الماء بحيث يجري، و السفينة بحيث لا تغرق.

[٦٨] وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ أَى المصيبة و الشدة في البحر حيث انقطعتم عن العلاج، فإن في البحر يكون الإنسان مضطراً إذا أصابه مكروه، لأنه لا يجد عوناً و مهرباً، و خصوصاً إذا سكنت الرياح أو اضطربت الأمواج ضلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ أَى ذهب عنكم ذكر كل معبود إلا الله سبحانه، فلا ترجون هناك النجاة إلا من عنده فَلَمَّا نَجَّكُمْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَرِّ فَأَمِنْتُمْ الْأَخْطَارَ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَ عَنِ طَاعَتِهِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً كثير الكفر، فإن له في كل لحظة كفرًا جديداً، أو المراد كثير الكفران، إذ كل نعمة تحتاج شكراً.

[٦٩] أَ فَأَمِنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ- بعد ما أنجاكم إلى البر- أَنْ يُخَسِفَ اللَّهُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ بَأَنْ تَهْلِكُونَ بِالْبَرِّ، حيث تخسف الأرض بكم، فإنكم لم تخرجوا من سلطان الله سواء كنتم في بحر أو بر، و إنه قادر أن يهلككم، أينما كنتم، فكيف تعرضون، إذا وصلتكم إلى البر؟ و إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٩ إلى ٧٠]

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِباً مِمَّا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩) وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)

قال «جانب البر» لأن المراد طرفه الذي يسكنون فيه، أو المراد ساحل البحر، بمجرد خروجهم، فإن الساحل جانب البر، و قد أريد أنهم في وقت يظنون أنهم خلصوا من الهلاك، و يرتاحون غاية الارتياح، معرضون للأخطار أَوْ يُرْسِلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ حَاصِباً بَأَى حجارة تحصبون بها، و الحصب بمعنى الرمي، فهل أمنتكم ذلك؟ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً أَى حافظاً يحفظكم من بأس الله سبحانه.

[٧٠] أَمْ أَمِنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ الَّذِينَ نَجَوْتُمْ مِنَ الْغُرُقِ وَ الْهَلَاكِ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُعِيدَكُمُ اللَّهُ فِيهِ أَى فِي الْبَحْرِ تَارَةً أُخْرَى مَرَّةً ثَانِيَةً، بَأَنْ يَلْقَى فِي ذَهْنِكُمُ السَّفْرَ، فتركبون البحر فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِباً مِمَّا مِّنَ الرِّيحِ الْقَصْفِ الْكَسْرُ بِشِدَّةٍ أَى إِذَا رَكِبْتُمُ السَّفِينَ مَرَّةً ثَانِيَةً، يرسل الله عليكم ريحا شديدة، كاسرة تكسر السفينة فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ أَى بسبب كفركم الحاصل منكم حين وصلتكم إلى البر، كما قال «أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً» ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ أَى بِذَلِكَ الْغُرُقِ تَبِيعاً أَى تابعا يتبع أو أهلا لكم للمطالبة بدمائكم؟

[٧١] وَ كَيْفَ يَكْفُرُ الْبَشَرُ بِاللَّهِ الَّذِي كَرَّمَهُ وَ فَضَّلَهُ؟ وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ تَكْرِيماً ذَاتِيّاً بِالْعَقْلِ، وَ حَسَنَ الْخَلْقِ، وَ تَهَيَّأَ سَبَابَ الرَّاحَةِ لَهُ، وَ تَسْخِيرَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَجْلِ مَنَافِعِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْرِيمِ وَ حَمَلْنَاهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣١

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧١]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)

أى هيأنا لهم وسائل الركوب فى البر بالخيل والبغال والحمير، ومنه هذه الآلات الحديثة، فإنها تحمل الإنسان بفضل الله سبحانه، وإلا فمن خلق الحديد، ومن جعل للنار قوة السير، ومن هبأ وسائل الآلهة؟ والبجر بالسفن ورزقناهم من الطيبات أكلا وشربا ولبسا، و نكاحا، وغيرها، فإن كل ذلك رزق خصهم الله سبحانه به، وإن اشتركت بعض الحيوانات فى بعضها، ولكن ليس بهذا العموم، و الشمول، والكيفية المرفهة وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا إما المراد أنهم مفضلون على الكثير دون الكل، بأن يكون الملائكة أفضل من الإنسان جنسا، وإما المراد أن التفضيل على كثير - فليس المراد المفهوم، بل المراد الخلق الكثير الذى ملأ ما بين السماء والأرض، أن الناس مفضل عليه، ف «من» بيانية، لا- تبعيضية- ولعل هذا هو الأقرب، إلى ما دل على أن الإنسان أفضل ما خلقه الله سبحانه، وإن كان الأول أقرب إلى اللفظ، ولا يخفى أن تفضيل الطبيعة، بما هى طبيعة و تكرمها، لا ينافى وجود السيئ، كما لا ينافى وجود بعض المفضلين فى سائر الأجناس، فإذا قلت الرجل خير من المرأة، تريد أن هذا الجنس أفضل، وإن كان فى جنس الرجال قابيل، الذى هو أسوأ من كل امرأة، وفى جنس النساء فاطمة الزهراء عليه السلام المفضلة على من دون الرسول والوصى من الرجال.

[٧٢] و من تفضيل الله سبحانه البشر على سائر الخلق، أن جعل لهم أئمة يهدونهم الطريق، و يكونون واسطة بينهم و بين الله سبحانه، فى أخذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٢

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٢]

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

الأحكام و إعطائها الأنام، و قد اتبع بعضهم هذا المنهاج، فاهتدوا، و تخلف بعضهم، فاتبع أئمة ضلالة، فضلوا و غوا، فليذكر الإنسان يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ كُلِّ جَمَاعَةٍ وَ فَتَهُ مِنَ النَّاسِ بِإِمَامِهِمُ الَّذِي انْتَمَوْا بِهِ، نيبا كان أو وصيا، أو شقيا، و هناك تظهر الفئات المختلفة، كل فئة لها إمام خاص، و لون خاص و لواء خاص فَمَنْ أُوْتِيَ أَى أعطى كِتَابَهُ المذروج فيه أعماله بِيَمِينِهِ دل ذلك على أنه من أهل السعادة و الخير فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ فرحين مسرورين ليزدادوا سرورا و فرحا بما يرون فيه من الطاعات و العبادات، و الأعمال الحسنة المرضية و لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا أى مقدار القليل، و هو الخيط الرفيع فى شق النوات، كأنه مفتول.

[٧٣] و من أوتى كتابه ببساره، أو من وراء ظهره فهو محزون، و يحشر هناك أعمى، فلا- يتمكن من قراءة كتابه و مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدنیا أعمى عن طريق الهدى و الرشاد فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أعمى لا يبصر شيئا فى ذلك المزدحم الهائل، و الموقف الرهيب و أضل سبيلا إذ الضلال فى الدنيا لا يظهر على الإنسان، بما يميزه عن بقية الأفراد المهتمدين، أما هناك فإنه يظهر فى عمى العين، و اسوداد الوجه، و سائر العلائم، و يقول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَ إِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَتتَّخِذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)

(رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى و قد كنت بصيرا*) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تُنسى «١»، و كأنهم فى بعض المواقف عميان، و فى بعض المواقف مبصرون.

[٧٤] ثم يأتى السياق ليعين موقف القوم من الرسول و القرآن، و تهديدهم بمصير آل فرعون، حيث عارضوا موسى، فأهلكهم الله سبحانه و إن كادوا «إن» مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، أى أن المشركين الذين تقدم ذكرهم، هم قاربوا لَيَفْتِنُونَكَ

أى يزولونك و يصرفونك يا رسول الله عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَى عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، و الأحكام التى ألقيناها إليك، فقد حاولوا هذه المحاولة، فى صور متعددة، تطميحا و تخويفا و استهزاء، بحيث أنه لو لا الرسول المعصوم، لزل و انصرف، فإنهم «كادوا» و «قاربوا» لكن الرسول كان أصلد من الجبل، فقد أرادوا زحزحته لِتُفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ فَإِنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِذَا وافقهم فى أهوائهم، كان مفتريا على الله بغير القرآن، فإن القرآن على منهاج، و هم على منهاج آخر و إِذَا أَى افتروك و افترت لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا أَى جعلوك صديقهم، و أظهروا خلتك.

[٧٥] وَ لَوْ لَا- أَنْ تَبْتَنَّاكَ أَى حفظناك بالعصمة التى جعلناها فيك، و العصمة حالة فى الإنسان، تبعث على أن يرى المعصية قبيحة للغاية، و الطاعة جميلة للغاية، حتى أنه لا يترك الطاعة، و لا يفعل المعصية لَقَدْ كَذَّبْتَ تَزَكُنْ إِلَيْهِمْ

(١) طه: ١٢٦ و ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٥]

إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)

أى لقد قاربت أن تميل إلى الكفار شيئاً قليلاً ركوناً قليلاً، و اعتماداً يسيراً، فتعطيهم بعض ما سألوك، و لا تقوم بمهمة التبليغ كما ينبغى، و هذا حقيقة واضحة، فإن الإنسان مهما يكن صلباً، لا يتمكن أن يقاطع الجميع فى جميع الخطوط، و لا أقل أن يلاحظ بعض المصالح، أما المعصوم، فلا يتطرق إليه ذلك أبداً، فإن الانحراف اليسير، أول الطريق ينتهى إلى أعظم الانحراف فى آخره، و هيهات أن يساوم الرسول الأشراف و الكفار، على دين أو عقيدة أو سلوك مهما كان طفيفاً.

[٧٦] إِذَا لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الرُّكُونَ لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ الَّذِي نَعَذِّبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١» و إنما يضاعف له العذاب، لأن القائد يتحمل عقاب نفسه، و عقاب أتباعه- لو انحرف- بخلاف الإنسان العادى، الذى لا يتحمل إلا عقاب نفسه وَ ضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا أَى لا ينصررك أحد على ضررنا، بأن ينقذك من عذابنا، و من المعلوم، أن المقصود بأمثال هذه الآية الكريمة تنبيه الأمة، و إلقاء اليأس فى قلوب المشركين عن أن يتبعهم الرسول،

و قد قال هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فى جواب الكفار، الذين طلبوا منه أن يترك أمره: «و الله لو وضعوا الشمس فى يمينى، و القمر

(١) طه: ١٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر، لما فعلت» «١».

[٧٧] وَ إِنْ كَادُوا إِنْ مَخْفَفَهُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَى إنهم كادوا- بمعنى قربوا، أو مكروا- لَيَسْتَفِزُّوكَ أَى يزعمونك، و يشردونك مِنَ الْأَرْضِ أَرْضِ مَكَّةَ حَتَّى لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا لِيُصْفَوْا لَهُمُ الْجَوْ وَ إِذَا لَوْ أَخْرَجُوكَ لَا يَلْبُثُونَ أَى لا يبقون خِلَافَكَ مِنْ بَعْدِ إِخْرَاجِكَ إِلَّا قَلِيلًا مَدَّةً يَسِيرَةً، فقد جرت سنة الله سبحانه، أن يهلك الكفار إذا شردوا رسلهم، و أخرجوهم من بلادهم.

[٧٨] سُنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا فَقَدْ جرت سنتنا و طريقتنا فى باب الرسل السابقين، أن الكفار، لو أخرجوهم من بلادهم،

عذبنا الأمة بعد قليل، حتى لا يلبثون بعدهم إلا قليلاً من الزمان، و «سنة» منصوبة بفعل مقدر، أى سننا ذلك سنة، ولا تجد يا رسول الله لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً أى تبديلاً، فإنها جارية مستمرة، فلا يتمكن أحد أن يقلب السنة عن وجهها، أما هجرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فإن الكفار هموا بقتله، وإنه هو الذى فر من بين أيديهم، بالإضافة إلى أنهم لم يلبثوا خلافه إلا قليلاً، حيث قتلوا يوم بدر، بعد سنة من الهجرة تقريباً، وهكذا توالى عليهم النكبات، وقد ورد فى شأن نزول هذه الآية، قولان، الأول، أنه فى شأن أهل مكة، حيث هموا بإخراج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ١٤ ص ٥٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٨]

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨)

من مكة، والثانى، أنها نزلت فى اليهود بالمدينة، فإن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما قدم المدينة، أتاه جماعة من اليهود، فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، فأت الشام «١» كما أنه ورد فى باب نزول قوله «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنِيَاكَ» أقوال نختار منها،

أنها نزلت فى «و قد تقيف» جاءوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال لا ننحنى بفنون الصلاة، و لا نكسر أصنامنا بأيدينا، و تمتعنا باللات سنة، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لا خير فى دين ليس فيه ركوع و لا سجود فأما كسر أصنامكم بأيديكم، فذاك لكم «ثم أرسل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من كسرهما» و أما الطاعة لللات، فإننى غير ممتعكم بها «٢».

[٧٩] أقيم يا رسول الله الصلاة فإنها توجب تثبيت العقيدة، و دوام الصلوة بالله سبحانه، و لعل الإتيان بها هنا، لما تقدم من قوله «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنِيَاكَ» بالإضافة إلى أن الجو العام، هو جو العقيدة التى لا ترسخ، و لا تكون ثابتة ذات تأثير إلا بالصلاة، و ما أشبهها من الذكر الدائم، فإن الروح كالجسد يحتاج إلى التغذية المستمرة للنماء و البقاء لِذُلُوكِ الشَّمْسِ من ذلك، بمعنى إمرار الشىء على شىء بشدة، و منه يقال للحلاق «دلماك» و المراد بدلوك وقت الظهر، فإن الشمس تدلك نصف النهار، سواء اعتبرنا الدائرة الوهمية المنصفة للأفق، إلى قسمى الشرق و الغرب، أم لا إلى غَسَقِ اللَّيْلِ أى شدة ظلام الليل، و ذلك منتصف الليل، و هذه إشارة إلى أربع صلوات: الظهرين و المغربين،

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٩]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (٧٩)

فإن وقت الأولين من الزوال إلى الغروب، و وقت الأخيرين من الغروب إلى نصف الليل وَقُرْآنَ الْفَجْرِ أى بما يقرأ وقت الفجر- و هو الصبح- و المراد به صلاة الصبح، فقد أشارت الآية إلى الصلوات الخمس اليومية إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ أى صلاته التى تقرأ، و يؤتى بها كَانَ مَشْهُوداً تشهدا ملائكة الليل قبل رجوعهم إلى السماء، و ملائكة النهار أول ما ينزلون، فقد وردت أحاديث بذلك.

[٨٠] وَمِنَ اللَّيْلِ أى بعض الليل فَتَهَجَّدْ الهجود النوم، و تهجد بمعنى تحرج النوم نحو «تأثم» بمعنى تحرج الإثم و اجتنبه به أى الليل

نافلة صلاة ليست بفريضة، وإنما هي زائدة على الفرائض، وهي صلاة الليل الإحدى عشرة ركعة لك فإنها لنفعمك، وليست كسائر الصلوات اليومية فريضة لقاء على عاتق الإنسان عسى أن يبعثك ربك أي لعل الإتيان بهذه الصلاة، أو بهذه الصلوات كلها توجب أن يعطيك الله سبحانه مقاماً محموداً يحمده الناس والملائكة لرفعه وسموه، إن الآية الكريمة، ولو كانت خطاباً للرسول - بحسب الظاهر - إلا أنها عامة لكل أحد، فما دل على أن نافلة الليل، كانت واجبة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، أو ما أشبهه، فإنما ذلك بدليل خارجي، وهو من باب المصداق - كما ذكرنا مكرراً - وكان ذكر نافلة الليل دون سائر النوافل لأهميتها الأكيدة في الشريعة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٠ إلى ٨٢]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَتَنْزِيلٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)

[٨١] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ أَيْ إِدْخَالَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ أَيْ إِخْرَاجَ صِدْقٍ، فَإِنَهُمَا مَصْدَرَانِ بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا دَعَاءٌ لِكُونَ دُخُولِ الْأُمُورِ وَخُرُوجِهَا يَتَسَمَّى بِالصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، لَا الْكُذْبِ وَالِانْحِرَافِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَدْخُلُ فِي الْأُمُورِ - أَيْ أَمْرٍ كَانَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ - بِالصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَقَدْ يَدْخُلُ بِالْانْحِرَافِ وَالْكَذْبِ وَالِالْتِمَازِ، وَهَكَذَا الْخُرُوجُ مِنَ الْأُمُورِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ دُخُولَهَا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مِنْ عِنْدِكَ سُلْطَانًا سُلْطَةً وَعِزًّا نَصِيرًا أَنْتَصِرَ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ حِجَّةً وَقُوَّةً، وَرَبْعًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَقَدْ نَاسَبَتِ الْآيَةَ، مَا أَرَادَ الْمَشْرُوكُونَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْانْحِرَافِ، كَمَا قَالَ «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ».

[٨٢] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ الطَّامِعِينَ فِيكَ، الرَّاجِينَ بَقَاءَ كَيَانِهِمْ جَاءَ الْحَقُّ وَهُوَ الدِّينُ وَالْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ أَيْ ذَهَبَ وَانْفَضَّ وَظَهَرَ بَطْلَانَهُ،

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما ورد مكة فاتحاً، رأى حول الكعبة، ثلاثمائة وستين صنماً فأخذ يقرأ هذه الآية، ويشير إليها بعصاه، فتكس على الأرض

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا أَيْ مَضْمُوحًا، فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْبَاطِلِ لَا اسْتِقْرَارَ لَهُ، وَلَا بَقَاءَ.

[٨٣] إِنَّ الْحَقَّ الْمَتَمَثِّلَ فِي الْقُرْآنِ، لَقَدْ جَاءَ، وَإِنَّهُ يَشْفِي الْمُؤْمِنِينَ شِفَاءً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٩

[سورة الإسراء (١٧): آية ٨٣]

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسِئًا (٨٣)

روحياً وجسماً، كما أنه يزيد الظالمين خساراً، فإنهم يعارضوه، ويقابلوه بما يوجب زيادة وزرهم وتُزَلُّ مِنَ الْقُرْآنِ «من» بيان المنزل المستفاد من «نزل» ما هو شفاء شفاء لأرواحهم المريضة بالأخلاق السيئة والرديلة، وشفاء لأجسامهم، فإن الإنسان إذا تعدت مناهج حياته صح جسمه ورحمته أسباب ترحم و لطف من الله للمؤمنين فإنهم إذ يطيعونه، يكونون مورد لطفه ورحمته ولا يزيد القرآن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف والسلوك المعوج إلا خساراً أي خساراً على خسارتهم، لكفرهم به وانحرافهم عن سبيله و ضلالهم ومقاومتهم له.

[٨٤] وإذا ترك الإنسان الشفاء والرحمة، وأخذ يسلك سبيل الغي، فإنه يتقلب في أوضاع الكفر والضلالة كيفما كان حاله وإذا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِالصِّحَّةِ وَالرِّفَاهِ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ وَغَيْرِهَا أَعْرَضَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَأَى بِجَانِبِهِ أَيْ ابْتَعَدَ بِطَرَفِهِ عَنَّا، كَأَنَّهُ لَوْ جَنَّبَهُ - كِتَابِيَةً عَنِ إِعْرَاضِهِ، وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِمَا يُلْزَمُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ، وَالطَّاعَةِ لِلْمَنْعَمِ - فَيَتَكَبَّرُ وَيَتَجَبَّرُ وَيَطْغَى، حِينَ

رأى نفسه مستغنياً وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ وَالْخَوْفُ، وَ مَا أَشْبَهَهَا، لَمْ يَصْبِرْ، وَ لَمْ يَدْعِ اللَّهَ لِرَفْعِهَا بَلْ كَانَ يُؤَسِّئاً كَثِيرَ الْيَأْسِ قَانِطاً، فَلَا هُوَ فِي الرَّخَاءِ يَشْكُرُ، وَ لَا فِي الْبَلَاءِ يَصْبِرُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٤ إلى ٨٥]

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

[٨٥] هذا حال الإنسان الظالم الذي لا يزيده القرآن إلا خساراً، أما المؤمن فهو بعكس ذلك، لا يزيده الرخاء و البلاء، إلا ثواباً و انقطاعاً إليه سبحانه و شكراً و طاعةً، فكل من الطائفتين، تعمل على الشكل الذي اختاره من الكفر و الإيمان قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّ مَنْ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ الشَّاكِلَةُ الطَّرِيقَةُ، لِمَشَاكِلَتِهِ بَعْضُ الطَّرِيقِ لِبَعْضٍ، وَ فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِمَنْ يَسْلُكُ الطَّرِيقَ الْمُنْحَرِفَ، كَأَنَّهُ يُقَالُ اعْمَلُوا فَسْتَرُونَ جَزَاءَ عَمَلِكُمْ فَرَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا هَلِ الْمُؤْمِنُ سَبِيلُهُ أَحْسَنُ أَمِ الْكَافِرُ؟

[٨٦] وَيَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الرُّوحِ مَا هُوَ؟ وَ حَيْثُ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ تَوْجِبُ تَبْدِيدَ الطَّاقَةِ الْعَقْلِيَّةِ فِيمَا لَا يَعْنِي، لَمْ يَجِبِ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ إِشَارَةً إِلَى لُزُومِ أَنْ يَصْرِفَ الْإِنْسَانُ طاقته فيما يهمه من أمر دنياه و آخرته، لا فيما لا يهمه قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمُ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي فَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ بِأَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ مَنْ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ وَ مَا أُوتِيتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ الْأَسْرَارَ الْكُونِيَّةَ فَوْقَ حُدُودِ الْإِحْصَاءِ، وَ مَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ لَيْسَ إِلَّا جُزْءٌ ضَخِيلاً مِنَ الْأَسْرَارِ، فَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ يَصْرِفَ الْإِنْسَانُ وَقْتَهُ الْغَالِي الْقَصِيرَ فِيمَا يَنْفَعُهُ، لَا فِيمَا لَا يَنْفَعُهُ، أَقُولُ: لَا يَبْعُدُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِالرُّوحِ الْرُوحَ الَّتِي يَأْتِي بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْقُرْآنَ ذَاتَهُ، كَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٦ إلى ٨٧]

وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قَالَ سَبْحَانَهُ (وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) «١» وَ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ، حَيْثُ إِنَّ الْكَلَامَ حَوْلَ الْعَقِيدَةِ، وَ الرِّسَالَةِ، وَ الْقُرْآنِ، وَ قَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: خَلَقَ أَعْظَمَ مِنْ جَبْرَائِيلَ وَ مِيكَائِيلَ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هُوَ مَعَ الْأَنْمَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ هُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ «٢».

[٨٧] إن الإنسان لم يؤت إلا قليلاً من العلم، و إن القرآن الذي يرشد الإنسان إلى مناهج الحياة بعد إرشاده إلى العقيدة الصحيحة، أنه من أمر الله سبحانه و فضله على البشر، حدوداً و بقاءً، و لو شاء لمحاه من بين الناس حتى يرجعوا جهالاً، و هذا كما تقول لتلميذك: أنت لا تعرف شيئاً، و ما تعرفه فإنه مني، و لو شئت لأخذت كتب علمك، حتى تبقى جاهلاً، كما كنت و لَئِنْ شِئْنَا وَ أَرَدْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ بَأْنِ نَمْحِي صُورَتَهُ مِنْ ذَهْنِكَ، وَ نَرْفَعُ نَسْخَهُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ ثُمَّ لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ أَى بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ عَلَيْنَا وَ كَيْلًا فَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِرْدَادِهِ مَنَا، أَى لَا تَجِدُ مَوْكِلًا بِالْقُرْآنِ لَكَ، عَلَى ضَرَرِنَا، وَ خِلَافِ إِرَادَتِنَا، يَسْتَوْفِيهِ مَنَا لَيْسَلِمَهُ إِلَيْكَ.

[٨٨] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ الَّذِي وَ هَبَكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَ أَبْقَاهُ عِنْدَكَ، هُوَ تَفَضَّلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْكَ - وَ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ - إِنَّ فَضْلَهُ تَعَالَى

(١) الشورى: ٥٣.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا حَيْثُ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِالنَّبُوَّةِ، وَبِإِعْطَاءِ الْقُرْآنِ، وَبِإِبْقَائِهِ عِنْدَكَ، وَهَذَا لِتَنْبِيهِ النَّاسِ حَتَّىٰ يَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمَ نِعْمٍ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، حَيْثُ يَقْرَرُ الْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ، مِمَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهَا الْبَشَرِيَّةُ بِعَقْلِيَّتِهَا، وَ لَوْ صَقَلَتْ أَلْفَ عَامٍ.

[٨٩] فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامًا عَادِيًّا، يَتِمَكَّنُ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ قُلُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ مُتَعَاوِنِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي جَمِيعِ خُصُوصِيَّاتِهِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْمُنْهَجِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، وَ سَائِرِ وَجُوهِ الْإِعْجَازِ الْمَقْرُورَةِ فِي كِتَابِ الْكَلَامِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ لِأَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ طَوْقِهِمْ وَقَدْرَتِهِمْ وَلَا كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا مَعِينًا وَظَهْرًا يُسَاعِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ مَضَىٰ عَلَى الْقُرْآنِ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ عَامٍ، وَ لَمْ يَأْتِ مِنْ يَأْتِي بِمِثْلِ الْقُرْآنِ، نَعْمَ جَاءَ مُسَيِّمُهُ بِالْمُضْحَكَاتِ، وَ جَاءَ الْبَابُ بِالْمُبْكِيَّاتِ، أَمَّا مَنْ كَانَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَفَكَرَ وَقَدَّرَ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، وَ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِعَصَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِحْيَاءِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ غَرَقَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدٌ كَذَلِكَ لَمْ يَأْتِ بِقُرْآنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَحَدٍ.

[٩٠] وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ بَيْنَنَا لِلنَّاسِ، وَ جِئْنَا بِالْأَمْثَلَةِ الْمُخْتَلَفَةِ فِي أَلْبَسَةِ شَتَىٰ، كَالْإِتْيَانِ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ فِي

سبعين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٠ الى ٩٢]

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)

لِبَاسٍ، وَ هَكَذَا، وَ هَذَا مَعْنَى التَّصْرِيفِ، فَإِنَّهُ أَنْ يَقْلِبَ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ فِي صُورِ شَتَىٰ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا أَى جُحُودًا لِلْحَقِّ مَعَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

[٩١] إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى الْقُرْآنَ إِلَى الْبَشَرِ مَعْجِزَةً لِلرُّسُولِ وَ مِنْهَا جَا لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ وَ كَلِمَةٌ بَاقِيَةٌ يَسْتَنْبِرُ بِهَا الْأَقْوَامُ، وَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، لَكِنِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَبَوْا إِلَّا الْجُحُودَ وَ التَّوَعْلُجَ فِي الْعِنَادِ، أَعْضَضُوا النَّظَرَ عَنْهُ، وَ أَخَذُوا يَتَطَلَّبُونَ خَوَارِقَ مَادِيَّةٍ لَا تَنْفَعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَ لَا تَبْقَىٰ مَعَ الْأَجْيَالِ وَ إِنَّمَا طَلَبُوهَا لِمَجْرَدِ الْعِنَادِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ، وَ قَالُوا لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَ إِنْ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَى حَتَّىٰ تَشَقِّقَ الْأَرْضَ، وَ تَخْرُجَ مِنْهَا عَيْنٌ مَاءً نَسْتَفِيدُ مِنْهَا، فَإِنَّ أَرْضَ مَكَّةَ قَلِيلَةُ الْمَاءِ تَحْتَاجُ إِلَى الْعْيُونِ وَ الْأَنْهَارِ.

[٩٢] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ بِأَنْ تَدْعُو رَبِّكَ فَيَحْدِثُ لَكَ جَنَّةً فِي طَرَفِهَا عَيْنٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ مِنَ الْمَاءِ خِلَالَهَا أَى وَسَطِهَا تَفْجِيرًا تَشْقِيقًا، حَتَّىٰ يَجْرَى الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ.

[٩٣] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا فَإِنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ يَهْدُدُهُم بِالْعَذَابِ مِنَ السَّمَاءِ، وَ قَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٣]

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

(وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) «١» فَهَذَا يَقُولُونَ أَسْقِطْ عَلَيْنَا - حَسْبُ زَعْمِكَ: إِنَّكَ تَقْدِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَ

إنك رسول الله - السماء.

كَيْفًا وَ هِيَ جَمْعُ كَسْفَةٍ، بِمَعْنَى الْقِطْعَةِ، وَزَنَ السِّدْرَةَ، وَ سَدْرٌ وَ كَسْفًا حَالٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَ لَا يَخْفَى أَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِ السَّمَاءِ هِيَ الْمَدَارُ، يَكُونُ كَلَامُهُمْ هَذَا حَسْبَ زَعْمِهِمْ، بِأَنَّ السَّمَاءَ جِسْمٌ، أَمَا قَوْلُهُ «وَ إِن يَرَوْا كِسْفًا» فَلَعَلَّ الْمُرَادَ، الْكَسْفُ الَّتِي مَنَشَأُهَا السَّمَاءُ، فَإِنَّ الْقِطْعَ الْمَعْدِنِيَّةَ تَقْدِفُ مِنْ جَانِبِ الْعُلُوِّ، كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفَلَكَ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا أَى فِي حَالِ كَوْنِهِمْ قَبِيلَةً قَبِيلَةً، وَ صَنَفَا صَنَفَا حَتَّى نَشَاهِدُهُمْ فَنَصَدِّقُ بِكَ، وَ لَعَلَّهُمْ أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ (وَ جَاءَ رُبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) «٢» وَ لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ الْمُرَادَ «جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» وَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ تَأْتِي (لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) «٣» [٩٤] أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَى بَيْتٌ مَمْلُوءٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَ أَصْلُهُ مِنَ الزُّخْرُفَةِ، وَ هِيَ الزَّيْنَةُ، فَكَأَنَّ إِطْلَاقَهُ عَلَى الذَّهَبِ مَجَازًا مِنْ بَابِ الْأَوْلَى، لِأَنَّ الذَّهَبَ يَزِينُ بِهِ أَوْ تَزُقَّى وَ تَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ بِأَنَّ نَرَاكَ قَدْ صَعَدْتَ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ وَ صَعُودِكَ، لِأَنَّا نَحْتَمِلُ، أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ السَّحْرِ، وَ أَنَّكَ قَدْ تَصَرَّفْتَ فِي أَبْصَارِنَا حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِنْ

(١) الطور: ٤٥.

(٢) الفجر: ٢٣.

(٣) الفرقان: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٥

جانب الله نَفَرُوهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ نَبُوتُكَ وَ صَدَقْتُكَ فِي دَعَاوِيكَ، وَ قَدْ كَانُوا مِنَ الْجَهْلِ وَ الْغِبَاوَةِ بِحَيْثُ يَفْرُقُونَ بَيْنَ الصَّعُودِ، وَ بَيْنَ الْإِنزَالِ بِالْكِتَابِ، فَإِنَّ مَنْ يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّحْرِ فِي الصَّعُودِ، يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّحْرِ فِي الْإِنزَالِ الْكِتَابِ أَيْضًا قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ هَذِهِ الْاِقْتِرَاحَاتِ سُبْحَانَ رَبِّي أَى أَنزَهَ رَبِّي عَنِ الْمَثَلِ وَ الذَّمِّ وَ هَذِهِ جَمَلَةٌ تَسْتَعْمَلُ لِلتَّعَجُّبِ، وَ كَانَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْمَعْنَى كَوْنُ اللَّهِ مَنزَهًا، أَمَا مَا جَرَى بَيْنَنَا، فَلَيْسَ مَنزَهًا هَيْلٌ كُنْتُ إِلَّا بَشْرًا رَسُولًا أَى لَسْتُ أَنَا إِلَّا رَسُولٌ، فَالْوَاجِبُ عَلَيَّ أَنْ آتِي بِمَنْهَاجِ السَّمَاءِ، وَ مَعِيَ مِنَ الْأَدْلَةِ مَا تَثَبْتُ أَنِّي رَسُولٌ، أَمَا أَنْ آتِي بِكُلِّ مَا يَقْتَرِحُ النَّاسُ مِنَ الْخَوَارِقِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ كَانَ الشَّخْصَ مِنْ أَهْلِ الْإِنصَافِ، كَفَاهُ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ دَلِيلًا، وَ إِنْ كَانَ الشَّخْصَ مَعَانِدًا فَلَا يُوْمِنُ وَ لَوْ جِئْتُ لَهُ بِأَلْفِ دَلِيلٍ، وَ قَدْ كَانَتْ الْأُمَّمُ تَسْأَلُ أَنْبِيَاءَهَا بِالْمَقْتَرِحَاتِ، ثُمَّ لَمْ تُوْمِنْ، كَمَا حَدَّثَ فِي قِصَّةِ صَالِحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ

قَدْ وَرَدَ فِي شَأْنِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ: أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ قَرِيشٍ وَ هُمُ عَتَبَةٌ وَ شَيْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ وَ أَبُو سَيْفَانَ بْنِ حَرْبٍ وَ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ وَ زَمَعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ وَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلٍ وَ نَبِيهٌ وَ مِنْهُ ابْنُ الْحِجَاجِ وَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ ابْنُ هِشَامٍ، اجْتَمَعُوا عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ابْعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِّمُوا فَكَلِمَتَهُ وَ خَاصِمُوهُ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ، أَنَّ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لَكَ، فَبادِرْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ، وَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى رَشْدِهِمْ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ إِنَّا دَعَوْنَاكَ لِنَعْزِدَ إِلَيْكَ، فَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا دَخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدَخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، شَتَمْتَ الْآلِهَةَ، وَ عَبْتِ الدِّينَ، وَ سَفَهْتَ الْأَحْلَامَ، وَ فَرَقْتَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٤]

وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا (٩٤)

الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالا أعطيناك، و إن كنت تطلب الشرف سودناك علينا، و إن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء؟

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِّمُوا: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَ أَنْزَلَ كِتَابًا، فَإِنَّ قَبْلَتُمْ مَا جِئْتُ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي

الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيننا؟ قالوا فما أحد ليس أضيع بلدا منا، فاسأل ربك أن يسير هذه الجبال، و يجرى لنا أنهارا كأنها الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضي، و ليكن فيهم قصي، فإنه شيخ صدوق، لنسألهم عما تقول، أحق أم باطل؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما بهذا بعثت، قالوا: فإن لم تفعل ذلك، فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك، و يجعل لنا جنات و كنوزا و قصورا من ذهب؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما بهذا بعثت، و قد جئتكم بما بعثني الله به، فإن قبلتم، و إلا فهو يحكم بيني و بينكم، قالوا: فأسقط علينا السماء، كما زعمت إن ربك، إن شاء فعل ذلك؟ قال ذاك إلى الله إن شاء فعل، و قال قائل منهم لا تؤمن، حتى تأتي بالله و الملائكة قبلا، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم و قام معه عبد الله ابن أبي أمية المخزومي ابن عمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أمورا فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به؟ فلم تفعل، فو الله لن أومن بك أبدا، حتى تتخذ سلما إلى السماء ثم ترقى فيه و أنا أنظر و يأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك و كتاب يشهد لك، فأنزل الله سبحانه الآيات «١»

[٩٥] ثم ذكر سبحانه، أن سب امتناع هؤلاء عن الإيمان بالرسول، إنكارهم

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٥]

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَائًا رَسُولًا (٩٥)

لأن يكون البشر رسولا، إما لأنهم يظنون أن منصب الرسالة فوق أن يناله بشر- أو للحسد- أو نحو ذلك و ما منع الناس أن يؤمنوا أى لم يصرف المشركين عن الإيمان بالرسول و تصديقه إذ جاءهم الهدى أى حين أتتهم الهداية و الرشاد، إلا أن قالوا استثناء عن «شئ» المحذوف الذى هو فاعل «منع» فالاستثناء مفرغ أبعث الله بشرا رسولا أى كيف يمكن أن يرسل الله بشرا للرسالة و أداء الوحي؟ و المراد ب «قولهم» شبهتهم التى تظهر بالقول.

[٩٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ: إن الملائكة لا تصلح لأن ترسل إلى البشر الجمهور، لأنه ليس من جنسهم، و لا تصلح الأرض محلا لهم، فإن الله سبحانه قادر على كل شئ، لكن الله تعالى جعل للأرض قوانين عامة، و أجرى سننه وفق تلك القوانين، و من تلك القوانين، كون الرسول من جنس البشر، و إن الملك لا ينسجم، كما أن الحيوان لا ينسجم مع البشر بأن يكون رسولا إليه، فإذا طلب طالب أن يكون الطير رسولا، كيف يكون مضحكا- و إن كانت قدرة الله فوق ذلك- كذلك من يطلب أن يكون الملك رسولا؟ لو كان في الأرض مَلَائِكَةٌ و لم يكن بشر فيها يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ أى ساكنين قاطنين، فإن المشى و الاطمئنان كناية عن ذلك، إذ غير الساكن لا يكون ماشيا مطمئنا، بل يمشى مضطربا قلبه، يهفو نحو وطنه و محله لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أى من جانب العلو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)

مَلَكَائًا رَسُولًا أى رسولا من جنس الملك، لأنه حينئذ ينسجم مع المرسل إليهم، أما و فى الأرض بشر، فالرسول لا بد و أن يكون من جنسهم، ثم لماذا الملائكة؟ أ للتعنت و الاقتراح؟ فلا يفيد الملائكة أيضا، أم للحجة و البرهان؟ فالرسول معه ما يدل حجة و برهانا، و لا يقاس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسائر الناس، فإنه صالح لأن يعاشر الملائكة بخلاف غيرهم فلا يستشكل بأنه ما الفرق بين الرسول و غيره؟

[٩٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الذين يطلبون أن يكون الرسول إليهم ملكا و لا يقتنعون بك كفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فَاللَّهُ شَاهِدٌ عَلَى رسالتى، حيث أجرى على لسانى القرآن الذى عجزتم عن الإتيان بمثله، فلو كنت كاذبا فى دعواى لزم- فى الحكمة- أن لا أتمكن على شىء يعجز البشر عنه، فإجراء الله المعجزة على يدى دليل على صدق دعواى، كما أن إمضاء الرئيس إذا كان مع المستخدم كفاه دليلا على كونه من قبل الرئيس إِنَّهُ سبحانه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا مُطَّلِعًا عَلَى أحوالهم بِصِيرًا يبصر حركاتهم و سكناتهم فلو افترى عليه أحد، لزم عليه- فى الحكمة- أن يفضحه، لا أن يجرى بعض النواميس الخارقة على يده.

[٩٨] إن هؤلاء الكفار تركوا عقولهم، و ركبوا أهواءهم، و لذا تركهم سبحانه فى ضلالهم يعمهون، و إلا فما حجة من تمت عليهم الحجة، و وضحت لهم المحجة؟ وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ بَأَن يُلطف عليه الألفاظ الخفية، حين رأى منه الإيمان و الإذعان فَهُوَ الْمُهْتَدِ حَقِيقَةُ الذى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٩

رأى السبيل، و آمن و أخذ الله بيده إلى النجاح و السعادة- و الياء من المهتمد محذوف تخفيفا- وَ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ، بَأَن منع منه الألفاظ الخفية، بعد أن أراه السبيل فأعرض و لم يؤمن، كالسيد الذى يعرض عن عبده، حيث يراه يعمل باطلا، فيتركه حتى يضل، فإنه يقال فى العرف: إن السيد أفسد عبده، حيث لم يضرب على يده فَلَنْ تَجِدَ يا رسول الله لَهُمْ أَى للضال أولياء يتولون شؤونه و ينصرونه مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله، و من يتولاه فى الظاهر، فليست ولايته كولاية الله التى تهيب خير الدنيا و الآخرة، فالمراد بالنفى، نفى الأنبياء حقيقة، لا نفى الأولياء صورة، فهو

كقوله عليه السلام: يا أشباه الرجال و لا رجال

«١» إن حال الضالين فى الدنيا، أنه لن تجد لهم أولياء، أما حالهم فى الآخرة وَ نَحْشُرُهُمْ أَى نجمعهم للحساب، فإن الحشر بمعنى الجمع يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فإنهم يسحبون على وجوههم إلى النار، كما يفعل فى الدنيا، بمن يراد كمال إهانتة، فى حال كونهم عُمية جمع أعمى، و هو الذى لا يصر له وَ بَكْمًا جمع أبكم، و هو الذى لا يتمكن من الكلام، وَ صِيْمًا جمع أصم، و هو الذى لا يسمع، فهم بهذه الحالة المزرىة المخزية يحشرون هناك فقد عموا عن الحق فى الدنيا، و لم ينطقوا بالشهادة و الخير، و لم يعيروا أسماعهم للدعوة، فليكونوا هناك كذلك جزاء لما اقترفوه هنا، مأواهم أى محلهم و مصيرهم و منزلهم، من أوى يأوى، بمعنى

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٧ ص ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٣٩٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أ وَ لَسْمَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)

اتخذ المأوى جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ أَى سكن لهيبيها، و المراد أنه كلما أشرفت على الخمود، و إلا فنار جهنم لا تنقض أبدا زدنهم سِيعِرًا أَى اشتعالا و التهابا و توقدا.

[٩٩] ذَلِكَ الْعَذَابُ فى المحشر و فى النار جزاؤهم الذى استحقوه بسبب أنهم كَفَرُوا بِآيَاتِنَا و لم يؤمنوا بها وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا بَأَن تبددت لحومنا بعد الموت، حتى لم تبق إلا العظام وَ رُفَاتًا مما تهشم بالفت، كالأعواد اليابسة البالية أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ محيون بعد الموت خَلْقًا جَدِيدًا كما كنا سابقا؟ قالوا ذلك على وجه الإنكار.

[١٠٠] أ وَ لَمْ يَرَوْا أَى ألم يعلم هؤلاء المنكرون للبعث أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أوجدهما من العدم قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْحَشْرِ مِثْلَ الْإِنْسَانِ قَبْلَ الْمَوْتِ - باعتبار - كما أنه هو باعتبار آخر، فإن الإعادة ليست أصعب من الابتداء، كما قال سبحانه (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) ﴿١﴾ وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ أَيُّ لَهْؤَلَاءِ فِي الْإِعَادَةِ أَجَلًا أَى وَقْتًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّهُ مِنَ الْوُضُوحِ

(١) يس: ٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥١

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٠٠]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

بـحيث لا- ينبغي الارتياح و الشك فيه، فهو نفى الريب الصحيح بلسان نفى الحقيقة، نحو «و لا- رجال» فَأَبَى الظَّالِمُونَ الَّذِي ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَرْضَخْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، حَيْثُ عَرَضَهَا لِلْعِقَابِ الدَّائِمِ إِلَّا كُفُورًا أَى جَحودًا للسماء.

[١٠١] إن من يأمر غيره بالكرم، لا- بد و أن يكون كريما، و إلقاء: «لا تبغ منقبة و تأتي ضدها» فهؤلاء الكفار الذين كفروا بالله و رسوله و المعاد، و الذين اقترحوا البيت من الذهب، و تفجير العين، و البساتين، و غيرها، أن ملكوا كل شىء، لم يكونوا يبذلون شيئا، فهم أشحاء فى الإعطاء، أسخياء فى الطلب قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي وَ خَزَائِنَ اللَّهِ، هى الماء، و التراب، و الشمس، و الهواء، التى تتولد منها الأشياء و الإرادة الأزلية التى تهب الحياة و الفضيلة، و غيرهما، فكما أن الخزينة مركز الجواهر و النقود، كذلك هذه الأشياء مصدر ما فى الكون من الوجود و النفائس إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ و لم تبدلوا خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ أَى لأجل خشية أن تفتقروا إذا بذلتهم- مع أن خزائن الله لا تنفذ أبدا- فمن هذا النحو من الشح و البخل شأنه، كيف يقترح هذه الاقتراحات المادية الدسمة؟

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا أَى بخيلا، من «قتر» بمعنى ضيق فى النفقة، و القتور صيغة مبالغة، و هذا شبه الاستهزاء بالمقترحين، و السخرية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَيِّئِلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)

باقتراحهم، كما قال سبحانه (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) ﴿١﴾ [١٠٢] إن الأمة المعاندة، لا تفيدها الخوارق، فهؤلاء، و إن طلبوها، و علقوا إيمانهم بها، إلا أنها إذا جاءت لا يؤمنون، حالهم حال الأمة السابقة، أليس جاء موسى بأعظم من هذه الخوارق، و لم تنفع كلها فى إيمان قوم فرعون؟ و هل الأمم إلا أمثالا؟ وَ لَقَدْ آتَيْنَا أَى أَعْطَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ أَى خَوَارِقٍ وَاضِحَاتٍ، وَ هى «اليد» و «العصا» و «الحجر» و «البحر» و «الطوفان» و «الجراد» و «القمل» و «الضفادع» و «الدم» كما ورد بذلك الآيات و الروايات- و قد مر تفسيرها- فَسَيِّئِلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَهُودَ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ، و إنما أمر بالسؤال، ليكون كلام اليهود أبلغ فى الحجة، فإن كفار مكة المقترحين، كانوا أسمع من اليهود، فهم يدعون لليهود بما لا يدعون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِذْ جَاءَهُمْ وَ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ فَقَالَ لَهُ أَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا قَدْ سَحَرُوكَ وَ ذَهَبَ عَقْلُكَ، وَ لَذَا تَدْعَى النَّبُوَّةَ، أَوْ أَنَّ الْمَرَادَ «ساحرا» فوضع المفعول موضع الفاعل - كما ذكر أهل الأدب- أن كلاً من المفعول ينوب مناب الآخر.

[١٠٣] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا فِرْعَوْنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اشْكُونَا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤)

ما أنزل هؤلاء الآيات، و لعل الإتيان ب «هؤلاء» التي هي للعاقل، كون الآيات تعمل عمل العاقل، فالعصا تصير ثعبانا تأكل، و الجراد تهاجم مهاجمة العاقل، و هكذا إلاً رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فليست سحرا، و لست أنا مسحورا بصائر أي أنزلها لأجل أن تكون حججا و براهين، فبصائر جمع بصيرة، بمعنى مبصرة، أو المراد ذات بصائر، أو أطلق البصيرة على سبب البصيرة مبالغة، أو مجازا لعلاقة السبب و المسبب و إِنِّي لَمَأْطُنْكَ يَا فِرْعَوْنَ مُثْبُوراً من ثبره الله بمعنى أهلكه، و الثبور بمعنى الهلاك، و المراد به الهلاك على الكفر، و إنما قال «أظن» لعدم علمه بذلك، و إنما ظن حسب الظاهر من عناده، مع احتمال إيمانه، أو للتشابه اللفظي، و إن كان عالما بذلك، فإن الظن يستعمل بمعنى العلم.

[١٠٤] فَأَرَادَ فِرْعَوْنُ بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، حَيْثُ لَمْ يَجِدْ مَخْلَصاً مِنْ مُوسَى وَ حُجَّجَهُ الْقَوِيَّةُ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ أَي يَزْعِجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَطْرُدُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَي أَرْضِ مِصْرَ، مَقْرَ سُلْطَنَهُ فَأَعْرَفْنَاهُ أَي أَعْرَفْنَا فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ وَ أَشْرَافِ قَوْمِهِ جَمِيعاً لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَ هَكَذَا مَصِيرَ الْكُفَّارِ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ.

[١٠٥] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ أَي بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اشْكُونَا الْأَرْضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٠٥]

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (١٠٥)

أى كونوا فيها، مقابل إرادة فرعون تباعدكم، و المراد إما أرض مصر، فقد سكنها بنوا إسرائيل فيما بعد، أو الأعم مقابل إرادة فرعون إخراجهم من أرض مصر و الشام و فلسطين - كما ذكر بعض أهل التفسير - أو مطلق الأرض، أى بقوا هؤلاء، و ذهب أعداءهم فإذا جاء وَعْدُ الْآخِرَةِ وَ هِيَ الْقِيَامَةُ جِئْنَا بِكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَفِيفاً قَدْ لَفَّ بِعُضُوكُمْ فِي بَعْضٍ، فَلَكُمْ إِرْثُ الْأَرْضِ هُنَا، وَ لَكُمْ الْآخِرَةُ هُنَاكَ، أَوِ الْمَرَادُ لَفِيفاً أَنْتُمْ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، لِيَجْزَى أَوْلَئِكَ هُنَاكَ، كَمَا جُوزُوا هُنَا.

[١٠٦] وَ إِذْ قَدْ تَقَرَّرَ، أَنْ الْاِقْتِرَاحَاتِ لَا مَعْنَى لَهَا، وَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ دَلَالَةً لِلنَّبِوَةِ، وَ حُجَّةً عَلَى الْقَوْمِ، يَرْتَدُّ السِّيَاقُ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ الْحَكِيمِ لِيُبَيِّنَ مَا هُوَ وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ أَي أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّا لَمْ نَنْزِلِ الْقُرْآنَ، إِلَّا لِلْإِيمَانِ بِهِ، وَ اتِّبَاعِ سَبِيلِهِ، مَقَابِلَ انْتِزَالِ الشَّيَاطِينِ الْكَذِبِ عَلَى الْكُهَّانِ وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ أَي وَ قَدْ كَانَ الْقُرْآنُ مَصَاحِباً لِلْحَقِّ، فَمَا فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مَطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ، مَقَابِلَ مَا نَزَلَ بِالْحَقِّ، وَ لَكِنَّهُ لَا- يَصْحَبُ الْحَقَّ، كَمَا لَوْ أُعْطِيَ الْوَلِيُّ عِبْدَهُ كِتَاباً، لِيَعْمَلَ فِيهِ، وَ قَدْ كَتَبَ فِيهِ اشْتِبَاهاً شَيْءَ بَاطِلٍ، فَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَوْلَى بِالْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَهُ السُّلْطَةُ عَلَى الْعَبْدِ، وَ قَصْدُهُ الْحَقَّ، لَكِنَّ الْكِتَابَ الْمَعْطَى، كَانَ مَصَاحِباً لِلْبَاطِلِ، وَ الْحَاصِلُ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَقٌّ فَاعِلٌ وَ فِعْلٌ أَوِ الْمَرَادُ أَنَّ الْإِنْزَالَ كَانَ بِالْحَقِّ، وَ الْوَصُولُ إِلَى الرَّسُولِ كَانَ بِالْحَقِّ، فَلَمْ يَطْرُقْ تَحْرِيفٌ فِي الْبَيِّنِ، وَ إِذَا شِئْتَ قُلْتَ إِنَّ الْمَلْحُوظَ إِذَا جِئْتَ الْفَاعِلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

وَقُورَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧)

و الفعل، أو الفاعل و القابل و ما أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا مُبَشِّراً لِمَنْ آمَنَ، وَ أَطَاعَ بِالثَّوَابِ وَ نَذِيراً لِمَنْ كَفَرَ، أَوْ عَصَى بِالْعِقَابِ.

[١٠٧] وَأَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ فِي نَيْفٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ نَزَلْهُ جَمْلَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا تَدْرِيجًا مَنْجَمًا، مِنْ فَرْقٍ بِمَعْنَى التَّفْرِيقِ، وَالْإِرْسَالُ جُزْءًا فَجُزْءًا لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ أَيْ عَلَى تَوَدُّةٍ، وَفِي أَرْزَمَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، مِنْ مَكْثٍ بِمَعْنَى لَبَثٍ، فَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ لِرَبِيٍّ الْأُمَّةَ تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً، وَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّدْرِيجِ، وَأَنْ يَنْزَلَ بِكُلِّ مَنْاسِبَةٍ جُزْءَ مِنْهُ، لِيَكُونَ تَحْرِيكًا، وَلَيْسَ كَالْكَتَبِ الْمَدُونَةِ، كِتَابًا يَقْرَأَهُ الْإِنْسَانُ لِيَعْلَمَ مَا فِيهِ - فَحَسَبَ - أَوْ فِكْرَةً يَسْتَعْرِضُهَا الشَّخْصُ، وَوَقَدْ أَدَّى الْقُرْآنُ مَفْعُولَهُ، بِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الْمَفْرَقَةَ لَهُ أَرْزَمًا وَمَنْاسِبَاتٍ، حَتَّى رَبَّى الْجِيلَ وَانْدَفَعَ، وَبَانْدَفَاعٍ أَوْلَثَكَ يَنْدَفِعُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْأَبَدِ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا عَلَى حَسَبِ الْحَاجَةِ، وَوَقُوعِ الْحَوَادِثِ، لَا جَمْلَةً وَمَجْمُوعًا، وَكَانَ لَفْظُ «التَّنْزِيلِ» حَيْثُ أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ دَالٌ عَلَى التَّكْثِيرِ فِي النُّزُولِ الْمَلَاذِمِ لِلتَّدْرِيجِ.

[١٠٨] وَإِذْ تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَكَوْنُهُ مَنَزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالْحَقِّ، وَفِيهِ الْحَقُّ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ، فَقَدْ ثَبَتَتْ الْحُجَّةُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْإِطَاعَةُ أَوْ الْعَصْيَانُ قُلُوبًا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْكَفَّارِ آمَنُوا بِهِ أَيْ بِالْقُرْآنِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا فَإِنَّا قَدْ تَمَّ مِنْ جَانِبِنَا الْأَمْرُ، وَبَقِيَ فِي جَانِبِكُمْ، فَمَنْ أَرَادَ الْخَيْرَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ أَرَادَ الشَّرَّ فَلَا يُؤْمِنْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٦

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٨ إلى ١٠٩]

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

أَمَّا الْعُلَمَاءُ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ - طَبْعًا - لِمَا يَرُونَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ إِنَّ الدِّينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَيْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عِلْمَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِهِ أَيْ مِنْ قَبْلِ نَزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِذَا يُتْلَى أَيْ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ أَيْ يَسْقُطُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَأَذْقَانُ جَمْعُ ذَقْنٍ، وَهُوَ مَنْتَهَى الْوَجْهِ، وَإِنَّمَا خَصَّ الذَّقْنَ لِأَنَّ مِنْ سَجْدٍ كَانَ أَقْرَبَ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَى الْأَرْضِ ذَقْنَهُ سَجْدًا جَمْعُ سَاجِدٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَخِرُّ عَلَى الْأَرْضِ لِلسُّجُودِ، إِذَا لَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسَهُ، وَقَعَ ذَقْنَهُ أَوْ لَا عَلَى الْأَرْضِ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَذْقَانَهُمْ فَقَطْ.

[١٠٩] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا تَنْزِيهَا لَهُ عَنِ الْبَاطِلِ، فَمَا أَرْسَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ حَقًّا، لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا «إِنْ» مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ أَنَّهُ كَانَ وَعْدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ لِمَفْعُولًا - يَفْعَلُ - فَلَا خَلْفَ فِيهِ، وَهَذَا نَحْنُ نَرَى الْوَعْدَ قَدْ أَنْجَزَ قَامَنَا وَصَدَقْنَا.

[١١٠] إِنَّهُمْ يَغْلِبُهُمُ التَّأَثُّرُ، حَتَّى أَنَّهُمْ يَبْكُونَ مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ الْحَاصِلِ لَهُمْ مِنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ فَهَمْ يَسْقُطُونَ عَلَى الْأَذْقَانِ، وَيَسْجُدُونَ وَيَبْكُونَ مِنْ شِدَّةِ مَا خَالَجَ نَفْسَهُمْ مِنَ التَّأَثُّرِ بِالْقُرْآنِ وَبِعِظْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَيَزِيدُهُمْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ خُشُوعًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ١١٠]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) عَلَى خُشُوعِهِمْ بِأَصْلِ تَلَاوَتِهِ.

[١١١] وَإِذْ قَدْ تَمَّتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا «وَمَا الرَّحْمَنُ»؟ فَقَدْ كَانُوا يَكْرَهُونَ هَذَا الْاسْمَ، بِلَا حُجَّةٍ، أَوْ بِتَعْلِيلٍ أَنَّهُمْ يَنَاقِشُونَ فِي أَصْلِ الْإِلَهِ، وَفِي وَحْدَتِهِ، وَفِي أَنْ يُسَمَّى رَحْمَانًا؟

وَلِذَا يُؤْمَرُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحَاجَّهُمْ فِي هَذَا أَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّحْمَنُ، فَهَذَا لَفْظَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، فَمَا هَذَا اللَّجَاجُ وَالسَّخَافَةُ؟

قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ فَقُولُوا يَا اللَّهُ، أَوْ قُولُوا يَا رَحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَكِلَاهُمَا تَعْبِيرٌ عَنِ الذَّاتِ الْوَاحِدِ الْمُسْتَجْمَعِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَالْقَادِرِ وَالْخَالِقِ وَالرَّازِقِ وَالْحَيِّ وَالْقَيُّومِ، وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ أَسْمَائِهِ وَهِيَ

علاماته التي تشير إليه لذلك الذات، سواء أشرتم إليه بيا الله، أو بيا رحمن، و ذكر بعض في شأن نزول هذه الآية أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان ساجدا ذات ليلة بمكة يدعوا «يا رحمن يا رحيم» فقال المشركون هذا يزعم أن له إلها واحدا، و هو يدعو مثني مثني، فنزلت هذه الآية

، و قد كان المشركون يؤذون الرسول إذا قام للصلاة، و بهذه المناسبة جاء الأمر بالتوسط في الصلاة، فقد روى عن الصادق عليه السلام أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و كان إذا صلى فجهر في صلاته، سمع المشركون، فشموه و آذوه، فأمر سبحانه بترك الجهر، و كان ذلك بمكة في أول الأمر

«١» وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا فَإِنِ الْإِخْفَاتِ أَبْعَدُ عَنْ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٨ ص ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٨

[سورة الإسراء (١٧): آية ١١١]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١)

الخشوع، إذ أن الصوت المتوسط، يدخل السمع، فيكون تلقى القلب له أكثر و يكون للخشوع أقرب و ابْتِغَاءَ بَيْنَ ذَلِكَ الْجَهْرِ وَ الْإِخْفَاتِ، و «ذلك» إشارة إلى كل واحد منهما سبيلاً،

و عن الصادق عليه السلام المخافته ما دون سمعك، و الجهر أن ترفع صوتك شديدا «١»

[١١٢] و أخيرا تلخص العقيدة في هذه الجمل و قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ الْحَمْدَ سِوَاهُ، إذ هو الإله المتفرد الواحد الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا كما يقول اليهود عزيز ابن الله، و النصرى المسيح ابن الله، و المشركون الملائكة بنات الله و لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ كما يجعل المشركون لله شركاء في ملكه و سلطانه، و لعل الإتيان بقوله «في الملك» للإشارة إلى رد دعوى المشركين، فإن كان له شريك، فما ذا صنع شريكه في السماوات و الأرض؟ و لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ يَلِي شُؤْنَهُ وَ يَنْصُرُهُ سِوَاهُ كَانَ إِلَهًا، أو محالفا، و قوله مِنَ الذُّلِّ لِأَنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَتَّخِذُ وَلِيًّا مِنْ ذَلَّةٍ وَ عِزٌّ فِي نَفْسِهِ يَرِيدُ أَنْ يَتَّقَى بِذَلِكَ الْوَلِيِّ، أنه سبحانه ليس له ولي من هذا القبيل، و إنما له أولياء من المتقين تفضل عليهم بولايتهم جودا و كرما وَ كَبْرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَكْبِيرًا لِأَنَّهَا بَشَأُهُ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ وَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، و هكذا تختم السورة بالتكبير، كما بدأت بالتسبيح.

(١) الكافي: ج ٣ ص ٣١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٩

١٨ سورة الكهف مكيئة / آياتها (١١١)

سميت السورة بهذا الاسم، لأن فيها لفظه «الكهف» و قصة أصحاب الكهف، و الكهف هو مغارة الجبل، ضيق فمها، واسع داخلها، و هذه السورة كسائر السور المكيئة، تعالج قضية العقيدة، في أسلوب قصصي رائع، و ليست القصص القرآنية من نسج الخيال، و إنما قصص حقيقية، اقتبست منها محل الحاجة، لتبني الكيان البشري، بما يوفر له السعادة و الخير، و إذ ختمت سورة بنى إسرائيل بتحميد الله سبحانه، ابتدأت هذه السورة بتحميده أيضا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسمك يا الله، فإن اسم الله إذا وضع على شيء أمن كل الأخطار، كيف لا، و قد ارتبط بخالق الأرض و السماء، و الحافظ القائم على كل شيء، و هو الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحم على كل شيء، كما قال سبحانه، (وَ

رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١» و ليس الرحم في الله سبحانه، بمعناه في البشر، إذ لا تأثر له سبحانه، وإنما بمعنى التفضل، كما قالوا: «خذ الغايات و اترك المبادئ».

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)

[٢] الْحَمِيدُ لِلَّهِ أى أن جنس الحمد له سبحانه، إذ جميع المحامد راجعه إليه، حتى أن الغير لو تفضل على الإنسان بشيء، فإن فضله ذلك فى طول أفضال الله سبحانه الذى أنزل على عبده محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب أى القرآن و لم يجعل له أى للكتاب عوجاً أى اعوجاجاً، بأن يكون بعض مناهجه معوجاً، أو بعض ما أخبر به من أصول المبدأ و المعاد و القصص مخالفة للواقع.

[٣] فى حال كون الكتاب قِيمًا معتدلاً مستقيماً، و إنما أنزل الكتاب لِيُنذِرَ الرسول الناس بَأْسًا شَدِيدًا أى عذاباً شديداً و نكالا مِنْ لَدُنْهُ من عنده، إن لم يؤمنوا، و ركبوا رؤوسهم سادرين فى غيهم، و يُبَشِّرَ الرسول الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ و هى الأعمال التى أمر الله بها، و قد ذكرنا أن ذلك يلازم عدم الإتيان بالمعاصى، فإنه لا يقال لمن اختلط بين الأمرين، أنه يعمل الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا فى الدنيا بالرِفاة و السلام و الصحة و ما أشبهه، و فى الآخرة بالثواب و الجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣ الى ٥]

مَا كَيْفَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

[٤] فى حال كون المؤمنين العاملين بالصالحات ما كَيْفَ أى لا بشين باقين فيه فى ذلك الأجر أبداً فإنه لا انقطاع للجنة، و لا زوال لنعيمها.

[٥] وَيُنذِرَ الرسول - بصورة خاصة، بعد ذلك الإنذار العام لكل من خالف - الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا و هم اليهود و النصارى، فإنهم ما دام هذا الاعتقاد عندهم، منذرين، مهددين فى الدنيا بالخزى، و فى الآخرة بالعذاب، فإن الاختلافات الشديدة بين اليهود و النصارى من جانب، و بين طوائف كل دين منهما مدهش جداً، حتى أن الاختلاف بين المسلمين و بينهما، أو بين طوائف المسلمين، ليس عشر معشار ذلك، و لذلك تاريخ و تفصيل نكتفى منه بهذه الجملة، و هو أن «سلامة موسى» يذكر فى كتاب «حرية الفكر» أن خصاماً وقع بين طائفتين مسيحيتين فى «ألمانيا» زهقت - من جرائه - أربعة عشر مليون من مجموع السكان الذين هم ثمانية عشر مليوناً!! [٦] ما لَهُمْ أى لهؤلاء الذين قالوا اتخذ الله ولداً به قولهم هذا مِنْ عِلْمٍ و إنما يقولون ذلك تقليداً و لا لِآبَائِهِمْ علم بذلك، و إنما قالوه اعتباراً كَبُرَتْ كَلِمَةً أى عظمت الكلمة كلمة تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ أى أفواه هؤلاء الكفار، فقد قالوها و أظهروها مع ما فيها من الإساءة و القبح، و أفواه جمع «فوه» بمعنى الفم، و الكلمة حيث تطلق على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦ الى ٧]

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) المكتوب و المفلوظ، و ما أشبههما، أتى بـقيد «من أفواههم» إِنْ يَقُولُونَ أَي ما يقول هؤلاء إِلَّا كَذِبًا و افتراء على الله سبحانه، فهو سبحانه منزّه عن الولد.

[٧] و لقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعتم غما شديدا حيث يرى هؤلاء منحرفين بهذه المثابة، فسلاه سبحانه أن لا يعتم لهم، فإن انحرافهم لا يضر إلا أنفسهم، أما الرسول فقد أعذر في الهداية و الإرشاد فَلَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَاخِعٌ أَي مهلك نَفْسَكَ غَمًا و حزنا على آثَارِهِمْ أَي ما يظهر منهم من الأثر، فإن الكافر يظهر منه آثار الكفر، كما أن المؤمن يظهر منه آثار الإيمان إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَي بالقرآن، فإنه حديث الله سبحانه لهداية البشر أَسَفًا تمييزا لباخع نفسك.

[٨] إِنْ بَدَأَ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ وَ أَنْ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ، و قد جعل سبحانه أمور الدنيا ليختبر الصالح من الطالح، فليس على الداعي أن يهتم هذا الاهتمام المؤدى إلى الهلاك، إذا رأى إعراض الناس، فإن الناس لا بد فيهم من تغره الحياة، فما إعراضهم بعجيب، و هذا كما تقول: لا تعتم أيها المدير، فقد جعلت المدرسة للاختبار فإذا رأيت سقوط بعض الطلاب، فإنه أمر طبيعي إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَخْتَلَفَةِ، مِنْ جِمَادٍ وَ حَيَوَانَ وَ إِنْسَانَ زِينَةً لَهَا أَي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨ الى ٩]

وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) للأرض، و بذلك يمكن اختبار الناس، إذ لو لا المغريات، لم يكن الاختبار، لِنَبْلُوَهُمْ أَي نمتحنهم - لا لأن نعلم، بل لأن يظهر باطن كل أحد، إذ هو سبحانه عالم بهم، منذ الأزل - أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا مِنَ الْآخِرِ، و أيهم أسوء عملا.

[٩] منا المبدأ و إلينا المصير وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ أَي سوف نجعل ما عَلَيْهَا أَي ما على الأرض من الزينة صَعِيدًا الصعيد ظهر الأرض جُرُزًا و هى الأرض التى لا نبات لها، يقال جرزت الأرض إذا جدبت و ييست، أى أن ما على الأرض يهشم و يفنى، حتى تبقى أرضا جرزا لا شىء عليها، فكان التقدير «لجاعلون ما على الأرض معدوما، حتى تصبح صعيدا جرزا».

[١٠] و إذا كانت الأرض محلا لاختبار الناس، فمن الأفضل أن يؤمن الإنسان حتى يسعد، كما سعد أصحاب الكهف حتى أطاعوا، و خرجوا عن الامتحان، فائزين ناجحين أَمْ حَسِبْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أى هل ظننت أن أصحاب الكهف و هم جماعة فروا من ملكهم الكافر، ليعبدوا الله وحده، ثم خافوا، فالتجئوا إلى كهف - أى مغارة فى الجبل - و ناموا و شاء الله أن يطيل نومهم مئات السنين، ثم أيقظهم، حتى يرى للناس و لأنفسهم كون الله قادر على كل شىء، و أن قصة البعث حق وَ الرَّقِيمِ وَهُوَ اللُّوحُ الَّذِى رَقِمَ فِيهِ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا الدالّة على قدرتنا عَجَبًا؟ كلا ليس ذلك بعجب من قدرة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٤

[سورة الكهف (١٨): آية ١٠]

إِذِ أَوْىُّ الْقُتَيْبَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)

الله سبحانه، فخلق السماوات و الأرض و ما فيهما أعجب، و كان الإتيان بالاستفهام الاستنكارى، لبيان أن الله سبحانه كثير أمثال هذه الآية، فليست قصتهم عجيبة متفردة،

و قد ورد فى سبب نزول هذه السورة، أن جماعة من كفار مكة، أرسلوا رسولين إلى اليهود، ليسألان منهم عن أحوال الرسول، هل هو صادق أم لا فلما جاء إلى اليهود و استفسروهم أمره، قال لهما أحبار اليهود: أسألوه عن ثلاث مسائل، فإن أخبركم باثنتين، و لم يخبر بالثالثة فهو نبي مرسل و إن لم يفعل فهو رجل مشغول أسألوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب و أسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان أمره؟ و أسألوه عن الروح ما هو؟

وجاء الرجلان أهل مكة وأخبراهم بالخبر، وجاء إلى الرسول الكفار ليسألونه فنزلت هذه السورة تخبرهم عن أصحاب أهل الكهف، و ذى القرنين

، أما بالنسبة إلى الروح، فنزلت قوله سبحانه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) «١» [١١] اذكر يا رسول الله إذ أوى الفتيّة إلى الكهف «أوى» أى التجأ و اتخذ المأوى و «الفتية» جمع فتى، أى الشبان و «الكهف» المغارة فى الجبل إذا كانت وسيعة، و إلا فهو «غار» و إنما أووا إلى الكهف هربا من الملك «دقيانوس» بدينهم، لئلا يقتلهم فقالوا حين أووا ربنا آتينا أى أعطنا من لدنك من عندك رحمة نعمه و فضلا ننجوا بها من قومنا

(١) الإسراء: ٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١١ الى ١٢]

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا أَي اجعل لنا فى أمرنا ما نصيب الرشد.

[١٢] و لما التجأوا إلى الكهف أخذهم النوم فناموا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ أى أنمناهم، فإن الضرب على الأذن كناية عن ذلك، لأن الإنسان إذا نام لا يسمع شيئاً، فكأنه ضرب على أذنه بحائل يمنع عن السماع، أما نوم العين، فليس مناطاً، إذ كثيراً ما تنام العين و لا تنام الأذن لوعى القلب فى الكهف أى حال كونهم فى الكهف سِنِينَ عَدَدًا سنين تعد عدا، إذ كانت ذات عدد، و هذا لإفادة الكثرة؛ إذ القلة لا تحتاج إلى العد.

[١٣] ثم بعد النوم الطويل بَعَثْنَاهُمْ من رقدتهم، و أيقضناهم من نومهم لِنَعْلَمَ أى ليظهر معلومنا فى الخارج، فإن العلم ذو إضافة بين الصفة و بين المعلوم، فإذا لم تكن صفة، لم يكن علم، و إذا لم يكن معلوم خارجى لم يكن علمه بالمعلوم الخارجى أى الْحِزْبَيْنِ أى الفئتين، فئة المؤمنين، و فئة الكافرين - كما ذكر بعض -.

أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا أى أحسن إحصاء لمدة لبث أولئك فى الكهف، «ما» فى «لما لبثوا» مصدرية زمانية أى لمدة لبثهم، ثم أنه لو كان المراد بالحزبين، المؤمنين، و الكافرين، تبين أن هناك كان نزاع و خصام فى مدة لبثهم بين الطائفتين، و لماذا كان ذلك؟ و من كان الطرفان؟ ذلك غير معلوم لنا، و إن كان المراد بالحزبين الفئتين من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٣ الى ١٤]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاَهُمْ هُدًى (١٣) وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)

نفس أصحاب الكهف، كما أشار إليه سبحانه فى آية أخرى، (وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ نِسَاءً لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) كان المقصود أن يعلموا هم بأنفسهم مدة لبثهم، و هذا أقرب إلى النظر، فقد كان هناك بعث لهم عن النوم و كان اطلاع الناس عليهم، فكان بعثهم من النوم، ليكون علمهم بقدرة الله سبحانه عياناً، و اطلاع الناس عليهم ليعلم الناس ذلك، فمآل الآية «بعثناهم ليعلموا مدة نومهم» فإن كون بعضهم أحصى من بعض، فرع العلم، و لذا جعل كناية عنه و هذا كما يقول المعلم: أعطيناكم - أيها التلاميذ - هذا الكتاب لنعرف أيكم أكثر ذكاء، فإن المعلم يعلم ذلك، و إنما يريد أن يظهره لأنفسهم.

[١٤] و بعد الإشارة الإجمالية إلى القصة يأتى البيان بشيء من التفصيل نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و كان التصدير بلفظ «نحن» لإفادة صدق القصة و مطابقتها للواقع فى المزاي و الخصوصيات، فإن القصص كثيراً ما يزداد فيها و ينقص نَبَأَهُمْ أى خبرهم بِالْحَقِّ

بالصدق و الصحة، بلا خلاف الواقع إِنَّهُمْ أَى إِن أصحاب الكهف فِتْيَةٌ شبان آمنوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى أَى بصيرة فى الدين، فإن الهداية و الضلالة، إذا ابتدأ بها الإنسان زادت تدريجا، لما يجمع الذهن لها من الشواهد و المقومات.

[١٥] وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَى شددنا عليها كأن القلب إذا لم يربط عليه يكون مضطربا متفككا، كالأشياء الرخوة، فإذا شد عليه برباط الإيمان، صار صلدا قويا إذ قاموا أَى استقاموا، فهو كناية عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٥ الى ١٦]

هُؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَ إِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْجُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)

ذلك، لأن القائم يستعد للحركة، و كذلك من قوى عزمه و استقام فقالوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فهو إلهنا، و خالقنا، لا الأصنام التى يعبدها الملك «دقيانوس» و أهل المملكة لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا أَى لَنْ نعترف بإله غيره، و لا نعبد إلها سواه لَقَدْ قُلْنَا إِذًا إِذَا دَعَوْنَا غَيْرَ إِلَهِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ شَطَطًا أَى كذبا و باطلا.

[١٦] ثم تذاكروا فيما بينهم أحوال أهل المملكة و أنهم كيف ضلوا السبيل بدون حجة قائلين هؤُلاءِ قَوْمًا جماعتنا من أهل المملكة اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله آلِهَةً من الأصنام يعبدونها لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ أَى على فعل أنفسهم، أو على تلك الآلهة، و قد أجريت مجرى العقلاء، تماشيا مع منطق القوم، و «لولا» بمعنى «هلا» للزجر،- أَى إن كانوا صادقين، فلما ذا لا يأتون لصحة هؤُلاءِ الآلهة بِسُلْطَانٍ أَى دليل بَيِّنٍ واضح، فما الدليل على كون هذه الأصنام آلِهَةً؟ و إذ لا دليل لهم فَمَنْ أَظْلَمُ أكثر ظلما و تعديا مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا نسب إليه ما ليس منه، فإن غالب عباد الأصنام ينسبون تعدد الآلهة إليه سبحانه.

[١٧] ثم قال بعض أصحاب الكهف لبعض وَ إِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ أَى اعتزلتم القوم، و تجنبتم فعلتهم، و عبادتهم للأصنام وَ مَا يَعْجُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٨

[سورة الكهف (١٨): آية ١٧]

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا عَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧)

بمعنى تركتم معبوداتهم التى يعبدونها إلا الله الذى تعبدونه أنتم، كما يعبد أولئك فأووا أَى صيروا إِلَى الْكَهْفِ و هى مغارة الجبل «أفسوس» قرب «دمشق الشام» يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَى ييسط لكم ربكم بعض رحمته التى يرحمكم بها، و ينجيكم من قومكم بسببها وَ يَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا الرفق هو اليسر و اللطف، أَى يسهل عليكم ما تخافون من الملك و ظلمه، بأن يهيب لكم يسرا و لطفًا و رفقًا.

[١٨] و قد ذهب الجميع إلى الكهف، و كان معهم راعى مع كلبه، و قد تعبوا من المشى، فاناموا لكى يستريحوا، و كان باب الغار نحو القطب الشمالى، حتى أن الشمس لا تؤذيهم بحرّها، و إن دخلت عليهم أشعتها وَ تَرَى الشَّمْسَ أَى لو كنت هناك لرأيت الشمس إِذَا طَلَعَتْ من المشرق تَزَاوَرُ أَى تميل عَنْ بَابِ كَهْفِهِمْ المتجه نحو الشمال ذاتَ الْيَمِينِ أَى إلى جهة يمين الكهف- لمن أراد الخروج منه- فإن الإنسان إذا وقف على باب الكهف متجها نحو الشمال يكون يمينه طرف المشرق، و شماله طرف المغرب- عكس الواقف تجاه القبلة- وَ إِذَا عَرَبَتْ أَى أرادت الغروب تَقْرِضُهُمْ مِنْ الْقَرْضِ بمعنى القطع، يقال قرضت الموضع إذا قطعته و جاوزته، أَى تجاوز الشمس كهفهم ذاتَ الشَّمَالِ أَى جهة الشمال فهى تدور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٩

[سورة الكهف (١٨): آية ١٨]

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلِّبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا (١٨)

من خلفهم، إذ الشمس تدور في جانب الجنوب من «الشام» وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ أَى فضاء متسع منه أى من الكهف، فقد كانت له ساحة واسعة، ناموا هناك، فلم يكن تصيبهم الشمس ليتأذوا بحرّها و تبليهم أشعتها ذلك الوضع لهم فى الكهف لا تؤذيهم الشمس، و هم نيام مستريحون مدى السنين الطوال من آياتِ الله حججه و براهينه، فإن ذلك يدل على وجوده و علمه و قدرته و سائر صفاته من يهد الله إلى الحق، بأن لطف به الألفاظ الخفية- بعد أن سلك السبيل الذى أراه سبحانه، لكل مؤمن و كافر- فَهَوَ الْمُهْتَدِ الذى رشد، و أصاب الخير و السعادة وَ مَنْ يُضِلُّ بترك الألفاظ الخفية بالنسبة إليه، بعد أن أعرض عن الهداية فَلَنْ تَجِدَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِيًّا مُرْشِدًا من يتولى شؤونه، و يرشده إلى الحق، إذ لا مرشد إلا الله سبحانه.

[١٩] وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا لَوِ رَأَيْتَهُمْ هُنَاكَ فِى الْكَهْفِ، وَ هُم نِيَامٌ لظننتهم يقظين متبهين، قيل: لأن عيونهم كانت مفتوحة وَهُمْ رُقُودٌ وَ الحال أنهم كانوا نائمين، فإن الإنسان كثيرا ما تبقى عينه مفتوحة عند النوم، إذا أخذه المنام قبل أن يغمض عينه- لشدة تعب أو ما أشبه- وَ نُقَلِّبُهُمْ فِى نومهم ذات اليمينِ وَ ذات الشمالِ أى إلى جهة اليمين و جهة الشمال، حتى لا تأكل الأرض أبدانهم، فإن الشئ إذا بقى مدة طويلة على الأرض، انقلب ترابا، و قد طال نوم هؤلاء مئات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٠

[سورة الكهف (١٨): آية ١٩]

وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)

السنين، فلو لم يكن يقبلهم الله سبحانه، لما سلمت جنوبهم و ظهورهم الملتصقة بالأرض وَ كَلِّبُهُمْ فَإِن راعيا تبعهم و معه كلبه، و لما ذهب القوم إلى الكهف، بقى الكلب ببابه يحرسهم بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ هو أن يلقىهما على الأرض مبسوطتين كافتراش السبع يديه بِالْوَصِيدِ أى بفناء الكهف، فى منظر الحارس، فإن الحيوانات تخاف الكلب، فلا تتقدم إليهم بسوء، و كان لهم من الهيبة، بحيث، لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ أَيها السامع لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا أى لأعرضت عنهم موليا فارا وَ لَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا أى امتلأ قلبك من رعبهم، و الخوف الذى يدخل قلبك من منظرهم، فإن الإنسان، إذا رأى جماعة نائمين فى كهف خارج المدينة، حيث لا أحد و لا صوت، و كلب فى باب الكهف، دخلت قلبه الهواجس، و أخذ بالفرار لئلا يصيبه أذى من جانبهم، فيحتمل أنهم لصوص، فيقومون ليؤذوه أو أموات فيراه أحد عندهم، و يخبر السلطة، فيسأل عن شأنهم و يتلى بهم أو سحرة اجتمعوا هنا بهذه الكيفية، فيسحروه، أو غير ذلك؟

[٢٠] إِنْهُمْ نَامُوا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنَامُوا ثَلَاثِمِائَةَ سَنِينَ، أَوْ أَكْثَرَ- بقدرة الله تعالى و إرادته- ثم شاءت إرادته أن يوقظهم من رقدتهم الطويلة، و قد مات الملك «دقيانوس» و تبدلت الأقوام و البلاد وَ كَذَلِكَ أى كما فعلنا لهم تلك الخوارق بَعَثْنَاهُمْ أى أيقظناهم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ليسأل بعضهم بعضا، و المراد وصولهم إلى نتيجة التساؤل، و هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧١

علمهم بمدة نومهم، من باب ذكر السبب، و إرادة المسبب، فإن القائل ينتهى إلى معرفة المدّة مما يزيدهم علما على علم، و إيماننا على إيمان قال قائلٌ مِنْهُمْ أَحَدُ الْفَتِيَّةِ، يسأل أصدقائه كَمْ لَبِثْتُمْ فى نومكم قَالُوا فى الجواب لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا وَ قد ناموا غدوة، و استيقظوا فى آخر النهار، و لذا لما نظروا إلى الشمس و هى فى وقت العصر، قالوا «يوما» باعتبار طول النهار «أو بعض يوم» باعتبار استثناء الباقي من النهار، ثم تركوا هذا الموضوع الذى لا يهمهم، و إن أحسوا بنوم طويل، و جوع شديد، و أرجعوا علم ذلك إلى الله قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ أى بمدّة لبثكم، و من هذا يظهر أنه احتمل بعضهم أنهم ناموا يومين أو أكثر فَابْعَثُوا أى أرسلوا أَحَدَكُمْ

بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ الْوَرِقِ اسْمُ جِنْسٍ لِلدَّرْهِمِ، وَ لَذَا وَصَفَتْ بِ «هَذِهِ» مُؤَنَّثًا، بِاعْتِبَارِ التَّعَدُّدِ مِنَ الدَّرْهِمِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَى الْبَلَدَةِ الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا فَلَيَنْظُرُ أَيُّهَا أَى الْحَوَانِيتِ وَ الْمَحَلَّاتِ أَزْكَى أَطْهَرَ وَ أَنْظَفَ وَ أَطْيَبَ طَعَامًا لِيَشْتَرِيَ مِنْهَا، فَلَيَأْتِيكُمْ أَى ذَلِكَ الْمَبْعُوثِ بِرِزْقٍ مِنْهُ أَى مِنْ ذَلِكَ الْأَزْكَى وَ لَيَتَلَطَّفُ قَالُوا إِنْ التَّاءُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، نِصْفُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ بِحَسَبِ الْحُرُوفِ، وَ إِنْ كَانَ نِصْفَهُ بِحَسَبِ الْأَجْزَاءِ، مَا يَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَ كَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعِيَةَ لَا- رَيْبَ فِيهَا إِذِ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)

(قال ألم أقل لك) «١» والمعنى أن يعامل البائع بلطف و دقة، و لا يماكس في الشراء، حتى لا ينجر الأمر إلى معرفته، ثم يؤخذ إلى الملك، و نفع في المحذور الذى فررنا منه و لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَى لا يخبرن هذا الذاهب لا اشتراء الطعام عنكم- أيها الرفقة- أحدًا من أهل المدينة، فإنهم إن علموا بمكانكم، و شاع خبركم، و قعتم في المحذور.

[٢١] إِنَّهُمْ أَى الْمَلِكِ وَ مِنْ حَوْلِهِ إِنْ يَظْهَرُوا أَى يَشْرَفُوا وَ يَطَّلَعُوا عَلَيْكُمْ وَ يَعْرِفُوا مَكَانَكُمْ يَرْجُمُوكُمْ بِالْحِجَارَةِ جَزَاءَ لِمَا فَعَلْتُمْ مِنْ تَرَكَ آلِهَتِهِمْ، وَ اخْتِيَارِكُمْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أَى يردوكم إلى دينكم السابق، و هو عبادة الأصنام و لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَى إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ الرَّجُوعَ إِلَى دِينِهِمْ أَبَدًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَفَرَ، وَ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ، حَتَّى مَاتَ، خَلَدَ فِي النَّارِ، وَ هَذَا مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَخَلَ فِي دِينٍ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ قَلْبًا وَ قَالِبًا، فَلَا يَقَالُ: أَنَّهُ كَانَ بِإِمَّاكَانِهِمُ التَّقِيَّةَ؟

[٢٢] لَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ شَاءَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَ حَاشِيَتِهِ فَقَدْ جَاءَ أَحَدٌ لِيُخْبِرَ الْمَلِكَ «دَقْيَانُوسَ» بِأَنَّهُمْ هَرَبُوا، فَأَمَرَ أَنْ يَسُدَّ عَلَيْهِمُ بَابَ الْكَهْفِ، وَ يَدْعُوهُمْ كَمَا هُمْ فِي الْكَهْفِ، لِيَكُونَ قَبْرًا لَهُمْ، وَ قَدْ كَتَبَ

(١) الكهف: ٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٣

بعض العاملين في بناء الباب لوحا فيه أسماءهم، و سائر خصوصياتهم، و مضى زمان حتى أراد الله سبحانه، إعلام أمرهم، إذ هدم الحائط، و تيقضوا، و جاء أحدهم يشتري الطعام، و إذا به يرى مدينة جديدة، و لما أراد الاشتراء، تخالف هو و البائع، مما يوجب رفع أمرهما إلى الملك و كذلك أَى كما أنماهم، و أيقظناهم من نومهم- بتلك الكيفية العجيبة- أغترنا عليهم يقال: أغتر زيد على عمر الناس، أَى سبب اطلاعهم عليه، يعنى أعلمنا الناس بهم و بمكانهم- فقد كان الملك مؤمنا- فلما أخبر بالخبر جاء إلى الكهف ليحقق عن القضية ليعلموا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ وَ النُّشُورِ حَقٌّ فَإِنَّهُ لَوْ لَا- بَعَثَ اللَّهُ إِيَّاهُمْ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ هَذَا النَّوْمُ الطَّوِيلُ يَتْلُوهُ الْبَعْثُ وَ الْيَقْظَةُ وَ أَنَّ السَّاعِيَةَ أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي تَبْعَثُ فِيهَا الْأَمْوَاتُ لَا- رَيْبَ فِيهَا أَى لَيْسَتْ مَجَالًا- لِلرَّيْبِ وَ الشُّكِّ، لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي نَوْمِهِمْ وَ انْتِبَاهِهِمْ كَحَالِ مَنْ يَمُوتُ ثُمَّ يَحْيَى، وَ لَمَّا أَنَّ جَاءَ الْمَلِكُ الْمُؤْمِنُ وَ حَاشِيَتِهِ، لِيَعْرِفُوا خَبْرَهُمْ، تَقَدَّمَ ذَلِكَ الَّذِي ذَهَبَ لِاشْتِرَاءِ الطَّعَامِ، وَ أَخْبَرَ إِخْوَانَهُ بِخَبْرِ الْمَدِينَةِ، وَ أَنَّهُمْ قَدْ نَامُوا سَنِينَ طَوَالًا، فَلَمْ يَحِبْ أَصْدِقَائِهِ إِطْلَاعَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَ أَنَّ يَكُونُوا مَشْهُورِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَ لَذَا نَامُوا وَ طَلَبُوا مِنَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ أَنْ يَمِيتَهُمْ، وَ قَبِضَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي السَّاعَةِ- اسْتِجَابَةً لِدَعَائِهِمْ- وَ هُنَاكَ اخْتَلَفَ مِنْ فِي حَاشِيَةِ الْمَلِكِ حَوْلَ كَيْفِيَةِ الْبِنْيَانِ إِذِ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ أَى كَانَ الْعُثُورُ حَالَ التَّنَازُعِ، كَمَا هُوَ الْمَعْتَادُ أَنْ يَقَعَ التَّنَازُعُ وَ الْاِخْتِلَافُ حَوْلَ الْقَضَايَا الْخَارِقَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، كَمَا تَبْنَى الْمَقَابِرُ. وَ قَالَ آخَرُونَ: بَلْ ابْنُوا عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٢]

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)

فَقَالُوا أَى قَالَ جماعه من حضر ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيَانًا أَى ابْنُوا عَلَى فم الكهف بنيانا يسترهم عن الأنظار، كما تبنى القبور رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ و لعل الاشتباه حول دينهم، و أنهم هل يستحقون بناء المسجد حولهم، أم لا؟ هو الذى أوجب أن يقول بعضهم ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيَانًا فَإِنْ قَوْلُهُ «رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» كاشف عن ذلك قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ أَى غلبوا على الآخرين، فى أمر البناء عليهم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا محلا للعبادة و السجود، و قد بنوا المسجد، و لا زال المسجد إلى هذا اليوم موجودا فى جبل مطل على دمشق، يزوره القاصدون، و يصلون فيه، و هكذا يبقى الله سبحانه كل ما يرتبط به مثلا و عبرة بينما يذهب الطغاة مع الزمن، فلا ترى لهم من باقية.

[٢٣] و قد اختلف الناس حول عدد أصحاب الكهف، لكن ليس مهمة القرآن بيان ذلك، و إنما المهم أخذ العبرة فى القصة، فهم بأى عدد كانوا، كان ذلك دليلا على وجود الله و قدرته، و أنه يعيد الأموات أحياء و إن مرت قرون، و طالت أزمان سَيَقُولُونَ أَى يقول قوم ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ التقدير هم ثلاثة، و إنما جاء «السين» لاحتمال أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما أخبر بالخبر، اختلف الأقسام الذين كانوا فى عصره، و يحتمل أن يكون ذلك حكاية حال ماضية، فإذا لوحظ حال الاطلاع عليهم، و البنيان حولهم، كان مستقبل ذلك الحين، تختلف الأقوال فى عددهم - كما هو العادة الجارية فى أمثال هذه القضايا - وَيَقُولُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٥

أَى جماعه آخرون هم خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ و كأنه لم يكن قائل بأنهم أربعة خامسهم كلبهم رَجْمًا بِالْغَيْبِ أَى قذفا للقول فى محل غيب عن الحواس تشبيه بمن يقذف الحجارة، فى محل مجهول مظلم، يريد الهدف وَيَقُولُونَ أَى جماعه آخرون سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ و إنما دخلت الواو هنا للتعنن الذى هو نوع من أنواع البلاغة - لا واو الثمانية - قال فى مجمع البيان: قيل بأن هذا إخبار من الله تعالى، بأنه سيقع نزاع فى عددهم، ثم وقع ذلك، لما وفد نصارى نجران إلى النبی صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقالت اليعقوبية منهم، كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، و قالت النسطورية كانوا خمسة سادسهم كلبهم، و قال المسلمون، كانوا سبعة و ثامنهم كلبهم «١» قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ و أنهم كم كانوا، و ليس القرآن بحاجه إلى ذكرهم عددا، حتى يوقع نفسه، فى خلاف لا فائدة فيه و ما يَعْلَمُهُمْ أَى لا يعلم عددهم أحدٌ إِلَّا قَلِيلٌ من الناس كالنبي و أوصياؤه فَلَا تُمَارِ أَى لا تجادل يا رسول الله فِيهِمْ أَى فى عددهم، و إنهم كم كانوا إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا سطوحيا، أَى بدون تعميق و تدقيق، و إنما تذكر لهم القصة، كما أوحيت إليك، إذ لا فائدة فى الجدل، فى هذه الأمور وَلَا تَسْتَفْتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

أَى لا - تستخبر فيهم فى أهل الكهف، و مقدار عددهم منهم من أهل الكتاب أحياء فإنك تعلم أكثر منهم ثم لا - شأن فى هذه الخصوصيات، مع منهج الإسلام، حتى يطول الجدل حولها، و يصير موضع السؤال و الاستفتاء؟

[٢٤] و بمناسبة النهى عن الجدل فى الماضى الغائب عن الحواس، يأتى النهى عن التكلم حول المستقبل المجهول، إلا - أن يكل الإنسان أمره، إلى إرادة الله سبحانه، فإن المستقبل أكثر عناصره بيد الله، و إنما أقله بيد الإنسان، فليكف الإنسان عن التكلم فيه، و ليس

معنى هذا، أنه لا يعمل ولا يفكر للمستقبل وإنما معناه أن لا يرى المستقبل كله بيده، ولا يحسب الله سبحانه الحساب - كما هو شأن الماديين - وَلَا تَقُولَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيَشَاءَ إِلَهِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ» و هذا تعليم من الله سبحانه للعباد، إذا أرادوا أن يقولوا شيئاً عن المستقبل يعلقوه

[٢٥] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَى إِلَّا- أَنْ تَقُولَ «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» و هذا تعليم من الله سبحانه للعباد، إذا أرادوا أن يقولوا شيئاً عن المستقبل يعلقوه بالمشيئة، إثباتاً، أو استثناء كأن يقول: أذهب إن شاء الله، أو أذهب إلا أن يشاء الله، و المعنى على الثانى، إلا أن يشاء الله غيره- بأن لا اذهب- و اذْكَرْ رَبَّكَ إِذَا نَسَيْتَ الاستثناء، فإنك إذا ذكرت شيئاً عن المستقبل بدون قوله «إن شاء الله» فإذا ذكرت ذلك، فقل وقت التذكر هذه الكلمة و قل بعد ما تذكرت إنك نسيت قوله «إن شاء الله» عسى أى لعل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٧

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٥]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)

أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ الذى نسيت الكلمة معه رَشَدًا أى أدنى إلى الصواب، كأنه حيث لم يذكر المشيئة، صار ذلك المستقبل المنوى فعله، غير لائق بالإتيان، فيرجو منه سبحانه لأحسن منه و أقرب إلى الرشد، فإذا قال «سأفعل لإعطاء زيد» و لم يستثن، ثم تذكر فليقل، «إن شاء الله، و لعله يوفى لشيء أحسن من إعطاء زيد»- و هذا المعنى على ما ذكره بعض أهل التفسير، و ليس بعيداً من السياق-.

[٢٦] ثُمَّ يَرْجِعُ السِّيَاقُ إِلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَ لَبِثُوا أَى مكث الفتيه، و هم نيام فى كَهْفِهِمْ و الإضافة يكفى فيها أدنى ملاسئه ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ هذه المدة الطويلة بقوا هناك أحياء، نيام، بدون أن يصيبهم شيء و ازدادوا أى زاد بعض الناس على هذه المدة تسعاً أى تسع سنين، فقال: إن مدة لبثهم ثلاثمائة و تسع سنوات،

روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال فى تفسير الآيه، عند أهل الكتاب: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، و الله تعالى ذكر السنة القمرية، و التفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون العدد ثلاثمائة و تسع سنين «١»، أقول: و ذلك لأن السنة القمرية فى الغالب «ثلاثمائة و خمس و خمسون» يوماً، و السنة الشمسية «ثلاثمائة و خمس و ستون» يوماً، فكل مائة سنة قمرية، تنقص عن مائة سنة شمسية ألف يوم، و ألف يوم يقرب من ثلاث سنوات، و على هذا فليس المراد من و ازدادوا كون الزيادة، صادرة من أهل الكتاب، بل المراد أنه زيد هذا

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٨

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٦]

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصُرَ بِهِ وَ أَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) المقدار، فإن الإنسان، إذا أراد أن يقول شيئاً بدون أن ينسب القول إلى نفسه، يقول «يقولون كذا» و الفعل يلاحظ- فى يقولون- مجرداً عن الفاعل.

[٢٧] قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا أى بمقدار لبثهم. فى المجمع معناه: إن حاجتك «يا محمد» أهل الكتاب فى ذلك، فقل الله أعلم بما لبثوا، و ذلك أن أهل نجران، قالوا: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، و أما التسع، فلا علم لنا بها ..

و روى أن يهوديا، سأل على ابن أبى طالب عليه السلام عن مدة لبثهم، فأخبر عليه السلام بما فى القرآن، فقال إنما نجد فى كتابنا ثلاثمائة، فقال: بسنى الشمس، و هذا بسنى القمر

«١» لَهُ اللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أى ما غاب عن الحواس فى السماوات و فى الأرض سواء كان من الأمور الماضية أو الأمور

المستقبلية، و معنى كونه لله أنه مربوط بالله، وجودا و علما و غيرهما، و كأنه إعراض عن تحديد المدة، لأن هذه الخصوصية ليست بمهمة، و إنما المهم اللبث مثل هذه المدة الطويلة، مما يدل على قدرة الله سبحانه على إحياء الأموات أبصر به أى بالله سبحانه و أسمع هذان للتعجب، و المعنى التعجب من أنه تعالى يرى كل متبصر، و يسمع كل مسموع، أى ما أبصره و ما أسمع، و من المعلوم، أن القالب، هو التعجب، و المغزى بيان علمه الواسع، بحيث يرى كل شىء و يسمع كل صوت، و إنما جرى بهذا التعجب هنا تعقيبا على قوله

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَ أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (٢٨)

«لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فإن العلم بكل غائب سابقا و مستقبلا، يستلزم البصر العام لكل شىء ما لهم أى ليس لأهل السماوات و الأرض، و جرى بضمير العاقل، مع أن المراد ليس لأى شىء فى السماوات و الأرض - ظرفا و مظروفا عاقلا و غير عاقل - تغلبا من دونه من ولى فلا يتول شؤون الكون سواه، فهو المالِك، السميع البصير، المتولى للإرادة و لا يُشركُ الله تعالى مع نفسه فى حكمه أو امره و نواهيهِ أحداً فهو الحاكم وحده فى كل الأشياء حكما تكوينيا أو تشريعا، فإن له الخلق و الأمر.

[٢٨] و أتْلُ يا رسول الله، أى اقرأ ما أوحى إليك من كتاب ربك فهو الميزان للأمر، لا ما يقوله الناس، و لا ما عندهم من المعلومات لا - مبدل لِكَلِمَاتِهِ فما قاله هو الحق الذى لا يقبل أى تغيير أو تبديل، فليس مثل كلمات الناس تتبدل حسب الظروف و المصالح و الشفاعة و التوسط و ما أشبهها، و لن تجد يا رسول الله من دونه تعالى ملتحداً من التحد بمعنى مال، أى لا تجد ملجأ سواه تلجأ إليه و تلتحد نحوه، فلا تستفت أحدا فى شأن من الشؤون، و لا تنظر إلى ما يقوله هذا أو ذاك، بل اتبع الحق النازل عليك.

[٢٩] و إذ ليس هناك ملجأ يلجأ إليه الإنسان، ليقية من مكاره الدهر، و يسعده فى الآخرة، فما أجدر بالرسول، أن يتلو كتاب الله عاملا به، و يصبر مع المؤمنين، و إن أصابه الكفار بأذى و اصبر يا رسول الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٠

نَفْسِكَ أى احبس نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة أى الصباح و العشي أى المساء، لا شغل لهم سوى الله سبحانه يريدون وجهه أى رضاه، أما بمعنى يريدون الوجه الذى أمر به، فتكون الإضافة للتشريف، أو تشبيه بمن له وجه، و يعمل الإنسان عملا - لوجهه، فتكون الإضافة مجازا، و حيث إن الإنسان، إذا عمل عملا لأحد، لاحظ أنه يواجه المعمول له، و تقع عينه فى وجهه، فيخجل منه، إن لم يعمل حسب رضاه، قيل «يعمل فلان لوجه فلان» و لا تعد من عدى يعدو - على وزن «غزى يغزو» - بمعنى تجاوز، أى لا تتجاوز عيناك يا رسول الله عنهم أى عن أولئك الذين يدعون ربهم بالغداة و العشى، و «عيناك» فاعل «تعد» فهو صيغة تأنيث، لا صيغة خطاب، و المعنى لا تتجاوز عينك عن هؤلاء المؤمنين إلى أبناء الدنيا تريد زينة الحياة الدنيا أى فى حال كونك تريد زينة هذه الحياة، و لم يكن يريد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بذلك، و إنما جاء النهى إرشادا للأمم، و تقريرا للعظماء و الأشراف، الذين أرادوا من الرسول أن يطرد الفقراء - فى منطقتهم - كبلال، و عمار، و خباب، و صهيب، و ابن مسعود، و أضرابهم، ليدنوا منه صلى الله عليه و آله و سلم الأشراف قالوا: إنه لا يمكن أن نجتمع نحن هؤلاء، فإذا أردت اقترابنا فاطرد هؤلاء من عندك، و كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حريصا على إيمان الأشراف، و استقائهم من المعرفة، لعلمهم بهتدوا، لكن إن طرد هؤلاء و تقرب أولئك فى

منطق الإسلام، طرد للمؤمنين، و تقريب لزينه الحياه، و من طريق الأمر، أن الأمر بقى هكذا إلى اليوم، فالغالب أن المؤمنين - لقله علاقتهم بزينه الحياه -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨١

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٩]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَيْغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)

لا- يجمعون مالا- و لا- يأبهون بالمظاهر، و يجتمعون حول كبراء أهل الدين. و الأشراف و الأغنياء، قلوبهم غامرة من الإيمان، و ظواهرهم عامرة بالزخارف، ثم يريدون أن يضيفوا إلى أنفسهم شرف قرب الكبير الديني - لمجرد الظاهر أيضا- فيقولون: اطرده أولئك حتى نقرب منك، و ماذا يصنع الكبير هل يطردهم؟ و هم الذين يعطون الحقوق، و لهم الكلمة في حل كثير من المشاكل، أم يطردهم الفقراء؟ و كيف يطردهم قلوبا عامرا، لقلب غامر؟ لكن الواجب أن لا يطردهم المؤمنون مهما كلف الأمر، اتباعا لقوله سبحانه «و لا تعد عيناك عنهم» و الله الذي بيده الملك يعطيه ما ينتظر من الأشراف، بدون وساطتهم، و هو على كل شىء قدير و لا تُطع يا رسول الله في طرد المؤمنين مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا و إنما أَعْفَلْنَاهُ، لأنه سار مع هواه، فتركناه حتى يتردى في الغفلة و الحرمان، لا يذكر الله سبحانه إلا قليلا- و اتبع هواه فالهوى يقوده- لا- الهدى- و كان أمره فُظُطاً أى سرفا و إفراطا، لا ينتظم بنظام واحد، فإن أهل اليمين يجمع جميع أمورهم نطاق الدين، أما أهل الهوى، فكل يوم مع مهوى، كالغيب الفرط الذى انسلخ من عقوده، فلم يجمعها جامع.

[٣٠] وَقُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ تَطْرُدَ الْفُقَرَاءَ، لِيَقْتَرِبُوا مِنْكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و الرب رب الجميع، يستوى عنده الفقير و الغنى، فليس لى أن أطرده بعضا لبعض، و إنما أنا مبلغ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ حتى ينال السعادة و مَنْ شَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٢

فَلْيُكْفُرْ فَإِنْ كَفَرَهُ لَا يُضِرُّ اللَّهَ شَيْئًا، و إنما جاز التهديد بلفظ الأمر، لأن المهدد، كالمأمور بإهانته نفسه، أو من باب حمل الضد على الضد إِنَّا أَعْتَدْنَا أى هَيَأْنَا لِلظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى، أو ظلموا غيرهم بالتعدى و الإيذاء نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ و اشتمل عليهم بحيث لا- منفذ لهم منها سُرَادِقُهَا السرادق الفسطاط و ما أشبهه، شبه به لهب النار، لأنه مخروطى كالسرادق، و لعل هو المراد بقوله: (ظِلٌّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) «١» أى ثلاثة أضلاع بشكل مخروطى، فقد كانوا فى الحياه بين ثلاث، المؤمنون و الكافرون و المنافقون، فليكونوا هناك كذلك بين ثلاث شعب من النار التى تظللهم و تحيط بهم و إن يَسْتَيْغِيثُوا أى طلبوا الغوث، و العون مما بهم من العطش و الحر يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ هو ما أذيب من النحاس و الرصاص، و شبههما، أو كدردى الزيت المغلى، فيقدم إليهم هذا الماء الذى إذا قربه من فيه، سقط لحم وجهه من شدة الحر يَشْوِي الْوُجُوهَ أى ينضجها عند دنوه منها، كما قال سبحانه فى آية أخرى: (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) «٢» بِئْسَ الشَّرَابُ ذلك المهل و ساءت النار مُرْتَفَقًا

(١) المرسلات: ٣١.

(٢) المؤمنون: ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) أى مسكنا لهم، مأخوذ من المرافقه، و هى الترافق، كأنها محل ارتفاق و أخذ الرفقه.

[٣١] ذلك لمن ظلم و كفر، أما من آمن، فلننظر ماذا جزاءه؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا، بالمعتقدات الحقَّة و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحات التى تصلح، مقابل الأعمال الفاسدة التى لا تصلح إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا فَلَا تَذْهَبُ أَعْمَالُهُمْ ضِيَاعًا، و هدرا، إنما يلاقون جزاءهم هنالك، و هذا كالتسليئة فإن كثيرا ممن عمل صالحا هنا لا يلاقى تسييحا و تحسينا من المجتمع، فلا يضيق بذلك أنه موعود هناك بالجزاء الكافى.

[٣٢] أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ بِالصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَرِدْنَ أى بساتين الخلود، من عدن بالمكان إذا أقام فيه، فإن كل مؤمن يعطى جنانا، لا- جنه واحدة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ أى من تحت قصورهم، و هذا أكثر لذة، من أن يكون النهر فوقهم، كما فى بعض الأراضي المنخفضة المجاورة للنهر المرتفعة يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أَسَاوِرَ جَمْعُ سَوَارٍ، و هو ما يحلّى به اليد فى عظم الذراع، و هناك يكون السوار تحلية اليد للرجل كالمراة، و قد كانت الملوكة سابقا يلبسون السوار، و لذا أخبر الرسول صلّى الله عليه و آله و سلم بعض المسلمين، بأنه يلبس سوار كسرى، و كان كما ذكر و يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا جَمْعُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٣٢]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)

أخضر مِنْ شَيْءٍ نَسِيسٍ هو الديق الغليظ و إِشْتَبَرِقٍ هو الديق الرقيق، و الخشن أكثر هيبه، كما أن اللين أكثر راحة للبدن مُتَكَبِّرِينَ أى فى حالة هم متكئون فيها فى تلك الجنات على الأرائك جمع أريكه و هى السرير، أو الذى فى حجلة العروس خاصة نَعَمِ الثَّوَابِ و الجزاء، ثوابهم و جزاؤهم و حَسُنَتْ الأرائك مُرْتَفَقًا أى محل ارتفاع و منزل مرافقه، مقابل حال الظالمين، الذى مرّ قبل أسطر.

[٣٣] و هنا يضرب سبحانه لحال المؤمن، و حال الكافر مثلا، فإن الكافر الذى يبطره النعيم، و ينسى الشكر، و يظن أن الإكرام الذى أكرم به هنا باق له أبدا، و إنه إذا انتقل إلى الدار الآخرة يكون له كل شىء مهيب، لكن نعمته- هنا- لا تدوم، و هناك يؤخذ بما عمل هنا من السيئات، حيث لا ينفع فيه و عظم المؤمن و إرشاده، بل يركب رأسه و يسير فى غلوه و اضرب يا رسول الله لهم أى لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان مَثَلًا رَجُلَيْنِ مؤمن و كافر جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ و إنما أتى بالتشبيه دلالة للزيادة، و قد ذكره على بن إبراهيم قال: إنه يريد رجلا- كان له بستانان كبيران كثيرا الثمار، و كان له جار فقير، فافتخر الغنى على الفقير، فقال له: أنا أكثر منك مالا و أعز نفرا «١»، أقول:

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَ لَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا (٣٤)

و إنما سميت الجنة جنه، لأن الأشجار تجننها و تسترها مِنْ أَعْنَابٍ مما يزيد جمال البستان بالعروش و حَفَفْنَاهُمَا أى أطفنا بهما بِنَخْلٍ بأن كانت النخيل دائرة مدار الجنتين، و فى وسطهما الكروم و الأعناب و جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا بَيْنَ البساتين زَرْعًا فزرع متوسط، و نخيل محيطه، و أعناب محاطه، هكذا كان منظر جنتى ذلك الرجل الظالم لنفسه، بهذه الزينه و الجمال.

[٣٤] كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ كانت فى وقت الازدهار و الثمار آتت أى أعطت و أظهرت أَكْلَهَا أى ثمرتها و غلتها و الأكل هو ما يؤكل من الثمار وَ لَمْ تَظْلَمْ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ أى من الأكل شَيْئًا أى لم تنقص الثمرة، و إنما أتت كاملة، و الإتيان بلفظ الظلم، للمقابلة مع قوله سبحانه «و هو ظالم» فإن الجنة لم تظلم، لكن الإنسان ظلم و فَجَّرْنَا أى شققنا خِلَالَهُمَا وسط الجنتين نَهْرًا يسقيهما، فيكون الماء فى وسط الجنة،

لسهولة السقي، وهذا يوجب كون الجنة أجمل منظرا و أحسن ثمرا لسقاية الثمر بالماء الدائم.

[٣٥] وَ كَانَ لَهُ تَمَرٌ هَذَا كَتَيْبَةً مَا تَقْدَمُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَدَدَ أَمْوَالَ أَحَدٍ، يَجْمَلُ الْقَوْلَ وَيَقُولُ «إِنَّ لَهُ مَالًا» يَرِيدُ مَالًا عَظِيمًا فَقَالَ هَذَا

الرَّجُلُ الْمَالِكُ لِلْجَنَّتَيْنِ لِصَاحِبِهِ أَيْ صَدِيقَهُ الْمُؤْمِنَ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ يَخَاطِبُهُ فِي الْكَلَامِ، وَ يَرَاغِعُهُ فِي الْقَوْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا فَهِيَ أَنَا صَاحِبُ جَنَّتَيْنِ، وَ أَنْتَ فَقِيرٌ وَ أَعَزُّ نَفَرًا أَيْ أَقْوَى عَشِيرَةً وَ رَهْطًا، وَ إِنَّمَا سَمِيَتِ الْعَشِيرَةُ نَفَرًا لِأَنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مَعَهُ فِي حَوَائِجِهِ، وَ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ الرَّجُلِ الْكَافِرِ، كَانَ تَفْنِيدًا لِمَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُ، مِنْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ يَرِيدُ أَنَّهُ أَكْرَمُ، وَ لَذا أَعْطَاهُ اللَّهُ هَذَا الْمَلِكُ وَ الْعَشِيرَةَ، بَيْنَمَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ لَا مَالَ لَهُ وَ لَا رَهْطًا.

[٣٦] وَ دَخَلَ الرَّجُلُ الثَّرِيَّ صَاحِبَ الْجَنَّتَيْنِ جَنَّتَهُ بِسْتَانِهِ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِالْكَفْرَانِ وَ الْعَصِيَانِ، فَقَالَ كَمَا يَقُولُ كُلُّ مَغْرُورٍ غَافِلٌ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ أَيْ تَهْلِكَ وَ تَفْنَى، مِنْ «بَادَ» بِمَعْنَى هَلَكَ هَذِهِ الْجَنَّةُ أَبَدًا وَ هَذَا كَلَامُ الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ الْكَافِرِ، الَّذِي لَا يَحْسِبُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ لِتَقْدِيرِهِ حَسَابًا.

[٣٧] وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ أَيْ الْقِيَامَةَ قَائِمَةً فَلَا بَعْثَ هُنَاكَ وَ لَا حِسَابَ، وَ مَا تَقُولُهُ أَنْتَ أَيُّهَا الصَّاحِبُ الْمُؤْمِنُ، لَيْسَ إِلَّا وَ هُمَا وَ خِرَافَةٌ وَ لَئِنْ صَدَقَ زَعْمُكَ، وَ كَانَ هُنَاكَ بَعْثٌ وَ حِسَابٌ وَ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي أَيْ رَدُونِي إِلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا أَيْ مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ مُنْقَلَبًا أَيْ انْقِلَابًا وَ رَجُوعًا، فَهُوَ مَصْدَرٌ مِيمِي، وَ هَكَذَا يَقُولُ الْكَافِرُ الْمَغْرُورُونَ بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَرَمَاءُ، كَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَمْ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّأَكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)

الدنيا، أليس الله أعطاهم هذه النعمة لكرمهم عليه؟ فيعطيهم في الآخرة خيرا من ذلك، لكن هنا يقال لهم (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ!!) «١» [٣٨] و لما أتم الكافر كلامه، و أبدى غروره و دخيلة نفسه الجاهلة الغيبة قال له صاحبه أي صديقه المؤمن، و الصاحب كل من صحب الإنسان و هو يحاوره أي يخاطبه و يجيبه عما قال أ كَفَرْتَ أَيْ هَلْ كَفَرْتَ أَيُّهَا الصَّاحِبُ الثَّرِيَّ، وَ هُوَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ كَيْفَ تَكْفُرُ بِالَّذِي أَيْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ أَوْ لَا ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثَانِيًا ثُمَّ سَوَّأَكَ أَيْ جَعَلَكَ وَ عَدَلَكَ رَجُلًا فَإِنَّ التُّرَابَ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا، ثُمَّ لَحْمًا فِي الْحَيَوَانَ، أَوْ فَوَاكِهِ، فَإِذَا أَكَلَهُ الْإِنْسَانُ، انْقَلَبَ مَتِيًّا وَ نُطْفَةٌ يَنْشَأُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ وَ يَسْتَوِي حَتَّى يَكُونَ رَجُلًا، وَ إِنَّمَا كَفَرَهُ، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ الْمَعَادَ وَ شَكَ فِيهِ، حَيْثُ قَالَ «وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي».

[٣٩] لَكِنَّا أَصْلُهُ «لَكِنْ» «أَنَا» حَذَفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا، وَ أَدْغَمَتِ النَّونَ فِي النَّونِ هُوَ اللَّهُ رَبِّي فَإِنِّي أَعْتَرْتُ بِتَوْحِيدِهِ، وَ اتَّبَعْتُ سَبِيلَهُ، إِنْ اعْتَرَزْتَ أَنْتَ بِجَنَّتِكَ وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا أَيْ لَا أَجْعَلُ أَحَدًا شَرِيكًا مَعَهُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَ الْعِبَادَةِ، وَ لَعَلَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ تِلْكَ تَعْرِيفًا بِالْكَافِرِ الَّذِي أَشْرَكَ

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)

حيث رأى بعض الحول و القوة من غيره سبحانه، إذ زعم أن جنته دائمة، لا مدخلية للتقدير فيها.

[٤٠] ثم ندد المؤمن بصاحبه الكافر و كفرانه للنعمة، قائلاً و لو لا هي كلمة ردع و تقريع، أى هلاً إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله بأن تكل الأمر إلى مشيئته، و ترى أن الجنة، إنما هي صارت بإرادته و تقديره لا قوة إلا بالله فالإنسان مهما كان قويا، و مدبرا فى أموره، فإن ذلك كله من الله سبحانه، إذن فالجنة منه سبحانه، و إن توسط هناك تدبيرك و تقديرك للأموال و قوتك البدنية و الفكرية إن ترن أيها الصاحب الكافر أنا أقل منك مالا و ولداً أى إن كنت ترانى اليوم، فقيرا لا مال لى، و لا أولاد، كما قلت «أنا أكثر منك مالا و أعز نفراً».

[٤١] فليس ذلك دليلا على أن الله لم يرد بى خيرا، فلعله ادخر لى ذلك فى الآخرة، أو يعطينى فى المستقبل أكثر منك، كما تقتضى مصلحته، و تفضى إرادته فعسى أى لعل ربى أن يؤتيني أى يعطينى خيرا من جنتك جنانا و أموالا و يرسل ربى عليها أى على جنتك حسبانا أى عذابا و إنما سمي العذاب به، لأنه بالحساب و المقابلة لما عمل الإنسان من باب علاقة السبب و المسبب، فإن الحساب للأعمال السيئة سبب للعذاب من السماء و المراد به الصاعقة، أو الأمطار الغزيرة السائلة أو البرد القارس المبنى فتصبح جنتك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤١ الى ٤٢]

أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)

صعيداً أى أرضاً مستوية، قد بادت أشجارها، و انطمست أنهارها زلقاً يزلق عليها القدم، و هذا مقابل قول الكافر «ما أظن أن تبيد هذه أبداً».

[٤٢] أو يصبح مأوها الجارى فى أنهارها غوراً أى غائرا ذاهبا فى الأعماق فلن تستطيع له أى للماء طلباً فتموت الأشجار و الزرع، و تذهب طراوة الجنة و النهر، و هنا انتهى الكلام بين الطرفين، و لم يفد الكافر الإنذار و الإرشاد، فلننظر ماذا حدث بعد ذلك؟.

[٤٣] و أحيط العذاب بثمره فقد أرسل الله سبحانه نارا فاحترقت الأشجار، و غارت الأنهار، و معنى أحيط، أن العذاب أخذه من كل جانب، كالمحيط بالشىء الذى يحيط من جوانبه الستة فأصبح الرجل الكافر يقلب كفيه تحسرا و حزنا على ما أنفق فيها أى فى البستان، من الأموال و الأتعاب، و معنى تقلب الكف، جعل ظهرها مكان بطنها، و هو ما يفعله السائل، و المتندم، المحزون، و كأنه إشارة إلى عدم الحيلة و المهرب، كأن الأمر ظاهر لا- يمكن الفرار منه- كبطن الكف- لا ملجأ و التواء، حتى يخفى الإنسان نفسه هناك ليخلص من التبعة و هى خاوية على عروشها، أى أن الجنة ساقطة على عروشها، أى عروش الكروم، فالعروش ساقطة، و الأشجار و النخيل، فوق العروش ساقطة، و ذلك لأن السقف ينهدم أولا، ثم ينهدم الحائط عليه و يقول الكافر إذ رأى ذلك يا ليتنى لم أشرك ربى أحداً فلم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

أكن أجعل من قوتى و مالى شريكا لله سبحانه فأظن أن القوة هي التى أشركت مع الله فى إيجاد هذا البستان، حتى أرانى أنه الله سبحانه هو الوحيد فى التأثير، و أن القوة لا أثر لها إطلاقا، كما قال صاحبي المؤمن «قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

[٤٤] وقد زعم الكافر أنه «أعز نفرا» فأين أنفاره في إنقاذه من هذا العذاب؟

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَى لِلْكَافِرِ فِتْنَةٌ أَى جَمَاعَةٌ، وَ تَسْمَى عَشِيرَةُ الْإِنْسَانِ فِتْنَةً، لِأَنَّهُ يَفِىءُ إِلَيْهِمْ، وَ يَرْجِعُ فِى أُمُورِهِ إِلَى رَأْيِهِمْ يَنْصُرُونَهُ حَتَّى يَحُولُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْعَذَابِ الَّذِى أَحِيطَ بِشْمَرِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى مِنْ غَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ النَّاصِرُ الْوَحِيدُ، وَ مَنْ لَيْسَ مَعَ اللَّهِ لَا نَاصِرَ لَهُ، وَ إِنَّمَا يَنْتَصِرُ بَعْضُ الْكُفَّارِ، حَيْثُ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَخْلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ النَّصْرَةِ الْمُؤَقَّتَةِ وَ مَا كَانَ مُتَّصِرًا أَى مَمْتَنًا بِالنَّصْرَةِ عَنِ الْعَذَابِ، فَلَا هُوَ قَدْرٌ عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ، وَ لَا كَانَ لَهُ فِتْنَةٌ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ ذَلِكَ.

[٤٥] هُنَالِكَ أَى فِى مِثْلِ ذَلِكَ الْمَقَامِ وَ الْحَالِ، حَالِ إِيْتَانِ الْعَذَابِ، لَا يَفِيدُ الْفِتْنَةُ وَ الْإِمْتِنَاعُ، وَ إِنَّمَا الْوَلَايَةُ وَ التَّوَالِي لِلْأُمُورِ، وَ التَّصَرُّفِ فِى الشُّؤْنِ لِلَّهِ الْحَقِّ فَهُوَ حَقٌّ، وَ مَا عَدَاهُ بَاطِلٌ، وَ إِنَّمَا قَالَ «هِنَالِكَ» لِأَنَّ الْوَلَايَةَ فِى الظُّرُوفِ الْعَادِيَةِ، الَّتِى أَرْسَلَ اللَّهُ الزَّمَامَ فِيهَا، وَ لَا يَرِيدُ إِنْفَاذَ أَمْرِ لِلنَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَمَّا إِذَا شَاءَ شَيْئًا، فَلَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى خِلَافِهِ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا، أَلَمْ يَقُلِ الْكَافِرُ لِلْمُؤْمِنِ «لَأَجِدَنَّ خَيْرًا؟» وَ «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩١

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٥]

وَ اضْرَبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)

نفرا؟ كلا! إن ثواب الله خير، و هو معدّ للمؤمن و خَيْرٌ عُقْبًا أَى عَاقِبَةً، فَطَاعَتُهُ وَ الْإِيمَانُ بِهِ، تَوْجِبُ خَيْرَ الْعَقِيبِ، لَا الْكُفْرَ وَ الْكُفْرَانَ. [٤٦] لَمَّا أتم سبْحَانَهُ هَذَا الْمَثَلُ، جَاءَ بِمِثْلِ ثَانٍ مُنْتَرِعٍ عَنِ الْمَثَلِ الْأَوَّلِ، فَإِذَا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا كَتَلَكِ الْجَنَّةُ، فَإِنَّهَا أُمُورٌ مُؤَقَّتَةٌ لَا بَقَاءَ لَهَا وَ لَا دَوَامَ، فَلَا يَطْمَئِنُّ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا، وَ إِنَّمَا يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ وَ اضْرَبْ لَهُمْ يَأْسُورَ اللَّهِ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّمَا مِثْلُهَا كَمِثْلِ مَاءٍ يَعْنِي الْمَطْرَ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ فَأَخْتَلَطَ بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَاءِ نَبَاتُ الْأَرْضِ إِمَّا الْمَرَادُ سَقَطَ عَلَى النَّبَاتِ، وَ كَانَ الْإِخْتِلَاطُ بِهَذَا الْقَدْرِ مَبَالِغَةً فِى بَيَانِ الْعَادِيَةِ لِلْحَيَاةِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، فَإِنَّ الْمَاءَ السَّاقِطَ عَلَى النَّبَاتِ سَرْعَانِ مَا يَزُولُ، وَ إِمَّا الْمَرَادُ بَيَانِ السَّرْعَةِ فِى مَجِئِ الْحَيَاةِ وَ ذَهَابِهَا، كَمَا أَنَّ الْمَاءَ يَسْرَعُ فِى تَسْبِيهِ لِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ، حَتَّى كَأَنَّهُ إِخْتِلَاطٌ لَا إِنْبَاتَ بِوَقْتِهِ الطَّوِيلِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا أَى كَسِيرًا مَفْتَتًا حِينَ الْيَبْسِ، وَ كَانَ لِحِظَةِ لَمْ تَمْرُ، وَ إِذَا بِالْحَيَاةِ تَذَهَبُ وَ تَذِيلُ، وَ إِذَا بِالْحَيَاةِ يَتَهَشَّمُ وَ يَتَحَطَّمُ وَ يَتَكَسَّرُ تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ فَتَنْقَلَهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَ تَفْرَقُهُ، حَتَّى يَكُونُ مَبْدَدًا، كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَهُوَ الْمُنْشِئُ الْمَفْنِي، وَ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنِ طَوْقِ قَدْرَتِهِ، فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ بِمَا أُوتِيَ مِنْ طَوْلٍ وَ قُوَّةٍ، أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

الْمَالُ وَ النَّبُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَ يَوْمَ نَسِيبُ الْجِبَالِ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)

[٤٧] وَ إِذَا رَأَيْنَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ عَرَفْنَا قَدْرَهَا وَ مَدَّتَهَا وَ قِيمَتَهَا، فَلْيَعْرِفِ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ مَرْبُوطٌ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ مَا هُوَ مَرْبُوطٌ بِتَلَكِ الْحَيَاةِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ لَا يَهْتَمَّ بِهِ الْمَالُ وَ النَّبُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَهَمَّا مِمَّا يَتَرَبَّصُّ بِهِمَا الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَ الْأَعْمَالِ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَ هِيَ الْحَسَنَاتُ الَّتِى أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِى تَبْقَى وَ تَصْلُحُ لِلْإِسْعَادِ، وَ كَانَ الْإِيْتَانُ بِ«الْبَاقِيَاتِ»، لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ مَا يَفْنَى وَ مَا يَبْقَى خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا إِنْ مَا يَرْجِعُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ تَلَكِ الْبَاقِيَاتِ - وَ هُوَ الثَّوَابُ، لِأَنَّهُ مِنْ تَابٍ إِذَا رَجَعَ - خَيْرٌ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَالِ وَ النَّبُونِ، فَإِنَّ مَا يَرْجِعُ مِنَ الْمَالِ وَ النَّبُونِ، إِنَّمَا هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ، أَمَّا مَا يَرْجِعُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ عِنْدَ رَبِّكَ، وَ لَدَيْهِ، وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى وَ خَيْرٌ أَمَلًا فَإِنَّ أَمَلَ الْإِنْسَانِ فِي الْبَاقِي، خَيْرٌ مِنْ أَمَلِ الْإِنْسَانِ فِي الْفَانِي، وَ لَا

يخفى أن المال و البنين إذا أريد بهما وجه الله سبحانه، دخلا- في الباقيات الصالحات، و كانا مصداقا للزينة، و البقاء معا، كما قال سبحانه «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» (١) و كما أن ما في بعض الروايات، من مصاديق الباقيات الصالحات.

[٤٨] و إذ ذكر الباقيات الصالحات، فلنعرف وقت ذلك، فاذا ذكر يا رسول الله يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ أَى نجعلها تسير، فإن من أهوال القيامة، أن الجبال تنقلع و تأخذ في السير، و تكون كالهباء المنثور و تَرَى الْأَرْضَ كُلَّهَا

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٣

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٨]

وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)

بارزة ظاهرة لا يكنها جبل، أو بناء، أو شجر، فلا ترى فيها عوجا، و لا أمنا و حَشْرُنَاهُمْ أَى جمعنا البشر كلهم، بأن نحبيهم و نجمعهم في موقف واحد فَلَمْ نُغَادِرْ أَى لم نترك مِنْهُمْ أَحَدًا و المغادرة الترك، و منه الغدر لأنه ترك الوفاء، و الغدير لأنه يترك فيه الماء.

[٤٩] و عَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ أَى أن البشر جميعهم يعرضون على الله سبحانه يوم القيامة، و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، إذ الإنسان دائما عند الله سبحانه، و في علمه و تحت سمعه و بصره، لكن هناك يتمثل الإنسان كالذى يعرض أمام الحاكم ليحكم عليه صَفًّا أَى في حال كونهم مصطفين صفا، صف الأخيار و صف الفجار، و هكذا كل جنس مع جنسه، و كل مذهب مع رئيسه، كما قال سبحانه (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) «١» و يقال لهم من قبله سبحانه لَقَدْ جِئْتُمُونَا أَيها البشر كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ عرأه حفاء عزلا ضعفاء عاجزين منفردين ليس معكم شىء من أموال الدنيا و مناصبها، و سائر زهرتها، و لم تكونوا تزعمون ذلك بَلْ زَعَمْتُمْ و ظننتم في دار الدنيا أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا فى القيامة للحساب و الجزاء، و هذا إنما يقال بالنسبة إلى الكفار، فإن الكلام حولهم الآن- عند تبليغ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لهم الأحكام-

(١) الإسراء: ٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٩]

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

[٥٠] و هنالك وُضِعَ الْكِتَابُ أَى يوضع كتاب أعمالهم، فإن المستقبل المحقق الوقوع، ينزل منزلة الماضى، و الكتاب اسم جنس، أَى جنس الكتاب المكتوب فيه أعمال العباد، و وضعه إنما هو للمحاسبة و إعلام كل أحد بما عمل و ما يجزى فَتَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو كل من يأتى منه الرؤية الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا، و اقترفوا الكفر و العصيان مُشْفِقِينَ أَى خائفين، من الإشفاق بمعنى الخوف، و يقال للصدى «مشفق» لأنه يخاف على صديقه من العطب مِمَّا فِيهِ أَى مما فى الكتاب من بيان أعمالهم السيئة وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا أَى يا قوم ويلنا، أو يا ويلنا احضر فهذا وقتك، و هذه لفظه قد يدخلها الثأر، يقولها الإنسان، إذا وقع فى شدة، و كان الأصل فيها، أن يدعو الإنسان على نفسه بالهلاك، ليستريح من هذه الشدة ما لِهَذَا الْكِتَابِ أَى أَى شىء لكتاب عملنا لا يُغَادِرُ أَى لا يدع و لا يترك سيئة صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا و عدّها و أدرجها، و أصل «ما لهذا» استفهام عن النفع العائد إلى الشخص العامل عملا، تقول «ما لزيد يتكلم بهذا؟» إى أَى نفع له، ثم استعمل فى كل استفهام استنكارى، تقول ما لهذا الحائط مائل؟ و ما لهذا الحيوان مريض؟ و هكذا و

وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا أَمَامَهُمْ، لا مهرب لهم عنها، مقابل الإنسان الذى يعمل عملاً، ثم ينسأه، و ينسى المجتمع له، فكأنه غائب و لا يَظَلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا و إنما يعطيهم جزاء أعمالهم، فلا يثبت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٥

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٠]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)

لهم سيئة لم يقرفوها، و لا يزيد فى جزاء سيئة اقترفوها، و إن كان الأنسب بالسياق الأول، و بالعموم اللفظى الثانى، بل هو أعم، فيشمل حتى المؤمنين، فإنه سبحانه لا يظلمهم بعدم جزاء حسناتهم، أو التنقيص من أجورهم.

[٥١] إن المجرمين الذين لهم ذلك المصير المخزى، ليعلموا أنهم يتركون عبادة الله، إلى عبادة شيطان فاسق هو لهم عدو، فليروا بأنفسهم عن إطاعة مثله و اذكر يا رسول الله إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فى بدء خلقه البشر فسجدوا إلا إبليس و هو الشيطان كَانَ مِنَ الْجِنِّ الساكنين فى الأرض، ثم ارتفع مقامه بالعبادة حتى صار فى زمرة الملائكة، و شمله أمر السجود فَفَسَقَ أى خرج عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ إذ لم يسجد لآدم كبرا و حسدا، و الفسق، بمعنى الخروج، و يسمى الفاسق فاسقا، لأنه خارج عن طاعة الله، و إذ عرفتم أيها المجرمون أصل الشيطان، و مصيره الذى آل إليه أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ تتبعونهم و تطيعونهم، و قد ورد أن للشيطان نسلا، و لكن بدون ازدواج مِنْ دُونِي أى من دون الله سبحانه و الحال أن هُم أى الشيطان و ذريته لَكُمْ أيها المجرمون عِدُوٌّ و هذا استفهام استنكارى، فكيف يترك الإنسان من يحبه ليتولى من يعاديه؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا أى إن الشيطان بئس البديل الذى اختاروه على الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥١ الى ٥٢]

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢)

[٥٢] و كيف تتولون الشيطان و ذريته، مع إن الله هو الخالق و العالم، و أنه هو المتفرد الوحيد فى الكون، فليس الأبالسة لهم حضور وقت خلق السماوات و الأرض، حتى يكون لهم علم و معرفة بالأمر، و لا أنهم أعضاء الله فى الخلق و تسيير الكون حتى يكون لهم قوة و دخاله فى الشؤون، و الإنسان لا يتملق إلا للعالم القوى المشارك؟ ما أَشْهَدْتُهُمْ أى ما أحضرت إبليس و ذريته، و ما اتخذتهم شهودا على خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حتى يعرفوا الأسرار و الكون، و يكون لهم هذا الشرف، حتى يقول أحد من حضر خلق الكون، لا بد و أن يكون له منزلة، و مقام يستحق به التولى و الإطاعة و لا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ فلا كان بعضهم حاضرا و شاهدا عند خلقى لبعضهم الآخرين، أو المراد أن أرواحهم لم تحضر خلق أجسادهم، فإن الأرواح- فى البشر- كانت مخلوقة قبل خلق الأجساد و مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ أى الشياطين الذين يضلون البشر و يغوونهم عَضُدًا أى عوننا فى تسيير الكون، و الإتيان ب «المضلين» عوض الضمير، ك «هم» كيان علة لعدم الاتخاذ، و تقريع لمن يتخذهم أولياء، فالله العالم الحكيم لم يتخذ الشيطان عوناً، فكيف يتخذ الإنسان ولياً؟ ثم أنه سبحانه لا يتخذ أى أحد عضداً، و إنما جىء هنا بهذا مجازاً فى الكلام.

[٥٣] قد علمنا مبدأ الشيطان، و علمنا أنه لم يشهد شيئاً، و لا أشرك فى شىء، فلنرى مصيره و مصير المجرمين الذين اتخذوه ولياً من دون الله، و أطاعوه و اذكر يا رسول الله يَوْمَ يَقُولُ اللهُ سبحانه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٧

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٣]

وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

وهو يوم القيامة، فإنه سبحانه يخاطب المشركين قائلاً نادوا أيها المجرمون شركائى الذين زعمتم أنهم شركاء معى فى الألوهية، كذبا و افتراء، نادوهم ليدفعوا عنكم العذاب و ينصرونكم فى هذا الموقع العصيب فدعوهم أى دعا المشركون الشركاء، و استنجدوا بهم فلم يشيخجيبوا لهم مجرد إجابة، فكيف بالانتصار و التخليص و جعلنا بينهم أى بين المشركين و بين آلهتهم مؤبداً أى محل هلاك، و هو اسم مكان من وبق بمعنى هلك، و لعل المراد أن العلاقة الكائنة بين الكفار و آلهتهم، إنما هى علاقة هلاك و خزي، مقابل علاقة المؤمنين بالله سبحانه، فإنها علاقة نجاه و فوز.

[٥٤] و رأى المجرمون النار التى أوقدت لهم فظنوا أنهم مواقعوها و إنما جىء بالظن إشعاراً لحالة المجرم، فإنه يحتمل أن ينجو بشفاعه أو نحوها، و هكذا نفسية كل إنسان يرى العقاب المحقق، فإن نفسه تبقى فى حال تردد و إن كان أغلب ظنه الهلاك، و حلول العقاب به، و المواقعه هى ملابسة الشىء بشدة، و منه وقائع الحرب، و كأنه جىء من باب المفاعلة، للدلالة على أن الشيين وقع كل واحد منهما على الآخر بشدة، حتى أن الواقع دخل فى ذلك، و ذلك دخل فى الواقع، فالمجرمون يقعون فى النار، و النار تدخل أجوافهم و لم يجدوا عنها أى عن النار مضرراً أى موضعاً ينصرفون إليه منها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٨

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

و لقد صيرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل و كان الإنسان أكثر شىء جدلاً (٥٤) و ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى و يستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً (٥٥)

[٥٥] لقد كان لهم مصرف عن النار، لو أنهم صرفوا قلوبهم إلى ما جاء فى القرآن من المثل، فاهتدوا بهداه، و انتهجوا منهاجه، لكنهم لم يؤمنوا، فصار أمرهم إلى الخسار و النار و لقد صيرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ينتفعون به، لو أنهم وعوا و أرادوا الرشد، و معنى التصريف، ترديد الأمثال فى قوالب شتى و ألبسة مختلفة، فصرفنا الأمثال، ليجدوا فى الآخرة المصرف عن النار و لكن لم ينتفعوا فقد كان الإنسان أكثر شىء أنه شىء خلقه الله، كما خلق سائر الأشياء، لكن تلك الأشياء تخضع لأوامره طائعه، أو سائله- كما رأينا فى الملائكة عند خلق آدم- أما الإنسان فإنه أكثر شىء جدلاً فإنه يجادل فى الحق، و إن رآه، و أخيراً يغلب هواه على الحق،- إلا من عصمه سبحانه-.

[٥٦] و ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى استفهام إنكارى، أى أى شىء يمنع الإنسان عن الإيمان بعد أن رأى الهداية، و دل على الطريق و يشيخغفروا ربهم لما فات منهم من الذنوب و الآثام إلا أن تأتيهم سنة الأولين أى عادتنا الجارية فى الأمم السابقة، الذين كانوا يكذبون الرسل حتى تأتيهم العقوبة الصارمة فتهلكهم أو يأتيهم العذاب قبلاً أى مقابلاً لهم، و مواجهها إياهم، من غير أن يأخذهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

و ما نرسل المرسلين إلا مبشرين و منذرين و يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق و اتخذوا آياتى و ما أنذروا هزواً (٥٦) و من أظلم ممن ذكر آيات ربه فأعرض عنها و نسي ما قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و فى آذانهم وقراً و إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً (٥٧)

فيؤمنوا خوفاً و جبراً، و المعنى أنهم بامتناعهم عن الإيمان- بعد مجىء الهدى- بمنزلة من يطلب الهلاك، أو يطلب أن يرى العذاب، فيؤمن خوفاً من حلوله به، إن لم يؤمن، و هذا كقولك لابنك: إنك لا تقبل قولى، إلا أن تضرب، أو ترى العصا مرفوعة لضربك.

[٥٧] و هل الإتيان بالعذاب لإهلاكهم، أو لجبرهم على الإيمان، من شأن المرسلين؟ كلا إن شأنهم هو البلاغ، أما العذاب، فإنه بيد الله، لا يرسله إلا- لمصلحة و حكمه و ما نرسل المرسلين إلا مبشرين لمن آمن و أطاع بالثواب و منذرين لمن كفر أو عصى بالعقاب و يجادل الذين كفروا بالباطل فيناظرون مع الرسول و المؤمنين، بما هو باطل، و غير حقيقة ليدحضوا أى ليزيلوا به الحق و يبطلوه انتصاراً

لدينهم، و طريقتهم المنحرفة وَ اتَّخَذُوا أَى الكفار آياتى يعنى القرآن وَ ما أَنْذَرُوا به البعث و النار هُزُؤاً أَى مهزُؤاً به، فإنهم يسخرون من هذه الآيات و الإنذارات، و سيصلون إلى جزء أعمالهم.

[٥٨] وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ أَى ليس أحد أكثر ظلماً من مثل هذا الشخص، الذى يذكر آيات الله، بأن يذكره النبى بالأدلة على وجود الله و علمه و قدرته فَأَعْرَضَ عَنْهَا و لم ينتفع بها، و «من أظلم» إضافى لا حقيقى، ككثير من أمثاله المستعمله فى القرآن الحكيم، فإن البلاغه تقتضى ملاحظه الظروف المحيطه و الملابسات، فى النفى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٤٤٩

و الإثبات و الحصر و ما أشبهه، فإذا سأل أحد الطلاب، هل فى المدينة أحد؟ أراد من الطلاب، و إذا سأل التاجر من زميله، هل هناك شىء؟

أراد التجارة، و إذا قال الإنسان لا دولة أقوى من الدولة الفلانية، أراد من الدول المعاصرة، و هكذا إذا قال أحد لا أشقى من هذا الرجل «فى قصه قتل وقعت، مثلاً» أراد فى هذه القصه، و هكذا مثله كثير فى القرآن مثل (وَ أَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) «١» (وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) «٢» (وَ اضْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) «٣» إلى غير ذلك وَ نَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ أَى نسى المعاصى التى صدرت منه، و كأنه قدمها لآخرته، و إنما نسبت إلى اليد، لأن اليد هى العضو العامل فى البدن كثيراً، و إلا فالمعاصى تصدر من جميع الأعضاء، فذلك بعلاقه الجزء و الكل، كاستعمال الرقبه، و إرادة الإنسان، و التذكير باعتبار أن فى فطره الإنسان دلالات على الصانع، فالأنبياء يذكرون الإنسان، كما أن النسيان يراد به عدم المبالاه و إن كان ذاكراً لها، و الإنسان إذا استمرأ المعاصى، تكون ملكه له، حتى إن قلبه لا يستعد لقبول الحق، كأنه فى غشاء، و حتى إن أذنه لا تستعد لاستماع الحق، كأن فيها قرا، و هذا ينسب إليه سبحانه، لأنه خلق الإنسان هكذا، بحيث أنه إذا تمادى فى شىء صار ملكه له، و لأنه تعالى يترك الإنسان، حتى يتردى، فلا يجبره على الإطاعه و الإيمان، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَى قلوب هؤلاء الكفار أَكِنَّةً و هى جمع كنان بمعنى

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) آل عمران: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠١

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٨]

وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨) الغشاء أن يَفْقَهُوهُ أَى كراهه أن يفهموا القرآن، بعد ما أعرضوا عن الحق وَ فى آذَانِهِمْ جعلنا قِراً أَى ثقلاً، تشبیه بالذى فى أذنه صمم، حيث لا يسمع أصلاً وَ إِن تَدْعُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الْهُدَى لَأَنْ يَهْتَدُوا و يسلكوا السبيل الصحيح فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَى حين تمادوا فى الغى حتى جعل على قلوبهم أكنه، و فى آذَانِهِمْ قرا أريداً و عدم اهتدائهم ليس بالجبر، و إنما بالاختيار، أَى إنهم ما داموا كذلك لا يهتدون.

[٥٩] وَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْغَفُورُ الذى يستر على عباده كثيراً، و إن استحقوا الفضيحة ذُو الرَّحْمَةِ يرحمهم و يتفضل عليهم، و إن أثموا و حادوا، و لذا لا- يعجل لهؤلاء بالعذاب، و إن علم أنهم لن يهتدوا أبداً لَوْ يُؤَاخِذُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَسَبُوا من الكفر و الآثام، أَى لو أراد أخذهم- فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة- لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ فى الدنيا، و أهلكتهم كما أهلكت القرون السابقة، لما انقطع عنهم الرجاء يَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لِأخذهم، و الانتقام منهم لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ أَى دون ذلك الموعد مَوْثِقًا أَى محل التجاء و فرار، فهو الموعد

الذى لا بد أن يصلوا إليه، ولا يكون دونه محل آخر يفرون من الموعد إلى ذلك المحل، وهذا من باب التشبيه، ومجمل المعنى، أن الله من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)

رحمته وفضله، لا يأخذ هؤلاء فوراً، بل أنه تفضل عليهم بامتداد أجلهم إلى مواعده، وذلك منتهى الرجاء العادى فى إيمانهم، أما إذا لم يؤمنوا وجاء الموعد، فلا مناص، ولا خلاص.

[٦٠] ولا- يغرّن هؤلاء طول بقائهم فى الدنيا ألا يعتبرون بالقرى التى أهلكناها حين ظلموا وعتوا؟ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أى قرى عاد و ثمود، وقوم لوط و نوح، وغيرها أَهْلَكْنَاهُمْ أى أهل القرية لَمَّا ظَلَمُوا بتكذيب الأنبياء، والعصيان عن أوامر السماء وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ أى هلاكهم، فالمهلك مصدر ميمي مَوْعِدًا خاصاً، فلم نأخذهم حتى وصلوا إلى ذلك الموعد، و حينذاك حل بهم العقاب.

[٦١] و إذ أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الناس بقصة أصحاب الكهف، سألوه عن قصة العالم الذى أمر الله موسى أن يتبعه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وهذه القصة تشترك مع القصة السابقة، فى اشتمالها على بعض آيات الله سبحانه «كإحياء السمكة» كما أنها تشترك مع تلك فى سير موسى كأصحاب الكهف، سيرا إلى الله سبحانه و لمرضاته و اذكر يا رسول الله إذ قال موسى بن عمران نبي بنى إسرائيل، صاحب الدعوة المشهورة التى اعتنقتها اليهود لِفَتَاهُ أى شابه الذى كان يلازمه و يخدمه، و هو يوشع بن نون، و قد كان وصيا لموسى، إن الله قد أمرنى أن أتبع رجلا عند ملتقى البحرين، و أتعلم منه فتزود يوشع حوتا مملوحا و خرجا لا أبرح أى لا أزال أسير إلى المقصد الذى أمرنى الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦١ الى ٦٢]

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ فِيهِ أَقْوَالٌ وَ قَدْ رَجَحَ بَعْضُ أَهْلِ الْإِطْلَاعِ، أَنَّهُ مَحَلُّ التَّقَاءِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ مَجْمَعِ خَلِيجِ الْعَقْبَةِ وَ السُّوَيْسِ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَ قَدْ كَانَ الْمَوْعِدُ هُنَاكَ أَوْ أَمْضَىٰ حُقُبًا أى زمانا طويلا، و هذا كما يقول القائل أسير وراء مطلبى إلى النجف، أو إلى ما شاء الله، فيما كان أكثر الاحتمال وجود المطلب فى النجف، و الحقب الدهر، أو ثمانين سنة، و المراد: السير حتى الوصول إلى المطلب.

[٦٢] فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا أى محل اجتماع البحرين نَسِيَا حُوتَهُمَا فقد ورد أنهما هناك رأيا إنسانا، و ذهب يوشع لغسل السمكة، فحييت بإذن الله سبحانه، و فلتت من يد يوشع فى البحر و نسى يوشع القصة، كما نسى موسى عليه السلام أن يسأله، ثم أخذوا يسيران فَاتَّخَذَ الْحُوتُ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ أى السبيل الذى اختاره سَرَبًا أى مسلكا يذهب فيه.

[٦٣] فَلَمَّا جَاوَزَا أى موسى عليه السلام و يوشع، ذلك المكان، و أخذوا يسيران، أحس موسى عليه السلام بالجوع قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ يوشع آتِنَا أى جئنا غَدَاءَنَا أى طعامنا للغداء لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا أى تعباً و شدة، فلناكل الحوت لتتقوى، و يذهب التعب عنا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٤

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا

كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

[٦٤] قَالَ يُوْشَعُ فِي جَوَابِ مُوسَى أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا أَيَّ هَلْ تَذَكَّرُ زَمَانَ نَزَلْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَتْ هُنَاكَ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، أَوِ الْمَرَادِ أَرَأَيْتَ مَا دَهَانِي، عَلَى نَحْوِ الْاسْتِفْهَامِ الْاِعْتِدَارِيِّ فَإِنِّي نَسَيْتُ الثُّحُوتَ الَّتِي كَانَتْ مَعْنَا، وَ لَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ نَسِيَ الْحُوتَ عِنْدَ غَسَلِهِ، أَوِ الْمَرَادِ أَنَّهُ نَسِيَ بَعْدَ مَا وَضَعَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ، كَمَا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ، ثُمَّ اعْتَذَرَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمْ يَخْبِرْهُ بِقِصَّةِ الْحُوتِ قَائِلًا- وَ مَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ بِضَمِّ الْهَاءِ فِي «أَنَسَانِيهِ» لِأَنَّهُ يَجُوزُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ أَوْجُهُ «بِالضَّمِّ» وَ «الْكَسْرِ» وَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْإِشْبَاعِ، وَ بَدُونِهِ، هَذَا حَسَبِ الْأَصْلِ، لَكِنْ فِي الْقُرْآنِ بِالضَّمِّ أَنْ أَدَّكَرُهُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بَدَلَ مِنَ الْهَاءِ فِي أَنَسَانِيهِ، أَيَّ مَا أَنَسَانِي أَنْ أَدَّكَرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ ذَكَرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِصَّةَ الْحُوتِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، لَمَا جَاوَزَهَا مُوسَى وَ اتَّخَذَ الْحُوتَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا فَإِنَّهُ قَدْ حَيَّى وَ فَلَ تَ مِنْ يَدِي، وَ عَجَبًا مَنْصُوبٌ مَصْدَرًا نَوْعِيًّا، أَيَّ اتَّخَاذًا عَجَبًا، أَوْ سَبِيلًا عَجَبًا، فَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْمَاءَ انْجَابَ عَنِ الْحُوتِ، وَ بَقِيَ كَالْكَوْثُ فِي الْبَحْرِ «١».

[٦٥] وَ لَمَا سَمِعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقِصَّةِ الْحُوتِ قَالَ ذَلِكَ الَّذِي تَقُولُهُ، مِنْ أَنَّ الْحُوتَ قَدْ حَيَّى مَا كُنَّا نَبِغُ أَيَّ نَبِغِي وَ نَطْلُبُ، وَ حَذَفَ «يَا» بِنِغٍ، تَخْفِيفًا، فَقَدْ كَانَتْ حَيَاءُ الْحُوتِ آيَةً ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي أَطْلَبَهُ، وَ لَعَلَّ اللَّهَ

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ اتَّبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦)

سبحانه كان أخير موسى عليه السَّلَامُ، بَأَنَّ آيَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ظُهُورُ خَارِقَةٍ مِنْهُ، لَا كَمَا قِيلَ أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ إِحْيَاءَ السَّمَكَةِ الْمَيْتَةِ، حَتَّى يُقَالُ: كَيْفَ يَجُوزُ- عَلَى هَذَا- أَنْ يَقْصِدَ مُوسَى أَكْلَ السَّمَكَةِ، حِينَ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا؟ فَارْتَدَّا أَيَّ رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فَنَاهُ عَلَى آثَارِهِمَا أَيَّ الْآثَارِ الَّتِي تَعْدِيَا مِنْهَا يَرِيدَانِ نَفْسَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَارَا فِيهِ قَصِيصًا مِنْ قِصَصِ، بِمَعْنَى اتَّبَعَ الْأَثَرَ، فَهُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِقَوْلِهِ «ارْتَدَّا» أَيَّ ارْتَدَا ارْتِدَادًا وَ رَجَعَا رَجُوعًا.

[٦٦] وَ لَمَا وَصَلَا إِلَى مَحَلِّ الْحُوتِ فَوَجَدَا مُوسَى وَ فَتَاهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا هُوَ خَضِرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا مَرْسَلًا، بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَ الْإِقْرَارِ بِأَنْبِيَائِهِ وَ رِسَلِهِ وَ كِتَابِهِ، وَ كَانَتْ آيَتُهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَجْلِسُ عَلَى خَشْبَةٍ يَابِسَةٍ، وَ لَا أَرْضٍ بِيضَاءٍ، إِلَّا اهْتَزَّتْ خَضِرًا، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لِذَلِكَ، وَ كَانَ اسْمُهُ «بِلْيَابِنَ» آتَيْنَاهُ أَيَّ أُعْطِينَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا أَيَّ فَضْلًا مِنْ طَرَفِنَا، وَ كُلِّ رَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ سَبْحَانَهُ، وَ إِنَّمَا الْإِتْيَانُ هُنَا بِذَلِكَ لِلْإِشَارَةِ إِلَى فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَ قَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِ النُّبُوَّةُ، وَ طَوْلُ الْعَمْرِ، وَ غَيْرُهُمَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا فَكَانَ عِلْمُهُ غَيْرَ مَحْتَاغٍ إِلَى التَّحْصِيلِ.

[٦٧] قَالَ لَهُ مُوسَى بَعْدَ التَّعَارُفِ وَ التَّسْلِيمِ هَلْ اتَّبَعَكَ يَا خَضِرُ- وَ مِنْ هُنَا يَسْدُلُ السُّتَارَ عَلَى أَمْرِ فَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ هُنَاكَ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمَا بَعْدَ التَّلَاقِ- عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا أَيَّ هَلْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٧ إلى ٦٩]

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)

تَجَوَّزَ لِي، أَنْ أَكُونَ مَعَكَ، لِتَعَلَّمَنِي مِنْ بَعْضِ عُلُومِكَ الَّتِي عَلَّمَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَيَّ عُلَمَاذَا رُشِدًا، وَ هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ، وَ يَظْهَرُ مِنَ الْحُورِ وَ

النتائج فى تصرفات الخضر، أن موسى أراد أن يرى كيفية علم الغيب، لا أن يتعلم هو ذلك، فالمراد من أن تعلمنى أن ترينى بعض علم الغيب، كيف تعمل بما تظهر نتائجها بعدا و مستقبلا؟.

[٦٨] قَالَ خَضْرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا أَى يَثْقُلُ عَلَيْكَ الصَّبْرُ، بِحَيْثُ لَا تَطِيقُهُ، وَ لَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَأْمُورًا بِالظَّاهِرِ، فَلَا يَعْمَلُ عَمَلًا، إِلَّا إِذَا أَمَّتْ مَوَازِينُهُ وَ مَقَابِسُهُ الشَّرْعِيَّةُ، أَمَا خَضْرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ بِالْغَيْبِ وَ يَعْمَلُ بِحَسَبِهِ، وَ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَرْسُلَ اللَّهُ نَبِيًّا بِهَذَا، وَ نَبِيًّا بِذَلِكَ، وَ قَدْ اسْتَدَلَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّ لِلشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا وَ بَاطِنًا، لَكِنْ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَدِلْ دَلِيلًا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ.

[٦٩] ثُمَّ قَالَ خَضْرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَيْفَ تَصْبِرُ يَا مُوسَى عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا بِمَا تَرَى ظَاهِرَهُ مُنْكَرًا، وَ لَا تَعْلَمُ بَاطِنَهُ؟
[٧٠] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيَتَجِدُنِي يَا خَضْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا لِمَا أَرَاهُ مِنْكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ وَجْهَهُ وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا فَلَا أَخَالَفُكَ فِيمَا تَأْمُرُنِي بِهِ مِنَ الصَّبْرِ، حَتَّى يَنْكَشِفَ وَجْهَ الْحِكْمَةِ، لَكِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، إِذْ لَمْ يَقُوْ فِي مُوسَى عَزِيمَةُ الصَّبْرِ، وَ لَذَا سَأَلْتُ، وَ لَمْ يَصْبِرْ، وَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَلْفًا لَوَعْدِهِ، حَتَّى يُقَالَ كَيْفَ خَلَفَ النَّبِيَّ الْوَعْدُ؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٠ الى ٧٣]

قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أ خَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَ لَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُشْرًا (٧٣)

[٧١] قَالَ خَضْرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنْ أَتَيْتَنِي وَ كُنْتُ مَعِيَ تَشَاهِدُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ مَعَ ظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ تَرَاهُ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَإِنِّي أَنَا أَفْسِرُهُ لَكَ فِيمَا بَعْدَ، وَ عَلَى هَذَا الْقَرَارِ تَبِعَ مُوسَى خَضْرًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٧٢] فَأَنْطَلَقَا مَعًا يَمْشِيَانِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَا إِلَى سَفِينَةٍ وَ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا خَضْرُ، بِأَنْ قَطَعَ بَعْضُ أَلْوَاحِهَا، حَتَّى دَخَلَهَا الْمَاءُ قَالَ مُوسَى مُسْتَنْكَرًا هَذَا الْعَمَلُ أ خَرَقْتُهَا يَا خَضْرُ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ فَمَا هَذَا الْعَمَلُ الْعَجِيبُ مِنْكَ؟! - لَقَدْ جِئْتَ يَا خَضْرُ شَيْئًا إِمْرًا أَى مُنْكَرًا عَظِيمًا، فَإِنْ إِمْرٌ فِي اللُّغَةِ، بِمَعْنَى الدَّاهِيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَ هُوَ مُسْتَقٌ مِنَ الْأَمْرِ، لِأَنَّهُ الْفَاسِدُ الَّذِي يَحْتَاجُ أَنْ يُؤْمَرَ بِتَرْكِهِ.

[٧٣] قَالَ خَضْرُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ يَا مُوسَى لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا فَقَدْ شَرَطْتُ عَلَى اتِّبَاعِكَ لِي أَنْ تَصْبِرَ، فَكَيْفَ اعْتَرَضْتَ عَلَيَّ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ، وَ لَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُحَدِّثَكَ بِالنَّتِيجَةِ؟

[٧٤] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ تَذَكَرَ الشَّرْطَ لَا تُؤَاخِذْنِي يَا خَضْرُ بِمَا نَسِيتُ مِنَ الشَّرْطِ حِينَ سَأَلْتُكَ وَ اعْتَرَضْتَ عَلَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٨

[سورة الكهف (١٨): آية ٧٤]

فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَ قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)

وَ لَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُشْرًا أَى لَا تَكْلِفْنِي مَشَقَّةً، بَلْ عَامِلْنِي بِالْيَسْرِ، يُقَالُ أَرَهَقُهُ عَسْرًا إِذَا كَلَفَهُ أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْهِ، وَ قَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ إِنْ النِّسْيَانُ هُنَا، وَ فِي قَوْلِهِ «نَسِيََا حَوْتَهُمَا» وَ قَوْلِهِ فِي قِصَّةِ آدَمَ «فَنَسِيَ» وَ مَا أَشْبَهَ يَرَادُ بِهِ التَّرْكَ، لَا النِّسْيَانُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الذِّكْرِ، وَ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى التَّرْكِ النِّسْيَانُ، لِأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِهِ، وَ شَبِيهِهُ فِي النَّتِيجَةِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (١) مَعَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يَنْسِي، وَ قَوْلِهِ (نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) (٢) وَ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ، لِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومِينَ مِنَ السَّهْوِ وَ النِّسْيَانِ وَ الْخَطَا، وَ مَا أَشْبَهَ.

[٧٥] وَ قَبْلَ خَضْرَ مِنْ مُوسَى عَذْرُهُ وَ أَوْصَلَتْهُمَا السَّفِينَةُ إِلَى الْمَحَلِّ الْمَقْصُودِ وَ نَزَلَا مِنْهَا فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا أَى وَلَدًا وَ قَدْ كَانَ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ - كَمَا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ «٣» - فَقَتَلَهُ أَخَذَ خَضْرُ سَكِينًا، وَ قَتَلَ الْغُلَامَ بِلَا سَوْءٍ، وَ لَا جِهَةَ ظَاهِرَةً قَالَ

موسى عليه السلام مستوحشا من هذا العمل العجيب، بلا ميرر ظاهر أقتلت يا خضر نفساً زكيةً أى طاهرة من الذنوب بغير نفس أى بغير إن كان قتل نفساً، حتى يستحق القصاص؟ فما هذا العمل منك يا خضر لقد جئت شيئاً نكراً أى منكراً فظيماً.

(١) التوبة: ٤٧.

(٢) الجاثية: ٣٥.

(٣) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٦٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السادس عشر من آية (٧٦) سورة الكهف إلى آية (١٣٦) سورة طه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) [٧٦] قَالَ خضر لموسى عليه السلام أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا لما تبعتنى مشرطاً بأنك لا تعارضنى فى أعمالى، حتى أبين لك وجهها فيما بعد؟

[٧٧] قَالَ موسى عليه السلام معتذراً إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا أى بعد هذه المدّة فَلَا تُصَاحِبْنِي لا تتركنى أصحبك قَدْ بَلَغْتَ يا خضر مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، قد أعذرت فيما بينى و بينك و «عذراً» مفعول بلغت، أى قد بلغت إلى حال يعذرك الناس بالنسبة إلى لو نحيتنى عن نفسك، فلقد خولف الشرط - حينذاك - ثلاث مرات.

[٧٨] فَانْطَلَقَا يمشيان حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ وَ هى قرية ناصره، التى سميت النصارى بهذا الاسم لانتسابهم إلى هذا المحل اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا أى سألاهم الطعام فَأَبْوَا، أهل القرية أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا، أن يقبلوهما ضيفين، يقال ضيف زيد عمروا، أى قبله ضيفا عنده فَوَجَدَا خضر و موسى فِيهَا، فى تلك القرية جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ وصف الجدار بالإرادة مجاز، لأنه شبيه بالمريد، فى أنه انحنى مائلاً للانهدام، و الانقضاض بمعنى السقوط بسرعة فاقامه سواه و عدله قال موسى كيف تصلح شؤون هؤلاء، و هم قد بخلوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُبْنُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وَّرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) عليك بالضيافة لو شئت هذا العمل لاتخذت عليه أجراً لكى نسد بذلك الأجر جو عننا؟

[٧٩] و لما اعترض موسى عليه السلام على خضر هذا الاعتراض الثالث قَالَ خضر هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ أى هذا وقت الفراغ، أو هذا الإنكار على هو المرفق بيننا، لأنك قلت «إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي» سَأُبْنُكَ أى أخبرك، و لعل دخول السين لأجل إن بين هذه القضية و بين الإخبار، كان فصل زمان قليل بتأويل بتفسير، و إنما سمي تأويلاً، لأن تلك الأعمال إنما صدرت لأجل ذلك الأول و الأخير، الذى ترجع إليه ما لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا فبادرت بالاعتراض، و السؤال عنها.

[٨٠] أَمَّا السَّفِينَةُ التى خرقتها فكانت لِمَسَاكِينَ ملكا لهم، و المراد بالمساكين هم الفقراء الذين أسكنتهم الحاجة، فلا يقدرّون على

حركه يقدر عليها الأغنياء يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ يَتَعِشُونَ بهذه السفينة فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، أحدث فيها عيباً، يسبب عدم الرغبة فيها و كَانَ وَرَاءَهُمْ أَى فى عقب هؤلاء المساكين أصحاب السفينة مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ عَصَباً أَمَا إِذَا كَانَتِ السَّفِينَةُ مَعِيْبَةً، فإن الملك لم يكن يأخذها، ويعيرها أهمية، فأردت إبقاء هذه السفينة بيد أصحابها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْرِتَ تَخْرُجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

المساكين، و إنقاذها من يد الغاصب.

[٨١] وَ أَمَّا الْغُلَامُ الذى قتله فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ وَ كان هو كافرا- كما يظهر من القرينة- فَخَشِينَا إن بقى فى الحياء أَنْ يُرْهِقَهُمَا الإرهاق، إدراك الشىء بما يغشاه و غلام مراهق إذا قرب أَنْ يغشها حال البلوغ، أَنْ يغشى الغلام أبويه، و يتسلط عليهما طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فيطغيان و يكفران، ثم إن الخشية كانت علما، فإنها تستعمل مع العلم و الشك، و الظن و الوهم.

[٨٢] فَأَرَدْنَا بقتل الغلام أَنْ يُبْدِلَهُمَا الأيوين رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ من هذا الغلام زَكَاءً، طهاره، و إنما قال ذلك مقابل قول موسى عليه السلام- نفسا زكية- وَ أَقْرَبَ رُحْمًا أَى أرحم بالأيوين، فإن رحم بمعنى رحمة، و المراد «الخير» عرفا، لا حقيقة، إذ لا خير فى الكافر، حتى يرجح المؤمن عليه بصيغته التفضيل، و قد ورد أن الله سبحانه عرض لهما بجارية كانت أم جماعة من الأنبياء [٨٣] وَ أَمَّا الْجِدَارُ الذى أقمته، و لم أتخذ أجرا عليه فإنما أقمته لأنه كان لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فى الْمَدِينَةِ أَى فى المدينة التى استطعنا أهلها، فلم يضيفونا وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ورد أنه كان لوحا من ذهب، فيه كلمات من الإيمان فكان كنزا مالا، و كنزا علما وَ كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٤

أَبُوهُمَا صَالِحًا قد دفن هذا الكنز للغلامين، و جعل الجدار علامة له- و لعله كان قد أوصى بعض خواصه، أن الغلامين إذا كبرا، فليذهبا إلى محل الجدار ليجداه فيه إرثا لهما منى- و حيث إن الجدار إذا سقط ذهب الأثر، و لم يصل الإرث إلى الغلامين، و أراد سبحانه انتفاعهما به لصالح أبيهما، أمرنى بإقامته الجدار فَأَرَادَ رَبُّكَ يا موسى أَنْ يَبْلُغَا أَى يبلغ الغلامان أَشُدَّهُمَا يكبرا و يعقلا و يبلغا قوتهما وَ يَسْرِتَ تَخْرُجَا كَنْزَهُمَا لينتفعا به علما و مالا رَحْمَةً وَ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ عليهما وَ مَا فَعَلْتُهُ أَى ما فعلت شيئا من الأمور الثلاثة، التى استغربت عنها أَمْرِي و من قبل نفسى، و إنما فعلت ما فعلت بأمر الله و إذنه و إجازته ذَلِكَ الذى قلته لك فى وجه الأمور الثلاثة تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا وَ ثقل عليك، حيث لم تكن تعرف وجهه.

و هنا أسئلة هى: أولا، إنه كيف يجوز تخريب شىء؟ ألا يوجب ذلك الضمان؟ و ثانيا كيف يجوز القصاص قبل الجناية؟ و ثالثا كيف أخلف موسى الوعد حيث شرط أن لا يسأل، و قد سأل؟ و رابعا كيف يكون موسى، و هو أفضل تابعا لخضر، و هل يجوز أمر الأفضل باتباع المفضول؟ و خامسا كيف نسى موسى، و الأنبياء منزهون عن النسيان؟

و الجواب عن الأولين، أن ذلك كان جائزا فى شريعة الخضر، و ما المانع عن ذلك؟ و عن الثالث، أن موسى علق عدم السؤال بالمشيئة، فلم يكن خلف. و عن الرابع، أن الأفضل، يجوز أن يتعلم من غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ٨٥]

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فى الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) الأفضل كما أن الرسول كان يتعلم من جبرائيل. و عن الخامس، قالوا أن المراد بالنسيان نتيجة النسيان- كما سبق تقريره- فلا ينافى

ذلك القاعدة العامة في عصمة الأنبياء.

[٨٤] و إذ أتم السياق قصة موسى و الخضر عليه السلام، عطف على السؤال الآخر الذي وجه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ حول ذى القرنين، فقال سبحانه وَ يَسْتَلُوْنَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ أَى عَنْ خَبْرِهِ، وَ قِصَّتِهِ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَ لَا مُلْكًا، وَ إِنَّمَا كَانَ عَبْدًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَ جَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ فَضَرَبُوا عَلَى قَرْنِهِ - أَى طَرَفِ رَأْسِهِ - فَذَهَبَ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَتَى إِلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَ دَعَاهُمْ، فَلَمْ يَجِيبُوا لَهُ، بَلْ ضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْآخَرَ، فَذَهَبَ عَنْهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فِي الثَّلَاثَةِ وَ مَلِكِ الْبِلَادِ، قُلٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ سَأَلْتُمُوهُ أَى أَقْرَأَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ مِنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ ذِكْرًا خَبْرًا وَ قِصَّةً.

[٨٥] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ بِأَنَّ سُلْطَانَهُ عَلَيْهَا، وَ بَسَطْنَا مُلْكَهُ فِيهَا وَ آتَيْنَاهُ أَعْيُنًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا أَى عِلْمًا يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا يَرِيدُ، وَ طَرِيقًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَا يَحِبُّ، فَقَدْ أُعْطِيَ أَسْبَابَ الْحُكْمِ، وَ أَسْبَابَ الْعِمْرَانِ، وَ أَسْبَابَ السُّلْطَةِ.

[٨٦] فَاتَّبَعَ سَبَبًا أَى اقْتَضَى أَحَدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ مَوْجِهَا وَ جِهَهُ نَحْوَ الْمَغْرِبِ، وَ سَالَكًا طَرِيقَهُ إِلَى هُنَالِكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَدُونَ السَّبَبِ - مِنْ تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٤١٦
[سورة الكهف (١٨): آية ٨٦]

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعُدَّ وَ إِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)

مال، و لوازم السفر التي هي أسبابه - لا يتمكن الوصول إلى مقصده.

[٨٧] حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ نَاحِيَةَ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمَعْمُورَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَهُوَ كَمَا نَقُولُ الْيَوْمَ «مُوسِكُو» مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَ «لندن» مَغْرِبَ الْأَرْضِ وَجَدَهَا أَى وَجَدَ ذُو الْقُرْنَيْنِ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ فَالْإِنْسَانِ، إِذَا كَانَ فِي طَرَفِ مَغْرِبِهِ جَبَلٌ رَأَى الشَّمْسَ تَغْرُبُ خَلْفَ الْجَبَلِ، وَ إِذَا كَانَ صَحْرَاءَ رَأَاهَا تَغْرُبُ فِي الصَّحْرَاءِ، وَ إِذَا كَانَ بَحْرًا وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ، وَ كَأَنَّ ذُو الْقُرْنَيْنِ وَصَلَ إِلَى مَحَلٍّ مِنْ شَاطِئِ الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ - وَ كَانَ يُسَمَّى بَحْرَ الظُّلُمَاتِ - فَوَجَدَ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّ الْبَحْرَ يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ «عَيْنًا» كَمَا أَنَّ «حَمِيَّةً» بِمَعْنَى كِدْرَةٍ، أَى فِي بَحْرِ ذِي كِدْرَةٍ، فِي لَوْنِ مَائِهِ، أَوِ الْمَرَادُ أَنَّهُ رَأَاهَا قَدْ غَرِبَتْ، فِي عَيْنٍ كَبِيرَةٍ ذَاتِ حَمِيَّةٍ، وَ لَا يَخْفَى أَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ «وَجَدَهَا» فَهِيَ حِكَايَةٌ عَمَّا جَاءَ فِي نَظَرِ ذِي الْقُرْنَيْنِ، لَا عَنْ الْوَاقِعِ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا أَى عِنْدَ تِلْكَ الْعَيْنِ قَوْمًا يُسْكِنُونَ هُنَاكَ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ كَانَ الْمَرَادُ بِالْقَوْلِ الْإِهَامُ إِلَيْهِ، بِالْإِلْقَاءِ فِي قَلْبِهِ، إِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَ إِنْ شَاءَ اتَّخَذَ فِيهِمْ سِيرَةً حَسَنَةً، فَقَدْ جَرَتْ الْبَلَاغَةُ، أَنْ يُؤْتَى بِلَفْظِ الْقَوْلِ، وَ يَرَادُ بِهِ التَّمَكُّنُ مِنَ الشَّيْءِ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: قَلْتُ لِلْوَزِيرِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ، وَ سَتَرِي جَزَاءَكَ، يَرِيدُ أَنَّهُ مَكْنَهُ لِيَعْمَلَ مَا يَشَاءُ إِذَا أَنْ تَعُدَّ هَوْلًا، كَمَا هِيَ عَادَةُ الْمَلُوكِ، إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، وَ جَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذْلَةً وَ إِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا بِأَنَّ تَسِيرَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩)

فيهم بسيرة حسنة، و تعمل معهم العدل، فإن كلا الأمرين بيدك، و أنت قادر على الأمرين.

[٨٨] لَكِنْ ذَا الْقُرْنَيْنِ بَيْنَ سِيَاسَتِهِ فِي هَوْلَاءِ، وَ فِي سَائِرِ الْمَدَنِ الَّتِي يَفْتَحُهَا، لَيْسَ بَيَانًا عَمَلِيًّا، وَ إِنَّمَا أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَوْلًا بِلِسَانِهِ، لِيَبَانَ مِنْهُجَهُ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ قَالَ ذُو الْقُرْنَيْنِ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ بِالْكَفْرِ أَوْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِصْيَانِ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ حَسَبَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ النِّكَالِ وَ الْعِقَابِ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَ مَعْنَى الرَّدِّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَنَّهُ يَرُدُّ إِلَى حُكْمِهِ، وَ مَوْقِعَ جَزَائِهِ الَّذِي قَرَّرَهُ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا مِنْكَرًا غَيْرَ مَعْهُودٍ، مِنْ الشَّدَةِ وَ الْغَلْظَةِ.

[٨٩] وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَهَذَا مُقَابِلٌ مِنْ ظَلَمَ فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَى «الحسنى» خبر «فله» و هي صفة لمحذوف، أى الخلّة الحسنة، و جزاء مصدر وقع موقع الحال، أى فله الحسنى فى حال كونها جزاء له وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُشِيرًا أى قولاً جميلاً، بغير أن نشق عليه، و المراد بالقول المعاملة معه معاملة حسنة، فى مقابل من ظلم و الذى سوف نعذبه، و كان الإتيان هنا ب «سوف» و هنا ب «السين» لإفادة تأخير العقاب هناك لعله يتوب، و تقديم الثواب هنا بفترة يسيرة ريثما يحقق أمره.

[٩٠] ثُمَّ أَتْبَعَ ذُو الْقَرَيْنَيْنِ سَبَبًا فَأَنْهَى رِحْلَتَهُ الْأُولَى نَحْوَ الْمَغْرِبِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٨

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٠ الى ٩٢]

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢)

ليبدأ رحلته الثانية نحو المشرق، فسلك طريقاً، هو سبب الوصول إلى المشرق.

[٩١] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أَيْ أَوَّلَ الْعِمَارَةِ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْأَرْضِ وَجَدَهَا وَجَدَ الشَّمْسُ تَطَّلِعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا فَكَانُوا عِرَاءً لَا يَجِدُونَ مَا يَسْتُرُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ لَفْحِ الشَّمْسِ الْحَارَّةِ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ، لَا جِبَالَ فِيهَا، وَ لَا أَشْجَارَ تَسْتُرُهُمْ عَنِ حَرِّ الشَّمْسِ، كَبَعْضِ صَحَارَى إِفْرِيقِيَا.

[٩٢] كَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا كَانَتْ رِحْلَةُ ذِي الْقَرَيْنَيْنِ وَ قَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا أَيْ كُنَّا عَالِمِينَ، بِمَا عِنْدَ ذِي الْقَرَيْنَيْنِ مِنَ الْأَلَاتِ وَ الْجِيُوشِ وَ الْعُدَّةِ، وَ النَّوَايَا الَّتِي فِي صَدْرِهِ، فَقَدْ كَانَ مَكْشُوفًا لَدَيْنَا، كَمَا كَانَ الْقَوْمُ مَكْشُوفِينَ لِلشَّمْسِ.

[٩٣] ثُمَّ أَتْبَعَ ذُو الْقَرَيْنَيْنِ سَبَبًا وَ سَلَكَ سَبِيلًا ثَالِثًا فِي رِحْلَتِهِ الثَّلَاثَةِ، يَتَسَبَّبُ بِهِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَ هُنَاكَ وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ كَانَ فِيهِ أَقْوَامٌ مُخْتَلِفَةٌ، لَا- فَتَفْهَمُ لُغَتَهُمْ، وَ قَدْ كَانَ هَذَا الْمَكَانَ بِقَرْبِ جَبَلَيْنِ، بَيْنَهُمَا مَمْرٌ، وَ كَانَ وَرَاءَ الْجَبَلَيْنِ قَبِيلَتَانِ تَسْمِيَانِ «يَأْجُوجُ» وَ «مَأْجُوجُ» وَ كَانَتِ الْقَبِيلَتَانِ تَنْزِلَانِ مِنْ هَذَا الْمَمْرِ عَلَى الْقَوْمِ، فَتَعِيثَانِ فِيهِمُ الْفَسَادَ، وَ هُنَاكَ عِنْدَ مَا رَأَى الْقَوْمُ ذَا الْقَرَيْنَيْنِ الْمَلِكَ الْمَظْفَرَ الْقَوِيَّ، طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسُدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَمْرَ، لِأَيُّ مَنَّا شَرَّ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ فَفَعَلَ ذُو الْقَرَيْنَيْنِ مَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٣ الى ٩٥]

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا- يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرَيْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)

طلبوا منه، ثم شكر الله على أن وفقه لهذا العمل، و أخبر القوم، أن هذا السد يبقى حتى يوم القيامة، إذ تسوى الأرض، فيكون السد دكا، كسائر الارتفاعات.

[٩٤] حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ أَيْ الْحَاجِزَيْنِ، وَ هُمَا جَبَلَانِ أَوْ السَّدَانِ اللَّذَانِ كَانَ بَيْنَهُمَا مَمْرٌ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا مِنْ وَرَائِهِمَا وَ بِالْقَرْبِ مِنْهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا لَا يَعْرِفُونَ كَلَامَ أَحَدٍ، لِأَنَّ لَهُمْ لُغَةً خَاصَّةً، فَغَرَابَةُ لُغَتِهِمْ، وَ قَلَّةُ فَطْنَتِهِمْ، أَوْرَثَتْ الصَّعُوبَةَ فِي الْفَتْهَامِ مَعَهُمْ.

[٩٥] قَالُوا قَالَ أَوْلَيْكَ الْقَوْمُ يَا ذَا الْقَرَيْنَيْنِ، إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّمَا قَالَ «مُفْسِدُونَ» لِأَنَّهِمَا قَبِيلَتَانِ، فَبَاعْتِبَارِ أَفْرَادِهِمَا جَاءَ بِالْفِعْلِ جَمْعًا، وَ الْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضَهُمْ، لَا كُلَّ الْأَرْضِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ يَا ذَا الْقَرَيْنَيْنِ خَرْجًا أَيْ بَعْضًا مِنْ أَمْوَالِنَا، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَرْجُ بِذَلِكَ لِخُرُوجِهِ مِنْ مَالِ الْإِنْسَانِ، كَمَا سُمِّيَ الدَّمْلُ خَرَجًا لِخُرُوجِهِ مِنَ الْبَدَنِ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ بَيْنَ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ سَدًّا حَائِظًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ لِيَسُدَّ الْمَمْرَ الَّذِي يَنْزِلَانِ مِنْهُ إِلَيْنَا وَ قَدْ كَانَ طَلِبُهُمْ فِي صُورَةِ الْاسْتِفْهَامِ مِنْ بَابِ

التأديب.

[٩٦] قَالَ ذُو الْقُرْنَيْنِ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ أَي مَا أَعْطَانِي اللَّهُ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٦ إلى ٩٧]

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)

المال و الممكنة خير من خرجكم، فلا أحتاج إلى أموالكم لتكون أجره لى فى بناء السد فأعِينُونى أيها القوم بِقُوَّةٍ من رجال، و أدوات
السد لأبنى لكم السد أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ أَيهَا الْقَوْمَ وَ بَيْنَهُمْ بَيْنَ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ رَدْمًا سدا قويا، و الردم أقوى من السد.

[٩٧] آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ أَي جِئُوا بِقِطْعِ الْحَدِيدِ، مَفْرَدَةً زَبْرَةً، وَ هِيَ الْجُمْلَةُ الْمَجْتَمِعَةُ، فامثلوا أوامره و جاءوا بِقِطْعِ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
سَاوَى الْحَدِيدَ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ أَي امْتَلَأَ الْمَرَمِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَ يُسَمَّى الْجَبَلَ صَدْفًا، لِأَنَّهُ يَصْدَفُ، وَ يَمْنَعُ عَمَّا وَرَاءَهُ، كَأَنَّهُ سَدٌ وَ حَاجِزٌ قَالَ
ذُو الْقُرْنَيْنِ لَهُمْ انْفُخُوا فِي النَّارِ بِالْمَنَافِخِ، مَوْجِهَا النِّفْخَ نَحْوَ الْحَدِيدِ الْمَتْرَاكِمِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، فَنفَخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا أَي جَعَلَ الْحَدِيدَ
الْمَتْرَاكِمَ كَالنَّارِ فِي وَهْجِهَا وَ لَهْيِهَا، وَ لَزِمَ بَعْضُ الزَّبْرِ بَعْضُهَا الْآخَرَ قَالَ ذُو الْقُرْنَيْنِ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا أَي جِئُوا بِالْقَطْرِ، وَ هُوَ
النَّحَاسُ الْمَذَابُ، حَتَّىٰ أُفْرِغَ عَلَى الْحَدِيدِ الَّذِي صَارَ كَالنَّارِ، حَتَّىٰ يَصِيرَ السَّدُ أَقْوَى، وَ يَأْخُذُ الْقَطْرُ بِالْفَرْجِ وَ الْخَلَايَا.

[٩٨] ففعلوا ما قال لهم ذو القرنين، و إذا بسد محكم، لا يتمكن أحد أن يخربه أو يحدث فيه خللا، و لما جاء موعد مجيء يأجوج و
مأجوج، و جاءوا لم يقدروا من المرور فَمَا اسْتَطَاعُوا أَصْلَهُ اسْتَطَاعَ حَذْفُ التَّاءِ تَخْفِيفًا، أَي لَمْ يَسْتَطِعْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ أَنْ يَظْهَرُوهُ أَي
يعلوه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٨ إلى ١٠٠]

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نَفِخَ فِي
الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)

و يصعدوه، يقال ظهر السطح أى علاه و مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا أَنْ يَنْقُبُوا السَّدَ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَ يَحْدِثُوا فِيهِ فَجْوَةً، وَ سَرَبًا وَ نَفَقًا، لِأَتَوْا إِلَى
أولئك، و بذلك استراح القوم من شرهم.

[٩٩] و لما أتم ذو القرنين السد لم يأخذه البطر و الكبير، كما هو عادة الملوك بل قَالَ متواضعا مذكرا أنه من فضل الله سبحانه عليه و
عليهم هذا السد رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي حَيْثُ أَمَكَّنِي مِنْ ذَلِكَ، وَ أَرَاكِمَ مِنْ شَرِّ الْمَفْسِدِينَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي بِقِيَامِ الْقِيَامَةِ جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ
دَكَّاءَ أَي مَدَكُوكًا مَتَسَاوِيًا مَعَ الْأَرْضِ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي بِإِتْيَانِ الْقِيَامَةِ حَقًّا لَا خَلْفَ فِيهِ.

[١٠٠] و حيث ينتهى السياق من قصة الملك العادل ذى القرنين، و كيف سار و كيف عمر و عدل، و بمناسبة «وعد ربي» يأتى السياق
ليبين أحوال القيامة وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ مَخْتَلِطِينَ كَحَالِ الْمِيَاهِ الْمَائِجَةِ بِاضْطِرَابٍ، وَ الضَّمِيرُ، إِمَّا يَعُودُ
إِلَى يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ، وَ إِمَّا يَعُودُ إِلَى النَّاسِ، الْمَفْهُومُ مِنَ الْكَلَامِ وَ نَفِخَ فِي الصُّورِ لِأَجْلِ إِحْيَاءِ الْبَشَرِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا أَي
جمعنا الخلائق كلهم فى صعيد واحد مجتمعين للحساب.

[١٠١] وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠١ إلى ١٠٣]

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ

إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣)

فأظهرناها لهم حتى شاهدوها، و رأوا ألوان عذابها.

[١٠٢] و من هم الكافرون؟ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي لَا يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَذْكَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، كالذى عينه لا ترى شيئاً، إن أولئك يرون اليوم العذاب المهياً لهم، جزاء أن أغمضوا أعينهم عن الحق و كانوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أى لا يتمكنون- من كفرهم و عنادهم- أن يسمعو إنذارى و مواعطى، و هكذا كما يقال فلان لا يستطيع النظر إليك، أى يتقل عليه ذلك، و من المعلوم، أن سمع الكفار يشترك مع بصرهم فى سماع أصوات العذاب، كما كان يشترك فى الإعراض عن ذكر الله.

[١٠٣] أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ زَعَمُوا وَ ظَنُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ لَدَى الْحَاجَةِ، كما هو شأن الولي؟ إن هذا الزعم باطل، فإن الأصنام، و الملائكة و المسيح و غيرهم، ممن اتخذهم الكفار آلهة و أولياء لا ينصرونهم، و لا يدفعون العذاب عنهم، فليس الزعم فى اتخاذ الآلهة، و إنما الزعم فى اتخاذ الآلهة أولياء للنصرة و الدفاع إِنَّا أَعْتَدْنَا وَ هِيئًا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا أى منزلاً مهياً لهم، يردونها بمجرد ورودهم، بلا حاجة إلى تعب منا فإن الأمر مهياً للنزلاء.

[١٠٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارِ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ مَوْمِنًا كَانَ أَم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥)

كافرا هل نُنَبِّئُكُمْ بخبركم بِالْأَخْسَرِينَ أى بأخسر الناس أعمالاً الذين تكون خسائرهم أكثر من خسائر غيرهم؟

[١٠٥] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى ما سعوا و عملوا فى هذه الحياة ضل و ضاع عنهم و هُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا يظنون أنهم يعملون حسناً، و الذين ضل، من تتمه الاستفهام، بدل من «الأخسرين».

[١٠٦] أُولَئِكَ وَ هَذَا جَوَابٌ عَنِ الاسْتِفْهَامِ، هُم الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ أى جحدوا آيات الله، فلم يستدلوا بها على الله سبحانه و صفاته، و سائر شؤونه، و جحدوا المعاد الذى فيه لقاء الله سبحانه، بمعنى لقاء جزائه و حسابه فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ بطلت و ضاعت أعمالهم الحسنة، إنهم كانوا مؤمنين، كانت أعمالهم مصنونة محفوظة، أما و قد كفروا، فقد حبطت أعمالهم فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا أى لا مرتبة لهم، و لا نغير لهم أهمية، و لا قيمة لهم عندنا، فإن الشيء الخفيف الذى لا يوزن، لا قيمة له، و لذا جعل عدم الوزن كفاية عن عدم القيمة، و إنما كان هؤلاء أخسرين أعمالاً، لأن هناك أعمالاً للدين يرى العامل جزاؤها فى الدنيا، و أعمالاً للآخرة يرى العامل جزاؤها فى الآخرة، أما أعمال هؤلاء فهى بزعمهم للآخرة، و لا يرون لها جزاء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٤

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٦ الى ١٠٩]

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُوءًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

أصلاً، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، و التفصيل غير مراد هنا- كغالب هذه المواضع من أشباهه- [١٠٧] ذَلِكَ كما ذكرنا جزاؤهم جَهَنَّمَ و لماذا؟ بما كَفَرُوا أى بسبب كفرهم و اتَّخَذُوا آيَاتِي الْكُونِيَّةِ وَ الشَّرْعِيَّةِ وَ رُسُلِي هُزُوءًا أى مهزوا به، فقد كانوا يستهزئون بالآيات الكونية، و القرآن و الرسول، فقد حبطت أعمالهم الصالحة، و جوزوا النار بكفرهم و استهزائهم.

[١٠٨] لقد كان ذلك حال الكافر، فما هو حال المؤمن؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا بِالْأَصُولِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ التى

تصلح للسعادة كانت لهم جنات الفردوس هي الجنة التي يجتمع فيها الملاذ، من أشجار و أنهار و أزهار و أطياف نزلًا منزلاً مهيبًا لهم.

[١٠٩] في حال كونهم خالدين فيها أبداً لا- يبعثون لا- يطلبون عنها عن تلك الجنات حولًا تحولاً إلى موضع آخر لطيبها و ملاذها.

[١١٠] ثم يأتي السياق ليندد بالكفار الذين ينكرون كل شيء استناداً إلى علمهم المحدود، و كأنهم يعلمون كل شيء، ألا فليعلم البشر أن علمه لا شيء، في مقابل مخلوقات الله التي لا حد لها، و يصور هذا الخلق الذي لا يتناهى في مثال «إن البحر لو كان مداداً، و كتب به كلمات الله بقيت الكلمات، و نفذ البحر» فكيف يمكن للإنسان أن ينكر الجنة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٥

[سورة الكهف (١٨): آية ١١٠]

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

أو النار، أو سائر ما يخبر به الأنبياء مما وراء الغيب، قل يا رسول الله لو كان البحر ليشمل جميع البحار متداداً لكتابه كلمات ربي ما أظهره و ألقاه من الموجودات، فإنها كلمات الله سبحانه، تشبها بالكلام الذي يلقيه الإنسان و يظهره في الخارج لتنفذ ماء البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي في الكتابة، فإنها تبقى غير مكتوبة كلها، و قد خلص و تم ماء البحر و لو جئنا بمثله أي بمثل البحر مددًا له و عوناً، فإن كلمات الله أكثر من أن تنفدها بحار العالم، و بحار آخر تمدها.

[١١١] و أخيراً يوجز القول حول التوحيد و الرسالة و المعاد، مما كان مرمى السورة من أولها إلى آخرها قل يا رسول الله إنما أنا بشرٌ مثلكم في الأكل و الشرب و الملامسة و غيرها من الشؤون البشرية، فلست ملكاً أو غيره، و إنما الفرق بيني و بينكم أنه يوحى إليّ فلو جهه ربط بالله سبحانه جعلني مستعداً لتلقى الوحي و خصني الله بذلك من بينكم، و أهم ما يوحى إليّ هو أنما إلهكم إله واحد لا شريك له و لا- شبيه فمن كان منكم يرجوا لقاء ربه أي يطمع في ثوابه و حسن جزائه فليعمل عملاً صالحاً يسعد به في الآخرة و لا يشرك بعبادة ربه أحداً فلا يجعل له شريكاً في العبادة، كما لا يجعل له

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٦

شريكاً في الألوهية، و الإسلام كله يتلخص في هذه الأمور الأربعة، التوحيد و شؤونه التي منها العدل و الرسالة، و شؤونها التي منها الإمامة، و المعاد... و ثم العمل الصالح، بلا شرك عبادي، فالعبادة له وحده، كما أن الألوهية له وحده، و قد ورد، أن من الشرك الرباء «١»

(١) ثواب الأعمال: ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٧

١٩ سورة مريم مكية / آياتها (٩٩)

سميت بهذا الاسم لاشتغالها على اسم مريم أم عيسى و قصتها، و هي مكية، و لذا تراها تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، و حيث ختمت سورة الكهف بذكر النبي صلى الله عليه و آله و سلم «إنما أنا بشرٌ مثلكم» افتتحت هذه السورة، بذكر بعض الأنبياء السابقين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين في بدء أمورنا باسم الإله الرحمن الرحيم، ليتفضل علينا بالرحمة في الدنيا و في الآخرة، فإن ذكر

صفه من صفات الكريم تدل - تلميحا - إلى تطلب الذاكر من تلك الصفه، إذ الإنسان لا يخصص صفه بالذكر، إلا وهو يريد للنيل منها، فإذا قال المجرم أيها الغافر، أراد الغفران، وإذا قال الفقير أيها الغني، أراد الثروه، وهكذا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كهيحص (١) ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)

[٢] كهيحص أى أن «كاف» «هاء» «ياء» «عين» «صاد» هى التى يركب منها هذا القرآن، فإن القرآن مركب من هذه الحروف و أمثالها، و هنا حذف الخبر، بخلاف مثل «الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ» و قد عرفت أن فى فواتح السور أقوالا و ما ذكرناه أحدها، و هناك قول آخر أنها رموز و لا تنافى بين القولين و لا بين سائر الأقوال،

و قد ورد أن «كاف» اسم كربلاء و «هـ» هلاك العتره و «ياء» يزيد و «عين» عطش الآل عليهم السلام و «صاد» صبرهم «١»، فهى كالموز اللاسلكيه التى تختار لمعرفة الطرفين دون سواهم لحكمه.

[٣] هذا الذى نريد بيانه ذكرو و خبر رَحْمَتِ رَبِّكَ ل عَبْدَهُ زَكَرِيَّا النبى عليه السلام و المراد برحمه الله له استجابته دعاء زكريا حين سأله الولد، فقد تفضل عليه سبحانه ييحى عليه السلام.

[٤] و قد كانت الرحمه إذ نادى حين دعا زكريا رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا دعاء فى خفيه لم يجهر به، و لعل سر الإخفاء، أن الناس لو علموا بأنه يطلب الولد سخروا منه؟، كيف يسأل الولد و هو شيخ فان؟، أم كيف بقى فى نفسه بقايا من طلب المملذات ..؟

[٥] قَالَ زَكَرِيَّا فِي دُعَائِهِ يَا رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي أَيْ ضَعْفَ عَظْمِي، و إسناد الضعف إلى العظم، أبلغ فى الدلاله على الضعف، إذ العظم الذى هو أصلب شىء فى الجسم، إذا ضعف ضعفت سائر

(١) بحار الأنوار: ج ٨٨ ص ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥ الى ٦]

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) الْأَشْيَاءَ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا فِإِنَّ الشَّيْبَ وَالْبَيَاضَ، إِذَا ظَهَرَ فِي الرَّأْسِ وَغَمَرَهَا، كَانَتِ الرَّأْسُ كَالْمَشْتَعَلِ فِي التَّلَاقُوتِ وَالْبَرِيقِ، وَهَذَا أَبْلَغُ، مِنْ «اشْتَعَلَ الشَّيْبَ فِي الرَّأْسِ» وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ بِدُعَائِكَ بِدُعَايِكَ فِيمَا مَضَى، يَا رَبِّ شَقِيًّا مَخِيًّا مَحْرُومًا، فَإِنَّكَ قَدْ عَوَدْتَنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، يَا رَبِّ شَقِيًّا مَخِيًّا مَحْرُومًا، فَإِنَّكَ قَدْ عَوَدْتَنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، وَ أَنَا فِي سِنِ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ، فَلَا بَدَّ أَنْكَ لَا تَحْرَمْنِي هَذَا الدُّعَاءَ وَ أَنَا فِي حَالِ الْمَشِيْبِ وَالضَّعْفِ.

[٦] و إذ ذكر عليه السلام حاله المستحق للترحم و رجائه الذى عوده باريه باستجابته دعائه بين ما يخشاه و ما يطلبه و إنى يا رب خفت الموالى جمع مولى، و هو الأولى بالتصرف فى الأموال بعد الإنسان بالإرث، مِنْ وَرَائِي أَيْ مِنْ خَلْفِي الَّذِينَ يَرْتُونَنِي، أَخْشَاهُمْ أَنْ لَا يَعْمَلُوا، بِمَا يَبْقَى لَهُمْ مِنِّي عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ وَ كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا أَيْ لَا تَلِدُ، فَلَيْسَ لِي مِنْهَا أَوْلَادٌ حَتَّى يَقُومُوا بِوَجِبِ تَرَاثِي مِنْ بَعْدِي مِنْ الصَّلَاحِ وَ الْإِصْلَاحِ فَهَبْ لِي يَا رَبِّ مِنْ لَدُنْكَ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَلِدًا يَلِي أُمُورِي مِنْ بَعْدِي، وَ يَكُونُ هُوَ الْأَوْلَى بِمِيرَاثِي.

[٧] يَرِثُنِي ذَلِكَ الْوَلِيُّ وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ لَعَلَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أُمِّ الْوَلَدِ، أَيْ زَوْجَةِ زَكَرِيَّا، فَقَدْ كَانَتْ خَالَةً «مَرِيْمَ» مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ بْنِ

إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَ لَذَا كَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ نَسْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧ إلى ٨]

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)

إبراهيم، وقال «آل يعقوب» لاحترامهم بكون الأنبياء فيهم و اجعله أى اجعل ذلك الولد يا رب رَضِيًّا مرضيا عندك، ممثلاً لأمرك، فلا يكن فاسداً، لا يصلح لإرثي، و الرضى صفة لنفس الولد، لكنها تلازم كونه مرضيا.

[٨] و قد استجاب الله دعاءه فناده يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ وَلَدِ اسْمُهُ يَحْيَى و لعله سماه سبحانه بهذا الاسم، كناية عن أنه يحيى حياةً صالحةً لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا فلم يسمى أحد ولده بهذا الاسم، و إنما ابتكر هذا الاسم لولدك تكريماً لك، فإن لكل جديد لذة و لكل تخصيص كرامة.

[٩] و لقد فوجئ زكريا بهذه الاستجابة المسررة، كيف يكون له ولد، و هو شيخ، و امرأته عاقرة لم تلد فى شبابها، فكيف و أنها شاخت و هرمت؟

و لذا أراد السؤال عن الكيفية قال زكريا يا رب أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ أى كيف يكون لى غلام، و لعل سؤاله كان حول رجوعه شاباً، أو عن امرأة جديدة، أو بهذه الحالة عن هذه المرأة العاقرة؟ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا لا تلد وَقَدْ بَلَغْتُ أَنَا مِنَ الْكِبَرِ فى العمر عِتِيًّا العتى هو الذى بلغ به طول العمر إلى حالة اليبس و الجفاف، كأنه ليس فيه مادة صالحة لنشأة الولد؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩ إلى ١١]

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

[١٠] قال سبحانه فى جوابه كَذَلِكَ أى بهذه الحالة نعطيكما الولد قال رَبُّكَ هُوَ أى إعطاء الولد فى هذه الحال- حال كبرك، و كون زوجك عاقراً- عَلَيَّ هَيِّنٌ أى سهل يسير، و القائل هو الله سبحانه، و قد جرت العادة أن يذكر الشخص اسمه، فيقول محمد لأولاده مثلاً:

يقول لكم محمد، أن لا تجالسوا الأشرار، يريد نفسه وَقَدْ خَلَقْتُكَ يا زكريا مِنْ قَبْلُ أى سابقاً وَلَمْ تَكُ شَيْئًا أصلاً فإعطاء الولد من كبيرين أهون من خلق الإنسان من العدم، فإن من قدر على ذلك الأصعب- فى نظرك- يقدر على هذا الأسهل.

[١١] قال زكريا عليه السلام يا رب اجْعَلْ لِي آيَةً أى علامة دالة على وقت صيرورة الولد الذى بشرتنى به قال الله تعالى آيَتُكَ علامتك التى تدلك على وقت صيرورة الولد أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ أى لا- تتمكن من الكلام مع الناس ثلاث ليالٍ و فى سورة آل عمران ثلاثة أيام، و من ذلك يظهر أن عدم تمكنه عليه السلام من التكلم مع الناس، كان ثلاثة أيام بلياليها سَوِيًّا فى حال كونك سوى الخلق ليس بك خرس أو آفه، فإذا أردت التسييح و الذكر تمكنت من ذلك، و إذا أردت التكلم مع الناس، لم تتمكن، و قد كان هذا يناسب حال زكريا المقتضى للانقطاع إلى الله سبحانه يذكره، و يشكره، على أن أنعم عليه بهذه النعمة.

[١٢] و كأن زكريا عليه السلام كانت له غرفة خاصة فى بيت المقدس، و كان قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٢ إلى ١٣]

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيًّا (١٣)

بشر العباد بما بشر به، و ذكر لهم العلامة، فلما اعتقل لسانه، أراد أن يفهمهم الأمر ليشاركوا معه فى الذكر و التسييح، فإن الإنسان

يذكر الله عند ما يرى من العجائب فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ غَرَفَتِهِ الْمَسْمَاءُ بِ الْمِحْرَابِ و يسمى محل الصلاة محراباً، لأنه محل محاربة الإنسان مع الشيطان، يريد الشيطان أن يصدّه عن الصلاة، و هو يحاربه حتى يصلّى فَأَوْحَى أَى أشار زكريا عليه السّلام إِلَيْهِمْ بدون أن يتكلم، لأنه لم يكن يقدر على الكلام مع الناس أن سَبَّحُوا الله سبحانه بِكُرَّةٍ أَى صباحاً وَ عَشِيًّا أَى مساءً.

[١٣] فولد يحيى و كبر حتى صار صبياً، و إذا به يسمع النداء من قبل الله سبحانه يا يحيى خُذِ الْكِتَابَ أَى التوراة بِقُوَّةٍ بأن تعمل بها بكل استقامة، و المراد بالقوة، القوة النفسية، التى لا يقف دونها شىء لمن عزم و صمم وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ النبوة، لأنها توجب أن يحكم الشخص بين الناس، فيأمرهم، و ينهاهم، و يفصل قضاياهم صَبِيًّا فى حال كونه صبياً، فإن الله كما قدر على أن يمنحه لوالديه بعد الهرم، قدر على أن يتفضل عليه بمؤهلات النبوة.

[١٤] وَ آتَيْنَاهُ حَنَانًا و عطفًا و شفقةً على الناس، كما هو من لوازم النبوة، حتى يتمكن من إرشاد الناس، فإن أول مؤهلات المرشد، أن يكون ذا حنان و عطف مِنْ لَدُنَّا أَى من عندنا، و الإضافة إليه سبحانه- و إن كان كل حنان من عنده- للتشريف وَ آتَيْنَاهُ زَكَاةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

أى طهارة و عفة و نموًا وَ كَانَ تَقِيًّا يتقى المحارم و الآثام.

[١٥] وَ آتَيْنَاهُ بَرًّا و إحساناً بِوَالِدَيْهِ فكان باراً بهما محسناً إليهما وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا أَى متكبراً متطاولاً على الناس يجبرهم على حسب شهواته، و هذه الصفة «الجبار» ليست حسنة، إلا من الله سبحانه، و معناها فيه، إنه يأمر الخلق و ينهاهم حسب المصلحة، و هو القاهر فوقهم يميتهم و يحييهم حسب الحكمة، كما تطلق عليه سبحانه بمعنى جبر الكسر، و من هذا قال العباس بن على عليه السّلام، لما قطعوا يساره:

يا نفس لا تخشى من الكفارو أبشرى برحمة الجبار «١»

جبر الكسر، مع قطع اليد و كسرها عَصِيًّا أَى عاصياً لربه، فإن فعيل قد يأتي للفاعل، و قد يأتي للمفعول نحو جريح بمعنى المجروح.

[١٦] وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ أَى على يحيى، و المراد بالسّلام السلامة، فى هذه الأيام الثلاثة، التى نقرر كل يوم منها مصيراً طويلاً يَوْمَ وُلِدَ فإن يوم الولادة يقرر مصير الحياة، فإذا ولد الإنسان سالماً من العيوب، كان سالماً ما دام العمر،- إلا أن يحدث حدث عليه- و إن ولد معيوباً كأن كان أعمى أو أعرج أو ما أشبهه، تكبد طول حياته ذلك وَ يَوْمَ يَمُوتُ فإن الإنسان إذا سلم هذا اليوم من عذاب الله سبحانه، كان سالماً فى

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكها مكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا

(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨)

البرزخ الطويل الأمد وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا أَى يحيى للحساب و الجزاء، فإذا سلم فى ذلك اليوم، كان سالماً من العذاب و الشقاء أبد الدهر، و هذا هو معنى السّلام على الميت، يعنى لتكن سالماً من العذاب هناك فى قبرك و آخرتك.

[١٧] وَ اذْكُرْ يا رسول الله فى الْكِتَابِ أَى القرآن مَرْيَمَ أَى قصة مريم الطاهرة، و ولادتها لعيسى عليه السّلام من غير أب إِذِ حِينِ اتَّيَدَّتْ

النبذ أصله الطرح، و الابتاذ منه، إلا أنه يستعمل بمعنى التئحى يقال: اتئبذ فلان ناحية أى تنحى ناحية، كأنه طرح فيها، و المراد أن

مريم انفردت و تحت من أهلها أبويها، و سائر قرباتها مكاناً شَرْقِيًّا طرف مشرق الأهل، بحيث كان أهلها في طرف الغرب، و هي في وجهه شرقهم، و لعلها أرادت الاغتسال، و لذا اختارت هذا الطرف، حتى لا تتأذى بالبرد، بل تشرق الشمس عليها- و هذا هو المستفاد من كلام بعض المفسرين-.

[١٨] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ دُونَ الْأَهْلِ حِجَابًا سَتْرًا ضَرْبَهُ لِيَحْجِبَهَا عَنْ أَهْلِهَا، وَ هَذَا يُؤَيِّدُ الْإِحْتِمَالَ السَّابِقَ فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا أَيْ رُوحًا مِنْ طَرَفِنَا- وَ الْإِضَافَةُ لِلتَّشْرِيفِ- وَ كَانَ ذَلِكَ الرُّوحُ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ كَانَ اسْتِحَاشَ مَرْيَمَ شَدِيدًا حِينَ رَأَتْ الرُّوحَ فَتَمَثَّلَ الرُّوحُ لَهَا لِمَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَرًا سَوِيًّا أَيْ شَابًا مَكْتَمَلًا غَيْرَ نَاقِصِ الْخَلْقِ.

[١٩] وَ اضْطَرَبَتْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ لِهَذَا الْحَادِثِ الْمُدْهَشِ، فَاسْتَعَاذَتْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٩ الى ٢١]

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْثًا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

الرجل، لأنها لم تعرفه، و قد جرت العادة، أن مثل هذا الرجل يقصد السوء قالت مريم عليها السلام إني أعوذ بالرحمن منك أيها الرجل إن كنت تقياً فإن التقى إذا خوف خاف بخلاف الشقى الذى لا يعوى، و لو بألف تخويف و إنذار، كما تقول إن كنت مؤمناً لا تفعل كذا.

[٢٠] قَالَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهَا يَعْرِفُهَا بِنَفْسِهِ، لَسْتُ أَنَا إِنْسَانًا تَخَافِينَ مِنْهُ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ مَرْسَلٌ مِنْ طَرَفِهِ إِلَيْكَ يَا مَرْيَمَ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا وَ لِدَا طَاهِرًا طَيِّبًا.

[٢١] فَازْدَادَ تَحِيرَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَسَأَلَتْ قَالَتْ أَنَّى كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لِدَا وَ الْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَمَسِّنِي عَلَى وَجْهِ الزَّوْجِيَّةِ بَشَرٌ وَ هَلِ الْغُلَامُ، إِلَّا مِنَ الزَّوْجِينَ بَعْدَ الْمَلَاسَةِ وَ لَمْ أَكُ بَعْثًا أَيْ زَانِيَةً، فَإِنَّ الْوَلَدَ فِي الْعَادَةِ يَكُونُ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ، وَ لَمْ يَكُ أَحَدَهُمَا.

[٢٢] قَالَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ سُؤْلِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَذَلِكَ أَيْ كَذَا الَّذِي ذَكَرْتَ لَكَ فِ «الْكَافِ» حَرْفٍ جَرٍّ لِلتَّشْبِيهِ وَ «ذَا» لِلإِشَارَةِ وَ «لَكَ» لِلخُطَابِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ أَيْ إِعْطَاءَ الْوَلَدِ مِنْ غَيْرِ أَبِي عَلَيَّ هَيِّنٌ سَهْلٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْكَلْفَةِ وَ لِنَجْعَلَهُ نَجْعَلُ هَذَا الْوَلَدَ آيَةً لِلنَّاسِ حِجَّةً مِنْ عِنْدِنَا عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ حِجَّةً لِلَّهِ عَلَى الْبَشَرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) وَ رَحْمَةً مِنَّا عَلَى الْبَشَرِ نَرْحَمُهُمْ بِهِ وَ نَهْدِيهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ بِسَبَبِهِ وَ كَانَ إِعْطَاؤُكَ الْوَلَدَ أَمْرًا مَقْضِيًّا أَيْ كَانْنَا مَفْرُوعًا مِنْهُ مَحْتَمًا، فَلَا يَنْفَعُ التَّكَلُّمَ لِدَفْعِ هَذَا الْقَضَاءِ.

[٢٣] فَانْفَخَ جِبْرَائِيلُ فِي جَيْبِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَاكْتَمَلَ عَيْسَى فِي بَطْنِهَا فِي السَّاعَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَحَمَلَتْهُ أَيْ حَمَلَتْ مَرْيَمَ بَعِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ تَحْتِ مَرْيَمَ بِالْوَلَدِ- أَيْ مَعَهُ- مَكَانًا قَصِيًّا أَيْ مَحَلًّا بَعِيدًا عَنْ أَهْلِهَا، لِنَلَّا يَرُوهَا عَلَى حَالَةِ الْحَمْلِ، وَ لَقَدْ كَانَتْ مَدَّةَ حَمْلِهَا تِسْعَ سَاعَاتٍ، وَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى كَرْبَلَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ هُوَ الْمَرَادُ بِالْمَكَانِ الْقَصِي «١» [٢٤] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ أَيْ أَلْجَأَهَا الْوَلَدَ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ لِتَسْتَنْدَ إِلَيْهَا، وَ الْجِذْعُ سَاقُ النَّخْلَةِ، وَ حَيْثُ فَكَّرَتْ فِي حَالِهَا أَخَذَتْ الدَّهْشَةَ مِنْهَا كُلَّ مَأْخُذٍ، وَ لَذَا قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْحَادِثِ قَالَتْ ذَلِكَ حَيَاءٌ وَ خَجَلًا وَ تَحِيرًا، وَ «مَت» بِكَسْرِ الْمِيمِ مِنْ «مَاتَ يَمِيتُ» عَلَى وَزْنِ «تَعَبَ» وَ مِنْ أَخْذِهِ مِنْ «مَاتَ يَمُوتُ» اِحْتِجَاجًا إِلَى التَّكَلُّفِ وَ كُنْتُ نَسِيًّا أَيْ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْسَى مَنْسِيًّا ذَكَرَى عِنْدَ النَّاسِ لَا يَذْكُرُنِي أَحَدٌ، وَ هُنَاكَ جَاءَتْ بَعِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لِيدَا كَامِلًا جَمِيلًا.

(١) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٤ الى ٢٦]

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَىٰ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

[٢٥] فَنَادَاهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ جِبْرَائِيلَ، مِنْ تَحْتِهَا أَى أَسْفَلَ مِنْهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى أَكْمَةٍ، وَ لَعَلَّ هَذَا يَرْجَحُ كَوْنَ الْمُرَادِ بِالْمُنَادَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا اخْتَارَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ - أَلَّا تَحْزَنِي مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَ الْحَزَنُ هُوَ الْغَمُّ الْكَامِنُ فِي النَّفْسِ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ يَا مَرْيَمُ تَحْتَكِ أَى الْأَسْفَلَ مِنْكَ سَرِيًّا أَى جَدُولًا سَارِيًّا،

وَ قَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ، فَسَارَ الْمَاءُ «١»

[٢٦] وَهَزَىٰ يَا مَرْيَمُ إِلَيْكِ أَى اجْذَبِي نَحْوَ نَفْسِكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ لِيَقَعَ فِيهَا الْهَزُّ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَدِيدًا جَنِيًّا طَرِيًّا، قَدْ جَنَى السَّاعَةَ، وَ الْحَلُوُ خُصُوصًا الرُّطْبُ مِنْ أَفْضَلِ مَا تَتَغَذَى بِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي وُلِدَتْ.

[٢٧] فَكُلِي مِنَ الرُّطْبِ وَ اشْرَبِي مِنَ مَاءِ الْجَدُولِ وَ قَرِّي عَيْنًا طَبِيبِي نَفْسًا بِهَذَا الْوَلَدِ، وَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَذْهُولَ تَطْيِيرُ عَيْنِهِ هُنَا وَ هُنَاكَ، أَمَا مَطْمَئِنِ النَّفْسُ فَإِنَّهُ تَقَرُّ وَ تَسْتَقِرُّ عَيْنُهُ، حَسَبَ الْمَوَازِينِ الْعَقْلَانِيَّةِ فَمَا أَصْلَهَا «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ وَ «مَا» الزَّائِدَةُ لِلتَّجْمِيلِ، ثُمَّ أَدْغَمْتَ النُّونَ فِي الْمِيمِ تَرِينَ مَضَارِعَ، مِنْ رَأَى مُؤَكَّدًا بِالنُّونِ الثَّقِيلَةِ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَسَأَلَكَ عَنِ الْوَلَدِ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهِ، وَ أَنْتِ غَيْرُ مَتْرُوجَةٍ؟ فَقُولِي الظَّاهِرَ، أَنَّ الْمُرَادَ الْإِشَارَةَ بِهَذَا الْمَعْنَى، لَا لَفْظَ الْقَوْلِ، فَإِنَّ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا (٢٨)

القول يستعمل للعمل و الإشارة، كما يستعمل اللفظ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا وَ قَدْ كَانَ الصُّومُ بِمَعْنَى الْكُفِّ عَنِ الْكَلَامِ، كَمَا كَانَ كُفًّا عَنِ الطَّعَامِ، وَ أَمْرُهُ سَبْحَانَهُ ب «قُولِي» يَفِيدُ لَزُومَ أَنَّ تَنْذَرَ هَذَا الصُّومِ، وَ لِذَا نَذَرْتَ ذَلِكَ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا مَنْسُوبًا إِلَى الْإِنْسِ، لِإِفَادَةِ الْوَحْدَةِ، وَ لَعَلَّ ذَلِكَ، لِأَجْلِ أَنَّ لَا تَقَعُ فِي الْمَجَادَلَةِ مَعَ النَّاسِ، وَ الْاِكْتِفَاءُ بِكَلَامِ عِيسَى الرُّضِيعِ.

[٢٨] وَ هُنَا وَ قَدْ رَأَتْ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ، الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَ هَا هِيَ وَ لِيَدِهَا الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ، مَعَهَا حِجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى بَرَاءَتِهَا فَأَتَتْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِهِ أَى بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهَا أَى إِلَى قَوْمِهَا تَحْمِلُهُ عَلَى يَدَيْهَا، وَ لَمَّا رَأَتْهَا الْقَوْمَ، اسْتَنْكَرُوا طِفْلَهَا فِ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا أَى أَمْرًا عَظِيمًا عَجِيبًا، مِنْ فَرَى بِمَعْنَى قَطَعَ، كَأَنَّ مِنْ يَأْتِي بِشَيْءٍ عَجِيبٍ، قَدْ قَطَعَ مَدْهَشًا، لَا يَلَائِمُ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ، وَ مِنْهُ الْاِفْتِرَاءُ.

[٢٩] يَا أُخْتَ هَارُونَ

روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنَّ هَارُونَ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَنْسَبُ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ عَرَفَ بِالصَّلَاحِ

«١»، وَ عَلَى هَذَا كَانَ الْمَعْنَى يَا شَبِيهَةَ هَارُونَ فِي الصَّلَاحِ، كَيْفَ أَتَيْتَ بِهَذَا الْوَلَدِ، مِنْ غَيْرِ زَوْاجٍ وَ لَا نِكَاحٍ مَا كَانَ أَبُوكِ عِمْرَانَ امْرَأًا سَوْءًا يَعْمَلُ الْقَبِيحَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٩ الى ٣١]

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)

وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَعِيًّا أَى زَانِيَةً، فَأَنْتَ مِنْ أَوْبَيْنِ صَالِحِينَ، فَكَيْفَ جِئْتَ بِهَذَا الْوَلَدِ مِنْ غَيْرِ أَبِي؟

[٣٠] فلم تجب مريم عليها السلام لكلامهم وإنما فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَى إِلَى عيسى عليه السلام، وأومات بأن كلموه، وأسألوا منه ما شئتم، فتعجبوا من إشارتها، وقالوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا وقولهم فى المهد، يراد الشأنية، لا الفعلية، و هل طفل شأنه أن يوضع فى المهد يتكلم؟

[٣١] وهنا أنطق الله عيسى ليدافع عن أمه، ويرى ساحتها، ويقطع الجدل ف قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَ قَدْ كَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ هَذَا، ليفند مزاعم الذين يأتون ويقولون إنه الله آتَانِيَ الْكِتَابِ أَى أعطانى الإنجيل وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ظاهر اللفظ أنه قد أوتى الكتاب والنبوة، وهو فى ذلك السن، وهذا غير غريب، فقد وردت أحاديث، إن الأنبياء، كانوا أنوارا، قبل أن يأتوا إلى هذه الدنيا.

[٣٢] وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا ذَا بَرَكَهٍ وَ خَيْرَ أَيْنَ مَا كُنْتُ فليس كالثرى، أو ذى الجاه الذى لا-خير له، إذا لم يكن عند ثروته، وفى محل منصبه، بل يعلم الخير و يشفى المرضى، أينما كان وَأَوْصَانِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِأَنَّ أَصْلَى وَ أَنْفَقَ مَا دُمْتُ حَيًّا مَا بَقِيَتْ مَكْلَفًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)

[٣٣] وَ جعلنى برًّا أَى بارا بِوَالِدَتِي مريم الطاهرة وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا متجبرا طاغيا شَقِيًّا من الأشقياء، فإنى بلطفه و كرمه كنت هكذا، و ليس معنى ذلك أن الله يجعل الجبارة الأشقياء كذلك، بل إن الله سبحانه يتركهم، إذا رأى منهم الانحراف، حتى يضلهم الشيطان، و تردبهم النفس الأمارة بالسوء.

[٣٤] وَ السَّلَامُ أَى السَّلَامَةُ من العاهات الجسمية و الروحية عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ، وَ يَوْمَ أَمُوتُ بعد ما ما أنزل من السماء وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا فى القيامة، و قد مر وجه ذلك فى قصة يحيى عليه السلام.

[٣٥] و إذ أتم السياق قصة عيسى عليه السلام، فيما هو محل الحاجة، عطف على النصارى الذين يقولون إنه الله، أو ابن الله أو شريك الله، و اليهود الذين يقولون فيه السوء، فقال سبحانه ذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ أَحْوَالَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي جَاءَ إِلَى الدُّنْيَا، وَ كَانَ صَاحِبَ شَرِيْعَةٍ، ثم رفع إلى السماء قَوْلَ الْحَقِّ أَى أقول قول الحق، أو خذته قول الحق الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ أَى يشككون، فزعمت اليهود أنه لغير رشده، و كان ساحرا كذابا، و زعمت النصارى أنه ابن الله، و أمه ثالث الأقانيم، فإن كلا القولين باطل، لا يدل عليهما دليل، بل العقل دل على خلاف هذين القولين الزائفين، و قوله «يمترون» من المريئة، و هو الشك و إنما سمي شكاً مع أنهم بحسب الظاهر يوقنون بذلك، لأن ما خالف الواقع كان بالشك أشبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

(٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)

[٣٦] ما كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ فَإِنْ اتَّخَذَ الْوَلَدَ حَقِيقَةً مُحَالًا، وَ الْوَلَدَ تَشْرِيفًا، بَأَنْ يَتَّبِنِي، خِلَافَ شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ، وَ «مَنْ» لِإِفَادَةِ النَّفْيِ مُطْلَقًا، وَاحِدًا كَانَ الْوَلَدُ أَمْ مُتَعَدِدًا سُبْحَانَهُ أَى أَنْزَهَهُ عَنِ اتَّخَاذِ الْوَلَدِ تَنْزِيهًا، وَ لَيْسَ أَمْرٌ عَجِيبٌ وَوَلَادَةٌ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا وَ أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ لِلشَّيْءِ الَّذِي أَرَادَهُ كُنْ إِمَّا لَفْظًا، أَوْ ذَلِكَ حِكَايَةً عَنِ إِرَادَتِهِ تَعَالَى فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءَ.

[٣٧] ثُمَّ أتمَّ الْكَلَامَ سَبْحَانَهُ حَوْلَ قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ وَ أَوْصَانِي إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَلَسْتُ أَنَا إِلَهًا، وَ هَلْ يَبْقَى بَعْدَ شَهَادَةِ عِيسَى كَلَامٌ؟ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا عَوْجَ فِيهِ، وَ لَا انْحِرَافَ، وَ مِنْ الظَّرِيفِ أَنْ كِتَابَ «العهدين» مُشْتَمِلٌ عَلَى تَصْرِيحِ عِيسَى، بَأَنَّ اللَّهَ رَبَّهُ، بَلْ لَقَدْ زَادَ النَّصَارَى، أَنْ لِمَرْيَمَ أُمِّ عِيسَى زَوْجًا يُسَمَّى «يُوسُفَ» وَ مَعَ ذَلِكَ، قَالُوا بِأَنَّهُ اللَّهُ، أَوْ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ. [٣٨] وَ مَعَ هَذِهِ الْحُجَجِ عَقْلِيَّهَا، وَ شَرْعِيَّهَا، لَمْ يَقْنَعِ النَّصَارَى فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمُ الْأَحْزَابُ جَمْعُ حِزْبٍ، وَ هُوَ الْفِئَةُ مِنَ النَّاسِ، ذَاتِ لَوْنٍ وَاحِدٍ فِي الْعَقِيدَةِ، أَوْ الْعَمَلِ، أَى مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ مِنْهُمْ، هُوَ اللَّهُ، وَ قَالَتِ النَّسَطُورِيَّةُ مِنْهُمْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَ قَالَتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ مِنْهُمْ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٌ فَوَيْلٌ أَى شِدَّةُ الْعَذَابِ، فَإِنْ وَبِلَ كَلِمَةُ وَعِيدِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَ اتَّخَذُوا عِيسَى رَبًّا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٨ إلى ٤٠]

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا يُرْجَعُونَ (٤٠)

أَوْ شَرِيكًا، أَوْ ابْنًا لَهُ مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَى مِنْ مُحَضَّرٍ، أَوْ هُوَ مُصَدَّرٌ مِيمِي، أَى مِنْ حُضُورِهِمْ فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ يَفْضَحُونَ وَ يَعْاقِبُونَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

[٣٩] إِنْ الْكَافِرِينَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ السَّمْعُ وَ الْبَصَرُ، يَكُونُونَ أَقْوَى النَّاسِ سَمَاعًا وَ إِبْصَارًا، أَمَا فِي الدُّنْيَا، وَ حَيْثُ أَنْ السَّمْعُ وَ الْبَصَرُ وَسِيلَةُ الْهَدَايَةِ وَ السَّعَادَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، وَ لَا يَبْصُرُونَ أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ بِهِمْ، أَى مَا أَسْمَعُهُمْ وَ أَبْصَرُهُمْ، وَ ذَلِكَ صِغَةُ التَّعْجَبِ عَلَى مَعْنَى مَا أَسْمَعُهُمْ وَ أَبْصَرُهُمْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا أَى فِي الْقِيَامَةِ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ لَا يَسْمَعُونَ الْهَدَى، وَ لَا يَبْصُرُونَ الطَّرِيقَ.

[٤٠] وَ أَنْذِرْهُمْ أَى أَنْذِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ، يَوْمَ الْحَسْرَةِ يَوْمَ يَتَحَسَّرُ الْإِنْسَانُ، وَ يَنْدَمُ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهُ مِنَ السَّعَادَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ حِينَ فَرَّغَ مِنَ الْأُمُورِ، وَ انْقَطَعَتِ الْأَمَالُ، فَالْمُؤْمِنُ يَتَحَسَّرُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ أَكْثَرَ؟ وَ الْكَافِرُ وَ الْعَاصِي يَتَحَسَّرَانِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكْفُرْ وَ عَصَى، حَتَّى يَلْقَى الْعَذَابَ وَ الْهَوَانَ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ الْآنَ فِي الدُّنْيَا عَنِ ذَلِكَ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى لَا يَتَحَسَّرُوا هُنَاكَ حَسْرَةَ الْكَافِرِ عَلَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ.

[٤١] إِنَّهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ الْيَوْمَ حِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

وَ أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا فَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مَا لَيْسَ مَلِكًا لِلْإِنْسَانِ، وَ كُلُّ مَا فِيهَا مِمَّا هُوَ مَلِكٌ لِلْبَشَرِ، يَبْقَى هُنَا بَدُونِ مَالِكٍ، وَ لَفْظَةُ «نَحْنُ» لِلتَّكْثِيرِ، كَمَا إِنْ إِرْثَ الْأَرْضِ كِنَايَةً عَنِ عَدَمِ وَجُودِ إِنْسَانٍ فِيهَا، حَتَّى تَكُونَ الْأَرْضُ مُحْتَمَلَةً لِحَايَازَتِهِ وَ إِنَّا يُرْجَعُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ لَا يَمْلِكُ الْأَمْرُ وَ النَّهْيُ غَيْرِنَا، فَجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا.

[٤٢] وَ أذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ أَى فِي الْقُرْآنِ إِبْرَاهِيمَ وَ لَيْسَ الذِّكْرُ إِنْشَاءَ الْإِنْسَانِ الْكَلَامِ، حَتَّى يَقَالَ إِنْ اللَّهُ هُوَ الذَّاكِرُ لَا

الرسول، بل الذكر هو أن يذكر شيئاً سواء كان منشأ له أم ناقلاً، وقد جاءت قصة إبراهيم لتفنيد مزاعم العرب الذين عبدوا الشركاء، و تذكيرهم، بأن إبراهيم جدّهم هو الذى حارب الشرك، كما جاءت قصة عيسى عليه السلام من قبل لتفنيد مزاعم النصارى، حيث يجعلون لله ولداً، و بيان أن عيسى المسيح عليه السلام لم يكن ابناً لله، و إنما كان عبداً رسولاً إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً كَثِيرَ التَّصَدِيقِ لَهِ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ أَوْ كَثِيرَ الصَّدَقِ نَبِيًّا مَرْسَلًا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، و هو من النبوة بمعنى الرفعة، أو من النبأ بمعنى الخبر، لأن النبى رفيع الشأن مخبر عن الله سبحانه.

[٤٣] اذكره إذ قال حين قوله لِأَبِيهِ أَى لعمه آزر، فإن العادة أن يسمى العم أبا، كما تسمى الخالة أما يا أبت أي يا أبى و التاء عوض عن الياء، كما قال ابن مالك:

و فى النداء أبت، أمت عرض و اكسر أو افتح و من اليا التاء عوض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

لَمْ تَعْبُدْ أَى لِمَاذَا تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ أَى الصنم الذى لا يسمع الكلام و لَا يُبْصِرُ شَيْئًا و لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا أَى لَا يَكْفِيكَ حَاجَةٌ مِنْ حَوَائِجِكَ يُقَالُ أَغْنَى عَنْهُ، إِذَا جَلَبَ إِلَيْهِ نَفْعًا، أَوْ دَفَعَهُ عَنْهُ ضَرَرًا؟

[٤٤] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، و بالأمر الكونية ما لَمْ يَأْتِكَ فليست أنت تعلم حول المبدأ، و المعاد و الكون ما أعلمه أنا فَاتَّبِعْنِي فَمَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا أَى مُسْتَقِيمًا لَا عِوَجَ فِيهِ و لَا انْحِرَافَ و هو صراط الحقيقة فى باب المبدأ، و سائر الشؤون لا الضلال، كما عليه عبدة الأصنام.

[٤٥] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ لَا تَطْعُهُ، فَإِنْ مِنْ يَطْعُهُ أَحَدًا يَكُونُ كَالْعَابِدِ لَهُ، إِذَا الْعَابِدُ يَطْعُ الْمَعْبُودَ، فَهُوَ مُجَازٌ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ، و مثله اتخذوا أعبادهم و رهبانهم أرباباً من دون الله إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا أَى عاصياً، فكيف تطيع من يعصى إلهك و خالقك؟ و من المحتمل أن يكون آزر معترفاً بالاله، و إنما يعبد الأصنام تقرباً إليه، و لذا نفّر إبراهيم عن عبادة الشيطان بأنه عاص لله.

[٤٦] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ أَى يلامسك عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِى هُوَ مَصْدَرُ الرَّحْمَةِ و التفضل، يعذبك، بما تخالفه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)

و تطيع الشيطان، و تعبد الأصنام فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا بَأَن يَكُلِّكَ اللَّهُ إِلَى الشَّيْطَانِ، حَتَّى تَكُونَ وَلِيًّا وَ تَابِعًا لَهُ، لَا وَلِيًّا لِلَّهِ وَ تَابِعًا لِإِيَّاهُ، و الشيطان لا يغنى عن وليه شيئاً، فتحسر الدنيا و الآخرة.

[٤٧] قَالَ آزر، مجيباً لإبراهيم فى دعوته أَرَاغِبٌ أَى هَلْ تَنْفِرُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي معروض عنها يا إبراهيم فإن رغب، إذا عدى ب «عن» كان بمعنى النفرة، و إذا عدى ب «فى» كان بمعنى الطلب، و الاستفهام إنكارى لئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ دَعْوَتِكَ، و إعراضك عن الأصنام لَأَرْجُمَنَّكَ بالحجارة، فابتعد عنى وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا أَى فارقنى و تنح عنى دهراً طويلاً فَإِنَّ الْمَلِيَّ بِمَعْنَى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ، مِنْ مَلَوْ، يُقَالُ كُنْتُ عَنْدَهُ مَلَوْاً أَى زَمَانًا طَوِيلًا.

[٤٨] قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ آزَرَ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَى كُنْ سَالِمًا، و هذه كلمة يقولها الإنسان الحليم عند ملاقة الجاهل، كما قال سبحانه (وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) «١» و ذلك من باب ترقيق الجو، و لتلطيف نفس الجاهل العاتية، حتى لا تزيد

الدعوة والكلام بغضا و عنادا فوق ما كان سَأْسِدِ تَغْفِرُ لَكَ رَبِّي أَي أَطْلَبُ مِنْهُ الْغَفْرَانَ لَكَ، وَ ذَلِكَ بِأَنْ يَهْدِيكَ حَتَّى تَسْتَحِقَّ الْغَفْرَانَ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَانَ بِي حَفِيًّا لَطِيفًا بَارًا، فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ اسْتِغْفَارِي وَ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ.

(١) الفرقان: ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَ اعْتَرَلْكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَ هَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

[٤٩] وَ اعْتَرَلْكُمْ أَتَحَىٰ عَنْكُمْ - أنت و القوم - و قد سبق أن دعا إبراهيم القوم، فلم ينفع فيهم الدعاء، و لذا قرر أن يعتزلهم إلى مكان آخر يدعو فيه، لعلهم يجيبون الدعوة، فقد طاف إبراهيم عليه السلام - لتركيز دعوة التوحيد - العراق و الشام و مصر و الحجاز و اعتزل ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَي أَتَحَىٰ عَنْ أَصْنَامِكُمْ، إِذِ الْمُبْتَدِعُ عَنْ بَلَدٍ، يَبْتَدِعُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ وَ ادْعُوا رَبِّي لَكُمْ بِالْهِدَايَةِ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي لِهَدَايَتِكُمْ شَقِيًّا فَيَسْتَجِبُ دَعَائِي فِي هَدَايَتِكُمْ، أَي لَعَلَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْبَلُ الدُّعَاءَ، وَ يَرُدُّكُمْ عَنِ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَ لَيْسَ هَذَا تَكَرُّرًا، فَإِنَّ مَا سَبَقَ، كَانَ خَاصًّا بِأَزْرٍ، وَ هَذَا عَامٌّ لِكُلِّ الْقَوْمِ.

[٥٠] فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَ اعْتَزَلَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِأَنْ فَارَقَهُمْ، وَ هَاجَرَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، لَمْ تَرَكَهُ وَ حُدَّهُ يَقَاسِي الْوَحْدَةَ، وَ الْغُرْبَةَ، بَلْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ بِمَا يُؤْنَسُ وَ حَشْتَهُ، وَ يَجْمَعُ شَمْلَهُ وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ لِدَا صَلِيْبًا وَ يَعْقُوبَ وَ لِدَا الْوَلَدِ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا يَهْدِي النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ، فَقَدْ كَثُرْنَا إِبْرَاهِيمَ عَدَدًا، كَمَا كَثُرْنَا الدُّعْوَةَ الَّتِي دَعَا بِهَا إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَشَدَدْنَا أَرْزَهُ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الَّذِينَ يَنْتَهَجُونَ نَهْجَهُ فِي الدُّعْوَةِ.

[٥١] وَ هَبْنَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ رَحْمَتِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَ ادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)

وَ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِسَانَ صِدْقٍ فَقَدْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَتِهِمْ يَصَدِّقُهُمُ النَّاسُ، جِزَاءً لِاسْتِقَامَتِهِمْ فِي الدُّعْوَةِ، فِي قِبَالِ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ الَّذِي وَاجَهَ الْقَوْمَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، قَبْلَ الْإِعْتِرَالِ عَلِيًّا أَي فِي حَالِ كَوْنِ ذَلِكَ اللَّسَانِ عَلِيًّا رَفِيعًا، يَنْظُرُ إِلَيْهِ النَّاسُ بِرَفْعِهِ، حَتَّى إِذَا قَالَ شَيْئًا أَطَاعُوهُ، وَ سَمِعُوا مِنْهُ.

[٥٢] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ، لِيُبَيِّنَ دَعْوَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، إِجْمَالًا بِدُونِ تَفْصِيلٍ، إِذِ الْمَقْصُودُ بَيَانُ الدُّعَاءِ وَ الدُّعْوَةِ وَ ادْكُرْ فِي الْكِتَابِ أَي اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا قَدْ أَخْلَصَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) «١» ف «مخلص» اسم مفعول من أخلص و كَانَ رَسُولًا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ، وَ إِلَى سَائِرِ الْبَشَرِ نَبِيًّا يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٥٣] وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ الطُّورِ اسْمُ جَبَلٍ كَانَ يَنَاجِي عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، أَي نَادَيْنَاهُ مِنْ طَرَفِ ذَلِكَ الْجَبَلِ، طَرَفُهُ الْأَيْمَنُ لَا الْأَيْسَرُ، وَ ذَلِكَ حِينَ أَقْبَلَ مِنْ «مَدِينِ» وَ رَأَى النَّارَ فِي الشَّجَرَةِ، وَ لَمَّا دَنَا مِنْهَا سَمِعَ الصَّوْتَ (يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) «٢»

(١) طه: ٤٢.

(٢) القصص: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤)

وَقَرَّبْنَاهُ إِلَيْنَا فِي حَال كونه نَجِيًّا نناجيه بكلام خفى لا يسمعه غيره، فقد كان القرب إلى هذا الحد حد المناجاة و الإسرار في الأذن، لكن المراد ليس القرب المكاني- فإنه سبحانه منزه عن المكان- و إنما القرب المعنوي الذي هو عبارة عن جعل نفس موسى عليه السلام بحيث يتمكن من تلقي كلام الله سبحانه، ثم إن من المعلوم، إن الله لا- يكلم باللسان- لأنه منزه عن الجسم و عوارضه- و إنما يخلق الصوت، فيسمعه من كملت نفسه، و أراد سبحانه إسماعه.

[٥٤] وَ وَهَبْنَا لَهُ أَى لموسى مِنْ رَحْمَتِنَا و تفضلنا عليه أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا فَأَنعَمْنَا على موسى بجعل هارون نبيا، يشد أزره و يساعده في الدعوة، إجابة لدعائه، حيث قال (وَ اجْعَلْ لى وَزيراً مِنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرى * وَ اشْرِكْهُ فى أَمْرِى) «١» [٥٥] وَ اذْكُرْ يا رسول الله فى الْكِتَابِ أَى القرآنِ إِسْمَاعِيلَ بن حزقيل، كما ورد فى الأحاديث، لا إسماعيل بن إبراهيم الخليل إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ إذا وعد و فى، و لو طالت المدّة،

فقد ورد عن الصادق عليه السلام إنه إنما سمى صادق الوعد، لأنه وعد رجلا فى مكان، فانتظره فى ذلك المكان سنة، فسماه الله عز و جل صادق الوعد ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك، فقال له إسماعيل ما زلت منتظرا لك «٢» أقول: ليس معنى ذلك إن إسماعيل لم يعمل عملا فى تلك

(١) طه: ٣٠-٣٣.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٥ إلى ٥٦]

وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَ اذْكُرْ فى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦)

المدّة، فلعله كان مشتغلا بأمره- التبليغ- أو العمل أو نحوهما، فلا- يقال: كيف يترك الإنسان عمله سنة لوعده، أليس عدم مجيء الصحاب دليل على خلفه، حتى يكون إسماعيل فى حل منه؟ وَ كَانَ رَسُولًا إِلَى قومه نَبِيًّا يوحى إليه، من قبل الله سبحانه، و قد ورد أن الله عز و جل بعثه إلى قومه، فأخذه فسلخوا فروة رأسه و وجهه فأتاه ملك، فقال: إن الله جل جلاله بعثنى إليك فمرنى بما شئت فقال لى أسوء بما يصنع بالأنبياء «١»

[٥٦] وَ كَانَ إِسْمَاعِيلُ يَأْمُرُ أَهْلَهُ أَى عائلته، أو عشيرته، أو قومه- فإن الأهل يطلق على كل واحد من هؤلاء- و إن كان الأنسب بمقام النبوة إرادة المعنى الثالث بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ المراد بهذين اللفظين الخضوع لله سبحانه، و إعطائه الفقراء و إن كان بغير صورة الصلاة و الزكاة فى هذه الشريعة فإن الصلاة بمعنى العطف، و الزكاة بمعنى النمو، و فى الصلاة عطف نحوه سبحانه، و فى الزكاة نمو للمال وَ كَانَ إِسْمَاعِيلُ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا رضى سبحانه عن أعماله و أخلاقه و سيرته.

[٥٧] وَ اذْكُرْ يا رسول الله فى الْكِتَابِ أَى القرآنِ إِدْرِيسَ سُمى بذلك لكثرة دراسته للكتب، و قد أنزل عليه ثلاثون صحيفة، و هو أول من خط بالقلم و خاط، و نظر فى الحساب، و قد كان الناس قبله

(١) راجع القصص للجزائرى: ص ٣١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٤٩٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)

يلبسون الجلود- كما روى- إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا كَثِيرَ الصَّدَقِ، أو كثير التصديق لله سبحانه نبيًا يوحى إليه من قبله سبحانه.

[٥٨] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أى إلى مكان على رفيع، إما رتبة بأن كانت رتبته، و منزلته عند الله رفيعه، و إما محلا،

فقد ورد أنه رفع إلى السماء،

و هناك قبض روحه ملك الموت.

[٥٩] أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ تقدم أسماءهم الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بالنبوه، و المنزله الرفيعه مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ أبو البشر عليه السلام. و من ذرية مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فى السفينه و مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ يعنى يعقوب عليه السلام، و إنما ذكر سبحانه هذا التفصيل مع إن الجميع من ذرية آدم، لبيان ذكر مراتبهم فى شرف الانتساب، أو شرف التفضل، فمن كان منسوبا إلى إبراهيم أشرف نسبا ممن لا ينتسب إليه، و إنما ينتسب إلى آدم عليه السلام فقط، كما أن من حمل أبوه فى السفينه كان التفضل عليه أكثر ممن لم يحمل، بأن كان قبل الطوفان و مِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا أى أنعمنا عليهم، فى جملة من هديناهم إلى الحق، و اخترناهم للنبوه و الإرشاد، إن أولئك كلهم إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ و تقرأ عندهم آيَاتُ الرَّحْمَنِ الداله على وجوده و صفاته خَرُّوا سُجَّدًا جمع ساجد، أى ساجدين لله سبحانه، تعظيما له و لكلامه و آياته و بُكِيًّا باكين، فإن «بكى» على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٩ إلى ٦١]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)

«فعل» جمع «باك» و نصب سجدا و بكى على الحال عن ضمير «خروا».

[٦٠] فأولئك الأنبياء المختارون، الذين يسجدون لتلاوة آيات الله، و تفيض أعينهم من الدمع عند قراءة كتابه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ جماعة من نسلهم و ذريتهم أَضَاعُوا الصَّلَاةَ كاليهود خلف إسرائيل، و المشركين من خلف إبراهيم عليه السلام، و هكذا وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ الملذات الزائلة، إذا رأوها ذهبوا وراءها، لاتبوعها، أولئك الأخيار جاء من بعدهم هؤلاء الأشرار فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ أى يلقى هذا الخلف غِيًّا ضلالا، و ضياعا فى الدنيا بالعيش الضنك، و فى الآخرة بالعذاب و النار، أو المراد يلقون جزاء غيهم، يقال فلان يرى عمله، أى يرى جزاء عمله.

[٦١] إِلَّا مَنْ تَابَ عما سلف منه من المعاصى وَآمَنَ إيمانا صحيحا صادقا وَعَمِلَ صَالِحًا فى مقابل العمل السيئ، الذى كان يعمله فَأُولَٰئِكَ التائبون يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا لا يبخسون من جزاء أعمالهم الحسنه، و إنما يعطى جزاؤهم كاملا غير منقوص.

[٦٢] ثم وصف سبحانه الجنة بقوله جَنَّاتِ عَدْنٍ و المراد بالجنة هناك الجنس، و لذا صح وصفها بالجمع و العدن بمعنى الإقامة، من عدن بالمكان، إذا أقام فيه الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ المتفضل الراحم عِبَادَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

المطيعين بِالْغَيْبِ أَي وَعَدَهُمْ، بما هو غائب عن حواسهم، و لعل ذكر هذا الوصف، لمدح المؤمنين بالجنة حيث أن العامل للغيب أكثر تحسیناً من العامل لما يراه حاضر عنده، أو لوصف الجنة، كأنه يقال، إن ما وعدتم به غائب لا تدرون ما هو؟ إِنَّهُ تَعَالَى كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا يَأْتِي بِالتَّأَكِيدِ، و لا خلف فيه، و المراد ب «وعده» أَي ما وعد به، أقيم المصدر مقام المفعول، أو المراد وقت وعده.

[٦٣] لا- يَشْمَعُونَ أَي لا- يسمع المؤمنون فيها في تلك الجنات لَعَوًّا كلاماً بلا ثمر، سواء كان من قبيل السب و الاستهزاء، أم من قبيل الكلمات التي لا فائدة فيها إِلَّا سِلَامًا حيث يسلم الملائكة عليهم، و يسلم بعضهم على بعض، و هذا الاستثناء منقطع، كأنه قال «لا يسمعون فيها شيئاً إِلَّا سلاماً و لا يسمعون اللغو» و الاستثناء من باب المثال، و إلفهاك يتكلم بعضهم مع بعض، أو المراد بالسلام كل كلام فيه سلامة من الباطل و اللغو و الإيذاء و ما أشبهه، فالمراد «السلام» و صفاً، لا لفظاً و لَهْمٌ رِزْقُهُمْ فِيهَا فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ بُكْرَةً صَبَاحًا وَعَشِيًّا مَسَاءً، فَإِنَّ ذِيكَ الْوَقْتَيْنِ، يتعارف فيهما الأكل لهم، و إلا فلهم ما يشتهون في كل وقت (أَكُلْهَا دَائِمًا) «١» ثم إنه لا- عشاء هناك، إذ لا ليل، و إنما ذلك من باب التشبيه.

[٦٤] تِلْكَ الَّتِي ذَكَرْتَ أَوْصَافَهَا، بالخلود، و التعدد، و السلام، و وفرة

(١) الرعد: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَمَا تَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

الأرزاق، هي الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا أَي نعطيها إرثاً بعض عبادنا من مَنْ كَانَ تَقِيًّا يتقى الكفر و الآثام، التي قلنا عنها «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» و إنما سمي إرثاً، لأنه يأتي الإنسان بعقب أعماله في الدنيا، كما أن الإرث يأتي الإنسان بعقب موت قريب له، أما النسب فلا يجدي إرثه في دخول الجنة فقد ورث أولئك الأنبياء خلف أضعوا الصلاة فلم ينفعهم النسب في إرث الجنة.

[٦٥] و مَا تَنْتَزِلُ نحن أهل الجنة محلاً- من الجنان إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ فالمواضع هناك معينة، لأصحابها، لا يتمكن أحد من التخلف عن موضعه، و هذا من باب الالتفات من الغيبة إلى التكلم- حيث إن الكلام كان حول أهل الجنة، و إن المتقين هم الوارثون لها- و ما ذكرناه من أن الآية من كلام أهل الجنة هو الأنسب بالسياق، و هناك قول آخر، إن الآية حكاية عن كلام جبرائيل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حين قال له: ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أَي أمامنا و مَا خَلْفَنَا أَي ورائنا و مَا بَيْنَ ذَلِكَ أَي المحل الذي نحن فيه، فإنه المالك المطلق للجنة، و لا ينزل أحد في موضع منها، إلا بإذنه و أمره و مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ينسى لأحد مقامه، و ما يستحقه، بل يعطى كل واحد من الجنة المكان الذي هو بقدر عمله.

[٦٦] إِنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا كَمَا كَانَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدْهُ لِكُونِ لِلْكَونِ الْمَطْلُوقِ لِلْكَونِينِ فَاعْبُدْهُ أَيهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٦٨]

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا (٦٧) فَو رَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا (٦٨)

الإنسان، أو أيها الرسول وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ عَلَى تحمل المشاق، و لا تكن كمن أضع الصلاة، و اتبع الشهوات، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أَي من يسمى بكونه إلهًا- عن استحقاق- بمعنى أنه لا مثل له، حتى يعلم ذلك و يعبد معه شريكا له.

[٦٧] إِنَّهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، له الأرض و السماء و الجنة، لكن الإنسان العاتى، لا يعترف بالمعاد، و يتعجب من أنه كيف

يمكن إعادة الإنسان بعد الممات! وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ وَالْمَرَادُ بِهِ هَذَا النُّوعُ، لِأَكْلِ فَرْدٍ مِنْهُ إِذَا مَا مِتُّ «ما» زائدة، لتزيين الكلام لَسَوْفَ أُخْرَجُ مِنْ قَبْرِ حَيًّا عَلَى نَحْوِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ.

[٦٨] فرد عليه سبحانه بقوله أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرَ لِلْمَعَادِ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ أَي سَابِقًا- قبل أن يكون هذا الكلام- وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَكُ شَيْئًا فَإِنْ مِنْ يَقْدَرُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ يَقْدَرُ عَلَى الْإِعَادَةِ.

[٦٩] فَوَرَّبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَنَحْشُرَنَّهْمُ نَجْمَعَهُمْ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالشَّيَاطِينَ نَحْشُرُ الشَّيَاطِينَ مَعَهُمْ، لِنَجْمَعَ بَيْنَ الْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ، بَيْنَ مَنْ كَانَ يُوَسُّوسُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ الْبَعْثِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي الْإِنْكَارِ ثُمَّ بَعْدَ الْحَشْرِ لَنُخْضِرَنَّهْمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ فِي أَطْرَافِهَا، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ جِيًّا جَمْعُ جَائِي، وَهُوَ الَّذِي بَرَكَ عَلَى رَكْبَتَيْهِ، فَإِنَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٩ إلى ٧١]

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهْمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)

هناك في صور مزرية مهانة مقترنين مع الشياطين، جاثين على الركب، تلفحهم نار الجحيم، كالمجرم الذي يجثو مع سائر المجرمين حول السجن، يرى الذل والصفاد، وقد كان هذا جزائهم، حيث تكبروا في الدنيا، ولم يطيعوا الأوامر، وأنكروا المعاد.

[٧٠] ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ لَنَسْتَخْرِجَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ مِنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ، شَاعِعُوا طَرِيقَهُ خَاصَّةً أَيْهْمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا «العتي» مصدر «كالعتو» و هو التمرد والعصيان، أي نبدأ بالأعتي، فالأعتي، لنقلهم في جهنم أولاً فأولاً.

[٧١] ثُمَّ هَذَا لِلتَّرَاخِي فِي الْكَلَامِ، لَا فِي الزَّمَانِ، وَكَأَنَّهُ يَأْتِي بِهِ لِلسِّيَاقِ وَالتَّنَاسُبِ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا أَي بِالنَّارِ صِلِيًّا الصلَى مصدر صلى يصلى، يقال صلى اللحم يصليه صلياً شواه وألقاه في النار للطبخ والإحراق، ومثله أصلاه وصلّاه، والمعنى أنه لا يجاز على أحد هناك، بل إنما يصلى الكافر والمعاصي حسب عملهما.

[٧٢] وَإِنْ مِنْكُمْ أَي مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَيُّهَا الْبَشَرُ إِلَّا وَارِدُهَا أَي مَشْرُفٌ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) «١»، أَي أَشْرَفَ،

قال الصادق عليه السلام: أما تسمع الرجل يقول، وردنا ماء بني فلان، فهو الورود ولم يدخل

«٢»، أقول: ولعل ذلك باعتبار العبور من جهنم على

(١) القصص: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٩١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)

الصراط، فإن العابر يقال له الوارد، فمن عبر المدينة على مركوب له، يقال: ورد بلدة فلان كان على ربك ورود الجميع حتماً لازماً مَقْضِيًّا قد قضاها و قدره.

[٧٣] ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا الشَّرْكَ وَالْمَعَاصِيَ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، أَوْ ظَلَمُوا غَيْرَهُمْ فِيهَا أَي فِي النَّارِ جِيًّا بَارِكِينَ عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ، يَرِيدُونَ النَّهْوضَ، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ، كَمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِسْتِرَاحَةِ، فَهْمُ دَائِمِ الْعَذَابِ، وَالْمَرَادُ بـ «نذر» نلقيهم فيها، حتى يبقون في جهنم.

[٧٤] إن الظالمين هناك مصيرهم النار، كما عرفنا، فما كان عملهم، حتى استحقوا هذه النار؟ وإذا تئلى عَلَيْهِمْ آياتنا أى الأدلة المنزلة فى القرآن، أو مطلقاً بَيِّنَاتٍ فى حال كونها واضحات الدلالة قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، و ما جاء به لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى الْفَرِيقَيْنِ من المؤمنين و الكافرين خَيْرٌ مَقَاماً فَهَلْ مَقَامنا، و مالنا من الدنيا خير أم مقامكم و مالكم فى الدنيا؟ و أينا أَحْسَنُ نَدِيًّا أى مجلساً، فإن الكفار يتفاخرون على المسلمين، بأنهم أحسن منهم حالاً، فما حصل المؤمنون من إيمانهم؟ فلو كان الإيمان يقود الإنسان إلى السعادة فلما ذا نرى أن المؤمنين فى ضنك و ضيق و الكفار فى سعة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاً وَ رِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا (٧٥)

و رفاه؟ لكن هذه مغالطة، فالمؤمنون إنما هم فى ضيق لمدى يسيرة و من جراء عدم تكالبتهم على الدنيا، مع إن من المؤمنين منعمين فى الدنيا، كما يرينا التاريخ، و سيجزون هنالك بأحسن و أفضل من دنيا الكافرين- بالنسبة إلى هذه الفترة الضيقة أيضاً-

[٧٥] إن عاقبة الكفر لا بد و أن تكون الهلاك و الدمار، و أن تمشى فى أيام قليلة على زخارف الدنيا و بهرجها و كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ أى قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للرسول مِنْ قَوْمٍ من الأجيال البشرية هُمْ أَحْسَنُ من هؤلاء المتبجحون القائلون «أَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» أَثَاً أى متاعاً و زينةً وَ رِيًّا أى منظراً و هيئة، فإن الله الذى أهلك الأمم، التى كانت أكثر جمالا و مالا، قادر على هلاك هؤلاء، فليحدوا من كفرهم و كبرهم، و إلا كان مصيرهم مصير أولئك.

[٧٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَالأَئِمَّةِ وَ الْكُفْرِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا أى فدعه لأن يسعفه الله سبحانه بالمال و العمر و سائر الأمور المرتبطة بالدنيا، و هذا تهديد فى صورة الأمر، كما نقول «دع الله يمهل الظالم» نريد أنه و إن أمهل لمصلحة، فإن عاقبته لا- بد و أن تكون إلى الخسار و الفناء، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ أى أمهلهم سبحانه، حتى جاء الوقت المقدر لأخذهم إِمَّا الْعَذَابَ الذى يجعل لهم فى الدنيا وَ إِمَّا السَّاعَةَ بأن ماتوا فقامت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٨

[سورة مريم (١٩): آية ٧٦]

وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

قيامتهم، و عذبوا فى الآخرة فَسَيَعْلَمُونَ حين أخذ الله لهم، إما بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا هل مكان المؤمنين الناجين شراً أم مكانهم فى العذاب و مَنْ هُوَ أضعفُ جُنْدًا هل جند المؤمنين أضعف أم الكافرين؟ إنهم هنالك يعرفون أيهما كان خير مقاماً و أحسن ندياً، و هذا كما تقول للطالب الكسول- الذى يضحك من جدك فى الدرس- ستعرف لدى الامتحان أينا أحسن؟

[٧٧] إن للمؤمنين العاقبة الحسنى، إما فى الدنيا، أو فى الآخرة، و للكافرين العاقبة السيئة، إما فى الدنيا أو فى الآخرة، و بالإضافة إلى العاقبة الحسنى، فالمؤمن يزداد هدى فى هذه النشأة، و له الباقيات فى تلك النشأة، فله ثلاث أقسام من الخير، بينما ليس للكافر إلا الدنيا المنغصة لذاتها فقط، وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْإِسْلَامِ هُدًى وَ رِشَادًا، فإن الإنسان فى الدنيا يحتاج فى كل خطوة هدايةً و رشاداً، و هكذا يأخذ الله بيد المهتدى فى كل خطوة خطوة، ليزيده هدايةً وَ الْبَاقِيَاتُ أى الأعمال التى تبقى الصَّالِحَاتُ مما قدمها الإنسان إلى آخرته خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا مما يصرفه الكفار فى هذه الحياة من الملذات وَ خَيْرٌ مَرَدًّا أى عاقبةً و منفعةً، من رد بمعنى رجوع، فإن ثواب ذلك أحسن من لذة الكفار، و إن ما يرجع الإنسان المؤمن إليه فى الآخرة من عمله خير مما يرجع الكافر، و إن الحاصل أن الكافر إذا أنفق درهما فى الخمر التذ هنا، و جوزى بالنار هناك، و إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٧ إلى ٧٩]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَيَنكُتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)

المؤمن إذا أنفق درهما في الصدقة، كان ثواب درهم أكثر لذة من لذة الخمر للكافر، و جوزى هناك بالنعيم.

[٧٨]

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: أن العاص بن وائل، كان يطلبه خباب ابن الأرت دينا، فأتاه يتقاضاه، فقال له العاص: ألستم تزعمون أن في الجنة الذهب و الفضة و الحرير؟ قال: بلى، قال: فالموعد ما بيني و بينك الجنة، فوالله لأوتين فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا «١»، فنزلت هذه الآيات

أَفَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ هذِهِ الْجُمْلَةُ تَسْتَعْمَلُ لِلتَّعْجِبِ، أَى هَل رَأَيْتَ كَذَا حَتَّى تَتَّعِجَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ هُوَ الْعَاصُ وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ فِي الْجَنَّةِ مَالًا وَ وَلَدًا فَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، فَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ جَنَّةٌ فَلَهُمُ النَّصِيبُ الْأَوْفَرُ فِيهَا.

[٧٩] أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَى هَلِ اطَّلَعَ هَذَا الْقَائِلُ عَلَى الْغَيْبِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ هُنَاكَ، يُعْطَى الْأَمْوَالُ وَ الْأَوْلَادُ؟ وَ الْأَصْلُ «أَطَّلَعَ» فَلَمَّا دَخَلَتْ هَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي مِنْ بَابِ «الافتعال» - إِذِ الْأَصْلُ «أَطَّلَعَ» فَادْغَمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ - سَقَطَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ تَخْفِيفًا أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا بِأَنَّ صَارَتْ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ اللَّهِ مَعَاهِدَةً، بِأَنَّ لَهُ الْمَالَ وَ الْوَلَدَ هُنَاكَ؟ وَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ، فَمَنْ أَيْنَ يَقُولُ: «لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَ وَلَدًا»؟ [٨٠] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُعْطَى هُنَاكَ مَالًا وَ وَلَدًا،

(١) المناقب: ج ١ ص ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٠ إلى ٨٢]

وَ نَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

وَ سَيَنكُتُبُ مَا يَقُولُ لِنَجَازِيهِ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ، وَ الْمُرَادُ أَمْرُ الْحَفِظَةِ بِكِتَابَةِ مَقَالِهِ وَ نَمُدُّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا فَلَا يَنْقُطُ عَذَابُهُ، وَ إِنَّمَا يَمْتَدُّ أَبَدَ الدَّهْرِ.

[٨١] إِنَّهُ هُنَاكَ لَا يَظْفَرُ بِالْمَالِ وَ الْوَلَدِ، وَ مَالُهُ وَ وَلَدُهُ هُنَا أَيْضًا، يَتْرَكَ لَنَا، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِمَا وَ نَرِيَّهُ مَا يَقُولُ أَى مَا يَتَلَفِظُ بِهِ مِنَ الْمَالِ وَ الْوَلَدِ، إِذْ هُوَ قَالَ: «لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَ وَلَدًا» وَ يَأْتِينَا فَرْدًا هُوَ وَحْدَهُ، بَلَا شَيْءٍ يَفِيدُهُ مِمَّا جَمَعَهُ وَ اتَّخَذَهُ هُنَا مِنْ أَمْوَالٍ وَ أَوْلَادٍ، إِنْ الْعَاصُ مِثَالِ الْإِنْسَانِ الْعَاتِي، فَكَمْ لَهُ مِنْ أَمْثَالٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْمُرْدَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، أَوْ رَأَيْتَهُمْ حَتَّى تَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنْهُمْ، وَ تَقِفَ عَلَى عَقُولِهِمُ الْمُتَحَجِّرَةَ وَ أَدْمَغْتَهُمُ الْبَلِيدَةَ؟

[٨٢] وَ مِنْ نَقْلِ كَلَامِهِمُ السَّخِيفِ يُعْطَفُ السِّيَاقُ نَحْوَ عَقَائِدِهِمُ السَّخِيفَةَ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ وَ سِوَاهِ آلِهَةٍ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْجِنْسِ، أَى اتَّخَذُوا هَذَا الْجِنْسِ، حَتَّى يَشْمَلَ الْفَرْدَ أَيْضًا، فَإِنْ كَلَا- مِنَ الْجِنْسِ وَ الْجَمْعِ، يَنْوِبُ مَقَامَ الْآخِرِ - كَمَا سَبَقَ - لِيَكُونُوا أَى تِلْكَ الْآلِهَةِ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ، جَرِيًّا عَلَى مِزَاجِ الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهَا لَفْظَ الْعَاقِلِ لَهُمْ أَى لَهُوَاءِ الْكُفَّارِ عِزًّا فَقَدْ كَانُوا يَعْتَرُونَ بِالْآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ شَفَعَاءُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

[٨٣] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا، فَلَيْسَتْ الْأَصْنَامُ، إِلَّا سَبَبٌ ذَلَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)

و انحطاطهم في الدنيا، و في الآخرة، أما في الدنيا فقد كشفت عن سخافة عقولهم، و أما في الآخرة ف سيكفرون بعبادتهم لهذه الآلهة، فإنهم هناك يحلفون (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» وَ يَكُونُونَ هَوْلًا المشركون عَلَيْهِمْ أى على تلك الآلهة ضداً و معارضا، أو المراد أن الآلهة تكون جاحدة للمشركين، حيث يقولون: (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) «٢» و أنهم يكونون ضداً للمشركين، كما قال سبحانه: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) «٣».

[٨٤] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ أى خلينا بينهم و بين الكفار ليسيئوا إليهم ما يشاءون، يقال لمن خلى بين كلبه و بين عدوه ليؤذيه: أرسل كلبه عليه، حيث كان بإمكانه أن يمنع، فلم يمنعه تَوَزُّهُمْ أى ترعجهم أَزًّا إزعاجا و تعريهم بالشر و العصيان، فكما قد فعلنا هذا بالكفار- جزاء إعراضهم عن الحق- كذلك نعمل بهم في الآخرة، و نمدهم من العذاب مدا. [٨٥] فَلَا تَعْجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بَأَنْ تَطْلُبَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابَ، فإنهم مأخوذون لا محالة، و إنما التأخير ليزدادوا إثما إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ أى نحسب أعمالهم عَدًّا تأكيد في العد، حتى نعطيهم جزاء عملهم في الآخرة.

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) القصص: ٦٤.

(٣) البقرة: ١٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)

[٨٦] و سيرون جزاؤهم في يوم القيامة يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ أى نجتمع المتقين الذين اتقوا الكفر و الآثام إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا و معنى إلى الرحمن إلى دار كرامته و فضله، و الوفد جمع وافد، بمعنى المشرف، و يستعمل في الجماعة التي تذهب من مكان إلى مكان. [٨٧] وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ كالدواب التي تساق من خلفها، و المراد بالمجرم الذي أتى بالجريمة إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا حال من المجرمين، و الورد هي الجماعة التي ترد الماء، أى أنهم يردون جهنم، كالإبل العطاش التي ترد الماء.

[٨٨] لَا يَمْلِكُونَ أى لا يملك المجرمون الشَّفَاعَةَ فلا يتمكنون أن يشفعون لغيرهم، و لا يتمكن أحد أن يشفع لهم إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا يعنى إلا الذين كانت بينهم و بين الله سبحانه، معاهدة، بأن يطيعه و يعطيه الجزاء الحسن، فإنه هو الذى يملك أن يشفع إذا كان صالحا، أو يشفع له إذا صدرت منه زلات، و الاستثناء منقطع، و التقدير لا يملك أحد الشفاعة إلا هؤلاء، أما المجرمون فلا يملكونها.

[٨٩] و كيف يملك الشفاعة من جاهر الله بالكفر و العصيان وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا بَأَنْ جعل المسيح، أو العزير، أو الملائكة ولدا له، كما تقول النصارى و اليهود و المشركون.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٩ الى ٩٣]

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُونَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَبْغِي

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)

[٩٠] لَقَدْ جِئْتُمْ أَيُّهَا الْقَائِلُونَ بِهذه المقالات شَيْئًا إِذَا الْإِدَّ الْأَمْرَ الْعَظِيمِ، أَي لَقَدْ قَلْتُمْ بِمَقَالَةِ عَظِيمَةِ الْقَبِيحِ مُنْكَرَةً، فَكَيْفَ يَتَّخِذُ اللَّهُ وَلَدًا؟
[٩١] تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرُونَ أَي يَتَشَقَّقْنَ مِنْهُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَالْمَعْنَى لَوْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ تَنْشَقُّ، وَتَخْرُقُ مِنْ قَوْلِ مُنْكَرٍ لَكَانَتْ تَنْشَقُّ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَكَادَتْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ تَفْطُرُ وَتَنْشَقُّ وَكَادَتْ تَخْرُجُ الْجِبَالُ أَي تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ هَدًّا أَي كَسْرًا شَدِيدًا، فَإِنَّ الْهَدْمَ بِصَوْتِ شَدِيدٍ.

[٩٢] كَادَ كُلُّ ذَلِكَ لَأَنْ دَعَوْا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَعْنَى دَعَا، أَي سَمَوْا وَجَعَلُوا.

[٩٣] وَالْحَالُ أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي أَي لَا يُمْكِنُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا فَإِنَّ الْوَلَدَ الْحَقِيقِيَّ غَيْرَ مَعْقُولٍ، وَالْوَلَدَ بِالْتَّبْنِي لَا يَصِلِحُ لِأَنَّهُ عَيْثُ لَعْوٍ، وَالْحَكِيمُ مُنْزَعٌ عَنِ ذَلِكَ.

[٩٤] إِنَّ مَا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا؟
وَ«آتَى» هُنَا مِثْلُ قَوْلِهِ: (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) «١» أَي أَنَّهُمْ عِبِيدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

(١) فصلت: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩٤ إلى ٩٦]

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)
تكوينا و خلقه، فليس له منهم أولاد.

[٩٥] إِنْ الْجَمِيعُ يَأْتُونَ اللَّهَ عِبِيدًا فَ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا فَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتِمَكَّنُ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ، وَلَعَلَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، إِنْ الْأَوَّلُ الْحِسَابُ وَالْإِحْصَاءُ بِهِمْ فِي الْجُمْلَةِ، فَإِنَّ الْإِحْصَاءَ بِمَعْنَى الضَّبْطِ، وَذَلِكَ لَا يَلِازِمُ التَّعْدَادَ الدَّقِيقَ.

[٩٦] وَكُلُّهُمْ أَي كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آتِيهِ يَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِعَشِيرَتِهِ، وَخِدْمَتِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، مِمَّنْ كَانَ كَذَلِكَ، كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ابْنًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهَلِ الْإِبْنُ، إِلَّا مُكْرَمٌ مُحْتَرَمٌ، لَا يَعْدُ فِي جُمْلَةِ الْعَبِيدِ، وَلَا يَسَاقُ مَسَاقِهِمْ؟

[٩٧] إِنْ الْهَوْلُ لِيَأْخُذَ بِنَوَادِ الْإِنْسَانِ حِينَ يَسْمَعُ هَذَا الْعَدِّ وَالْإِتْيَانِ، فَهَلِ الْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يِقَاسُونَ هَذَا الْهَوْلَ وَالْوَحْشَةَ؟ كَلَّا! فِإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا بِالْأَصُولِ الْعَقَائِدِيَّةِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا أَنَّ ذَلِكَ يَلِازِمُ - عَرَفًا - عَدَمَ الْإِتْيَانِ بِالسِّيَّاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا أَي سَيُحِيطُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالْحُبِّ، فَفِي الدُّنْيَا يَحِبُّهُمْ النَّاسُ، وَفِي الْآخِرَةِ يَحَاطُونَ بِوَدِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ، وَوَدِّ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُمْ، وَوَدِّ الشُّفَعَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَّةِ لَهُمْ، وَهَلِ يَسْتَوْحِشُّ مِنْ يَحَاطُ بِمِثْلِ هَذَا الْوُدِّ؟ وَمَا وَرَدَ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنْ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُوَ الْإِمَامُ الْمُرْتَضَى، فَهُوَ مِنْ بَابِ بَيَانِ الْمَصْدَاقِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩٧ إلى ٩٨]

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

البارز، وإلا فالرسول، وسائر الأئمة، والصديقه، والمؤمنون كلهم داخلون في هذا العموم.

[٩٨] إِنْ هَذِهِ الْبَشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ الْإِنذَارُ لِلْكَافِرِينَ وَالْقُرْآنُ مَيْسَرٌ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، لِيَعْرِفَهُ مِنْ حَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْلًا، ثُمَّ يَحْمِلُوهُ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ ثَانِيًا فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ أَي سَهَلْنَا الْقُرْآنَ لَكَ حَيْثُ إِنَّهُ بِلِسَانِكَ وَعَلَى لُغَتِكَ، حَتَّى تَتِمَكَّنَ مِنَ التَّفْهِيمِ لَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرَبِ الْمُحِيطِينَ بِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْمُتَّقِينَ تَبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ وَتُنذِرَ بِهِ بِسَبَبِ الْقُرْآنِ قَوْمًا لُدًّا لِدِّ الْجَمْعِ

اللد، و هو المخاصم الشديد الخصومة، و القرآن مبشر لكل مؤمن، و إن لم يكن متقيا، و منذر لكل كافر، و إن لم يكن لدا، إلا أن البشارة الكاملة، و الإنذار الشديد لطائفتين.

[٩٩] و أخيرا فليتذكر هؤلاء كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ قَبْلَ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الْمَكذِبِينَ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّم كَذَبُوا الرِّسْلَ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَى هَلْ يَقع أَحَدٌ مِنْهُمْ تَحْتَ حَاسَةٍ مِنْ حَواسِكِ، فَتَراهِمْ، أَوْ تَلْمَسُهُمْ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً أَى صَوْتاً، يَعمى أَنَّهُمْ ذَهَبُوا وَ انْقَطَعُوا، حَتَّى لا يَرى لَهُمْ شَخْصاً، وَ لا يَسمَعُ لَهُمْ صَوْتاً، وَ يَكونُ مَصريرَ هَؤُلاءِ كأولئك، عَما قَليل، فليبادروا إلى التوبة، لينالوا غفران الله تعالى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٦

٢٠ سورة طه مكية / آياتها (١٣٦)

سميت السورة بهذا الاسم «طه» لافتتاحها بهذه اللفظة. و هي كسائر السور المكية تبين أصول الاعتقاد، في جو قصصي جذاب. و حيث ختمت سورة «مريم» بإنزال القرآن «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ» افتتحت هذه السورة بذلك «طه ما أنزلنا عليك القرآن». [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله، شعارا للمسلم، و تبركا بهذا الاسم الكريم، الذي هو المتفضل بالرحمة لعباده المؤمنين و غير المؤمنين، كما قال سبحانه: (وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١» و التكرار في الصفة للتأكيد على أنه سبحانه متصف بها، مقابل الذين زعموا أن الإله قاس غليظ، و هكذا عرفوه للناس.

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلاً ممن خلق الأرض و السماوات العلى (٤)

[٢] طه فيه أقوال: منها أنه رمز بين الله و الرسول، و منها أن المراد: أن القرآن المعجز مؤلف من «طاء» و «هاء» و سائر حروف الهجاء، التي هي من جنسهما، و منها أنه اسم للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم

قال الصادق عليه السلام: «و أما طه: فاسم من أسماء النبي صلى الله عليه و آله و سلم و معناه: يا طالب الحق الهادي إليه» «١».

[٣] ما أنزلنا عليك يا رسول الله القرآن لتشقى الشقاء استمرار ما يشق على النفس، و السعادة عكسه، أى لم يكن نزول القرآن عليك لأجل شقائك و إنما لأجل سعادتك و راحتك.

فقد روى عن الإمام الكاظم عن آباءه عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه قال: لقد قام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه و اصفر وجهه، يقوم الليل أجمع، فقال الله عز و جل: «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به» «٢».

[٤] إلا تذكرة أى إنما هو تذكرة و ذكرى لمن يخشى الله سبحانه، و التذكرة و التذكير مصدران لباب التفعيل، و إنما كان تذكرة لأن الأصول و الفروع بصورتها الإجمالية كامنة في نفس كل إنسان.

[٥] و قد نزل تنزيلاً ممن خلق الأرض و إنما كان تنزيلاً لأن الله سبحانه أعلى مرتبة عن البشر فما يأتي منه تنزيل و إن لم يكن علو خارجي، أو باعتبار إتيان جبرائيل به من السماء و السماوات العلى أى الرفيعة

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٨٦.

(٢) المستدرک: ج ٤ ص ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥ الى ٧]

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)

العالية، و هو جمع العلياء، كالدني جمع الدنيا، مؤنث الأعلى والأدنى، فالذي خلق الكون هو الذي أرسل هذا المنهاج، فما أجدر به أن يتبع منهاج المالك العالم.

[٦] و هو الرَّحْمَنُ الذي يترحم و يتفضل فله الخلق و الرحم عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى أى استولى و هو كناية عن المالكية المطلقة، يقال جلس الملك على العرش أى استولى و سيطر على المملكة.

[٧] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ظرفاً و مطروفاً، و قد تقدم أنه قد يطلق أحدهما و يراد به الأمران و ما فِي الْأَرْضِ مما قرب منهما كالإنسان و الحيوان و النبات و الأنهار و غيرهما و ما بَيْنَهُمَا من الفضاء، و الهواء، و سائر الأشياء المتوسطة بينهما و ما تَحْتَ الثَّرَى و هو التراب، و ما تحته كالمعادن و الكنوز و هذا لتأكيد كونه مالكا مطلقا لكل شىء.

[٨] و هو بالإضافة إلى كونه خالقا مالكا راحما مستوليا، عالما بكل شىء و إِنْ تَجَهَّرَ يا رسول الله أو كل من يأتي منه الجهر بالقول بأن ترفع صوتك بما تقول، و قد أطلق «تجهر» و أريد منه «إرادة الجهر» أى لا حاجة إلى الجهر فى الدعاء فَإِنَّهُ سبحانه يَعْلَمُ السِّرَّ الذي ينجى به أحدنا غيره و أَخْفَى من السر كالذى فى الصدور من الأفكار و الوسوس، فقد خلق هو سبحانه جهر الكون و سره «و هو ما تحت الثرى» و يعلم جهر الصوت و سره و الأخفى من السر،

و قد روى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨ الى ١٠]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام: إن السر ما أخفيته من نفسك و أخفى منه ما خطر ببالك ثم نسيته «١».

[٩] إن هذه كلها صفات ل الله الذى لا إله إلا هو فلا شريك له له الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى أى الأسماء الحسنه كالخالق و الرازق، و المنعم و ما أشبه، مقابل أسماء السوء كالظالم و الفاسق و الجائر و نحوها، و «حسنى» مؤنث أحسن، جىء مؤنثا باعتبار الجمع.

[١٠] ثم يأتي السياق لعرض جانب من جوانب قصة موسى، فإن هذه القصة توافق المسلمين من بدء ولادة الإسلام إلى يوم الرجعة، فما أحوجهم بالتملى منها، و الاعتبار بها، و قد تكررت هذه القصة فى القرآن بأساليب مختلفة و صور متنوعة، و الغالب الإشارة فى كل قصة منها إلى جانب من الجوانب و بمناسبة من المناسبات وَ هَلْ أَتَاكَ يا رسول الله حَدِيثُ مُوسَى و هذا استفهام تقريرى، نحو قول أحدنا لغيره هل سمعت بخبر فلان؟

[١١] إِذْ رَأَى نَارًا فَإِنِ موسى عليه السلام لما فر من فرعون جاء إلى مدين و تزوج هناك بابنة شعيب، ثم استأذن شعيب فى الخروج إلى أمه فخرج بأهله فلما وافى وادى طور و فيه الطور ولد له ابن فى ليلة شاتية مظلمة مثلجة، و قد أضل الطريق و تفرقت ماشيته فرأى من جانب الطور ما يشبه النار حتى ظنها نارا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أى الزموا مكانكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١ إلى ١٣]

فَلَمَّا أَنَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)
قليلًا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أَي أَبْصَرْتُ نَارًا هُنَاكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَجَدَانَ الشَّيْءَ الَّذِي يُؤْنَسُ بِهِ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا مِنْ تِلْكَ النَّارِ بِقَبْسٍ شَعْلَةٌ
أَقْتَبَسَهَا وَآخَذَهَا لِنَدْفِئٍ وَنَصَطَلِي أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى أَي أَجِدُ عَلَى النَّارِ هَادِيًا يَدُلُّنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِنَّ النَّارَ غَالِبًا لَا تَخْلُو مِنْ أَهْلِ
عِنْدَ مَا أَشْعَلُوهَا.

[١٢] فَلَمَّا أَنَا نُودِيَ أَي جَاءَ مُوسَى إِلَى النَّارِ وَجَدَهَا تَتَقَدُّ فِي شَجَرَةٍ نُودِيَ مِنْ طَرَفِ الشَّجَرَةِ يَا مُوسَى

[١٣] إِنِّي الْمَتَكَلِّمُ مَعَكَ أَنَا رَبُّكَ وَ قَدْ عَلِمَ مُوسَى صَدَقَ الْكَلَامَ لِحَوَارِقِ ظَهَرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ مِمَّا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ النَّدَاءَ لَيْسَ إِلَّا مِنْ جَانِبِهِ
سَبْحَانَهُ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ أَي انزِعْهُمَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَمْشِيَ فِي مَحَلٍّ مُقَدَّسٍ كَانَ مِنَ الْإِحْتِرَامِ أَنْ يَمْشِيَ حَافِيًا إِنَّكَ يَا مُوسَى
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ أَي الْمَنْزَعِ عَنِ الْأَنْجَاسِ طُوًى اسْمُ الْوَادِي، أَوْ لِأَنَّهُ طَوَى بِالْقُدْسِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِتَقْدِيسِ الْأَرْوَاحِ وَاصْطِفَاءِ الْمَلَائِكَةِ، وَ
مَرَّةً بِاصْطِفَاءِ مُوسَى، وَ تَكْلِيمِ اللَّهِ مَعَهُ،

فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ إِنَّهُ سَأَلَ عَنِ الْوَادِي الْمَقْدَسِ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهُ قَدَسَتْ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَاصْطَفَيْتْ فِيهِ الْمَلَائِكَةَ،
وَ كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى تَكْلِيمًا «١».

[١٤] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ أَي اصْطَفَيْتَكَ لِلرَّسَالَةِ فَاسْتَمِعْ يَا مُوسَى

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٤ إلى ١٥]

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)
لِمَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ كَلَامِهِ، فَاصْغِهِ وَاعْمَلْ بِهِ.

[١٥] وَ لَمَّا اسْتَعَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْإِسْتِمَاعِ أَوْحَى إِلَيْهِ اللَّهُ قَائِلًا: إِنِّي الْمَتَكَلِّمُ مَعَكَ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَلَا شَرِيكَ لِي وَ لَا مِثْلَ
فَاعْبُدْنِي أَي انْتِ بَرَسُومَ الْعِبَادِيَّةِ لِأَجْلِ خَالِصًا وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ انْتِ بِهَا كَامِلَةً بِأَدَابِهَا وَ شُرُوطِهَا لِذِكْرِي لِأَنَّ تَذَكْرَنِي بِالتَّسْبِيحِ وَ التَّحْمِيدِ
وَ التَّكْبِيرِ وَ التَّهْلِيلِ وَ التَّمْجِيدِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ إِنَّمَا شَرَعَتْ لِكُونِهَا ذِكْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[١٦] هَذَا حَوْلَ الْمَبْدَأِ، أَمَّا الْمَعَادُ إِنَّ السَّاعَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي يَحْشُرُ فِيهَا الْخَلَائِقَ آتِيَةٌ لَا مَحَالَةَ أَكَادُ أُخْفِيهَا قَدْ يَعْبُرُ بِهَذَا التَّعْبِيرِ لِبَيَانِ أَنَّ
الشَّيْءَ ظَاهِرٌ وَ لَكِنِ الْمَتَكَلِّمُ يَرِيدُ إِخْفَاءَهُ، يَقُولُ أَكَادُ أُخْفِي قَلْمِي - فِيمَا إِذَا كَانَ ظَاهِرًا - وَ قَدْ يَعْبُرُ لِبَيَانِ أَنَّ الشَّيْءَ ظَاهِرٌ قَرِيبٌ بِإِخْفَاءِهِ،
فَهُوَ كَالشَّيْءِ الَّذِي يَرَادُ إِخْفَاءَهُ، لَيْسَ ظَاهِرًا كُلِّ الظُّهُورِ، وَ لَا مَخْفِيًا كُلِّ الْإِخْفَاءِ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، إِذِ السَّاعَةُ بَيْنَ
الظُّهُورِ وَ الْإِخْفَاءِ، فَأَصْلُهَا ظَاهِرٌ، وَ وَقْتُهَا مَخْفِيٌ، وَ إِنَّمَا يَرَادُ إِخْفَاءُهَا بِهَذَا الْمَقْدَارِ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَإِنَّ السَّاعَةَ لَوْ كَانَتْ
ظَاهِرَةً لِكُلِّ أَحَدٍ لَمْ يَكُنْ سَعَى النَّاسِ فِي الطَّاعَةِ إِلَّا خَوْفًا مِنَ الْعَاقِبَةِ الْحَتْمِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ لَدَيْهِمْ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ مَخْفِيَةً - وَ لَوْ فِي الْجُمْلَةِ -
كَانَ الْجَزَاءُ حَسَبَ السَّعَى الطَّبِيعِيِّ، لَا السَّعَى الْجَبْرِيِّ، وَ قَدْ كَانَ مِنْ حَكْمِ إِخْفَاءِ السَّاعَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَدْرِي مَتَى تَأْتِي فَهُوَ بَيْنَ خَوْفِ
وَ رَجَاءِ، أَلَا تَرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٦ إلى ١٨]

فَلَا يَصِدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَ مَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنَا كَوَّأْتُ عَلَيْهَا وَ أَهَشُّ بِهَا

عَلَى غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى (١٨)

أن الموت لو كان معلوم الوقت، كان هذا العالم بغير هذا الشكل الذي نراه إذ وقف من قرب أجله عن العمل، و غلا من بعد في الإسراف و التبذير، و هكذا، و معنى بما تسعى: ما تعمل من خير أو شر.

[١٧] فَلَا يَصُدَّنْكَ لَا يَمْنَعُكَ يَا مُوسَى عَنْهَا عَنِ السَّاعَةِ، و المراد عن الاستعداد و التهيؤ لها مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا بِأَنْ يُسَوِّسَ إِلَيْكَ لِتَتَرَكَ التَّهْيُؤَ و العمل لأجلها و اتَّبَعَ هَوَاهُ بِأَنْ عَمَلَ حَسَبَ مَا يَشْتَهِيهِ لَا حَسَبَ مَا يَنْقُذُهُ عِنْدَ السَّاعَةِ فَتَزْدَى أَى تَهْلِكُ كَمَا هَلَكَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ.

[١٨] ثُمَّ خَاطَبَهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: وَ مَا تَلْكَ مَا هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي يَبْمِينُكَ فِي يَدِكَ الْيَمْنَى يَا مُوسَى وَ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا فِي يَدِهِ، وَ لِذَا قَالَ مَا تَلْكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْمُؤْنِثِ رَعَايَهُ لِكُونَ الْعَصَا مُؤْنِثَةً، وَ إِنَّمَا أَرَادَ تَوْجِيهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَيْهَا، لِوَقْعِ الْمَعْجَزِ بِهَا.

[١٩] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَوَابِ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا أَعْتَمَدَ عَلَيْهَا فِي مَشْيِي، فَإِنَّ التَّوَكُّؤَ بِمَعْنَى التَّحَامُلِ عَلَى الْعَصَا فِي الْمَشْيِ، وَ التَّوَكُّؤَ وَ الْإِتْكَاءَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، كَالْتَوَكُّؤِ وَ الْإِتْقَاءِ وَ أَهْمُشُ بِهَا وَ الْهَشُّ ضَرْبُ وَرَقِ الشَّجَرِ لِيَتَسَاقَطَ، أَى أَسْقَطَ بِهَا وَرَقَ الشَّجَرِ عَلَى غَنَمِي أَى لِعَنَمِي، وَ حَيْثُ إِنَّ الْوَرَقَ يَقَعُ مِنْ فَوْقَ عَلَى الْغَنَمِ جِيءَ بِ «عَلَى» وَ لِي فِيهَا فِي الْعَصَا مَأْرَبٌ جَمْعُ مَأْرَبٍ وَ هِيَ الْحَاجَةُ أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٩ الى ٢٢]

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْبَعِي (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَيُنْعِيذُهَا سَيَّرْتَهَا الْأُولَى (٢١) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢)

و إنما جاء المفرد صفة الجمع، باعتبار الجماعة، كصرد السباع، و محاربة اللصوص، و تركيزها لإلقاء شيء عليها و قايه من الشمس و غيرها.

[٢٠] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَلْقِهَا أَى اطْرَحِ الْعَصَا يَا مُوسَى

[٢١] فَأَلْقَاهَا مُوسَى فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْبَعِي أَى إِذَا بِهَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً وَ أَخَذَتْ تَمْشِي سَرِيعًا.

[٢٢] وَ لَمَّا رَأَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً خَافَ مِنْهَا خَوْفًا شَدِيدًا فَ قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ خُذْهَا أَى الْحَيَّةَ وَ لَا تَخَفْ مِنْهَا أَنْ تَلْدَغَكَ سَيُنْعِيذُهَا سَيَّرْتَهَا الْأُولَى سَنَرَجِعُهَا إِلَى حَالَتِهَا الْمَتَقَدِّمَةِ، فَتَقَلِّبُ عَصَا كَمَا كَانَتْ، وَ السَّيْرَةُ: الطَّرِيقَةُ، وَ اسْتِعْمَالُهَا بِمَعْنَى الْحَالَةِ مُجَازٌ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ. فَإِنَّ الْحَالَةَ لِلشَّيْءِ كَالطَّرِيقَةَ الْمَسْتَمْرَةَ لَهُ.

[٢٣] وَ اضْمُمْ يَدَكَ يَا مُوسَى إِلَى جَنَاحِكَ الْجَنَاحُ هُوَ الْيَدُ، سَمِيَتْ بِهِ تَشْبِيهًا بِجَنَاحِ الطَّائِرِ، أَى ضَعَّ يَدَكَ تَحْتَ إِبْطِكَ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ بَيْضَاءَ تَشْرُقُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أَى مِنْ غَيْرِ عَاهَةٍ وَ مَرَضٍ فَلَيسَ بِيَاضِهَا مِنْ قَبِيلِ بِيَاضِ الْبَرَصِ، فَفَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، وَ إِذَا بَيَّدهُ كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ تَضِيءُ لَهَا الدُّنْيَا، وَ كَانَ إِذَا أَرَادَ إِرجَاعَهَا كَالسَّابِقِ، أَدْخَلَهَا تَحْتَ إِبطِهِ ثَانِيًا فَإِذَا أَخْرَجَهَا كَانَتْ كَالْحَالَةِ السَّابِقَةِ آيَةٌ أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٤

[سورة طه (٢٠): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَ اخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧)

يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

أى علامة ثانية على صدق دعواك النبوة و نصب «آية» على تقدير: نزيدك بها، أو تقدير تخرج بها.

[٢٤] وَ لِنُرِيكَ يَا مُوسَى فِي الْمَسْتَقْبَلِ، أَى نَجْرِي يَدِيكَ مِنْ آيَاتِنَا حُجْجَنَا وَ بَرَاهِينِنَا الْكُبْرَى أَى الْآيَةِ الْكُبْرَى.

[٢٥] و إذ زودناك بهذه الآيات ف اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فَادَعِهِ إِلَىٰ إِنَّهُ طَغَىٰ تَجبر و تجاوز الحد، من الطغيان.

[٢٦] قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ يَا رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي و شرح الصدر توسعته، و هو كناية عن عدم الضجر بالتكذيب، و ذلك لأن المتضجر تشتد فيه الحرارة، فتنتفخ رثته أكثر من المعتاد لتجذب الهواء المبرد للقلب أكثر، و بانتفاخها يضيق الصدر، لأنها فيه.

[٢٧] وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي أَي سَهِّلْ لِي أَمْرَ التَّبْلِيعِ، حَتَّى لَا يَكُونَ عَسِيرًا لَدِي.

[٢٨] وَ اخْلُ لِي أَي فَكِّ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي فَقَدْ كَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْقِدُ لِسَانَهُ فِي الْكَلَامِ، فَدَعَا اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْ يَحُلَّ هَذِهِ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ لِثَلَا يَقَعَ فِي مَعْرَضِ الْاسْتِهْزَاءِ.

[٢٩] وَ لَ يَفْقَهُوا أَي يَفْهَمُ فِرْعَوْنَ وَ حَاشِيَتَهُ قَوْلِي كَلَامِي. وَ

قد روى عن الباقر عليه السَّلَامُ أن فرعون كان يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون و يربى موسى عليه السَّلَامُ و يكرمه و لا يعلم أن هلاكه على يديه، و لما درج

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٢٩ إلى ٣٢]

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)

موسى كان يوما عند فرعون فعطس، فقال: الحمد لله رب العالمين فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه، و قال: ما هذا الذى تقول؟ فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللحية فهلبها، أى قلعها فألمه ألما شديدا، فهم فرعون لقتله، فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول فقال فرعون: بلى يدري، فقالت له: ضع بين يديك تمرا و جمرا فإن ميز بين التمر و الجمر فهو الذى تقول، فوضع بين يديه تمرا و جمرا و قال له: كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرائيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر فى فيه فاحترق لسانه و صاح و بكى، فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل؟ فعفا عنه. أقول: و من هنا كان فى لسان موسى شبه العقدة، فلا يتمكن أن يتكلم إلا و يعقد لسانه، حتى دعا الله، فرفع عنه.

[٣٠] وَ اجْعَلْ لِي يَا رَبِّ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي يَعَاذُنِي وَ يَسَاعِدُنِي فِي الدَّعْوَةِ، وَ لِيَكُنْ مِنْ أَهْلِي، لِأَنَّ الْأَهْلَ اعْطَفَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ وَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِنْسِجَامِ وَ الْأَلْفَةِ.

[٣١] هَارُونَ أَي لِيَكُنْ ذَلِكَ الْوَزِيرَ هَارُونَ أَخِي وَ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَ أُمِّهِ، وَ كَانَ بِمِصْرَ.

[٣٢] اشْدُدْ بِهِ أَي قَوِّ بِسَبَبِ هَارُونَ أَزْرِي أَي ظَهْرِي، وَ مِنْهُ الْمَثَرُ لَمَّا يَشْدُ عَلَى الظَّهْرِ.

[٣٣] وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي أَي اجْمَعْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ فِي النَّبُوَّةِ لِيَكُونَ هُوَ نَبِيًّا أَيْضًا، وَ هَذَا غَيْرُ كَوْنِهِ وَزِيرًا لَهُ، وَ إِنَّمَا طَلَبَهُ لِأَنَّ النَّبِيَّ لَهُ أَقْوَى دَاعٍ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٣٣ إلى ٣٨]

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨)

الهداية بخلاف مجرد الوزير.

[٣٤] إِنْ الدَّعْوَةَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ عِبَادَةٍ كَثِيرَةٍ تَوْجِبُ قُوَّةَ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ حَتَّى يَتِمَّكَ الْإِنْسَانُ بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الْقَوِيَّةِ أَنْ يَحْمِلَ الْمَشَاقَّ، وَ كَثْرَةَ الْعِبَادَةِ تَتَأْتِي لِمَنْ لَهُ مَعَاوَنٌ وَ شَرِيكٌ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَنْشَطُ عِنْدَ الْجَمَاعَةِ فِي الْعَمَلِ بِمَا لَا تَنْشَطُ عِنْدَ الْإِنْفِرَادِ، فَمَهْمَةٌ الدَّعْوَةُ تَحْتَاجُ

إلى شريك يقوم بمساعدة الإنسان لتهيئة النفس و تربية الروح، و لذا قال عليه السلام: كَيْ نُسَبِّحَكَ يَا رَبَّ كَثِيرًا فَتَنْزِهَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ.

[٣٥] وَ كَيْ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا حَتَّى تَشْتَدَّ الصَّلَاةُ وَ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الْمَتَجَلَّى الْوَحِيدُ فِي النَّفْسِ.

[٣٦] إِنَّكَ يَا رَبُّ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا فَتَعَلَّمْ احْتِيَاجَنَا إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، مِمَّا لَا تَنَاتِي إِلَّا بِالْوَزِيرِ الظَّهِيرِ.

[٣٧] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فِي جَوَابِ طَلَبَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُوتِيَتْ سُؤْلُكَ أَيُّ سؤَالِكَ وَ طَلَبِكَ يَا مُوسَى فَقَدْ حَلَّتْ عَقْدُهُ لِسَانِكَ، وَ جَعَلْنَا هَارُونَ نَبِيًّا وَ وَزِيرًا لَكَ.

[٣٨] وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ يَا مُوسَى مَرَّةً أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمَرَّةِ الَّتِي مَنَّا عَلَيْكَ فِيهَا بِالنَّبُوَّةِ وَ إِجَابَةِ الدَّعَاءِ.

[٣٩] وَ تِلْكَ الْمَنَّةُ وَ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ كَانَتْ فِي حَالِ صَغْرِكَ إِذْ أُوحِيَْنَا إِلَى أُمَّكَ أَلْهَمْنَا مَا يُوحَى أَيُّ الْمَطْلَبِ الَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَلْهَمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٧

[سورة طه (٢٠): آية ٣٩]

أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَ عَدُوُّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي (٣٩) إِلَيْهَا لِنَجَاتِكَ.

[٤٠] وَ كَانَ الْإِلْهَامُ أَنْ أَقْدِفِيهِ أَيُّ اطْرَحِي أَيْتَهَا الْأُمُّ وَ لَدَكَ مُوسَى فِي التَّابُوتِ وَ هُوَ صَنْدُوقٌ مِنْ خَشَبٍ، ثُمَّ سَدَى رَأْسَ التَّابُوتِ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهِ الْمَاءُ فَأَقْدِفِيهِ اطْرَحِي التَّابُوتِ فِي الْيَمِّ أَيُّ الْبَحْرِ، وَ هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ الْمَوْجُودُ فِي مِصْرَ، ثُمَّ يَحْمَلُ التَّابُوتِ الْمَاءَ، حَتَّى يَصِلَ قَرِبَ السَّاحِلِ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ وَ هُوَ شَاطِئُ الْبَحْرِ، ثُمَّ مَاذَا؟ يَأْخُذُهُ أَيُّ يَأْخُذُ التَّابُوتِ عَدُوُّ لِي وَ عَدُوُّ لَهُ وَ هُوَ فِرْعَوْنُ فَقَدْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَ عَدُوًّا لِمُوسَى بِالذَّاتِ، حَيْثُ إِنَّهُ قَرَأَ وَ عَلَّمَ إِنْ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ عَلَيَّ يَدُهُ ذَهَابَ مَلِكِهِ، فَأَمْرٌ أَنْ يَقْتُلَ الْأَوْلَادَ الَّذِينَ يُولَدُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ مِنْ خَوْفِ الْقَتْلِ، صَنَعَتْ أُمُّ مُوسَى تَابُوتًا، وَ جَعَلْتَهُ فِيهِ، وَ قَذَفْتَهُ فِي الْبَحْرِ، لِثَلَا تَرَى قَتْلَ وَلَدِهَا، وَ لِيَصْنَعَ مَعَهُ مَا شَاءَ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ يَا مُوسَى مَحَبَّةً مِنِّي أَيُّ مِنْ جَانِبِي، حَتَّى أَنْ كُلَّ مِنْ يِرَاكُ أَحْبَبَكَ حَتَّى أَنْ فِرْعَوْنَ بِمَجْرَدِ مَا رَأَاهُ أَحْبَبَهُ، وَ لَمْ يَقْتُلْهُ وَ لَتُصْنَعَنَّ اللَّامُ جَارَةً، لَا لَامُ الْأَمْرِ، وَ إِنْ مَقْدَرَةٌ، وَ لَذَا نَصَبَ الْفِعْلَ، أَيُّ وَلَعَهُ أَنْ تَصْنَعَ وَ تَرَبَّى عَلَيَّ عَيْنِي تَحْتَ رِقَابَتِي وَ بِمَرَأَى مِنِّي، أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ مَوْجِبَةٌ لِلرَّعَايَةِ الَّتِي كُنِيَ عَنْهَا ب «لَتُصْنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْنِي» إِذْ بَيْنَ الْعِنَايَةِ وَ الرَّعَايَةِ وَ بَيْنَ النَّظَرِ تَلَازِمُ السَّبَبِ وَ الْمَسْبُوبِ، إِذْ رُؤْيَةُ الْإِنْسَانِ لِأَحَدٍ وَ كَوْنُهُ تَحْتَ نَظَرِهِ، مَوْجِبٌ لِرَّعَايَتِهِ، وَ كَلِمَةُ «عَلَيَّ عَيْنِي» تُشْمَلُ عَلَيَّ الْإِحْتِرَامَ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٨

[سورة طه (٢٠): آية ٤٠]

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْنَا نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَى (٤٠)

وَ الْحَفْظُ فِي أَعْزِ الْأَمَاكِنِ، فَإِنَّ الْإِحْتِرَامَ مُسْتَفَادٌ مِنْ لَفْظَةِ «عَلَيَّ» وَ بِنَاءِ عَلَيَّ مَا ذَكَرَ فِجَوَابِ «لَتُصْنَعَنَّ» مَحْدُوفٍ لِدَلَالَةِ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ.

[٤١] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ الظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِتَصْنَعِ، أَيُّ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَانِ مَشَى أُخْتُكَ، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تَصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي قَدَرْنَا مَشَى أُخْتُكَ فَتَقُولُ أُخْتُكَ لَالَ فِرْعَوْنَ، حَيْثُ أَرَادُوا لَكَ مَرَضِعَةً هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ يَقُومُ بِشُؤْنِهِ؟ فَرَجَعْنَاكَ يَا مُوسَى إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا بِرُؤْيَتِكَ وَ حِيَاطَتِكَ، وَ قَرَارِ الْعَيْنِ كِنَايَةً عَنِ السَّرُورِ، مُقَابِلِ الْوَالِهِ الَّذِي تَطِيرُ عَيْنُهُ هُنَا وَ هُنَاكَ وَ لَا تَحْزَنُ لَا يَحْزَنُ قَلْبُهَا، فَيُضْفَى رَجُوعَكَ عَلَيْهَا الْهُدُوءَ وَ السَّكِينَةَ فِي ظَاهِرِهَا وَ بَاطِنِهَا.

ورد أن موسى لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعه، و كان فرعون قد وكل بنساء بنى إسرائيل نساء من القبط تحفظهن، و

ذلك لما كان بلغه عن بنى إسرائيل قولهم: أنه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يديه، فقال فرعون عند ذلك: لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون، و فرق بين الرجال والنساء و حبس الرجال في المحابس، فلما وضعت أم موسى بموسى، نظرت إليه و حزنت و اغتمت و بكت، و قالت: يذبح الساعة عطف الله بقلب الموكله بها عليه، فقالت لأم موسى: ما لك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدى، فقالت: لا تخافى، و كان موسى لا يراه أحد إلا أحبه و هو قوله «و ألقيت عليك محبة منى» فأحبه القبطية الموكله به، و أنزل الله على أم موسى التابوت، و نوديت: ضعيه فى التابوت فاقدفيه فى اليم، و هو البحر و لا تخافى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٩

و لا- تحزنى إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين، فوضعت فى التابوت و أطبقت عليه و ألقته فى النيل، و كان لفرعون قصور على شط النيل منزهات، فنظر من قصره و معه آسية امرأته إلى سواد فى النيل ترفعه الأمواج، و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصره، فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع إليه، فلما فتحه وجد فيه صبيا، فقال: هذا إسرائيلى، فألقى الله فى قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك فى قلب آسية، و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و هم لا يشعرون أنه موسى، و لم يكن لفرعون ولد فقال: ادنوا له ظئرا لتربيته، فجاءوا بعده نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحد من النساء و هو قول الله تعالى: (وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاصِعَ مِنْ قَبْلُ) «١» و بلغ أمه أن فرعون قد أخذه فحزنت و بكت كما قال الله تعالى: وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ قَالَ: كادت أن تخبر بخبره أو تموت ثم حفظت نفسها فكانت كما قال الله: لو لا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، ثم قالت لأختها: قصيه، أى اتبعيه، فجاءت أخت موسى إلى قصر فرعون، فبصرت به عن جنب أى عن بعد و هم لا يشعرون، فلما لم يقبل موسى بأخذ ثدى أحد من النساء اغتم فرعون غما شديدا، فقالت أخت موسى: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم و هم له ناصحون؟ فقالوا: نعم.

فجاءت بأمه فلما أخذته بحجرها، و ألقمته ثديها التقمه و شرب، ففرح فرعون و أهله و أكرموا أمه، فقال لها: ربيه لنا فإننا نجزيك خيرا، و قد كان الفصل بين إلقاء لموسى فى البحر و رده إليها

(١) القصص: ١٣. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٠

[سورة طه (٢٠): آية ٤١]

وَ اصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي (٤١)

ثلاثة أيام

«١» وَ قَتَلْتَ يَا مُوسَى نَفْسًا مِنَ الْقَبْطِ، فقد كان فى مصر طائفتان، القبط و هم قوم فرعون، و الإسرائيليون و هم أحفاد يعقوب، و كان القبط كفارا و الإسرائيليون مسلمون حيث ورثوا الدين و الإسلام عن آبائهم، فقد قال لهم يعقوب حين موته: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَلَفَ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) «٢» فمر موسى ذات يوم على رجلين أحدهما قبطى و الآخر إسرائيلى يتشاجران فاستغاث بموسى الإسرائيلى، و هناك تقدم موسى و ضرب القبطى ضربه مات منها فَجَجْنَاكَ مِنَ الْعَمِّ حيث أمرناك و ألهمنا إليك أن تفر من مصر لئلا- يقتلك فرعون، فقد جاءه آت ليقول له: (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) «٣» وَ فَتَنَّاكَ أَى اختبرناك اختبارا، و ابتليناك ابتلاء من الخوف فى مصر، ثم قتل القبطى، ثم الفرار من الوطن واجلا- خائفا ثم غير ذلك من أنواع المصائب، التى تؤهل الإنسان للقيام بالمهام فبعد ذلك كله فَلَبِثْتَ و بقيت سبعين عشرة فى أَهْلِ مَدْيَنَ عند شعيب النبى عليه السلام حيث تزوج موسى بابنته، و مدين على ثمان مراحل من مصر- كما فى الصافى- ثم بعد تلك الامتحانات و المشاق جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ بتقدير من الله، لإنجاز المهمة و أداء الرسالة يا موسى فلتتذكر النعم، و لتستعد للرسالة.

[٤٢] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي فَأَنْتَ مَصْنُوعٌ لِأَجْلِ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٢٥.

(٢) البقرة: ١٣٣.

(٣) القصص: ٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨١

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٢ الى ٤٥]

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥)

منك للدنيا أو لأهلك. وإنما خالص محض للرسالة و التبليغ.

[٤٣] أَذْهَبَ يَا مُوسَى أَنْتَ وَأَخُوكَ أَيَّ وَ لِيَذْهَبَ أَخُوكَ هَارُونَ، مثل «نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض» أى نحن بما عندنا راضون، و أنت بما عندك راض بآياتي أى مصاحبين للأدلة و البراهين الدالة على صدقكما فى دعوى النبوة و لا تنيا من ونى ينى، بمعنى الضعف و الفتور فى ذكري أى لا تضعفا فى أداء رسالتى، بل بلغا بكل جد و اهتمام.

[٤٤] أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ كَرَّرَ الْأَمْرَ بِالذَّهَابِ، تَوَطَّئُهُ لَذِكْرِ الْمَتَعَلِقِ - وَ هُوَ فِرْعَوْنٌ - إِنَّهُ طَغَى تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الظلم و الاعتداء.

[٤٥] فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا أَيَّ أَرْفَقَا بِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَ لَا تَغْلَظَا لَهُ فِي الْبَلَاغِ وَ الْإِرْشَادِ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ نَعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الَّتِي قَدْ نَسَاهَا أَوْ يَخْشَى عَذَابَ اللَّهِ، فَيُؤْمِنُ شُكْرًا، أَوْ حَذَرًا، وَ الرِّفْقَ وَ اللَّيْنَ يُؤَثِّرَانِ بِمَا لَا يُوَثِّرُ الْغِلْظَةُ وَ الْخَشُونَةُ.

[٤٦] قَالَا - أَيَّ قَالَ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَيَّ يَتَقَدَّمُ فِينَا بِعَذَابِ وَ يَعَجَلُ عَلَيْنَا، مِنْ فِرْطَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ، وَ مِنْهُ يُسَمَّى الْإِسْرَافُ إِفْرَاطًا لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ عَلَى الْحَقِّ أَوْ أَنْ يَطْغَى بِأَنْ تَصِيرَ دَعْوَتُنَا لَهُ سَبِيًّا لَطْغِيَانِهِ بِأَنْ يَكْثُرَ مِنَ الْإِجْرَامِ، كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمُتَجَبِّرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٦ الى ٤٨]

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨)

إذا ذكروا بالحق ازدادوا تجيرا و عتوا.

[٤٧] قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ لِهَمَّا لَا تَخَافَا مِنْ فِرْطِهِ أَوْ طَغِيَانِهِ إِنِّي مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَ الْإِطْلَاقِ أَسْنَدِكَمَا وَ أَحْفَظِكَمَا أَسْمَعُ حَوَارِكَمَا وَ إِيَاهُ وَ أَرَى مَجْلِسِكَمَا وَ مَجْلِسَهُ، فَأَلْهَمَكَمَا مِمَّا لَا يَسْبَبُ طَغِيَانَهُ وَ غُلُوثَهُ، وَ أَمْنَهُ مِنْ أَنْ يَطْغَى.

[٤٨] فَأْتِيَاهُ أَيَّ أَذْهَبَا إِلَيْهِ فَقُولَا - إِنَّا رَسُولَا - رَبِّكَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ خَالِقَكَ وَ الْهَكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّ بَلِّغَاهُ هَذِهِ الرَّسَالَةَ مِنْ طَرَفِي، وَ هِيَ أَنْ يُطْلَقَ سِرَاحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ يُجْعَلَهُمْ أَحْرَارًا كَمَا يَشَاءُونَ حَتَّى بَ تَحْتَ لَوَاءِ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ بِالْإِسْتِعْمَالِ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحْتَ تَعْذِيبِ فِرْعَوْنَ وَ أَسْرِهِ، فَكَانَ مِنْهُمْ الْأَسْرَاءُ فِي السَّجُونِ، وَ مِنْهُمْ الْمَسْخَرُ فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ، وَ مِنْهُمْ الْمَسْخَرُ فِي سَائِرِ الشُّؤْنِ الشَّاقَّةِ الْمَتَعَبَةِ قَدْ جِئْنَاكَ أَيَّ أَتَيْنَا إِلَيْكَ يَا فِرْعَوْنَ بِآيَةٍ حُجَّةً وَ بَرَهَانَ مِنْ رَبِّكَ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِنَا وَ صِحَّةِ دَعْوَانَا الْبُيُوتِ، وَ الْمَرَادُ بِالْآيَةِ الْجِنْسَ لِتَشْمَلِ الْعَصَا وَ الْيَدَ وَ غَيْرَهُمَا وَ السَّلَامُ أَيَّ السَّلَامَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَ لَمْ يَتَّبِعِ الْهَوَى، فَإِنَّ اهْتِدَيْتَ سَلِمْتَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَ إِلَّا كُنْتَ مَعْرُضًا لِلْخَطَرِ.

[٤٩] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٩ إلى ٥٢]

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)

بآيات الله وَتَوَلَّى أَى أَعْرَضَ عَنِ الْهَدْيَةِ، فَإِنْ كَذَبَتْ وَتَوَلَّتْ كَانَ لَكَ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، وَ إِلَّا آمَنْتَ وَ سَلِمْتَ.

[٥٠] قَالَ فَرَعُونَ لَهَا فَمَنْ رَبُّكُمَا وَ لَمْ يَقُلْ رَبِّي لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِهِ يَا مُوسَى وَ جَعَلَ الْخَطَابَ لِمُوسَى لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ، وَ قَدْ أَرَادَ

فَرَعُونَ السُّؤَالَ عَنِ جِنْسِ اللَّهِ هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ غَيْرُهُ؟ لَكِنْ مُوسَى أَجَابَ بِبَيَانِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهُ.

[٥١] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ فَخَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مِنْهُ، وَ الْمُرَادُ بِالْخَلْقِ الْوُجُودَ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الْوُجُودِ ثُمَّ هَدَى أَى هَدَاهُ

طَرِيقَهُ فِي الْحَيَاةِ كَيْفَ يَبْقَى وَ يَعِيشُ، فَقَدْ هَدَى اللَّهُ الْأَشْيَاءَ إِلَى طَرِيقِهَا الْفَطْرِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ إِنْسَانًا كَانَ أَمْ حَيْوَانًا أَمْ نَبَاتًا أَمْ جَمَادًا، وَ إِنْ

كَانَتْ الْهَدْيَةُ فِي النَّبَاتِ وَ الْجَمَادِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّوَسُّعِ.

[٥٢] قَالَ فَرَعُونَ، مُوجِّهًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سُؤَالَ تَانِيًا فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى أَى مَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَأَيْنَ ذَهَبَتْ؟ وَ مَاذَا مَصِيرُهَا؟

وَ مِنْ كَانَ رَبُّهَا فَقَدْ هَلَكَتْ، وَ لَا تَعْرِفُ لَهَا رَبًّا؟ وَ لَعَلَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ أَنَّ هَذَا الْقَرْنَ كَتَلَكِ الْقُرُونُ، فَهِيَ كَمَا عَاشَتْ لَا تَعْتَرِفُ

بِالرَّبِّ كَذَلِكَ هَذَا الْقَرْنَ، فَمَا هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ؟

[٥٣] لَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْبَحْثِ حَوْلَ أَوْلِيَّتِكَ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَرْتَبِطُ بِالِدَعْوَةِ فَعَلًا، وَ قَالَ أَرَبَابِ الْمَنَاطِرَةِ، أَنْ مِنْ

عَدَمِ الْفِطْنَةِ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٤

[سورة طه (٢٠): آية ٥٣]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)

يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَرْتَبِطُ بِمَبْحَثِهِ فِي الصَّمِيمِ، وَ لِذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَّمَهَا أَى عِلْمَ تِلْكَ الْقُرُونِ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ

رَبِّي لِذَلِكَ الْكِتَابِ، أَوْ لَا يَخْطِئُ فِي أَمْرِ تِلْكَ الْقُرُونِ وَ لَا يَنْسَى مَا فِيهِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَالِمُ بِشُؤُنِ تِلْكَ الْأُمَمِ وَ قَدْ أُثْبِتَ

شُؤُنُهَا فِي كِتَابٍ خَاصٍّ لَا يَتَطَّرِقُ إِلَيْهِ الضَّلَالُ، وَ لَا الْغَلْطُ.

[٥٤] ثُمَّ رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَمِيمِ الْمَوْضُوعِ وَ هُوَ التَّعْرِيفُ بِإِلَهِ الْكُونِ بِذِكْرِ صِفَاتِهِ وَ آثَارِهِ، فَإِنَّ رَبِّي هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ مَهْدًا كَالْمَهْدِ لِلطِّفْلِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ وَ يَكُونُ سَبِيلاً لِرَاحَتِهِ وَ صِحَّتِهِ وَ سَلَكَ لَكُمْ السُّلُوكَ هُوَ إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ أَى أَدْخَلَ

لِأَجْلِكُمْ فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ سُبُلًا جَمْعَ سَبِيلٍ، أَى طَرِيقًا لِسِيرِكُمْ مِنْ مَحَلِّكُمْ إِلَى مَقْصِدِكُمْ.

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِشَرْبِكُمْ وَ التَّمَتُّعِ بِهِ فِي سَائِرِ حَوَائِجِكُمْ، ثُمَّ التَّفَتُّ السِّيَاقِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ، يَأْتِيَانِ جَمْلَةً خَارِجَةً عَنِ كَلَامِ

مُوسَى، لِیَنْتَقِلَ بِالنَّاسِ مِنْ مَحِيطِ الْقِصَّةِ إِلَى الْمَشَافَهَةِ وَ الْمَشَاهِدَةِ، وَ ذَلِكَ أَبْلَغُ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ السَّامِعِ، كَمَا وَقَعَ مِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْحَمْدِ

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَاءِ أَزْوَاجًا أَصْنَافًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى جَمْعَ شَيْءٍ، كَمُرْضِي جَمْعَ مَرِيضٍ، وَ الْمُرَادُ بِالنَّبَاتِ الْجِنْسِ وَ لِذَا وَصَفَ

بِالْجَمْعِ، نَحْوُ «الدَّرْهَمِ الْبَيْضِ» وَ النَّبَاتَاتِ مَخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالِ وَ الْأَلْوَانِ وَ الطَّعُومِ وَ الرِّوَائِحِ وَ الْخَوَاصِّ وَ الْأَوْزَانِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، فَمَنْ يَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥٤ إلى ٥٧]

كُلُّوا وَ ارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَ لَقَدْ

أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي (٥٦) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧)

تَرَى جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ؟ أَمْ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ هَذَا الْمَخْتَلِفَ الْعَجِيبَ الْاِخْتِلَافِ مِنْ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ وَ مَاءٍ وَاحِدٍ.

[٥٥] كُلُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ هَذَا النَّبَاتِ الْمَخْتَلَفِ وَارْزُقُوا فِيهَا أَنْعَامَكُمْ أَيْ أُسَيْمُوهُمْ حَيَوَانَاتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ لِأُولَى النَّهْيِ جَمْعُ نَهْيَةٍ وَهِيَ الْعَقْلُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ نَهْيَةً، لِأَنَّهُ يَنْهَى الْإِنْسَانَ عَنِ الْفَسَادِ، أَيْ أَنَّ أَصْحَابَ الْعُقُولِ يَعْتَبِرُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَيَسْتَدَلُّونَ بِهَا عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٥٦] مِنْهَا مِنَ الْأَرْضِ الْمَتَقَدِّمَةِ فِي قَوْلِهِ «جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهَيْدًا» خَلَقْنَاكُمْ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ أَوَّلُهُ تَرَابٌ ثُمَّ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ - أَوْ الْحَيْوَانُ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ أَيْضًا - فَيَصِيرُ مَنِيًا ثُمَّ إِنْسَانًا وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ إِعَادَةً، إِذْ الْإِنْسَانُ بَعْدَ مَا يَبْلَى يَنْقَلِبُ تَرَابًا وَمِنْهَا مِنَ الْأَرْضِ نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أَيْ مَرَّةً أُخْرَى لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٥٧] وَلَقَدْ أَرْبَيْنَاهُ أَرِينَا فِرْعَوْنَ آيَاتِنَا الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ مُوسَى وَهِيَ الْمَعْجَزَاتُ التَّسْعُ كُلُّهَا كَلَّهَا كُلِّهَا الْآيَاتُ الَّتِي زُوِدَ بِهَا مُوسَى دَلَالَةً لَصَدَقَهُ فَكَذَّبَ فِرْعَوْنَ بِجَمِيعِهَا وَأَبَى أَيْ ائْتَمَعَ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَصْدُقَ.

[٥٨] وَلَمَّا أَفْحَمَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَجِدْ بَدَأَ مِنْ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِالْكَذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسَحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)

وَالجِدَالُ بِالْبَاطِلِ، كَمَا هُوَ عَادَةٌ كُلُّ مَبْطَلٍ قَالَ مَخَاطِبًا لِمُوسَى أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسَحْرِكَ يَا مُوسَى هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ؟ وَ لَمْ يَرِدْ مُوسَى ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْهَتَهُ فِرْعَوْنَ لِيَجْلِبَ أَهْوَاءَ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ، مَبِينًا أَنَّ مُوسَى لَوْ سَيَّطَرَ أَخْرَجَنَا مِنْ بِلَادِنَا لِيُعْطَى أَرْضَهَا بِيَدِ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

[٥٩] فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسَحْرِ مِثْلِهِ أَيْ مِثْلَ سَحْرِكَ لِيَعْرِفَ النَّاسُ إِنَّكَ كَاذِبٌ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تَتَوَسَّلَ بِوَأَسْطَةِ السَّحْرِ إِلَى الْمَلِكِ وَالرَّئِيسَةِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا وَقْتًا خَاصًا وَمَكَانًا خَاصًا لِيَأْتِيَ كُلَّ فَرِيقٍ بِسَحْرِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ الْغَلْبَةُ فِي ذَلِكَ لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ أَيْ لَا يَقَعُ مِنْ أَحَدٍ مَنَّا خَلْفٌ فِي حُضُورِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مَكَانًا سُوًى أَيْ مُتَوَسِّفًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فَلَا يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْنَا، وَكَأَنَّهُ كَانَ لِمُوسَى مَكَانًا خَاصًا فِي مِصْرَ يُقَاسُ الْمَحَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَمَا يُقَاسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِصْرِ فِرْعَوْنَ، وَ «مَكَانًا» إِذَا عَطْفٌ بِتَقْدِيرِ الْوَاوِ، لَوْ أَرِيدُ مِنَ الْمَوْعِدِ الزَّمَانَ، وَإِنَّمَا بَدَلَ بَعْضَ عَن كُلِّ لَوْ أَرِيدُ مِنَ الْمَوْعِدِ الْأَعْمَ.

[٦٠] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ فَقَدْ كَانَ لَهُمْ يَوْمٌ يُسَمَّى يَوْمَ الزَّيْنَةِ، لِأَنَّ النَّاسَ يَتَرَبَّصُونَ فِيهِ وَيَزِينُونَ الْأَسْوَاقَ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ أَيْ يَجْمَعُ النَّاسَ لِيَشَاهِدُوا أَيْنَا أَصْدُقَ، قَالُوا وَقَدْ جَرَتْ عَادَتُهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٠ إلى ٦٢]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْخَبَ بِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢)

أَنْ يَجْمَعَ النَّاسُ فِي يَوْمِ الزَّيْنَةِ فِي مَحَلِّ خَاصٍ، وَلِذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلْمَكَانِ لِمَعْلُومِيَةِ الْمَحَلِّ مِنْ حَشْرِ النَّاسِ ضُحًى أَيْ وَقْتُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَثَلَا يَلْتَبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ بِوَأَسْطَةِ الظُّلْمَةِ، وَقَدْ جَعَلَ يَوْمَ الزَّيْنَةِ، لِأَنَّ النَّاسَ فِيهِ مُسْتَعِدُونَ وَلَا يَشْتَبَهُ مِنْ لَا يَعْرِفُ الْحِسَابَ وَقْتَهُ.

[٦١] فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ أَيْ كُلَّ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكْرِ، وَذَلِكَ بِجَمْعِ السَّحْرِ مِنْ أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ ثُمَّ أَتَى إِلَى الْمَوْعِدِ، فِي يَوْمِ الزَّيْنَةِ.

[٦٢] وَلَمَّا اصْطَفَى الْجَانِبَانِ، فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةَ وَمَلَأَهُ، وَمُوسَى وَهَارُونَ وَمِنْ مَعَهُمَا قَالَ لَهُمْ أَيْ لِأَوْلَادِكَ الَّذِينَ جَاءُوا لِمُبَارَاظَتِهِ مُوسَى

وَيَلَكُم هِيَ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَى أَلْزَمَكُمُ اللهُ الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ بِسَبَبِ مَا قَصَدْتُمْ مِنْ إِطَالِ آيَاتِ اللهِ، وَ مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ السِّحْرِ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا بَأَنَّ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا، أَوْ تَنْسُبُوا مَعْجَزَاتِهِ إِلَى السِّحْرِ، فَإِنَّهُ افْتِرَاءٌ عَلَى اللهِ الَّذِي زُوِدْنِي بِهَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ. فَيُضَيِّحُ حَيْثُكُمْ أَى يَهْلِكُكُمْ، فَإِنْ سَحَتْ وَأَسْحَتْ بِمَعْنَى أَهْلَكَ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ يَأْخُذُكُمْ وَيَفْنِيكُمْ وَقَدْ خَابَ أَى خَسِرَ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكُذْبَ وَنَسَبَ إِلَيْهِ بَاطِلًا، وَ إِنَّمَا يَخْسِرُ دُنْيَاهُ وَ آخِرَتَهُ.

[٦٣] وَ قَدْ أَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا الْكَلَامَ مُقَدِّمَةً لِلشَّرُوعِ فِي الْمُبَارَاةِ، لَعَلَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤)

يَتَعَطُونَ وَ لَا يَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْخَطَرِ وَ الْهَلَاكِ، وَ قَدْ أَحْدَثَ هَذَا الْكَلَامَ بَيْنَ صَفُوفِ الْقَوْمِ شِقًّا وَ تَنَازَعًا فَصَارَ بَعْضُهُمْ مَعَ مُوسَى وَ بَعْضُهُمْ مَعَ فِرْعَوْنَ، وَ أَخَذُوا يَتَنَاجُونَ بَيْنَهُمْ هَلْ يَصْدُقُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْ لَا؟ وَ هَكَذَا تَأْخُذُ الْبَلِيغَةُ مَكَانَتَهَا فِي النُّفُوسِ، وَ إِنْ لَمْ تَوْثُرْ فِي الْإِتْبَاعِ حَالًا فَتَنَازَعُوا أَى تَنَازَعَ أَصْحَابُ فِرْعَوْنَ، فِي أَمْرِهِمْ وَ أَخَذَ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهُمْ طَرَفًا مِنْ طَرَفِي مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بَيْنَهُمْ جِيءَ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ، لِثَلَا يَسْبِقَ إِلَى الذَّهْنِ كَوْنُ التَّنَازَعِ كَانَ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ وَ أَسْرَوُ النَّجْوَى أَى أَخَذَ بَعْضُهُمْ يَنَاجِي الْآخَرَ سِرًّا حَوْلَ مُوسَى وَ أَنَّهُ هُوَ صَادِقٌ أَمْ لَا؟

[٦٤] وَ آخِرًا أَخَذَ أَصْحَابُ فِرْعَوْنَ يُؤِيدُونَ كَلَامَ فِرْعَوْنَ وَ يَحْرُكُونَ النَّاسَ مِنْ جِهَةِ الْعَاطِفَةِ لِيَقْوُوا بِهِ قُلُوبَ الْمُرْتَدِّينَ قَالُوا إِنَّ أَى نَعْمَ - كَمَا قَالَ فِرْعَوْنَ: أَ جِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ - هَذَانِ مُوسَى وَ هَارُونَ لَسَاحِرَانِ فَمَا الْعَصَى وَ الْيَدُ إِلَّا سِحْرًا يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ أَيُّهَا الْأَقْبَاطُ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا فَإِنَّهُمْ لَوْ غَلَبُوا أَخْرَجُوا كُلَّ مُخَالَفٍ لَهُمْ عَنِ الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ وَ يَرِيدَانِ أَنْ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى أَى طَرِيقَهُ دِينِكُمْ، لَتَكُونُوا مُتَدِينِينَ مِثْلَهُمَا وَ تَتْرَكُوا طَرِيقَهُ آبَائِكُمْ وَ «الْمُثَلَى» مُؤْنِثُ الْأَمْثَلِ، أَى الْأَفْضَلُ وَ الْأَحْسَنُ.

[٦٥] ثُمَّ قَالُوا لِلْمُرْتَدِّينَ مِنْهُمْ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ فَلَا تَدْعُوا شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا جِئْتُمْ بِهِ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَاحِدًا، بَلَا تَفْرُقُ، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ الْإِتْيَانُ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)

الْمُسْتَقْبَلِ وَ إِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ يَكُونُوا صَفًّا وَاحِدًا وَ قَتِ الْمُبَارَاةِ، فَإِنَّ التَّفْرُقَةَ تُضِرُّ الْحُرُكَةَ بِقَدْرِ مَا تَنْفَعُ الطَّرْفَ الْمَقَاتِلَ وَ قَدْ أَفْلَحَ وَ فَازَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى أَى مَنْ قَدْ غَلَبَ وَ عَلَا مِنْ جَانِبِنَا أَوْ جَانِبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَفُوتَنَّكُمْ الْفُرْصَةُ.

[٦٦] وَ بَعْدَ تَوْحِيدِ الصَّفُوفِ، وَ تَقْوِيَةِ قُلُوبِ الْمُرْتَدِّينَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَ أَمْثَالِهَا، تَوَجَّهَتِ السِّحْرَةُ نَحْوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى عَصَاكَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى سِحْرَهُ ثُمَّ تَلْقَى أَنْتَ؟

[٦٧] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ أَلْقُوا أَنْتُمْ مَا مَعَكُمْ وَ لَعَلَّ أَمْرَهُ بِأَبْتَدَائِهِمْ لِإِشْعَارِ الْمَجْتَمَعِ بِعَدَمِ الْإِكْتِرَافِ بِهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَطْمَئِنُّ مِنْ نَفْسِهِ، لَا يَهْمُهُ تَقَدُّمُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَ امْتِثَلِ السِّحْرَةَ وَ أَلْقُوا مَا مَعَهُمْ فَإِذَا جِبَالُهُمْ جَمَعَ حَبْلٌ وَ عَصِيَّتُهُمْ جَمَعَ عَصَى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَى إِلَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ أَى مِنْ أَهْلِ سِحْرِ السِّحْرَةِ أَنَّهَا تَسْعَى فَكَانَ سَعِيهَا خِيَالًا - لَا حَقِيقَةً، وَ فِي آيَةٍ أُخْرَى (سَيَحْرُوَا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاؤُا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) «١» وَ كَانَ الْإِتْيَانُ ب «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ» نَسْبَةً إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانِ عَظَمَةِ السِّحْرِ، حَتَّى أَنَّهُ أَثَّرَ فِي مُوسَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ خِيَلُ إِلَيْهِ كَمَا تَرِيدُ ذَلِكَ الْآيَةُ التَّالِيَةُ أَيْضًا.

(١) الأعراف: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٧ إلى ٧٠]

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّادًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠)

[٦٨] فَأَوْجَسَ فَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً خَوْفًا مِنْ تِلْكَ الْحِبَالِ وَ الْعَصَى مُوسَى فَاعِلٌ أَوْجَسَ،

و روى عن الإمام المرتضى عليه السلام: لم يوجس موسى خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال و دول الضلال «١»

[٦٩] قُلْنَا لِمُوسَى حِينَ خَافَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنْ عَصَاكَ تَبْطُلُ سِحْرَهُمْ وَ تَظْهَرُ زَيْفَهُمْ.

[٧٠] وَ أَلْقَى أَى اطْرَحَ إِلَى الْأَرْضِ مَا فِي يَمِينِكَ أَى الْعَصَا تَلْقَفُ تَبْتَلِعُ مَا صَنَعُوا مِنَ الْحِبَالِ وَ الْعَصَى إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ خَبْرٌ «مَا» أَى إِنْ الذَى صَنَعُوهُ هُوَ كَيْدُ السَّاحِرِ وَ مَكْرَهُ وَ تَدْبِيرَهُ الْخَفِي، وَ لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةُ يَخْشَى مِنْهَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ أَى لَا يَفُوزُ السَّاحِرُ بِبَغِيئَتِهِ وَ مَطْلَبِهِ، وَ مِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ السَّحْرَةَ دَائِمًا مَهَانُونَ، لَا يَتِمَكُونُونَ مِنْ إِدَارَةِ أُمُورِهِمْ مَعَ مَا يَصْنَعُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَدْهَشَةِ الْجَالِبَةِ حَيْثُ أَتَى أَى وَجَدَ، أَوْ حَيْثُ أَتَى بِسِحْرِهِ.

[٧١] فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ، وَ إِذَا بِهَا ثَعْبَانِ مَبِينٍ تَبْتَلِعُ عَصَى السَّحْرَةِ وَ حِبَالَهُمْ، وَ فَرَّ النَّاسُ ذَعْرًا مِنْ خَوْفِهَا فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّادًا أَى أَنَّهُمْ أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ خَاضِعِينَ لِلَّهِ الذَى يَدْعُو إِلَيْهِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ١٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩١

[سورة طه (٢٠): آية ٧١]

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَّنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١)

موسى عليه السلام و كان الإتيان بالمجهول «ألقى» لإفادته أن عملهم هذا كان باندفاع و انهيار، لا كسجدة الإنسان الهادئ قالوا للملأ حوله آمنا برَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى وَ لَعَلَّ تَقَدَّمَ هَارُونَ لِكُونِهِ الْأَخَ الْأَكْبَرَ - كَمَا فِي بَعْضِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَ الْأَخْوِينَ - أَوْ لِلْقَافِيَةِ.

[٧٢] وَ قَدْ أَحْدَثَ إِيمَانَ السَّحْرَةَ اضْطِرَابًا عَجِيبًا فِي صَفِّ فِرْعَوْنَ حَتَّى خَافَ فِرْعَوْنَ أَنْ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ وَ لَمْ يَرِ عَاجِلًا إِلَّا اللَّجُوءَ إِلَى الْقُوَّةِ فَتَوَجَّهَ إِلَى السَّحْرَةِ مَهْدِدًا قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ أَى كَيْفَ آمَنْتُمْ بِمُوسَى، وَ إِنَّمَا عَدَى بِاللَّامِ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى مَعْنَى التَّصْدِيقِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ فَكَيْفَ خَالَفْتُمْ طَرِيقَتِي بَدُونَ الْإِذْنِ وَ تَحْصِيلِ الرَّخْصَةِ؟ ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَعْمَى عَلَى النَّاسِ قِصَّةَ كَوْنِ الْعَصَا إِعْجَازًا، فَآتَى بِالْكَذْبِ وَ الْمِغَالِطَةِ، تَبْرِيرًا لِمَوْقِفِهِ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مِنَ السَّحْرَةِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ لِكَى لَا يَلَامُ بِأَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ الْحَقُّ أَعْرَضَ عَنْهُ إِنَّهُ أَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذَى عَلَّمَكُمُ السَّحْرَةَ فَإِنَّهُ أَسْتَاذُكُمْ فِي عِلْمِ السَّحْرِ، وَ قَدْ تَوَاطَأْتُمْ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ هُوَ بِأَعْظَمِ أَقْسَامِ السَّحْرِ، وَ تَأْتُونَ أَنْتُمْ بِبَعْضِ أَقْسَامِهِ الْأَدْنَى، لَتَرَوْا لِلنَّاسِ غَلْبَتَهُ ثُمَّ تَوَمَّنُونَ بِهِ لِيُؤْمِنَ النَّاسُ - خَدَعَهُ مِنْكُمْ لِلْجَمَاهِيرِ - تَرِيدُونَ السَّيْطِرَةَ عَلَى الْبِلَادِ، ثُمَّ أَخَذَ يَهْدِدُهُمْ كَمَا هُوَ دَابُّ الطَّغَاةِ حَيْثُ يَعْبُزُونَ عَنِ الْقُلُوبِ يَلْجِئُونَ إِلَى تَعْذِيبِ الْأَبْدَانِ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ فَتَقْطَعُ الْيَدِ الْيَمْنَى وَ الرَّجْلَ الْيَسْرَى، أَوْ بِالْعَكْسِ، لِيَخْتَلِ تَوَازُنُ الْبَدَنِ، وَ يَكُونُ عَذَابُهُ أَكْثَرَ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ حَيًّا وَ لَأَصْلَبَّنَّكُمْ الصَّلْبَ هُوَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَ الَّذَى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَفْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣)

الشنق، و له أقسام منها أن يدق يدا المصلوب بجذع أفقى نصب على جذع عمودى، فيبقى المصلوب فى أذيه يوماً أو أياماً حتى يموت فى جُذُوعِ النَّخْلِ و إنما عدى بعلى لإشراب الصلب معنى الرفع، أى أرفعنكم للصلب على أصول نخل التمر. وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّهَا السَّحْرَةُ أَيُّنَا أَىِّ مَنَا و من موسى فيما يدعى و يقول «فَيْسَحِّتُكُمْ بِعَذَابٍ أَشَدَّ عَذَابًا مِنَ الْآخِرِ وَ أَبْقَى أَىِّ أَدُومِ عَذَابًا؟ وَ قَدْ كَانَ ظَنُّ أَنْ عَذَابَهُ أَشَدَّ وَ أَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٧٣] قَالُوا أَىِّ قَالَتِ السَّحْرَةُ فِى جَوَابِ تَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ لَنْ نُؤْتِرَكَ أَىِّ لَنْ نَفْضَلُكَ وَ نَخْتَارُكَ يَا فِرْعَوْنَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ أَىِّ الْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ، فَإِنَّ الْبَقَاءَ فِى طَرِيقَتِكَ مَعْنَاهُ إِنَّا رَجَحْنَاكَ عَلَى الْأَدْلَةِ الَّتِي دَلَّتْنَا عَلَى صِحَّةِ طَرِيقَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ عَلَى الَّذِي فَطَرْنَا أَىِّ لَنْ نَخْتَارُكَ رَبًّا- بَعْدَ هَذَا- عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرْنَا وَ خَلَقْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ أَىِّ فَاصْنَعِ مَا أَنْتَ صَانِعُهُ بِنَا مِنَ التَّعْذِيبِ إِنَّمَا تَفْضِي أَىِّ تَحْكُمُ عَلَيْنَا فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هِيَ دَارُ زَاوَالَةٍ لَا يَهْمُنَا مَا يَصْنَعُ بِنَا فِيهَا.

[٧٤] إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُعْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا أَىِّ مَعَاصِينَا الَّتِي سَلَفَتْ مِنَّا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْإِثْمِ وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ فَإِنَّ السَّحْرَ خُصُوصًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

إِنَّهُ مَنْ يَرَاتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

إذا كان لإبطال نبوة من أعظم الآثام، و لا- يرتفع إثمه بالإكراه إذا كان فى مقابلة النبى، و قد كان فرعون أكرههم على السحر فى مقابل موسى،

فقد روى أن السحرة قالوا لفرعون أرنا موسى إذا نام فأراهم إياه فإذا هو نائم و عصاه تحرسه فقالوا ليس هذا بسحر إن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم إلا أن يعملوا فذلك إكراههم للسحر «١»

وَاللَّهُ خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ وَ هُوَ أَبْقَى أَىِّ أَكْثَرَ بَقَاءً، فَإِذَا آمَنَّا بِهِ كَانَ أَحْسَنَ لَنَا مِنْ بَقَائِنَا فِى طَرِيقَتِكَ، وَ إِنْ خَيْرُكَ لَيْسِيرٌ وَ بَقَائِكَ لِقَلِيلٍ.

[٧٥] إِنَّهُ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا كَافِرًا أَوْ عَاصِيًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا فَيَسْتَرِيحُ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَا يَحْيَى حَيَاةً فِيهَا رَاحَةً، أَىِّ لَا يَبْقَى حَيَاةً فِي رَاحَةٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ حَىِّ فِى أَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَ الْآلَامِ.

[٧٦] وَ مَنْ يَأْتِهِ أَىِّ يَذْهَبُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ حِينَ مَيِّتَ مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ وَ مَا جَاءُوا بِهِ وَ قَدْ عَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ فَكَانَ صَاحِبَ الْعَقِيدَةِ وَ الْعَمَلِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَمْعٌ عَلِيًّا، تَأْنِيثٌ أَعْلَى، أَىِّ لَهُ دَرَجَاتٌ رَفِيعَةٌ فِى الْجَنَّةِ.

[٧٧] ثُمَّ بَيْنَ الدَّرَجَاتِ بِأَنَّهَا فِى جَنَّاتٍ عَدْنٍ أَىِّ بَسَاتِينَ إِقَامَةٍ وَ بَقَاءً، مِنْ

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٤

[سورة طه (٢٠): آية ٧٧]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَ لَا تَخْشَى (٧٧)

عدن بالمكان إذا أقام تجرى من تحتها أى تحت قصورها و أشجارها الأنهار فى حال كونهم خالدين فيها إلى الأبد و ذلك الثواب جزاء من تزكى أى تطهر بالإيمان و الطاعة.

[٧٨] و لما أتممت الحجة على فرعون و ملأه، و لم يؤمنوا، صار القرار من الله سبحانه أن يهلكه مع حاشيته إنجازاً لما وعد به موسى، و قال موسى عليه السلام لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) «١» و لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى بنى إسرائيل و الذين آمنوا

بك، ليلا وإنما أمروا بالسير ليلا لئلا يراهم فرعون فيمنعهم من المسير مع موسى عليه السلام فأضرب لهم أي لمن معك طريقاً أي اضرب بعصاك في البئر يوجد لسيرهم في وسط البحر طريق يبساً أي يابسا لا تخاف نهى في صيغته الخبر، تأكيد لعدم الخوف ذكراً أي إدراك فرعون لك ولا تخشى من الغرق، ففعل موسى ما أمره الله سبحانه، فإنهم لما وصلوا إلى البحر الأحمر متجهين نحو الشام، ضرب بعصاه على البحر، فانفلق الماء، وافتحت لهم اثنتي عشرة طريقاً، ليسير كل قبيلة من القبائل الإسرائيلية من طريق خاص بهم، ولما عرف فرعون بفرار بني إسرائيل بقيادة موسى جهز الجيش لاتباعهم و يردهم.

(١) الأعراف: ١٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٨ الى ٨٠]

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى (٨٠)

[٧٩] فَاتَّبَعَهُمْ أَى اتبع موسى عليه السلام و بنى إسرائيل فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ مع جنوده، أَى ذهبوا خلفهم، حتى وصلوا إلى البحر و رأوا أنهم قد دخلوا البحر يريدون العبور، و هنا توقف فرعون أولاً، و خاف من الغرق إن دخل سلك البحر التي انشق الماء عنها بقدرة الله عز و جل، لكنه أخيراً دخل مع جيشه، فلما توسطوه، و خرج أصحاب موسى من البحر انطبق الماء على آل فرعون فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ أَى جاءهم الماء حتى غطاهم و أحاط بهم، و قوله «ما غشيهم» للتحويل كى يبقى من النفس منه هول و خوف.

[٨٠] وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ فى هذه الحياه بسوقهم إلى البحر الذى لم يكن طريقاً، حتى سبب هلاكهم، و فى الحياه الآخرة بأن أراهم طريقه منحرفه لا تصل إلا إلى النار و ما هدى إلى طريق الحق، فقد بقى فى الإضلال إلى آخر عمره، و كان الإتيان بجملة «ما هدى» لإفاده أنه لم يرجع عن إضلاله، فإن «أضل» إنما يدل على الابتداء فى الإضلال، أما البقاء فيه فإنه لا يفيد.

[٨١] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فِرْعَوْنَ، و قد رأيتم كيف أنجيناكم، بعبوركم من البحر بالإعجاز، و إهلاك فرعون و جنوده هناك و وَعَدْنَاكُمْ أَى واعدنا الكليم موسى عليه السلام أن يأتى جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ أَى الطرف الأيمن من الجبل المسمى بالطور، لإعطاء التوراه، و حيث إن الوعد لرئيس القوم وعد لكل القوم قال سبحانه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨١ الى ٨٢]

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

«و واعدناكم» و الإتيان من باب المفاعلة كأنه لا بد كون الوعد من الطرفين الإعطاء و الأخذ بخلاف مثل وعده أى المتكلم له مع الأمر فإنه وعد، لا مواعده و نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى و هو طير لذيذ يسمى السمانى، و ذلك حين كنتم فى التيه- كما مر تفصيله فى سورة البقره-.

[٨٢] و قلنا لكم كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ المراد بالأمر الإباحه، أَى أبحنا لكم أكل الطيبات و لا- تَطْغَوْا فِيهِ فيما رزقناكم، بأن تستعملوه فى الحرام، كالربا و الاحتكار و الغش و أشباهها، فإنها طغيان و تعد عن الحد فى الرزق الحلال فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي لو طغيتم فى رزقى و الفعل مجزوم- بالفتحه- لكونه فى جواب النهى وَ مَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي بأنه عمل بالمعاصى فاستحق العقاب فَقَدْ هَوَى أَى هلك، كالذى يهوى من السطح إلى الأسفل.

[٨٣] ثم بينا لكم أن من هوى لا- ينقطع عن الله إلى الأبد، بل باب التوبه مفتوح أمامه وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ مبالغه من الغفران لِمَنْ تَابَ عن

معاصيه السابقة التي أظهرها الشرك وَاَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا أَنْزَلَ وَعَمِلَ صَالِحًا بَأْنَ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُ وَعَمَلُهُ ثُمَّ اهْتَدَى أَى بَقِيَ عَلَى الْهَدْيَةِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، أَو الْمَرَادُ بَيَانُ أَنَّ الْإِهْتِدَاءَ لَيْسَ عَقِيدَةً فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٣ الى ٨٥]

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)

القلب، و عملا- بالجوارح، و إنما يحتاج إلى رسوخ الإيمان و التحلى بنور الهداية، و إنما العقيدة و العمل مقدمتان له و مهيتان الجو لإشراقه.

[٨٤] ثم إن الله سبحانه إنجازا لما وعد به موسى عليه السلام، من إعطائه الكتاب الذى فيه أحكامه، فقد انقطع القوم عن أحكام فرعون و أنظمتهم، و احتاجوا إلى أنظمتهم لحياتهم، و دستور لعملهم، أمر موسى عليه السلام أن يأتى إلى الطور مع جماعة من قومه، و صام موسى أربعين يوما مقدمة لذلك، حتى تصفوا نفسه، و تستعد لهذا اللقاء، و لما أتم الصيام تعجل للذهاب إلى الجبل، فى حين كان القوم بعد فى سفح الجبل، فقال له سبحانه و مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى أَى شَيْءٌ صَارَ سَبَبًا لِأَنَّ تَتَقَدَّمُ عَلَى الْقَوْمِ وَ تَصْعَدُ قَبْلَهُمْ؟ و حيث أن عجل أشرب معنى التجاوز عدى ب «عن».

[٨٥] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَوَابِ هُمْ الْقَوْمُ أَوْلَاءٌ جَمَعَ الَّذِي، أَى هُمُ الَّذِينَ عَلَيَّ أَثْرَى مِنْ وَرَائِي يَدْرِكُونَنِي عَنْ قَرِيبٍ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ يَا رَبِّ لِتَرْضَى أَى لِتَرْضَى رِضَا عَنِّي أَوْ لِتَعْجَلَ الرِّضَى عَنِّي.

[٨٦] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ أَى امْتَحَنَاهُمْ لِيُظْهِرَ قَدْرَهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَلْفَ عَادَةً أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْإِقْلَاعُ عَنْهَا مِنْ بَعْدِكَ أَى مِنْ بَعْدِ مَجِيئِكَ إِلَى الطُّورِ، وَ قَدْ كَانَ غِيَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَقَدْ كَانَتْ نَفُوسُ الْقَوْمِ تَأْلَفُ الْوَثْنَ، وَ لِذَا لَمَّا جَاوَزُوا الْبَحْرَ أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا: يَا مُوسَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٨

[سورة طه (٢٠): آية ٨٦]

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦)

اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة و لما غاب موسى انتهز السامرى الفرصة، فأمرهم بجمع حليهم و صنع منها عجلا جسدا و قال هذا إلهكم و إله موسى، و عبده بنو إسرائيل، و هذا كان إضلال السامرى، كما أنه كان امتحان الله لهم، و قد خلى بين السامرى و بين ما يفعل ليظهر دفاثن قلوبهم.

[٨٧] فلما أخذ موسى عليه السلام الكتاب من الله سبحانه فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا فِي حَالِهِ غَضِبَ عَلَى مَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْإِثْمِ، وَ أَسَفَ أَى حَزْنَ وَ تَحَسَّرَ عَلَيْهِمْ، كَيْفَ أَنْهَمُ ضَلُّوا بَعْدَ تِلْكَ الْمَصَاعِبِ وَ الْأَتْعَابِ، وَ لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَوْمِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا بِإِعْطَائِكُمُ الْكِتَابَ وَ جَعْلِكُمْ وَرَثَةَ الْأَرْضِ وَ إِدْخَالِكُمُ الْجَنَّةَ؟ فَلَمَّ انصرفتُم عَنْ وَعْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ وَ لَا يَنْفَعُكُمْ أَبَدًا؟ أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ الَّذِي عَهْدْتُمْ بِإِتْيَانِ التَّوْرَةِ حَتَّى تَعْتَذِرُونَ بِأَنَّكَ أَخْلَفْتَ الْعَهْدَ، وَ لِذَا عَدَلْنَا عَنْكَ وَ عَنْ إِيهَكَ إِلَى هَذَا الْعَجَلِ؟ أَمْ لَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ وَ إِنَّمَا أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَإِنَّ فَعْلَكُمْ هَذَا فَعَلَّ مِنْ يَرِيدُ إِحْلَالَ الْعِقَابِ بِهِ، وَ إِلا فَمَا هُوَ السَّبَبُ لِذَلِكَ؟ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي الَّذِي وَعَدْتُمُونِي بِأَنَّ تَكُونُوا عَلَى عَهْدِكُمْ بَاقِينَ حَتَّى آتِيَكُمُ بِالْكِتَابِ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْمَلُوا تَحْتَ إِمْرَةِ هَارُونَ أَخِيهِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، وَ لَكِنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) طاعته، فأخلفوا موعد موسى عليه السلام.

[٨٨] قالوا أى قال بنو إسرائيل فى جواب اعتراضه و توبيخه ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا أى و نحن نملك من أمرنا شيئاً، فإن الملك مثل الميم بمعنى ما يملك الإنسان، يعنى لم يكن ملكنا و باختيارنا الوفاء و الخلف حتى نفى، و إنما أجبرنا على خلف الوعد و لكننا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ أى حملنا- من مصر- أثقالا- من الذهب من حلى آل فرعون، فقد كانت لديهم حلى من القبط قد استعاروها منهم و ما ألقاه البحر على الساحل بعد غرقهم، و الأوزار جمع وزر، بمعنى الثقل، و سمي الحلى وزرا لثقله جسما أو رتبة فَقَدَفْنَاهَا أى تلك الأوزار ألقيناها فى البوتقة فى النار فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ما معه فى النار، ليسبك الجميع عجلا، أو المراد قذفوها ليتخلصوا منها حيث كانت محرمة و كذلك قذف ما معه السامرى ثم جمعها و جعلها عجلا.

[٨٩] فَأَخْرَجَ السَّامِرِيُّ، و هو رجل منهم يلقب بهذا اللقب- و لعل اللفظ معرب و إلا فأصله فى التوراة يلفظ بشكل آخر- لَهُمْ عِجْلًا و هو ولد البقر جَسَدًا لا روح فيه، و يقال الجسد لما لا روح فيه- غالبا- لَهْ خُوَارٌ كخوار العجل قال بعض المفسرين إنه جعل من العجل منافذ إذا هب الريح فيها خرج من العجل صوت يشبه صوت العجل فَقَالُوا السَّامِرِيُّ و أعوانه هذا العجل إِلَهُكُمْ يا بنى إسرائيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٥٤٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا- وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) وَإِلَهُ مُوسَى فَقَد نَسَى موسى عليه السلام أن إلهه هنا، فذهب إلى الطور يطلبه.

[٩٠] أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرَى بنو إسرائيل أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ «أن» مخففة من الثقيلة، و اسمه ضمير محذوف، أى أن العجل «لا يرجع» فاعله محذوف يرجع إلى العجل و قَوْلًا تمييز، أى لا- يرجع إليهم رجوعاً قولياً، كما تقول «لا يأتى قولاً» أى لا يقول القول، فكأن من يقول، يرجع هو إلى الطرف، و هو من باب علاقة العلة و المعلول، فقد عبر عن إرجاع القول برجوع النفس، و المعنى أفلا يرى بنو إسرائيل أن العجل الذى عبده لا يرد عليهم جواباً وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا و كيف يتمكن أن يضرهم أو ينفعهم ذهب مصوغ؟

[٩١] وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ أى بنى إسرائيل هَارُونُ أخو موسى عليه السلام المخلف عندهم مِنْ قَبْلُ عود موسى إليهم حينما اتخذوا العجل يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ أى امتحنتم بهذا العجل، ليعلم أيكم يعبده و أيكم يتركه، بل يبقى على عبادة ربه، فلا- تعبدوا العجل و إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ الذى رحمكم بنجاتكم من آل فرعون و تفضل عليكم بكل شىء فَمَا تَبْعُونِي فيما أدعوكم إليه وَ أَطِيعُوا أَمْرِي فى عبادة الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠١

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩١ الى ٩٣]

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) [٩٢] قالوا أى الذين عبدوا العجل لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ لا نزال مقيمين على عبادته، فإن برح بمعنى زال، و عكف بمعنى أقام حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى فننظر هل يعبده كما عبدناه، و كما أخبرنا السامرى قائلا: هذا إلهكم و إله موسى، أم لا يعبده؟

[٩٣] و لما رجع موسى عليه السلام و رأى أنهم عبدوا العجل كما أخبره سبحانه من الطور، توجه إلى هارون و قال يا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ

إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ عِبَادَةَ الْعَجَلِ، عَنْ اتِّبَاعِي، وَقَوْلُهُ:

[٩٤] أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَى فِي الْغَضَبِ الشَّدِيدِ لِلَّهِ وَ مَقَاتِلُهُ عِبَادَ الْعَجَلِ أَوْ الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِهِمْ، مَتَعَلِقٌ بِمَحذُوفٍ أَى مَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ، كَمَا أَنْ مَتَعَلِقٌ «مَا مَنَعَكَ» مَحذُوفٌ، وَ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ الْبَلْغَاءُ مِثْلَ هَذَا تَأْكِيدًا لِلنَّفْيِ، فَإِنْ حَذَفَ الْمَتَعَلِقُ فِي «مَا مَنَعَكَ» يَحْدُثُ فِي الذَّهْنِ فَجْوَ وَسِيعَةً وَ هَوْلًا كَمَا أَنْ حَذَفَ الْفِعْلُ فِي «أَلَّا- تَتَّبِعَنِ» يُوْهَمُ ابْتِدَاءَ الْإِنْكَارِ، وَ مِثْلُهُ شَائِعٌ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ) «١» وَقَوْلُهُ:

«مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ أَنْ لَا يَعْمَلُوا حَسَنًا» وَقَوْلُهُ: «وَقَدْ رَأَى الْمَنَعَ فِي أَنْ لَا يَجَارِيهِمْ» وَ لَذَا كَانَ «أَلَّا تَتَّبِعَنِ» أَوَّلَ الْآيَةِ. أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي هَلْ عَصَيْتَ أَمْرِي الَّذِي أَمَرْتُكَ؟ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ:

(١) الأعراف: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٢

[سورة طه (٢٠): آية ٩٤]

قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) (وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) «١» فَكَيْفَ لَمْ تَصْلِحْ؟ ثُمَّ أَخَذَ مُوسَى بِلِحْيَةِ أَخِيهِ وَ رَأْسِهِ يَجْرَهُ إِلَيْهِ، وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنْ يَدِهِ تَضْجِرًا، وَ لَمْ يَكْ هَذَا الْعَمَلُ مِنْ مُوسَى لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْغَضَبِ، كَمَا يَقُولُ الْبَعْضُ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ظَنَّ بِهَارُونَ سُوءًا وَ إِنَّمَا جَرَتْ عَادَةُ الْعُقْلَاءِ عَلَى أَنْ يَبْدُوا اسْتِنكَارَهُمُ الشَّدِيدَ لِغَيْرِ الْمَجْرَمِ، فِي أَقْوَالٍ وَ أَعْمَالٍ، لِيَعْرِفَ الْمَجْرَمُ وَقَعَ الْجُرْمَ، وَ لَا- يَكُونُ هُوَ الْمَعْتَبَرُ الْأَوَّلُ، لِثَلَا- يَثَارُ نَفْسُهُ، فَإِنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْهَمَ جَارِكَ سُوءَ عَمَلِهِ مِنْ إِقَاءِ الْقِمَامَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ، تَقُولُ لَوْلَدِكَ: «لِمَاذَا يَصُبُّ الْقَذَارَةَ عَلَى بَابِ دَارِنَا؟ هَلْ أَنْتَ أَعْمَى حَتَّى لَا تَمْنَعُ الصَّابِ؟ وَ لَوْ رَأَيْتَ الْقِمَامَةَ بَعْدَ هَذَا لَضْرِبْتِكَ» وَ إِنَّمَا الْوَلَدُ بَرِيءٌ مِثْلَكَ وَ أَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا تَرِيدُ إِفْهَامَ الْجَارِ، عَلَى طَرِيقَةِ «إِيَّاكَ أَعْنَى وَ اسْمَعِي يَا جَارَةٌ» وَ هَذَا مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ وَ الْبَلَاغَةِ.

[٩٥] قَالَ هَارُونَ مَخَاطِبًا لِمُوسَى يَا بَنُ أُمَّ وَ إِنَّمَا خَصَّ الْأُمَّ بِالذِّكْرِ، اسْتِعْظَافًا وَ تَرْقِيقًا لِيَسْكُنَ الْغَضَبُ الْمَشْتَعَلَ فِي مُوسَى عَلَى عِبَادِ الْعَجَلِ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي وَ لَمْ يَقُلْ هَارُونَ ذَلِكَ، إِلَّا لِكَيْ يَعْرِفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْمَذْنُوبَ فِي الْقِصَّةِ، لِأَنَّهُ رَأَى مُوسَى غَضَبَانَ عَلَيْهِ إِنِّي خَشِيتُ لَوْ فَارَقْتَهُمْ وَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَنْ تَقُولَ أَنْتَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ خَرَجَ الزَّعِيمُ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ يُوْدِي إِلَى تَفْرِقِهِمْ، كَمَا أَنْ مَحَارَبَتَهُ لَهُمْ تُوْدِي إِلَى التَّفْرِقَةِ، وَ قَدْ كَانَ عَذْرُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبًا، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَتَّبِعُونَ الْخَلْفَ كَمَا يَتَّبِعُونَ

(١) الأعراف: ١٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) الرَّئِيسُ، وَ بِأَدْنَى شَيْءٍ يَتَفَرَّقُونَ عَلَيْهِ وَ تَقُولُ لَمْ تَرْقُبْ يَا هَارُونَ قَوْلِي أَى لَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّتِي فِي مَا أَوْصَيْتَكَ بِهِ أَنْ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمَفْسِدِينَ، فَتَقُولُ لِي إِنَّكَ لَمْ تَصْلِحْ حِينَ سَبَبْتَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْقَوْمِ، بِغَضَبِكَ الشَّدِيدِ عَلَيْهِمْ، أَوْ مَقَاتِلَتِكَ لَهُمْ، أَوْ خُرُوجِكَ مِنْ بَيْنِهِمْ. [٩٦] وَ لَمَّا أَظْهَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَرَاءَةَ سَاحَةِ أَخِيهِ، وَ أَبَدَى لَوْمَةَ الشَّدِيدِ وَ غَضَبَهُ عَلَى عِبَادِ الْعَجَلِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، وَ بِهَذَا الْقَالَ تَوَجَّهَ إِلَى السَّامِرِيِّ رَأْسَ الْفِتْنَةِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَا خَطْبُكَ أَى مَا شَأْنُكَ وَ مَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى مَا صَنَعْتَ يَا سَامِرِيُّ حَيْثُ

أضللت الناس؟

[٩٧] قَالَ السامرى بَصِيرَةٌ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أَى رَأَيْتَ مَا لَمْ يَرَوْهُ أَوْ فَطَنْتَ بِمَا لَمْ يَفْطِنُوا بِهِ، فَقَدْ رَأَيْتَ جِبْرَائِيلَ عَلَى فَرَسٍ - فِى صُورَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ - فَقَبِضْتَ قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ أَثَرِ الرَّسُولِ تَحْتَ قَوَائِمِ فَرَسِهِ فَتَبَدُّتُهَا طَرَحَتْ تِلْكَ التَّبَدُّدُ فِى الْعَجَلِ الَّذِى صَنَعْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ فَكَانَ لَهُ هَذَا الْخَوَارِ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ التَّرَابِ وَكَذَلِكَ الَّذِى حَدَّثَكَ يَا مُوسَى سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أَى زَيْنَتَهُ لِي حَتَّى أَوْجَهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى نَفْسِي، وَقَدْ احْتَمَلَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَانَ كَذْبًا مِنَ السامرى أَرَادَ بِهِ أَنَّ يَبْرُرُ سَاحَتَهُ وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ فِى أَنَّهُ فَطَنَ بِمَا لَمْ يَفْطِنَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَ لَوْ وَرَدَ بِمَا ذَكَرَهُ أَثَرٌ صَحِيحٌ لَمْ يَكُنْ مُخَالَفًا لِلْمَقَائِيسِ إِذْ رُؤْيَةُ الْإِنْسَانِ لِلْمَلِكِ مُمْكِنٌ، كَمَا إِنَّ الْخَوَارِ لِأَجْلِ الْأَثَرِ مُمْكِنٌ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٤

[سورة طه (٢٠): آية ٩٧]

قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرَّقَهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)

و لا يوجب عذر من يعبد العجل، إذ لا عذر بعد تمام الحجّة، أ رأيت لو جاء أحد الآن و قال: إن هذه الفأرة إلهكم، و على يده فأرة مصنوعة من النحاس لكنها تتحرك، هل يكون المعترف بكونها إلهها معذورا؟

[٩٨] ثم أعلن موسى عليه السلام طرد السامرى عن جماعة بنى إسرائيل إلى الأبد قال للسامرى فادْهَبْ مِنْ بَيْنِنَا فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ فَقَدْ كَانَ إِذَا مَسَّهُ أَحَدٌ أَخَذَتْهُ الْحَمِي عَقُوبَهُ لَمَا اقْتَرَفَ مِنْ صَنْعِ الْعَجَلِ، كَمَا أَنَّ الْمَاسَ كَانَتْ تَأْخُذُهُ الْحَمِي بِمَسِّهِ السامرى، فمعنى لا مساس: لا أمس أحدا و لا يمسنى أحد. و

قد ورد في الحديث أن السامرى كان سخيا

و لذا لم يقتله موسى عليه السلام و إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَعَذَابِكَ الشَّدِيدِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَنْ تُخْلَفَهُ أَى لَنْ تَخْلَفَ ذَلِكَ الْوَعْدَ، بَلْ يَأْتِيكَ بِالْقَطْعِ وَ الْيَقِينِ وَ انْظُرْ يَا سَامِرَى إِلَى إِلْهِكَ أَى الْعَجَلِ الَّذِي كُنْتَ تَسْمِيهِ إِلْهَا الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا أَى مُقِيمًا تَعْبِدُهُ وَ تَرْشِدُ النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ لَنْتَحَرَّقَهُ بِالنَّارِ حَتَّى يَذُوبَ ثُمَّ لَنْبَرِدَنَهُ بِالْمَبْرَدِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْتَّرَابِ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ أَى الْبَحْرِ نَسْفًا أَى لَنْذَرِيهِ، وَ قَدْ أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ بَيَانَ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يَحْرَقُ بِالنَّارِ، وَ يَبْرَدُ، وَ يَنْسِفُ فِي الْبَحْرِ لَا يَكُونُ إِلْهَا، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ عُلِقَتْ نَفُوسُهُمْ بِمَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ عَيُونُهُمْ، فَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ أَدْعَى لِرُدْعِهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ - وَ هَذَا الْعَمَلُ، مِنْ قَبِيلِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَلِيغَ قَدْ يَظْهَرُ مَا يَنْوِيهِ فِي الْعَمَلِ لِتَقْرِيعِ الْمَجْرَمِ، فَإِنَّ الْعَجَلَ لَمْ يَكُنْ مَذْنِبًا، أَوْ يَفْهَمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلْهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)

هذا العمل، و إنما أريد بذلك تقريع غيره-

[٩٩] إِنَّمَا إِلْهُكُمُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلْهَ إِلَّا هُوَ فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، لَا الْعَجَلَ الْمَصْنُوعَ مِنَ الذَّهَبِ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَى أَنَّ عِلْمَهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ، فَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِبَيَانِ أَنَّ أَعْمَالَكُمْ كُلَّهَا مَعْلُومَةٌ لَدَيْهِ، فَلَا يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ مَا يَنْفَى أَمْرَهُ وَ رِضَاهُ، كَمَا أَنَّهُ تَعْرِيفٌ بِالْعَجَلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، كَيْفَ يَكُونُ إِلْهَا؟

[١٠٠] كَذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَبَأَ مُوسَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ السَّابِقِينَ وَ أَمْمَهُمْ وَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ وَ عِظَةٌ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ أَى أَعْطَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ لَدُنَّا مِنْ عِنْدِنَا، فَنَحْنُ الْمَصْدَرُ، لَا إِنَّا وَاسِطَةٌ ذِكْرًا أَى الْقُرْآنَ

الذى يذكر الناس بالمبدأ والمعاد، و سائر المعارف، مما هي مفطورة في خلقتهم، وإنما القرآن يذكرهم بها.

[١٠١] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ أَى عَنْ هَذَا الذِّكْرِ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا حَمَلًا ثَقِيلًا مِنَ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي.

[١٠٢] فى حال كونهم خالدين فيه فى ثقل ذلك الحمل، و المراد الخلود فى جزائه، و هو النار- بعلاقة السبب و المسبب-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٢ الى ١٠٤]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

و ساء لهم يوم القيامة حملًا أى بس الحمل حملهم، فى ذلك اليوم المهول، فإنه حمل يوجب إدخالهم النار.

[١٠٣] ثم بين يوم القيامة بأنه يوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ و الصور هو: البوق الذى ينفخ و يصيح فيه إسرافيل مخاطبا الأرواح لتلتحق

بأجسادها، قائلًا للناس: أحيوا بأمر الله سبحانه، و هى النفخة الثانية و نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ الذين أجرموا بالكفر و العصيان يَوْمَئِذٍ أى

من يوم النفخ زُرْقًا جمع أزرق، فإن الإنسان المكدر المهموم تلعو وجهه زرقة.

[١٠٤] يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ أى يتكلمون ياخفات و سر، فإن الإنسان إذا أخذته الدهشة أو الجلال لا يتكلم إلا خفية و نجوى، يقول بعضهم

لبعض: إِنْ لَبِثْتُمْ مَا بَقِيتُمْ و مكتتم فى الدنيا إِلَّا عَشْرًا عشرة ليالى، فإنهم يقللون مدة لبثهم فى الدنيا، و هكذا الإنسان يقلل ما مضى من

عمره، كأنه شىء يسير.

[١٠٥] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ لا يغيب عنا شىء، و المراد أن سرهم لا يخفى علينا إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أى أرشدهم فى الحساب، و

أصوبهم فى الرأى إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا أى ما بقيتم فى الدنيا إلا يوما واحدا، و إنما كان أرشدهم لأن من كان أرشد يرى عمر الدنيا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٥ الى ١٠٨]

وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)

أقل، لما يرى من زوالها بسرعة.

[١٠٦] وَ يَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْجِبَالِ مَا حالها يوم القيامة فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْسِفُهَا أى يقلعها و يدكها رَبِّي نَسْفًا و دكا،

فقد جاء رجل من ثقيف سائلًا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمتها؟ فقال صلى الله عليه و

آله و سلم: إن الله يسوقها بأن يجعلها كالرمال، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها «١»

[١٠٧] فَيَذَرُهَا أى يذر الجبال و يجعلها قاعًا أى أرضا ملساء منكشفة صَفْصَفًا أى مستوية لا علو فيها و لا نتوء، و الصفصف هو:

المستوى من الأرض.

[١٠٨] لا تَرَى فِيهَا فى تلك القاع المصفصف المكون من الجبال، حيث انتشرت على الأرض عِوَجًا اعوجاجا بالعلو و الانخفاض و لا

أَمْتًا أى أكمه، قالوا: العوج الانخفاض، و الأمت الارتفاع.

[١٠٩] يَوْمَئِذٍ أى فى يوم القيامة يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ الذى يدعوهم للحياة و للجمع فى المحشر لا عِوَجَ لَهُ أى لا اعوجاج للداعى

بحيث يدعو بعضا و يذر بعضا، و إنما دعوة عامة شاملة للجميع وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ فَلا ترتفع لِلرَّحْمَنِ الذى يتفضل عليهم

هناك كما يتفضل عليهم هنا فَلا تَسْمَعُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٩ إلى ١١١]

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)
من الناس، أيها السامع إلاً همساً صوتاً خفياً.

[١١٠] يَوْمَئِذٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَجْرِمِينَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، أَوْ يَشْفَعُ، فَهَنَّاكَ كُلِّ مِنَ الشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَعْيِينِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَرَضِيَ الرَّحْمَنُ لَهُ لِذَلِكَ الشَّافِعِ أَوْ الْمَشْفُوعِ لَهُ قَوْلًا أَيْ مِنْ كَانَ مَرْضَى الْقَوْلِ، بِأَنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَهُ مَقَامِ الشَّفَاعَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّافِعِ - وَ مُؤْمِنًا غَيْرِ مُسْتَحِقِّ لِلْعِقَابِ الْقَطْعِيِّ - بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْفُوعِ لَهُ.

[١١١] وَ لَيْسَ هُنَاكَ الْأَمْرُ اعْتِبَاطًا، كَالدُّنْيَا الَّتِي لَا - يَعْلَمُ الْحَاكِمُ فِيهَا، مَا يَسْتَحِقُّ الْمَحْكُومُ لَهُ، إِنْ هُنَاكَ فِي مَعْرُضِ الْإِلَهِ الْعَالَمِ بِكُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ وَقَدِمَهُ إِلَى الْآخِرَةِ - فِي حَيَاتِهِ - وَمَا خَلْفَهُمْ أَيْ مَا خَلْفُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآثَارِ الصَّالِحَةِ أَوْ الْفَاسِدَةِ وَلَا يُحِيطُونَ أَوْلَيْكَ بِهِ أَيْ بِاللَّهِ عِلْمًا فَهُوَ يَعْلَمُهُمْ، وَ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَا شَاءَ.

[١١٢] وَ هُنَاكَ عَنْتِ أَيْ خَضَعَتْ وَ ذَلَّتِ الْوُجُوهُ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْخُضُوعَ إِلَى الْوَجْهِ لِأَنَّهَا يَظْهَرُ فِيهَا أَثَرُ الْخُضُوعِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ فَلَيْسَ مِثْلًا لَا يَعْلَمُ، وَ لَا غَائِبًا لَا يَدْرِكُ، وَ إِنَّمَا هُوَ حَيٌّ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا وَقَدْ خَابَ خَسِرَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا أَيْ نَوْعٌ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٢ إلى ١١٤]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

الظلم كان شركاً، أو عصياناً، فإنه يخسر ثواب الله سبحانه، و يخسر نفسه فيما لو أدخل النار.

[١١٣] وَ أَمَّا مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ مُقَابِلَ مَنْ عَمِلَ ظُلْمًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فِي الْعَقِيدَةِ بِمَا يَلْزَمُ الْإِيمَانَ بِهِ فَلَا يَخَافُ مِنَ الْآخِرَةِ ظُلْمًا إِذْ لَا ظَلَمَ هُنَاكَ عَلَى أَحَدٍ، بَلْ عَدْلٌ وَ فَضْلٌ وَ لَا هَضْمًا بِأَنْ يَهْضُمَ مِنْ حَقُوقِهِ وَ يَنْقُصَ مِنْ ثَوَابِهِ، وَ الظُّلْمُ أَنْ يَعْاقِبَ بِلَا سَبَبٍ، وَ الْهَضْمُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ.

[١١٤] وَ كَذَلِكَ الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ مِنَ الْقِصَصِ وَ أَخْبَارِ الْقِيَامَةِ أَنْزَلْنَاهُ أَيْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيَعْرِفَهُ قَوْمُكَ، فَإِنَّهُ بِلِسَانِهِمْ وَ لُغَتِهِمْ، لِثَلَاثٍ يَقُولُوا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ وَ صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أَيْ كَرَرْنَا فِيهِ مِنْ جِنْسِ الْوَعِيدِ، وَ التَّصْرِيفُ هُوَ تَحْوِيلُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي قَوْلٍ مُتَعَدِّدٍ لِلْفَائِدَةِ، وَ الْوَعِيدُ هُوَ الْإِعَادَةُ بِالنَّارِ وَ الْعِقَابُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَيْ لِكَيْ يَتَّقَى هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِيَ وَ الْآثَامَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا بِأَنْ يَذْكُرَهُمُ الْقُرْآنُ بِمَصَائِرِ الْأَمْرِ الْمَكْذُوبَةِ فَيَتَذَكَّرُونَ وَ يَنْقَطِعُونَ عَنِ الْكُفْرِ وَ الْآثَامِ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرِ إِنْ إِحْدَاثِ الذِّكْرِ، مُقَدِّمَةً لِلتَّقْوَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَذَكَّرَ كَانَ مَعْرُضًا لِأَنْ يَتَّقَى حَيْثُ يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ الْخَوْفُ وَ يَنْتَهَى بِالْآخِرَةِ إِلَى التَّقْوَى.

[١١٥] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي عَنْتَ لَهُ الْوَجْهُ، وَ يَعْاقِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٠

[سورة طه (٢٠): آية ١١٥]

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

المجرمين، و يثبت المطيعين، الذي أنزل القرآن ليكون درسا و تذكرة و قد كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل تمام نزول الآية، فأنزل سبحانه لا تعجل بالقرآن قراءة من قبل أن يقضى إليك وحيه أي يتم الوحي، بل أصبر

حتى يتم جبرائيل ما جاء به ثم اقرأ ما جاء، وقضى بمعنى تم، كما قال سبحانه: (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ) «١» وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا فَإِنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْكُونَ مَا سَبَقَ وَمَا حَضَرَ وَمَا يَأْتِي، وَذَلِكَ مِنْ أَوْسَعِ الْأُمُورِ، فَالِإِحَاطَةُ بِهِ غَيْرُ مَيْسُورٍ لِغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الَّذِي هِيَ الْأَسْبَابُ لِلْبَشَرِ لِتَعْلَمَ بَعْضُهَا، وَلِذَا يَأْمُرُ اللَّهُ الرَّسُولَ، بِأَنْ يَدْعُوَ لِلزِّيَادَةِ فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ كَمَا زَادَ عِلْمَ الْإِنْسَانِ، زَادَتْ قِيَمَتُهُ وَأَجْرُهُ وَقَرَبَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ- فِيمَا لَوْ عَمِلَ بِمَا عِلْمٌ- [١١٦] وَبِمُنَاسَبَةِ مَبَادِرَةِ الرَّسُولِ فِي تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى إِلَيْهِ وَحْيَهُ خَوْفَ النِّسْيَانِ، كَمَا فِي سُورَةِ أُخْرَى: (سَيُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى) «٢» يَأْتِي الْكَلَامُ حَوْلَ نِسْيَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا عَاهَدَ اللَّهُ مَعَهُ، وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ إِنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فِي الْجَنَّةِ، وَقَلْنَا لَهُ: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) «٣» مِنْ قَبْلِ أَيِّ سَابِقًا فَنَسِيَ الْعَهْدَ، إِمَّا حَقِيقَةً، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّهُ تَرَكَ الْعَهْدَ، فَكَانَ كَالنَّاسِي، مِنْ قَبِيلِ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) «٤» وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) الأعلى: ٧.

(٣) طه: ١١٩ و ١٢٠.

(٤) التوبة: ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)

الأنبياء معصومون عن كل الخطأ والنسيان وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا أَيَّ تَصْمِيمٍ رَأَى وَثَبَاتٍ أَمْرًا، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَى الْعَزْمِ، وَهُمْ خَمْسَةٌ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

[١١٧] وَإِذْ جَاءَ ذِكْرُ مَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَاسِبَ السِّيَاقِ بَيَانِ قِصَّتِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ) «١» وَلِأَنَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَةَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي الْخَتَامُ، لِئِنَّا نَسَبَ الْجَوَّ الْعَامَّ لِلسُّورَةِ، الَّتِي هِيَ حَوْلَ الْعَقِيدَةِ.

وَإِذْ ذَكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ قَوْلًا لَفْظِيًّا، بِخَلْقِ صَوْتِ سَمْعُوهُ، أَوْ إِلْهَامًا وَنَقْرًا فِي الْقَلْبِ، وَالْمَلَائِكَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ «أَلَك» بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ، وَسَمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَسَلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَوَامِرِهِ وَتَبْلِيغَاتِهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ إِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ فَإِنَّهُ أَبَى وَامْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ كِبْرًا وَطَغْيَانًا.

[١١٨] فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَيُّ قَلْبًا لآدَمَ بَعْدَ كِبَرِ الشَّيْطَانِ عَنْ سَجْدَتِهِ إِنَّ هَذَا الشَّيْطَانُ عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجِكَ حَوَاءَ، يَرِيدُ بِكَمَّا الشَّرَّ وَالْخَدِيعَةَ فَلَا تَغْتَرَا بِهِ وَاحْفَظَا أَنْفُسَكُمَا عَنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ أَيَّ لَا يَكُونُ سَبَبَ خُرُوجِكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ بِأَنْ تَطِيعَاهُ فِيمَا نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ- نَهَى تَنْزِيهِهِ- لِيَكُونَ مَصِيرُكُمْ خُرُوجَ فَتَشْقَى أَيَّ فَتَقَعَ فِي

(١) طه: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

إِنَّ لَكَ أَلَّا- تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا- تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠)

تعب العمل وكد الاكتساب و زحمات الدنيا، فإن الشقاء التعب، كما تقدم في قوله: (طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشتقى) (١) و إنما جاء بالمفرد لأن المخاطب آدم، و رعايته لرؤوس الآي، و إلا فالمراد شقاء كليهما.

[١١٩] ثم بين سبحانه محاسن البقاء في الجنة التي تزول بالخروج منها، و قد كان الأمر للإرشاد كأوامر الطبيب الذي يقول إن عملت بهذه الوصفة، لم تمرض، فإن أمره إرشادي ليس بواجب و إنما تعود الفائدة إلى المريض بذاته إن لك يا آدم ألاً تجوع فيها أى فى الجنة لسعة طعامها و عدم التعب فى تناوله و لا- تغرى لكثرة ثياب الجنة، فلا يبقى الإنسان فيها عارياً، و بحاجة إلى الكد و العمل لتحصيل الثياب.

[١٢٠] و أنك يا آدم لا- تظموا فيها أى لا- تعطش فى الجنة لوفرة مياهها و لا- تضحى يقال ضحى الرجل إذا برز للشمس، أى لا يصيبك حر الشمس.

[١٢١] فوسوس إليه أى ألقى فى نفس آدم الشيطان إلقاء خفية قال يا آدم إنك لا تبقى فى الجنة أبداً إلا أن تعمل بوصيتى و تأخذ بإرشادى ف هل أدلك و أعرفك على شجرة الخلد الشجرة التى من أكل منها خلد فى الجنة و لم يخرج منها أبداً و ملك لا يتلى لا

(١) طه: ٢ و ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٣

[سورة طه (٢٠): آية ١٢١]

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)

يفنى و لا يزول؟

[١٢٢] و قد مال آدم إلى كلامه، إذ أقسم له أنه ناصح مشفق، و لم يكن آدم سمع أحدا يحلف بالله كاذبا و حيث أمرهما بالأكل من الشجرة المنهية، تذكر آدم نهى الله سبحانه بقوله لهما: (و لا تقربا هذه الشجرة) (١) لكن الشيطان تدارك الأمر و قال (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) (٢) يعنى أن النهى إنما هو لأجل أن تبقيا على حالتكما الإنسانية، فإذا أكلتما أصبحتما ملكين، و بالنتيجة نفذت المكيدة فيهما فأكلا آدم و حواء منها من تلك الشجرة فبدت لهما سؤآتُهُما أى ظهرت لهما عورتهما، حيث أن بمجرد الأكل، سقطت ملابسهما عن أبدانهما، كما قال سبحانه: (يتزرع عنهما لباسهما) (٣) و السوءة هى العورة و طفقاً أى شرع آدم و حواء يخصت فأن عليهما يلصقان على أنفسهما- ليخرجا من العرى و ظهور السوءة- من ورق الجنة من أوراق أشجارها.

و عصى آدم ربّه خالف أمره الإرشادى، فإن الأمر على ثلاثة أقسام: الوجوبى، و الندبى، و الإرشادى، و فى مخالفة كل منها يستعمل لفظ العصيان، يقول الطبيب لمريضه المخالف لإرشاده: لم عصيتنى حتى يدوم مرضك؟ فغوى أى ضل الطريق المسعد له.

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٢١.

(٣) الأعراف: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٤

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (١٢٣)

فإن الغواية ضلال الطريق، وهو كما يصح في مخالفة الوجوب، يصح في مخالفة الإرشاد، فإن الأكل من الشجرة سبب أن يخرج من الجنة، و أي ضلال عن السعادة أكبر من هذا؟

[١٢٣] فندم آدم مما فعله و عرف أن الشيطان غره و حلف بالله كاذبا، فأخذ يتوب و يبكي ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ أَي اصطفاه و اختاره لأن يكون نبيا و غفر ذنبه في مخالفته للأمر الإرشادي فَتَابَ عَلَيْهِ التَّوْبَةَ هِيَ الرجوع، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاصِيَ يَتَعَدَّ عَنْ اللَّهِ، و الله سبحانه يعرض عنه، فإذا ندم الإنسان و استغفر، و تاب إلى الله، تاب الله عليه و رجع إليه وَ هُدِيَ أَي هداه لمصالحه، و أراه الطريق الموجب لعودته إلى الجنة، بعد ما غوى و ضل الطريق.

[١٢٤] قَالَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ اهْبِطَا أَيُّهَا الْفَرِيقَانِ فَرِيقَ آدَمَ وَ حَوَاءَ، و فريق الشيطان مِنْهَا أَي اخرجنا من الجنة جَمِيعًا كلكم، و الهبوط إما باعتبار علو الجنة حسا عن الأرض، و إما باعتبار علوها رتبةً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عِدُوٌّ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لآدَمَ وَ حَوَاءَ، و هما عدوان له، و باعتبار آخر، أن الرجل و المرأة أيضا عدو بعضهم لبعض فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى «إن» للشرط و «ما» زائدة لتجميل الكلام، أي إن أتاكم من طرفي أسباب الهداية، بأن أمرتكم بأوامر تهديكم إلى طريق الحق في الدنيا، و السعادة في الآخرة فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ وَ أَخَذَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٤ الى ١٢٦]

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)

بأوامري و إرشاداتي فَلَا يَضِلُّ طريق السعادة، كما غوى آدم و لَا يَشْقَى لا يبقى في تعب و نصب كما شقى آدم أي وقع في النصب و التعب- و هذا خطاب عام لكل البشر، و إن كان طرف الخطاب هم الثلاثة-.

[١٢٥] وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي بَأَنَّ لَمْ يَتَّبِعْ أوامري، التي ذكرته بها، و سميت الأوامر ذكرا، لما أودع في فطرة الإنسان من أصولها و جذورها فَإِنَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَةً ضَنْكًا ضيقه، و ذلك لأن أوامر الله سبحانه أكثر ملائمة للحياة، فالإعراض عنها يوجب ضيق العيش ماديا أو روحيا و لذا نرى أن الكفار حتى في أوج ماديتهم الظاهرية في أضنك الحالات الروحية و أضيق المجالات النفسية وَ نَحْشُرُهُ نحشر المعرض، و معنى الحشر جمعه مع سائر بني نوعه في يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى العين، لا يرى شيئا، [١٢٦] و كم يتأذى الإنسان في ساحة مهولة مدتها خمسون ألف سنة، و فيها من الأهوال ما تذهل البصير فكيف بالأعمى، و لذا يسأل الكافر قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى أَي لماذا أحضرتني في هذا الموقف أعمى البصر و الحال أني في الدنيا قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا أرى الأشياء؟

[١٢٧] قَالَ اللَّهُ فِي جَوَابِهِ كَذَلِكَ الْعَمَى الَّذِي أَصَابَكَ هُنَا. كما كنت في الدنيا، فقد كنت في الدنيا أعمى البصيرة، و لذا ابتليت هنا بعمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٧ الى ١٢٨]

وَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨)

البصر فقد أَتَتْكَ و جاءتك آياتنا الدالة على وجودنا و سائر صفاتنا فَنَسِيَتْهَا تركتها فعل الناسى بالمنسى، و أعرضت عنها و أغفلت بصيرتك دونها وَ كَذَلِكَ أَي كُنسيانك عن الآيات اليَوْمَ فِي الْقِيَامَةِ تُنْسَى تهمل و لا يعتنى بشأنك، بل تبقى في تعب العمى و نصب الأهوال المتراكمة التي تلقفك من هنا و هناك.

[١٢٨] وَ كَذَلِكَ أَي كما جزينا من نسي الآيات بالضنك و العمى و النسيان له نَجْزِي كُلَّ مَنْ أَسْرَفَ جاوز الحد بالكفر و العصيان وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ «من أسرف» أو لأن عدم الإيمان تسبقه حالة نفسية تجاوز به عن الحد وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ لِلْمُسْرِفِ أَشَدُّ

من الضنك في الدنيا وأبقى أكثر بقاء، فإن الضنك في الدنيا هين زائل، أما عذاب الآخرة فهو شديد باق.

[١٢٩] ثم بين سبحانه أن الكفار في ضلاله حيث لم يعتبروا بما مضى من عذاب الله للأمم السالفة أفلَمْ يَهْدِ لَهُمْ استفهام إنكارى توبيخي، أى ألم يرشد هؤلاء كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ هذا فاعل يهد، أى إهلاكنا للقرون السابقة، لم يصر سببا لهداية هؤلاء إلى الحق، و خوفهم من العقاب في الدنيا أن تمادوا في غيهم و كفرهم يَمْشُونَ هؤلاء الكفار المعاصرين لك يا رسول الله في مَسَاكِينِهِمْ فقد كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٩ الى ١٣٠]

وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)

كفار مكة يمرون بمساكن عاد و ثمود و قوم لوط عند ذهابهم إلى الشام، و يرون آثارهم و علاماتهم، كما قال سبحانه: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِبِّحِينَ * وَاللَّيْلِ) «١» أفلا- يخافون أن يصيبهم ما أصاب أولئك إن في ذلِكَ الإهلاك لأولئك لآياتٍ لعبر و دلالاتٍ لتأولى النهى النهى جمع نهيء، و هو العقل أى لأصحاب العقول، يعتبروا بها و لا يعملوا مثل أعمال أولئك حتى يبتلوا بمثل مصيرهم.

[١٣٠] و لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ في تأخير العذاب عن الكفار في الدنيا، فقد أراد الله سبحانه، و إرادته كلمته، أن لا يعذب هؤلاء في الدنيا بمثل عذاب الأمم السابقة، و لعل ذلك لأجل أن هذه الأمة تأتي بأولاد و ذراري صالحين، كما صار من أبى عامر «حنظلة» و من أبى سفيان «أم حبيبة» و هكذا، و الله سبحانه لا يعذب إلا إذا لم يكن صالح في ذرية الكافر كما قال سبحانه: (لَوْ تَرَىٰ أُولَآءِ لَعَدَّبْنَا) «٢» و قال (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا) «٣» لكَانَ الْعَذَابُ لِزَامًا لَهُمْ، و اللزام مصدر، و وصف به كقولك زيد عدل و أَجَلٌ مُّسَمًّى عطف على «كلمة» أى لو لا الكلمة و الأجل المسمى أى المدة التى سميت لهؤلاء الكفار لكان العذاب لازما لهم.

[١٣١] و إذ كان لهؤلاء الكفار مدة لا بد أن يقضوها حتى يأتيهم الموت، و إن الله لم يشأ هلاكهم مثل إهلاكه للأمم السابقة فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) الصفات: ١٣٨ و ١٣٩.

(٢) الفتح: ٢٤.

(٣) نوح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٨

[سورة طه (٢٠): آية ١٣١]

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رَزَقْنَا رَبِّكَ خَيْرًا وَأَبْقَى (١٣١)

على ما يَقُولُونَ في شأن التوحيد و الرسالة و سائر أنواع أذاهم و سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى نزه الله بالحمد، فإن الحمد ثناء و تنزيه - كما تقدم - قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ صباحا و قَبْلَ غُرُوبِهَا أى عصرا و مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ آناء الليل ساعاته، و هو جمع «إنى» على وزن «إلى» و لعل الإتيان ب «من» دون «في» لإفادة الابتداء و الشروع أى أشرع بالتسبيح من ساعات الليل و سبِّحْ أَطْرَافَ النَّهَارِ بالإضافة إلى قبل الغروب و الطلوع، كما بعد الطلوع و وقت الضحى، و أول الظهر و عند وقت العصر لَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرْضَى فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الدائم الاتصال بالله، الذى يذكره صباحا و مساء و فى ساعات الليل و ساعات النهار، تطمئن نفسه بالله، و يرضى لمقدراته و أحكامه و سنته لأن يكون عارفا بالله هادئا إلى ما قضى و قدر، فالرضا من ثمار التسبيح، كما قال سبحانه: (وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) «١» و (أَلَا بِذِكْرِ

اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٢) ثم إن تكرار التسييح لتعلق أحدهما بالصباح والمساء، وأحدهما بآناء الليل وأطراف النهار. [١٣٢] اتصل بالله سبحانه وقر نفسا بفضله و لطفه و ذكره و لا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ أَى لا تنظر نظر رغبة و ميل - فإن الرؤية قسم من إمداد العين

(١) التغابن: ١٢.

(٢) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٩

نحو الشىء لأن الإنسان يتصل بذلك الشىء بواسطة إلقاء شعاع عينه عليه، و إن قلنا فى مسألة الرؤية بالانطباع - إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ الضمير يعود إلى «ما» أزواجاً أصنافاً مِنْهُمْ من البشر أو من الكفار، و المعنى لا ترغب فى الجاه و المال و البنين التى متع بها الناس، فإنها أمور زائلة فانية، و لا ينبغي للإنسان أن يرغب فيها، فإنما هى زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الزهرة هى النور الذى يرون عند الرؤية، و لذا يقال لكل شىء مستنير زاهر، و نصبها على كونها حالاً - من «ما» أى أن ما متعنا القوم، إنما هى بهجة الحياة العاجلة و نضارتها لِفَتْنَتِهِمْ فِيهِ أى نمتحنهم بسببه، و الضمير يعود إلى «ما» و جىء ب «فى» لأن الإنسان يعيش فى وسط تلك البهجة و النضارة.

و ليس المعنى أن لا يرغب الإنسان فى الحياة، بل المعنى أن لا يجعل الحياة منتهى نظره - بل ينظر إليها نظراً عرضياً، و لذا قال سبحانه: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (١) وَ رِزْقُ رَبِّكَ الذى وعدك فى الآخرة خَيْرٌ من متعة الحياة الدنيا وَ أَبْقَى أى أكثر بقاء لأن الحياة الدنيا فانية، و تلك الحياة باقية، أو أن المراد، أن منع الكفار من الحرام، و رزق الله من الحلال خير لعدم العقاب فيه، و أبقى لأنه ذو بركة و بقاء بخلاف الحرام الذى لا بركة فيه، كما قال سبحانه: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَ يُزْبِي الصَّدَقَاتِ) (٢)

(١) البقرة: ٢٠٢.

(٢) البقرة: ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٣٢ الى ١٣٣]

وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبِرْ عَلَيْهَا لا تَسْتَلِكْ رِزْقًا نَحْنُ نَزَرُوكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَ قَالُوا لَوْ لا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ ما فى الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣)

[١٣٣] و إذا توجهت أنت إلى الله سبحانه و لم تمد عينيك إلى زهرة الحياة، فاللازم أن توجه عائلتك إلى الله سبحانه، كما توجهت أنت وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ فإنها عمود الدين، و الصلة بين الله و بين العبد وَ اضْطَبِرْ أى اصبر، و كأن الاضطبار أقوى دلالة من الصبر. لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. عَلَيْهَا على الصلاة فإنها صعوبة التكرار كل يوم خمس مرات، مما لا يتأتى إلا بصبر طويل، و لعل تخصيص الأهل، لكونهم الأسوة، و لفرض تعليم المسلمين فإن الواجب على المسلم أن يبدأ بأهله، ثم بين سبحانه أن هذا التكليف ليس مستلزماً للمشفقة كطلب سائر الموالى من عبيدهم أن يكتسبوا لهم و يأتوا لهم بالرزق لا نَسْتَلِكْ يا رسول الله رِزْقاً بل عبادة و طاعة نَحْنُ نَزَرُوكَ فإن من يرزق لا يطلب الرزق وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى فرزقك فى الحياة علينا، و عاقبتك فى الآخرة على التقوى، و فى الأحاديث ما حاصله أن الله و كل أمر الدنيا إلى نفسه، و أمر الآخرة إلى الناس، فاللازم أن يعمل الإنسان حتى ينال سعادة الآخرة.

[١٣٤] و فى ختام السورة يأتى الحديث عن المتكبرين و الكفار الذين لا يؤمنون و يأتون بحجج واهية، حيث أن الجو العام للسورة

كان حول العقيدة، و المؤمنين و المكذبين و قالوا يعنى الكفار لَوْ لا أى لماذا لا يَأْتِينَا الرسول بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أى بخارقة نقترحها عليه؟

فقد كانوا يقترحون خوارق تعتنا لا حقيقةً واستظهاراً أو لَمْ تَأْتِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٣٤ الى ١٣٥]

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)

ألم تصل إليهم بيئته ما في الصحف الأولى بيان ما في الكتب الأولى من أخبار الأمم التي أهلكناهم لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها فما ذا يؤمنهم أن يكون حالهم كحال أولئك الأمم، إذا جئناهم بآية كفروا، فتحل عليهم العقوبة؟ أو المراد إنا جئناهم بآية، وهي القرآن الذي هو مشتمل على الحجج التي كانت في الصحف السابقة، وهل من بينة وحجة بعد القرآن؟ و«بيئته» صفة «آية» المقدره، أي الآية البيئته - بمعنى الواضحة -.

[١٣٥] لقد تمت على هؤلاء الحجج بتزول القرآن، فإن يهلكوا بعد ذلك، ويدخلوا النار، فليس إلا من أنفسهم ولسوء تلقيهم للآيات و لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ أَى أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ قَبْلِ الرَّسُولِ - أَهْلَكْنَا هُمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَبِكُفْرِهِمْ - لَقَالُوا وَاحْتَجُوا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا أَى لِمَاذَا لَمْ تَرْسَلْ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِنَا أَوْ أَمْرِكَ فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَعْمَلْ بِمَا فِيهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بِالْعَذَابِ وَنَخْزَى مِنَ النَّارِ؟ وَ قَدْ كَانَ حِينَذَلِكَ الْحَقُّ مَعَهُمْ، فَكَيْفَ يَعَذِّبُ مَنْ لَمْ يَتَمَّ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ؟ أَمَا وَقَدْ أَرْسَلْنَا الرَّسُولَ وَعَصَوْا، فَإِنَّهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَ لَوْ عَذَّبْنَا هُمْ لَا مَجَالَ لَهُمْ لِلْإِحْتِجَاجِ.

[١٣٦] و إذ قد تمت الحجج عليهم، و لم يؤمنوا، فليتنظروا العذاب قُلْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٢

يا رسول الله لهم كُفْلٌ أَى وَاحِدٌ مِنَّا وَ مِنْكُمْ مُتَرَبِّصٌ مُنْتَظِرٌ ليرى المصير، و ينظر لمن الغلب، و أينما يعذب و أينما ينعم؟ فَتَرَبِّصُوا أَى فَانْتَظَرُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ - وَ هَذَا أَمْرٌ لِلتَّهْدِيدِ - فَسَتَعْلَمُونَ إِذَا مَتَّمْ مَنْ مِنَّا وَ مِنْكُمْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ أَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَ مَنْ اهْتَدَى إِلَى الْحَقِّ، هَلْ نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٣

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء السابع عشر من آية (١) سورة الأنبياء إلى آية (٧٩) سورة الحج

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٥

٢١ سورة الأنبياء مكية / آياتها (١١٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على ذكر الأنبياء عليهم السلام و قصصهم، و هذه السورة كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، الألوهية، و الرسالة، و المعاد و حيث ختمت سورة «طه» بالوعيد، فتحت هذه السورة بذكر القيامة التي هي محل الثواب و العذاب.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَسْتَعِينُ بِاسْمِ اللَّهِ لِيَكُونَ اللَّهُ مَعِينًا، وَ إِنَّمَا الْإِتْيَانُ بِالِاسْمِ، دُونَ «بِاللَّهِ» لِإِفَادَةِ سَمُو الْمَسْمَى حَتَّى كَأَنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَسْتَعَانَ بِهِ، كَمَا فِي الدُّعَاءِ «لَاذِ الْفُقَرَاءِ بِجَنَابِكَ» وَ الْجَنَابُ هُوَ الْعَتَبَةُ، لِإِيْهَامِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَسْمَى مِنْ أَنْ يَلُودَ بِذَاتِهِ الْفُقَرَاءُ، وَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي يَتَرَحَّمُ عَلَى عِبَادِهِ بِالْفَضْلِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ يَعْينُ بِفَضْلِهِ مَنْ اسْتَعَانَ بِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدِّثٍ إِلَّا اسْتَ مَعَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)

[٢] أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ الْاِقْتِرَابُ: افتعال من القرب، يعنى قرب وقت حساب الناس، والمراد به إما القبر، وإما الموت فإن كليهما قريب و إن ظن الإنسان بعدهما، و لذا

قال الرسول: بعثت أنا و الساعة كهاتين - و أشار بإصبعيه-

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنِ السَّاعَةِ لَا يَسْتَعِدُونَ لَهَا وَ لَأَهْوَاهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مُّعْرِضُونَ عَنِ التَّذَكُّرِ وَ الْاِسْتِعْدَادِ.

[٣] مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدِّثٍ أَى جَدِيدٍ، كَالْآيَاتِ الَّتِي تَنْزَلُ، وَ الْأَحْكَامِ الَّتِي تُوْحَى، لِأَجْلِ تَذَكِيرِهِمْ وَ إِرْشَادِهِمْ إِلَّا اسْتَمَعَوْهُ مَجْرَدَ سَمَاعِ بَأْذَانِهِمْ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ مَشْغُولُونَ بِاللَّعْبِ، لَا يَبَالُونَ بِالتَّذَكُّرِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ.

[٤] فِي حَالِ كَوْنِهِمْ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ أَى أَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي لَهْوٍ، وَ هُوَ مُقَابِلُ الْجِدِّ، فَآذَانُهُمْ تَسْمَعُ، وَ قُلُوبُهُمْ لَا تَطِيعُ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى إِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، أَخَذَ يَنَاجِي بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ وَ الرَّسُولِ يَقُولُونَ هَلْ هَذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَى لَيْسَ الرَّسُولُ إِلَّا- أَحَدُ أَفْرَادِ الْبَشَرِ فَكَيْفَ يَدْعَى النَّبُوَّةَ؟ وَ كَيْفَ يُؤْمِنُ بِهِ النَّاسُ، وَ الْحَالُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَلِيقَ بِهَذَا الْمَنْصَبِ الَّذِي يَدْعِيهِ، ثُمَّ أَرَادُوا زِيَادَةَ تَنْفِيرِ النَّاسِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِقَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ أَ فَتَأْتُونَ السَّحْرَ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤ الى ٥]

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

كيف تقبلون السحر الذى أتى به محمد، و تأتون بمعنى تذهبون إلى السحر و أنتم تبصرون و الحال أنتم ترون أنه سحر.

[٥] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي جَوَابِ هَؤُلَاءِ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي لِإِشْعَارِهِمْ بِعَدَمِ أَهْمِيَةِ إِشْكَالِهِمْ، فَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ إِنْسَانٌ تَقُولُ: قَلْتُ لَكَ سَابِقًا، تَرِيدُ أَنَّ هَذَا الْإِشْكَالَ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ، وَ إِنَّمَا قَدْ أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَ شَرِبَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ أَى يَعْلَمُ كُلَّ مَا يَقَالُ حَوْلَ الْقُرْآنِ وَ الرَّسُولِ، فِي جَمَلَةٍ سَائِرِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُهَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فَأَيْنَ مَا كَانَ الْقَوْلَ يَعْلَمُهُ وَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ، وَ هَذَا كَالْتَهْدِيدِ، بَأَنَّ أَقْوَالَهُمْ مَحْفُوظَةٌ سَيَجَازُونَ عَلَيْهَا وَ هُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِهِمُ الَّتِي يَتَنَاجُونَ بِهَا الْعَلِيمُ بِأَفْعَالِهِمْ وَ ضَمَائِرِهِمْ.

[٦] إِنْهُمْ مَا آمَنُوا بِالرَّسُولِ وَ الْقُرْآنِ بَلْ قَالُوا حَوْلَ الْقُرْآنِ إِنَّهُ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أَضْغَاثُ جَمْعِ ضَغْثٍ، وَ هُوَ: الْخَلْطُ مِنَ الشَّيْءِ، وَ الْأَحْلَامُ جَمْعُ حَلْمٍ، وَ هُوَ: الْمَنَامُ، يَعْنِي: إِنَّ الرَّسُولَ يَرَى فِي الْمَنَامِ أَحْلَامًا مَضْطَرِبَةً فَيَلْفَقُهَا وَ يَصْنَعُهَا قِرْآنًا بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ افْتَرَاهُ فَلَيْسَ اللَّهُ نَزَلَ شَيْئًا وَ إِنَّمَا هُوَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ يَبْلُ قَالَ جَمَاعَةٌ هُوَ أَى الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ شَاعِرٌ وَ أَنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ، فَقَدْ كَانَ الْقُرْآنُ بِهَرَمٍ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَقُولُونَ حَوْلَهُ، فَمَرَّةً يَقُولُونَ حَلْمٌ، وَ أُخْرَى كَذَبٌ عَنِ عَمْدٍ، وَ ثَالِثَةً شِعْرٌ وَ رَابِعَةً سِحْرٌ وَ هَكَذَا فَلْيَأْتِنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِنْ كَانَ صَادِقًا بِآيَةٍ خَارِقَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، كَمَا زُودَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦ الى ٧]

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلُكُنَاهَا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) موسى بالعصا، و صالح بالناقذة و هكذا كما أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

[٧] وقد أجبهم الله سبحانه في طلبهم هذا بأنه ما آمنت قبلهم من قزية أى أهل قرية أهلكتنا لتكذيبها الأنبياء عليهم السلام، بعد ما أعطيناهم الآيات المقترحة، كما أرادوها أفهم أى فهل بعد أولئك هؤلاء المقترحون يؤمنون كلا إنهم كالأمم السابقة، لا يؤمنون و إن أرسلنا إليهم مثل تلك الآيات، فإن الإنسان نوع واحد، و ما كان عليه السابقون هو الذى يكون عليه اللاحقون، فإن أرادوا الحجة فقد تمت عليهم، و إن أرادوا العناد، فالمعاند لا يؤمن مهما كان.

[٨] أما ما ذكروا من أنك بشر و كيف يكون البشر رسولا؟ فإن الأنبياء عليهم السلام السابقين أيضا كانوا بشرا و ما أرسلنا قبلك يا رسول الله إلّا رجالاً نوحى إليهم فهم بشر يمتازون عن سائر الناس بما أوحى إليهم فشدّوا أيها الكفار المجادلون أهل الذكر أى أهل الكتاب، و يسمون بأهل الذكر، لأن الكتاب يسمى ذكرا، حيث إنه يذكر الناس بما أودع فى فطرتهم من المبدأ و المعاد و المعارف إن كنتم لا تعلمون فإنهم يجيبون بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا بشرا، و ما روى من تفسير الآية بالأئمة عليهم السلام فإنه من باب المصداق الظاهر بالنسبة إلى هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨ الى ٩]

و ما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام و ما كانوا خالدين (٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم و من نشاء و أهلكتنا المفسرين (٩) الأئمة، فإن الأئمة عليهم السلام هم أهل الكتاب الذين يعلمونه و يعرفون حدوده و أحكامه، كما أن العلماء و من إليهم أيضا من أهل الذكر.

[٩] و قد كان الكفار يقولون (ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق) «١» ظانين أن الرسول يجب أن لا يأكل و لا يمشى، فردهم الله سبحانه بأن الأنبياء عليهم السلام السابقين كانوا كذلك و ما جعلناهم جسداً أى أجسادا، و إنما جىء بالمفرد باعتبار كل واحد لا يأكلون الطعام و الجسد يطلق على الميت، أو ما يشبهه، كأنه أخذ فيه معنى الفراغ من الروح أو الطعام و ما كانوا أولئك الأنبياء خالدين لا يموتون، بل كانوا يعيشون حياة البشر، و يموتون مماتهم، و أنت يا رسول الله أحدهم فلا مجال لقولهم كيف يكون الرسول بشرا؟

[١٠] و لا يهملك يا رسول الله تكذيب هؤلاء فإن العاقبة المنتظرة لك، كما إن الأنبياء السابقين كانت لهم العاقبة الحميدة ثم صدقناهم الوعد بأن وينا بوعدنا لهم، حيث وعدناهم (إننا لننصبرُ رُسُلنا) «٢» و نصرناهم فى خاتمة المطاف فأنجيناهم من كيد الأعداء و أنجينا من نشاء من المؤمنين بهم، كما حدث فى قصة نوح و موسى و إبراهيم و لوط و عيسى و غيرهم و أهلكتنا المفسرين الذين أسرفوا فى الكفر

(١) الفرقان: ٨.

(٢) غافر: ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠ الى ١٢]

لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون (١٠) و كم قصصنا من قزية كانت ظالمة و أنشأنا بعدها قوماً آخرين (١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (١٢)

و المعاصى، و هذا بشارة للنبي و المؤمنين، و تهديد للكفار، و نحن إذ نقرأ هذه الآية نرى أن الله سبحانه صدق الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الوعد فقد أنجاه و المؤمنين و نصره على الكفار، و أهلكت المفسرين، كما وعده هنا، و قد مرّ على القصة أربعة عشر قرناً، إذ السورة مكية - كما سبق - [١١] و ما لهؤلاء الكفار لا يعقلون؟ إنهم إن عقلوا علموا أن هذا الكتاب الذى يحاربونه أشد محاربة

كتاب فيه شرف لهم إن آمنوا به لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مِنْ أَنْفُسِنَا فَخَبِّرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّكُمْ شُرَافِيَّةٌ كَذَّبْتُمْ بِهَا فَكَتَبْنَاهُمْ فِي قُلُوبِكُمُ الْكُفْرَ وَالْكَرْبَ وَالْطَّبْغَ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْكَلْبِ وَالْجَنْبَاقَ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْخَيْلِ وَالْحَمْلَ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْشَّيْطَانَ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْبَشَرِ وَالْجَانَّ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْبَنَاتِ وَالْجَانَّ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْبَنَاتِ وَالْجَانَّ الَّذِي يَخْتَلَطُ فِي الْبَنَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هذا الأمر الواضح؟ فتتبعون الكتاب و تتمسكون به.

[١٢] و إن أعرضتم و لم يعظكم التبشير و التخويف فانتظروا عاقبة المكذبين و كَمْ قَصَمْنَا أَى أَهْلَكْنَا، و أصل القصم كسر الظهر الذى يكون مع الصوت مِنْ قَوِيَّةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً أَى مَا أَكْثَرَ مَا أَهْلَكْنَا و عذبتنا أهل القرى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى و أَنْشَأْنَا أَوْجَدْنَا بَعْدَهَا أَى بَعْدَ تِلْكَ الْقَرْيَةِ، بمعنى بعد إهلاك أهلها قَوْمًا آخَرِينَ فنحن لسنا بحاجة إلى أحد، و لا يصعب علينا تبديل أناس بأناس.

[١٣] و حيث أردنا إهلاك القرية فجاءهم آثار العذاب أخذوا يفرقون من العذاب فَلَمَّا أَحْسَسُوا أَى أَدْرَكُوا بحواسهم بَأَسْنَا عَذَابَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا أَى مِنَ الْعُقُوبَةِ، أو من القرية يَزُكُّونَ هاريين من العذاب،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٣ الى ١٥]

لَا تَزُكُّوا و أَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ و مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَبِّهُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

كما جرت العادة بأن الإنسان إذا رأى العذاب قد جاء من ناحية يركض هاربا منه لثلا يشمله.

[١٤] لكن هل كان فرارهم و ركضهم نافعا؟ كلا! فقد كان لسان الحال يقول لهم- حين ذاك- لا تَزُكُّوا فَإِنِ الْفِرَارُ لَا يَنْفَعُ و أَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أَى: أسباب ترفكم من زخارف الدنيا و مَسَاكِينِكُمْ ارجعوا إلى بيوتكم، فأين تفرون و تتركون هذه الأشياء النفيسة؟ و قد كان هذا القول لهم من باب التقرير و الاستهزاء لَعَلَّكُمْ تُشْتَبِّهُونَ فَإِنِ الْإِنْسَانَ الْمَتْرَفَ الَّذِي فِي مَنْزِلِهِ يَسْأَلُهُ النَّاسُ الْحَوَائِجَ، فارجعوا إلى محلكم و جاهكم الذى كان يقف الناس لأجله على أبوابكم يسألون الحوائج.

[١٥] و لم يعد عند فرارهم جواب منهم على هذا الاستهزاء، بل قالوا: يَا وَيْلَنَا أَى يَا سَوْءَ حَالِنَا، أو يا قوم ويلنا، و الويل كلمة يقولها من يطلب الهلاك تضجرا من الحالة التى هو فيها، فالمعنى يا ويل احضر فهذا وقتك أو يا قوم إن ويلنا حضر إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لأنفسنا حيث لم نؤمن و كذبنا الأنبياء.

[١٦] فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ، أَى يَا وَيْلَنَا دَعْوَاهُمْ أَى دَعَاؤُهُمْ و ذكرهم حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا أَى مَحْصُودًا قد شملهم العذاب الذى فروا منه، حتى كأنهم السنبل المحصود الذى يقطع فلا حياة فيه خَامِدِينَ ساكنى الحركات، من خمد ضد اشتعل، فكأنهم لم يكونوا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ و مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ و لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

[١٧] إن الكفار بلهوهم و لعبهم يزعمون أنهم خلقوا للهو و اللعب بينما إن الكون كله خلق للجد و لغايات و حكم عالية، فكيف يصرف هؤلاء عمرهم لهوا، و يزعمون أن القرآن و الرسالة لعب، ما يأتيهم ذكر إلا و هم يلعبون لاهية قلوبهم، كما قال قائلهم:

لعبت هاشم بالملك فلاخبر جاء و لا وحى نزل

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ و مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ و الموجودات لِأَعْيُنٍ فِي حَالِ كُونِنَا لِأَعْيُنٍ فِي خَلْقَتِهَا، بل إنما خلقت للجد و للغرض الصحيح، بأن تكون نعمة و دلالة و مقدمة للشواب الدائم.

[١٨] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا بِأَنَّ أَرَدْنَا أَنْ نَلْعَبَ و نلهو- على فرض المحال- لَاتَّخَذْنَاهُ أَى جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ لَدُنَّا فَإِنِ كُلُّ لَاعِبٍ يَكُونُ لَعِبِهِ مَلَانِمًا لِذَاتِ اللَّاعِبِ، فالرجل الكبير يلعب بالكرة، لا بالدمية، عكس الطفل الذى يلعب بالدمية، و الملك يلهو بالصيد، لا بأخذ

الذباب، كما يلهو به الشحاذ، وهكذا لو أراد الله سبحانه أن يتخذ اللهو لكان لهو من جنس الروحانيات المرتبطة بعالم الله، لا من الماديات الخارجة عن مقامه الرفيع إن كُنَّا فاعِلِينَ لاتخاذ اللهو، تأكيد لعدم أخذه اللهو، وبعضهم جعل «إن» نافية، أى ما كنا فاعلين.

[١٩] بل إنا نبطل اللهو و الباطل، فإن الإنسان لم يخلق لأجلها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٩ الى ٢٠]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) و لا خلقنا سائر المخلوقات للهو حتى نترك اللهو بحاله ف نَقْذِفُ بِالْحَقِّ أَى نرمى الحق - كالرامى الذى يرمى الهدف من بعيد، و فيه دلالة على شدة الضرب - عَلَى الْبَاطِلِ أَيَا مَا كَانَ لَهْوًا أَوْ غَيْرَ لَهْوٍ فَيَدْمَعُهُ يَبْطُلُهُ وَيَفْنِيهِ وَيَمْحَقُهُ فَإِذَا هُوَ أَى الْبَاطِلِ زَاهِقٌ زَائِلٌ مُضْمَحَلٌ وَ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ الْوَيْلُ وَالْعَذَابُ مِمَّا تَصِفُونَ اللهُ بِهِ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ الْهَوَى وَالْبَاطِلَ، أَوْ مِمَّا تَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ مِنْ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ شَعْرٌ أَوْ أَحْلَامٌ أَوْ مَا أَشْبَهَ.

[٢٠] و كيف يستكبر هؤلاء عن الخضوع لله سبحانه، و الحال أنه الملك المطلق، و أن الذين هم أشرف منهم لا- يستكبرون عن عبادته؟ و لَهُ سبحانه مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْعُقَلَاءِ، فكيف غيرهم؟ أو غلب العقلاء على غيرهم، فإن الإنسان فى الأرض، و الملائكة فى السماء له تعالى، و كذلك سائر الأشياء و مَنْ عِنْدَهُ أَى الْمَلَائِكَةُ و المراد ب عِنْدَهُ الْقُرْبُ الْمَعْنَوِي تشبيها له بالقرب الحسى لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ أَى لَا يَأْتُونَ وَلَا يَتَرَفَعُونَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَطِيعُوا أَوْامِرَهُ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ الْاسْتِحْسَارَ الْانْقِطَاعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ، يقال:

استحسر فلان عن عمله، يعنى انقطع عنه إعياء، أى إن الملائكة لا يعيون عن العبادة بل إنهم دائمو التبعيد.

[٢١] و لذا قال يُسَبِّحُونَ اللهُ تَعَالَى، أى ينزهونه عما لا يليق بشأنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَى فِيهِمَا، و الإسناد مجازى، نحو «يا سارق الليلة أهل الدار» لا يَفْتُرُونَ أَى لَا يَأْخُذُهُمُ الْفِتْرُ وَالضَّعْفُ عَنِ الْعِبَادَةِ، هذا حال الملائكة الذين هم أشرف من هؤلاء، فكيف يستكبر هؤلاء؟

[٢٢] و حيث فرغ السياق من تفرغ الكفار، حول قولهم عن القرآن و الرسول، و استكبارهم عن عبادة الله سبحانه، أخذ فى تفرغهم حول فعلتهم الأخرى، و هى جعل الشركاء لله سبحانه أَمْ اتَّخَذُوا هَذَا اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخِي، أى كيف اتخذ هؤلاء الكفار آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ و هى: الأصنام المنحوتة منها، فإن كل صنم من أصل أرضى، و هل الإله يكون من جنس الأرض؟ فهل هُمْ يُنْشِرُونَ أَى يَقْدِرُونَ عَلَى نَشْرِ الْأَمْوَاتِ، و إحيائهم، كلا! إذن فليسوا هم آلِهَةٌ، لأن من أول صفات الإله أن يقدر على إحياء الميت، و هذا من التهكم، كما تقول:

إن فلانا يقتدى بالعالم العامل زيد، تريد التهكم بالمقتدى و المقتدى فتأتى بصفة العالم العامل لزيد- و هو خالى عنهما- تهكما.

[٢٣] ثم استدل سبحانه على استحالة تعدد الآلهة لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ الْمُرَادُ الْإِهَانُ، فأكثر إلاً اللهُ أَى مُتَّصِفَةٌ بِكُونِهَا غَيْرَ اللهِ، و المراد انه لو كان من هذا الجنس أحد غير الله لَفَسَدَتَا أَى فَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ و ما استقامتا، و المراد بالظرف أعم من المظروف- كما تقدم- و حيث نرى أنهما باقيتان مستقيمتان نستدل بذلك- استدلالاً آنيا، أى استدلالاً من المعلول إلى العلة- على أنه ليس فى الوجود أكثر من إله واحد هو الله سبحانه، و إنما يلزم تعدد الآلهة الفساد، ثم إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٥

الاستدلال على عدم التعدد من وجهين: الأول من ناحية الذات، والثاني من ناحية اللوازم.

أما الأول: وهو من ناحية الذات، تقريره أنه لو كان إلهان لكان بينهما جامع ولكل منهما مائر، والجامع غير المائر، فيلزم تركيب الإله، وكل تركيب مستلزم لعدم الألوهية، إذ المركب يحتاج إلى الأجزاء وإلى المركب، والمحتاج مسبوق بالغير، والمسبوق بالغير ممكن لا واجب فليس بإله.

وأما الثاني وهو من ناحية اللوازم، تقريره أنه لو كان إلهان هل يعقل تخالفهما في الإرادة- كأن يريد هذا إحياء زيد والآخر عدم حياته- أم لا يعقل؟ وكل من المعقوليّة وعدمها مستلزم لعدم التعدد، أما لو كان تخالفهما في الإرادة معقولا فلا يخرج الحال عن ثلاثة أمور:

إما أن يقع مرادها وهو محال لاستلزامه اجتماع النقيضين. وإما أن لا يقع مرادها وهو محال لاستلزامه ارتفاع النقيضين. وإما أن يقع مراد أحدهما، وذلك مستلزم لعدم كون الآخر إلهاً لأنه محدود القدرة مغلوب على أمره، وأما لو كان تخالفهما في الإرادة غير معقول فليس ذلك لاستحالة ذاتية في مراد أحد الإلهين- كإحياء زيد- وإنما الاستحالة ناشئة من مخالفة الإله الآخر، وذلك يستلزم العجز الملازم للإمكان، فهذا الإله الذي لا يعقل أن يريد إحياء زيد عاجز، والعاجز لا يكون إلهاً، لما تقرر في علم الكلام من أن العاجز لا يعقل أن يكون إلهاً إذ بساطة الوجود في الإله، وإمكان المهية في المقابل، ووحدة نسبة الإله إلى جميع الممكنات، مستلزم للقدرة المطلقة، وبهذا التقرير تبين: أن الدليل لا يتوقف على تخالف الإرادة خارجاً، حتى يقال إنهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)

حكيان فلا يتخالفان في الإرادة.

فلو فرضنا- مستحيلاً- أن هناك إلهين، كان اللوازم أن يستقل كل في مراده، وذلك مستلزم للفساد إذ يريد هذا المطر، وذاك عدمه مثلاً فيتنازعان مما يؤدي إلى فساد العالم فَسَبْحَانَ أَى أَنزَهُ اللَّهُ تَزْيِيهَا عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ رَبِّ الْعَرْشِ أَى مَالِكِ الْكُونَ، فَإِنَّ الْعَرْشَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَلِكِ، وَهَنَّاكَ عَرْشٌ عَظِيمٌ جَدًّا، هُوَ اللَّهُ مَالِكُهُ، وَقَدْ جَعَلَهُ مَوْضِعَ تَشْرِيفِهِ لِلْمَلَائِكَةِ، كَمَا جَعَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَوْضِعَ تَشْرِيفِهِ لِلْبَشَرِ عَمَّا يَصِفُونَ اللَّهَ بِهِ- هُوَ الْكَفَّار- مِنَ الشَّرِيكِ، فَيَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ مُتَّصِفٌ بِأَن لَّهُ شَرِيكٌ.

[٢٤] إنه تعالى لكون جميع أفعاله عن حكمه و صواب و صلاح لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أَى لَيْسَ لَهُ شَأْنِيَةٌ أَنْ يُسْأَلَ، إِذِ الْحَكِيمُ لَا يُسْأَلُ عَنْهُ: لَمْ تَفْعَلْ؟

فهو من قبيل «لا- ريب فيه» الذي كان معناه ليس بموضع ريب وإن ارتاب فيه المبطلون وَهُمْ أَى الْبَشَرِ أَوِ الْكُفَّارِ يُسْئَلُونَ عَمَّا فَعَلُوا لِأَنَّهُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ يَخْطِئُونَ كَمَا يَصِيبُونَ، وَ الْمَخْطِئُ يُسْأَلُ وَ يَحَاسِبُ.

[٢٥] و بعد أن استدلل القرآن على بطلان التعدد، يأتي السياق ليسأل القائلين بذلك: ما دليلهم؟ فمن ادعى شيئاً لا بد وأن يقيم له الدليل، وهؤلاء المشركون لا دليل لهم على ذلك، حتى الدليل الواهي أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً أَى بَلِ اتَّخَذُوا اللَّهَ شَرَكَاءَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ هَاتُوا أَى اتَّخَذُوا بُرْهَانَكُمْ وَ دَلِيلَكُمْ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) بالدليل، إلا قولهم (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) «١» و هل فعل الآباء يكون دليلاً و حجة؟

هذا القرآن ذُكِرَ مَنْ مَعِيَ من المؤمنين و ليس فيه دلالة على الشرك و ذُكِرَ مَنْ قَبْلِي من الأنبياء و المؤمنين و ليس في ذلك ما يدل على الشرك، فمن أين جتتم أيها المشركون بالشرك؟ إن الذكر الذي أنزله الله على أنبيائه، الذي هو مجموع في القرآن، لا يشير إلى الشركاء، فالمدعى له يدعى الباطل، فلا دليل عقلي له - قل هاتوا برهانكم - و لا دليل شرعي له - فهذا ذكر من معي و ذكر من قبلي و ليس فيه إلا- التوحيد- فليس اتخاذهم للشركاء عن علم و دليل يَلُ أَكْثَرُهُمْ أى أكثر البشر لا- يَعْلَمُونَ الْحَقَّ الذي هو التوحيد فَهُمْ مُعْرِضُونَ عن الحق مقبلون على الباطل.

[٢٦] ثم بين سبحانه كيف أنزل الله الكتب حول التوحيد- بيانا لقوله هذا ذكر من معي و ذكر من قبلي- و ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ رَسُولٍ «من» تفيد العموم في النفي، و تسمى زائدة، لصحة أن يقال «رسولا» إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ نحن ب أنه لا- إِلَهَ إِلَّا أَنَا وحدى لا شريك لي فَاعْبُدُونِ لي فقط دون غيري.

[٢٧] و حيث بين القرآن الحكيم بعض عقائدهم الفاسدة حول التوحيد،

(١) الزخرف: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

و زيف عقيدتهم تعرض إلى عقيدة أخرى زائفة كانوا يعتقدونها، و هى أن الله سبحانه أولادا و قالوا أى بعض الكفار اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا أى جنس الولد و مرادهم الملائكة سبحانه أنزهه تنزيها عن ذلك، فإن الولادة غير معقولة في حقه، و التبنى غير صادق بالنسبة إليه بل الملائكة الذين جعلوهم أولاد الله عبادًا مُكْرَمُونَ أكرمهم الله سبحانه و فضلهم على كثير من خلقه.

[٢٨] لا- يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ لا- يتكلمون إلا- بما يأمرهم الله سبحانه، فقولهم إثر قوله، و اتباع أمره وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ فأقوالهم و أفعالهم كلها بأمر الله و إذنه، و من هذا شأنه لا يكون ولدا.

[٢٩] و هو سبحانه محيط بهم إحاطة علم و قدرة ف يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أى أمامهم، و ما عملوه و قدموه و ما خَلْفَهُمْ أى ورائهم و ما سيعملونه- و ذلك كناية عن الإحاطة بهم- وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى لا يتوسط الملائكة لإنجاء المجرم من عذاب الله، إلا لمن أراد الله أن يشفعوا له، فحتى شفاعتهم ليست ابتدائية، و إنما تابعة لرضى الله سبحانه وَ هُمْ أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَشْيَتِهِ من خوف الله سبحانه مُشْفِقُونَ و وجلون، من أشفق بمعنى و جل و خاف.

[٣٠] وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةُ الْأَطْهَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٩

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٣٠]

أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ من دون الله فَذَلِكَ الْقَائِلُ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ فهم على طهارتهم و قربهم لا- فرق بينهم و بين سائر العبيد في أن المدعى منهم للألوهية نصيبه جهنم، و لعل قسما من المشركين كانوا يعبدون الملائكة، كما يظهر من قوله سبحانه (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) «١» و لذا يأتي هذا الكلام الجازم بأنهم لا يدعون الألوهية فكيف أنتم تقولون عنهم ذلك، و لو ادعاها أحدهم لجوزى بالنار كَذَلِكَ الذي نجزي مدعى الألوهية نَجْزِي الظَّالِمِينَ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر و العصيان.

[٣١] ثم يرجع السياق إلى بيان الآيات الكونية الدالة على قدرة الله و عمله و سائر صفاته فيقول سبحانه أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا استفهام

تقريع و توييخ أن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا أَي كَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مُتَّصِلَةً لَا تَمُطِرُ السَّمَاءُ وَلَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ النَّبَاتَ، فَحَمَلَ الرَّتْقَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ بَابِ زَيْدٍ عَدَلَ فَفَتَّقْنَاهُمَا أَي شَقَقْنَاهُمَا بِإِنزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّ السَّمَاءَ - وَهِيَ جِهَةُ الْعُلُوِّ - تَشَقُّ بِالْمَطَرِ، وَإِنْبَاتُ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ فَإِنَّ أَسْلَاصَ الْحَيَاةِ وَبَقَايَاهَا بِالْمَاءِ، وَوَقَدْ نَاسَبَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْجُمْلَةَ السَّابِقَةَ الدَّالَّةَ عَلَى فَتْقِ السَّمَاءِ بِالْمَطَرِ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ بَعْدَ مَا يَرُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ

(١) الزخرف: ٨٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣١ إلى ٣٢]

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)

العظيمة، بالله سبحانه، فمن فتق السماء بالمطر؟ ومن فتق الأرض بالنبات؟ ومن أوجد الأشياء الحية من النبات؟

[٣٢] وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ جَمَعَ رَاسِيَهُ، وَهِيَ الْجِبَالُ الثَّوَابِتُ الَّتِي تَمْنَعُ الْأَرْضَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ، كَرَاهَةً أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ أَي لَثَلًا تَتَحَرَّكُ، مِنْ مَادٍ بِمَعْنَى تَحْرَكَ، وَضَمِيرٌ بِهِمْ عَائِدٌ إِلَى النَّاسِ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الْجِبَالِ فِجَاجًا سُبُلًا الْفِجَاجُ جَمْعُ فِجٍ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَسَبَلًا بَدَلٌ مِنْهُ، وَكَانَ تَخْصِيصُ الْفِجَاجِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْجَبَلَ الَّذِي هُوَ صَلْبٌ لَا يُمْكِنُ قَطْعُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا فِجَاجٌ، كَانَ سَبَبًا لِقَطْعِ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ طَرَفَيْهِ، فَنَعَمْتَهُ جَعَلَ الطَّرِيقَ فِيهَا عَظِيمَةً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أَي لِكَيْ يَهْتَدِيَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَ مَصَالِحِهِمْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْفِجَاجِ، أَوْ لِكَيْ يَهْتَدُوا إِلَى خَالِقِ السَّمَاءِ بِالتَّذَكُّرِ وَ الْإِعْتِبَارِ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ وَ الْآيَاتِ.

[٣٣] وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا فَإِنَّ طَبَقَةَ الْهَوَاءِ الَّتِي تَعْلُونَا مَحْفُوظَةٌ عَنِ الْخَلَلِ، وَ إِنَّمَا جَعَلْتَ بِمُقْيَاسٍ دَقِيقٍ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا، وَ قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ: أَنَّ الطَّبَقَةَ «النَّتْرُوجِيَّةَ» تَحْفَظُ الْأَرْضَ مِنَ الْقَذَائِفِ الْجَوِيَّةِ، فَتَجْعَلُهَا رَمَادًا مَنثورًا لَثَلًا تَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُؤَذِي أَهْلَهَا، وَ السَّقْفُ هُوَ مَا يَعْلُو الْإِنْسَانَ أَوْ الْمَرَادُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْهَا. وَ اسْتِرَاقُ السَّمْعِ، وَ وَقَدْ حَفِظْتَ بِالشَّهْبِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ) «١» وَ هُمْ أَي الْبَشَرُ عَنْ آيَاتِهَا الْكَائِنَةُ فِيهَا مُعْرِضُونَ فَلَا يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى الْمُؤَثِّرِ الْعَالَمِ الْقَدِيرِ.

[٣٤] وَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ فَإِنَّ الظُّلْمَةَ شَيْءٌ مَخْلُوقَةٌ بِنَفْسِهَا أَوْ بِخَلْقِ ضِدِّهَا، وَ هِيَ الضِّيَاءُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ خَصَصَا بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ الْمَوْلُودَةُ لِلنَّهَارِ، لِعَدَمِ التَّلَازُمِ كَمَا إِذَا سَكَنَتِ الْكَرَاتُ فَإِنَّ الشَّمْسَ مَوْجُودَةٌ وَ لَا نَهَارَ وَ لَا لَيْلَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الْحَالِيَّةِ كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ فِي فَلَكٍ أَي مَدَارٍ خَاصٍّ بِهِ يَسْبَحُونَ تَشْبِيهُهُ بِالْإِنْسَانِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ حَيْثُ قَالَ:

يسبحون. لأنه نسب إليهم فعل العقلاء و هو السباحة و لعل لهما عقلا، و لذا ورد في الدعاء خطابا للقمر «أيها الخلق المطيع» - إلى آخره -.

[٣٥] إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْكُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ، وَ لَا - مَنْجَى لِبَشَرٍ مِنَ الْمَوْتِ، فَلِيَحْسِنَ الْبَشَرُ فِي حَالِ الْحَيَاةِ، حَتَّى لَا يَأْتِيَهُ

الموت، وقد أسرف مما يسبب له سوء العاقبة وما جعلنا ليشير من قبلك يا رسول الله الخلد أي الخلود و الدوام في الدنيا، و الخضر و عيسى أيضا ليسا من الخالدين، و إن امتدت بهما الحياة إلى مدة بعيدة أ فإن ميت يا رسول الله أنت فهم الخالدون استفهام إنكار، يعنى إن انتظار هؤلاء لموتك غير صحيح إذ أنهم يموتون فما فائدة موتك لهم، حينما

(١) الصفات: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)

قالوا (تتربص به ريب المؤمن) «١» [٣٦] كل نفس أى حى ذائقة الموت أى تذوق الموت، و تخرج عن الحياة و نبلوكم نمتحنكم أيها البشر و نختبر- و إن كان اختبار الله ليس لأن يعلم هو، فإنه تعالى عالم بكل شىء، و إنما لأن يعرف نفس الشخص من هو و ما أعماله ل يتم على الأشقياء الحجة، و تتم للسعداء السعادة- بالشّر كالمرض و الفقر و موت الأقرباء و ما أشبهه و الخير كالصحة و الغنى و الجاه و ما أشبهه فتنه أى لأجل الامتحان، و المعنى نختبركم بالشدّة و الرخاء لأجل الامتحان لنرى من يصبر عند البلاء و من يجزع، و من يشكر عند النعماء و من يبطر و إلينا تُرجعون إلى ثوابنا و عقابنا، و ذلك حين الموت، لأن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، أو حين البعث، و هناك نجزي المحسن بالثواب و نعاقب المسيء بالعذاب.

[٣٧] و بعد الكلام حول الإله يأتى الكلام حول الرسالة و المعاد و بيان أنهم كيف يستقبلون هذين الأصلين من أصول الإيمان و إذا رآك يا رسول الله الذين كفروا و قد سبق منك أن عبت آلهم و سفهت أحلامهم و دعوتهم إلى التوحيد إن يتخذونك أى ما يتخذونك إلا هزواً سخريه و استهزاء، يقول بعضهم لبعض أ هذا محمد الذى يذكُر آلهم

(١) الطور: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

على طريق الاستفهام الاستهزائى، أى هل هو الشخص الذى يقول عن الآلهة إنها لا تنفع و لا تضر و هم بينما يعتقدون بالآلهة الصنمية بذكر الرحمن الذى خلق و تفضل بالرحم هم كافرين جاحدون، فأمرهم أذى إلى العجب و الاستهزاء حيث يؤمنون بالجماد و يكفرون بإله الكون؟! [٣٨] و قد كان الكفار يقولون للرسول لو كنت صادقاً فى أن مصير الكفر و التكذيب العذاب و النكال، فإنتنا بذلك العذاب (و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) «١»؟ و يريدون بذلك الاستهزاء كما تقول لمن يهددك و لا يقدر على شىء: افعَل بما تهدد، فأجابهم الله سبحانه عن استعجالهم العذاب بقوله خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ يعنى أنه من فرط استعجاله و قلّة صبره كأنه خلق من جنس هو العجل، كما قال الشاعر فى عكسه: «و لله مفطور من الصبر قلبه». و هذا من باب المبالغة و حمل المصدر على الذات، لإفادة تلبس الذات بالمصدر دائماً و تلازمه معه غالباً سَأَرِيكُمْ آيَاتِي و الأدلة الدالة على صدق النبى فى أن من لم يؤمن يؤخذ بالعذاب، فإن العذاب آية من آيات الله فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ فى طلب العذاب، فإنه إذا نزل بكم لا مناص لكم عنه و لا خلاص.

[٣٩] وَ يَقُولُونَ الْكُفَّارَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَعِدُنَا

(١) يونس: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٩ إلى ٤١]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَبْشِرُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)

محمد صلى الله عليه وآله وسلم لو بقينا على كفرنا إن كُنتم أيها المؤمنون صادقين في ادعائكم أن العذاب يأخذنا؟.

[٤٠] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ أَى وقت العذاب، لعلوا صدق الرسول و المؤمنين و أنهم كانوا فى غفلة و غرور، و قد حذف جواب «لو» تهويلا- أن العذاب ليأخذهم من جميع جوانبهم، فى صورة فجائية، فإذا بهم يخفون لدفع العذاب، بلمس اليد على وجوههم و ظهورهم، كالإنسان الذى يحترق فيكرر إمرار يده على وجهه و جسمه، ليحول دون الاحتراق، و لكن هناك لا تفيد هذه الحركات، فإنهم لا يكفون و لا ينعون، بإمرار اليد عن ووجوههم النار المشتعلة فيها و لا عن ظهورهم و لا هُمْ يُنصِرُونَ كما ينصر المحترق فى الدنيا حيث يجتمع الناس عليه و يطفنون النار المشتعلة فيه.

[٤١] بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً أَى فجأة، كما كانوا يطلبون استعجال العذاب، إنهم بمجرد الموت تحيط بهم النار فتبتهتهم و تحيرهم كيف يصنعون فلا يستطيعون ردها أى لا يقدرن على دفع النار التى أتتهم بغته و لا هُمْ يُنظَرُونَ لا يؤخرون لوقت آخر ليحدثوا توبه، أو يفكروا فى خلاص.

[٤٢] و قد سبق أخذ العذاب أما استهزاء و أبنياهم، بغته، فليخف هؤلاء عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصِيرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)

مثل ذلك المصير و لقد استهزئ يا رسول الله، و المستهزئ هم الأمم برسل من قبلك كما يستهزئ هؤلاء بك، قائلين (أ هذا الذى يذكر آلهم) «١» فحاق أى حل بالذين سَخِرُوا مِنْهُمْ أى من تلك الأمم- و الضمير عائد إلى مقدر معلوم من السياق، نحو «لأبويه»- ما كانوا أى و بال ما كانوا به يستهزئون و المراد أنه حل بهم جزاء سخريتهم.

[٤٣] إنهم قد اتخذوا الأصنام آلهة، فهل الأصنام تحفظهم من عقاب الله إذا جاءهم؟ قل يا رسول الله لهؤلاء مَنْ يَكْلُؤُكُمْ من كلاً بمعنى حفظ، أى من هو الذى يحفظكم بالليل و النهار مِنَ الرَّحْمَنِ أى من عذاب الله، إذا أراد أن يعذبكم و يأخذكم فى ليل أو نهار، و هذا استفهام إنكارى، يعنى لا حافظ من بأس الله، و كأن الإتيان بلفظ «الرحمن» لإفادته أنهم قد أغرقوا فى العتو حتى استحقوا العقاب من الرحمن الذى شأنه التفضل و الترحم بل هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ لا يذكرون الله سبحانه حتى يخافوا عقابه و يفكروا فى أنه لا عاصم منه إن أراد بهم عذابا و نكالا.

[٤٤] إن هؤلاء يعتمدون فى أمورهم على آلهتهم، فهل الآلهة تتمكن من

(١) الأنبياء: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٦

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٤٤]

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)

الوقوف أمام العذاب لتصدده عن هؤلاء؟ أم لهُمْ آلَهُ تَمَنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا أَى أَفْهَلْ لِهْم آلَهُ لَهَا شَأْنِيَةُ الْوَقُوفِ ضِدَا أَمَامِهِمْ لِتَمْنَعِ عَذَابِنَا عَنْهُمْ؟ كَلَا! إِنْ آلَهُ لَا يَشِيءُ تَطِيْعُونَ نَصِيرَ أَنْفُسِهِمْ فَإِنَّمَا إِذَا أَرَادَ بِهَا أَحَدٌ شِرَا لَا تَتِمُّكَ مِنَ الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا، فَكَيْفَ تَدْفَعُ عَنْ هَوْلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهَا، وَجِيءَ بِوَصْفِ الْعَاقِلِ لِلآلَهُ تَمَشِيَا مَعَ اصْطِلَاحِ الْقَوْمِ، وَإِلَّا فَالآلَهُ لَا تَعْقِلُ وَ لَا تَدْرِكُ وَ لَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ أَى أَنْ هَذِهِ آلَهُ لَا قُوَّةَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا، وَ لَا أَنَّهُ تَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ مِنْهَا حَتَّى تَتِمُّكَ مِنَ صَنْعِ الْعَذَابِ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّمَا لَيْسَتْ بِصَحْبَتِنَا حَتَّى تَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ مِنْهَا، فَإِنَّ الصَّاحِبَ يَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ مِنْ صَاحِبِهِ، وَ هَذَا جَدَلٌ تَهْكِمِي مَعَ عِبَادِ الْأَصْنَامِ كَمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالرَّسْلِ - فِي عَيْنِ أَنَّهُ تَقْرِيرٌ لِلْحَقِيقَةِ -.

[٤٥] إِنْ سَبَبَ كُفْرَانَ هَوْلَاءِ لَيْسَ لِأَجْلِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى آلَهُ بَلْ لِأَجْلِ إِنْ أُنْعِمْنَا عَلَيْهِمْ فَطَغَوْا، وَ (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى «١») فَقَدْ مَتَّعْنَا هَوْلَاءِ الْكُفْرَانَ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَ كَذَلِكَ مَتَّعْنَا آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَ ذَلِكَ أَدْعَى لِلطَّغْيَانِ، فَإِنَّ الْفَقِيرَ الْبَائِسَ وَاعَى الْقَلْبَ مَتَّفَحَ النَّفْسِ، أَمَا مِنْ رَبِّي فِي النِّعَمِ مِنْ زَمَانِ أَبِيهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ فَإِنَّهُ يَطْغَى وَ يَنْسَى حَيْثَى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمْرُ فَغَرَّهُمْ طَوْلُ الْعَمْرِ وَ أَسْبَابُ الرِّفَاهِ، وَ قَلْبُوا الشُّكْرَ كُفْرًا، لَكِنْ هَوْلَاءِ يَلْزَمُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِمَنْ هُوَ أَقْوَى وَ أَشَدُّ، فَهَذِهِ الدُّوَلُ مِنْ أَطْرَافِهِمْ، كُلُّ يَوْمٍ تَقْلُصُ بِخَرَابِ أَطْرَافِ بِلَادِهَا، وَ غَزْوِ

(١) العلق: ٧-٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَ لَنْ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِيَقُولَنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)

الأعداء لها حتى تكون خرائب بعد العمران، و مغلوبه بعد الغلبة و النصر، أفهل من يقدر على ذلك لا يقدر على أن يسلب النعمة و الحياة من هؤلاء؟ أفلا يرون أي الأ يرى هؤلاء الكفار الذين أفسدتهم العمر الطويل في النعمة الموروثة أن تأتي الأرض أي توجه إلى أرض الحكومات و بلادهم ننقضها من أطرافها فمن طرف خراب للعمران، و من طرف ذهاب بعدوان، و هذا كما يقال إن الدولة الإسلامية تقلصت، أو أن المسلمين نقصوا من أرض الكفار أفهم الغالبون استفهام إنكارى، أي فهل بعد عدم قدرة الدول على أن تمنع مشيئتنا حول أراضيها، هم يتمكنون من الامتناع عن قدرتنا، فيغلبون علينا في إرادتنا.

[٤٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءِ الْكُفْرَانَ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ أَى بِمَا يُوحى إِلَى، بِأَنْكُمْ إِذَا لَمْ تَتُومِنُوا بِأَخْذِكُمْ الْعَذَابِ، ثُمَّ أَضْرَبُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ الصَّمُّ جَمْعُ أَصَمٍ، فَإِنَّ الْأَصْمَ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَ الْمُنَادِي لَهُ، وَ هَوْلَاءِ كَالْأَصْمِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الْإِنذَارَ، وَ لَا يَعِيرُونَ لَهُ الْاهْتِمَامَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ أَى فِي حَالِ إِنذَارِهِمْ وَ تَخْوِيفِهِمْ.

[٤٧] إِنْ هَوْلَاءِ الْكُفْرَانَ - الْيَوْمَ - لَا يَعِيرُونَ الْإِنذَارَ اهْتِمَامًا، أَمَا إِذَا جَاءَهُمْ شَيْءٌ ضَائِلٌ مِنَ الْعَذَابِ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ وَ لَنْ مَسْتَهْمُ مَجْرَدُ مَسٍّ، وَ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى ظَاهِرِ الْجِسْمِ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٨

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٤٧]

وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

النفحة الواقعة اليسيرة كنفح الطيب الذى هو شىء يسير من ريحه ليقولنن يا ويلنا أى يا قوم ويلنا، أو يا ويلنا أحضر فهذا وقتك - كما سبق - إنا كنا ظالمين لأنفسنا حين لم نسمع دعوة الرسول.

[٤٨] وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ فَكأن الميزان قطعته من العدل، من شدة أنها تعدل فى الوزن و «القسط» صفة الموازين، فإن المصدر يأتي

وضعا للمفرد و التثنية و الجمع، بلفظ واحد، و المراد من الوضع إحضار تلك الموازين ذوات القسط لوزن الأعمال، و هل الموازين كموازين الدنيا، أم المراد بالموازين هم الأنبياء و الأئمة عليهم السلام و من إليهم، أم هو كناية عن جزاء الأعمال حسب المقياس المقررة- كما نقول فلان لا ميزان لكلامه- احتمالات؟ هذه الموازين هي لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فحينئذ فلا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً بأن ينقص من ثوابه، أو يزداد في عقابه و إن كَانَ عمله- المفهوم من السياق- مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أى بقدر ثقل حبة من الخردل، و هو تشبيه في الصغر و الخفة آتينا بها أى أحضرنا تلك الحبة، و المراد إدراجها فى الحساب، حسنة كانت أم سيئة و كفى بنا حاسبين «بنا» فاعل «كفى» دخل فيه الباء، لأنه فى معنى متعلق الأمر، تقول «اكتف بزيد» و «حاسبين» حال من الضمير، أى إننا يكتفى بنا فى الحساب لأعمال هؤلاء من جهة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعِيَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠)

عدم نسيان أى جزء من جزئيات أعمالهم، فلا حاجة إلى محاسب آخر، و إنما نحسب لنجازى كل أحد قدر عمله.

[٤٩] و حيث بين السياق قصة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مع القوم، ذكر بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم تسلياً للرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إتاما للحجة على الكفار، و تقريرا للأصول التى دعا إليها كل الأنبياء و لقد آتينا أى أعطينا موسى و هارون الفرقان أى الكتاب و البرهان الذى يفرق بين الحق و الباطل و ضياء أى أعطيناهما ما يضىء درب الحياة السعيدة فى الدنيا و الآخرة، لئلا يقع الناس فى الضلال من جراء الظلمة و ذكراً يذكر البشر بما أودع فى فطرته من العقيدة و المعارف للمتقين فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك كله، أما غير المتقى عن عذاب الله، فإنه لا ينتفع.

[٥٠] ثم بين المتقين بأنهم هم الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أى يخافون عذابه بِالْغَيْبِ فإن الإنسان لا يحس الله سبحانه بإحدى حواسه الخمسة، و مع ذلك يخشاه، فهو غائب عن الحواس، و لكنه مرهوب للمتقين و هُمْ مِنَ السَّاعِيَةِ أى القيامة مُشْفِقُونَ خائفون و وجلون، لأنهم لا يدرون ماذا يصنع بهم.

[٥١] و كما آتينا موسى و هارون الكتاب، كذلك آتينا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هذا القرآن ذِكْرٌ مذكر للناس ما أودع فى فطرتهم من الأصول و المعارف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٥٩٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) مُبَارَكٌ يُوْجِبُ الْبِرْكَهَ وَ النَّمُو، لمن أخذ به أنزلناه على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليدكر الناس و يباركهم أفأنتم أيها الكفار له مُنْكَرُونَ تنكرون كونه من عند الله، و هذا استفهام توبيخ و تفریح.

[٥٢] و لقد آتينا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ أى الحجج و الأدلة التى توجب إرشاده إلى الحق مِنْ قَبْلُ من قبل موسى و هارون، و قبل القرآن وَ كُنَّا بِهِ بِإِبْرَاهِيمَ عَالِمِينَ نعلم أنه صالح للنبوّة و الرسالة.

[٥٣] إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، و الظرف متعلق ب «آتينا» لِأَبِيهِ أى عمه آزر، فقد جرت العادة بتسمية العم أبا و قومه حين رآهم يعبدون الأصنام ما هذه التَّمَاثِيلُ جمع تمثال، و هو الشىء المصنوع الشبيه بشىء من خلق الله سبحانه، سواء كان المشبه به إنساناً أو

حيوانا أو نباتا أو غيرها، و قد يعم فيطلق على الشبيه بخلق الإنسان، فصنع قصر صغير للعب الأطفال أو سيارة صغيرة كذلك يسمى تمثالا التي أنتم أيها القوم لها عاكفون أي مستمرين دائمون على عبادتها و الخضوع لها؟

[٥٤] قالوا في جواب إبراهيم و جَدْنَا آباءَنَا لَهَا أَي لِهَذِهِ التَّمَاثِيلِ - و المراد جنسها - عَابِدِينَ فَإِنَا قَدْ قَلَدْنَاكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا.

[٥٥] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ وَ آبَاؤُكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٥ الى ٥٧]

قَالُوا أَ جِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِيبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)

الذين عبدوها قبلكم في ضلالٍ مبينٍ واضح إذ كيف تعبدون ما لا يسمع و لا يبصر و لا يغني عنكم شيئا؟.

[٥٦] قالوا أي القوم، لما رأوا من إبراهيم الإصرار على نبذ عبادة الأصنام أ جِئْنَا بِالْحَقِّ أَي هل أنت جاد في كلامك هذا محق عند نفسك تريد بيان الحق بزعمك أم أنت من اللاعيين تمزح و تلعب في كلامك؟ فقد كانوا يستبعدون أن ينكر عليهم أحد عبادة الأصنام التي ألفوها منذ دهور.

[٥٧] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ، مَا يَفِيدُ أَنَّهُ جَادٌ مُحَقٌّ، وَ لَكِنْ غَيْرُ مَجْرَى الْكَلَامِ لِيَكُونَ جَوَابُهُ مَعَ الدَّلِيلِ وَ البرهان فلا يبقى محل للمناقشة بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَلَيْسَتْ هَذِهِ أَرْبَابًا لَكُمْ، وَ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أَي خلق السماوات و الأرض، و الإتيان بضمير العاقل، إما باعتبار تغليب العقلاء الموجودين فيهما و إما باعتبار أن لهما مرتبة من الإدراك و الشعور و أنا على ذلكم «ذا» اشارة إلى المطلب المتقدم، و هو أن الرب هو اله السماء و الأرض و «كم» خطاب للقوم من الشاهدين أي أشهد بذلك، و هذا لتأكيد الأمر، و لإفكلك مخبر شاهد لما يخبر عنه، و كأن المراد أن إخباري ليس تقليدا و إنما عن حضور و شهادة.

[٥٨] وَ تَاللَّهِ حَلَفَ بِاللَّهِ لِتَأْكِيدِ مَا يَقُولُ، وَ التَّاءُ لِلتَّعْجَبِ، وَ إِنَّمَا جِئَ بِهَا لِصُعُوبَةِ الْأَمْرِ الَّذِي نَوَاهُ حَتَّىٰ أَنْ الْآتَىٰ بِهِ يَسْتَحِقُّ التَّعْجَبَ مِنْهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِذْ لَا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ أَي أدبرن تدبيرا خفيا في باب الأصنام، يسوؤكم ذلك، يقال: كاده إذا دبر تدبيرا خفيا يوجب مساءته بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ أَي تعرضوا عن المدينة جاعلين ظهوركم عليها تريدون الاجتماع في يوم عيدكم، فقد كان لهم في كل سنة عيد يخرجون إلى خارج المدينة لأجله فيجتمعون هناك، ثم إذا رجعوا دخلوا بيت الأصنام يسجدون لها، و لما أرادوا الخروج دعوا إبراهيم للخروج معهم فلم يخرج، فلما خرجوا جاء إلى بيت الأصنام و قد خلا من الناس.

[٥٩] وَ أَخَذَ فَاسًا بِيَدِهِ فَجَعَلَهُمْ أَي الأصنام - و قد مر وجه الإتيان بضمير العاقل - جُودًا أَي قطعة قطعة فهو فعال بمعنى مفعول كالحطام، و أصله من الجذ بمعنى القطع إِلا كَبِيرًا لَهُمْ أَي كبير الأصنام، فإنه عليه السَّلَامُ لم يكسره، و إنما أبقاه على حاله، و المراد أكبرهم جسما، أو أكبرهم عظمه عند القوم، و قد علق الفأس في عنق ذلك الكبير، و إنما فعل ذلك لَعَلَّهُمْ أَي القوم إِلَيْهِ أَي إلى إبراهيم يَرْجِعُونَ فيسألون عن الفاعل للتحطيم، فينبئهم على خطئهم في العبادة.

[٦٠] و لما رجعوا و رأوا أن الأصنام قد حطمت و كسرت قالوا قال بعضهم لبعض مَنْ فَعَلَ هَذَا الكسر و التحطيم بِالْهَيْتَانِ؟ على نحو الاستفهام الاستنكاري، أو أن من مبتدأ خبره إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ قَوْمَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٠ الى ٦٣]

قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَآتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)

[٦١] قَالُوا أى قال بعضهم فى جواب السائلين سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ أى أن فى المدينة شابا يذكر الأصنام بسوء لعله هو الذى صنع هذا الصنيع يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لا شأن له و لا أهميته، و من هذا يظهر أن إبراهيم عليه السلام كان شابا حينما فعل ذلك.

[٦٢] قَالُوا قال بعض القوم لآخرين فَآتُوا بِهِ فجيئوا بإبراهيم عليه السلام على أَعْيُنِ النَّاسِ بحيث يراه الناس و يكون بمشهدهم و الإتيان بلفظ «على» لعله لكون العين تستوعب الشخص فكأنه عليها لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ بما قاله إبراهيم فى شأن الأصنام، فتكون شهادتهم حجة عليه لا يتمكن من الإنكار، عند إرادة عقابه جزاء لما فعل.

[٦٣] فذهب بعض القوم، و جاءوا بإبراهيم عند الجماهير الحاضرة ف قَالُوا لإبراهيم عليه السلام أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا الفعل الشنيع: الكسر و التحطيم بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ على نحو الاستفهام التقريرى.

[٦٤] لكن إبراهيم تهكم منهم، و صاغ الجواب فى قالب يلفتهم إلى خطأ اتخاذهم لها أربابا قال بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا الذى بقى سالما و على عنقه الفأس، و الكلام صدق إذ المقصود من الكلام هو الذى يجعله صادقا أو كاذبا، لا القالب المصنوع، ألا ترى أنك لو قلت للبخیل «إنه كريم» لم يكن كذبا، حيث تريد بذلك التهكم، و كذا لو قلت لرجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

شجاع «أنه أسد» لو أردت المجاز، ثم ألفت إبراهيم، إلى موضع العبرة و الحجة بقوله فَاسْتَلَوْهُمْ أيها القوم، عمن فعل بهم هذا العمل إن كانوا يَنْطِقُونَ فإنهم يخبرونكم عمن فعل بهم هذا، و قد أراد عليه السلام بذلك إلفاتهم إلى أنهم كيف يتخذون الأصنام آلهة، و هى لا تنطق و لا تعلم من فعل بهم الكسر و التحطيم، و إلى ما ذكرنا فى معنى الآية تشير

الرواية الواردة فى الكافى عن الصادق عليه السلام قال: إنما قال بل فعله كبيرهم، إرادة الإصلاح، و دلالة على أنهم لا يفعلون «١»

[٦٥] و هنا أخذت الموعظة مأخذها، و عمل التنبيه مفعوله فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ أى إلى أن القوم قال بعضهم لبعض، أو تفكروا فى نفوسهم فَقَالُوا إِنَّكُمْ أيها القوم أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسكم حيث تعبدون هذه الأصنام التى لا تقدر على دفع العدو عن نفسها، و حتى على النطق و إظهار من فعل الكسر بها.

[٦٦] ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ كما هو عادة الذى قد تمت عليه الحجة فلا جواب له، و المراد نكسوا رؤوسهم، لكن فاعل النكس لم يظهر، و الإتيان ب «على» لإفادة أن هناك دافعا دفع الرؤوس من فوقها حتى نكست، و أخذوا يجمعون- مخاطبين إبراهيم، أو أنفسهم- لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فكيف نسأل منهم، كما قلت «فاسألوهم»؟

(١) الكافى: ج ٢ ص ٣٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٦ الى ٦٩]

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)

[٦٧] و لما رأى إبراهيم عليه السلام أنهم وصلوا إلى واقع الأمر، و أن عظته قد أثرت، أخذ يث فيهم دعوته بنبد الأصنام و اتخاذ الإله معبودا دونها قال إبراهيم عليه السلام لهم أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أى كيف تعبدون الأصنام التى هى لا

تنفع ولا تضر، و لو كانت قدرت على النفع و الضرر لدفعت المكروه عن نفسها؟

و الاستفهام توبيخى تقرىعى.

[٦٨] أَفْ لَكُمْ «أف» كلمة تضجر، أى تبا لأعمالكم و أفعالكم، و أف لِمَا تَعْبُدُونَ أى للأصنام التى تعبدونها مِنْ دُونِ اللَّهِ أى التى هى غير الله سبحانه أَفَلَا تَعْقِلُونَ تفكرون بعقولكم إنها ليست آلهة تستحق العبادة و التعظيم.

[٦٩] و قد التجأ القوم- بعد تمام الحجّة عليهم- إلى ما يلتجئ إليه كل جاهل معاند، من التخلص عن الحق بالقوة و العقاب ف قالوا بعضهم لبعض حَرِّقُوهُ حرقوا إبراهيم بالنار جزاء لما فعل بالأصنام و أَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ بالتخلص من أعدائها، و إنزال العقاب الصارم بمن أهانها إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ للنصرة لها، فأحرقوا إبراهيم عدوها.

[٧٠] فأمر نمرود الملك الطاغى بجمع الحطب، و قد كان يكفى الحطب القليل لهذا الأمر، لكن الحقد أوجب أن جمعوا من الحطب قدرا مدهشا- بقدر حقدهم لا بقدر حرق إبراهيم- و صنعوا منجنيقا، تقذف، لأنهم لم يكونوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٠ الى ٧١]

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَ نَجَّيْنَاهُ و لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)

يتمكنون من اقتراب تلك النار الكثيرة المهولة، ثم وضعوا إبراهيم فى فوهة المنجنيق، بمشهد من الملك و الجماهير، و قذفوه فى النار قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا و سَلَامًا و قد كان أمرا تكوينيا، نحو (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) «١» و السلام أعم من البرد، فإن البرد إذا زاد لم يسلم الإنسان فيه على إبراهيم و المراد بالقول إما خلق الصوت، أو الإرادة.

[٧١] و أرادوا أى القوم به بإبراهيم عليه السلام كَيْدًا أى شرا و تدبيرا فى هلاكه بالنار فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ إذ خسروا كيدهم، بل فوق ذلك أن ظهرت عظمة إبراهيم عليه السلام، مما سبب لنشر دعوته أكثر من ذى قبل فكأنهم جمعوا إلى خسارتهم بالنسبة إلى عقيدتهم الكافرة، خسارة المغلوبية، فهم الأخسرون.

[٧٢] و قد بقى إبراهيم عليه السلام فى بابل العراق مدة يدعو فلم تنفع القوم الدعوة، بل أرادوا حرقه فلم ينجحوا، و سلب الله عليهم البعوض حتى أخذت لحومهم و شربت دماءهم و أهلكت واحدة منها نمرود الملك الطاغى، و من ثم هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الشام، لعل القوم هناك يقبلون الدعوة وَ نَجَّيْنَاهُ أى إبراهيم عليه السلام و لُوطًا و هو من أرحام إبراهيم عليه السلام، و فى بعض التفاسير أنه ابن أخ إبراهيم إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فى تلك الأرض و هى الشام لِلْعَالَمِينَ لجميع

(١) البقرة: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

و وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ و يَعْقُوبَ نَافِلَةً و كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا و أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ و إِقَامَ الصَّلَاةِ و إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ و كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

الناس، فقد تواترت الأنبياء هناك، و قد كانت الشام تطلق سابقا على ما يشمل لبنان و سورية و فلسطين و الأردن و حوالياها.

[٧٣] و وَهَبْنَا لَهُ لإبراهيم إِسْحَاقَ و يَعْقُوبَ نَافِلَةً إِسْحَاقَ بن إبراهيم من سارة و قد دعا عليه السلام أن يرزق ولدا فأعطاه الله إياه، و يعقوب ولد إسحاق، و قد وهبه الله سبحانه لإبراهيم- حيث إن الحفيد أيضا هبة للجد- و معنى «نافلة»: «زائدة» إذ لم يكن يعقوب حسب دعاء إبراهيم، و إنما كان لطفًا محضًا منه سبحانه عليه، و تأنيث نافلة باعتبار النفس، و لم يذكر إسماعيل عليه السلام لعله لكونه على مجرى الطبيعة، إذ «سارة» كانت كبيرة و عقيمة، أما «هاجر» فلم تكن كذلك، و إنما هى شابة و لودة و كَلَّا من إبراهيم و إسحاق

و يعقوب جَعَلْنَا صَالِحِينَ لِلنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ وَسَائِرِ الْفَضَائِلِ.

[٧٤] وَجَعَلْنَاهُمْ أَى الثَّلَاثَةِ أَيْمَةً جَمَعَ إِمَامًا، وَهُوَ الْمُقْتَدَى، أَى يَقْتَدَى بِهِمْ فَى أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِنَا وَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَى النَّاسِ لِيُرْشِدُوهُمْ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ أَى أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ أَنْ أَفْعَلُوا الْأَفْعَالَ الْخَيْرَةَ الْمَوْجِبَةَ لِلْخَيْرِ وَالسُّعَادَةِ فَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ أَى إِقَامَتِهَا، فَإِنَّ النَّاءَ فَى مُصَدَّرِ بَابِ الْأَفْعَالِ جَائِزَ الْحَذْفِ وَ إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ أَى إِعْطَاءَهَا، وَ تَخْصِيصَهُمَا بِالذِّكْرِ بَعْدَ دُخُولِهِمَا فَى عَمُومِ الْخَيْرَاتِ، لِأَهْمِيَّتِهِمَا وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

وَ لَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فَى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَ نُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)

يعبدوننا، قبال سائر الناس الذين كانوا يعبدون الأصنام.

[٧٥] وَ لَوْطًا الَّذِى سَبَقَ ذِكْرَهُ، وَ قَدْ كَانَ نَجَى مِنْ «بَابِل» مَعَ إِبْرَاهِيمَ، إِلَى الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ آتَيْنَاهُ أَعْطَيْنَاهُ حُكْمًا أَى قَضَاءَ بَيْنِ النَّاسِ وَ حُكُومَهُ، فَإِنَّ مَنْصِبَ الْحُكْمِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ لِأَنْبِيَائِهِ وَ الْأَيْمَةِ، بِإِذْنِهِ وَ عِلْمًا وَ الْحُكْمَ غَيْرَ الْعِلْمِ، وَ إِنْ اسْتَلْزَمَ مَقْدَارًا مِنْهُ وَ نَجَّيْنَاهُ؟ أَنْقَذْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ وَ هِيَ «سُودوم» الَّتِي كَانَ أَهْلُهَا يَتَعَاطُونَ اللَّوْطَ وَ السِّحْقَ وَ الْكُفْرَ وَ سَائِرَ الْمُنْكَرَاتِ وَ الْخَبَائِثِ جَمْعَ خَبِيثٍ، وَ هُوَ الشَّيْءُ أَوْ الْعَمَلُ السَّيِّئُ إِنَّهُمْ أَى أَهْلَ تِلْكَ الْقَرْيَةِ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ إِضَافَةُ الْقَوْمِ إِلَى عَمَلِهِمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَوْطًا أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْقَرْيَةِ، ثُمَّ عَذَبَ أَهْلَهَا بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ - كَمَا مَرَّ تَفْصِيلُهُ -.

[٧٦] وَ أَدْخَلْنَاهُ لَوْطًا عَلَيْهِ السَّلَامَ فَى رَحْمَتِنَا بِذَلِكَ الْخُرُوجِ عَنِ الْقَرْيَةِ، فَكَأَنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ فِي الْعَذَابِ، فَلَمَّا خَرَجَ دَخَلَ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ لِهَذَا اسْتَحَقَّ الدُّخُولَ فَى الرَّحْمَةِ، وَ لَمْ يَبْقَ فَى الْمَدِينَةِ لِشِمْلِهِ الْعَذَابِ وَ الْهَلَاكِ.

[٧٧] وَ أَذْكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نُوحًا أَوْ هُوَ عَطْفٌ عَلَى «لَوْطًا» أَى آتَيْنَا نُوحًا حُكْمًا وَ عِلْمًا إِذْ نَادَى أَى زَمَانَ دَعَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَبْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٧ إلى ٧٨]

وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)

من قبل إبراهيم و لوط، فقال رب لا- تذر على الأرض من الكافرين ديارا، و إنما جىء به متأخرا مع أنه متقدم زمانا، لأن أهل مكة كانوا أقرب إلى إبراهيم زمانا و علما و نسبا، فكان ذكره أجلى، و فى مذاقهم أحلى فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دَعَاةَ بِإِهْلَاكِ الْكُفْرَانِ فَجَعَلْنَاهُ وَ أَهْلَهُ لَعْلَ الْمَرَادِ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُرْبِ أَى الْحُزَنِ الْعَظِيمِ الَّذِى لَاقَاهُ مِنَ الْكُفْرَانِ طَوِيلَ تَسْعَمَائِهِ وَ خَمْسِينَ عَامًا، فَقَدْ كَانُوا يَضْحَكُونَ مِنْهُ وَ يُؤْذِنُونَهُ وَ يَضْرِبُونَهُ.

[٧٨] وَ نَصَرْنَاهُ أَى نَصَرْنَا نُوحًا، بِنَجَاتِهِ فَى السَّفِينَةِ وَ غَرَقَ الْكُفْرَانَ بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ إِنَّمَا عَدَى «نَصَرْنَا» ب «مَنْ» دُونَ «عَلَى» لِإِشْرَابِ الْفِعْلِ مَعْنَى «الْمَنْعِ» وَ كَأَنَّهُ قَالَ: النَّصْرُ بِالسِّيرِ مِنْ وَسْطِهِمْ نَحْوَ سَرْتِ مِنَ الْبَصْرَةِ إِنَّهُمْ أَى الْمَكْذِبِينَ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا قِطْعَةً مِنْ سُوءٍ، حَيْثُ إِنَّ عَقَائِدَهُمْ وَ أَعْمَالَهُمْ وَ أَقْوَالَهُمْ كَانَتْ كُلُّهَا سَيِّئَةً فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ بِأَنْ أَنْزَلْنَاهُ السَّمَاءَ مَدْرَارًا، وَ فَجَرْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا، حَتَّى غَرَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَى الْمَاءِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نُوحٌ وَ مَنْ حَمَلَ مَعَهُ فَى السَّفِينَةِ.

[٧٩] وَ أَذْكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَعْطَيْنَا الْحُكْمَ وَ الْعِلْمَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ هُوَ ابْنُ دَاوُدَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ أَى الزَّرْعِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٠

أى فى الوقت الذى تفرقت فيه الغنم ليلاً، فإن نفس بمعنى تفرق الإبل أو الغنم ليلاً- ليرعى بدون راعٍ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ حاضرين، نسمع و نرى كيف حكما، و الإتيان بالجمع «حكهم» باعتبار الحاكمين و طرفى النزاع.

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال كان فى بنى إسرائيل رجل و كان له كرم و نفشت فيه غنم لرجل بالليل و قضمته و أفسدته، فجاء به صاحب الكرم إلى داود فاستعدى على صاحب الغنم فقال داود عليه السلام: اذهب إلى سليمان ليحكم بينكما فذهب إليه فقال سليمان: إن كانت الغنم أكلت الأصل و الفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم و ما فى بطنها، و إن كانت ذهبت بالفرع و لم تذهب بالأصل فإنه يدفع ولدها إلى صاحب الكرم، و كان هذا حكم داود و إنما أراد أن يعرف بنى إسرائيل أن سليمان وصيه بعده و لم يختلفا فى الحكم و لو اختلف حكمهما لقال «كنا لحكمهما شاهدين» (١)

أقول: و كأن الحكم فى تلك الأمة كان كذلك أما فى شريعتنا فإن الحكم ضمان صاحب الغنم ما أتلفته لصاحب الكرم، دون أن يكون الأرش معينا فى الغنم، و قد روى هذا الحكم بشكل آخر، و إن داود و سليمان اختلفا فى القضاء و كان حكم سليمان أقرب، و إن كان كلاهما صحيحا، و ذلك كما لو أتاك آت فقال: إن فلانا كسر إنائي، فقلت له: يعطيك إناء مثله، و قال قاض آخر: يعطيك ثمنه فكلاهما جائز بالتراضى، و إن كان المثل أقرب من القيمة، فى المثلى،

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ١٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيَبْدُوَ لَكُمْ إِتْحَاصَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)

و بالعكس فى القيمي.

[٨٠] فَفَهَّمْنَاهَا أى علمنا سُلَيْمَانَ كيفية الحكومة بين الراعى و الزارع وَكُلًّا من داود و سليمان آتينا أى أعطينا حُكْمًا فى الخصومات، أو حكما على الناس وَعِلْمًا و كان تخصيص سليمان بقوله «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» لأن المقصود كان إظهار فضل سليمان ليعرف بنو إسرائيل من وصى داود، كما فى الأحاديث وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ و معنى التسخير السير معه فى التسبيح، فإنك إذا عودت طيرا أن يتكلم بما تكلمت به أنت، يقال أنك سخرت ذلك الطير، فكأنه صار طوع إرادتك يتكلم إذا تكلمت و يسكت إذا سكت يُسَبِّحْنَ الجبال معه، و الإتيان بضمير العاقل لأن التسبيح فعل العاقل وَالطَّيْرَ عطف على الجبال، أى و سخرنا معه الطير، فإنها كانت تسبح بتسبيحه.

قال الصادق عليه السلام: إن داود خرج يقرأ الزبور و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر إلا جاوبه وَكُنَّا فَاعِلِينَ لذلك، و كان المراد بذلك أن هذا الأمر ليس عجيبا من قدرتنا، و إن كان مستغربا عندكم.

[٨١] وَعَلَّمْنَاهُ أى علمنا داود صِنْعَهُ لِيَبْدُوَ لَكُمْ اللبوس هو السلاح الذى يلبس كالدرع، فإنه عليه السلام أول من صنع الدرع، و قد كان الحديد لينا فى يده كالعجين، يسرد منه الدروع لِتُحْصِنَكُمْ أى تحفظكم مِنْ بَأْسِكُمْ من وقع السلاح فيكم- كالسيف و الرمح- فى الحرب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْمَأْرُضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

فَهَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شَاكِرُونَ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي تَقِيكُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَإِنَّ الدَّرْعَ أَحْسَنَ وَقَايَةَ لِلْبَدَنِ مَقَابِلَ الْأَلَاتِ الْحَرِيْبَةِ. [٨٢] وَ سَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الرِّيحَ عَاصِفَةً أَيَّ شَدِيدَةٍ الْهَبُوبِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ تَعْصِفَ الرِّيحُ عَصْفَتِ، وَ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَرْخِيَ أَرْخِيَتْ تَجْرِي الرِّيحُ بِأَمْرِهِ أَيَّ أَمْرٍ سُلَيْمَانَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ هِيَ الشَّامُ، الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا بِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ كَثْرَةِ الثَّمَارِ، وَ طِيبِ الْهَوَاءِ، وَ قَدْ سَبَقَ أَنْ الْمَرَادُ بِالشَّامِ مَا يَشْمَلُ سُورِيَةَ وَ فِلَسْطِينَ وَ لُبْنَانَ وَ الْأُرْدُنَّ، فَقَدْ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَاطٍ يَجْلِسُ عَلَيْهِ هُوَ وَ حَاشِيَتُهُ فَتَحْمَلُهُ الرِّيحُ وَ يَسِيرُ بِهِمْ مِنَ الْقُدْسِ إِلَى الشَّامِ- وَ قَدْ كَانَ السَّيْرُ بَيْنَهُمَا يَسْتَعْرِقُ شَهْرًا عَلَى الْمَاشِيَةِ- فِي نِصْفِ يَوْمٍ، وَ كَذَلِكَ تَرْجِعُ بِهِمْ هَذِهِ الْمَسَافَةُ فِي نِصْفِ يَوْمٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى:

(عُدُّوْهَا شَهْرًا وَ رَوَّاحُهَا شَهْرًا) «١» وَ حَيْثُ أَنَّ هَذَا كَانَ مُورَدًا اسْتِعْرَابَ عَقْبِهِ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ فَقَالَ وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ فَإِنَّمَا أَعْطَيْنَاهُ مَا أَعْطَيْنَا لِعَلْمِنَا بِالْمَصَالِحِ وَ طَرَفِ الْأُمُورِ.

[٨٣] وَ سَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَ الْمَرَادُ بِالشَّيْطَانِ هُنَا الْجِنُّ، فَإِنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ أَحَدُهُمَا يَضِلُّ الْبَشَرَ مِنْ نَسْلِ إِبْلِيسَ، وَ الْآخَرُ كَالْإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ مُخْتَفٍ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُمَا فِي الْأَصْلِ كَانَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، وَ لَذَا

(١) سبأ: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٣ إلى ٨٤]

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)

قال سبحانه في حق إبليس «كان من الجن» و يسمى كل واحد منهما باسم الآخر «الجن» لكونهما مستترين، «و الشيطان» لكونهما ذوى تدبير و حيلة، و الظرف في موضوع حال من سخرننا من يَغُوصُونَ في البحر، و الغوص هو أن ينزل في البحر لأجل إخراج اللؤلؤ و ما أشبه له أي لسليمان و يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ أَي سِوَى ذَلِكَ، أَوْ أَدُونَ مِنَ الْغَوْصِ- مِنْ حَيْثُ الصَّعُوبَةُ- كِبَاءُ الْمَحَارِبِ وَ التَّمَاثِيلِ وَ أَشْبَاهِهِمَا وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ أَي نَحْفِظُ الشَّيَاطِينَ عَنِ الْإِفْسَادِ وَ الْهَرُوبِ، وَ سَائِرُ مَا يَنْبَغِي الْحِفْظَ مِنْهُ.

[٨٤] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّوبَ حِينَ دَعَا رَبَّهُ لِمَا أَمْتَدَّتْ بِهِ الْمُحَنَّةُ وَ الْبَلَاءُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ مُسْتَجِيرًا لِيَشْفِيَهُ قَائِلًا فِي دَعَائِهِ رَبَّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ أَي نَالَنِي الضَّرُّ وَ الْمَرَضُ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَي أَكْثَرُ رَحْمًا مِنْ رَحْمِ كُلِّ رَاحِمٍ، وَ هَذَا تَأْدِبٌ فِي طَلْبِ إِزَالَةِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَلَاكِ أَوْلَادِهِ وَ ذَهَابِ أَمْوَالِهِ وَ الْمَرَضِ فِي بَدَنِهِ، كَمَا يَأْتِي قِصَّتُهُ فِي سُورَةِ «ص» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

[٨٥] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ أَي أَجَبْنَا دَعَاءَهُ وَ نَدَاءَهُ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ مِنْ بَابِ الْاسْتِفْعَالِ الظَّاهِرِ فِي الطَّلْبِ، لِأَجْلِ أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَجَابَ دَعَاءَهُ، بِمَا جَعَلَ مِنَ الْعِلْلِ الْكُونِيَّةِ وَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مُسَبِّبَاتُهَا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى طَلَبَ أَنْ يَجَابَ أَيُّوبَ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ أَي رَفَعْنَا وَ أَرْزَلْنَا الشَّيْءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٤

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٨٥]

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)

الذي كان بأيوب من ضُرٍّ في بدنه و ماله و ولده، و كأن الضر ستر يشتمل على الإنسان، فإذا أزيل، انكشف ما تحته و آتَيْنَاهُ أَي أَعْطَيْنَاهُ وَ رَدَدْنَا إِلَيْهِ أَهْلَهُ أَوْلَادَهُ الَّذِينَ مَاتُوا ابْتِلَاءً وَ اخْتِبَارًا وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

قال الإمام الصادق عليه السَّلَامُ: إِنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَدَّ عَلَى أَيُّوبَ أَهْلَهُ الَّذِينَ هَلَكُوا وَ أَعْطَاهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ وَ كَذَلِكَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْوَالَهُ وَ مَوَاشِيَهُ بِأَعْيَانِهَا وَ أَعْطَاهُ مِثْلَهَا مَعَهَا، وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ، كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعْطِيَ الْإِنْسَانَ أَوْلَادًا وَ أَمْوَالًا «١»

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا أَي إِنْ كَشَفَ ضَرَّهُ وَ إِعْطَاهُ مَا فَقَدَهُ، وَ مِثْلَهُ مَعَهُ، كَانَ فَضْلًا وَ لَطْفًا مِنْ لَدُنَّا لِأَيُّوبَ، وَ كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، إِلَّا أَنْ

التخصيص هنا للتشريف وَ ذِكْرِي لِلْعَابِدِينَ أى لأجل أن يكون ذلك موعظةً و تذكيراً لمن عبدنا و أنه إذا أخذنا منه شيئاً فإننا نرده إليه مع الزائد، و إن الأخذ لمصلحة و حكمة.

[٨٦] و اذكر يا رسول الله إسماعيلَ بن إبراهيم عليه السّلام و حيث لم يذكر هناك، ذكره هنا مستقلاً و إدريس و هو أول من خاط اللباس بوحي الله سبحانه وَ ذَا الْكِفْلِ

و قد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أنه يوشع بن نون

كُلُّ أَى كَل هُوَ لاءِ الأَنبِاءِ مِنَ الصّابِرِينَ أَى مِنَ الأَنبِاءِ الذّين صَبَرُوا على مِشاقِ التّكليفِ، و لم

(١) الخرائج: ج ٢ ص ٩٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِينَ (٨٦) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (٨٧)

يزيغوا عن أوامره سبحانه.

[٨٧] وَ أَدْخَلْنَاهُمْ أَدْخَلْنَا هُوَ لاءِ الأَنبِاءِ عليهم السّلام فِي رَحْمَتِنَا بَأَن غَمَرْنَاهُمْ فِي الرّحمة بعد أن كانوا في مشقة و أذى من قومهم، و من التكاليف المتوجهة إليهم إِنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِينَ فقد كانوا صالحين في حياتهم، و لذا جوزوا بتلك الرحمة التي غمرتهم، و حيث أن المقصود في سرد صبر الأنبياء أولاً ثم فضل الله عليهم جزاء صبرهم ثانياً، ألمح السياق إلى هاتين الخصوصيتين، بالنسبة إلى هؤلاء الأنبياء بدون ذكر قصصهم، كما أن سائر القصص قد أتيت بإيجاز و إشارة.

[٨٨] وَ اذكر يا رسول الله ذَا النُّونِ «النون» هو الحوت، أى صاحب الحوت، و هو يونس عليه السّلام، الذى التقمه الحوت إِذْ ذَهَبَ أَى حين فارق قومه، و ذهب عنهم مُغَاضِبًا من غاضب، بمعنى غضب، و كأنه أتى من باب المفاعلة للدلالة على كون الغضب من الطرفين أو المراد المغاضب المرغام، يعنى أنه خرج رغماً على أنف قومه، حيث أراد إهلاكهم فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أَى لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ، فقد ضاق هو بالدعوة و تكذيب القوم، فخرج من بين القوم ظاناً أن ذلك ليس بترك أولى حتى يجزيه سبحانه بضيق صدره ضيقاً فى مكانه، يهون عند ضيق مكانه ضيق صدره بالمكذبين من قومه.

و قد يقال: أن خروجه هل كان طاعة لله، أم عصياناً؟ فإن كان طاعة فلم ضيق الله عليه؟ و إن كان عصياناً كان ذلك خلاف ما هو مسلم من عصمة الأنبياء عليهم السّلام؟ و الجواب: أنه كان ترك أولى، فقد كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٦

من الأولى أن لا يخرج، و لم يكن عصياناً، كأكل آدم من الشجرة الذى كان ترك أولى، و على أى حال فقد أرسل الله سبحانه يونس إلى قوم كان عددهم مائة ألف أو يزيدون و لبث فيهم أكثر من ثلاثين سنة - كما

ورد - فلم يؤمن من القوم إلا - نفران «روبيلا» و «تنوخا» فخرج من القوم داعياً عليهم بالعذاب، و كان ذلك جائزاً فى نفسه، و إن كان الأولى بمقام النبوة أن يستأذن الله سبحانه لذلك، فوصل إلى شاطئ البحر و ركب سفينة كانت تريد الأبحار

- و فى بعض التفاسير أنه عليه السّلام أراد أن يذهب إلى قوم آخرين يدعوهم - و لما توسطت السفينة البحر، جاء حوت فاتحاً فاه، بحيث لم تتمكن السفينة من المضى إلا - بإطعامه، فأقرعوا فيما بينهم من يطرحوه للحوت و خرج السهم باسم يونس، فألقوه فى فم الحوت فابتلعه، لكن الله سبحانه حفظه عن أن يموت و هو قادر على كل شىء «١» فنادى يونس فى الظُّلُمَاتِ ظلمة البحر، و ظلمة الليل، و ظلمة بطن الحوت أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ أَى أَنْزَهَكَ تَنْزِيهاً عَنِ القبيحِ، و كأن الإتيان بالتسبيح فى هذه المقامات دفعاً

لتوهم متوهم يظن أن العمل الصادر منه سبحانه ليس كما ينبغي إنني كنت من الظالمين في خروجي من المدينة و دعائي على أهلها، و الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، و ذلك يلائم التحريم، و ترك الأولى، كما قال موسى عليه السلام (إني ظلمت نفسي) «٢»

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ١٢٦.

(٢) النمل: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٨ الى ٩٠]

فَاشْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاشْتَجِبْنَا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

و قوله سبحانه لآدم و حواء: (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) «١» [٨٩] فَاشْتَجِبْنَا لَهُ أى أجبنا دعاءه، فقد كان ذكره تعريضا بطلب خلاصه، فى أدب و لطف وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ الذى أخذ به، بأن ألقاه الحوت إلى الشاطئ، بعد أربعين يوما كان فى بطنه وَكَذَلِكَ أى كما أنجينا يونس نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الذين يدعوننا و يستغفرون لسالف ذنوبهم [٩٠] و اذكر يا رسول الله زكريا النبى عليه السلام إِذْ نَادَى رَبَّهُ أى حين دعا الله سبحانه أن يعطيه الولد، حيث لم يكن له ولد يخلفه، فقال يا رَبِّ لَا تَذَرْنِي أى لا تدعنى فرداً وحيداً بلا أولاد، و بدون عقب وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ و قد كان هذا نادياً من زكريا عليه السلام فهو لا يطلب الولد لأنه غير معترف بأن وارثه الله خير وراثته، كما يظن بعض الناس أنهم إذا ماتوا بلا عقب لا أحد فى الكون يرعى شؤونهم الدنيوية أو الدينية و إنما يطلب بعد الاعتراف لما يعرف من جريان العادة الكونية على أن الولد و العقب هو السبب العادى الذى جعله الله سبحانه للخلافة و القيام مقام الآباء فى إدارة شؤونهم.

[٩١] فَاشْتَجِبْنَا لَهُ دعاءه وَ هَبْنَا لَهُ يَحْيَى ليخلفه من بعده وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ

(١) البقرة: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٨

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٩١]

وَ الَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

إذ كانت عقيمة لا تلد و كان الإتيان ب «وهبنا» قبل «أصلحنا» مع أنه بعده خارجاً، لبيان المبادرة فى استجابة دعائه عليه السلام، كأنه لا فصل بين الدعاء و الهبة إِنَّهُمْ أى زكريا و زوجته و يحيى- كما هو ظاهر السياق- كانوا يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ فى الأعمال الخيرية، مقابل الذين يتلكئون و يتباطئون فى عمل الخير، و هكذا دائماً أهل الآخرة إنهم يبادرون فى الطاعة، بخلاف أهل الدنيا وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا راغبين فى ثوابنا و خائفين من عقابنا، و هكذا الإنسان الكامل، إنه بين الخوف و الرجاء وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ متواضعين لا كأهل الدنيا الذين يطغون و يستعلون عن الأوامر و الزواجر.

[٩٢] و بمناسبة ذكر «زكريا» ذكر السياق «مريم» الطاهرة القريبة له و اذكر يا رسول الله المرأة الَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا أى حفظت نفسها عن الفساد، و هذا لرد اليهود الذين قالوا فيهما شراً فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا النافخ كان جبرائيل لكنه حيث كان بأمر الله تعالى، نسب النفخ إليه تعالى، و الروح أضيف إليه سبحانه تشريفاً، كإضافة البيت إليه، و قد كان النفخ فى جيب ثوبها، و تكون من ذلك النفخ المسيح عليه السلام وَ جَعَلْنَاهَا أى جعلنا مريم وَ ابْنَهَا المسيح آيَةً لِلْعَالَمِينَ أى: دلالة على وجود الله و قدرته، و المراد ب «آية» الجنس،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَمَا كُنَّا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)
فلا يقال: أنهما آيتان؟

[٩٣] و بعد استعراض أحوال بعض الأنبياء عليهم السّلام مع أممهم - إجمالاً - يأتي السياق ليدل على وحدة العقيدة، و وحدة الأمة، و وحدة الإله، و وحدة رسالة الأنبياء عليهم السّلام إِنَّ هَذِهِ الْبَشَرِ الْمَتَنَاثِرِ فِي الْأَرْضِ الْمَتَبَاعِدِ فِي الزَّمَانِ أُمَّتُكُمْ أَيُّهَا الْأَنْبِيَاءُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَلَا أُمَّةَ تَحْتَ لُؤَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَ إِنَّمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَ مَنْ خَالَفَ وَ آمَنَ بِبَعْضٍ وَ كَفَرَ بِبَعْضٍ أَوْ قَبِلَ حِكْمًا وَ أَعْرَضَ عَنِ حَكْمٍ فَلَيْسَ مِنَ الْأُمَّةِ، وَ لَيْسَ خَاضِعًا حَتَّى لَتَنْبِيهِ الَّذِي يَزْعَمُ أَنَّهُ مُتَبِعٌ لَهُ وَ أَنَا رَبُّكُمْ رَبُّ وَاحِدٍ فَاعْبُدُونِ أَيُّ أُطِيعُونِي وَ اتَّخِذُونِي إِلَيْهَا دُونَ غَيْرِي.

[٩٤] لكن المنحرفون لم يكونوا من أنفسهم أمة واحدة، بل خالفوا و تفرقوا وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أَيُّ فَرَّقُوا دِينَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَإِنْ قَطَّعَ وَ تَقَطَّعَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ هَلْ انْتَهَى الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَا حِسَابَ وَ لَا جَزَاءَ لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ تَقْطِيعِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةَ إِلَى الْوَلَوَانِ وَ أَشْكَالٍ وَ أُمَّةٌ؟ كَلَّا! كَلَّ الْإِنْسَانُ رَاجِعُونَ فَجَزَائِهِمْ بِمَا فَعَلُوا مِنَ التَّقْطِيعِ وَ التَّفْرِقَةِ، وَ مَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الرَّجُوعُ إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ، تَشْبِيهِهُ بِمَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْمَحْكَمَةِ بَعْدَ الذَّهَابِ عَنْهَا.

[٩٥] فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْجِنْسِ، دُونَ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ صَحِيحُ الْعَقِيدَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

وَ حَرَامٌ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلُكُنَّاها أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَاْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦)
فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ فَلَا يَسْتَرُ مَا عَمَلَهُ وَ لَا يَبْطُلُ، بَلْ يَشْكُرُ وَ يَثَابُ عَلَيْهِ وَ إِنَّا لَهُ أَيُّ لَسَعِيهِ كَاتِبُونَ وَ الْمَعْنَى نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَثْبُتَ سَعِيهِ لِنَجَازِيهِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ.

[٩٦] أما من كفر و عصى، فأهلكناه في الدنيا بعذاب الاستئصال فلا يظن أحد أنه قد انتهى أمرهم، و أنهم أهلكوا فلا حساب بعد ذلك وَ حَرَامٌ أَيُّ مَمْتَنَعٌ، فِي الْحِكْمَةِ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلُكُنَّاها بِذُنُوبِها أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ فَإِنَّ عَذَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ نَهَايَةَ أَمْرِهِمْ، بَلْ يَرْجِعُونَ إِلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ لِنَحْاسِبَهُمْ هُنَاكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَ نَجْزِيَهُمْ بِالنَّارِ، ف «حرام» مَبْتَدَأٌ، خَبَرَهُ «أنهم» أَيُّ مَمْتَنَعٌ عَدَمَ رَجُوعِهِمْ، وَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ تَخْصِيصَهُمْ بِالذِّكْرِ دُونَ سَائِرِ الْعَاصِينَ، لِدَفْعِ التَّوْهَمِ الْمَذْكُورِ.

[٩٧] إن الأمر يبقى على هذا المنوال، مؤمن و كافر، و موت و هلاك - حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ وَ تَقُومُ السَّاعَةُ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ، وَ قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِلْمَهُ لِدَلَالَتِهِ بِقَوْلِهِ: إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَاْجُوجُ أَيُّ الْقَبِيلَتَانِ، وَ فَتَحَتْ بِاعْتِبَارِ كَسْرِ سُدْهُمَا الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ أَيُّ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ كَالْجِبَالِ وَ الْأَكَامِ يَنْسِلُونَ يَسْرِعُونَ فِي السَّيْرِ نَحْوَ الصَّحَارَى وَ الْبِلَادِ لِلْفَسَادِ وَ الدَّمَارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٧ إلى ٩٨]

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)

[٩٨] وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ أَيُّ الْمَوْعُودِ الَّذِي هُوَ حَقٌّ، لَا خَلْفَ وَ لَا كَذِبَ فِيهِ، وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا هِيَ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ وَ الْقِصَّةِ، يَأْتِي بِهَا لِلتَّهْيُؤِ، وَ لَيْسَتْ عَدُ السَّمَاعِ لِاسْتِمَاعِ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا الشَّخِصَةُ الْعَيْنُ الَّتِي لَا تَنْظُرُ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، وَ لَا تَسْكُنُ، كَالْإِنْسَانِ الشَّخِصُ الَّذِي يَسِيرُ بَدُونَ سَكُونٍ وَ هُدُوءٍ، فَإِنَّ الْكُفْرَانَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَشْخِصُ أَبْصَارَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، يَنْظُرُونَ هُنَا وَ هُنَا لِيَجِدُوا مَلْجَأً أَوْ شَفِيعًا يَنْجِيهِمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَ الْكُرْبَاتِ، وَ قَوْلُهُ «فإذا» يَتَعَلَّقُ بِ «حتى» وَ مَعْنَى «فإذا هي» أَنَّ الْقِصَّةَ شَخِصُ

أبصار الكفار، قائلين يا وَيْلَنَا يا قوم ويلنا، أى يا ويلنا أحضر فهذا وقتك، و الويل هو الهلاك و العذاب قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، فقد كنا فى الدنيا لا نأبه و لا نعتنى بهذا اليوم و بما ينجى الإنسان من أهواله بل لم تكن غفلة، و إنما كُنَّا ظَالِمِينَ لأنفسنا حيث نعرض عن الإيمان و العمل الصالح.

[٩٩] و ما مصيرهم هناك؟ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارَ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تَعْبُدُونَهَا حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَى حطبها و وقودها، و الحصب كل حجر يرمى به، و لذا قيل للأحجار الصغيرة حصباء، و «ما» لما لا يعقل، فلا يشمل من عبده الناس من الأنبياء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٩ الى ١٠٢]

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوْهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) و الأئمة و الملائكة، و إنما تكون الآلهة حصب جهنم مع أنها لا- ذنب لها، إهانة لعبادها و إذلالهم أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارَ لَهَا أَى لجهنم و آردُونَ داخلون، و ذلك جزاؤكم.

[١٠٠] لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً كَمَا تَزْعُمُونَ مَا وَرَدُّوْهَا مَا دَخَلُوا النَّارَ وَ لَامْتَنَعُوا مِنْهَا وَ كُلٌّ مِنَ الْعَابِدِ وَ الْمَعْبُودِ فِيهَا أَى فى جهنم خَالِدُونَ باقون أبد الأبدين.

[١٠١] لَهُمْ أَى للناس الذين خلدوا فيها لكفرهم و عصيانهم زَفِيرٌ أَى صوت كصوت الحمار و هو التنفس العالى المصاحب للألم و الحزن وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ فهم صم، مقابل ما كانوا فى الدنيا يصمون عن الحق، و يقولون للمرسلين: فى آذاننا و قر. [١٠٢] رأينا حال الكفار فى النار، فلننظر إلى المؤمنين فى الجنة إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْكَلِمَةُ الْحُسْنَى بِأَن قُلْنَا إِنْ الْمُؤْمِنُ لَا يَعَاقِبُ، بل يثاب، نفى لهم بما وعدناه أُولَئِكَ عَنْهَا أَى عن جهنم مُبْعَدُونَ يبعدهم الله سبحانه عنها، حتى لا يرون منظر العذاب، و لا يستمعون لزيورها، و لا يحسون بحرارتها.

[١٠٣] لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا أَى صوتها الذى يحس به

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا يَدَّأُنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الْمَلذَّاتِ وَ النِّعَمِ خَالِدُونَ دَائِمُونَ فلا زوال لهم عن الجنة و نعيمها، فى مقابل أهل النار الذين لا زوال لهم عن الجحيم و العذاب.

[١٠٤] لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ أَى الخوف الأعظم، و هو فرع يوم القيامة المتصل بالدخول فى النار، الباقي إلى الأبد وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَى تستقبلهم بالتهنئة و البشرى، قائلين لهم هذا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فى الدنيا، فأبشروا بالأمن و الفوز و ما أحوج الإنسان هناك أن يتلقاه شخص يهديه السبيل و يرشده الطريق، فى يوم الأهوال و الأحزان، فى ساحة يجتمع فيها الخلق كلهم، فى مدة تطول خمسين ألف سنة، و وراءها إما عذاب دائم أو نعيم مقيم!.

[١٠٥] يَوْمَ مَنْصُوبٍ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أى أن ذلك النعيم، و تلك الأهوال، إنما هى فى يوم نَطْوِي السَّمَاءَ فيه، و معنى طى السماء، محوها، و تبديلها دخانا كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ السجل ما يسجل فيه، و هو قد يكون سجلا للكتاب و قد يكون سجلا فى قصاص ورق، و السجل الذى يطوى هو سجل الكتاب، و فى بعض الروايات، أن السجل اسم ملك يطوى صحف أعمال بنى آدم، فالتشبيه إنما هو به، و فى

ذلك اليوم كما بدأنا أول خلق نعيده أى كما تمكنا على الابتداء نتمكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٤

[سورة الأنبياء (٢١): آية ١٠٥]

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)

على الإعادة أو فى الشكل الذى خلقنا من كون الإنسان حاف عارى غير مختون كذلك تكون الإعادة، فالمراد بأول خلق «الخلق أولاً» على التقديرين، لا أول الخلق- وهو آدم عليه السلام- كما هو ظاهر، نعدكم ذلك وعداً مصدر تأكيدى علينا إنجازاه وإنفاذه إننا كنا فاعلين إنا فاعلون لهذا الوعد، و كان لمجرد الربط، لا بمعنى الماضى.

[١٠٦] و حيث رأينا إن العاقبة الحسنى فى الآخرة لعباد الله الصالحين، فلنرجع إلى الأرض لنرى إن الأرض لمن؟ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر إما المراد «زبور» داود و المراد بالذكر حينئذ «التوراة» لأنها كانت قبل الزبور، و إما المراد بالزبور الصحف المنزلة على الأنبياء، فإنها من زبر بمعنى كتب، و المراد بالذكر، التذكير بالمبدأ و المعاد و المعارف، و على أى حال فالآية فى صدد بيان أن سنة الله جرت على ذلك، و قد كتبها فى الكتب السابقة أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ فإن الأرض فى آخر المطاف للصالحين، و إن سبق تملكها الفاسدون، و قد وردت أحاديث متواترة فى تفسير الآية بالإمام الحجة المهدي عليه السلام، و ذلك من باب أظهر المصاديق فإنه عليه السلام يرث الأرض كلها و إن كان الأنبياء و الأئمة و الصالحون ورثوا الأرض قبل، إلى هذا الحين، فكلما قام باطل، قام حقه فى عقبه ليرث الأرض منه و السر واضح فإن غير الصالح لا يملك إلا شقاً واحداً، و الحياة لا تسير بشق واحد، أما الصالح الذى يجمع بين المادة و المعنى، و الإيمان و النشاط

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٦ الى ١٠٨]

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)

فإنه أصلح من الفاسد، و لذا تزحزح الحياة الفاسد- و إن طال أمد- لتخلف الصالح مكانه، ليكون السير عدلاً متوازناً. [١٠٧] إن فى هذا الذى أخبرتك به من أن العاقبة فى الدنيا و الآخرة لعباد الله الصالحين لبلاغاً أى كفاية فى البلوغ إلى القصد و هو الحق لقوم عابدين لله مخلصين فى عبادتهم، و إنما خص هؤلاء، لأنهم الذين ينتفعون بالبلاغ.

[١٠٨] و إننا لم نكن خصصنا أمة بالبلاغ و إنما البلاغ عام، أما المنتفع به فهو من ألقى السمع و هو شهيد و ما أرسلناك يا رسول الله إلا رحمة للعالمين نعمه عليهم جميعاً، أما المؤمن فواضح كونه صلى الله عليه و آله و سلم رحمة بالنسبة إليه، و أما الكافر، فلأن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نظم سبل الحياة و أرشد إليها فاقتبس منه الكفار و ما نرى اليوم من الحضارة و التمدن فى العالم فليس إلا من هدى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و ما نرى فيه من الانحراف و الزيغ فذلك من تحريف مناهج الرسول، فإن حضارة الشرق الروسى مأخوذة من حضارة الغرب، و حضارة الغرب وليدة الحضارة الإسلامية، حيث دخل العلم بلاد الغرب من بلاد الإسلام.

[١٠٩] و قد بين سبحانه علته كون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم رحمة، أنه يبشر بوحدة الإله، فإن الإذعان بذلك رأس الفضائل، و سبب أنواع الرحمة قل يا رسول الله لهؤلاء القوم إنما يوحى إلي من عالم الغيب إنما إلهكم أيها البشر إله واحد لا شريك له فهل أنتم مسلمون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ

إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١)

استفهام تقريرى، أى مستسلمون منقادون لذلك، فتركوا عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له. [١١٠] فَإِنْ تَوَلَّوْا بَأْسَ أَعْرَضُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا الْإِسْلَامَ فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَنْتُكُمْ أَعَلَّمْتُمْ بِالتَّوْحِيدِ - وليس وظيفتى إلا الاعلام وقد فعلت - على سِوَاءِ بَدُونِ تَرْجِيحٍ، فَإِنَّ الْإِعْلَانَ عَامٌ لِلْجَمِيعِ، وَقَدْ أُدِيتُ مَا عَلَيَّ، وَبَقِيَ مَا عَلَيْكُمْ، فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا كَانُ مَصِيرُكُمْ الْهَلَاكُ، أَمَا وَقْتُ هَلَاكِكُمْ، فَعَلِمَهُ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَإِنْ أَدْرِي أَى مَا أَدْرِي أَمُّ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ؟ فَإِنَّ عِلْمَ ذَلِكَ خَاصٌ بِهِ سَبْحَانَهُ.

[١١١] ولا - يظن أحد أن الله لا يعلم ما يعمل حتى يفكر الكفار، بأنهم ينكرون - غدا - ما صدر منهم إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ أَى الْكَلَامِ الظَّاهِرِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ أَى يَعْلَمُ سِرَّكُمْ، كَمَا يَعْلَمُ جَهْرَكُمْ، وَسَوْفَ يُجَازِيكُمْ عَلَى الْجَمِيعِ. [١١٢] أَمَا تَأْخِيرُ الْعَذَابِ فَحِكْمَةٌ اقْتَضَتْهُ وَإِنْ أَدْرِي مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ لَعَلَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ فِتْنَةٌ وَامْتِحَانٌ لَكُمْ حَتَّى تَظْهَرَ نَوَايَا كُلِّ أَحَدٍ جَلِيَّةً، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَلَّمَا بَقِيَ ظَهَرَتْ نَوَايَاهُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ وَمَتَاعٌ لِأَجْلِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ إِلَى حِينٍ أَجْلُكُمْ الْمَقْرَرُ، فَلَيْسَ الْإِنْعَامُ إِكْرَامًا، تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٥٧٧

[سورة الأنبياء (٢١): آية ١١٢]

قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)

بل استدراجا.

[١١٣] وأخيرا، بعد إبلاغ الرسول، وبقاء بعض الكفار فى غيرهم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، يَا رَبِّ احْكُم بَيْنِي وَبَيْنَ الْكُفَّارِ بِالْحَقِّ وَهَذَا لِإِظْهَارِ إِنْ حَكَمَ اللَّهُ حَقَّ فَالْقَيْدُ لِلتَّوْضِيحِ وَالتَّنْبِيهِ، لا - للاحتراز وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الَّذِي يَرْحَمُنَا وَيُفَضِّلُ عَلَيْنَا جَزَاءَ مَا تَعَبْنَا وَأَبْلَغْنَا، فَلَمْ يَذْهَبِ الْبَلَاغُ وَالْأَتْعَابُ سُدَى الْمُسْتَعَانُ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى كَيْدِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ عَلَى مَا تَصِفُونَ الرَّسُولَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ كَاذِبٌ وَمُفْتَرٌ وَسَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتْرَكَ الرَّسُولَ، لِيَكِيدُوا لَهُ مَا شَاءُوا، بَلْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَعِينُهُ عَلَى أَمْرِهِ. تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٥٧٨

٢٢ سورة الحج مدنية / آياتها (٧٩)

سميت السورة بهذا الاسم، لأن فيها أحكام «الحج» ولفظه وهذه السورة مدنية، إلا آيات منها، ولذا ذكر فيها التشريع الحكومى، كما هو شأن غالب السور المدنية، حيث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينظم دنيا المسلمين، إلى جنب دينهم، و يبين لهم الدساتير و المناهج و حيث اختتمت سورة الأنبياء بالتوحيد و الرسالة، ابتدأت هذه السورة بذكر المعاد، الذى هو ثالث الأصول الثلاثة. [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَسْتَعِينُ بِاسْمِ الْإِلَهِ فِي جَمِيعِ الشُّؤُونِ، فَاللَّهُ مَصْدَرُ كُلِّ خَيْرٍ، فَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا، وَ الْمَالِ وَ الْجَاهِ، وَ السَّعَادَةِ وَ الرَّفَاهِ، وَ الْأَمْنِ وَ السَّلَامِ، وَ غَيْرِهَا، وَ كَأَنَّهُ لَذَلِكَ اخْتِيارَ لَفْظِ «اللَّهُ» لِإِضَافَةِ «الاسْمِ» إِلَيْهِ، وَ حَيْثُ إِنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا تَفْضُلٌ خَصَّصَ «الرحمن الرحيم» بِإِتْيَانِهِمَا وَصفا له سبحانه، دون سائر الصفات و النعوت.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ الْمَرَادُ الْعُقَلَاءُ مِنْهُمْ الْقَابِلُونَ لِلخُطَابِ اتَّقُوا خَافُوا رَبَّكُمْ فَلَا تُخَالِفُوا أَوْامِرَهُ وَ زَوَاجِرَهُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ أَى زَلْزَلَةَ الْأَرْضِ

حين قيام الساعة و هي يوم القيامة شئ عظيم هائل، فإن من أشرط الساعة زلزله مهولة تعم الأرض.

[٣] يَوْمَ تَرَوُنَّهَا أَي ترون تلك الزلزلة، أو تلك الساعة، و العامل في يوم «تذهل» أى إن الدهول في يوم رؤيتكم للساعة تذهل كل مؤرمة معها عما أرضعت أى تغفل الأمهات عن أولادها الرضع، مع شدة العلاقة للأم بالنسبة إلى ولدها الرضيع و تضع كل ذات حمل حملها فإن الحبل إذا اشتد عليها الفرع طرحت جنينها، و هذا إما حقيقة، فإن الساعة تقوم على الناس، و فيهم الأمهات و الحبالى، أو كناية عن شدة الهول، نحو «فلان كثير الرماد» أو «مهزول الفصيل» مما يراد معناه الكنائى لا اللفظى و ترى أيها الرائي الناس سيكارى أى كالسكارى فى الدهشة و الدهول من كثرة الخوف، فكما أن السكران لا يشعر كشعور الصاحى كذلك الناس فى ذلك اليوم و ما هم بسكارى من الشراب لم يشربوا الخمر، و إنما شربوا الفزع و الخوف و لكن عذاب الله و أهوال القيامة التى يرونها شديد و من شدتها يصيبهم ما يصيبهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٠

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ٥]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

[٤] يا أيها الناس اتقوا و لا تجادلوا، فإن وراءكم هذا اليوم الشديد و لكن مع ذلك من الناس أى بعضهم من يجادل يخاصم و يناقش فى الله من وجوده، فى آياته، فى صفاته، فى سائر شؤونه بغير بدون علم و معرفة و يتبع كل شيطان مرید أى أنه مستعد للضلال، فأى شيطان غاو مارد أخذ قياده بسلسله له و اتبعه، و يا للسخر أن يترك الإنسان الإله، ليتبع كل شيطان مرید؟.

[٥] كَتَبَ عَلَيْهِ أى على الشيطان، و المراد أن الشيطان هكذا أنه من تَوَلَّاهُ أى من اتبع الشيطان فإنه يضلُّهُ أن الشيطان يضل ذلك المتبع و يهديه يوصله ذلك الشيطان إلى عذاب السعير اسم جهنم سميت به لأنها تسعر نارها، و المعنى أنه كيف يتبع هذا المجادل الشيطان الذى يضلُّه فى الدنيا، عن الطريق و بالآخرة يورده النار فى الآخرة؟

[٦] ثم استدل سبحانه على من ينكر البعث يا أيها الناس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ أَى فى شك من البعث يوم القيامة، الذى يبعث و يحيى فيه الأموات، لاستغرابك أن يعود الإنسان حيا بعد ما مات و فنى؟

فاعتبروا بحالكم عند ابتداء الخلق، إذ إنا خلقناكم من ترابٍ أى خلقنا كل فرد منكم من الأرض، إذ الإنسان تراب ثم نبات يأكله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨١

الإنسان و الحيوان- الذى يأكله الإنسان- فيصير دما ثم منيا، ثم إنسانا، أو المراد ب «خلقناكم» خلقنا جدكم «آدم» عليه السلام، و من قدر على صنع الإنسان من تراب يقدر على إعادته من ترابٍ ثم من نطفة فإن الإنسان بعد أن يصبح منيا يكون نطفة، و هى المنى المستقر فى الرحم ثم من علقته و هى القطعة من الدم المتجمد، فإن النطفة تنقلب علقه بعد مدة من بقائها فى الرحم ثم من مضغته و هى شبه قطعة ممضوغة من اللحم، فإن معنى المضغ مقدار ما يمضغ بالأسنان.

مُخَلَّقَةٍ تلك المضغ و غير مُخَلَّقَةٍ أى تام الخلق و غير تام، أو متخذة شكلا بتحولها إلى العظم و اللحم و الصورة، أو تلفظها الرحم قبل ذلك فلا تتخذ خلقه الإنسان، و بناء على هذا المعنى يكون معنى «خلقناكم» إن أصل الإنسان هكذا، حتى يلائم «غير مخلقة» و إنما طورنا الإنسان فى هذه المراحل لِنُبَيِّنَ لَكُمْ قدرتنا، و ندلكم على وجودنا و سائر صفاتنا، فمن يا ترى يقدر على مرحلة واحدة من هذه المراحل؟ و نُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ ما نشاء من ولد و بنت، تام و غير تام، واحد و متعدد، حسن أو قبيح، و هكذا إلى أجلٍ مُّسَمًّى أى مدة محدودة قد سميت عندنا، فمقدار بقاء الجنين فى الرحم محدود معين عند الله سبحانه ثم بعد تمام الأجل المقدر نُخْرِجُكُمْ أيها البشر

طِفْلًا، و إنما جاء في اللفظ مفردا، باعتبار كل واحد واحد ثم نسير بكم في مراحل الطفولة لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ أى وقت اشتداد القوى
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٢

العقلية و البدنية و الغريزية فيكم، و هو مرحلة الشباب.

و مِنْكُمْ أى بعضكم مَنْ يُتَوَفَّى بصيغته المجهول، و المتوفى - باسم الفاعل - هو الله سبحانه، أى يكون موته قبل الكبر و مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ
أى يرجع إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ أى أسوء العمر، و إنما قال «يرد» لأن حالة الشيخوخة كحالة الطفولة، فهو رد إلى تلك، و إنما كان حال
الشيخوخة أسوأ العمر مع أنه كحالة الطفولة، لأن حالة الطفولة أفضل منها حيث أن الطفل فى حالة النمو و الاكتمال، بخلاف حالة
الشيخوخة، فإن الإنسان معها فى التردى و الهبوط، و إنما يرد الإنسان إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا أى لكى يخرج عن
ذلك العلم الذى أتاه، فإن الإنسان ينسى معلوماته و يرتد جاهلا - أو شبه جاهل - و اللام إما للعاقبة، نحو (فَأَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ
لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» و إما فيه تلميح إلى أنه يسلب ما كان يتناول به و يجادل فى الله بسببه، أو لام الغاية، أى يرد إلى هذا الحال،
فتضعف روحه كما ضعف جسمه، أى نرده إلى هذه الحالة، لكى لا يعلم، و يصير كيوم طفولته.
و كما جرت القدرة فى خلق الإنسان بتلك الكيفية المتدرجة، كذلك ترى أيها الرائي الأَرْضَ هَامِدَةً أى ساكنة يابس، لا حركة فيها،
و لا نبات، فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا أى على الأرض الماء من

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦ إلى ٧]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ
(٧)

السماء بإنزال المطر، أو نحوه اهْتَرَّتْ الأَرْضُ بالنبات، و الاهتزاز شدة الحركة فى الجهات وَ رَبَّتْ أى انتفخت و نمت وَ أَنْبَتَتْ الأَرْضُ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ صنف من أصناف النبات بِهَيْجٍ مبهج موتق ذو لون جميل، و المراد بالاهتزاز، اهتزاز الأرض، فإن الأرض تتحرك فعلا و
انفعالا بالنبات، و يحتمل أن يكون مجازا يراد به، اهتزاز النبات بعلاقة الحال و المحل، و إن كان هذا بعيدا من السياق.

[٧] ذَلِكَ الذى سبق ذكره من خلق الإنسان من التراب، ثم تطوره فى مراحل الجنين و الطفولة و الشيخوخة، و صنع النبات من الأرض
الهامدة بسبب أن اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ الْإِلَهَ الحق يقدر على كل شىء، لا كآلهتكم الباطلة - التى تجادلون فى الله من أجلها - لا تقدر على
أى شىء وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى فالميت من الأرض أحيها إنسانا أو نباتا، لا كما أنكرتم البعث، و كنتم فى ريب منه وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ فلا تتعجبوا، كيف يمكن إعادة البشر، و أية قدرة تتمكن من ذلك، إن القادر على الابتداء، قادر على الإعادة.

[٨] وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا- رَيْبَ فِيهَا أى ليست محل الريب، و إن ارتاب فيها المبطلون و المراد بالساعة القيامة وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ وَ يَحْيِي
مَنْ فِي الْقُبُورِ و قد جاء التأكيد للبعث، أكثر من التأكيد حول المبدأ، لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٤

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٨ إلى ٩]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُبِينٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)

الناس يستغربون من المعاد، أكثر مما يستغربون من المبدأ، و لذا يتخذون الآلهة و الأصنام، فكان المبدأ أمر مفروغ منه، و إنما كلامهم
حول تعيينه و تشخيصه، أما المعاد فأصله محل ريبهم و إنكارهم.

[٩] و بعد هذه الدلائل الظاهرة على وجود الله سبحانه هناك من الناس من يُجادِلُ في الله فينكر وجوده و قدرته بغير علمٍ و قطع، و إنما هو شاك في نفسه و لا هُدىً يهديه إلى ذلك، و لو لم يكن علما و لا كتابٌ مُنيرٌ ينير القلب و الروح، فلا علم له، و لا دليل عقلى يؤيده، و لا دليل سمعى يستند إليه.

[١٠] و حاله في الكبر عن قبوله الحق شبيه بالمتكبر الظاهر عليه الكبر في جسمه و أطواره ثانی عطفه العطف جانب الإنسان الذى يعطفه و يلويه عند الإعراض عن الشىء، من تحت إبطه إلى حقوه، و الإنسان غير المعرض، عطفه مستقيم، فإذا أعرض لواه، و بذلك يكون قد ثناه إذ بقى الجانب التحتى قرب الحقو في مكانه و مال الجانب الفوقى تحت الإبط نحو اتجاه الخلف، و هذا كناية عن المتكبر المعرض، و الجملة حال لئضل عن سبيل الله فهو لا يحمل تبعه ضلال نفسه، و إنما يضل غيره أيضا، له في الدنيا خزي هوان و ذل و فضيحة، فإن الكفار دائما في هوان، حتى إذا ساروا ظاهرا، كما نرى من حال الغرب و الشرق - اليوم - و نذيقه يوم القيامة عذاب الخريق أى النار التى تحرقهم، و معنى الإذافة، إحاطته بالنار، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٠ الى ١١]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَبِإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)

يدوق عطفه المثنى جزاء عمله.

[١١] و يقال له حين العذاب ذلك العذاب، و جىء بالإشارة البعيد، لتوهم الترفع عن قرب العذاب للقاتل بما قدَّمت يداك من الكفر و العصيان، و نسب التقديم إلى اليد، لأنها الغالبة في إعطاء الأشياء و أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ «ظلام» صيغته نسبة، لا مبالغة، كما قال ابن مالك:

و مع فاعل و فعال فعل فى نسب أغنى عن اليا فقبل

و قد تقدم تفصيله للعبيد فى تعذيبه، و إنما هم استحقوا ذلك بسوء صنيعهم.

[١٢] لقد رأينا بعض الناس ينكرون الله سبحانه به، فلا يؤمنون به، و هناك نموذج آخر من الناس، فلقد آمنوا، و لكن إيماننا، لا عن عمق و استقرار و من الناس من يعبد الله على حرف الحرف الطرف، و الجانب، أى على جانب واحد من جوانب الحياة، فهو يعبد حالة الرخاء، أو حالة الأمن أو حالة الغنى، و هكذا، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به أى بذلك الخير، و ركن إليه، و عبد الله الذى أعطاه ذلك الخير، و إن أصابته فتنة اختبار و ابتلاء، بفقر، أو مرض، أو خوف، أو ما أشبه انقلب على وجهه بأن كفر بالله، كالذى يقع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٦

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٢ الى ١٣]

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبِسِ الْمُؤَلَى وَ لِبِسِ الْعَشِيرِ (١٣)

على الأرض على وجهه، بحيث لا يرى، و لا يتنفس براحه، و لا يحس، بل هو فى تعب و حرمان، شبه بذلك الكافر، لأنه مثل ذلك المنقلب فى الحرمان خسر الدنيا إذ فقد الإيمان الموجب للرضا و الاطمئنان و الهدوء و الآخرة لأنه كفر، و الكفر موجب للعذاب النار ذلك الخسران للدنيا و الآخرة هو الخسران المبين الظاهر الذى لا خسران فوقه، و لا أسوأ حالا منه.

[١٣] و الذى يعبد الله على حرف، إذا أصابته فتنة يدعوا من دون الله ما لا يضره و ما لا ينفعه فإن الإنسان إذا قطع صلته بالله، لا بد و أن يدعوا سواه، و سوى الله لا ينفع داعيه، و لا يضر تارك دعوته - فإن النفع و الضرر كليهما بيد الله سبحانه - ذلك الدعاء لما لا يضر و لا ينفع هو الضلال البعيد فهو خارج عن الجادة، خروجا كثيرا، بحيث لا أحد أبعد منه، إذ ترك الله سبحانه، و اتخذ غيره - و قد مر

معنى كون الضلال بعيداً-

[١٤] يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ إِنْ مَا يَتَّخِذُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ سُنْدًا، سِوَاهُ كَانَ صِنْمًا أَوْ إِنْسَانًا أَوْ شَيْطَانًا، مِنْ حَيْثُ ذَاتَهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَ مِنْ حَيْثُ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَارِ، ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، فَالضَّرُّ هُوَ انْحِرَافٌ مِنْهَا جِئًا مِمَّا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ، وَ الْعِقَابُ الْآخِرِيُّ، وَ النِّفْعُ هُوَ الْبَقَاءُ فِي حَلْقَةِ آبَائِهِ وَ أَقْرِبَائِهِ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَ مَا يَعُودُ لِكَهْنَةِ الْأَصْنَامِ مِنَ النَّذُورَاتِ وَ الْقَرَابِينِ، وَ مَا أَشْبَهَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٤ الى ١٥]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥)

هذه المنافع، ولكن الضر المترتب أقرب من النفع العائد- وهذا عبارة أخرى عن الضر الكثير، والنفع القليل، ولعل التعبير بأقرب، لأجل أن الضر يتوجه إلى الإنسان بمجرد عبادة الصنم، بخلاف النفع الذي هو متوقف على الإتيان بالندى، أو نحو ذلك لَبَسَ الْمَوْلَى أَى أَنَّ الصَّنَمَ بَشْسِ السَّيِّدِ لِلْعَابِدِ لَهُ، إِذْ هُوَ سَيِّدٌ يُوْجِبُ ضَرَّهُ وَ لَبَسَ الْعَبْدُ أَى الصَّاحِبِ الْمَعَاشِرِ الْمَخَالَطِ، فَهُوَ لَا يَصْلِحُ خَلِيطًا وَ عَشِيرًا، فَكَيْفَ يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ سَيِّدًا؟

[١٥] مر بنا نموذجان من البشر، فلنمر بالقسم الثالث، وهو المؤمن، و نرى عاقبته إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رِسُولِهِ، وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَ سَائِرَ الْأُمُورِ الْعَقْدَائِيَّةِ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ جَنَّاتٍ أَى بَسَاتِينَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَ أَشْجَارِهَا وَ سُورِهَا، حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُطْلَا عَلَى النَّهْرِ حِينَ التَّنْقُلِ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ فليس مثل الأصنام التي لا تتمكن من نفع عبادها.

[١٦] أما المؤمن اليأس من نصره الله، إذا وقع في الفتنة و البلاء، و لا يرى للآخرة أثرا، كما هو كثير في ضعاف الإيمان- فليفعل ما يشاء، و ليذهب إلى السماء إن تمكن، فإن الله سبحانه، يأبى، إلا أن يجري الأمور بأسبابها، و أن يمتحن الناس، حتى يرى مقاديرهم، و لا يغير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٨

[سورة الحج (٢٢): آية ١٦]

وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

أمره شيء، و لا- راد لقضائه مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَ حَلِّ مَشَاكِلِهِ، وَ نَجَاتِهِ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا وَ الْآخِرَةِ فَهُوَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، يَقُولُ إِنْ لَمْ يَنْصُرْنِي اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَ هِيَ أَهْوَنُ، فَكَيْفَ يَنْصُرْنِي فِي الْآخِرَةِ؟ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ أَى فَلْيُوجِدْ سَبِيحًا مُوَصَّلًا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ الطَّرِيقَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى السَّمَاءِ بِذَلِكَ السَّبَبِ، وَ هَذَا عِبَارَةٌ عَمَّا هُوَ شَائِعٌ فِي الْأَلْسِنِ- لَدَى بَيَانِ، أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ- مِنْ قَوْلِهِمْ: لَوْ ذَهَبَتْ إِلَى السَّمَاءِ لَمْ يَنْفَعَكَ، يَرِيدُونَ أَنَّ تَوْسُطَ السَّمَاءِ غَيْرُ مُنْتَجِجٍ لِتَغْيِيرِ مَا جَرَى قَدْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلْيَنْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَ الْاسْتِمْدَادُ بِالسَّمَاءِ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ أَى تَدْبِيرَهُ فِي الذَّهَابِ إِلَى السَّمَاءِ مَا يَغِيظُ مَا أَوْجَبَ غِيظَهُ مِنَ الْمَشْكَلَةِ وَ الْفِتْنَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا؟ وَ الْاسْتِفْهَامُ لِلنَّفْيِ أَى لَا يَذْهَبُ حَتَّى هَذِهِ الْحِيلَةُ الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ الْحِيلِ عَنْ مَتَنَاوَلِ الْبَشْرِ، لِلخُرُوجِ عَمَّا قَدَّرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، إِذْنُ فَمَا ذَا يَنْفَعُ فِي الْخُلَاصِ مِنَ الْمَشَاكِلِ؟ إِنَّهُ نَصَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، إِنْ عَوَّنَ اللَّهُ وَ نَصَرَهُ هُوَ الَّذِي يَحُلُّ الْمَشْكَلَةَ، أَمَا مِنْ يَأْسٍ مِنْ عَوْنِهِ، فَلَا شَيْءَ يَنْفَعُهُ إِطْلَاقًا، حَتَّى الذَّهَابُ إِلَى السَّمَاءِ.

[١٧] وَ كَذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ مِنْ بَيَانِ حَالَاتِ النَّاسِ فِي الْهَدْيِ وَ الظَّلَالِ وَ التَّوَسُّطِ، وَ عَوَاقِبِ كُلِّ طَائِفَةٍ أَنْزَلْنَا أَى أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ، لَا لَبْسَ فِيهَا وَ لَا غُمُوضَ، لِنُرْشِدَ النَّاسَ، إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَدْيِ وَ الضَّلَالِ، وَ نَعْرِفَهُمْ مَقَادِيرَهُمْ وَ عَوَاقِبَهُمْ وَ

بيننا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٧ إلى ١٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ أَي يوصله إلى الغاية المطلوبة بعد البيان للكل، وإنما يريد الله هداية من اتبع الحق، فالإرشاد للكل «أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» والهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب ل «من يريد» الله هدايته، لأنه جاء في طريق الحق، واسترشد بالآيات.

[١٨] أما لو اختلف الناس في قبول الحق وعدمه، بعد أن كان الإرشاد للجميع، فمصيبرهم إلى الله وهو الحاكم بينهم يوم القيامة إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَن اتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ دِينًا وَالَّذِينَ هَادُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّةَ مَسْلَكًا وَالصَّابِئِينَ وَفِيهِمْ خِلَافٌ، ولا يبعد أن يكون خليطاً من الأديان، ولهم باقية إلى اليوم- يسمون «صبي»- وَالنَّصَارَى وَهُمْ تَابَعُوا عِيسَى الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن انصرفوا عن تعاليمه وَ الشَّرِيكَ فَقَطْ، ويدخل فيهم الدهرية إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي يحكم بينهم، بأن أيهم المحق، وأيهم المبتل، ويجازيهم حسب أعمالهم إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ حَاضِرٌ عِلْمًا وَسَمْعًا وَبَصَرًا، فليس فصله إلا بالحق، فإنه مطلع على جميع الخصوصيات.

[١٩] إن البشر لو استكبروا عن عبادة الله والخضوع لأمره ونهيه، فالكون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٠

[سورة الحج (٢٢): آية ١٩]

هَذَا خِضْمَانٍ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)

كله خاضع له مطيع لأمره أَلَمْ تَرَ أَيُّ الْأَلَا- تنظر وتعلم أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عِقْلَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، فإن الإنسان يعلم ذلك إذا تدبر في الخلق، والخالق، وإن لم يره ببصره وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مِنَ الْعُلُوبَاتِ فَإِنَّهَا خَاضِعَةٌ لِأَمْرِهِ، سائره حسب ما قرر لها من المنهاج وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ مِنَ الْأَرْضِيَّاتِ، فإنها خاضعة لأمره، مستقره أو متحركة حسب إرادته وَيَسْجُدُ لَهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ سَجُودًا مُتَعَارِفًا، وإن سجد الجميع له سجوداً تكوينياً، ثم ابتداء قوله تعالى وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَبَى السَّجُودَ وَالْإِيمَانَ، واختار الكفر والعصيان، حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَي ثبت ولزم، لأنه أبا واستعلى وتكبر وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ لَهُ بِأَن جَعَلَهُ ذَلِيلًا مَهِينًا، حين تكبر واستعلى ولم يسجد فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وما حوله من الحفاوة، أياماً قلائل، وإنما هي سراب زائل إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَالْأُمُورُ بِيَدِهِ، والإكرام والإهانة منه لا من غيره.

[٢٠] ولننظر إلى من يهينه الله ومن يكرمه هَذَا أَي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ- وهم الفرق الخمسة المذكورة- خِضْمَانٍ وَالْخِضْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩١

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

يُضَهَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

يطلق على المفرد والثنى، والمجموع بلفظ واحد اخْتَصَمُوا الْإِيمَانَ بِالْجَمْعِ، باعتبار الجميع فِي رَبِّهِمْ أَي فِي دِينِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، أو في وجوده، و سائر شؤونه، وقيل إنها نزلت في المؤمنين والكافرين، الذين حاربوا يوم بدر، فالمؤمنون هم على أمير المؤمنين عليه السلام، و حمزة، و عبيدة، و الكافرون هم الوليد و عتبة و شيبه، و هذا من باب المصداق، كما أن ما ورد من أنها أهل البيت، و بنى أمية، من باب المصداق أيضاً فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ أَي تفصل لهم الألبسة من عين النار، أو من جسم توقد فيه النار،

كالحديد و نحوه يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ أى الماء الحار المغلى، لتعذب رؤوسهم بالنار و الحرارة كما تعذب سائر أعضائهم بالثياب.

[٢١] يُضَيِّهُمُ بِهِ أى يذاب و ينضج بذلك الماء الحميم ما فى بُطُونِهِمْ من الأعضاء، كالقلب، و الرئة، و الأمعاء، و غيرها و الْجُلُودُ فهو حميم يشمل الظاهر و الباطن، و له من الحرارة، ما تذيب الأعضاء و الجلد.

[٢٢] وَلَهُمْ مَقَامِعٌ جمع مقمعة، و هى مدقة الرأس من قمع بمعنى دق، و هى أعمدة مِنْ حَدِيدٍ يضرب بها المجرم على رأسه، لشدة نكاله و عذابه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)

[٢٣] كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ كَلَّمَا حَاولُوا الخروج من النار، لأجل الغم و الكرب، الذى يصيبهم أُعِيدُوا فِيهَا أُرْجِعُوا إِلَيْهَا، و كأنهم يسرون قدرا للخلاص، فيعادون إلى مكانهم و يقال لهم ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أى عذاب النار المحرقة، فالحريق مضاف إليه، لا وصف.

[٢٤] وَ قد رأينا حال الكافرين، فلننظر إلى أحوال المؤمنين إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا بما يلزم الإيمان به من الوصول و عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ التى تصلح للحياة السعيدة، و ذلك بإتيان الواجبات، و ترك المحرمات، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ من تحت قصورها و أشجارها يُحَلَّوْنَ فِيهَا يعطون الحلّى و الزينة، التى يلبسونها مِنْ أَسَاوِرَ من جنس الأساور، و هى جمع سوار، و هو لتحلية اليد مِنْ ذَهَبٍ و كأن الفضة و الذهب هناك غيرهما هنا، فليس الذهب أعلى قيمة من الفضة، فلا يقال كيف قال سبحانه فى «هل أتى» لأهل البيت عليهم السّلام «من فضة» و هنا لسائر المؤمنين «من ذهب»؟ و يحلون فيها لُؤْلُؤًا فى سائر مواضع أجسامهم و لِبَاسُهُمْ فِيهَا أى فى تلك الجَنّاتِ حَرِيرٌ و هو الدياج المنتوج من دود القز - هنا - أما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يَرِذْ فِيهِ بِالْحَدِّ يَظْلَمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

هناك، فلا نعلم مما ينتج.

[٢٥] ذَلِكَ مقامهم، و تلك ألبستهم و زينتهم - فى مقابل مكان أهل النار و لباسهم - فلننظر إلى ما يقال لهم، مقابل ما قيل لأهل النار «وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» وَ هُدُوا أى أرشد أهل الجنة - و المرشد هو الله سبحانه الملهم لهم بذلك - إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ فيقول بعضهم لبعض «سلام عليكم» و بالتسليم تتلقاهم الملائكة وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أى صراط الله المحمود، و هو الصراط الذى يحمد صانعه الذى يسلكه، فى مقابل أهل النار الذين «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا».

[٢٦] و بمناسبة الكلام حول الكفار، يأتي السياق لبيان حال قسم خاص منهم و هم الذين يمنعون عن الحج، و عن الإيمان، ثم يستطرد السياق حول بعض خصوصيات البيت الحرام إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، و اليوم الآخر وَ يَصُدُّونَ أى يمنعون الناس عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ عن طريقه المؤدى إلى رضاه، و هو الإيمان به، و العمل الصالح حسب أمره وَ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بأن يمنعون الناس عن الحج الَّذِي جَعَلْنَاهُ وَ أمر ببنائه لِلنَّاسِ عموماً، فما حق الكفار يمنعون الناس عن الحج؟ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ أى المقيم فى «مكة» و الضمير راجع إلى المسجد الحرام، باعتبار ملابسته لمكة، فهو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٤

من باب علاقة الكل و الجزء، و البادِ أى الذى يطراً و يأتى إليه من الخارج و سمي المسافر به لأنه يظهر و يتبين، بعد أن كان من الخارج، و المعنى أنه ليس لأحد أن يمنع أحدا، حتى أنه ليس لسكان مكة، أن يغلّقوا أبوابهم بوجه المسافرين و لم يكن لدور مكة أبواب، حتى ابتدعها عثمان أو معاوية، كما ورد بذلك التاريخ و الروايات،
ورد أن هذه الآية نزلت فى قريش حين صدوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن مكة، و قد كتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى عامله بمكة و هو قثم بن العباس، و أمر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإن الله سبحانه يقول سواء العاكف فيه و الباد

«١»، و العاكف المقيم به، و الباد الذى يحج إليه من غير أهله ثم أنه قد حذف خبر إن، لتحويل الأمر، حتى تبقى نفس السامع قلقه، ما مصير هؤلاء المجرمين؟ و ما يكون عقابهم و عذابهم؟

وَمَنْ يُرِدْ مَضَارِعَ مِنَ الرَّدِّ، و حذف يأوه بالجزم ب «من» أى الذى يريد فيه أى فى البيت الحرام، تغييرا، أو تبديلا، و قد حذف مفعول يرد ليذهب الذهن كل مذهب بالحد الإلحاد العدول عن القصد، و منه يسمى اللحد لحداد، لأنه مائل عن استقامة القبر، و الملحد، ملحد لعدوله عن الإيمان بظلم أى ظلما، و هو متعلق بقوله «بالحداد» أى من أراد فى البيت الحرام شيئا غير جائز، بسبب أنه عدل عن القصد ظلما نُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ مؤلم فى الدنيا بإجراء الحد و التعزير عليه تشريعا، و ضربه بالبلايا و المحن تكوينا، و فى

(١) مستدرک الوسائل: ج ٩ ص ٣٥٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرَّكْعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)
الآخرة بإدخاله النار.

[٢٧] و اذكر يا رسول الله إذ بؤأنا أى وطأنا و مهدنا لإبراهيم مكان البيت فإن إبراهيم هو الذى بنى البيت، و قد عرفه الله سبحانه، أين بينه، و يأتى هذا الكلام عقب الكلام السابق، ليدل على أن البيت، إنما بنى لأجل التوحيد و الحج، فما بال الناس يمنعون عن البيت، و ما بالهم يردون فيه بالحد بظلم؟ و قلنا له أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا أى لا تجعل معى شيئا فى العبادة، و إنما تبنى البيت لتوحيدى، و فيه تعريض بالكفار، الذين نصبوا الأصنام حول البيت يعبدونها مع الله و طهّر بَيْتِيَ مِنَ الْأَدْناسِ المعنوية و الظاهرية لِلطَّائِفِينَ الَّذِينَ يَطُوفُونَ و يدورون حول الكعبة، و الطواف قسم من الخضوع، كأنه يريد أن يبين، أنى فداء لصاحب هذا البيت و الْقَائِمِينَ فى عباداتهم تجاه الله سبحانه وَ الرَّكْعِ جمع راعع السُّجُودِ جمع ساجد، أى الذين يركعون و يسجدون.

[٢٨] وَ أَدْنُ أى أعلم يا إبراهيم فى النَّاسِ بِالْحَجِّ الحج أصله القصد، ثم خصص بهذا القصد الخاص، و المراد أن يعلن، أن الناس يأتون إلى هذا البيت لعبادة ربهم، و إتيان المناسك المخصوصة الدالة على خضوعهم لله سبحانه،

و قد ورد عن الصادق عليه السلام أن إبراهيم لما أتم البيت، نادى هلم الحج هلم الحج، فلبى الناس، فى أصلاب الرجال لبيك داعى الله، لبيك داعى الله، فمن لبي عشرة حج عشرا، و من لبي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٢٨]

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

خمسا حج خمسا، و من لبي أكثر فبعد ذلك، و من لبي واحدة حج واحدة، و من لم يلب لم يحج «١»، و قد وعد الله إبراهيم أن يلبه الناس، فقال يأتوك أى يأتوا إليك يا إبراهيم، لأجل الحج أناس رجالاً جمع راجل، و هو الماشى الذى لا مركوب له، يسعون على أقدامهم و أناس يأتوك على كل ضامرٍ من الضمر، و هو الهزال، قد جهده السير، فضمير من الجهد و الجوع و التعب، و إنما خصص هذين، دلالةً لتلبية الناس له، حتى الضعفاء منهم الذين لا مركوب لهم، أو هم فقراء، حتى أن مركوبهم ضامر، ليس له ما ينفق عليه، و لا- يريحه، حتى يسمن يأتين تلك الحيوانات المركوبة الضامرة من كل فجٍ أى طريق عميق بعيد، و هكذا يتقاطر الحجاج على البيت الذى تبنه يا إبراهيم.

[٢٩] و إنما أمروا بالحج ليشهدوا أى يحضروا هناك منافع لهم دنيوية، و أخروية، فالمنافع الدنيوية اقتصادية، و اجتماعية و نفسية، و ما أشبهه، و المنافع الأخروية، الجنة و الثواب و يذكرُوا اسم الله فيجددوا عهدهم به خالصا من كل شائبة فى أيام معلومات و هى أيام الحج، كما يظهر من السياق، و قد ورد عن على عليه السلام أنه الأيام العشر، و ورد أيضا أنه الأيام الثلاث للتشريق، و الظاهر أنها من باب

(١) الكافي: ج ٤ ص ٢٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٧

[سورة الحج (٢٢): آية ٢٩]

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

بيان بعض المصاديق على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، هى الإبل و البقر و الغنم، و البهيمه هى التى لا تقدر أن تتكلم، فإنها من الإبهام، و ذلك أنها لا تفصح عن مرادها، كما يفصح الإنسان الناطق، و المراد ب «على» إما ذكر الله على الحيوان حين يذبح أو ينحر، أو المراد أنهم يشكرون الله على أن رزقهم اللحوم، و على أى حال، فهو مصداق للذكر فكُلُوا أيها الحجاج منها من تلك الأنعام، و الأمر للإباحة، أو للوجوب، فقد ذهب بعض علمائنا إلى وجوب أكل الحاج من ذبيحته و أطعموا البائس و هو الذى ظهر عليه أثر البؤس- أى الجوع و العرى- الفقير و كأنه قيد احترازي، لأن يجتنب عن البائس الذى يظهر ذلك، و ليس بفقير واقعا.

[٣٠] ثم عطف لترتيب الكلام، لا لترتيب ما يأتى على ما تقدم ليُقضوا تَفَثَهُمْ يقال تفت، يتفت «من باب علم يعلم» أى علاه التفت، و هو الوسخ، و تفتت الدماء مكانه أى لطحته، و يقال: قضى تفته، أى أزال و سخه، كأنه أتى بما عليه تجاه الوسخ- و هو الإزالة- و المراد هنا إزالة الأوساخ من حلق الشعر، و نتف الإبط، و تنوير العانة، و قص الظفر، مما حرمة الإحرام، فإنها تحل فى منى و ليُوفُوا نُذُورَهُمْ التى نذروها من الذبح و النحر لله سبحانه- علاوة على الهدى- و ليَطَّوَّفُوا أصله «تطوف» من باب التفعّل، قلبت التاء طاء، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى البيت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٨

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٠]

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَم حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا- مَا يُثَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

القديم، و الظاهر شمول هذا لكل أقسام الطواف، لما تقدم، من أن «ثم» لترتيب الكلام، لا لترتيب الأعمال.

[٣١] ذَلِكَ هو الحج الذى أمر الناس أن يأتوه، فأصله و أعماله، و بناءه، و بانيه، كما ذكر و مَنْ يُعْظَم حُرْمَاتِ اللَّهِ «حرمت» جمع

حرمه، و هي ما لا يحل انتهاكه، أى الذى لم ينتهك حرمه البيت، و حرمه سائر ما شرع من الأعمال المرتبطة به فهو أى هذا التعظيم خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِذْ يُجْزَى بِالثَّوَابِ وَ اللِّطْفِ، و حيث إن المشركين جعلوا من حرمة الله، البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام، يأتى السياق ليبين إنها ليست من حرمة الله وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْأَنْعَامُ جَمِيعٌ أَقْسَامُهَا إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، من المنخنة و الموقوذة و غيرها، فإن سورة المائدة نزلت متأخرة عن هذه السورة، و بمناسبة حرمة الله، يبين السياق، أن لا حرمه للأصنام- كما بين، أن لا حرمه للأنعام فَاجْتَبِئُوا أَيُّهَا النَّاسُ، و لعل إتيان الفاء، لترتيب ذلك على الحالة النفسية التى تثار فى هذه المشاعر، من التطهر، و الاتجاه إلى الله سبحانه، الرَّجَسَ وَ هُوَ الْقَذَارَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الْحَاصِلَةُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَوْثَانِ الْأَصْنَامِ وَ اجْتَبِئُوا قَوْلَ الزُّورِ أَى الْإِفْكَ وَ الْبُهْتِ، فإن عبادة الأصنام، و جعلها شركاء لله سبحانه، من أكبر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٣١]

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)
أقسام الافك، فقد كان المشركون ينتهكون حرمه البيت، و يحترمون الأصنام، و يحرمون ما أحل الله من الأنعام، و ينسبون كل ذلك إلى الله سبحانه، فجاء السياق ليشجب جميع هذه الأعمال، و حيث أن مركزها كانت مكة، حشر الجميع فى سياق الحج.

[٣٢] فى حال كونهم حُفَاءَ جمع حنيف، و هو المائل عن الشرك، أى ميلوا عن الشرك نحو الطريق المستقيم، و هو طريق الله تعالى، لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ لا تشركوا بالله غيره وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِهِ، فهو مثل إنسان يسقط من السماء، و قبل أن يصل إلى الأرض، خطفته الطيور و الجوارح، ليمزقه، و يأكلوه لقمه سائغة لهم، أو تأخذه الريح لتطرحه، فى مكان بعيد عن الأنظار، حتى لا- يبقى أثره، حتى أن جسمه يضيع، فلا- قبر له و لا- أثر، و هكذا المشرك، إنه خر من أوج الإيمان الرفيع، فأخذه الرؤساء الكافرون، ليجعلوا منه وسيلة لسيادتهم و دنياهم، فيعيشون على لحمه و شخصه، أو يبقى وحده، بلا أن يستهويه أحد، بل ضالا فى الحياة، لا- يدري من هو، و أين؟ حتى يأتية الموت، فيضل فى بحر الفناء، لا أثر له و لا خير فَكَأَنَّمَا خَرَّ أَى سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى نَحْوِ الْأَرْضِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ أَى تَمِيلُهُ- فلا يقع على الأرض، ليراه الناس و يأبهوا به- فى مَكَانٍ سَحِيقٍ أَى بَعِيدٍ عَنِ الْأَنْظَارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٦٤٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)
[٣٣] ذلِكَ الأمر كما ذكرنا من لزوم الإيمان، و ترك الشرك وَ مَنْ يُعَظِّمُ شَعَائِرَ اللَّهِ جَمْعُ شَعِيرَةٍ، و هى الشىء الملاصق للبدن، و سمي شعيرة، بعلاقة الملابس، لأنه يصل بالشعر فى البدن، و المراد هنا الأمور المرتبطة بالله، و هو عام يشمل كل ما ورد به دليل خاص، كالمناسك فى الحج، أو دليل عام كالمدارس الدينية التى لم تكن فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة عليهم السلام، و إنما تشملها الأدلة العامة، و الإتيان بهذه الجملة هنا، بمناسبة أن أعمال الحج من الشعائر فإنها أى أن تعظيم الشعائر مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ «الضمير» فى «إنها» عائد إلى الشعائر، و المراد به تعظيم الشعائر، من باب الملابس- مجازا- و إضافة التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى فى القلب، و إنما يظهر أثره على الجوارح و التعظيم حقيقة لا ينشأ إلا من تقوى القلب، أما صورة التعظيم الذى ينشأ من التقليد و نحوه، فإنه ليس تعظيما حقيقة، و إنما صورة تعظيم مجردة.

[٣٤] لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِيهَا أَى فِي الشَّعَائِرِ مَنَافِعٌ مَادِيَةٌ وَ مَعْنَوِيَّةٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَى مَدَّةً مَعِينَةً، قد سمي أجلها، و ذلك، فإن مصاديق الشعائر الأنعام التى تهدي إلى البيت، و يجوز للإنسان ركوبها، و شرب ألبانها، إلى وقت ذبحها ثُمَّ مَحِلُّهَا أَى الْمَوْضِعُ الَّذِي تَحُلُّ

الشعائر فيها إلى البيت العتيق أي مكة، فإن الهدايا تساق إليها، حتى تذبح بها، ثم إن من البلاغة في القرآن، أن يذكر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠١

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٤]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)

الدليل، والحكم، كما يذكر العام، ليشمل الخاص، فلا غرابه في أن يراد بالشعائر العموم، ويراد بـ «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ .. إلى آخره» خصوص الهدى، كما قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) «١» ف «إنا لا نضيع» عام، و دليل، في وقت واحد، وهكذا من أمثاله، وهو كثير.

[٣٥] وليس موضع عجب، أن يكون ذبح الأنعام من الشعائر في هذه الأمة، فقد كان ذبحها في كل الأمم من الشعائر، والذين يشنون على ذبح الحيوان، لم يدر كوا طبيعة البشر، التي لا تقوم، إلا باللحوم، و لم يدر كوا أن لا فرق بين ذبح الحيوان و موته، فإن الألم الذي يصل إليه من الموت أكثر من الألم الذي يصل إليه من الذبح، و النقض بذبح الإنسان في غير مورده، إذ الإنسان خلق لنفسه، و له خلق الكون- كما يشهد بذلك نفس الكون- فهو غاية لا وسيلة، بخلاف الحيوان الذي هو وسيلة، ثم ماذا يقولون في ركوب الحيوان، و الحمل عليه؟ فهل يرون ذلك خلافا، و أنه مثل ركوب الإنسان و الحمل عليه؟ و ماذا يقولون، في استخدام الإنسان لجنسه في حوائجه الضرورية؟ و كون الألم هنا أقل فلا يبرر، إذ لو كان الإيلام ظلما، لم يكن فرق في أصل القبح بين الظلم القليل و الظلم الكثير، و لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسِكًا الْمَنَسِكُ موضع العبادة، من نسك بمعنى عبد، و النسيكة الذبيحة، لأنها تذبح قربة إلى الله تعالى، و المراد بالمنسك إما البيت، و إما الذبيحة، لأنها موضع العبادة، إذ يقرب بها إلى الله، و الأول أقرب

(١) الكهف: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٢

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٥]

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)

إلى ظاهر اللفظ، و الثانى أقرب إلى السياق لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ أى إن جعل العبادة، أو الذبيحة، إنما هو لذكر الله على ما رزقهم من اللحوم، و لو كان المراد بالمنسك، محل العبادة، كان التعليل بمناسبة تلازم محل العبادة و ذبح الحيوان قربانا، كما نرى في الحج، و قد كان في الأمم السابقة، تشريع ذبح الحيوان لله، في محل العبادة، و إنما حرفها المشركون، حيث كانوا يذبحونها للشركاء فَإِلَهُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرِ إِلَهُ وَاحِدٌ لا شريك له فلا تذبحوا الذبائح لغيره كما كانت عادة أهل الجاهلية و «الفاء» تفرع على العلة في «ليذكروا» بمعنى أن تشريع الذبح، لما كان لذكر اسم الله، فلا تذكروا سواه فله وحده أَسْلِمُوا أى انقادوا و أطيعوا وَبَشِّرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ يَتَوَاضَعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، من أختب خضع.

[٣٦] ثم فسر المخبتين بقوله الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ أى خافت و اضطربت، فإن الإنسان، إذا ذكر باسم عظيم يكون مآله إليه، و لا يدرى هل أنه ناجح أم ساقط، يخشى و يخاف خوف الرسوب، و هذا يدل على كمال الإيمان وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ من المكاره و الأتعاب و البلايا، يصبرون لأجله سبحانه، و إطاعة لأمره وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ أصله مقيمين، حذف النون، للإضافة و الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٣

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٦]

وَالْبَدَنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا الْقَائِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أى يبذلون، كما أمر الله سبحانه و «الصابرين» و «المقيمي» عطف على «الذين» و «مما رزقناهم» عطف على «إذا ذكر» أو بتقدير الذين، حتى ينساق العطف فى الجميع.

[٣٧] وَ الثُّبْدَنَ جمع بدنه، و هى الإبل جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ التى تنحر فى الحج تعظيماً لأمر الله سبحانه، و خص البدن بالذكر، مع أن البقر و الغنم كذلك، لأن البدن أعظمها مثوبة، و أنفعها للناس، و لعل تخصيص الهدى بالذكر من بين سائر الشعائر، لأن فيها الدين و الدنيا، بخلاف سائر الشعائر، كالطواف و السعى و الرمى، و ما أشبه لكم أيها المسلمون فيها أى فى البدن خَيْرٌ تنتفعون بلحومها فى دنياكم، و بثوابها فى آخرتكم فإذا أردتم نحرها للهدى اذكروا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا فى حال كونها صَوَافَ أى قائمات، قد صففن أيديهن و أرجلهن، جمع صافه، و ذلك حين إرادة نحرها فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا بأن سقطت على الأرض، لموتها فى أثر النحر، و هى إذا وقعت تقع على جنبها و ذلك كناية عن موتها فَكُلُوا مِنْهَا الأمر، إما للإباحة، لأن الأكل مباح، أو للوجوب على ما ذهب إليه جماعة من العلماء، من وجوب الأكل من الهدى وَ أَطْعَمُوا الْقَائِعَ الذى يقنع بما أعطيته، و هو يسألك الطعام وَ الْمُعْتَرَّ من اعتر، بمعنى اعترى، و هو الفقير الذى يعترى رحلك من غير أن يسأل، و كان الإتيان بهذين الوصفين، لبيان العلة فى الإعطاء، و الإلفات إلى خصوصيتها الموجبة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٤

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٧]

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)
للعطف و الرحمة كذلك الذى ذكرنا سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ فإنها مع قوتها مسخرة لكم حتى تتمكنوا من أخذها، و إيقافها صواف و نحوها، بخلاف السباع الممتعة التى هى لو كانت دونها لا تنقاد و لا تخضع لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى لكى تشكروا لطف الله و فضله.

[٣٨] إِنْ الأمر بذبح الهدى، ليس لانتفاع الله سبحانه، فإنه تعالى لا ينتفع بشيء لَنْ يَنَالَ اللَّهُ أى لن يصل إلى الله لُحُومَهَا ليأكل، أو ينتفع و لا دِمَاؤُهَا كما تنال الأصنام دماء قرايينها، فإنهم كانوا يلطخون الصنم بدم القربان، ليدل على أنهم عظموه بالقربان من أجله و لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ فإن توجه القلوب إليه سبحانه، هو المطلوب المهم الذى أمر به سبحانه، و هو الشيء الذى يريده، و لذا شبه بما ينال الإنسان و يصل إليه، و إلا فالتقوى أيضا لا يناله سبحانه، و المعنى أن المقصود بالهدى التقوى، لا الهدى فى صورته المجردة، إذ لا انتفاع لله سبحانه بصورة الهدى، و إنما الصورة تفيد من يريد الأكل أو الاستعلاء بلطخ الدم كَذَلِكَ أى كالذى ذكر من كون لحومها و دمائها باختياركم، سَخَّرَهَا أى سخر البدن لكم أيها البشر لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ أى تعظموه على هدايته إياكم، فإن الإنعام، يوجب الشكر على كل نعمة، فالهداية و التسخير و إن كانا نعمتان، لكن أحدهما توجب الشكر على الأخرى، فلا يقال مقتضى القاعدة أن يقال: «على ما سخر» لا «على ما هدى» وَ بَشِّرِ يَا رَسُولَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)
الله الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى أعمالهم، فلا يأتون بالسيئات.

[٣٩] و إذ بين سبحانه الشعائر و المشاعر بين جواز الدفاع عنها، فإن العقيدة و الشريعة، تحتاجان إلى دفاع أصحابها عنهما من الاعتداء، و بين سبحانه، أولاً أنه هو المدافع، ثم أذن للمسلمين أن يدافعوا إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا فإنه يمنع الكفار عنهم، و ينصرهم على أعدائهم و الإتيان من باب المفاعلة، للإلفات إلى المدافعة التى تقع بين الكفار، و بين الأمور التى جعلها الله سبحانه وسيلة للدفاع عن المؤمنين إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ قد خان عهد الله المودع فى فطرته، بالتوحيد و الإيمان، و إنما كان خواناً، لأنه يخون فى كل خطوة خطوة كَفُورٍ كثير الكفر، فإن الإنسان فى كل حركة و سكون، إما يلبس الإيمان أو الكفر.

[٤٠] و إذ تمادى الكفار فى غيهم، و أخذوا فى تضيق النطاق حول العقيدة و الإيمان، بصد الناس عن الإيمان، و تعذيب المؤمنين

بالقتل و الإيذاء و التشريد أذن و الآذن هو الله سبحانه، و لم يذكر اسمه تعظيماً للذين يُقاتلونَ أى يقاتلهم الكفار، و قد حذف متعلق الإذن، و التقدير أذن لهم، أن يقاتلوا، و هذه أول آية نزلت في باب القتال بسبب بأنهم ظلموا أى أن سبب الإذن، كون الكفار ظلموهم و إنَّ اللهَ علىٰ نصرِهِمَ لَقَدِيرٌ فلم يكن النصر إلقاء لهم، فى التهلكة، بل بسبب أن الله يريد نصرتهم، و الجملة كناية عن إرادة النصره،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٠]

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعُ وَ صِيَلَوَاتُ وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيُنْصَرَّنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)

لا بيان قدرة الله على النصر، فإن ذلك مثل أن يقال لك: اذهب إلى الحرب، فإنى قادر على دفع أعدائك.

[٤١] ثم بين سبحانه كيفية مظلوميتهم توضيحاً لقوله «بأنهم ظلموا» الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ و هم المهاجرون الذين أخرجهم الكفار لكثرة أذاهم، حتى اضطروهم إلى الخروج من ديارهم فى مكه، بدون أن يكونوا قد اقترفوا إثماً أو ذنباً إلا أن يقولوا رَبُّنَا اللَّهُ فقد كان تمسكهم بالله سبحانه، هو سبب إخراج الكفار لهم عن بلادهم، و الاستثناء منقطع، و قد مر أن مثل هذا الاستثناء، لكون الكلام فى المستثنى منه مأخوذاً على التجرد، فالجملة تنحل إلى ثلاثة أشياء، هكذا «لم يخرجوا من ديارهم» «إلا لقولهم ربنا الله» «و كان إخراجاً بغير حق» لكن الاقتصاد فى الكلام، يوجب توصيف المستثنى منه بالجملة الثالثة، ثم بين سبحانه، أن الله يدفع غير المؤمنين بالمؤمنين، حتى تبقى معالم الدين و لولا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أى أن الله سبحانه يدفع الكفار بسبب الأخيار و ذلك الدفع بإيجابه سبحانه الجهاد و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و الإرشاد- فى الظاهر- و نصره سبحانه لهم- فى الباطن- لَهَادِمَتْ جميع آثار الأديان صوامع جمع صومعة، و أصلها من الانضمام، و منه الأصمع للأصمق الأذنين، و كل منضم فهو متصمع، و الصوامع هى محلات العبادة للنصارى، و لعل وجه تسميتها بهذا الاسم، لأنها تضم العباد و الرهبان و يتبع جمع بيعه، و هى الكنائس لليهود، و محلات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٧

عبادتهم، و لعل وجه التسمية، أن الإنسان الذى يراودها قد باع نفسه من الله سبحانه و صِيَلَوَاتُ أى محلات الصلاة، بعلاقة الحال و المحل، و لعله أريد به مواضع عبادة المجوس، و فيها احتمالات أخر و مَسَاجِدُ للمسلمين يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا الضمير إما عائذ إلى المساجد، أو إلى جميع ما تقدم، و المراد أنها كانت تهدم كل فى زمان النبى النافذ شرعه، فكانت تهدم البيع فى زمان موسى، و الكنائس فى زمان عيسى عليه السلام، و هكذا، و أما أنها كانت تهدم فى الوقت الحاضر، فإن هذه المواضع للعبادة خير من عدمها بتسلط أهل الطبيعة، و الدهرية، فإنها علائم من الدين، و آثار من السماء، و إن حرفها أهلها عن الأصل، و كانت باطله فى زمان الإسلام، غير المساجد، فإنه سبحانه له علاقة بها، فى مقابل المعطلة و الدهرية، و منه اغتنم المسلمون حين انتصر الفرس على الروم، كانوا يترقبون غلبة الروم، لأنهم نصارى، على الفرس عباد النار، قال سبحانه (الم) * غَلَبَتِ الرُّومُ * فى أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فى بضع سنين) (١) و لَيُنْصَرَّنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ فإن من نصر شريعته الله، كان الله ناصره، و هذا من باب التشبيه، و إلا فالله غنى عن النصره، ثم إن الله ناصر لمن نصره طبيعى- كما هو غيبى مربوط بما وراء المادة- إذ المؤمن الذى يكمل قواه المادية، و يبرز فى الميدان، يكون ضرورياً بالقوتين المادية و الروحية، و للقوتين غلبة على القوة

(١) الروم: ٢-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٨

[سورة الحج (٢٢): آية ٤١]

الَّذِينَ إِن مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

الواحدة في الطرف المقابل، وهي القوة المادية المجردة، أما من لا يكمل قواه المادية، اعتمادا على قواه الروحية فقط، فقد خرج عن أوامر الله سبحانه، الذي قال (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْبَغْتُم مِّنْ قُوَّةٍ) «١» و (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِيْفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَّرْضُوصًا) «٢» و (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ) «٣» و (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) «٤» و (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) «٥» وغيرها إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ يَقْوَى عَلَى نَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَزِيزٌ قَاهِرٌ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ.

[٤٢] ثم وصف سبحانه الذين أذن لهم في القتال، وأخرجوا من ديارهم بقوله أنهم هم الَّذِينَ إِن مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ بَأَن كَانَتْ لَهُمُ الْمَكْنَةُ وَالسَّلْطَةُ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أَي أَدَوْهَا بِحَقْوَقِهَا وَآدَابِهَا، وَشَرَائِطِهَا وَآتَوُا الزَّكَاةَ أَعْطَوْهَا إِلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ حَسَبَ مَوَازِينِهَا وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ، أَوِ الْعَقْلُ إِجَابًا أَوْ نَدْبًا وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ أَوِ الْعَقْلُ تَحْرِيمًا، أَوْ تَنْزِيهًا، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا - الْمَفْهُومَ - بِأَنَّهُمْ إِن لَمْ يُمْكِنُوا لَمْ يَقِيمُوا الصَّلَاةَ - إِلَى آخِرِهِ - بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ، إِذْ غَيْرُ الْمُتَمَكِّنِ فِي الْأَرْضِ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى وَجْهِهَا، أَوْ

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) الصف: ٥.

(٣) المائدة: ٥٢.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

(٥) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٢ إلى ٤٥]

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئْرٌ مُّعَطَّلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ (٤٥)

من قبيل إن رزقت ولدا فاختنه، حيث لا محل للختان بدون رزق الولد وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ أَي إِنَّ اللَّهَ يَرِثُ الْأَشْيَاءَ، فَالْعَاقِبَةُ، وَالْخَاتِمَةُ لَهُ، وَهَذَا وَعَدَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِجَادَ أَمَلٍ فِيهِمْ، بِأَن يَكْفُحُوا وَيَقَاتِلُوا، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْصُرُهُمْ، وَتَكُونُ الْعَوَاقِبُ مُطَابِقَةً لِمَنَاحِجِ الْمُسْلِمِينَ. [٤٣] ثم سلا سبحانه رسوله، فيما يلاقيه من تكذيب القوم، بأن له أسوة بالأنبياء السابقين وَإِن يُكَذِّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَنُوحًا وَعَادٌ كَذَّبَتْ هُودًا وَثَمُودٌ كَذَّبَتْ صَالِحًا.

[٤٤] وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ نَمْرُودٌ وَتَبَاعُهُ، كَذَّبُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمُ لُوطٍ كَذَّبَتْ لُوطًا.

[٤٥] وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ كَذَّبَتْ شَعْبِيًّا وَكَذَّبَ مُوسَى كَذْبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَلَمْ يَقُلْ «مُوسَى» لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَهُمْ، أَنَّ قَوْمَ مُوسَى - وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ - كَذَّبُوهُ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ أَي كَتَبْتَ أَعْمَالَهُمْ، وَآمَهَلْتَهُمْ حَتَّى اسْتَوْفُوا أَعْمَارَهُمْ الْمَقْدَرَةَ لَهُمْ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُهُمْ أَخَذْتُهُمْ بِأَصْنَافِ الْعَذَابِ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ، أَي كَيْفَ كَانَ إِنْكَارُهُمْ عَلَيْهِمْ، أَلَمْ يَكُنْ فِي مَوْقِعِهِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا، أَخَذُوا بِجَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ.

[٤٦] فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَي كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْمَدِينُ، وَ«كَمْ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٠

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٦]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

خبرية للتكثير أهلكتناها والمراد إهلاك أهلها، بعلاقة الحال والمحل، وذلك لأن الهلاك يعم نفس القرية، كما يشمل أهلها، فتخرب منازلها ودورها وهي ظالمة أي أهلها بالكفر والعصيان فهى تلك القرية المأخوذة خاوية ساقطة على عروشها أي سقوفها، فإن السقف إذا وقع، وقعت عليه الحيطان والجدران، وهذا من أشنع أنواع الإهلاك، إذ أهل الغرفة والمحل إذا سقط عليهم السقف وسقطت الحيطان على السقف تحطمت عظامهم وكثيرا ما لا يظفر لهم على بدن وكأين من يثر مغطلة تعطلت عن الرواد وذكر البئر، لأن الماء كان من الآبار، فى أكثر المدن والقرى، وتعطيلها كان علامة فناء أهلها، حتى أن هذا العصب الحى للحياة، قد تعطل عن العمل وكأين من قَصِيرٍ مَشِيدٍ أى قد شيد وبنى بالجص، وزين بالزخرفة، قد تعطل، فلا ساكن له، وإذ لا ساكن للقصر المشيد، فكيف بالدور والداكين، ونحوها، مما لا قيمة لها فى جنب القصر.

[٤٧] أَفَلَمْ يَسِيرُوا أَى هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَكْذُوبِينَ بِنُبُوتِكَ فِي الْأَرْضِ الْيَمَنِ وَالشَّامِ، وَ سَائِرِ الْبِلَادِ الَّتِي أَهْلَكَ أَهْلَهَا، لَمَّا كَذَبُوا الرِّسْلَ، حَتَّى يَعْتَبَرُوا، وَيَقْلَعُوا عَنْ غِيهِمْ؟ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَرُونَ مِنَ الْعِبَرِ، وَ آثَارِ الْخِرَابِ الَّتِي بَقِيَتْ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ كَذَبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ أَوْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا أَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١١

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٧]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)

الإنسان، إذا سافر، سمع من أهل بلد أخبار الماضين منهم، وأنهم كيف كانوا، وكيف ماتوا، حتى يحكوا لهم، أن أسلافهم أهلكوا حيث كذبوا الأنبياء و عملوا بالكفر والمعاصي، فإنها الضمير للشأن والقصة، ويأتى هذا الضمير للإلفات والتنبيه، إلى أن ما بعده أمر مهم، فإذا كان مذكر، سمي ضمير الشأن، وإن كان مؤنثا سمي ضمير القصة، والجمله ما بعد الضمير مفسره له لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ الناظرة إذ البصر ينظر ويرى وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ وَ تَنفَلِقُ عَنِ الْهَدْيِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ وَ الْإِتْيَانِ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلتَّعْمِيمِ، كَقَوْلِهِ (وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) «١» [٤٨] وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَى هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ، فَقَدْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ، أَنْ يَأْتِيَ بِهِ بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدَهُمْ، اسْتَهْزَاءً بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يَأْتِي بِالْعَذَابِ، إِلَّا فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ لَهُ حَسَبَ حِكْمَتِهِ وَ مَصْلَحَتِهِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ فَقَدْ وَعَدَ بِالْعَذَابِ، فَيَأْتِيهِ، كَمَا وَعَدَ لَهُمْ مَدَّةً مَعِينَةً، فَلَا يَأْخُذُهُمْ قَبْلَ انْقِضَائِهَا وَإِنَّ يَوْمًا وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكَ فِي حَسَابِهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَ هَذَا تَهْدِيدٌ، أَى أَنْ رَأَاهُمْ يَوْمًا يَعَادِلُ أَلْفَ سَنَةٍ، بِحَسَابِ الْإِنْسَانِ، وَ إِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، يَعْدُ يَوْمًا وَاحِدًا، وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرَمِ،

(١) الأنعام: ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَ كَأَيِّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ لَهَا ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

سيأتى وقتك، و فى حساب الحكومه لك يوم هو عشرون سنة فى حسابك، تريد أن عليه الحبس تلك المدة.

[٤٩] إنهم كيف يستعجلون بالعذاب؟ ألم يعلموا ماذا صنع بمن كان قبلهم من الأمم المكذبة؟ وَ كَأَيِّنَ أَى: وَ كَمِ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا أَى أَمَهْلَتَهَا لَتَبْلُغَ أَجْلَهَا الْمَقْدَرُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ مُسْتَحَقَّةٌ، لَتَعْجِيلِ الْعِقَابِ ثُمَّ أَخَذْتُهَا بِالْعَذَابِ لَمَّا انْقَضَى أَجْلُهَا وَإِلَى

الْمَصِيرُ أَي أَنَّ الْكُلَّ يَصِيرُونَ إِلَى عِقَابِي وَثَوَابِي وَجَزَائِي فِي الْقَبْرِ، وَفِي الْقِيَامَةِ، فَلَا- يَغْرَنُهُمُ الْأَجَلُ الْمَضْرُوبُ لَهُمْ «مَنْ فَاتَهُ الْيَوْمَ سَهْمٌ لَمْ يَفْتَهُ غَدًا» وَسَيَأْتِي وَقْتُ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ، وَإِنَّا إِذْ نَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ، نَرَى أَنَّ وَقْتَ الْقَوْمِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَدْ انْقَضَى، وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَهُمْ وَ لَمْ يَبْقَ اسْمُهُمْ إِلَّا لِلْعَنَةِ، كَمَا أَنَّهُمْ هُنَاكَ مَعْذُوبُونَ فِي أَشَدِّ الْعَذَابِ.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ أَنْذَرَكُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مُبَيِّنٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، أَنْذَرَكُمْ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ وَ وَضُوحٍ.

[٥١] فَالَّذِينَ قَبِلُوا الْإِنذَارَ، بِأَنَّ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا بِالْأَصُولِ وَ الْمَعَارِفِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ وَ لَازِمَ ذَلِكَ تَرْكُ السَّيِّئَاتِ- كَمَا مَرَّ- لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَيْ غَفْرَانٌ، إِذْ هُوَ مَصْدَرٌ مِيمِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أَوْلَيْتَكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)

وَ رَزَقٌ كَرِيمٌ فَيَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ، وَ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِالْجَنَّةِ، الَّتِي فِيهَا رِزْقٌ كَرِيمٌ، مَعَ الْكِرَامَةِ وَ الْحِفَاوَةِ.

[٥٢] وَالَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنذَارَ بَلَّ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أَي بَدَلُوا الْجَهْدَ فِي إِبْطَالِ آيَاتِنَا وَ أَدَلَّتْنَا الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ الرِّسَالَةِ، وَ الْمَعَادِ، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مَرِيدِينَ أَنْ يَعْجِزُونَا، وَ يَسْلُبُوا قُدْرَتَنَا عَنِ الْهُدَى وَ الْإِرْشَادِ وَ الْإِيْتَانِ مِنْ بَابِ الْمَفَاعَلَةِ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ تَعْجِيزَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى لَا يَهْدُوا النَّاسَ وَ الْأَنْبِيَاءَ يَرِيدُونَ تَعْجِيزَهُمْ حَتَّى لَا يَصْدُوا السَّبِيلَ أَوْلَيْتَكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَ هَذَا مِنْ بَابِ كَوْنِ أَوْلَيْتِكَ مُورِدِ الْكَلَامِ، وَ إِلَّا فَمَنْ كَفَرَ كَانَ مَحَلَّهُ النَّارَ، وَ إِنْ لَمْ يَسِعْ مَعَاجِزًا.

[٥٣] وَ بِمَنْاسِبَةِ الْكَلَامِ حَوْلَ مَنْ يَسْعُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ مُعَاجِزِينَ، ذَكَرَ سَبْحَانَهُ بَعْضَ كَيْفِيَّاتِ سَعِيهِمْ فِي إِبْطَالِ الْآيَاتِ وَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَ يَنْقُصُونَ فِي الْآيَاتِ، حَتَّى يَبْطُلُوهَا وَ يَحْرَفُونَهَا حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، وَ هَكَذَا يَفْعَلُ الْمَغْرُضُونَ دَائِمًا بِالْمُصْلِحِينَ إِنْهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَنْهُمْ الْكَلَامَ بِزِيَادَةٍ وَ نَقِيصَةٍ، يَفْسَحُونَ بِذَلِكَ مَجَالًا لِإِفْتِرَائِهِمْ وَ تَخْرِيبَاتِهِمْ، لَكِنِ الْكُفَّارُ لَا يَتِمَكَّنُونَ إِبْطَالِ الْآيَاتِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الشَّائِنَةِ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مِنْ وَرَاءِهِمْ يَبْطُلُ مَا حَرَفُوهُ وَ يَقْوَى آيَاتِهِ فِي الْقُلُوبِ، حَتَّى تَبْقَى كَالْفِضَّةِ الْخَالِصَةِ لَا غَشَّ فِيهَا وَ لَا دِينَ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ رَسُولٍ يَرْسَلُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ لَا- نَبِيٍّ يَنْبِئُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَ لَعَلَّ الْإِخْتِلَافَ بَيْنَهُمَا- هُنَا- حَسَبَ الْعُمُومِ وَ الْخُصُوصِ، فَالرَّسُولُ أَخْصَرَ مِنَ النَّبِيِّ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٤

وَ إِنْ كَانَ كِلَاهُمَا مَرْسَلًا إِلَّا إِذَا تَمَنَّى التَّمَنَى هُوَ الْقِرَاءَةُ، يُقَالُ تَمَنَى الْكِتَابَ إِذَا قَرَأَهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَمَنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَ آخِرَهُ لَأَقِي حَمَامَ الْمَقَادِرِ

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ أَي فِي قِرَاءَتِهِ وَ مَعْنَى الْإِلْقَاءِ التَّحْرِيفُ بِالزِّيَادَةِ وَ النِّقْصَانِ، وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْإِلْقَاءَ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ مِنْ وَسْوَستِهِ، وَ إِغْرَائِهِ لِعَمَلَاتِهِ الْكُفَّارِ أَنْ يَزِيدُوا، وَ بِهَذَا الْإِلْقَاءِ يَرِيدُ الشَّيْطَانُ وَ أَتْبَاعُهُ أَنْ يَعْجِزُوا الرَّسُولَ عَنْ إِيْتَامِ رِسَالَتِهِ- كَمَا سَبَقَ قَوْلُهُ: «وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» إِذْ لِقَاءُ التَّشْوِيشِ وَ الْاضْطْرَابِ، يَوْقِفُ سِيرَةَ الدَّعْوَةِ وَ يَكْدِرُ صَفْوَهَا، لَكِنِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يَحْفَظُ دِينَهُ وَ قَرَّانَهُ عَنِ الْإِخْتِلَالِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ بِأَنَّهُ يَبْطُلُهُ وَ يَزِيلُهُ بِسَبَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الرَّسُولِ، إِذْ يَبِينُ الرَّسُولَ لِلنَّاسِ أَنَّ هَذَا زَائِدٌ وَ هَذَا نَاقِصٌ، وَ هَذَا أَصِيلٌ وَ هَذَا دَخِيلٌ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ بِأَنَّهُ يَجْعَلُهَا مُحْكَمَةً لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا الدَّخِيلُ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْكُفَّارَ بِصَدِّ الزِّيَادَةِ وَ النِّقْصَانِ، التَّرَمُّوا بِالْكِتَابِ أَشَدَّ الْإِتْرَامِ مِمَّا يَوْجِبُ إِحْكَامَهُ، فَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَ التَّحْرِيفُ وَ قَدْ حَاوَلَ الْكُفَّارُ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ مِنْذُ عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْجِحُوا وَ فِي زَمَانِنَا حَاوَلَ «أَتَاتُورِكُ» أَنْ يَلْخِصَّ الْقُرْآنَ، وَ صَنَعَ مِنْهُ مَهْزَلَةً لَمْ يَدْمُ إِلَّا- يَسِيرًا، حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ، وَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ، وَ ثَمَّ حَاوَلَ الْيَهُودُ مِنْ «فِلَسْطِينَ» أَنْ يَغْيِرُوا

القرآن، و طبعوا منه نسخا محرفة، و وزعوها في البلاد، لكنها لم تنجح أيضا، بل قيص

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٥

[سورة الحج (٢٢): آية ٥٣]

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)

الله المسلمين، لينبها على تحريفهم والله عليهم بما يفعله الكفار بوسوسة من الشياطين حكيم يعمل كل عمل عن حكمه و صلاح، فلا يدع الكتاب الموحى إلى النبي عرضه التلاعب و الزيادة و النقصان.

[٥٤] و إنما لا- يعجز الله الشيطان عن هذا العمل، بأن يسلب قدرته منه حتى لا- يتمكن من هذه الزيادة و النقصان ليَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِي الْكِتَابِ فِتْنَةً و امتحانا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فإن من مرض قلبه بالشك و الريب، إذا رأى الزيادة و النقصان و الاضطراب رفع اليد عن الإيمان، و دخل في صف الكفار أو المنافقين و الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ أى الكفار الذين قست قلوبهم عن قبول الحق، فإن التحريف في الكتاب، على ما ألقاه الشيطان فتنه لهم، لأنه يزيدهم كفرا و ضلالا فإنه يعطيهم الدلالة، حتى يتمكنوا من الهدم أكثر من ذى قبل و إِنَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ و النفاق لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ كأنهم في شقة منحرفة عن الجادة المستقيمة و الشقة التي فيها الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بعيدة جدا عن الجادة، فليسوا كالعصاة الذين هم في شقة قريبة، إذ انحراف العاصي يسير بالنسبة إلى انحراف الكافر و المنافق، و المعنى أن الكفار، و الذين في قلوبهم مرض، الذين يتخذون التحريف، وسيلة للريب و الهدم إنهم بعيدون عن الجادة المستقيمة، و إلا فما يمنعهم عن تصحيح القراءة بسبب الرسول و المؤمنين؟ إنهم يريدون الكفر و النفاق و الشك و التهريج، لا الحق، و لا الواقع، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٦

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

و لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ و إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) و لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

يبحثوا الشيء عن أصله و مورده.

[٥٥] و كما أن التحريف يسبب ضلالا و كفرا للذين في قلوبهم مرض، و القاسية قلوبهم، كذلك يسبب هداية و إيمانا بالنسبة إلى المؤمنين إذ الإنسان الطالب للحقيقة، إنما يقوى إيمانه، إذا رأى الاستقامة في وسط الاضطراب، و رأى الحق في جنب الباطل، فإن الأشياء تعرف بأضدادها فإذا رأى الذين أوتوا العلم القرآن، لم يتغير و لم يتبدل، و قاسوه بما ألقى فيه من التحريف ليروا الفرق الظاهر بين كلام الله و كلام الشيطان، ازدادوا إيمانا و يقينا و لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أى أعطوا العلم فهم عالمون فاهمون أَنَّهُ أى القرآن الذى أريد فيه الزيادة أو النقصان الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ و لذا بقى ناصعا مشرقا، لم يؤثر فيه التشويش و التحريف فَيُؤْمِنُوا بِهِ بالنسبة إلى غير من آمن إلى هذا الوقت و يثبتوا على الإيمان بالنسبة إلى المؤمن، فإن للإنسان في كل آن إيمان، و في كل لحظة هداية. فإن الإيمان فعل القلب الذى يصدر منه آنا فآنا فَتُخْبِتَ أى تخضع له أى للقرآن، المستفاد من قوله: إذا تمنى قُلُوبُهُمْ و تكون أكثر إيمانا به و التزاما له و إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا أى يهديهم في كل خطوة من خطوات الحياة المظلمة، فمن أسلس قيادة الله بالإيمان، هداه حيننا بعد حين إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لا عوج فيه و لا انحراف.

[٥٦] أما الكفار، فإنهم يبقون في غيهم إلى أن يموتوا، و ذلك، لأنهم لم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

الْمُلْكِ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) و الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فُولِحَ لَكُم لَهْمُ

عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

يسلسوا القياد، و أخذوا في الضلال و الغواية و لا يزال الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أَي فِي شَكِّ مِنَ الْقُرْآنِ هَلْ هُوَ مَنْزِلٌ أَمْ لَا؟ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أَي الْمَوْتِ، أَوِ الْقِيَامَةُ بَعَثَةً فَجَاءَهُ، فَلَا مَجَالَ لَهُمْ لِلْإِيمَانِ، حَتَّى يَنْجُوا مِنَ الْعَذَابِ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ بِأَنْ يَأْخُذَهُمْ عَذَابُ الْاسْتِئْصَالِ وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ فِي شَكِّ حَتَّى يَمُوتُوا، أَوْ يَعَذَّبُوا بِإِرْسَالِ اللَّهِ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ، كَمَا كَانَ يَعَذِّبُ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ، وَ سُمِّيَ الْيَوْمَ عَقِيمًا، لِأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ، فَهُوَ فَرْدٌ كَالْإِنْسَانِ الْعَقِيمِ الَّذِي لَا يُلِدُّ، فَهُوَ فَرْدٌ لَا شَرِيكَ وَ لَا شَبِيهَ لَهُ.

[٥٧] الْمَلِكُ وَ السَّيْطَرَةُ الْمَطْلُوقَةُ يَوْمَئِذٍ أَي يَوْمَ إْتِيَانِ السَّاعَةِ أَوِ الْعَذَابِ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ، حَتَّى ظَاهِرًا بِخِلَافِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ هُنَاكَ مَلُوكًا ظَاهِرِينَ، قَدْ جَعَلُوا الْمَلِكَ لَهُمْ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَي بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ فَلَا أَحَدَ هُنَاكَ لَهُ سَيْطَرَةٌ، لِنَقْضِ حُكْمِ اللَّهِ، وَ إِبْطَالِ قَضَائِهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي لَا فِسَادَ فِيهَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَ الْإِضَافَةُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، أَي فِي نَعِيمِ الْجَنَاتِ.

[٥٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْمَعَادِ وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَي الْأَدْلَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لِيُرْزَقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

التي نصبناها للإرشاد و الهداية فأولئك لهم عذاب مهين يهينهم و يذلهم، جزاء لكبريائهم في الدنيا، عن الحق و الإذعان.

[٥٩] وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ فِي الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، خُصَّصُوا بِالذِّكْرِ، بَعْدَ أَنْ شَمَلَهُمْ عَمُومُ «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَي لِأَجْلِهِ، وَ بِقَصْدِ امْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، فَكَأَنَّهُمْ أَخَذُوا يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ تَعَالَى ثُمَّ قُتِلُوا فِي الْجِهَادِ، حَيْثُ أُذِنَ لَهُمْ بِالْمَقَاتِلَةِ أَوْ مَاتُوا فِي الْغُرْبَةِ لِيُرْزَقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا وَ هُوَ الرِّزْقُ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ كَدْرٌ وَ مَنْقُصَةٌ، أَي فِي الْجَنَّةِ، فِي قِبَالِ تَرْكِهِمْ طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا وَ أَرْزَاقِهَا، وَ الرِّزْقُ أَعْمٌ مِنَ الْمَأْكَلِ وَ الْمَسْكَنِ وَ الزَّوْجَةِ وَ نَحْوِهَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فَقَدْ أَطْلَقَ الرَّازِقَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَتَوَلَّى إِعْطَاءَ الرِّزْقِ لغيره، مِنْ أَبٍ، وَ زَوْجٍ، وَ سَيِّدٍ وَ غَيْرِهِمْ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ خَيْرُهُمْ، إِذْ رَزَقَهُ أَهْنًا وَ أَطِيبَ وَ بَدُونَ مِنْ.

[٦٠] لِيُدْخِلَنَّهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ «مدخل» وَ زَنَ الْمَفْعُولِ، وَ هُوَ اسْمُ مَكَانٍ، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْجَنَّةُ، فَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِهَا مَقَامًا وَ مَنْزِلًا،

لَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ مِمَّا تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ، وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ، وَ مَا عَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ حَلِيمٌ وَ هَذَا تَسْلِيَةٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٦٠]

ذَلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠)

لَهُمْ، بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ إِذَا أَمْهَلَ الْكُفَّارَ، حَتَّى فَعَلُوا مَا فَعَلُوا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِحْبَاطًا لِأَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ وَ عَدَمِ الْإِعْتِنَاءِ بِهِمْ، وَ إِنَّمَا هُوَ بِمَقْتَضَى حِلْمِهِ، وَ سِعَاقِبِهِمْ عَلَى مَا اقْتَرَفُوا وَ يَجْزَى الْمُسْلِمِينَ، بِمَا أَوْذَوْا فِي سَبِيلِهِ.

[٦١] ذَلِكَ أَي أَنَّ الْأَمْرَ، كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ أَي جَازَى الظَّالِمَ، بِمِثْلِ مَا صَنَعَ بِهِ مِنَ الظُّلْمِ وَ التَّعَدِي، بِأَنَّ قَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَاتَلُوهُ، وَ أَخْرَجَهُمْ كَمَا أَخْرَجُوهُ، وَ سُمِّيَ الْعِقَابَ عِقَابًا، لِأَنَّهُ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ وَ يَأْتِي بِعَقْبِهِ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ مِنْ بَابِ الْمَفَاعَلَةِ، لِأَجْلِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الشَّخْصِينَ لِيَعَاقِبَ الْآخَرَ، فَهَذَا يَظْلَمُ ذَاكَ وَ ذَاكَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَا عَمِلَ بِهِ، وَ سُمِّيَ كُلُّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مَعَابِقَةً لِلتَّشَابُهِ الْمَسْمُومِ ب «الازدواج» كَقَوْلِهِ «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» (١) ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أَي ظَلَمَهُ الظَّالِمُ مَرَّةً أُخْرَى، وَ إِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَظْلُومَ غَالِبًا يَبْغِي عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، إِنْ اقْتَصَرَ مِنَ الظَّالِمِ لِظُلْمِهِ أَوْلًا، فَإِنَّ مِنْ يَبْتَدِئُ بِالْعُدْوَانِ، لَا يَتْرُكُ

المظلوم أن يجازيه إلا و يعاقبه مرة أخرى لِيَنْصِرَنَّهُ اللَّهُ فلا ييأس المظلوم من هذا الحيث، و ليعلم أن الله بالمرصاد، فليقدم على وضع حد للظالم برباطة جأش، و قوة قلب، و لعل هذا ليتعلم المسلمون أن لا يحجموا عن الفتك بمن ظلمهم خوف أن يعود الظالمون عليهم بالظلم و الأذى إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ أَمَا الْبَشَرُ فَلَا يَلْزِمُهُمُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٠

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦١ الى ٦٢]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

على ذلك عَفْوٌ يغفر الذنب، و ليس كذلك البشر، و إذا أذن لهم في رد الاعتداء و قتال من آذاهم و أضربهم.

[٦٢] ذَلِكَ النصر للمؤمنين المظلومين على الكافرين الظالمين، إنما يكون بدليل أن الله سبحانه قادر على كل شيء، كما يقدر على التصرفات الكونية، فمن يقدر على تحريك الكون العظيم، يقدر على نصره المظلوم، أو المراد أن سنة الله الكونية قد جرت على التغيير و التبديل، فكما لا يبقى ليل و لا نهار أبدا، كذلك لا يكون الغلب للظالمين أبدا، فهو ينصر المظلوم عليهم كما يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ أى يدخله فيه، فى أيام الصيف و الخريف، فتتقص من ساعات النهار، لتضاف على ساعات الليل، و ذلك من أول الانقلاب الصيفى إلى أول ليلة من الانقلاب الشتوى و يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ أى يدخله فيه فى أيام الشتاء و الربيع، فتتقص من ساعات الليل، لتضاف على ساعات النهار، و ذلك من أول الانقلاب الشتوى إلى أول يوم من الانقلاب الصيفى وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يدعو المؤمنين، فيجيب لهم بِصِيرٌ بأحوالهم، فينتقم لهم من الظالمين.

[٦٣] ذَلِكَ الذى ذكر من انتقام الله من الظالمين، و نصره المؤمنين، و أنه هو المصرف للكون بسبب أن الله هُوَ الْحَقُّ فهو المصرف، و هو المدافع عن المظلوم وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢١

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)

هُوَ الْبَاطِلُ فلا تقدر الآلهة الباطلة على تصريف للكون، كما لا تقدر على نصره عبادها وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ فهو أعلى من كل شيء يسمع و يرى كل شيء و يقدر على كل شيء أكبر منه، حتى يتمكن من الوقوف أمامه، و نقض إرادته.

[٦٤] و يشهد لكون التصرفات الكونية لله سبحانه، و أنه العلى الكبير، القادر على نصره المظلومين، ما يراه الإنسان من الأحوال الطارئة الحكيمة التى تنتاب الكون، مما لا يمكن أن تنسب إلى صنم أو إنسان، أو صدفة مجردة أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الرَّائى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أى من جهة العلو، المطر فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً؟ مزينه بالخضرة و النبات، و فى لفظ «تصبح» نكتة بديعه، حتى أنه أجلى أوقات الاخضرار إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بعباده، و من لطفه بهم، زين أرضهم، بما ينتفعون به من الخضر خَبِيرٌ بأحوالهم و حوائجهم فما فعله حكمه و صلاح لهم.

[٦٥] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فكل تصرف فى الكون إنما هو منه وحده لا شريك له فيه، وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ المطلق الذى لا يحتاج إلى مشاور و مشارك فهو وحده يدير الشؤون الكونية الْحَمِيدُ المطلق، الذى له كل الحمد إذ منه كل نعمة و فضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

[٦٦] أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الرَّائِي، استفهام إلفاتي للتنبية أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ فمن هو الذي جعل المخلوقات الأرضية، مسخرة لكم تسيطر عليها بإرادتكم، فسخر لكم الأنهار، لتجري نحو حوائجكم، و سخر المعادن لتنفاد لأموالكم، و سخر الأنعام لمنافعكم، و هكذا وَالْفُلُوكَ على وزن أسد جمع أسد تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ سبحانه، لمنافعكم و ما ربيكم؟ فمن جعل الماء بحيث يحمل الفلك في قاعدة مطردة كشف عنها «أرخميدس» و المعنى سخر الفلك، في حال جريها في الماء، بإذن الله سبحانه، و إنما قال «بأمره» دون «إذنه» لأن التكوين يحتاج إلى الأمر بأن يقال للشيء «كن» و يُمْسِكُ السَّمَاءَ يحفظها أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ فلا يبطل النظام الكوني، الذي جعله الله سبحانه حتى لا تقع الكواكب على الأرض، و إنما تسير الكواكب في أفلاكها المقررة لها، المعبرة عنها بالسماء، لسموها و علوها و ارتفاعها إِلَّا بِإِذْنِهِ فإذا أذن للسماء أن تقع، و يبطل النظام كما في يوم القيامة، حيث قال (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) «١» لم يمنع منها شيء إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ و لذلك سخر لهم ما في الكون و أمسك السماء من الوقوع عليهم.

[٦٧] وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ بعد أن كنتم ترابا ميتا، بأن أعطاكم الحياة

(١) الأنبياء: ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٣

[سورة الحج (٢٢): آية ٦٧]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ (٦٧)

و الروح ثُمَّ يُمِيتُكُمْ فهو سبحانه المميت، أما من ظن أنه المميت بقتله إنسانا أو غيره، فقد أخطأ، فإنه إنما يوجد السبب الذي جعله الله واصله لذلك المسبب، فهو كمن يزعم أنه يحيى بإيجاده الماء العفن المولد للبعوض ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بعد الموت للحشر و النشور إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ كثير الكفر، حيث أنه يكفر بالإله، و يكفر بالبعث، و يكفر بالأدلة مع وضوحها و جلائها.

[٦٨] و إذ قد وضح الدليل، و تمت الحجته، فلا داعي للرسول لأن يشغل نفسه بمنازعة الكفار المنكرين للمبدأ و المعاد لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا مصدر ميمي أي منهاجهم هُمْ نَاسِكُوهُ أي يتتهجون و يتبعونه في حياتهم فَلَا يُنَازِعُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أي لا وجه لنزاع الكفار معك في الأمر أي أمر الشريعة و أنها لم صارت هكذا؟ و هذا و إن كان في الصورة نهيا للكفار عن المنازعة، لكنه في الحقيقة إرشاد للرسول، بأن لا يشغل نفسه بكلامهم و خصامهم فإن المعاند لا يفيد معه الخصام و الجدل وَاذْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَىٰ رَبِّكَ غير مبال بهم، و لا ملتفت إليهم إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ قد شبه الهدى بالطريق المستقيم الذي يوصل الإنسان إلى مقصده، و الرسول على ذلك الطريق، فليس عليه أن يعارض و ينازع أصحاب الطرق المنحرفة، و إنما عليه الدعوة، حتى إذا رآه الناس، و رأوا طريقه اتبعوه تلقائيا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٤

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٨ الى ٧١]

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

[٦٩] وَإِنْ جَادَلُوكَ الكفار في منهجك الاعتقادي و العملي، فلا تشغل نفسك بالجدال معهم، بل أجبهم بما يقطع كلامهم فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ و هذا كلام الإنسان الذي يريد إظهار خنجره و برمه بما يأتي خصمه من الأعمال، و إن أعماله باطله، و هو يعلم

ذلك [٧٠] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يفصل بينكم ليجازيكم على أعمالكم فيما كنتم فيه تختلفون أى تختلفون معى فى العقيدة و العمل و كفى بالله عالما حاكما مجازيا، و بهذا ينهى الرسول جدالهم، و يقطع كلامهم، إذ لا فائدة فى محاجة المعاند، الذى يرى الحق فينكره.

[٧١] أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ المجادل أو أنه قطع للكلام السابق و توجيه للخطاب نحو الرسول، ليلفت الناس بذلك أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فلا يخفى عليه شىء كى يخفى عليه أعمال هؤلاء الكفار إِنَّ ذَلِكَ الذى فى السماوات و الأرض فى كتاب أى مثبت فى اللوح المحفوظ فلا خافية إلا و الله سبحانه قد أثبتها فى كتاب لديه إِنَّ ذَلِكَ الثبت فى الكتاب، لكل ما فى السماوات و الأرض عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ يأتى بمجرد الإرادة، بلا حاجة إلى تعب كتابه كما يحتاج الإنسان إلى ذلك.

[٧٢] وَ بَعْدَ وَضُوحِ الْأَدْلَةِ، و تمام الحجّة يَعْبُدُونَ أى هؤلاء الكفار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٥

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٢]

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَشِيطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَنْ دَلِكُمْ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بَشَسِ الْمَصِيرُ (٧٢)

مَنْ دُونَ اللَّهِ غير الله، و لعل فى التعبير ب «من دون» نكتة هى أن ما يعبدونها دون الله فى المرتبة، فليست لها رتبة الألوهية، و مقام الله سبحانه، مع إهانته فى التعبير للأصنام، حيث عبر عنهم ب «دون» ما لَمْ يُنَزَّلْ اللهُ بِهِ أى بذلك الشىء الذى يعبدوه سُلْطَانًا أى حجة و دليلا و ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ فلا دليل شرعى على تلك الآلهة أنزله الله، و لا دليل عقلى لهم يعلمونه، و إنما عبادتهم لمجرد تقليد و ظن و ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ التى يعبدونها، و يقولون (هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) «١» لا تنصرهم، يوم يأخذهم و بال عبادتهم لها. [٧٣] وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء الكفار آيَاتُنَا الدالة على وجودنا، و سائر شؤوننا، فى حال كون تلك الآيات بَيِّنَاتٍ واضحات ظاهرات تَعْرِفُ يا رسول الله فى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أى الإنكار، فإن «المنكر» هنا «مصدر ميمي» و المعنى أنه تظهر فى وجوههم علامة الإنكار، بتقطيب الوجه و الإعراض، و من شدة حنقهم و غيظهم يَكَادُونَ يَشِيطُونَ من السطو، و هو البطش، للإخافة و الإيذاء، يقال: سطا يسطو، إذا بطش بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا فيفتكون بهم و يضربونهم، و يقولون فيهم الأقوال البذيئة، من

(١) يونس: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٣]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَشِئِبُّهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣)

شدة غضبهم قُلْ يا رسول الله، لهؤلاء الكفار، الذين يكرهون سماع الآيات بهذا النحو من الكراهة الشديدة أَفَأَنْتُمْ أى هل تريدون أن أخبركم بِشِرِّ مَنْ دَلِكُمْ بما يسيئكم أكثر من القرآن، و الآيات التى تسمعونها؟ إنما هو النَّارُ التى تذوقونها جزاء أعمالكم، فإن كراحتكم لها أكثر وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَإِنَّهَا يلاقونها و يلقون فيها وَ بَشَسِ الْمَصِيرُ أى المرجع و المأوى الذى تصيرون إليه و «المصير» فاعل، و المخصوص محذوف.

[٧٤] ثم ضرب سبحانه مثلا لبطلان ألوهية الأصنام التى يعبدها الكفار يا أَيُّهَا النَّاسُ و المراد بهم الكفار ضُرِبَ مَثَلٌ و الضارب للمثل هو الله سبحانه، لكن حيث كان المقصود الفعل دون الفاعل، أتى الفعل مجهولا، كما قرر فى البلاغة و قد سبق أن «الضرب» إنما هو باعتبار أن المثل يصطدم بأدمغة الناس فيحدث فيها نقشا و انفعالا فَاستَمِعُوا لَهُ و هذا لتأكيد الإلفات نحو المثل ليركز فى الذهن أكثر

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى إِنْ الْأَصْنَامِ التى تدعونها آلهة من دون الله، و الإتيان «بالذين» الذى هو للعاقل، باعتبار توهم عبادها عقلها لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا عَلَى صِغَرِ الذَّبَابِ، و قلة فائدته، و المراد لا يتمكنون من خلقه و لَوِ اجْتَمَعُوا هذه الأصنام المعبودة كلها له أَى لخلق ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

الذباب و إِنْ يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا بَأَن يَأْكُلِ الذَّبَابُ بَعْضَ الْأَطْعَمَةِ لَا يَسْتَنْفِذُوهُ أَى لا تقدر هذه الأصنام على إنقاذ الشىء المسلوب منه أَى من الذباب، فإن هذا مثل لعدم قدرة الآلهة المعبودة، إذ المثل هو بيان مصداق لكلى، فإذا قال الفاعل مرفوع، ثم طلب منه المثل، قال: كزيد، فى «قام زيد» و هنا كذلك، فإن القاعدة هى أن هذه الآلهة، لا تقدر على شىء و مثله: أنها لا تقدر على خلق ذباب، و لا على إنقاذ شىء سلبه الذباب، قال ابن عباس: كان المشركون يطلون أصنامهم بالزعران، فيجف فيأتى الذباب فيختلسه، و هناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفصيل القصة، و إذا كانت الأصنام بهذه المكانة، من الضعف، و عدم القدرة فكيف تتخذونها آلهة؟

صَعَفَ الطَّالِبُ و هو المشرك الذى يعبد الصنم، و يطلبه و الْمَطْلُوبُ الذى هو الصنم، و هنا أقوال أخرى.

[٧٥] مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أَى ما عظمه سبحانه هؤلاء المشركون حق عظمتهم، حيث جعلوا الأصنام المنحوتة التى لا تقدر، و لا تشعر شركاء له إِنْ اللَّهَ لَقَوِيٌّ لِقَوِيٌّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فكيف يجعل الصنم الضعيف شريكا له؟ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى مَا يَرِيدُ، فكيف يجعل الصنم المغلوب الذى لا يملك من أمره شيئا شريكا له؟

[٧٦] و إذ تبين، أن الأصنام ليسوا شركاء لله، لأنها بهذا العجز و الضعف، فليعلم الذين يعبدون الملائكة و الأنبياء، إنما يعبدون هؤلاء عباد الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ و مَا خَلْفَهُمْ و إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا و اسْجُدُوا و اعْبُدُوا رَبَّكُمْ و افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

اصطفاهم الله و كيف يكون العبد المصطفى شريكا مع الإله المصطفى الله يَصْطَفِي و يختار مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كجبرائيل إلى محمد صلى الله عليه و آله و سلم و كالملائكة الثلاثة الذين جاءوا إلى إبراهيم و لوط، و هكذا و يَصْطَفِي مِنَ النَّاسِ رُسُلًا، كالأنبياء عليهم السلام إِنْ اللَّهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِهِمْ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ، فلا يختار أحدا، يدعى الألوهية و هم تحت سمع الله و بصره، لا يقدر على مخالفة أمره، و دعوة الناس إلى الاعتقاد بألوهيتهم.

[٧٧] يَعْلَمُ سبحانه ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَى ما يقدمه الأنبياء و الملائكة إلى الآخرة و مَا خَلْفَهُمْ مما يدعون عند الناس من الشريعة، و الأخلاق و غيرها، فهو محيط بهم و إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ أَى أن الأمور كلها، مرجعها إلى الله ليحكم فيها، و يجازى العاملين عليها، فهو القوى العزيز، المختار، السميع، البصير، العالم، الحكم و المرجع، فهل مثل هذا الإله يقاس بما سواه من الأصنام و الملائكة و النبيين؟

[٧٨] و إذ ظهر أن الله هو الإله الوحيد، فتوجهوا إليها الناس بالعبادة إليه وحده يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا خُضُوعًا لِلَّهِ سبحانه و اسْجُدُوا لعظمته، و المراد بهما الإتيان بالصلاة و كنى عنها بهما، و أما الركوع و السجود لاستحبابهما فى أنفسهما و اعْبُدُوا رَبَّكُمْ بسائر أنواع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٨]

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

العبادة وَاَفْعَلُوا الْخَيْرَ وهو جميع أنواع البر، فإن كل فعل يأتي من الإنسان، إما خير وإما شر، وإما لغو، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لكي تفوزوا بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة.

[٧٩] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ أى فى سبيله سبحانه، و من أجله حَقَّ جِهَادِهِ أى بالكيفية التى يستحق الجهاد فى الله إياها، وهى بأن يكون الجهاد خالصا بكل ما أوتى الإنسان من قوة مادية أو معنوية، والمراد بالجهاد إما القتال وإما مجاهدة الإنسان فى تطبيق ما أمر الله سبحانه، الذى يكون القتال مصداقا من مصاديقه هُوَ سبحانه اجْتَبَاكُمْ أى اختاركم لدينه، فمن اللازم أن تؤدوا الأمانة التى حملها عليكم وراكم أهلا- لها، وفضلكم- دون غيركم- بها وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وَضَيْقٍ فَإِنَّ الْجِهَادَ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ هُوَ دُونَ قُدْرَتِكُمْ وَطَاقَتِكُمْ رَأْفَةً بِكُمْ وَرَحْمَةً عَلَيْكُمْ، ولذا نرى أن جميع التكالييف، أقل من طاقة الإنسان وقدرته، الزموا مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ أى طريقته، و عليكم بها هُوَ أى أن إبراهيم عليه السلام أو المراد به «الله» سبحانه سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ من قبل أن تكونوا وفى هذا القرآن، أو فى هذا الوقت أيضا سميت «مسلمين» فأسلموا وسلموا حسب اسمكم، وإنما اجتباكم، وجعل الرسول فيكم، و سماكم المسلمين، وجعلكم ورثة إبراهيم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٠

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ يشهد على هذه الأمة بما عملت حيث أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القائم على أموركم والمبين لمنهجكم، والعالم الموجه القائم، يكون الشاهد لمن استقام وعلى من انحرف وَتَكُونُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ إِذِ الْمُسْلِمُونَ يُوْجِهُونَ النَّاسَ، و يحددون سلوكهم و يكونون الناظرين لأعمالهم من استقام و من انحرف، و ما ورد من أن المراد بذلك الأئمة عليهم السلام فهو من باب المصداق الظاهر الجلى بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما لا يخفى و فى هذه الآية الكريمة أنواع من التأكيد والتشجيع لقيام المسلمين على حفظ الإسلام ونشره، و الجهاد فى سبيله، فالدين دين جدهم و التسمية تسمية إلههم، و هم المختارون لهذه المهمة، و ليس فيه ضيق ولا حرج، و الرسول شاهد عليهم، و هم مفوضون فى البلاغ، قوامون على الناس قد جعلهم الإله شهداء على البشر، فما يمنعهم بعد هذه المرتبة الرفيعة، أن يقوموا بواجب الجهاد؟ و بعد هذا كله فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ:

أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ، فَأَدِّ حَقِّي وَ آتُوا الزَّكَاةَ أى أعطوها وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ تَمَسَّكُوا بِهِ سَبْحَانَهُ، فى كل أفعالكم، فلا تحيدوا عن أوامره قيد شعرة هُوَ مَوْلَاكُمْ سِيدَكُمْ، و هل يعرض الإنسان عن مولى مثل الله سبحانه، ليتخذ سيدا غيره؟ فَنِعْمَ الْمَوْلَى لِلْبَشَرِ أَجْمَعِ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ فَإِنَّهُ يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ فى الحياة الدنيا و فى الآخرة، و هل هناك مولى مثله يعطى حتى من عصاه، أو نصير يشبهه بيده أزمة الكون و الحياة؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثامن عشر من آية (١) سورة المؤمنون إلى آية (٢١) سورة الفرقان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عِزَّتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٣

٢٣ سورة المؤمنون مكية / آياتها (١١٩)

سميت هذه السورة بـ «المؤمنون» لافتتاحها بهذا اللفظ، و ذكر أوصاف المؤمنين فيها، «المؤمنون» علم للسورة، و لذا يغير إعرابها إضافة «السورة» إليها، و هي كسائر السور المكية، تعالج العقيدة و شؤون التوحيد و ما إليه، و لما أن ختم الله سبحانه سورة «الحج» بأمر المؤمنين بأفعال الخير افتتح هذه السورة بصفات المؤمنين الكاملين في الإيمان، فقال سبحانه:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ استعانة باسم الله، و ابتداء بذكره الكريم، ليكون فاتحة خير و تعليماً للمسلمين، كيف يتدثرون في أعمالهم، و قد وصف بالرحم مكرراً، لأن الإنسان مجموعة عجز و ضعف و انهيار، و كل نقص، و ضعف فيه يحتاج إلى الرحم، ليسده و يلمه و يرأبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)

[٢] قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ أى فازوا بخير الدنيا و سعادة الآخرة، فقد شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، و لم يشاركهم أهل الآخرة في آخرتهم، و المؤمن هو المصدق، و إطلاقه في الشريعة منصرف إلى المصدق بوحانية الله، و بالرسالة، و بالمعاد، و بلوازم الكل.

[٣] ثم وصف سبحانه المؤمنين الكاملين بهذه الصفات التالية الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ أى إذا صلوا خشعوا و خضعوا، فإن الصلاة حيث كانت ذكراً و تسيحاً و تقديساً، و مكالمة مع الله سبحانه، تقتضى أن يكون الإنسان فى حالة خضوع، فإنه يتكلم مع مالك الكون، كيف لا، و الإنسان يخضع لملك عاجز، ليس له من السطوة إلا ضئيلاً! [٤] وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللغو، كل فعل أو قول، أو تفكير، لا فائدة فيها، و من سمات المؤمن الكامل الإيمان، أن يعرض عن ذلك كله، و ما ورد فى الأحاديث من تفسير اللغو، بالغناء، أو ما أشبهه، فإنه تفسير لبعض المصاديق «١».

[٥] وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ أى مؤدون معطون، و المراد بالزكاة، إما الصدقة الواجبة، و إما مطلق الصلة و الصدقة، و هذا أنسب بكون السورة مكية، لأن الزكاة المفروضة شرعت فى المدينة.

[٦] وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ فلا يزنون، و لا يلوطنون،

(١) بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦ الى ٨]

إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)

و لا يستمنون، و لا يمكنون أحدا من أنفسهم، فإن الفرج اسم للعورتين.

[٧] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أى نسايتهم دائمة كانت، أو محللة، أو منقطة أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ من الإماء، و نسب الملك إلى الإيمان، لأن اليمين هى العضو الفعالة فى الاكتساب فكأنها هى المالكه، من باب علاقة السبب و المسبب أو الكل و الجزء، و الغرض بيان جنس المحللة، فلا- ينافى ذلك و جوب اجتنابهن فى حال الحيض و الصيام و الإحرام و ما أشبهه، كما أن العكس يستفاد من الآية، فيجوز للزوجة و الأمه، بالنسبة إلى الرجال ما يجوز لهم بالنسبة إليها، و بقى ملك المرأة للعبد خارجاً عن المنطوق، و عن اللازم فَإِنَّهُمْ أى الرجال بعدم حفظ فروجهم بالنسبة إلى الزوجة، و ملك اليمين غَيْرُ مَلُومِينَ أى لا يلامون، و كان الإتيان بهذه العبارة للمقابلة، فإن

الذى لا يحفظ بالنسبة إلى غيرهما يلام، و من لا يحفظ بالنسبة إليهما لا يلام.

[٨] فَمَنْ ابْتغى أى طلب، وقد أطلق «الابتغاء» وأريد به «العمل» وقد تقدم، أن كلا من «الإرادة» و «الفعل» يستعمل بمعنى الآخر وراء ذلك الذى ذكر من حليه الأزواج و المملوكات فأولئك هم العادون أى المتعدون لحدودهم المتجاوزون الشريعة.

[٩] وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ أُضِيفَتِ الْأَمَانَةُ إِلَيْهِمْ، لأنهم محل إيداعها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩ الى ١١]

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

و يكفى فى الإضافة أدنى ملابسة و عهدِهِمْ راعون أى حافظون موفون، فإذا عاهدوا عهدا بالنسبة إلى الأمور الدينية، كالمعاهدة مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو عاهدوا بالنسبة إلى سائر المعاملات، كالعقود، و فوا بها.

[١٠] وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ فيقيمونها فى أوقاتها بدون تضييع لها، مع آدابها و شرائطها، و قد كرر ذكر الصلاة لما لها من الأهمية، و لبيان أمرين، الأول الخشوع فيها، و الثانى المحافظة عليها.

[١١] أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ و الوارث هو الذى ينتقل إليه شىء من آخر، و المراد به هنا إما إطلاقا، و يكون قوله «الذين يرثون» بيانا لمصداق من مصاديق إرثهم، و المراد حينئذ، إن الخيرات كلها لهم سواء فى الدنيا، أو فى الآخرة، و أما خصوص ما يتين فى قوله «الذين» فكأن المراد أن هؤلاء كانت لهم الدنيا غير قابله، حتى أنها لا تكون عوضا لأتعبهم و أعمالهم، و إنما الجزاء الوافى هو الفردوس، فهم.

[١٢] الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ يصيرون إليها، بعد الأحوال المتقدمة فى الحياة، كما يصير الوارث إلى ما تركه أقرباؤه- بلطف فى عكس التشبيه- و الفردوس، هى البستان الجميل، و المراد بها هنا درجة من درجات الجنة هُم أى هؤلاء الذين و صفوا بتلك الأوصاف فيها أى فى الفردوس، و هى مؤنث مجازى خالِدُونَ دائمون باقون أبد الأبدين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ١٤]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)

[١٣] ثم يأتى السياق ليعد من الله على البشر، و لطفه بهم، مما ينبغى أن يطيعوا أوامره، و يكونوا كما وصفهم فى الآيات المتقدمة و لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ أى كل فرد من أفرادهِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ السلاله، اسم لما يسلم من الشىء، فإن الإنسان فى ابتداء خلقه يسلم و يخرج من التراب النظيف، إذ هو الذى يتبدل نباتا، و لذا سُمى طينا، لأن التراب ما لم يخلط بالماء لا يكون نباتا.

[١٤] ثُمَّ بَعْدَ جَعْلِ التراب نباتا، صار حيوانا مأكولا، أو أكله إنسان فصار دما فى جسمه، و بعد ذلك جَعَلْنَاهُ أى ذلك الإنسان، الذى نريد تكوينه نُطْفَةً و هى المنى إذا استقر فى الرحم فى قَرَارٍ أى مستقر مَكِينٍ ذى تمكن على حفظها و تربيتها.

[١٥] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً شبيه بالدم المنجمد فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً كقطعه لحم قد مضغت بالأسنان فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا و حيث إن العظام هى العنصر الأشد فى الحياة، خصصت بالذكر، و إلا فالعلقة تكون الأعضاء الأصلية للإنسان، لا العظام فقط فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا كاللباس الذى يلبس على الجلد ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فقد نفخ فيه الروح الإنسانى، الذى هو من قسم آخر من الخلق، ليس كالخلق المادى الحيوانى، و النباتى و الجمادى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أى تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٥ الى ١٧]

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)
و دام خيره أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ و الخلق يطلق على الصنع، فالنجار خالق الباب، و البناء خالق القصر و الله سبحانه أحسن الخالقين، إذ لا يمكن لأحد من هذا النحو من الخلقه.

[١٦] ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْخَلْقِ التَّامِ لَمَيِّتُونَ تخرج أرواحكم، لتبقى أجساد بلا أرواح حينما تنتهي آجالكم في الدنيا.

[١٧] ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ أَيُّ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ.

[١٨] و بعد بيان المبدأ للإنسان و معاده، يأتي السياق لبيان منه سبحانه عليه في هذه الحياة و لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ سَبْعَ طَرَائِقَ المراد بها السماوات السبع - ظاهرا- و قد تقدم إن علماء الفلك المسلمين يقولون: إن المراد بالسماوات، مدارات الأفلاك، مؤيدين نظريتهم بالرواية الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام، و بعض الشواهد الأخرى، و كونها فوقنا، باعتبار ما نحس، و إن كانت الأرض في الحقيقة، نجمة كسائر النجوم، و طرائق جمع طريقه، و إنما سمي السماء بها لتطارقها، أي كون بعضها فوق بعض و مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ و لعل الإتيان بهذه الجملة هنا، لما يتبادر إلى الذهن البدائي، من أن المربي الخالق لهذا الكون العظيم لا مجال له - عند ذلك- لمراقبة الناس و أعمالهم، فهو يغفل عنهم كما يغفل الملك الكبير ملكه عن خصوصيات الناس و أعمالهم، لكنه سبحانه ليس كذلك، فيتساوى عنده كل معلوم صغيرا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩)

كان أم كبيراً، و لا يشغله شأن عن شأن.

[١٩] وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جِهَةً الْعُلُوقِ، و هذا مرتبط بخلق سبع طرائق ماء و هو المطر بِقَدَرٍ و لا يخفى ما في هذا اللفظ من اللفظ، فإن الإنسان البدائي الذهن، حيث يرى كثرة المطر - يظن أنه ليس تحت حساب و تحديد، و لذا جاء هذا اللفظ هنا لينبه على ذلك، و إن المطر مهما كثر فهو بقدر و حد محدود معلوم لديه سبحانه فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ أَيُّ جَعَلْنَا لَهُ مَسْكَنًا، فإن ماء المطر هو الذي يتسرب إلى باطن الأرض، ليجري من الثقب الأرضية و الجبلية عيوناً و أنهاراً و إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ أَيُّ أَنْ نَذْهَبَ هَذَا الْمَاءُ الْمَسْكُونُ فِي الْأَرْضِ لِقَادِرُونَ بَأَنْ نَسْرِبَهُ فِي الْأَغْوَارِ الْعَمِيقَةِ، حتى لا ينتفع به الإنسان، أو نبخره في الجو، أو نعدمه إعداماً مطلقاً، فإن من يقدر على إيجاد المعدوم، قادر على إعدام الموجود.

[٢٠] لَكِنَّا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ حَتَّى تَهْلِكُوا، و يهلك الحيوان و النبات، بل تفضلنا عليكم فوق ذلك فَأَنْشَأْنَا أَوْ جَدْنَا و اخترعنا لكم أيها البشر به أي بسبب هذا الماء جَنَّاتٍ بساتين، و سمي البستان جنه، لأن أشجارها تجن و تستر أرضها مِنْ نَخِيلٍ جمع نخل، و هو شجر التمر و أعنابٍ جمع عنب، و المراد به الكروم بعلاقه الحال و المحل لكم أيها البشر فيها أي في تلك الجنات فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ جمع فاكهة، و هي الثمرة، سميت بها لأن الإنسان يتفكه بها، و المراد أنواع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَ صَنِيعٌ لِلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْتَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)

الفواكه المختلفة، و كان تخصيص النخل و العنب، لكثرتهما في هذه البلاد و عموم الانتفاع بهما و مِنْهَا تَأْكُلُونَ أَيُّ مِنَ الْبَسَاتِينَ تَأْكُلُونَ مختلف أنواع الرزق مباشرة، أو بواسطة بيع و إيجار و صرف الثمن و الأجرة في سائر الأرزاق.

[٢١] و أنشأنا لكم بذلك المطر و شَجْرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ و المراد بها شجرة الزيتون و «سيناء» اسم الموضع الذى به «جبل طور» قرب الشام، و لعله إنما حضر هذا المحل مع عموم الزيتون فى كثير من الأماكن لجودة زيتونها، و اشتهاها لدى المخاطبين بالقرآن الحكيم، كما أن تخصيص الزيتون من بين الثمار بالذكر لنفعه العام فى كثير من الحوائج تَبَيَّنَتْ هذه الشجرة بِالذَّهْنِ أى مصاحبة للدهن، فإن الزيتون قطعهُ من الدهن المنجمد، و لذا يعصر منه الزيت و صَبَّغَ عطف على «الدهن» لِلأَكْلِينَ و المعنى أن هذه الشجرة تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به و يسرج منه و كونه أداما يصبغ فيه الخبز، أى يغمس فيه للالتئام، و سُمى الإدام صبغا، لأنه يصبغ الخبز بلونه.

[٢٢] و إِنَّ لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِي الْأَنْعَامِ جَمْعَ نَعْمٍ، و هى الإبل و البقر و الغنم لِعَيْزَةٍ أى اعتبارا و دلالة دالة على وجود الله سبحانه و علمه و قدرته نُشَقِّقُكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا أى أجوافها من اللبن الطيب المذاق و لَكُمْ فِيهَا أى فى الأنعام مَنَافِعَ كَثِيرَةً فتركبون على الإبل،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

و عَلَيْهَا و عَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ (٢٢) و لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى (٢٤)

و تحرثون بالبقر، و تضخون الماء بهما، و تنتفعون بأشعارها و جلودها و لحومها و منها تأكلون أى من بعضها، و هو اللحم و الشحم و ما أشبهه، أو المراد بالأكل الانتفاع و التكسب بهما.

[٢٣] و عَلَيْهَا المراد به الإبل خاصة و عَلَى الْفُلْكِ فى البحر تَحْمَلُونَ فأحدهما للبر، و الآخر للبحر، كما قال سبحانه، (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ) «١» و قد خصص سبحانه هاتين المنفعتين بالذكر لعمومهما، و كثرة الاحتياج إليهما.

[٢٤] ثم يأتى السياق لبيان الرسالة، و بلاغ الرسل، فى عقب بيان الأدلة الكونية، فقد كان شأن الرسل أن يلفتوا الناس إلى تلك الأدلة الكونية التى سبق بعضها، ليؤمن الناس بالإله الخالق المنعم و لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ليدعوهم إلى عبادة الله و إطاعته أوامره فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ آمَنُوا به و أطيعوه ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فهذه الأصنام التى تعبدونها ليست بألهة، و إنما الله إله واحد أَفَلَا تَتَّقُونَ استفهام إنكارى، أى ألا تخافون عقاب الله فى ترك الإيمان؟

[٢٥] فَقَالَ الْمَلَأُ أى الأشراف، و سموا ملأ لأنهم يملئون العيون أبهة، و الصدور هيبه الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ بعضهم لبعض

(١) الإسراء: ٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا و وَحِينَا فَاذًا جَاءَ أَمْرُنَا و فَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ و أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ و لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٧)

ما هذا الذى يدعوكم، و هو نوح إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فليس برسول، فإنهم كانوا يزعمون أن الرسول لا- يمكن أن يكون بشرا يريد أن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أى إنما يدعى النبوة لتطيعوه، فيتأس عليكم، و تكونوا أنتم من أتباعه، فيصير له كيان و رئاسة و لَوْ شَاءَ اللَّهُ إرسال رسول إلى البشر لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً للإرشاد و الإنذار، لا أن يرسل بشرا ما سَمِعْنَا بِهَذَا الذى يدعو إليه نوح من وحدة الإله، و إنه رسول الله فى آبَائِنَا الْأُولَى أى فى الأمم الماضية أن ينبرى أحدهم، فيدعى الرسالة، و يدعو الناس إلى إله واحد.

[٢٦] إِنَّهُ هُوَ مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أَى جنون، و ما هذه الدعوى التى يدعيها، إلا من آثار ذلك الجنون فَتَرَبَّصُوا بِهِ انتظروا بنوح حتى حين يأتيه الموت فتستريحوا منه، أو المعنى انتظروا به حتى يفيق، و يذهب جنونه فيرجع عن دعواه.

[٢٧] و لما أن رأى نوح إصرار القوم على التكذيب و عدم الإيمان قال يا رَبِّ انصُرْنِي عليهم بما كَذَّبُونَ بسبب تكذيبهم إياى، كأنه العلة فى نصره الله، إذ لو لا التكذيب لم يحتج إلى نصره الله تعالى.

[٢٨] فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ هُو مفرد على وزن فقل بأعیننا أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٣

إنك تحت نظرنا و مراقبتنا كالكبير الذى يقول لغيره: افعَلْ كَذَا، فأنت مدّ نظرى لا يصل إليك أحد بسوء، و أعين جمع عين، و من القاعدة أن يأتي بالجمع ما فى الإنسان مثى، أو باعتبار أن الكبير يتكلم بنحو الجمع دلالة على اشتراكه لمن معه فى الرأى و وَحِينَا فَإِنَا نوحى إليك كيفية صنعها فإذا جاء أمرنا بإهلاك القوم، غرقا فى الماء و فَاَرِ التَّوْرُ الذى كان علامة لابتداء العذاب و ورد أنه تنور فى مسجد الكوفة جعله سبحانه علامة لابتداء الغرق، حتى إذا رأى نوح إنه يفور ماء يركب السفينة، و يحمل المؤمنين و الحيوانات فيها لينجوا جميعا من الغرق فَاسْلُكْ فِيهَا أى ادخل فى السفينة من سلك بمعنى مشى فى الطريق، كأنهم يتخذون طريقهم فى السفينة مِنْ كُلِّ أى من كل نوع من أنواع الحيوانات زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذكرا و أنثى، و ليس ذلك مستعبدا بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه، و إن استبعده بعض، قالوا: كيف يمكن إدخال أهلک و عائلتك فى السفينة إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بأنه يهلك فى الهالكين مِنْهُمْ أى من أهلک، و هو ولده كنعان الذى سبق من الله سبحانه أن قال يغرق لعملة الفاسد، و حيث كان المقام أن يطلب نوح- حسب الرقة البشرية- نجاة الناس من الغرق، نهاه سبحانه عن ذلك مقدما بقوله و لا- تُخَاطِبْنِي أى لا تتكلم معى يا نوح فى أمر الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم بالكفر و العصيان، بأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

تتوسط فى عدم إهلاكهم ف إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ لا محالة ورقه نوح عليه السلام فى ذلك الحين، لا ينافى دعائه بإهلاكهم قبلا، فإن للإنسان فى حال البلاء رقة عاطفية.

[٢٩] فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أى ركب، و أخذت مكانك و استقرارك أَنْتَ يا نوح وَ اسْتَوَى مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ أى السفينة فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا وَ خَلَصْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان.

[٣٠] وَقُلِ يا رَبِّ أَنْزِلْنِي مِنَ السفينة بعد أن جف الماء على الأرض، مُنْزَلًا مُبَارَكًا أى إنزالا مع بركة و يمن لكى نعمة الأرض من جديد، و «منزل» مصدر ميمى و أَنْتَ يا رب خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إذ أنت القادر على أن تبارك فى الإنزال، و تكفى الإنسان شر الآفات دون سواك، ممن ينزل الإنسان منزلا.

[٣١] إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى ذكر من قصة نوح مع قومه لآياتٍ دالّات على الشؤون المرتبطة بالإله و الرسالة و إِنَّ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ «إن» مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن محذوف، أى إنه كنا نحن مختبرين للعباد، بإرسال الرسل، حتى إذا لم يؤمنوا أهلكتناهم، و هذا شبه تهديد للكفار بأنهم إن لم يؤمنوا كان مصيرهم مصير أولئك فى تعميمهم بعذاب الله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣١ الى ٣٣]

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ

قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)

[٣٢] ثم بعد إهلاك أولئك أنشأنا أوجدنا و أحيينا من بعدهم قزناً آخرين أى جماعة و أمه، و إنما سمي قرنا، لاقتران بعضهم ببعض فى الزمان، و لعل المراد قوم صالح، لقوله تعالى (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ) «١» فإنها أخذت قوم صالح «كما سبق».

[٣٣] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أى من أنفسهم، فلم يكن ملكا، و لا- من غير قومهم، و هو صالح، فقال لهم أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أى ليس لكم إله غير الله، فهذه الأصنام التى تعبدونها باطله أ فلا- تَتَّقُونَ استفهام إنكارى، أى ألا تخافون عذاب الله؟

[٣٤] وَقَالَ الْمَلَأُ جَمَاعَةَ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْمَ صَالِحٍ وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ أى قالوا إنهم لا يلاقون الآخرة، لاعتقادهم بعدم وجود الآخرة وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى أنعمنا عليهم فى هذه الحياة، و كأن الإتيان بهذا الوصف للدلالة على سوء صنيعهم حيث بدلوا النعمة كفرًا ما هذا الذى يدعى الرسالة، و هو صالح إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فكيف يمكن أن يكون رسولا؟ بزعمهم إن الرسول

(١) الحجر: ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

وَلَيْسَ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)

يجب أن يكون ملكا يأكل مما تأكلون من أنواع الطعام منه وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ من الأشربة، فما فضله عليكم حتى يكون رسولا؟.

[٣٥] وَلَيْسَ أَطْعَمْتُمْ أَيهَا الْقَوْمِ بَشَرًا مِثْلُكُمْ فى جميع المزايا البشرية إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ قد خسرت عقولكم باتباع بشر، و إسلاس قيادكم إليه، و لم يعرف أولئك إن الرسالة، إنما تتبع المزايا النفسية، التى هى متوفرة فى صالح دونهم.

[٣٦] ثم أخذ القوم يستغربون من دعوته، و إن هناك معادا يحيون فيه ليحاسبوا أَيْ يَعِدُكُمْ أى كيف يعدكم صالح أَنَّكُمْ أَيهَا الْقَوْمِ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا بَأَن تَسَاقَطَتْ لِحُومِكُمْ، حتى صارت ترابا، و بقيت العظام المجردة أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ من قبوركم، أحياء للحساب و الجزاء.

[٣٧] هَيْهَاتَ اسْمِ فِعْلٍ يَعِدُ يُؤْتَى بِهِ لاسْتِبْعَادِ الْأَمْرِ هَيْهَاتَ كَرَّرَ تَأْكِيدًا لِمَا تُوعَدُونَ اللام للبيان، أى بعيد فى العقل ما يعدكم صالح من الإحياء بعد الموت، لا يمكن أن يكون ذلك.

[٣٨] إِنَّ هِيَ أَي لَيْسَتْ الْحَيَاةُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أَي الْقَرِيبَةُ الَّتِي نَحْنُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣٨ الى ٤١]

إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

فيها نَمُوتُ فى هذه الحياة وَنَحْيَا فى هذه الحياة، فالحياء و الموت مخصوصان بهذه الحياة، فلا حياة بعد الموت، و إنما قدم «نموت» لأن الموت أمامهم، حيث جاءوا إلى الحياة وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد ذلك إلى عالم آخر.

[٣٩] إِنَّهُ هُوَ أَي لَيْسَ صَالِحٌ رَسُولًا، و إنما هو إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِالْإِفْتِرَاءِ يَلْزَمُ الْكُذْبَ، و إنما جاء «كذبا» لتأكيد، و لأن أصل الافتراء من الفرى، بمعنى القطع، كأن المفترى يقطع كلاما من الكلمات المكذوبة، ثم ينسبه إلى المفترى عليه وَ مَا نَحْنُ لَهُ

بِمُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ كَلَامِهِ فِيمَا يَقُولُ.

[٤٠] قَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي بِتَكْذِيبِهِمْ، أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا نَبِيَّ فَاَنْصُرْنِي عَلَيْهِمْ.

[٤١] قَالَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فِي جَوَابِ دَعَاءِ صَالِحٍ عَمَّا قَلِيلٍ «مَا» زَائِدَةٌ يَأْتِي بِهَا لِقَصْدِ الْقَلْبِ، أَيْ بَعْدَ زَمَانٍ قَلِيلٍ لِيُضْبِحَنَّ الْقَوْمُ نَادِمِينَ يَنْدَمُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، حِينَ يَأْخُذُهُمُ الْعَذَابُ.

[٤٢] فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ أَيْ صَيْحَةُ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً أَخَذَتْ أَلْبَابَهُمْ، وَ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ بِالْحَقِّ أَيْ كَانَ بِاسْتِحْقَاقِهِمْ، إِذْ الْكُفْرُ وَالْعِصْيَانُ يَعْقِبُهُمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتْرَا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

الهِلَاكِ وَالذَّمَارِ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً الْغَنَاءُ مَا يَحْمَلُهُ السَّلِيلُ، مِنْ يَابِسِ النَّبَاتِ، وَقَصْبٍ وَعِيدَانٍ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَالْمَعْنَى جَعَلْنَاهُمْ أَجْسَادًا هَامِدَةً قَدْ يَبْسُوا كَمَا يَبْسُ الْغَنَاءُ، مَلْفُونَ بِغَيْرِ إِكْرَامٍ وَلَا احْتِرَامٍ فَبَعْدًا أَيْ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَطَرَدَهُمْ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالطَّغْيَانِ.

[٤٣] ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ بَعْدَ هَؤُلَاءِ قُرُونًا آخَرِينَ أُمَّمًا، وَأَهْلَ أَعْصَارٍ، وَجَمَاعَاتٍ آخَرِينَ، فَكَانَ الْقَوْمُ كُلَّمَا عَصَوْا وَعَتَوْا أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ وَأَهْلَكْنَاهُمْ وَجئنا بقوم آخرين مكانهم.

[٤٤] أَمَا مَا يَطْلُبُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَانَ مِنْ تَعْجِيلِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ - عَلَى وَجْهِ الْاسْتَهْزَاءِ - أَنْ يَعَجَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَإِنَّ الْعَذَابَ لَا يَأْتِي إِلَّا فِي وَقْتِهِ الَّذِي حَدَدَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ لَهُ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَيْ لَا تَسْبِقُ أَيَّةُ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّةِ أَجَلَهَا أَنْ تَهْلِكَ قَبْلَ إْتْيَانِ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ لَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ أَيْ لَا يَطْلُبُونَ تَأْخِيرَ الْأَجْلِ، بَأَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ لَهُ وَالْمُرَادُ بَعْدُ طَلِبَهُمُ لِلتَّأْخِيرِ، إِنْ طَلَبَ التَّأْخِيرَ لَا يَنْفَعُ، فَعَبْرَ عَمَّا لَا يَنْفَعُ فِيهِ بِالْعَدَمِ، كَمَا يَعْبُرُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِيهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِرَجُلٍ.

[٤٥] ثُمَّ مِنْ بَعْدِ صَالِحٍ أَرْسَلْنَا إِلَى الْأُمَّةِ رُسُلَنَا تَتْرَا مِنَ الْمَوَاتِرَةِ، وَهِيَ أَنْ يَتَّبِعَ الْبَعْضُ الْبَعْضَ بَدُونَ فَضْلِ، فَقَدْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ يَأْتِي بَعْضُهُمْ بِعَقْبِ الْآخَرِ إِتْمَامًا لِلْحُجَّةِ، وَتَوْضِيحًا لِلْمُحْجَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أُنزِلْ لَنَا آيَاتِنَا مِنْ سَمَوَاتِنَا وَمِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)

كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا الرَّسُولُ فَاعِلٌ، وَالْأُمَّةُ مَفْعُولٌ كَذَّبُوهُ وَلَمْ يَقْرَأُوا نَبِيَّتَهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا أَتْبَعْنَا هَلَاكَ بَعْضِ الْأُمَّةِ بِهَلَاكِ بَعْضِهِمُ السَّابِقِينَ، فَجَاءَ الرَّسُولُ، وَتَكْذِبُ الْأُمَّةُ فَتَهْلِكُ، ثُمَّ فِي جِيءَ رَسُولٌ آخَرَ، فَتَكْذِبُهُ الْأُمَّةُ التَّالِيَةُ فَتَهْلِكُ، وَهَكَذَا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ فِي الشَّرِّ، قَالُوا: وَهُوَ جَمْعُ أَحْدُوْتِهِ، وَلَا يَقَالُ هَذَا فِي الْخَيْرِ، وَالْمَعْنَى إِنَّا أَفْنَيْنَاهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا - حَدِيثُهُمْ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّمًا لَهَا الْوُجُودُ وَالْكِيَانُ فَبَعْدًا عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ إِنْهُمْ طَرَدُوا عَنِ الرَّحْمَةِ كَمَا أَهْلَكُوا وَطَرَدُوا عَنِ الْحَيَاةِ.

[٤٦] ثُمَّ مِنْ بَعْدِ أَوْلَيْكَ الرَّسُلِ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا أَيْ بِدَلَالَتِنَا وَحُجَّتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ وَاضِحٍ ظَاهِرٍ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالسُّلْطَانِ الْحُجَّةَ الْمُنْطَقِيَّةَ، وَبِالْآيَاتِ الْمَعْجَزَاتِ الْخَارِقَةَ.

[٤٧] إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْتِهِ أَى جماعته، أو أشراف قومه، و خصوا بالذكر لأنهم إن آمنوا تبعهم الناس، فكان التوجه الأولى إليهم فَاسْتَكْبَرُوا تكبروا عن قبول الحق وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فقد علوا و اتخذوا الناس خولا لهم.

[٤٨] فمن كبرهم و علوهم قالوا أ نُوْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا أَى كيف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٦٩٩

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (٥٠)

نصدق إنسانين - هما موسى و هارون- فى حال كونهما مثلنا خلقه؟ إذ كيف يمكن أن يكون البشر رسولا على بشر مثله؟ وَ قَوْمُهُمَا أَى و الحال أن قوم هذين - و هم بنو إسرائيل - لَنَا عَابِدُونَ يعبدوننا و يطيعوننا، إنهما و قومهما لنا تبع، فكيف نؤمن بهما؟

[٤٩] فَكَذَّبُوهُمَا أَى كذب فرعون و قومه موسى و هارون فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ الذين أهلكوا بتكذيبهم للرسول، حيث أغرقوا فى البحر حتى لم يبق منهم أحد، و قد كان الغرق خاصا بفرعون و جنوده الذين اتبعوا موسى، أما سائر أهل مصر فقد كانوا فيها لم يهلكوا.

[٥٠] وَ لَقَدْ آتَيْنَا أَى أعطينا مُوسَى عليه السّلام، بعد إهلاك فرعون و خروجهم من أرض مصر الْكِتَابَ التوراة لَعَلَّهُمْ أَى لعل بنى إسرائيل الذين كانوا مع موسى يَهْتَدُونَ إلى الحق و الصواب.

[٥١] وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ أَى المسيح عليه السّلام وَ أُمَّهُ مريم الطاهرة عليها السّلام آيَةً خارقة فى جميع شؤونها، فقد حملت بعبسى من غير زوج، و نطق عبسى بالكتاب و هو طفل فى المهد، إلى سائر الخوارق، و حيث إن أحدهما كان متشابكا مع الآخر فى المزايا، عبر عنهما جميعا ب «آية» و لم يقل «آيتين» وَ آوَيْنَاهُمَا أَى المسيح و مريم، و الإيواء إعطاء المأوى و هو المنزل إلى رَبْوَةٍ هى الموضع المرتفع من الأرض، و فيه فضل طيب الهواء، و عدم تسرب الأوساخ إليها، و قربها من أشعه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥١ الى ٥٢]

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)

الشمس إلى غير ذلك، و قد اختلف فى موضع الربوة، و فى بعض الأحاديث أن المراد بها النجف، و لعل ذلك بعد ولادتها له مباشرة ذاتِ قَرَارٍ أَى لم تكن الربوة موضعا صغيرا كالتل، و إنما ربوة فسيحة يتمكن الإنسان من القرار فيها، أو كونها ذات قرار باعتبار ما فيها الثمار و الأشجار، فيتمكن الإنسان من القرار فيها وَ مَعِينٍ أَى ذات ماء جار على وجه الأرض ظاهر طيب.

[٥٢] و بعد هذا يأتى الخطاب للرسول، و كأنهم مجتمعون فى مكان و زمان ليين وظيفتهم العامة، بعد بيان أنهم يلازمون الطبيعة البشرية فى الأكل و سائر لوازمه يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فأنتم بشر، لا كما يزعمه الكفار، بأن الرسل يجب أن يكونوا من غير جنس البشر، فلا- يأكلون الطعام و لا- يمشون فى الأسواق، و إنما فرق الرسل من غيرهم، إن الرسل لا يأكلون إلا الطيب، أما غيرهم فىأكلون الخبيث و الطيب- إن لم يهتدوا بهدى المرسلين- وَ اعْمَلُوا صَالِحًا أَى العمل الصالح، و لازمه عدم العمل الفاسد إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ أيتها الرسل عَلِيمٌ فلا يحق أكل غير الطيب، و العمل غير الصالح، فإنكم بعين الله سبحانه.

[٥٣] وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أيتها الرسل، و قد جعل مجموع الأمم، كأمة واحدة للرسول جميعا، لأن للرسول رسالته واحدة إلى مجموع البشر، و إنما الاختلاف جاء من قبل الناس الذين كدروا صفو الأديان و المذاهب أُمَّةً وَاحِدَةً حال من «أمتكم» وَ أَنَا رَبُّكُمْ فالرب واحد، و

الرسالة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ دَلَيْهِمْ فَرِحُون (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَ بَيْنِينَ (٥٥)

واحدة، و الأمة واحدة، و المنهاج هو استعمال الطيب، و العمل الصالح فأتقون أى اتقونى فلا تخالفوا أمرى.

[٥٤] لقد كانت الرسل كتلة واحدة لهم رسالة واحدة و منهج واحد، و لهم أمة واحدة، و لكن الناس لم يبقوا على تلك الوحدة فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى جعلوا دينهم الواحد قطعة قطعة، كل جماعة أخذت بقطعة منه، و لقد كان هذا التقطيع بينهم لا يرتبط بالرسالة زُبُرًا أى كتبا، جمع زبور و هو الكتاب، من زبره، بمعنى كتبه، أى أن كل أمة تمسكت بكتاب واحد و نبذت سائر الكتب، كاليهود الذين نبذوا الإنجيل و القرآن و النصرى الذين نبذوا القرآن كُلُّ حِزْبٍ و أمة بما لَدَيْهِمْ من الدين فَرِحُون راضون مع إنه سبحانه لم يشرع إلا حزبا واحدا و أمة واحدة.

[٥٥] فَذَرَهُمْ اتركهم يا رسول الله فى غَمَرَتِهِمْ أى غفلتهم، و إنما سميت الغفلة و الضلالة غمرة، لأنها تغمرهم كالماء الذى يغمر الإنسان، فكأنهم مغمورون فى الضلالة، مغرقون فيها حَتَّىٰ حِينٍ ينقضى أجلهم و يأتيهم الموت أو العذاب.

[٥٦] ثم ذكر سبحانه إن ما يرون هؤلاء الكفار من أصناف النعم فى هذه الحياة ليست تكريما لهم، و إنما هى فتنة و استدراج أَيْحَسِبُونَ هل يظن هؤلاء أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ «ما» موصوله، أى أن الشئ الذى نزيده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) و نعطيه لهم من مالٍ و بَيْنِينَ يكون إكراما لهم.

[٥٧] ف نُسَارِعُ لَهُمْ فى الْخَيْرَاتِ و إنها جزء أعمالهم و ثواب ما يأتون من الكفر و العصيان، كلا، ليس كذلك بَلْ لَا يَشْعُرُونَ إنها استدراج و فتنة ليزيد طغيانهم و يبلغوا أجلهم، و قد تمت عليهم الحجة، و ليستحقوا العقاب الأبدى، و لعل الإتيان من باب المسارعة لكون الأصل فى أعمال الخير أن يتسارع الناس إليها، ثم استعمل اللفظ فى كل عمل خيرى، و إن لم يكن هناك طرف آخر، كما قال سبحانه (وَ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) «١».

[٥٨] و إذ بين سبحانه أحوال الكفار، ألمح إلى أحوال الأخيار إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ أى خوف و عقاب رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ و وجلون، و كأن الخشية شئ مرتبط بالطرفين الخائف و المخوف منه، و لذا صح «من خشية .. مشفقون» فلا يقال: إن الإشفاق ليس من الخشية، و إنما من نفس المخوف منه؟ حتى يحتاج إلى أن يتكلف لتصحيحه، بأن المراد الإشفاق من هذا القسم، لا من سائر أقسامه كالخوف من المرض و العدو و الفقر و ما أشبهه.

[٥٩] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أى بأدلته الكونية و حججه التى يأتى بها الأنبياء يُؤْمِنُونَ أى يصدقون.

(١) آل عمران: ١٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٩ الى ٦١]

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

[٦٠] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ و إنما ذكر هذا عقب الإيمان بالله، إذ من الممكن أن يؤمن أحد بالله، و مع ذلك يؤمن بالأصنام

أيضا، كما كان المشركون كذلك إذ يقولون (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿١﴾ و لعل الإتيان ب «هم» بعد «الذين» لتأكيد تصبيغهم بلون خاص، ف «هم» لا يخالطون بمن سواهم، فإن التركيز على هذه الخصوصية، لا يأتي بمجرد «الذين».

[٦١] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا أَى يعطون ما أعطوا من المال وَ الْحَالِ أَنْ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَى خائفه مضطربه، أن لا- تقبل نفقاتهم و صدقاتهم، فلا- يرون فوائدها حيث يعلمون أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ بِالْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ خَائِفٌ مِنْ أَعْمَالِهِ بِأَنَّهَا لَا تَقْبَلُ، بخلاف غير المؤمن إذ لا يهमे عدم قبولها «فإنهم» فى موضع العلة، أى أن علة الخوف كونهم يعثون إلينا لنحاسبهم.

[٦٢] أُولَئِكَ الْمُتَصَفُّونَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ أَى يبادرون إلى الطاعات و يسابقون إليها وَ هُمْ لَهَا أَى للخيرات سَابِقُونَ إما المراد أنهم يسابقون إليها، فيكون تأكيدا للجمله السابقة، أو المراد أنهم سابقون لأخذ تلك الخيرات فى الجنة، فالخيرات لهم حيث عملوا بها، لا للكفار الذين قلوبهم فى غمرة،

(١) الزمر: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)

و يظنون إنا «نُسارع لهم فى الخيرات».

[٦٣] إن ما نطلبه من المؤمنين من الإيمان و العمل الصالح، ليس فوق طاقتهم، حتى يكون للكافر عذر فى عدم الإيمان و لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أَى بالمقدار الذى تسع النفس له من التكاليف و ثم إن ما يعمله المؤمن، لا يذهب أدرج الرياح بل لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ يكتب فيه كل عمل صالح عمله الإنسان، ليجزى عليه بأفضل مما عمل، و استعمال «النطق» فى الكتاب مجاز أريد به الإبراز و الإظهار، لشبهه بالنطق الذى يكون به إبراز ما فى ضمير الإنسان و يحتمل أن يكون المراد بالكتاب «اللوح» و قد ورد أن اللوح و «القلم» ملكان، فيكون المنطق حقيقة و هُمْ لَا يُظْلَمُونَ بأن يثبت فى الكتاب لهم سيئه لم يعملوها، أو لا يثبت طاعة قد عملوها.

[٦٤] إن الكفار و العصاة لم ينحرفوا لصعوبة التكليف، أو خوف أن ينقص من حسناتهم و يظلمون بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ وَ غَفْلَةٍ مطبقة تغمرهم من هذا الكتاب، أو من هذا الذى أرسلنا به الرسول، من مجموع الشريعة و العقيدة و لَهُمْ أَعْمَالٌ رديئة مِنْ دُونِ ذَلِكَ الذى أنزلناه و أمرنا به هُمْ لَهَا أَى لتلك الأعمال عَامِلُونَ فهم فى غفلة، و أعمالهم على غير هذا النحو، و هذا سبب إعراضهم عن الحق لا صعوبة التكليف و لا خوف أن يظلموا فلا يصلهم جزاء حسناتهم- إن عملوها-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ (٦٦)

[٦٥] و قد تمادى هؤلاء الكفار فى غيهم و ضلالهم حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ وَ هُمُ الْمُتَمَتِّعُونَ مِنْهُمْ بِالْعَذَابِ وَ الاختصاص بهم، لأنهم، هم مورد الكلام، و سبب إضلال الناس، و طبيعى، أن يأخذ العذاب سائرهم، فإن العذاب إذا جاء عم إذا هُمْ يَجَارُونَ أَى يضحجون لشدة العذاب و يجزعون، قال «جار» إذا رفع صوته مستغيثا،

و قد ورد فى مصادق من مصاديق هذا العذاب أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دعا على الكفار، فقال: اللهم أشد و طأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، فابتلاهم بالقحط، حتى أكلوا الجيف و الكلاب و العظام المحترقة و القذر، و الأولاد

(١).

[٦٦] فيقال لهم حينذاك لا تجأروا اليَوْمَ ولا تضعوا إِنْكُمْ مِنَّا أى من جهتنا و طرفنا لا تُنصِرُونَ فَإِن العذاب لا محاله نازل بكم حتى يلحقكم بالنار.

[٦٧] هل نسيتم أعمالكم السابقة؟ و كلما كان يقال لكم: أفلعوا و توبوا، كنتم سادرين فى غيركم لا تعيرون الدعوة أى بال؟ فل قد كَانَتْ آياتى الدالة على التوحيد، و سائر الشؤون الدينية تُتلى عَلَيْكُمْ تقرأ على مسامعكم فَكُنْتُمْ أَيها الكفار الذين أخذكم العقاب على أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ أى تدبرون و ترجعون القهقري، فَإِن الإنسان

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

الراجع نحو خلفه يضع عقب قدمه أولا- على الأرض، بخلاف الإنسان المقبل الذى يضع صدر قدمه أولا عليها، و النكوص رجوع القهقري، و هو أقبح أقسام المشى، فقد شبه الإنسان المعرض عن الحق بالذى يتقهقر إذا سمع الحق، كأنه يريد الفرار، مع أن يكون رائيا له، حتى يغالى فى الاستهزاء و الاستنكار.

[٦٨] فى حال كونهم مُسْتَكْبِرِينَ متكبرين عن قبول الحق به أى بسبب ما يتلى عليهم من الإيمان، فَإِن المعاند إذا سمع الحق زاد كبرا و عتوا سَامِرًا تَهْجُرُونَ أى تقولون الهجر- و هو الكلام البدىء- حول الرسول و الرسالة، فى لياليكم إذا تسمرون، و السمر هو التحدث ليلا، و الإتيان ب «سامر» مفردا مع أنه وصف للجميع، باعتبار كل واحد، و فيه تفتن فى الألفاظ مفردا و جمعا، و هو نوع من البلاغة، و يحتمل أن يكون «به» متعلقا ب «تهجرون» أى تهجرون بما يتلى عليكم، و على كل فهذا إشارة إلى ما كان فيه كفار مكه- كما هو عادة كل كافر فى كل زمان- أن يسامرون حلقا حلقا، فكان من حديثهم الطعن و الاستهزاء، بالقرآن و النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

[٦٩] أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ الذى أنزل إليهم، حتى يعرفوا صدقه؟ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فأوه شيئا جديدا، و الناس لا يذعنون للشىء الجديد، فلقد أرسل الله تعالى إلى البشر أنبياء قبل الرسول، كموسى عليه السلام و عيسى عليه السلام، و إبراهيم عليه السلام، و غيرهم، فما يمنع هؤلاء عن الإيمان؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٩ الى ٧١]

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)

[٧٠] أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ بالصدق و الأمانة و الصفات الخيرة فَهُمْ لَذَا لَهُ أى للرسول مُنْكَرُونَ فَإِن الإنسان إذا رأى من أحد ادعاء كبيرا، و لم يعرف مزايا ذلك الشخص لم يرضخ له، و احتمال فيه الكذب و الدجل، لكن هؤلاء يعرفون الرسول حق معرفته.

[٧١] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ أى جنون، و الكلام الذى يقوله إنما هو كلام المجنون؟ فليس هذا صحيحا، حتى عند أولئك الذين رموا به يريدون تنفير الناس عنه بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ الذى لا مريه فيه و لا شبهة وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ فَإِن هذا هو السبب الوحيد الذى يمنعهم عن الإيمان، و إلا فليس لهم ما يبرر موقفهم العدائى، و لو حجة ضئيلة واهية، و لقد كان هذا عادة الناس، فَإِن الحق لما يوجب زحزحه بعض مكانهم يكرهونه، و يختلقون حوله ألف و صممة و منقصة.

[٧٢] إنهم يريدون أن يكون الرسول وفق أهوائهم و شهواتهم، حتى يصدقوه، و يعترفوا به، كما قال سبحانه: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيْدْهُنُونَ) «١» و الحق لا يمكن أن يتبع الأهواء ف لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ و ميولهم، كأن يعترف بالأصنام و بسائر ما يأتون من المنكرات لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ و الْأَرْضُ و مَنْ فِيهِنَّ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هِيَ هَوَىٰ هَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَمْطُرَ فِي غَيْرِ فِصْلِهِ، و هوى ذاك أن يهلك أعداءه، و هكذا، أو المراد

(١) القلم: ١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)

باتباع الحق أهواءهم أن يجعل الله لنفسه شريكا يعطى له التصرف في الملك كما يتصرف هو تعالى، فإنه موجب لتغيير الأجرام و فساد الأوضاع، إذ ليس لأحد من الحكمة كالله سبحانه، و ربما قيل أن فساد السماء عدم المطر، و فساد الأرض عدم النبات، و فساد الناس فيهما بل أتيناهم بذكرهم أي أرسلنا إليهم، ما يبقى ذكرهم لدى الأجيال بالخير لو آمنوا به - كما بقى ذكر من آمن بكل تجلته و احترام - فهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمُ الَّذِي فِيهِ شُرْفُهُمْ وَ حَسَنَ سَمْعَتِهِمْ مُعْرِضُونَ راضون بالخمول، و أن يذهب حسن سمعتهم أدراج أهوائهم، و لقد حاول القرآن الحكيم إقناعهم بكل الطرق حتى بهذا الطريق، لكنهم أبوا إلا العناد و اللجاج.

[٧٣] أَمْ تَسْأَلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرْجًا أَىٰ أَجْرًا عَلَى الرَّسَالَةِ، فإنهم لا يقبلون رسالتك خوفا من المال و الضريبة؟ فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ أَىٰ أَجْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَكَ عَلَىٰ إِرْشَادِكَ، و تعليمك خَيْرٌ مما ينتظر من البشر المحتاج المفتقر وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أفضل من جميعهم، لأنه يعطى كثيرا، و لا يطلب في المقابل شيئا، و لا يمن على من يمنحه الرزق.

[٧٤] وَ إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فلا التواء في العقيدة و لا انحراف في الشريعة، و إنما سائر العقائد و الطرق ملتوية منحرفة، فهل يخافون إن قبلوا دعوتك أن تضلهم و تحرفهم عن الجادة؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصُّرَاطِ لَنَّا كَابُونَ (٧٤) وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤَافِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)

[٧٥] وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالدِّينِ، إذ الإيمان بالدين كله يلازم الإيمان بالآخرة، و جرى بهذا التعبير للدلالة على أنهم لا يعرفون مسئولية و جزاء حتى يعدلوا سلوكهم خوفا من العقاب عَنِ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لَنَّا كَابُونَ أَى عادلون مائلون، فدينك مستقيم و دينهم منحرف.

[٧٦] وَ لَقَدْ صَعِبَ عِلَاجُ هَؤُلَاءِ فَلَا بِالْفَضْلِ يَشْكُرُونَ، و لا عند الضراء يرجعون وَ لَوْ رَحِمْنَاَهُمْ بِأَنْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَهْلَ مَكَّةَ ابْتَلَوْا بِالْقَحْطِ الشَّدِيدِ عَلَىٰ أَثَرِ دَعَايِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِلْجُؤَافِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أَى لتمادوا في ضلالهم، و «اللج» التمادى و التمسك الشديد بالباطل، و «عمه» عمى القلب، أَى إن تفضلنا عليهم بطرتهم النعمة.

[٧٧] وَ إِنَّ أَبْقِيَانَهُمْ فِي الضَّرِّ وَ أَخَذْنَاَهُمْ بِالشَّدَائِدِ، لم تنفعهم في الإقلاع عما يفعلون وَ لَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ أَى بالصعوبات، كالجدب و ضيق الرزق، و أمثالها فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ الْاسْتِكَانَةُ: التضرع و الانقياد وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللَّهِ، بأن يرجعوا إليه و ينقادوا لأوامره ليدفع عنهم البلاء، و هؤلاء عكس المؤمنين الذين هم إن أعطوا شكروا و إن منعوا استغفروا، فهم كما قال سبحانه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٧ الى ٧٩]

حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) «١» [٧٨] وقد كان هذا دأب الكافرين، وحالتهم المستمرة حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ بَأْسًا لا يكون بعده موضع رجوع و توبة، سواء كان بالموت أو بالإهلاك أو فى الآخرة، و فى رواية أنه فى الرجعة، و هو أيضا مصداق لذلك إِذَا هُمْ فِيهِ أَى فى ذلك العذاب مُبْلِسُونَ من أبلس بمعنى تحير و يأس فإنهم سادرون فى الكفر و الغى، حتى يصلوا إلى ذلك العذاب، حيث لا مرجع و لا توبة، بل يأس من الخلاص و إبلاس.

[٧٩] ثم أخذ السياق يوظف وجدان هؤلاء بالنعم الكثيرة التى تدل على وجود منعهما و علمه و قدرته و فضله وَهُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي أَنْشَأَ وَ خَلَقَ لَكُمْ أَيها البشر السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ جمع فؤاد، و هو القلب، و الاختلاف فى السمع بالافراد، و فى الأبصار و الأفئدة بالجمع، لتفنن بلاغى قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ «قليلًا» منصوب ب «تشكرون» أى تشكرون الله سبحانه قليلا، و «ما» زائدة للتقليل.

[٨٠] وَهُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي ذَرَأَكُمْ أَى خلقكم و أوجدكم فى الأَرْضِ فمن غيره خلقكم أَيها البشر؟ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الحشر، هو الجمع، أى تجمعون بعد الموت للحساب و الجزاء، و كما قدر على

(١) المعارج: ٢٠-٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)

الابتداء بأن «ذراكم» يقدر على الإعادة.

[٨١] وَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي يُحْيِي الْأَمْوَاتِ كَمَا أَحْيَى التراب فجعله إنسانا و حيوانا وَ يُمِيتُ الْأَحْيَاءِ كَمَا نَرَى كل يوم، و من زعم انه قادر على الإمامة فقد أخطأ، فإنه قادر على إيجاد بعض الأسباب أما الإمامة فإنها من الله سبحانه، كما أن من زعم أنه قادر على الإحياء - بإلقاء الماء العفن فى مكان حتى يولد البعوض - فقد أخطأ وَ لَهُ أَى بخلقه و تقديره اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أى مجيء أحدهما خلفه للآخر، يقال اختلفا، إذا جاء أحدهما خلف الآخر، كما قال سبحانه (وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) «١» أَ فَلَا تَعْقِلُونَ؟ أى تعملون عقولكم و تفكرون فى هذه النعم الباهرة، إنها لا بد لها من إله قادر عالم متفضل حكيم.

[٨٢] إن الكفار أعرضوا عن كل هذه الآيات و جميع هذه النعم بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ المنكرون للمبدأ و المعاد.

[٨٣] و ماذا قال الأولون و اتبعهم هؤلاء فى تلك المقالة؟ قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا بكسر الميم من «مات» «يميت» على وزن «باع يبيع» وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَى كانت أبداننا ترابا، و بقيت عظامنا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ نحى للحساب؟

(١) الفرقان: ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦)

[٨٤] لَقَدْ وُعِدْنَا بهذا البعث، و عدونا الأنبياء عليهم السلام نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ أى من قبل و عدك لنا، و عد الأنبياء عليهم السلام

آباءنا إن هذا أى ما هذا الوعد بالبعث إلا أساطير الأولين الأسطورة هي القصة التي لا حقيقة لها، يعنى إن هذه الإخبارات حول المعاد، ليست إلا أكاذيب لفقها الأولون، و اتخذتها أنت يا محمد.

[٨٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَبْعِدُونَ الْحَشْرَ وَالْحِسَابَ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ، فَلَقَدْ كَانُوا مِضْطَرِبِي الْعَقِيدَةِ، فَحَسَمَ مِنْهُمْ يَعْتَرِفُ بِاللَّهِ وَمَعَ ذَلِكَ يَتَّخِذُ الْأَصْنَامَ، وَلِذَا أَرَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يَسْتَدْرَجَهُمْ لِيَعْتَرِفُوا بِمَا هُوَ مُسْلِمٌ فَيُرْدهُمْ بِذَلِكَ عَنْ غِيهِمْ، وَلِذَا أَخَذَ يَسْأَلُهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِلًا: لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟ فَمَنْ خَلَقَهَا وَمَنْ مَالِكُهَا، وَكَذَلِكَ مِنْ خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَنْ مَالِكُهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَجِيبُونِي عَنْ هَذَا السُّؤَالِ.

[٨٦] سَيَقُولُونَ فِي الْجَوَابِ، إِنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِ«السَّيْنِ» إِفَادَةٌ لِتَفْكَرَهُمْ مِقْدَارًا قَلِيلًا حَتَّى يَقُولُوا هَذَا الْجَوَابَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ حِينَ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهَا لِلَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لَيْسَ لِلْأَصْنَامِ نَصِيبٌ فِي الْخَلْقِ، فَلَمَّا ذَا تَتَّخِذُونَهَا آلِهَةً، وَإِنْ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَكَيْفَ لَا تَعْتَرِفُونَ بِالْمَعَادِ.

[٨٧] وَإِذَا أَجَابُوا حَوْلَ الْأَرْضِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمْ، فَلْيَتَوَجَّهْ السُّؤَالُ إِلَى السَّمَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؟ وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعَةٌ وَمَنْ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ أَيْضًا بِوُجُودِ الْعَرْشِ، لَمَّا تَرَسَخَ فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْ آثَارِ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ.

[٨٨] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ كُلُّ ذَلِكَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ حِينَ أَجَابُوا أَفَلَا تَتَّقُونَ أَى الْأَتَّخَفُونَ مِنْ هَذَا الْإِلَهِ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ يَعْمَكُمْ بِعَذَابٍ إِنْ خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ وَاتَّخَذْتُمْ مَعَهُ شُرَكَاءَ، وَانْكَرْتُمْ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ؟.

[٨٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ الْمَلَكُوتِ مَبَالِغُهُ فِي الْمَلِكِ، كَالْجَبْرُوتِ مَبَالِغُهُ فِي الْجَبْرِ، وَالْمَرَادُ بِمَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ مَلِكُهُ وَجَمِيعُ شُؤُونِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الشُّؤُونَ الَّتِي تَتَّغَيَّرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهَا مَالِكٌ وَمَتَّصِرٌ وَهُوَ يُجِيرُ أَى يَغِيثٌ مِنْ يَشَاءُ، وَيَحْفَظُهُ مَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَوْءٌ، يُقَالُ: أَجَارَهُ، إِذَا آمَنَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ الْمَتَّوَجَّهِ إِلَيْهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ أَى لَا يَحْفَظُهُ أَحَدٌ مِنَ السَّوْءِ إِذَا أَرَادَ بِشَخْصٍ سَوْءًا، فَلَوْ أَرَادَ -مِثْلًا- زَيْدٌ بِمُحَمَّدٍ سَوْءًا، أَجَارَهُ اللَّهُ مِنْ زَيْدٍ، أَمَا لَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِرَجُلٍ سَوْءًا، فَلَا شَخْصٌ يَحْفَظُ ذَلِكَ الرَّجُلَ مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، فَأَجِيبُونِي؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٩ الى ٩١]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)

[٩٠] سَيَقُولُونَ فِي الْجَوَابِ لِلَّهِ أَى أَنْ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَالْإِجَارَةُ وَالْبَطْشُ الشَّدِيدُ الَّذِي لَا يَجَارُ مِنْهُ، كُلُّهَا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ حِينَ أَجَابُوا بِذَلِكَ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ أَى كَيْفَ يَخِيلُ إِلَيْكُمْ الْحَقُّ بَاطِلًا، وَالصَّحِيحُ فَاسِدًا، إِنَّكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْاعْتِرَافَاتِ كَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَتَنْكُرُونَ قُدْرَتَهُ عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ، مَخْدُوعِينَ بِالتَّقَالِيدِ، كَالْإِنْسَانَ الْمَسْحُورَ الَّذِي يَخِيلُ إِلَيْهِ الْبَاطِلُ وَيَعْرُضُ عَنِ الْحَقِّ.

[٩١] بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ أَى جِئْنَا إِلَيْهِمْ مَا هُوَ حَقٌّ وَوَاقِعٌ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ، وَلَمْ نَأْتِهِمْ بِالْكَذِبِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي مَقَالِهِمْ، وَهَذَا مِقَابِلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّ الرَّسُولَ كَاذِبٌ، أَوْ «أَنَّهُمْ» عَطَفَ عَلَى «بِالْحَقِّ» أَى أَتَيْنَاهُمْ وَبَيْنَا لَهُمْ «أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» لَكِنَّهُمْ يَصْرُونَ عَلَى كَذِبِهِمْ.

[٩٢] مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ كَمَا يَزْعُمُ النَّصَارَى إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَيَزْعُمُ الْيَهُودُ إِنَّ عَزِيرَ ابْنَ اللَّهِ، وَيَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَ«مَنْ» لِتَقْوِيَةِ تَعْمِيمِ النَّفْيِ، فَلَوْ كَانَ الْمَرَادُ «التَّبْنِي» كَانَ الْمَعْنَى إِنَّهُ خِلَافُ الْوَاقِعِ، وَلَوْ كَانَ الْمَرَادُ «لِلْوَلَادَةِ» كَانَ الْمَعْنَى إِنَّهُ

مستحيل و ما كَانَ مَعَهُ أَي مَعَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ إِلِهِ شَرِيكًا لَهُ إِذَا أَي إِذَا كَانَ مَعَهُ إِلَهُ آخَرَ لَمَذَهَبَ كُلِّ إِلِهِ بِمَا خَلَقَ أَي مِيزَ كُلَّ إِلَهُ مَا خَلَقَهُ عَمَّا خَلَقَ الْإِلَهَ الْآخَرَ حَتَّى يَسْتَقِلَّ بِهِمْ، وَ يَمْنَعُ الْإِلَهَ الْآخَرَ عَنِ الْاِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِمْ، وَ هَذَا كَمَا يُقَالُ «ذَهَبَ كُلُّ رَئِيسٍ مَعَ أَتْبَاعِهِ» وَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣)

تشبيه بالذهاب في الأرض الموجب لتمييز الفرق بعضها من بعض و لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَي طَلَبَ بَعْضُ الْآلِهَةِ قَهْرَ بَعْضٍ وَ الْغَلْبَةُ عَلَيْهِ، لِيَسْتَقِلَّ هُوَ بِالْمَلِكِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمَلُوكُ فِي الدُّنْيَا، لَا يُقَالُ أَنَّ حَكْمَتَهُمْ مَانِعَةٌ عَنْ ذَلِكَ؟ لِأَنَّ نَقُولَ تَعَدَّدِ الْإِلَهَ مُوجِبٌ لِإِمْكَانِ الْآلِهَةِ، وَ الْإِمْكَانُ يَلْزِمُ صِفَاتَ الْمُمْكِنِ الَّتِي مِنْهَا حُبُّ الْاِسْتِعْلَاءِ وَ الْغَلْبَةُ بِتَوَابِعِهِ، وَ قَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى دَلِيلِ التَّمَانَعِ فِي بَعْضِ السُّورِ الْمَتَقَدِّمَةِ سُبْحَانَ اللَّهِ أَي أَنْزَهُ اللَّهُ تَتْرِيهَا عَمَّا يَصِفُ الْإِلَهَ بِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ «لَهُ وَلَدٌ» وَ «لَهُ شَرِيكٌ» فَإِنَّ هَذَا تَوْصِيفُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْوِلَادَةِ وَ التَّنْبِي وَ بِالشَّرِيكِ.

[٩٣] إِنَّهُ سَبْحَانَهُ عَالِمِ الْغَيْبِ أَي مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ وَ الشَّهَادَةِ أَي مَا حَضَرَ لَدَى الْحَوَاسِ، بَأَنَّ كَانَ مَرْتَبًا أَوْ مَسْمُوعًا، أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ عَالِمُ كُلِّ غَيْبٍ وَ شَهَادَةٍ، وَ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهُ آخَرَ لَعَلَّمَ ذَاكَ، كَمَا يَعْلَمُ هَذَا فَتَعَالَى أَي ارْتَفَعَ - وَ لَيْسَ فِي الْفِعْلِ مَعْنَى الزَّمَانِ، كَمَا هُوَ كَذَلِكَ فِي كُلِّ فِعْلٍ يَجْرِي عَلَيْهِ فِيمَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ، نَحْوُ «عِلْمٌ» وَ «قَدْرٌ» وَ مَا أَشْبَهَهُمَا - عَمَّا يُشْرِكُونَ أَي عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يُشْرِكُونَ الْإِلَهَ بِهِ، أَوْ تَعَالَى عَنْ شَرِكِهِمْ، فَهُوَ أَعْلَى مِمَّا يَزْعَمُ شَرِيكًا لَهُ.

[٩٤] وَ حَيْثُ لَمْ يَنْفَعِ فِي الْقَوْمِ الدَّلِيلُ، يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، مَرشِدًا لَهُ، أَنْ يَدْعُو اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْ لَا يَشْمَلَهُ الْعَذَابُ الَّذِي يَأْخُذُ الْقَوْمَ - إِنْ قَدَرَ لَهُمْ عَذَابٌ - بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَ إِصْرَارِهِمْ فِي الْعِنَادِ قُلْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ إِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا رَبِّ إِنَّمَا أَصْلُهُ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ وَ «مَا» الزَّائِدَةُ الَّتِي جِيءَ بِهَا لِلتَّقْلِيلِ تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ أَي إِنْ أُرَيْتُنِي مَا يُوعَدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَ النِّقْمَةِ.

[٩٥] يَا رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بَلْ أَخْرَجْنِي مِنْ بَيْنِهِمْ عِنْدَ مَا تُرِيدُ إِحْلَالَ الْعَذَابِ بِهِمْ، لِثَلَا يَصِيْبُنِي مَا يَصِيْبُهُمْ، وَ هَذَا الدُّعَاءُ فِي مَوْرَدِهِ، إِذْ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَعْمَ الْكَارِثَةُ الصَّالِحِينَ، لِيَكُونَ زِيَادَةٌ لِأَجْرِهِمْ وَ رَفْعَةٌ لِدَرَجَتِهِمْ، وَ فِي الْآيَةِ تَعْرِيفٌ بِالْكَفَّارِ بِأَنَّهُمْ حَيْثُ أَصْرُوا عَلَى الْعَصِيانِ وَ الطَّغْيَانِ، صَارُوا مُعْرَضًا لِعُقُوبَةِ اللَّهِ وَ عَذَابِهِ.

[٩٦] وَ إِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَعِدُهُمْ أَي مَا نَعِدُ الْكُفَّارَ مِنَ الْعَذَابِ وَ النِّكَالِ لَقَادِرُونَ وَ إِنَّمَا نَمْهَلُهُمْ اسْتِدْرَاجًا (وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ) «١».

[٩٧] وَ إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ يَصْرُونَ فِي الْعِنَادِ، وَ يَتَصَدَّدُونَ لِلنَّبِيِّ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيْدَاءِ، أَمْرُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَدَارِيَهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْثَرَ نَجَاحًا لِلدُّعْوَةِ، وَ خَيْرٌ لِتَخْفِيفِ الْأَذَى، فَإِنَّ الظَّالِمَ لَا يَجِدُ عَذْرًا فِي إِدَامَةِ ظُلْمِهِ لَوْ رَأَى مِنَ الطَّرْفِ اللَّيْنِ اذْفَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ السَّيِّئَةِ الَّتِي يُوَاجِهُونَكَ بِهَا، وَ ذَلِكَ بِالْإِغْضَاءِ وَ الْعَفْوِ، وَ قَدْ يُقَالُ: إِنْ الْأَحْسَنُ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَقْتَضِي الْحَالَ مِنَ الْعَفْوِ

(١) الأنفال: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)

أو النكال، فإن الأحسن بالنسبة إلى بعض العفو، و بالنسبة إلى آخرين الأخذ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ الله و الرسول و الرسالة و القرآن و المعاد به فهم تحت علمنا و سنجازيهم على ما يصفون، و هذا تسلية للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تهديد لهم، فإن معنى قول الملك «أنا أعلم ما يفعله المجرم» إنه سيجازيهم بفعله السيئ.

[٩٨] إنهم إنما يصفون ما يصفون من إلقاءات الشياطين و وساوسهم، فمن الجدير بالرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم - و إن كان معصوما في ذاته - أن يستعيد بالله من الشيطان كي لا يهزمه، بل لا يحضر عنده مجرد حضور، فإن حضور الشيطان مكروه لذاته، فإنه يهزم الكفار، و يلقي عليهم الكفر مستمرا، حتى أن يأتيهم الموت و هناك يقولون رَبِّ ارْجِعُونِ بلا جدوى ف قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ أَيَّ أَعْتَصِمُ و ألوذُ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ حتى لا يتمكن الشيطان من همزي، و الهمز شدة الدفع، فإن الشيطان يدفع الإنسان دفعا قويا نحو الكفر و المعاصي، و لذا يجد العاصي من نفسه اندفاعا شديدا نحو العصيان.

[٩٩] و أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ أَيَّ يَحْضُرُونَ أي يحضرون عندي، فإن حضور الشيطان مكروه، لما له من الشقوة و البعد من الرحمة و إن لم يهزم و لم يوسوس.

[١٠٠] لكن الشيطان يحضر الكفار و العصاة، و يدفعهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٩

[سورة المؤمنون (٢٣): آية ١٠٠]

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ «الموت» فاعل «جاء» قَالَ ذَلِكَ الْكَافِرُ و العاصي - الذي عبر عنه ب «أحدهم» - و قوله هذا إنما يكون إذا أشرف على الموت و رأى آثاره، يَا رَبِّ ارْجِعُونِ و الإتيان بالجمع على العادة في التأدب عند مخاطبة الكبراء.

[١٠١] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ أَيَّ فِي تَرَكْتِي بَأْنٍ أودى حق الله أو في ما تركت من الدنيا، بَأْنٍ أعمل حسب أوامر الله، و لفظه «ارجعون» و «تركت» باعتبار إشرافه على الآخرة، و إلا فهو بعد في الدنيا، و إنما يرى الملائكة، و هو أخذ في مقدمات العز، أو أن ذلك القول بعد قبض روحه، و معنى «جاء» أنه مات، و الجواب لهذا الطلب كَلَّا لا رجوع إلى الدنيا إِنَّهَا أَيَّ مَسْأَلَةُ الرَّجْعَةِ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا لا فائدة فيها، و لا - أثر يترتب عليها، أو المراد أنه وعد كاذب، إذ (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ و إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) «١» و مِنْ وَرَائِهِمْ و إنما جيء بهذا التعبير، لأن وجهه إلى الدنيا، فكأن ما يأتي خلفه و وراءه بَرْزَخٌ و هو العالم المتوسط بين هذا العالم و عالم الآخرة، و البرزخ - لغه - بمعنى الحاجز بين شيئين إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فهم في العذاب و النكال هناك، و كان الإتيان بهذا، لثلا يظن ظان، أنهم معدومون، حتى يبعثوا، فليس لهم تعب و عذاب في هذه القطعة، فإن

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠١ إلى ١٠٣]

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ و لَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) و مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)

قبر الكافر حفرة من حفر النيران.

[١٠٢] فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ «الصور» هو البوق الذى ينفخ فيه ميكائيل معلنا قيام الساعة فلا أنساب بينهم يومئذ أى يوم النفخ، و الأنساب جمع نسب، و هو صلة الإنسان مع غيره بالأبوة و النبوة، و ما أشبههما، و المراد أن الأنساب لا تنفع هناك للنجاه من العذاب، فنفى الحقيقة باعتبار نفى الصفة نحو «يا أشباه الرجال، و لا رجال» و لا يتساءلون أى لا يسأل بعضهم بعضا عن شىء، فقد ساد الموقف سكون الخوف، و سكوت الخشية حتى لا- يتجرأ أحد على الكلام، و حيث إن مواقف القيامة كثيرة، لم يكن تناف بين السكوت و عدم التساؤل فى موقف، و بين التكلم و التساؤل فى موقف آخر.

[١٠٣] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ «موازن» جمع «ميزان» و المراد، ثقل الميزان بالطاعات، و لعل الإتيان بالجمع، لأن لكل عمل ميزانا، فللصلاة ميزان، و للزكاة ميزان، و هكذا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالدرجات الرفيعة.

[١٠٤] وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ بأن ارتفعت كفه الصالحات، و ثقلت كفه السيئات فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فكأنهم باعوا نفوسهم بالمعاصى، فذهبت نفوسهم من أيديهم، فهم فى تعب، و فى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٤ الى ١٠٨]

تَلَفُّحٌ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقَاتُ اللَّهِ وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسأُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

باقون أبد الأبدين، فى مقابل المؤمنين الذين أعطوا الطاعة، و أخذوا النفوس، فربحوا نفوسهم، فهم فى نعيم مقيم.

[١٠٥] تَلَفُّحٌ وَجُوهَهُمُ أى وجوه الخاسرين النار فاعل تلفح، و اللفح ضرب السموم للوجه، أى يصيب وجوههم لفتح النار و لهيها و هم فيها أى فى النار كالحوت من كلح، و الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان، حتى تبدو كالرأس المشوية.

[١٠٦] و هناك يشتمون ليزداد عذابهم الروحي على عذابهم الجسمي، فيقال لهم أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي وَ أدلتى تُتْلَى عَلَيْكُمْ و تقرأ عندكم، و الاستفهام تقريرى توبيخى فَكُنْتُمْ بِهَا أى بالآيات تُكذِّبُونَ فدوقوا جزاء تكذيبكم.

[١٠٧] قَالُوا فى الجواب، يا رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقَاتُ اللَّهِ فَقادتنا أنفسنا الأماره إلى هذا الشقاء وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ عن الطريق، يقولون هذا حيث لا مجال هناك إلا للاعتراف، يريدون بذلك الاسترحام.

[١٠٨] يا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا من النار فَإِنْ عُدْنَا إلى الكفر و التكذيب و العصيان فَإِنَّا ظَالِمُونَ لأنفسنا بعد ذلك، و لا حجة لنا أبدا، و هم يظنون بذلك أنهم يغرون الله سبحانه.

[١٠٩] قَالَ اللهُ سبحانه، أو المالك للنار، و هو الملك بها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

اخْسأُوا فيها أى فى النار، أى ابعدوا بعد الكلب، فإن هذه اللفظة لزجر الكلاب، و إنما يقال لهم للإهانة و الإذلال وَ لَا تُكَلِّمُونِ أى لا تكلموننى، فأنتم لا تستحقون الخطاب و المكالمه، ألم تكونوا تستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا؟ فهذا جزاء كم فى الآخرة.

[١١٠] ألا تذكرون إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ أى جماعة من عِبَادِي يَقُولُونَ فى الدنيا يا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أى كانوا يدعون بهذا الدعاء، بعد أن آمنوا بالله سبحانه، و عملوا الصالحات، و الفريق هم الأنبياء و الأئمة و المؤمنون.

[١١١] فَاتَّخَذَتْهُمْ سِحْرِيًّا أَي كُنْتُمْ تَسْخَرُونَ وَ تَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُمْ، مَنْسُوبٌ إِلَى السِّخْرِ، وَ هُوَ مَنْ يَسْخَرُ بِهِ، وَ كَانَ النِّسْبَةُ لَزِيَادَةِ الِاسْتِهْزَاءِ، فَإِنَّ السِّخْرَةَ يَهْزَأُ بِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ؟ حَتَّى أَنْتَوُكُمْ أَوْلَيْكُمْ الْفَرِيقِ ذِكْرِي فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اشْتَعَلَ بِالسِّخْرِ نَسِيَ الذِّكْرَ وَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَ إِنَّمَا نَسِبَ النَّسِيَانُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ السَّبَبُ فِي التَّمْسِخْرِ الْمَوْجِبِ لِنَسِيَانِ الذِّكْرِ وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ أَي مِنْ أَوْلَيْكُمْ الْفَرِيقِ تَضَحُّكُونَ وَ مَعْنَى «مِنْهُمْ» مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَ أَقْوَالِهِمْ.

[١١٢] إِنِّي جَزَيْتُهُمْ أَي أَعْطَيْتُ جَزَاءَ أَوْلَيْكُمْ الْفَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَي بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى التَّكَالُيفِ، وَ عَلَى تَحْمِلِ تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٦٧٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٢ الى ١١٤]

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسِئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)

سخرتكم أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ بِمَا أَرَادُوا، فَجَزَاؤُكُمْ النَّارَ، وَ جَزَاؤُهُمُ الْفَوْزَ وَ الْجَنَّةَ.

[١١٣] ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْكُفَّارِ لَزِيَادَةِ تَقْرِيعِهِمْ وَ بَيَانِ أَنَّهُمْ إِنَّمَا عَصَوْا وَ أَلْفَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي هَذَا الْعَذَابِ، لَوْ قَدْ قَلِيلٌ فِي عَمْرِ الدُّنْيَا قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ مَكْتُمِينَ وَ بَقِيتُمْ أَي فِيهَا الْكُفَّارُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ أَي مِنْ جِنْسِ هَذَا الْعَدَدِ مُقَابِلِ عَدَدِ الْأَيَّامِ وَ عَدَدِ الشُّهُورِ.

[١١٤] قَالُوا وَ قَدْ نَسُوا مِقْدَارَ بَقَاءِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَضُولٌ فِي أَعْيُنِهِمْ مَدَّةُ الْبَقَاءِ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ لِنَسِيَانِهِمُ الْمِقْدَارَ، أَوْ قَالُوهُ مُجَازًا، تَقْلِيلًا لِمَدَّةِ الْمَكْثِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ إِذَا مَضَى يَرَاهُ الْإِنْسَانُ قَلِيلًا فَسِئَلِ يَا رَبِّ عَنْ مَدَّةِ مَكْثِنَا الْعَادِّينَ أَي الْحَسِيْبَاتِ الَّذِينَ قَدْ عَدُوا، فَإِنَّا لَا نَدْرِي أَيُّ يَوْمًا بَقِينَا، أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ؟ وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ الْمَرَادَ سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ الْمُؤَكِّدِينَ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عَدُوا أَعْمَارَهُمْ وَ سَاعَاتِهَا؟

[١١٥] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، مَظْهَرًا، أَنَّ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِقْدَارَ الْمَكْثِ بِالسَّنِينَ وَ الشُّهُورِ، وَ إِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِالسُّؤَالِ أَنَّ بَقَاءَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَانَ قَلِيلًا فَقَدْ أَذْهَبْتُمْ الْآخِرَةَ لِأَجْلِ شَهْوَاتِ زَائِلَةٍ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ الْقَلِيلَةِ إِنْ لَبِثْتُمْ أَي مَا كُنْتُمْ وَ بَقِيتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَلِيلًا وَ لَوْ كَانَ سِنُونَ لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ تَحْسِنُونَ التَّقْدِيرَ، لَعَلِمْتُمْ أَنَّ بَقَاءَكُمْ فِي الدُّنْيَا

تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٦٧٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٥ الى ١١٧]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)

قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ الَّتِي لَا فَنَاءَ لَهَا وَ لَا زَوَالَ.

[١١٦] أَفَحَسِبْتُمْ وَ ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا بِاطْلَا- وَ لَغْوًا، فَلَا- حِسَابَ وَ لَا- ثَوَابَ وَ لَا- عِقَابَ وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ وَ الْمَرَادُ إِلَى حِكْمَتِنَا وَ جَزَاءِنَا، إِنْ ظَنَنْتُمْ ذَلِكَ بَاطِلًا كَذِبًا، وَ هَذَا إِذَا كَلَّمَ مُسْتَأْنَفَ خُطَابٍ لِلْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ عَطْفَ عَلَى السَّابِقِ، وَ أَنَّهُ فِي جُمْلَةِ الْكَلَامِ الَّذِي يُقَالُ لِلْكَفَّارِ فِي الْآخِرَةِ [١١٧] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ وَلَدٌ- وَ هَذَا رُجُوعٌ إِلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ حَوْلَ نَفْيِ الْوَلَدِ وَ الشَّرِيكِ- أَنَّهُ هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ، وَ مَا سِوَاهُ مِنْ دُونِ الْآلِهَةِ مُلُوكٌ بَاطِلَةٌ مَوْهُومَةٌ، لَا حِصَّةَ لَهَا مِنَ الْمَلِكِ وَ الْخَلْقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ حُدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعَرْشِ أَي الْمَلِكِ، أَوْ الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ تَشْرِيفِي لَهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مَلَازًا لِلْمَلَائِكَةِ، كَمَا خَلَقَ الْكَعْبَةَ مَلَازًا لِلنَّاسِ الْكَرِيمِ فَإِنَّ لِلْعَرْشِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَ الْعِظَمَةِ قَدْرًا كَبِيرًا.

[١١٨] وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بَأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ شَرِيكًا لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ أَي فِي حَالِ كَوْنِهِ لَا حِجَّةَ وَ لَا دَلِيلَ لِلدَّاعِي بِذَلِكَ إِلَهًا ثَانِيًا فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَي أَنَّ مِقْدَارَ جَزَاءِ سَيِّئِهِ فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ الْبَاطِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ، بِأَنَّهُ تَعَالَى سَوْفَ يَحْسَبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٥

[سورة المؤمنون (٢٣): آية ١١٨]

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

حسابا عسيرا إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ أى لا يفوزون، و لا يخلصون من العقاب.

[١١٩] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَبِّ اغْفِرْ الذُّنُوبَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الْغَفَّارُ، وَ لَا شَفَعَاءَ مِنْ دُونِكَ، كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ وَارْحَمْ أَى تفضل بالرحم و الخير، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّاحِمِ الْمُتَفَضَّلُ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أَفْضَلُ الْمُنْعَمِينَ وَ أَكْثَرُهُمْ فَضْلًا، بَلْ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْكَ، وَ إِنَّمَا غَيْرِكَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَكَتْهُ، فَأَنْتَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ، وَ إِنْ إِلَيْكَ الْمَرْجِعُ، وَ إِنَّكَ الْغَافِرُ الرَّاحِمُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٦

٢٤ سورة النور مدنية / آياتها (٦٨)

سميت السورة بالنور، لاشتمالها على هذه اللفظة، و هى كسائر السور المدنية تتعرض إلى النظام، و تشريع القوانين، و لما اختتمت سورة المؤمنين، بأن الله سبحانه لم يخلق الخلق للعبث بل للأمر و النهى، ابتدأت هذه السورة بذكر الشرائع و فرض النظام الاجتماعى.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ استعانه باسم الإله، الذى يعين الإنسان، إذا استعان به، و هو رحمن رحيم، يرحم و يتفضل بما هو أهله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

[٢] هذه سُورَةُ السُّورَةِ مأخوذة من سور البناء، و هو ارتفاعه، و منه يسمى سور البلد سورا، و إنما سميت سور القرآن بها، لأنها مرفوعة فى النفوس، أو لأنها محيطه بجملة من العقيدة و الآداب أنزلناها أى أنزلنا هذه السورة، و الإنزال، إما باعتبار مجيئها من فوق، إذ الملك يهبط عن السماء، أو باعتبار أنها جاءت من طرف العلى الأعلى و فرضاها أى أوجينا العمل بها، و لعل هذا التأكيد لاشتمالها على الحد و ما أشبهه، مما يحتاج إلى التأكيد البليغ، فإن الفرائض الشديدة تحتاج إلى قوة فى البيان، حتى تحفز تلك القوة على تطبيقها و أنزلنا فيها فى هذه السورة آيات بَيِّنَاتٍ واضحات ظاهرات، و الظرف باعتبار المجموع، المظروف باعتبار كل قطعة قطعة، و آية آية لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى لكى تتذكروا، ما هو كامن فى فطرتكم من الأمور المرتبطة بالعقائد و الآداب و الأنظمة، فإن الله سبحانه جعل فى النفس فطرة المعارف، كما جعل فيها فطرة الآداب، و إن كانت مجملته تحتاج إلى الشرح و البيان و ذكر المزايا التى لا تصل الفطرة إليها بمجردها.

[٣] و بعد تلك المقدمة الشديدة، يأتى النظام الصارم لمن ينحرف عن العفاف الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي و لعل تقديم «الزانية» لكون عملها أشنع، و لأن العطف نحوها أكثر، لرقه جنس المرأة فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، و ذلك بضربهما بالجلد، الذى هو عود طويل على رأسه خيط طويل من الجلد، يؤلم الجسم كثيرا، يستعمله فى هذا الزمان أهل الأفراس و العرييات، و لا يخفى أن هذا الحكم إنما هو مقيد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٨

[سورة النور (٢٤): آية ٣]

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

بعض القيود المستفاد من الشرع- كما هو مذكور في كتاب الحدود- ولا تأخذكم أيها الحكام المجرون للحد بهما أى بأى من الزانى و الزانية رَأْفَةً أى شفقة و رحمة فى دِينِ اللَّهِ أى فى هذا الحد المرتبط بالدين، الذى أنزله الله من السماء إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أى تعتقدون بالله، و تقرون بالبعث و النشور وَ لِيُشْهَدَ أى اللزوم أن يحضر عذابهما أى فى حال جلد الزانية و الزانى طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى جماعة منهم، ليكون أردع للزناه، حيث يرون العذاب و الفضيحة، و ينشر الخبر بسبب أولئك مما شاهدوه عيانا، و من الغريب أن بعض الغربيين- الذين أباح قانونهم التنكيل بالبشر، بما لا يتحمل الإنسان على مجرد سماعه، كاستعمال الكلابيب للجسم، و الحقنة بالبيضة و القنينة و الماء الحار، و الحمامات الحارة و الباردة، التى تنقط على رؤوس مجرميهم، و كى البدن بالمكاوى الكهربائية، و أشباهها مما يتقزز منه الجسم، و يستبشعه، حتى من له أقل شعور يعييون على الإسلام مثل هذا القانون المطهر للمجتمع عن كثير من أنواع الفساد و الرذيلة، نعم إنهم أرادوا أن يزنوا فأباحوا ذلك، و عابوا مثل هذا القانون و لو أرادوا الطهارة لرأوا أن هذا القانون هو القانون العادل الذى لا يجد الإنسان مطهرا للمجتمع مثله.

[٤] ثم أراد سبحانه تفضيح الأمر عليهما، فقال الزانى لا يَنْكِحُ أى لا يزنى، و النكاح فى اللغة هو الوطء إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً فَإِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٩

[سورة النور (٢٤): آية ٤]

وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)

المؤمنه العفيفه لا تكون طرفا لزنى الرجل الزانى، و هذا كقوله سبحانه (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَيْثِينَ) «١» وَ الزَانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا أى لا يطأها إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ فَإِنْ الْمُؤْمِنِ الْعَفِيفِ، لا يكون طرفا لزنى المرأة الزانية، و كأن هذا لدحض زعم بعض الناس الذين يتعاطون الزنى، زاعمين أنهم أعفَاء، و إنما طرفهم فقط، رجل سيئ، أو امرأة سيئه، و قد يرى الإنسان رجلا، يدخل بيت الدعارة زاعما أنه يقضى حاجه، و إنما المرأة هى الزانية، أليس هو يقضى حاجه، و هى شغلها الزنى؟ و كذا فى صورة العكس، و قد ذكروا فى سبب نزول الآية ما روى عن الإمامين الباقر و الصادق عليه السلام، قالوا هم رجال و نساء كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مشهورين بالزنى، فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء

«٢»، و فى الآية احتمال آخر و ما ذكرناه هو الظاهر منها بملاحظه بعض القرائن الداخليه و الخارجيه وَ حَرَّمَ ذَلِكَ النكاح للزانى أو الزانية عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فالؤمن لا يكون طرف زانية، و المؤمنه لا تكون طرف زان.

[٥] ثم انتقل السياق إلى حكم من يرمى المؤمنه بالزنى وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ أى يقذفون النساء العفيفات بالزنى، بنسبه الزنا إليهن، و «المحصنه» هى المرأة العفيفه و تسمى محصنه، لأنها أحصنت و حفظت نفسها بالعفاف، و لا مفهوم للآيه حتى يدل على أن رمى غير

(١) النور: ٢٧.

(٢) راجع مستدرک الوسائل: ج ١٤، ص: ٣٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٠

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥ الى ٦]

إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦)

المحصنه لا حكم له، و إنما سمي بالنسبه رميا، لأنها رمى للقول كما أن قذف الحجارة و نحوها رمى للشىء ثم لم يأتوا بأربعة شهداء عدول يشهدون على طبق كلام الرامى، بأنهم رأوا زناها عيانا فَاجْلِدُوهُمْ أى اجلدوا الرامين ثمانين جلدَةً و لا يقبل كلامهم بالنسبه إلى

المقدوفة ولا تقبلوا لهم لأولئك الرامين شهادة أبداً إذا شهدوا على شيء، ردت شهادتهم وأولئك هم الفاسقون فلا يترتب عليهم ما يترتب على العدول، من الائتمام به، و تقليده، و صحة الطلاق عنده، إلى غير ذلك.

[٦] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَادِفِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الرَّمَى وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ، لَمْ يَفْسُقُوا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ يَفْضَلُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ تَقَبَّلَ شَهَادَتَهُمْ وَ لَا يَحْكُمُ بِفَسْقِهِمْ، بَلْ يَجْرِي عَلَيْهِمْ مَا يَجْرِي عَلَى سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

[٧] وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ أَى يَنْسُبُونَ زَوْجَاتِهِمْ إِلَى الزَّنى وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ لَهُمْ عَلَى صِحَّةٍ مَا قَالُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ اسْتِثْنَاءً مَنْقُوعٍ أَى أَنَّهُمْ يَدْعُونَ ذَلِكَ، وَ لَا- شَاهِدَ لَهُمْ، فَالْإِذْمُ أَنْ يَجْلِدَهُمُ الْحَاكِمُ الشَّرْعِيُّ حَدَّ الْقَذْفِ، إِلَّا إِذَا تَدَارَكَ ذَلِكَ بِأَنْ حَلَفَ خَمْسَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨١

[سورة النور (٢٤): الآيات ٧ الى ٨]

وَ الْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨)

أَيْمَان، أَرْبَعُ مَرَاتٍ يَحْلِفُ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَ مَرَّةً يَحْلِفُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَشَهَادَةٌ أَحَدِهِمْ لِدَرْءِ الْحَدِّ عَنْهُ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ أَى يَسْتَشْهَدُ بِاللَّهِ لَصَدَقَ مَقَالَهُ فِي رَمَى الزَّوْجَةِ بِالزَّنى فَيَحْلِفُ أَرْبَعُ مَرَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِي قَوْلِهِ أَنَّهَا زَنْتٌ.

[٨] وَ الشَّهَادَةُ الْخَامِسَةُ الْمَتَمَّةُ لِتِلْكَ الشَّهَادَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَوْجِبَةُ لِرَفْعِ حَدِّ الْقَذْفِ عَنْهُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ أَى طَرَدَهُ عَنِ الرَّحْمَةِ وَ عَذَابِهِ عَلَيْهِ وَ يَأْتِي بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ مَكَانَ الضَّمِيرِ الْغَائِبِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فَيَمَّا رَمَى زَوْجَتَهُ بِهِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَيْمَانُ الْخَمْسَةُ رَافِعَةً لِلْحَدِّ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ مِنْ جِهَةِ قَذْفِ زَوْجَتِهِ بِالزَّنى بَدُونِ شَهُودٍ.

[٩] وَ إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ تِلْكَ الْأَيْمَانَ الْخَمْسَةَ ثَبَتَ الْحَدُّ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَ قَامَتِ تِلْكَ الْأَيْمَانُ مَقَامَ الشَّهَادَةِ الْأَرْبَعِ، وَ لَكِنْ إِذَا حَلَفَتْ هِيَ أَيْضًا خَمْسَةَ أَيْمَانٍ، ارْتَفَعَ عَنْهَا الْحَدُّ وَ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، فَلا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ لَهَا، وَ لا تَحِلُّ هِيَ لَهُ إِلَى الْأَبَدِ وَ يَذْرُؤُا أَى يَدْفَعُ، وَ فَاعِلُهُ «أَنْ تَشْهَدَ» عَنْهَا أَى عَنِ الْمَرْأَةِ الْعَذَابَ أَى حَدَّ الزَّنى الَّذِي ثَبَتَ مِنْ حَلْفِ الرَّجُلِ بِتِلْكَ الْأَيْمَانِ أَنْ تَشْهَدَ الْمَرْأَةُ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ كَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَخَذَهَا شَهِيدًا لَهَا عَلَى بَرَاءَتِهَا، حَيْثُ تَحْلِفُ بِهِ إِنَّهُ أَى الرَّجُلُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَلَمْ تَزِنْ هِيَ، فَتَقُولُ- أَرْبَعُ مَرَاتٍ- أَشْهَدُ بِاللَّهِ، إِنَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٢

[سورة النور (٢٤): آية ٩]

وَ الْخَامِسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فَيَمَّا قَذَفْنِي بِهِ مِنَ الزَّنى.

[١٠] وَ تَشْهَدُ الشَّهَادَةَ الْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِأَنْ تَقُولَ غَضَبَ اللَّهِ عَلَى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الصَّادِقِينَ فَيَمَّا قَذَفْنِي بِهِ مِنَ الزَّنى وَ هَذَا الْحُكْمُ هُوَ الْمَسْمِيُّ بِاللِّعَانِ،

وَ قَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ، مَا ذَكَرَهُ الْقَمِي، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، جَاءَ إِلَيْهِ عُوَيْمِرُ بْنُ سَاعِدَةَ الْعَجْلَانِي وَ كَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ امْرَأَتِي زَنَى بِهَا شَرِيكَ بَنِ سَحْمَاءَ، وَ هِيَ مِنْهُ حَامِلٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعُ مَرَاتٍ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَنْزِلَهُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ اللَّعَانِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ صَلَّى بِالنَّاسِ الْعَصْرَ، وَ قَالَ لِعُوَيْمِرَ ائْتِنِي بِأَهْلِكَ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمَا قِرْآنًا فِجَاءَ إِلَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَدْعُوكَ وَ كَانَتْ فِي شَرَفٍ مِنْ قَوْمِهَا، فِجَاءَ مَعَهَا جَمَاعَةٌ، فَلَمَّا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِعُوَيْمِرَ: تَقَدَّمْ إِلَى الْمَنْبِرِ، فَقَالَ: كَيْفَ اصْنَعُ؟ قَالَ: تَقَدَّمْ وَ قُلْ أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنْ إِذَا لَمِنَ الصَّادِقِينَ فَيَمَّا رَمَيْتَهَا بِهِ، فَتَقَدَّمْ وَ قَالِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَعْدَاهَا، فَأَعَادَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَعْدَاهَا، فَأَعَادَهَا، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعُ مَرَاتٍ، فَقَالَ لَهُ فِي الْخَامِسَةِ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فَيَمَّا رَمَاهَا بِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ

و سلم: إن اللعنة موجبة إن كنت كاذبا ثم قال له: تنح فتحنى، ثم قال لزوجته: تشهدين كما شهد، و إلا أقمت عليك حد الله، فنظرت في وجوه قومها، فقالت: لا أسود هذه الوجوه في هذه العشيء، فتقدمت إلى المنبر، و قالت: أشهد بالله أن عويمر بن ساعدة تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٣

[سورة النور (٢٤): آية ١٠]

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

من الكاذبين، فيما رمانى به، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أعيدتها فأعادتها، حتى أعادتها أربع مرات، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: العنى نفسك فى الخامسة، إن كان من الصادقين فيما رماك به، فقالت فى الخامسة: إن غضب الله على، إن كان من الصادقين فيما رمانى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويلك إنها موجبة لك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزوجها: اذهب فلا تحل لك أبدا، قال: يا رسول الله، فمالى الذى أعطيتها؟ قال: إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه، و إن كنت صادقا، فهو لها، بما استحلك من فرجها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن جاءت بالولد أحمش الساقين، أنفوس العينين، جعد ققط، فهو للأمر السيئ، و إن جاءت به أشهل و أصهب، فهو لأبيه، فيقال إنها جاءت به على الأمر السيئ فهذه لا تحل لزوجها، و إن جاءت بولد لا يرثه أبوه، و ميراثه لأمه، و إن لم يكن له أم، فلاأخواله، و إن قذفه أحد، جلد حد القاذف «١»، أقول: لقد روى فى سبب نزول هذه الآيات، روايات و انتسبت القصة إلى أناس آخرين و لا بعد فى ذلك كله، فكم من قضايا تتعدد، و كم من آية نزلت لأمرين أو أكثر.

[١١] وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِمَنْعِكُمْ عَنِ الزَّنى وَ الْفَوَاحِشِ وَ جَعَلَ الْحُدُودَ عَلَيْهَا وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ كَثِيرُ الرَّجُوعِ عَلَى مَنْ عَصَى وَ تَابَ، حَكِيمٌ ذُو حِكْمَةٍ فِى التَّشْرِيعَاتِ، لِنَالِكُمْ عَنَتِ وَ إِرْهَاقِ فِى الدُّنْيَا، وَ عَذَابِ فِى الْآخِرَةِ فَفَضْلُهُ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا يُوجِبَانِ التَّيْسِيرَ، إِذْ لَوْ لَا الْفَضْلَ لَكَانَ يَحْدُ الْقَاذِفِ أَوْ الْمَقْدُوفَةِ، وَ لَوْ لَا قَبُولَ التَّوْبَةِ لَكَانَ

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٤

[سورة النور (٢٤): آية ١١]

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)

يعاقب المذنب فى الآخرة، و قد حذف جواب لو لا ليرتك فى النفس فراغا يوجب قلقها، حتى يعظم لديها الفضل، و قبول التوبة. [١٢] و بمناسبة ذكر الحد على القاذف يذكر القرآن الحكيم قصة «الإفك» الذى رمى به إحدى زوجتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم و «مارية» أو «عائشة» فقد نسب الخاصة القصة إلى «مارية». و نسب العامة القصة إلى «عائشة» و القصة هى:

قال الإمام الباقر عليه السلام: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حزنا شديدا، فقالت له عائشة، ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريح فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام و أمره بقتله، فذهب على عليه السلام إليه، و معه السيف و كان جريح القبطى فى حائط، فضرب على باب البستان، فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى عليا، عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعا، و لم يفتح باب البستان، فوثب على عليه السلام الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه، و ولى جريح مدبرا فلما خشى أن يرهقه صعده فى نخلة، و صعده على عليه السلام فى أثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال و لا للنساء فانصرف على عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسماز المحمى فى الوبر، أمضى على ذلك أم أثبت؟ فقال: لا تثبت، قال عليه

السلام: و الذي بعثك بالحق ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذي صرف عنا سوء أهل البيت

«١»

و في حديث آخر فأتى به رسول الله، فقال له: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله إن القبط يحبون حشمهم، و من يدخل إلى أهلهم و القبطيون لا يأمنون إلا بالقبطيين

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٥٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٥

فبعثني أبوها لأدخل إليها و أخدمها و أونسها.

أقول: و لقد كان بعث الإمام- على هذا- ليتبين الأمر و إن كان بصورة إن يقتل جريح، أما ما ذكره العامة، فقد قال في الجوامع: إن سبب الإفك، إن عائشة ضاع عقدها، في غزوة بني المصطلق، و كانت قد خرجت لقضاء حاجة فرجعت طالبة له، و حمل هودجها على بعيرها ظنا منهم أنها فيها، فلما عادت إلى الموضع، وجدتهم قد رحلوا و كان صفوان من وراء الجيش، فلما وصل إلى ذلك الموضع و عرفها أناخ بعيره حتى ركبته، و هو يسوقه حتى أتى الجيش، و قد نزلوا في قائم الظهيرة.

أقول: و هناك نسب المنافقون إلى عائشة و صفوان الإثم و أخذوا يثبونه، و قد أطال العامة في الحديث، لكن الغالب أن طرقة غير صحيحة، و من المحتمل وقوع الأمرين كما في كثير من الآيات القرآنية التي يتعدد سبب نزولها إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ أَي بِالْكَذْبِ الْعَظِيمِ الَّذِي قَلْبٌ وَجْهَ الْحَقِيقَةِ، و يقال للكذب الإفك، لأنه يقلب الحقيقة إلى غير واقعه، و أصل الإفك القلب، و لذا قيل لمدائن لوط «مؤتفكات» لأنها قلبت ظهر البطن عَضْبَةً أَي جماعه مِنْكُمْ أَيها المسلمون، و لعل الإتيان بهذه الخصوصية، لإفادة أن الإفك، إنما كان وليد جماعه ذات هدف واحد، فليس كلاما قاله مغرض و إنما حركة مقصودة ضد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فليعرف المسلمون تلك العصبه و ليطلعوا على نواياهم لا تحسبوه أَيها المسلمون شَرًّا لَكُمْ يذهب بشرفكم و رفعه مقامكم و طهارتكم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِذْ يُوجِب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٦

[سورة النور (٢٤): آية ١٢]

لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)

الأجر، و معرفة المنافقين و تمرين الأمة على الصعوبات كما قال الشاعر:

جزى الله النوائب كل خير و إن جرعتني غصص بريقى

أهاجتني زمانا كى ترينى على ملاء عدوى من صديقى

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَي من تلك العصبه التى جاءت بالإفك مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ قدر ما خاض فى الحديث حول المرأة البريئة «مارية» وَ الَّذِي تَوَلَّى أَي تحمل كِبْرَهُ أَي القسط الأكبر مِنْهُمْ أَي من العصبه لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ أَي هو الذى أذاعه و أشاعه و أظهره للمجتمع.

[١٣] ثم عاتب الله سبحانه المسلمين الذين خاضوا فى الحديث بدون دراية و معرفة، و إنما تفكها و حديثا لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ «لولا» للردع، أى هلا حين سمعتم الإفك من القائلين المغرضين ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا فَإِنْ مَارِيَةٌ وَ جَرِيحٌ كَانَا مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا فَإِنْ مَارِيَةٌ وَ جَرِيحٌ كَانَا مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ، و لم يكونا خارجين عن دينهم، و المراد ظنوا بها خيرا، قال الشاعر:

قومى هم قتلوا أميم أحي إذا رميت يصيبنى سهمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٣ الى ١٥]

لَوْ لَا جَاؤَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا- فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضُتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)

وَ قَالُوا حِينَ سَمِعُوا الْخَبْرَ هَذَا إِفْكٌ أَى كَذِبٌ مُبِينٌ ظَاهِرٌ أَى لِمَاذَا لَمْ يَقُولُوا هَكَذَا؟

[١٤] لَوْ لَا جَاؤَ أَى هَلَّا جَاءَتِ الْعَصْبَةُ الْقَازِفَةُ عَلَيْهِ أَى عَلَى الْإِفْكِ الَّذِي قَذَفُوا مَارِيَهُ بِهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ كَمَا هُوَ التَّشْرِيحُ أَنْ يَأْتِيَ الْقَازِفُ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ أَى حِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بِصِدْقِهِمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَنَعُوا هَذَا الْإِفْكَ عِنْدَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ لِأَنَّ الْقَازِفَ يَرْمِي بِالْكَذِبِ حَتَّى يَقِيمَ الشُّهُودَ.

[١٥] وَ لَوْ لَا- فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ بِأَنْ أَمْهَلَكُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَ لَمْ يَعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ لَمَسَّكُمْ أَى أَصَابَكُمْ فِيمَا أَفْضُتُمْ أَى خَضَمْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِفْكِ، وَ الْإِفْاضَةُ فِي الشَّيْءِ الدَّخُولُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ مُؤَلِّمٌ شَدِيدٌ، إِذْ الْإِفْكَ كَانَ كَبِيرًا حَيْثُ إِنَّهُ وَقِيعَةٌ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ وَ شَرَفَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِمَّا يُوْهِنُ طَهَارَةَ الرِّسَالَةِ فِي نَظَرِ النَّاسِ، فَيَقُولُ الْكُفَّارُ وَ الْمُنَافِقُونَ كَيْفَ يَأْمُرُ النَّبِيُّ بِطَهَارَةِ، وَ زَوْجَتُهُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ؟

[١٦] إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ أَصْلُهُ «تَلَقَّوْنَهُ» حَذَفَ إِحْدَى التَّاءَيْنِ عَلَى الْقَاعِدَةِ، فِيمَا إِذَا اجْتَمَعَ فِي أَوَّلِ الْمُضَارَعِ تَاءَانِ، وَ الْمُرَادُ تَلَقَّى بَعْضُكُمْ هَذَا الْإِفْكَ عَنْ بَعْضٍ بِالسُّؤَالِ عَنْهُ وَ جَاءَ «بِأَلْسِنَتِكُمْ» لِيُوضِحَ، إِنْ التَّلَقَّى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٨

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَاهِ الْمَتَعَارِفُ، وَ هُوَ أَخَذَ الشَّيْءَ بِالْيَدِ وَ نَحْوَهَا وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ جَمْعُ فَمٍ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ إِذْ لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَ مَعَ ذَلِكَ كُنْتُمْ تَتَكَلَّمُونَ حَوْلَهُ وَ تَحْسِبُونَهُ أَى تَظُنُّونَ ذَلِكَ هَيِّنًا سَهْلًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ فِي الْوِزْرِ، لِأَنَّهُ كَذِبٌ وَ افْتِرَاءٌ وَ هَتَكٌ عَرَضٌ، وَ إِشَاعَةٌ فَاحِشَةٌ.

[١٧] وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ أَى هَلَّا، إِذْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْإِفْكَ قُلْتُمْ لِمَنْ قَالَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، أَى لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَخُوضَ فِي هَذَا الْأَمْرِ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا هَذَا الَّذِي قَالُوهُ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ أَى كَذِبٌ وَ افْتِرَاءٌ عَظِيمٌ عَقَابُهُ، وَ قَوْلُهُ «سُبْحَانَكَ» لَفْظٌ يَطْلُقُهُ الْإِنْسَانُ لَدَى التَّعْجَبِ وَ الْاسْتِعْرَابِ مِنْ أَمْرٍ.

[١٨] يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَى لثَلَا- تَعُودُوا لِمِثْلِ هَذَا الْإِفْكِ، أَوْ كِرَاهَهُ أَنْ تَعُودُوا أَبَدًا أَى إِلَى الْأَبَدِ، طِيلُهُ أَعْمَارِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ وَ الْمَعَادِ وَ الدِّينِ.

[١٩] وَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى أَوْامِرِهِ وَ نَوَاهِيهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْدُرُ مِنْكُمْ حَكِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٩

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

وَ يَنْهَاهُمْ، فَإِنَّهَا طَبَقُ الصَّلَاحِ وَ الْحِكْمَةِ.

[٢٠] إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ أَى تَنْتَشِرَ وَ تَظْهَرَ الصِّفَةُ الْفَاحِشَةُ، مِنْ فَحْشٍ بِمَعْنَى تَعَدَّى وَ تَسْمَى الْمَعْصِيَةُ الْكَبِيرَةُ فَاحِشَةً، لِأَنَّهَا تَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ كَثِيرًا وَ إِنْ كَانَ كُلُّ عَصِيَانٍ يَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ الْمَقْرُرَةَ، وَ هَلِ الْمُرَادُ بـ «يُحِبُّونَ» مَجْرَدَ الْمَيْلِ الْقَلْبِيِّ حَتَّى يَكُونَ لِهَذَا

الميل إثم، أو هو كناية عن القيام بالإشاعة لما سبق من أن كلا من الفعل و الإرادة يستعمل في الآخر في الَّذِينَ آمَنُوا أى بالنسبة إليهم، بأن يقذفوهم بها، أو يوسعون دائرة القذف، صدقا كان أم كذبا لهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أى مؤلم موجه في الدُّنيا بالجلد و التعزير و الآخِرَةَ بالنار و النكال و اللَّهُ يَعْلَمُ مضار إشاعة الفاحشة، و ما فيها من العقاب و النكال و أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فلا تفعلوا ما لا تعلمون إضراره و عقوباته.

[٢١] وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حيث عفى عنكم، عن هذه الجريمة، و لم يعاجلكم بالعقاب و أمهلكم لتتوبوا وَ أَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ بكم، لأخذكم العذاب في هذه النسبة التي نسبتوها إلى ماريه زوجته النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و قد حذف جواب «لولا» تهويلا، كما تقدم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٠

[سورة النور (٢٤): آية ٢١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)

[٢٢] و بعد أن أتم الكلام حول هذه الوقعة البشعة التي تبع عصبه من المسلمين الشيطان في تلقيها و إشاعتها، خاطب الله سبحانه المؤمنين بصورة عامة، أن لا يتبعوا الشيطان يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ تشبيه بمن يتبع أقدام غيره في السير خلفه، فكأن الشيطان يذهب في طريق العصيان، و العصاة يتبعونه و يجعلون خطواتهم مكان خطواته وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فليعلم إنه أى الشيطان يسلك به في طريق الغواية و الضلال، إذ هو يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ مؤنث أفحش نحو «حمرأه أحمر» أى الصفة التي هي أفحش الصفات الرديئة لأن تعديها عن الحق كثير و الْمُنْكَرِ و هو مطلق الإثم، و خصص «الفحشاء» بالذكر لأن الكلام كان حول «الفاحشة» وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ و لعل الفرق بينهما «حيث يجتمعان» أن الرحمة يراد بها ستر الذنب، و الترحم بجبر المنقصة، و الفضل هو الإعطاء زائدا، مثل من كان له مائة، ثم خسر عشرا، إن أعطيته خمسة عشر و كانت العشرة رحمة، و الخمسة فضلا ما زكى أى ما طهر، و لم ينم في الخير مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا «من» زائدة لتعميم النفي وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي أى يطهر عن المعاصي و الآثام، و يسبب النمو و الزيادة له في الخير مَنْ يَشَاءُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩١

[سورة النور (٢٤): آية ٢٢]

وَ لَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِيَعْفُوا وَ لِيَصْفَحُوا أَلَا تَتُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

من المؤمنين، من الذين ساروا في الطريق، و امتثلوا الأوامر، كما قال سبحانه (وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) «١» وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ يجزيكم على حسبها عَلِيمٌ بضمائركم و نياتكم، فارتقبوا الأقوال و النيات لكي تحظوا برضاه و فضله.

[٢٣] نقل في الجوامع عن بعض أن آية «و لا يأتل» نزلت في جماعة من الصحابة حلفوا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الإفك و لا- يواسوهم و لا- يأتل من الألية- على وزن فعليه، بمعنى اليمين و الحلف أو من «الألو» بمعنى التقصير، أى لا يحلف أو لا يقصر أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ أى الزيادة في أموالهم عن قدر حاجتهم وَ السَّعَةِ أى التوسعة في أرزاقهم أَنْ يُؤْتُوا من فضلهم و سعتهم أُولَى الْقُرْبَى أى أقربائهم فلا- يحلفوا على عدم إعطاء أقربائهم من فضلهم وَ الْمَسَاكِينَ من غير أقربائهم وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْقُرَابَةَ وَ الْمَسْكَنَةَ وَ الْمُهَاجِرَةَ توجب الترحم، و إعطاء الفضل- و إن كان أصحابها، قد أفاضوا في الإفك- وَ لِيَعْفُوا عنهم فيما اقترفوا من الذنب وَ لِيَصْفَحُوا كأنهم يعطون صفح وجههم إلى أولئك فإن من يريد أن يرى الطرف أنه لم ير ما صدر منه أمال وجهه عنه و جعل صفح وجهه إليه أَلَا تَتُحِبُّونَ يَا أَصْحَابَ الْفَضْلِ وَ السَّعَةِ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

(١) العنكبوت: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٢

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٣ إلى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

فكما تحبون مغفرته، اغفروا لمن أساء فمن غفر الناس غفر الله له؟

أو المراد أن الله يغفر لكم إذا غفرت لهم وَاللَّهُ غَفُورٌ لِّلذُنُوبِ رَحِيمٌ بعباده، فتخلقوا بأخلاقه، و تأدبوا بأدبه، و اغفروا لمن أساء يغفر الله لكم.

[٢٤] إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ أَي يَقْذِفُونَ وَيَنْسُبُونَ الزَّانَا إِلَى الْمُحْصَنَاتِ أَي النِّسَاءِ الْعَفَائِلِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، فَهِنَّ فِي غَفْلَةٍ عَنِ الْإِثْمِ، وَإِذَا بَهَنَ يَرِينُ إِصْطِقَ التَّهْمَةَ الْبَشْعَةَ بَهَنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ لُعُنُوا أَي طَرَدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَمْرِهِ سَبْحَانَهُ بِجُلْدِهِمْ عَلَى قَذْفِهِمْ وَالْآخِرَةَ بِالنِّكَالِ وَالْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَهُوَ النَّارُ الَّتِي تَنْضِجُ الْأَكْبَادَ وَالْكُلَى، وَ سَائِرُ مَا أَعَدَّ فِي جَهَنَّمَ مِنَ أَلْوَانِ الْعَذَابِ.

[٢٥] يَوْمَ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَي أَنَّ ذَلِكَ الْعَذَابَ يَكُونُ فِي يَوْمِ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ بِإِنْطِقِ اللَّهِ لَهَا، بَدُونَ أَنَّ يَرِيدُوا الْقَوْلَ هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَ إِنَّمَا يَشْهَدُ لَحْمُ اللِّسَانِ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتَكَبَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، فَتَشْهَدُ اللِّسَانُ - مثلاً - بِأَنَّهَا كَذَبَتْ وَ افْتَرَتْ، وَ تَشْهَدُ الْيَدُ بِأَنَّهَا تَنَاوَلَتْ الْحَرَامَ، وَ الرَّجُلُ بِأَنَّهَا مَشَتْ إِلَى السَّرْقَةِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٣

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقِّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّزُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) «١» وَ فِي آيَةِ أُخْرَى أَنَّهُمْ بَعْدَ أَدَاءِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الشَّهَادَةَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهَا وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

[٢٦] يَوْمَئِذٍ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقِّ أَي يَعْطِيهِمُ اللَّهُ جَزَاءَهُمُ الْعَادِلَ، فَإِنَّ الدِّينَ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ، أَوْ الْمَرَادُ جَزَاءَ دِينِهِمْ، فَالْمَرَادُ بِالذِّينِ هُوَ الْمَعْنَى الْمَتَعَارِفِ، وَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَعْلَمُونَ عِلْمًا وَجَدَانِيًا قَطْعِيًّا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَ أَنَّهُ حَقٌّ يَعْطَى بِالْحَقِّ وَ يِعَاقِبُ بِالْحَقِّ الْمُبِينُ أَي الظَّاهِرَ الَّذِي لَا غَمُوضَ فِيهِ.

[٢٧] إِنَّ النُّفُوسَ الْخَيْثِيَّةَ لَا - تَأَلَّفَ إِلَّا نَفُوسَ النِّسَاءِ الْخَيْثَاتِ، وَ النُّفُوسَ الطَّيِّبَةَ لَا تَأَلَّفَ إِلَّا نَفُوسَ النِّسَاءِ الطَّيِّبَاتِ، فَالزَّانِي لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مَشْرُكَةً، وَ الطَّاهِرُ لَا يَبَاشِرُ إِلَّا طَاهِرَةً مُؤْمِنَةً، وَ هَكَذَا الْعَكْسُ، وَ لَمْ يَكُنْ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَزْنِيَ، وَ لَا لِمُسْلِمَةٍ أَنْ تَزْنِيَ، وَ لَا يُمْكِنُ لِلرَّسُولِ الطَّاهِرِ مِنْ كُلِّ دَنْسٍ، أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ فَاحِشَةٍ زَانِيَةٍ، وَ الْآيَةُ، وَ إِنْ كَانَتْ عَامَةً، إِلَّا أَنَّهَا بِمُنَاسَبَةِ حَدِيثِ الْإِفْكَ الْخَيْثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ، وَ الْخَيْثُ هُوَ ضِدُّ الطَّيِّبِ، وَ هُوَ مَا يَكُونُ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مَكْرُوهٌ، أَوْ عَرَضٌ عَلَيْهِ ذَلِكَ عَرَضًا، فَمَثَلًا الدَّمُ خَيْثٌ، وَ الْمَاءُ الْمَلَقِيُّ لَهُ خَيْثٌ أَيْضًا لِلْخَيْثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْخَيْثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَيْثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

(١) يس: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٤

[سورة النور (٢٤): آية ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)
وَ الطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ الطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ أُولَئِكَ الطَّيِّبَاتُ وَ الطَّيِّبُونَ مُبْرَأُونَ مِنْهُنَّ مِمَّا يَقُولُونَ
فِيهِمْ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَ الْقَذْفِ لَهُمْ مَعْفِرَةٌ أَيْ غُفْرَانٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ سَتْرٌ لَهُمْ عَنِ الْفُضِيحَةِ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فَلَيْسَ مِنْ رِزْقِهِمُ الْخَبِيثُ، وَ إِنَّمَا
رِزْقُهُمْ مَكْرَمٌ لَهُمْ، وَ الرِّزْقُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ عَطِيَّةٍ، وَ مَنَحَةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَ لَوْ زَوْجًا أَوْ زَوْجَةً.

[٢٨] لقد كان في الجاهلية، الرجل يدخل البيت، بلا استئذان، حتى إذا توسطه، قال «دخلت» و ذلك كان خلاف العقل و الأدب، إذ
لعل الرجل مع أهله، أو لعل المرأة عارية تغتسل، أو لعلهم يكرهون أن تقع العين على شيء من أمورهم، و لذا نهى الله سبحانه عن
ذلك، و أتى السياق - بمناسبة حكم الزوجين و القذف - إلى بيان حكم البيت الذي يريد الإنسان أن يدخله، فقال سبحانه يا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ وَ أما بيت الإنسان نفسه، فلا مانع أن يدخل فيه فجأة، و إن كره في بعض الأحوال أيضا، كأن
يطرق الإنسان أهله ليلا حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا الْإِسْتِئْذَانُ، طلب الأئس بالعلم أو غيره، يقال اذهب و استأنس، هل ترى أحدا؟ و المعنى حتى
تستعلموا و تستأذنوا،

و قد روى إن رجلا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: استأذن على أُمِّي؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: نعم، قال: إنها ليس لها
خادم غيري، أفاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: فاستأذن عليها
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٥

[سورة النور (٢٤): آية ٢٨]

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)
وَ تَسَلَّمُوا عَلَى أَهْلِهَا أَيْ عَلَى أَهْلِ الْبُيُوتِ، وَ هَذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الطَّبِيعِيُّ، بَأَن يَسْتَأْذِنُ الْإِنْسَانُ، ثُمَّ يَسَلِّمُ ذَلِكَ الدَّخُولَ
بِالِاسْتِئْذَانِ، ثُمَّ التَّسْلِيمَ وَ «كَمْ» خِطَابٌ خَيْرٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَيْ ذَلِكَ حَسَنٌ، فَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى التَّفْضِيلِ، أَوْ أَنَّهُ تَفْضِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
مَا يَرَى النَّاسُ فِيهِ خَيْرًا مِنَ الدَّخُولِ الْمَجْرَدِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَيْ نَبِّينَ هَذَا الْحُكْمَ لَكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعُوا فِي فِطْرَتِكُمْ، مِنْ كَوْنِ ذَلِكَ
الِاسْتِئْذَانِ مِنَ الْأَدَبِ، وَ أَنَّهُ خَيْرٌ بِخِلَافِ الدَّخُولِ فَجَاءَ.

[٢٩] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَيْ فِي الْبُيُوتِ أَحَدًا بَأَن لَمْ تَعْلَمُوا وَ جُودَ أَحَدًا، كَمَا لَوْ اسْتَأْذَنْتُمْ، فَلَمْ يَظْهَرْ أَنَّ أَحَدًا فِي الْبَيْتِ فَلَا تَدْخُلُوهَا لَا
تَدْخُلُوا تِلْكَ الْبُيُوتِ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ بَأَن يَأْذِنَ لَكُمْ أَرْبَابُ الدَّارِ دُخُولَهَا فِي أَيْ وَقْتُ شَتْمِ، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا وَ إِنْ اسْتَأْذَنْتُمْ دَارًا ف
قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا بِهَذَا اللَّفْظِ، أَوْ بِلَفْظٍ يَفِيدُ مَعْنَاهُ فَارْجِعُوا انْصَرَفُوا، وَ لَا تَلْحَوْا فِي الدَّخُولِ وَ هُوَ أَيْ الْإِنْصِرَافُ، إِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ
كِرَاهِيَةِ دُخُولِكُمُ الدَّارِ أَزْكَى لَكُمْ أَطْهَرُ وَ أَحْسَنُ، وَ لَعَلَّ الْإِنْيَانِ بِلَفْظِ «الزَّكَاةِ» لِمَا فِيهِ مِنْ نَمُو النَّفْسِ بِالْعَفْءِ، وَ نَمُو عِلَاقَاتِ الْحُبِّ بَيْنَ
الْأَفْرَادِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الدَّخُولِ قَهْرًا، أَوْ الْإِنْصِرَافِ عَلِيمٌ فَيَجَازِيكُمْ حَسَبَ أَعْمَالِكُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٦

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)

[٣٠] لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَيْ لَا حَرَجٌ وَ لَا ضَرَرٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَدْخُلُوا بِدُونِ الْإِسْتِئْذَانِ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ أَيْ لَمْ تَعُدْ لِلسَّكْنَى
كَالْخَانَاتِ وَ الْحَمَامَاتِ وَ الْأَرْضِيَّةِ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ أَيْ اسْتِمْتَاعٌ لَكُمْ فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ، وَ هَذَا الْقَيْدُ عَامٌ يَشْمَلُ حَتَّى مَنْ يَرِيدُ التَّفْرِجَ، لِأَنَّهُ
يَسْتَمْتَعُ بِذَلِكَ، أَوْ الْمُرَادُ مِنْهُ بَيَانٌ أَنَّهُ لَا- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْخُلَ مَحَلًّا لَا مَتَاعَ لَهُ فِيهِ فَإِنَّهُ لَعُو وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ أَيْ تَظْهَرُونَ مِنْ
الْأُمُورِ وَ مَا تَكْتُمُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَ تَخْفُونَهَا، فَلَا تَفْعَلُوا مَا يَخَالِفُ أَمْرَهُ، وَ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ لِإِيقَاطِ الضَّمِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ

رقيباً، ليس هو بعين الله الذي يعلم كل ظاهر و خاف.

[٣١] ثم انتقل السياق من حكم البيوت إلى حكم النظر، و هو مرتبط بقصة الحياة العائلية، كما كان الحكمان السابقان من حكم الإفك و القذف، و حكم الاستئذان لدخول البيوت مرتبطين بها نوع ارتباط قُلْ يا رسول الله لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أُنْبُسَارِهِمْ أصل الغض النقصان، يقال: غض من صوته و من بصره، أى قلل منهما و نقص، و المعنى غمض العين عما لا يحل النظر إليه، و إنما جرىء بالغض، و «من» لأذن الصرف عن الحرام لا يتوقف على الغمض، بل على الغض لبعض البصر بأن لا يمد عينه نحو المحرم و يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ عن تعاطى اللواط و الزنا، و ما أشبه ذلك الغض من البصر، و الحفظ للفرج أزكى لَهُمْ أى أظهر عن لوث المعصية، و قد تقدم أن فى تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٧

[سورة النور (٢٤): آية ٣١]

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أُنْبُسَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

أمثال هذا المقام لا- يراد التفضيل من نحو «أزكى» و معنى الزكاة الطهارة و النمو، فإن حفظ العين و الفرج موجب لطهارة النفس، و نمو الأخلاق الرفيعة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ أَى عَالِمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ من النظر أو الغض، و تعاطى الحرام بالفرج و الحفظ.

[٣٢] وَقُلْ يا رسول الله لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أُنْبُسَارِهِنَّ بِأَنْ لَا يَمْدَنَهَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرَ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ بِأَنْ لَا يَتَعَاطَيْنَ الزَّانَا، وَ مَا أَشْبَهَهُ، كَالسَّحْقِ وَ غَيْرِهِ وَ لَا يُبْدِينَ أَى لَا يَظْهَرْنَ عَنْ عَمَدِ زِينَتِهِنَّ الْمَرَادِ، إِمَّا مَوَاضِعَ الزَّيْنَةِ كَالْمَعْصَمِ، وَ الْأُذُنِ، وَ الرَّقْبَةِ، وَ الرَّجْلِ، أَوْ الزَّيْنَةَ نَفْسَهَا، وَ إِذَا صَارَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلاً- وَجِبَ اجْتِنَابُ عَنِ الْأَمْرَيْنِ تَحْصِيلاً لِلْبَرَاءَةِ عَمَّا عِلْمٌ إِجْمَالاً تَحْرِيمُهُ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا أَى مِنَ الزَّيْنَةِ، وَ الَّذِي أَرَاهُ ظَاهِراً مِنَ الْآيَةِ، أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ عَنِ الْإِبْدَاءِ، يَعْنِي، أَنَّ مَا ظَهَرَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِنَّ، لَيْسَ عَلَيْهِ بَأْسٌ، كَمَا إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ فَرَفَعَتْ الْعِبَاءَ وَ أَبَدَتِ الزَّيْنَةَ وَ لِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ جَمْعَ خِمَارٍ وَ هُوَ مَا تَلْفُ الْمَرْأَةُ عَلَى رَأْسِهَا خِمَاراً، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الرَّأْسَ وَ مَا حَوْلَهَا، فَإِنَّ مَادَةَ «خَمْرٍ» بِمَعْنَى السِّتْرِ، وَ مِنْهُ سُمِّيَ «الْخَمْرُ» خِمَاراً، لِسْتَرِهَا الْعَقْلَ، عَلَى جُيُوبِهِنَّ الْجَيْبِ، هُوَ شِقُّ الثَّوْبِ طَرَفِ الصَّدْرِ، وَ ذَلِكَ لِثَلَا يَبْدُو الصَّدْرُ مِنَ الشَّقِّ، أَوْ الْمَرَادُ بِهِ سِتْرُ الْوَجْهِ وَ الصَّدْرُ، فَإِنَّ سِدْلَ طَرَفِ الْخِمَارِ إِلَى الصَّدْرِ، مُسْتَلْزِمٌ لِسِتْرِ الْوَجْهِ، وَ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ اسْتَقْبَلَ شَاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٨

من الأنصار امرأة بالمدينة، و كانت النساء يتقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها و هى مقبله، فلما جازت نظر إليها، و دخل فى زقاق قد سماه لبنى فلان، فجعل ينظر خلفها و اعترض عظم فى الحائط أو زجاجة فشق وجهه، فلما مضت المرأة، نظر، فإذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره فقال: و الله لآتين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و لأخبرنه، قال فأتاه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، قال له ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرائيل بهذه الآية

وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ أَى لَا يَظْهَرْنَ الزَّيْنَةَ «١»، وَ قَدْ كَرَّرَ ذَلِكَ تَأْكِيداً، وَ فِى الْاسْتِثْنَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقاً، فِى مَعْنَى «إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» إِذِ السِّيَاقِ الْوَاحِدِ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَى أَزْوَاجِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَى أَبِ الزَّوْجِ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ وَ يَدْخُلُ فِى الْآبَاءِ الْأَجْدَادِ، وَ فِى الْأَبْنَاءِ الْأَحْفَادِ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ سِوَا مَا كَانَ أَخَا لِلْأَبِ أَوْ لِلْأُمِّ، أَوْ لِلْأَبِيْنَ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ فَهِنَّ عَمَاتٌ لَهُمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ فَهِنَّ خَالَاتٌ لَهُمْ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَى النِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ، أَمَا أَنَّ يَظْهَرْنَ زِينَتَهُنَّ لِنِسَاءِ الْيَهُودِ وَ الْمَجُوسِ وَ النَّصَارَى وَ سَائِرِ الْكُفَّارِ، فَقَدْ أَفْتَى جَمَاعَةٌ بِعَدَمِ حَلِّهِ،

قال الصادق عليه السلام: لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين اليهودية و النصرانية، فإنهن يصفن لأزواجهن

«٢» أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ من النساء الكافرات، فليس

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٢١.

(٢) الكافي: ج ٥ ص ٥١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٩

بأس عليهن أن يظهرن زينتهن إلى تلك الإمام، وإطلاق الآية بالنسبة إلى عبيد النساء مقيد بما

ورد عن الصادق عليه السلام قال: لا يحل للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها، إلا إلى شعرها، غير متعمد ذلك

«١»، أقول: يعنى إذا وقعت عينه عليه، والتخصيص بالشعر لأنه الذى يمكن أن يراه العبد غير متعمد، أما سائر الجسد ففي الغالب كونه

مستورا أو التابيعين أى المولى عليهم من الحمقى و البله و من أشبههما وقيل لهم تابعين، لأنهم يتبعون غيرهم من الأولياء، ثم بين

ذلك بقوله غير أولى الأربيه أى غير أصحاب الحاجة فى النساء، فإن «الأربيه» بمعنى الحاجة من الرجال

قال الباقر عليه السلام فى تفسير الآية: هو الأحمق الذى لا يأتى النساء و قال الصادق عليه السلام: الأحمق المولى عليه الذى لا يأتى

النساء، وإنما أبيض بالنسبة، إليه، لأنه لا يميز بين المرأة و غيرها، فهو كالحيوان

«٢» أو الطفل و المراد به الجنس، و لذا جاء صفة بصيغته الجمع الذين لم يظهروا أى لم يطلعوا من الظهور بمعنى الاطلاع على عورات

النساء لعدم تمييزهم بين العورة و غيرها، أما الطفل الذى قد ظهر فالمفهوم من الآية الحظر منه، و لم يذكر فى الآية الأعمام و الأخوال

للإنسان، أو الأب أو الأم، قيل لدخولهم فى «الإخوان» فإنهم إخوان الأب و الأم، وقيل لفهم ذلك- عكسيا- من بنى إخوانهن، أو بنى

أخواتهن، فإذا حل نظر الولد على عمته و خالته، حل نظر العم

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٢٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٠

[سورة النور (٢٤): آية ٣٢]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٧٤٢

وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

و الخال إلى بنت الأخت و بنت الأخ و لا يضربن النساء بأرجلهن على الأرض ضربا شديدا ليصوت الخلخال فيعلم أى يعلم الرجل

الأجنبى ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ فَإِنْ ذَلِكَ يورث تهيجا فى الرجال، و هل هذا حرام أو مكروه؟ احتمالان و توبوا إلى الله جميعاً أيها

المؤمنون فيما تفرطون من مخالفة المحرمات، و بالأخص محرمات النظر، فإنه كثير الحدوث لعلكم تفلحون أى لكى تفوزوا بسعادة

الدارين ..

[٣٣] و بمناسبة حكم النظر و حفظ الفرج يأتى السياق لبيان بعض الأمور المرتبطة بالنكاح و أنكحوا أيها المسلمون الأيامى منكم جمع

«أيم» و هو الرجل الذى لا زوج له، و المرأة التى لا زوج لها، و المعنى زوجوا أيها المؤمنون رجالكم الذين لا زوجات لهم، و نسائكم

اللاتى لا أزواج لهن.

و قد قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تناكحوا، تناسلوا، تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط «١»

و قال الإمام الصادق عليه السلام: ركعتان يصليهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصليهما أعزب «٢»

وَ أَنْكِحُوا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ أى الذين هم

(١) جامع الأخبار: ص ١٠١.

(٢) الفقيه: ج ٣ ص ٣٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠١

[سورة النور (٢٤): آية ٣٣]

وَلَيْسَ تَعْفِيفِ الدِّينِ لَّا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

صالحون من العبيد والإماء، و هل المراد بالصالحين البالغون الذين يصلحون للنكاح، أو الصالحون من حيث الدين بأن يكونوا مسلمين، أو أن تكون أعمالهم سالحة؟ احتمالات إن يَكُونُوا أولئك الأيامي والعبيد والإماء، فقراء وتخشون زيادة فقرهم بالنكاح، فاعلموا أنه ليس كذلك بل يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وهذا كذلك حسب التجربة، وحسب الموازين الاجتماعية، فإن المتزوج الذي يعلم أن وراءه النفقة يجد أكثر من العزب، كما أن الناس يعطفون عليه أكثر من عطفهم على غيره، هذا مع الغض عن أن يدين عاملتين تأتي بأكثر من ضعف إنتاج يد واحدة، وإن الله سبحانه يوسع بالطرق الغيبية وَاللَّهُ وَاسِعٌ لَطْفُهُ، وهو مجاز من باب نسبة الشيء إلى سببه في اللطف والرزق، وإنما نسب إلى الله تعالى، لأنه السبب عَلِيمٌ بأحوال الناس، فيعلم حال الفقير و يتفضل عليه.

[٣٤] وَلَيْسَ تَعْفِيفِ الاستعفاف هو التعفف بمنع النفس عن الشيء المرغوب فيه، ولعل الإتيان بالفعل من باب الاستفعال للتنبه على طلب العفة، وإن كانت النفس تائفقة شائفقة الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا أَي ما يتوصل به إلى النكاح من المهر والنفقة والزوجة المناسبة، حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بأن يوسع عليهم ما به يتمكنون من الزواج، ولا يدخلون في الفاحشة فإن الصبر وإن كان مرا لکن عاقبته حميدة، وهناك من العبيد من يتمكن من الزواج إن كان حرا لأنه يعمل و يكتسب ما يكفيه و عائلته،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٢

ولا- يتمكن من الزواج وهو تحت رق المولى لأن مولاة فقير لا يملك إعالته وإعالة زوجته، ولذا يحاول أن يفك نفسه بالمكاتبه حتى يتحرر فيتزوج، والمكاتبه هي أن يكتب المولى والعبد كتابا على أن العبد إن دفع إلى مولاة المقدر الكذائي من المال صار حرا، وله أقسام وأحكام، وإذا طلب العبد ذلك ندب قبول طلبه ومكاتبته.

وَالْعَبِيدَ الَّذِينَ يَبْتِغُونَ وَيَطْلُبُونَ الْكِتَابَ أَي المكاتبه لتحريرهم مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ «مما» بيان ل «الذين» أي من العبيد والإماء فكَاتِبُوهُمْ و جىء من باب المفاعلة، لأن كل واحد من المولى والعبد يمضى ورقة الكتابة والاشتراط إن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا أَي صلاحا ورشدا يقدرون بذلك على الوفاء بمال الكتابة وَآتُوهُمْ أَي اعطوا أولئك العبيد المكاتبون مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ بأن يخفف المولى شيئا من المال المقرر، فإن قرر ستة آلاف أخذ منه خمسة وعفى عن ألف، أو إن الخطاب عام بأن يعين الناس المكاتبين ليخلصوا من الرق، وقد قرر الله سبحانه إعطاء المكاتبين من الزكاة كما قال سبحانه: (وَفِي الرِّقَابِ) «١» وَإِذْ كَانَ الْكَلَامَ حَوْلَ الْعَفَافِ وَ الطهر والنكاح و توابعه، جاء النهى الأکید بالنسبة إلى الذين يكرهون فتياتهم على الزنى ليأخذوا أجره ولا تُكْرِهُوا أيها الرجال

(١) البقرة: ١٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٣

[سورة النور (٢٤): آية ٣٤]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

فَتَيَاتِكُمْ أى الفتيات المرتبطة بكم، وهى عامه لفظا تشمل كل فتاة مرتبطة بالإنسان سواء كانت أمه أم قريبة أم بعيدة، ومن الجاهلية التى أعيدت فى هذا العصر أجبر بعض الرجال الأسافل بعض نساءهم على البغاء لتحصيل منصب أو مال أو ما أشبه على البغاء أى على الزنى، فى المجمع قيل: أن عبد الله بن أبى كان له ست جوار يكرههن على الكسب بالزنى، فلما نزل تحريم الزنى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشكون إليه فنزلت هذه الآية، و روى القمى - كما فى الصافى - عموم ذلك إن أردنَ تحصنًا أى تعففا و حصانه عن الزنى، و لا مفهوم للآية، بل المقصود أن الفتاة مع نقص عقلها و كثرة شهوتها إذا لم ترد البغاء فالمولى أحق بعدم الإرادة و الامتناع، فكيف يكره الرجل الفتاة وهى تكرهه و لا تريد؟ لِيَتَّبِعُوا أى تحصلوا بذلك عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى المال الذى هو عرض زائل و مَنْ يُكْرَهُنَّ لعل المعنى من كان يكرههن فى زمان الجاهلية فلا- ييأس من روح الله، فإنه إذا آمن و تاب فإنَّ الله مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِنَ عَلَى الزنى - مما قد سلف- غَفُورٌ يَغْفِرُ سَيِّئَاتِهِ رَحِيمٌ يتفضل عليه، أو المراد إن كرهت امرأة و زنت عن إكراه فإن الله غفور لها، فقد رفع الإكراه فى هذه الأمة، كما ورد فى حديث الرفع و غيره.

[٣٥] وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ آيَاتٍ أَى أدلة و براهين للأحكام مُبَيَّنَاتٍ قد أوضحت إيضاحا لا لبس فيها و لا غموض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٤

[سورة النور (٢٤): آية ٣٥]

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

و أنزلنا إليكم مثلاً من الذين خلوا من قبلكم حيث ظهر من ذلك المثل - و المراد به الجنس - أن الأمم السابقة لما تعدت و عصت أخذت بأنواع العذاب، لتعتبروا بذلك المثل و مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ و إنما خص الموعظة بهم، لأنهم الذين ينتفعون بالعظة.

[٣٦] و إذا ذكرت الآيات السابقة الأحكام الأخلاقية الاجتماعية المرتبطة بالطهارة و النزاهة للعين و الفرج و اللسان، و سمت بالإنسان من الآفاق المظلمة إلى الآفاق المنيرة، ناسب ذلك التحدث عن عالم النور، عالم الإله الذى أثار كل شىء بنور وجهه فقال تعالى اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ و النور هو الظاهر فى نفسه المظهر لغيره، و هكذا الله سبحانه ظاهر فى نفسه مظهر لغيره، بل أن النور الخارجى رشحه من نوره سبحانه الذى غمر الكون، و أظهر كل شىء و أوجد كل موجود مَثَلُ نُورِهِ من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ليدركه الإنسان بقدر حسه كَمِشْكَاةٍ لقد كان الناس فى الماضى يخرجون كوة فى الحائط ثم يجعلون على تلك الكوة لوحاً من الزجاج ثم يجعلون المصباح - و هو محل الزيت و الفتيلة - فى زجاجة - تسمى بالفانوس - ثم يجعلون تلك الزجاجه فى الكوة، و إنما يجعلونها فى الكوة ليشع من المصباح الضياء فى الداخل و الخارج، و من المعلوم أن نور المصباح إذا أشرق على الزجاج، و كان منحصراً فى كوة لا ينتشر كان ضياؤه قويا جدا، و بالأخص إذا كان الزيت نقيا جيدا، إن مثل هذا النور هو مثل نور الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٥

و اختلف فى لفظ المشكاة هل أنها عربية أو غير عربية؟ فيها أى فى تلك المشكاة مِصْبَاحٌ و هو السراج المِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ و هى «الفانوس» المصنوع من ألواح الزجاج الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ أى الكوكب المضىء الذى يشبه الدر فى ضيائه و صفائه يُوقَدُ ذلك المصباح مِنْ زَيْتِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ أى كثيرة البركة و هى زَيْتُونَةُ النَّاءِ للإفراد، نحو شجر و شجرة، و تمر و تمره، و خص ذلك لأن دهن الزيت أصفى من سائر الأدهان فىكون نور المصباح الذى أوقد به أحسن و أكثر إضاءة لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ أى أن منبتها فى محل وسط فهى ضاحية للشمس تشرق عليها طول النهار، فليست فى طرف الشرق حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، و لا فى طرف الغرب حتى لا تصيبها الشمس إذا شرقت، فإن الغالب أن الشىء إذا كان فى طرف كان هناك مانع عن إشراق الشمس عليه إذا كانت فى طرف مقابل له يَكَادُ زَيْتُهَا أى زيت هذه الشجرة يُضِيءُ و ينير و لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ أى أن الحاصل من مثل هذا

المصباح نور مضاعف، بسبب تلك الأمور المذكورة يُهْدِي اللهُ لِنُورِهِ أى نور هذا المصباح مَنْ يَشَاءُ من السائرين فإنهم إذا رأوا المصباح بهذه الكيفية المضيئة يهتدون إلى الطريق، ولا يقعون حائرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٦

[سورة النور (٢٤): آية ٣٦]

فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)

في الصحراء، لا يعرفون طريقا، ولا يهتدون سبيلا، ومن المحتمل أن يكون ضميره «نوره» عائدا إلى الله، بأن يكون التمثيل إلى قوله «على نور» أى إن الله يهْدِي إلى نوره الذى ضرب له المثل من يشاء ممن اتبع الحق و لم يعاند وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ كما ضرب هذا المثل، لبيان نور ذاته، تشبيها للمعقول بالمحسوس تقريبا إلى الأذهان، وإلا فلا مثل ينطبق تمام الانطباق عليه سبحانه، ولذا قال (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) «١» وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم الأمثال المناسبة، التي توجب علما و فقها للناس، تقربهم إلى الحق و تبعدهم عن الباطل، و قد ورد روايات لتطبيق الآية على أهل البيت عليهم السلام و هي من قبيل التأويل أو ذكر المصاديق و التطبيقات «٢».

[٣٧] إن ذلك المصباح المتصف بتلك الصفات إنما هو في بُيُوتٍ عامرة بالتقوى ليضاف النور المعنوي إلى النور الظاهري، فإن مثل نور الله نور المصباح الموضوع في المسجد، كيف أن الإنسان يبهره ذلك النور المتألئ الساطع من أقدس الأماكن و أطهرها، كذلك نور الله سبحانه أذن الله أَنْ تُرْفَعَ رفعا ظاهريا ببناء جدرانها رفيعة شامخة، و رفعا معنويا بأن تحترم و تقدر و تطهر من الأرجاس، و قد ورد في بعض الأحاديث أن بيوت الأنبياء و الأئمة عليهم السلام من تلك البيوت «٣» وَيُذْكَرُ فِيهَا أى في تلك البيوت اسمه الله تعالى في مقابل بيوت الكفار

(١) النحل: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٨.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٣٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٧

[سورة النور (٢٤): آية ٣٧]

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)

التي لم يأذن الله أن ترفع إذ من المكروه بناء دار الكافر أعلى من دار المسلم- كما قالوا- و بيوت النيران و المراحيض التي كره ذكر الله فيها بالصلاة و نحوها، و حيث إن الأرض لله، و الذكر مرتبط به سبحانه، كان ترفيع البيت و ذكر اسمه تعالى بحاجة إلى الإذن، و تلك البيوت تتصف بأنها يُسَبِّحُ لَهُ أى لله فيها أى في تلك البيوت بِالْغُدُوِّ أى الصباح وَالْآصَالِ جمع أصيل، و هو طرف العصر، و إتيان «الغدو» مفردا جنسا، و الآصال جمعا من التفننات البلاغية.

[٣٨] رِجَالٌ هم المؤمنون لا تُلْهِيهِمْ أى لا تشغلهم، من التلهي، بمعنى: الاشتغال، و منه يسمى اللهو لهوا تجارةً هو مطلق الاكتساب و لو بالرهن و المزارعة و نحوهما و لا يَبِيعُ و كان تخصيصه لشيوعه بين أنواع التجارات عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ سبحانه و إِقَامِ الصَّلَاةِ أى عن إقامة الصلاة، أصله «إقامة» و الهاء عوض عن «الواو» في «أقوام» لأنه مصدر باب الأفعال، فلما أضيف إلى الصلاة قام المضاف إليه مقام العوض، و لذا حذف و إن جاز «إقامة الصلاة» أيضا و إيتاء الزكاة إعطائها أى إن أولئك الرجال بهذه الأوصاف حتى إن ذكر الله و العمل بمرضاته لديهم أهم من الاشتغال بمال الدنيا و أعراضها الزائلة، خلافا لكثير من الناس الذين يشتغلون بالدنيا عن الآخرة يَخَافُونَ يَوْمًا هو يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فِيهِ أى في ذلك القلوب أى يتوجه القلب تارة إلى هنا و أخرى إلى هناك و الْأَبْصَارُ فتتظنر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٨

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَزُوقُ مَن يَشَاءُ بَغِيرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

العين هنا و هناك، و هكذا عادة الخائف الوجمل يفكر فى مخلص و نجاه و يتوجه الى هنا و هناك كى يرى ملاذا و شفيعا و مستندا. [٣٩] و إنما يفعل أولئك الرجال تلك الأفعال لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا و هى الطاعات، إنهم يترقبون جزاء طاعتهم، و الطاعة هى أحسن ما عمله الإنسان من الطاعات و المباحات و المكروهات، أو المراد يجزيهم بأحسن مما عملوا، فقد عملوا- مثلا- ما يستحقون به ديناراً، فيترقبون إعطاءهم عشرة حسب وعده بقوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) «١» و يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَاءَ مِنْ فَضْلِهِ و زيادته كما قال (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ) «٢» وَاللَّهُ يَزُوقُ أَى يَمْنَحُ و يعطى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَحْسَنِ بَغَيْرِ حِسَابٍ كثيراً زائداً، لا يدخل تحت حساب الإنسان، أو المراد يتفضل على الإنسان، فلا يكون فضله مجازاة على عمل و إنما مجاناً و تفضلاً.

[٤٠] و بمناسبة ذكر أحوال الرجال الصالحين و ما يجزون من الثواب فى الآخرة يأتى ذكر الكفار و ما يلاقون من العذاب على كفرهم وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَعْمَالُهُمْ الَّتِي يَعْمَلونها و يعتقدون أنها حسنات كَسَرَابٍ هو الحادث فى الصحارى وقت الظهر من انعكاس أشعة الشمس على الهواء حتى يظن الإنسان- من بعد- أنه ماء بِقِيعَةٍ

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) البقرة: ٢٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٩

[سورة النور (٢٤): آية ٤٠]

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

الباء حرف جر، وقيعته جمع قاع و هو الواسع من الأرض المنبسطة، و لعل الإتيان بالجمع، لتعدد الصعد التى يعمل الإنسان الكافر أعماله فيها، فى صعيد العبادة للأصنام و فى صعيد الإنفاق، و فى صعيد الإحسان إلى الأرحام، و هكذا يَحْسَبُهُ أَى يحسب ذلك السراب الظَّمْآنُ الذى عطش كثيراً ماءً و تخصيص الظَّمْآنُ بالذكر، مع أن السراب يترأى لكل أحد، من جهة أن الظَّمْآنُ هو الذى يرجوه، فإذا جاءه لم يجده، و يخيب رجاءه فى أخرج حالاته حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَى ذهب إلى ذلك السراب ليشرب منه- بظن أنه ماء- فيطفى عطشه لَمْ يَجِدْهُ أَى لم يجد ما زعمه ماء شيئاً إذ هو خيال الماء، لا الماء ذاته، و هكذا الكافر يحسب أن له أعمالاً خيرة فى الآخرة ينتفع بها فى أخرج ساعاته، فإذا ذهب إلى الآخرة لم يجد أثراً من أعماله و وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَى عند عمله المزعوم أنه باق له، و المعنى أنه حيث كان يرجو الخير، يرى الحساب و النكال فَوْقَهُ أَى أعطاه الله وافيًا حِسَابَهُ الموجب لجزائه على أعماله السيئة فى الدنيا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا تعطيل هناك فى حساب الخلاق على كثرتهم، و إنما يحاسب سبحانه الجميع فى مقدار نصف ساعة- كما ورد- أو المراد سرعه زوال الدنيا و وصول الناس إلى جزاء أعمالهم.

[٤١] لقد كان المثال الأول للكافر بالنسبة إلى الشخص حال ظمأه يريد الارتواء، و يأتى السياق بمثال ثان لحال الكافر بالنسبة إلى وقت ضلاله يريد الاهتداء و النور فلا يجد، كالإنسان الذى ركب السفينة، فجاء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٠

سحاب و أظلم الآفاق، و ارتفعت الأمواج التى تغمر السفينة، فلا يهتدى سبيلاً لينقذه من هذه الهلكة أَوْ كَظُلُمَاتٍ أَى أن أعمالهم كظلمات، بينما أعمال المؤمنين كأنوار تهديهم الطريق، كما قال سبحانه (يَسْمَعُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ) «١» فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ

فالوقت ليل مظلم، و المكان بحر عظيم اللجة لا يرى ساحله، من «لجة» البحر و هي معظمه يَغْشَاهُ أى يعلو ذلك البحر اللجى مَوْجٌ و ذلك حين تهب العواصف فتحمل الماء على متنها كالجبال و هو خليط من ماء و هواء مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أى فوق ذلك الموج الأول موج آخر، إذ العاصفة إذا هبت كونت موجا و يمشى هذا الموج بسرعة سير العاصفة، فإذا جاءت عاصفة ثانية كونت موجا ثانيا، و ربما يركب الموج الثانى على الموج الأول إذا كانت العاصفة الثانية أشد و حملت موجا كبيرا، أكبر من الموج الأول. مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ حتى لا- يرى بصيص من ضياء القمر و النجوم، حتى يكون الإنسان فى وسط ذلك تغشاه ظلماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ظلمة البحر المنعكسة فى الهواء، و ظلمة الموج الأول، و ظلمة الموج الثانى، و ظلمة السحاب و ظلمة الليل، حتى أن الإنسان فى تلك الظلمة إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ من تحت ثيابه لَمْ يَكْذِبْ يَرَاهَا أى

(١) الحديد: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١١

[سورة النور (٢٤): آية ٤١]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) لا يقرب رؤيتها لشدة الظلمات، إن لهذا الإنسان كيف حاله فى عدم اهتداء الطريق للخلاص و النجاة، كذلك حال الكافر الذى وقع فى وسط أعماله المظلمة المتراكمة عليه، فإنه لا يهتدى إلى طريق الهدى، و يكون مصيره الهلاك و مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا يَهْتَدِ بِهِ إِلَى السَّعَادَةِ، و إنما لم يجعل له نورا لأنه أعرض عن الهدى، فحرم الضياء فما له مِنْ نُورٍ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فإذا حرم إنسانا من نوره، لم يكن هناك نور آخر يستنير به الكافر.

[٤٢] و من عجيب أمر الكفار أنهم يغمضون عيونهم فى هذا الجو الذى حواهم يأسا بآيات الله سبحانه أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو: أيها الرائي، و المراد بالرؤية العلم، أى ألم يصل علمك إلى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ تَسْبِيحًا تَكْوِينِيًا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ و إنا لنرى من فى الأرض ينزه خلقهم الله سبحانه عن التعطيل و العجز و الجهل و سائر الصفات السيئة.

و لا بد أن يكون من فى السماوات كذلك بالفطرة و الوجدان، فهو مثل أن يقال: ألم تعلم أن النار فى «الصين» تحرق، فإن الإنسان يعلم ذلك بالقياس الفطرى، أو المراد وصول العلم إليهم بواسطة الأنبياء عليهم السلام الذين بينوا أن الملائكة يسبحون الله سبحانه، و لعل المراد ب «من» الأعم من العقلاء، و إنما جىء ب «من» تليها للعقلاء على من سواهم و يسبح الطير فى حال كونها صافاتٍ أى واقفات فى الجو مصطفات الأجنحة فى الهواء، و تسبيحها تنزيها و دلالتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٢

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) على وجود خالق قادر عليم حكيم، و كان تخصيص الطير بالذكر إلفاتا إلى هذا المشهد المكرر المدهش إذا فكر الإنسان فيه، فكيف أن الطير الثقيل لا يقع على الأرض، و هو واقف فى الجو، بدون رفيف و حركة، و حيث أن المراد بالطير الجنس جىء بضميرها مؤنثا كُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ و الطير قَدْ عَلِمَ اللَّهُ سَبْحَانَ صَلَاتِهِ أى خضوعه لله وَتَسْبِيحَهُ تنزيهه له، تكوينيا، أو بألسنتها وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ من الأعمال، فعلمه تعالى واسع شامل لكل شىء.

[٤٣] و لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المالك المطلق، كما أنه العالم المطلق و إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أى إلى حسابه و جزائه مآل الكل و مرجع الجميع فهو المبدئ المعيد العالم المالك! و بعد هذا كيف يكفر الإنسان بهذا الإله العظيم؟ إنه لمدهش حقا.

[٤٤] أَلَمْ تَرَ أَيَّ رُؤْيَاهُ بِالْبَصْرِ، أَوْ بِالْعِلْمِ، وَ الْمُخَاطَبِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَوْ كُلِّ مِنْ يَأْتِي مِنْهُ الرُّؤْيَاهُ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا الْإِزْجَاءَ الدَّفْعَ وَ السُّوقَ، أَيْ يَسُوقُ مِنْ هُنَا وَ هُنَاكَ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ بَيْنَ أَجْزَاءِ ذَلِكَ السَّحَابِ الْمَتَفَرِّقِ الْآتِي مِنْ هُنَا وَ هُنَاكَ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاْمًا أَيْ مُتْرَاكِمًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى يَتَكُونُ مِنْهُ سَحَابٌ كَثِيفٌ ذُو ارْتِفَاعٍ وَ كَثَافَةٍ فَتَرَى الْوَدْقَ الْمَطْرَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ ثَنَائِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٣

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

وَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا أَى جِبَالِ السَّحَابِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، وَ الْإِنْسَانُ إِذَا رَكِبَ الطَّائِرَةَ يَرَى السَّحَابَ مِثْلَ الْجِبَالِ فِي جَمِيعِ مَزَايَاهَا، حَتَّى لَوْ لَمْ يَعْلَمْ الْإِنْسَانُ لَظَنَهَا جِبَالًا حَقِيقِيَّةً، كَمَا شَاهَدْنَا ذَلِكَ حِينَمَا رَجَعْنَا مِنْ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ إِلَى دِمَشْقَ مِنْ بَرْدِ أَى التَّلْجِ بِأَنْوَاعِهِ الْمُخْتَلِفَةِ وَ «مَنْ» بَيَانِيَّةٌ لِلْمَنْزِلِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْكَلَامِ، أَى يَنْزِلُ مِنْزِلًا مِنْ جِنْسِ الْبَرْدِ فَيَصِيبُ بِهِ أَى بِذَلِكَ الْوَدْقِ أَوْ الْبَرْدِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَصِيرُفَهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ فَلَا- يَنْزِلُ الْمَطْرَ عَلَيْهِمْ وَ لَا- يَأْتِي إِلَيْهِمْ الْبَرْدُ يَكَادُ سِنًا بَرَقَهُ أَى يَقْرُبُ بَرَقِ السَّحَابِ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ فَيَعْمَى الْعَيْنَ وَ يَخْطِفُهَا لَشِدَّةَ لِمَعَانِهِ، فَمَنْ يَأْتِي جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَى جِزَاءِ صَغِيرٍ مِنْهُ الْبَشَرُ بِكُلِّ قَوَاهِ وَ وَسَائِلِهِ؟.

[٤٥] يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ أَى يَأْتِي بِهِذَا وَ بِذَلِكَ، كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَقْلِبُ الدَّرْهَمَ فِي كَفِّهِ فَتَارَةً يَظْهَرُ وَجْهُهُ وَ أُخْرَى يَظْهَرُ ظَهْرُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّقْلِيْبِ لَعِبْرَةً أَى اعْتِبَارًا وَ دَلَالَةً عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ لَأُولِي الْأَبْصَارِ أَى أَصْحَابِ بَصْرِ الْقَلْبِ، أَمَا مَنْ لَا يَعْتَبِرُ فَهُوَ أَعْمَى لَا بَصَرَ لَهُ.

[٤٦] وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ أَى كُلِّ حَيْوَانٍ يَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَ الْمَرَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٤

[سورة النور (٢٤): آية ٤٦]

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

الأعم لأن ما لا تدب أيضا كذلك، و قد جرت العادة بإتيان جملة دلالة على الكل من ماء الظاهر أن المراد الماء مطلقا لا خصوص المنى- ليشمل مثل الحيوانات التي تتولد من مجرد الماء، كالعقرب التي تتولد من الأرض النديء- إذ صح أن الولادة من مجرد الماء، بدون أن تكون هناك بذور- فمِنْهُمْ أَى مِنَ الدَّوَابِّ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ كالدود و الحية وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ كَالْإِنْسَانَ وَ الطيور وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ كَالْأَنْعَامِ وَ الْوَحُوشِ، وَ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمِثَالِ، وَ إِلا فَمِنْهُمَا مَنْ لَا تَمْشِي أَوْ تَمْشِي عَلَى أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِمَا لِلْعَاقِلِ مِنْ ضَمِيرِ «مِنْهُمْ» وَ لَفْظَةِ «مَنْ» تَغْلِيْبًا لِلْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ، مَعَ اقْتِضَاءِ وَحْدَةِ السِّيَاقِ لِسُوقِ الْجَمِيعِ بِهَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ هَلْ هُنَاكَ عَلَى عَمُومِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، الَّتِي يَعْبُزُ جَمِيعُ الْبَشَرِ مِنْ خَلْقِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا؟.

[٤٧] لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ أَى أَدْلُهُ دَالَةٌ عَلَى وَجُودِنَا مُبَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ ظَاهِرَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ قَبْلَ الْهُدَايَةِ ابْتِدَاءً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنَّ الْإِرْشَادَ إِذَا جَاءَ، فَقَبْلَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ، أَوْ صِلَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ أَمَا مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْإِرْشَادَ فَيَتْرَكَ سُبْحَانَهُ فِي ضَلَالِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٥

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيُحْكَمْ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨)

[٤٨] وحيث تقدم ذكر المؤمنين و ذكر الكافرين يأتي السياق لبيان ما ينبغي أن يتصف به المؤمنون من الإذعان لكل أوامر الله و الرسول و يَقُولُونَ أى بعض الناس آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ و اعتقدنا بهما وَ أَطَعْنَا فى أعمالنا لهما ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ أى يعرض بعض هؤلاء المدعين للإيمان، عن الأوامر مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الإظهار للإيمان و الإطاعة وَ مَا أَوْلَيْتَكَ الذين يتولون و يعرضون عن الطاعة بِالْمُؤْمِنِينَ إذ كيف يكون مؤمنا صحيح الإيمان من يعرض عن أحكام الإله؟ و قد ورد (فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) «١».

[٤٩] و إذا دُعُوا أى دعاهم طرف النزاع معهم فى قضايا المرافعات إِلَى اللَّهِ لينظروا ماذا فى كتابه من الأحكام ليجعلوه حكما بينهم وَ رَسُولِهِ ليفصل القضية حسب الشريعة لِيُحْكَمَ بَيْنَهُم الرسول إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ أى من هؤلاء القائلين بأنهم مؤمنون مُعْرِضُونَ عن الخضوع للكتاب و للرسول، و كأن الإتيان بلفظة «إذا» لإفادة المفاجآت، كأن هذا كان مفاجأ أن يعرض عن الله و الرسول من يدعى الإيمان و الإطاعة.

(١) النساء: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٦

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ يَلِ أَوْلِيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

[٥٠] وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ أى علموا بأن الرسول يعطى الحق لهم يَأْتُوا إِلَيْهِ إلى الرسول مُذْعِنِينَ منقادين لقضائه و حكمه، إما حيث علموا أن الحق ليس لهم أعرضوا عن إتيان الرسول، يريدون أن يذهبوا إلى من يعطى لهم الحق- و إن كان باطلا فى نظر الواقع-.

[٥١] أ فى قُلُوبِهِمْ استفهام توبيخى، أى هل فى قلوب هؤلاء المعرضين عن حكمك يا رسول الله مَرَضٌ أى نفاق و ريب فى نبوتك أَمْ ارْتَابُوا بعد أن آمنوا، بأن شكوا فى عدلك و قولك بالحق أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ أى يجور الله عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ فى الحكم، بأن لم يشكوا فى نبوتك و لم ينافقوا، و إنما يخافون من جور الحكم، كما هو شأن ضعاف الإيمان بل لم يخافوا جور الحكم، و إنما أَوْلَيْتَكَ المعرضون هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم حيث تولوا عن حكم الله و الرسول،

و قد ورد أن هذه الآيات نزلت فى منازعة وقعت بين الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام و عثمان بن عفان، و ذلك أنه كان بينهما منازعة فى حديقته فقال أمير المؤمنين عليه السَّلام: نرضى برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال عبد الرحمن بن عوف لعثمان: لا تحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإنه يحكم له عليك و لكن حاكمه إلى ابن شيبه اليهودى فقال عثمان لأمير المؤمنين عليه السَّلام: لا نرضى إلا بابن شيبه اليهودى فقال عثمان لأمير المؤمنين عليه السَّلام: لا نرضى إلا بابن شيبه اليهودى فقال ابن شيبه لعثمان: تأتمنون رسول الله على وحى السماء و تتهمونه فى الأحكام؟ فأنزل الله عز و جل على رسوله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥١ الى ٥٣]

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أَوْلَيْتَكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

«و إذا دعوا» الآيات «١».

[٥٢] إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ الصحيحى العقيدة و الإيمان إذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى إلى كتاب الله، و رسوله- فيما كان فى الحياة-

أو سيرته بعد وفاته لِيُحَكِّمَ بَيْنَهُمْ أى يقضى بينهم فى الخصومات أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا قَوْلَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ وَأَطَعْنَا أَوْامِرَهُمَا وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

[٥٣] وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الْأُمُورِ وَ النَّوَهِى وَ يَخْشَى اللَّهَ أَى يخاف من عقابه إذا خالف وَ يَتَّقِهِ أَى يتقى الله، وَ الفرق بينهما أن الخشية أمر قلبى، وَ الاتقاء عمل خارجى، وَ الخشية تنجر إلى التقوى فَأَوْلَيْكَ هُمُ الْفَائِزُونَ الظافرون بسعادة الناشئين.

[٥٤] وَ بمناسبة الحديث عن المخالفين لأوامر الرسول يأتى الحديث عن بيان كذبهم فى القول حتى فيما يحلفون على طبعه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَى حلفوا به جَهْدَ إِيمَانِهِمْ أَى أغلظ إيمانهم، الذى كان على قدر جهدهم وَ منتهى طاقتهم، وَ «جهد» منصوب على المصدر أى يجهدون جهدا فى إيمانهم لئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ لَيَخْرُجْنَ وَ لكن

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٨

[سورة النور (٢٤): آية ٥٤]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

هل ذلك صحيح؟ كلا! إنهم لم يرضوا بالمحاكمة فكيف يرضون بإزهاق أنفسهم فى القتال؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا عَلَى إِطَاعَتِكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا تَهَكُّمًا، أَى أَنْ طَاعَتِكُمْ مَعْرُوفَةٌ، كَمَا تَقُولُ لِلَّذِي يَحْلِفُ كَاذِبًا إِنَّهُ عَمَلٌ كَذَا مِنَ الْخَيْرِ: لا- تحلف، أعمالك الخيرية معروفة، أو المراد لا تأت بالحلف، و إنما أطمع، فإطاعتكم طاعة معروفة حسنة خير من حلفكم و قولكم، كما تقول لمن يحلف أنه ينصرك: لا- تحلف، انصر، إِنَّ اللَّهَ نَحْبِيٌّ بِمَا تَعْمَلُونَ فهو يعلم أنكم لا تطيعون و إنما تحلفون حلفا مجردة عن العمل.

[٥٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَ نَهَاكُمْ فِى الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ وَ يَنْهَىكُمْ، وَ هَذَا شَامِلٌ لِسُنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ، أَصْلُهُ «تَوَلَّوْا» وَ هُوَ خِطَابٌ لَهُمْ، حَذَفَتْ إِحْدَى تَأْوِيلِهِ عَلَى مَا هُوَ الْقَاعِدَةُ فِى مَا إِذَا اجْتَمَعَ تَاءَانٌ فِى فِعْلِ الْمَضَارِعِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَى عَلَى الرَّسُولِ مَا حُمِّلَ وَ كَلْفٌ مِنَ الْبَلَاغِ وَ آدَاءُ الرَّسَالَةِ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَ الْإِطَاعَةِ، أَى أَنْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ غَيْرَ مَسْتَوْثَلٍ عَنِ إِعْرَاضِكُمْ فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ وَ الْإِرْشَادِ، وَ إِنَّمَا الْوِزْرُ عَلَيْكُمْ حَيْثُ خَالَفْتُمْ وَ إِنْ تَطِيعُوهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ تَهْتَدُوا إِلَى الرَّشْدِ وَ الصَّلَاحِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٩

[سورة النور (٢٤): آية ٥٥]

وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ أَى لَيْسَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ أَى تَبْلِيغُكُمْ الْأَحْكَامَ الْمُبِينَةَ أَى بَلَاغًا وَاضِحًا ظَاهِرًا لَا لَبْسَ فِيهِ وَ لَا غَمُوضَ.

[٥٦] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَنْ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ وَ عَمَلُهُمْ وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «مِنْكُمْ» لِلتَّشْرِيفِ بِأَنْ الْوَعْدَ لَهُمْ، وَ إِلَّا فَالْوَعْدُ عَامٌ يَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ عَامِلٍ بِالصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَى يَجْعَلُهُمْ خُلَفَاءَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ، فَيَكُونُونَ سَادَةً وَ مَلُوكًا عَقِبَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ وَ سَادُوا الْبِلَادَ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ خُلَفَاءَ الْكُفَّارِ فِي سِيَادَةِ الْبِلَادِ، كَمَا اسْتَخْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَكَانَ الْمُلُوكِ الْكَافِرَةِ، وَ كَمَا اسْتَخْلَفَ النَّصَارَى مَكَانَ الْيَهُودِ، فَصَارُوا سَادَةً، وَ كَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَسْتَخْلَفُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي مَكَانِ الْكُفَّارِ لِيَكُونُوا هُمْ مَلُوكَ

الأرض و سادتها عوض الكفار، و قد أنجز الله هذا الوعد- كما يدل على ذلك التاريخ الإسلامي- بل لقد رأينا أن من بركة أولئك المؤمنين العاملين للصلحات، وصل ملك الأرض إلى من كان في زى الإسلام، و إن كان الإسلام منه بمعزل. وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ أَى يُمْكِنُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِمُ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ، أَو الْمَرَادُ يُمْكِنُ دِينَهُمْ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَكْنَةً وَ قُوَّةً لِيُظْهِرَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَ يَغْلِبَ عَلَيْهَا، فَتَذْهَبُ الْأَدْيَانُ وَ تَتَضَمَّلُ وَ يَأْخُذُ هَذَا الدِّينَ مَكَانَهَا، وَ ارْتَضَى لَهُمْ أَى اخْتَارَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٠

[سورة النور (٢٤): آية ٥٦]

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

لهم دينا و لِيُبَدِّلَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا فَقَدْ كَانُوا يَخَافُونَ الْكُفْرَانَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِمْ وَ إِعْلَامِ شَعَائِرِهِ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ- إِذَا آمَنُوا صَدَقًا، وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ- يَجْعَلُهُمْ سَادَةً حَتَّى لَا يَخَافُونَ أَحَدًا، فَيَتَبَدَّلُ خَوْفُهُمْ بِالْأَمْنِ، وَ هُوَ لَا يَعْْبُدُونََنِي عِبَادَةً صَادِقَةً لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا فَالْخُضُوعُ لَهُ سَبَّحَانَهُ، لَا لِلْمَالِ وَ الْمَنْصِبِ وَ الشَّهَوَاتِ وَ مَا أَشْبَهَهَا، إِنْ مِنْ يُمْكِنُهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِهَذَا الْوَصْفِ وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الَّذِي مَكْنَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فِي الْأَرْضِ، بَلْ خَرَجَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ بَعْدَ أَنْ هِيَ لَهُ الْجَوْ وَ مَهْدٌ لَهُ الْبِلَادُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أَى الْخَارِجُونَ عَنِ الْحُدُودِ، فَإِنَّ الْفِسْقَ بِمَعْنَى الْخُرُوجِ، لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنِ الشَّرْطِ، وَ كَأَنَّهُ تَهْدِيدٌ بِالزُّوَالِ، إِذْ مِنْ خَرَجَ عَنِ الشَّرْطِ هَدَى مَلِكُهُ بِالزُّوَالِ، وَ قَدْ رَأَيْنَا ذَلِكَ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ حِينَ كَفَرَ الْمُلُوكُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَ خَرَجُوا عَنْ أَمْرِهِ وَ شَرْطِهِ، حَيْثُ انْسَاقُوا وَرَاءَ الشَّهَوَاتِ، وَ إِذَا بِهِمْ يَخْرُجُونَ عَنِ الْأَرْضِ، وَ تَطْوَى سِيَادَتُهُمْ وَ مَلِكُهُمْ، وَ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ فِي أَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا هِيَ فِي شَأْنِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ الْمَوْعُودِ عَجَلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ، وَ فِي شَأْنِ شِيعَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَظْهَرِ مَصَادِقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ.

[٥٧] و إذ كان الشرط العمل الصالح يذكر السياق بعض أقسامه المهمة بقوله تعالى وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ بِحُدُودِهَا وَ آدَابِهَا وَ آتُوا أَى أَعْطُوا الزَّكَاةَ إِمَّا الْمَرَادُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ أَوْ مَطْلُوقَ الصَّدَقَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢١

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَاوَاهُمْ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَى لِكَى يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ جِزَاءَ أَعْمَالِكُمْ.

[٥٨] و إذ تقدم وعد الله لعباده الصالحين باستخلافهم الأرض ذكر أنه ليس الكفار أعجزوه سبحانه فلم يتمكن منهم، و إنما ذلك امتحان لأيام قلائل حتى يصيروا إلى النار لا تَحْسَبَنَّ أَى لَا تَنْظُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ مِنْ يَأْتِي مِنْهُ الظَّنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أَى قَدْ أَعْجَزُونَا عَنْ أَخْذِهِمْ وَ إِزَالَتِهِمْ وَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَ مَاوَاهُمْ النَّارُ أَى مُسْتَقَرَّهُمْ وَ مُصِيرَهُمْ مِنْ «أوى» بِمَعْنَى اتَّخَذَ الْمَأْوَى وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ أَى بئس المأوى النار المعدة للكفار.

[٥٩] و من أدب العائلة أن يكون للزوجين أوقات خلوة، لا يدخل عليهم من الخدم و الأطفال أحد إلا بعد الاستئذان، فقد تقدم لزوم الاستئذان لمن في خارج البيت إذا أراد الدخول، و هنا يبين السياق لزوم الاستئذان لمن في داخل البيت إذا أراد الدخول في غرفة العائلة، و ذلك في ثلاثة أوقات، هي قبل وقت صلاة الفجر، و قبل وقت صلاة الظهر أو بعده، و بعد وقت صلاة العشاء حيث أن في هذه الأوقات يستريح الإنسان، و كثيرا ما تبدو العورات يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ أَى يُلْزِمُ أَنْ يَطْلُبُوا الْإِذْنَ مِنْكُمْ إِذَا أَرَادُوا الدَّخُولَ فِي غُرْفَتِكُمُ الْخَاصَّةِ وَ مَحَلِّ اسْتِرَاحَتِكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ هُمُ الْعَبِيدُ وَ الْإِمَاءُ، وَ نَسَبَةُ الْمَلِكِ إِلَى الْيَمِينِ لِأَنَّ الْيَدَ- وَ

بالأخص اليمين - هي العضو الكثير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٢

العمل الذى يكتسب حتى ينفق الإنسان الثمن فى شراء العبد و الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ من الأطفال المميزين، أما سائر الناس كالأولاد الكبار و الأقرباء الذين يجمعهم دار واحدة، فقد سكت عنهم الآية لوضوح أنهم مردوعون ذاتا عن اقتراف الدخول بلا استئذان، كما سيفهم من الآية الآتية. ثلاث مرّات أى فى كل يوم من قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ حيث الإنسان فى فراش النوم، أو يبذل ثوبه للخروج و حين تَصْعُوقَ ثِيَابِكُمْ بعد الرجوع إلى الدار من بعد الظهيرة و المراد إما وقت القيلولة قبيل الظهر و إما وقت المنام بعد الظهر و من بعد صَلَاةِ الْعِشَاءِ حيث يخلع الإنسان ثيابه للمنام، هذه ثلاث عورات لكم و إنما سُمي الأوقات بالعمرة، لانكشاف العمرة فى هذه الأوقات غالبا، من باب الإسناد إلى السبب، فالأوقات مبدية للعمرة، لا أنها عمرة، أو من باب الإسناد إلى الظرف، فالأوقات ظرف لظهور العمرة، و لا- يخفى أن الملاك موجود فى غير هذه الأوقات الثلاث فيما جرت العادة بالخلوة فيها لئس عليكم أيها المؤمنون و لا عليكم جناح أى الخدم و الغلمان بعد هُنَّ أى فيما بعد هذه الأوقات الثلاثة و المراد ببعدهن، سائر الأوقات، لا خصوص بعد المقابل لقبل، نحو «من بعد الله» طَوَافُونَ الطائف هو الذى يختلف إلى مكان، و منه سُمي الطواف و السعى، فى الحج، طوفا عليكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٣

[سورة النور (٢٤): آية ٥٩]

وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)

أولئك الخدم و الغلمان، و يظهر من الآية، أن الجناح فى الأوقات الثلاثة ليس خاصا بالطائف، بل جناح على الزوجين أيضا، كما أن الظاهر من الآية عموم الحكم حتى بالنسبة إلى غير الزوجين ممن يخلو بنفسه فى غرفته، لإطلاق الآية، و وجود العلة بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أى طواف بعضكم و هم الخدم و الغلمان على بعض و هم الزوجان و من إليهما، و لعل الإتيان بهذه الجملة للإشارة إلى أنه لا ينبغي التحشم فى غير الأوقات الثلاثة، أُلستم جميعا بعض من كل؟ و هذا لبيان الأدب المتوسط بين الإفراط لمن يأذن حتى فى هذه الأوقات - كما نرى عند بعض الجاهلين فى هذا الزمان - و بين التفريط لمن لا يأذن حتى فى غير هذه الأوقات ترفعا و أنفة، أو المراد طوافكم عليهم لطلب الحاجة و التريئة، و طوافهم عليكم للخدمة، و كما بين الله لكم هذا الحكم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِ الدالّة على الأحكام و الآداب وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما هو صلاحكم حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى عنه.

[٦٠] وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ أَيها المؤمنون و التخصيص ب «منكم» لأن العبيد إذا بلغوا بقى حالهم كالسابق الحُلُم أى وقت الاحتلام، و هو البلوغ فَلْيَسْتَأْذِنُوا أى يجب عليهم الاستئذان إذا أرادوا الدخول، فى أى وقت كان، فإن الإنسان يتأدب أما الحر الكبير ربما لا يتأدب أمام الطفل و العبد كما استأذَنَ الَّذِينَ ذَكَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأطفال و الخدم، فى الأوقات الثلاث أو كما استأذَنَ الَّذِينَ بلغوا قبلهم من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٤

[سورة النور (٢٤): آية ٦٠]

وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

الأحرار، و كما بين الله سبحانه هذا الحكم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ الدالّة على الأخلاق و الأحكام وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بالمصالح حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى، فاللازم أن يتبع الإنسان أحكامه لأنها صادرة عن علم و حكمة.

[٦١] و إذ قد تقدم حرمة إبداء النساء زينتهن و لزوم الحجاب، جاء السياق ليستثنى عن ذلك النساء اللاتي تقدمن فى السن، حتى خلت أجسامهن عن الإثارة، و عفت نفوسهن عن الشهوة، فلا يثرن شهوة، و لا يشتهين أمرا و الْقَوَاعِدُ جمع قاعده، و هى التى قعدت

عن الحيض وقابلية الزواج مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي جَمَعَ التِّي لَا- يَزُجُونَ نِكَاحًا أَى لَا- يَطْمَعْنَ فِي النِّكَاحِ وَ «يرجون» مشترك بين الجمع المذكر والمؤنث، كما لا يخفى. فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ أَى يَتْرُكْنَ ثِيَابَهُنَّ الْمُرْتَبِطَةَ بِالنِّسَاءِ كَالجِلْبَابِ الَّذِي تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ فَوْقَ الْخِمَارِ وَ الْحِجَابِ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَقَدْ جَازَ لَهُنَّ أَنْ يَخْرُجْنَ بِمَلَابِسِهِنَّ الْعَادِيَّةِ، بِدُونِ سِتْرِ الْبَدَنِ بِجِلْبَابٍ كَبِيرٍ وَ بِدُونِ سِتْرِ الْوَجْهِ وَ الْيَدَيْنِ وَ الْقَدَمَيْنِ، فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةِ التَّبْرُجِ الظُّهُورِ، أَى غَيْرِ ظَاهِرَاتٍ مَعَ زِينَةٍ مُثِيرَةٍ، كَالْحُلِيِّ، وَ الثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ، وَ الزَّخَارِفِ الْمَلُونَةِ، فَالْإِزْمَانُ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُنَّ التَّخْفِيفَ لِإِظْهَارِ الزَّيْنَةِ وَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٥

[سورة النور (٢٤): آية ٦١]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

لبس الجلباب و عدم وضع ثيابهن خيّر لهن من وضعها، بأن يلبس الجلباب كسائر النساء فإن ذلك ثوب حشمة و وقار و الله سميع لأقوالكم التي تقولونها حول النساء القواعد، و التي تقولها النساء عن أنفسهن عليم بما في قلوبكم، و قلوبهن، فإذا زاغت كلمة أو التوى قصد علمه الله سبحانه، و حاسبكم عليه.

[٦٢] ثم يأتي السياق لبيان أحكام الأكل و المواكلة، مما يرتبط بالعائلة، و الأصدقاء، بعد ما بين حكم البيوت و الخلوة و الاستئذان في خارجها و داخلها

قال الإمام الباقر عليه السلام: أن أهل المدينة - قبل أن يسلموا - كانوا يعتزلون الأعمى و الأعرج و المريض و كانوا لا يأكلون معهم و كان الأنصار فيهم تيه و تكرم، فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام و الأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام و المريض لا يأكل كما يأكل الصحيح فغزلوا طعامهم على ناحية و كانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح، و كان الأعمى و الأعرج و المريض يقولون: لعننا نؤذيهم إذا أكلنا معهم فاعتزلوا من مؤاكلتهم، فلما قدم النبي صلى الله عليه و آله و سلم سئل عن ذلك: فأنزل الله عز و جل لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ «١» أَى لَيْسَ عَلَيْهِ ضَيْقٌ يَوْجِبُ اعْتِزَالَهُمْ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ فِي أَكْلِهِ مَعَ النَّاسِ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَسْقُ لِلْإِطْلَاقِ مِنْ جِهَةِ أَقْسَامِ الْأَمْرَاضِ الْمَعْدِيَّةِ وَ إِنَّمَا سَيِّقَتْ لِبَيَانِ أَمْرٍ آخَرَ، فَلَا إِطْلَاقَ فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، ثُمَّ بَيْنَ سَبْحَانَهُ حِكْمًا آخَرَ وَ هُوَ جَوَازُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْإِنْسَانُ مِنْ

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٥ ص ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٦

البيوت المذكورة بدون استئذان أربابها.

وَلَا- حَرْجٌ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَى بِيُوتِ أَزْوَاجِكُمْ، فَلَا مَحَلَّ لِأَنْ يَتَحَرَّجَ عَنِ الْأَكْلِ مِنْ بَيْتِهِ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْمَأْكُولُ خَاصًا بِالزَّوْجَةِ أَوِ الزَّوْجِ أَوْ لِشَخْصٍ غَرِيبٍ وَضَعَهُ هُنَاكَ أَمَانَةً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَ رُبَّمَا احْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَيْتَ الْأَوْلَادِ، فَنَسَبَ بَيْتَ الْأَوْلَادِ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ وَ يَشْمَلُ الْأَجْدَادَ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ وَ تَشْمَلُ الْجَدَّاتِ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ سِوَاءِ كَانَ الْأَكْلُ أَخًا أَوْ أُخْتًا أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ مِنَ الْأَبْوِينِ أَوْ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ وَ الظَّاهِرُ شَمُولُهُ لِأَعْمَامِ الْأَبِّ وَ الْأُمِّ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ وَ هِيَ فِي الشَّمُولِ لِمَطْلُوقِ الْعَمَّةِ كَالسَّابِقِ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَى أَخِ الْأُمِّ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَى أُخْتِ الْأُمِّ، وَ فِي عَمُومِهَا مَا سَبَقَ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ مَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ، وَ هُوَ الْمَفْتاحُ، أَى الْبَيْتِ الَّذِي عِنْدَكُمْ مَفْتاحه،

قال الصادق عليه السلام: الرجل له وكيل، يقوم في ماله فيأكل في غير إذنه أو بيت صديقيكم فقد ورد عنهم عليهم السلام إنهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكره الله قدر حاجتهم من غير تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٧ إصراف (١).

وقال الصادق عليه السلام: هؤلاء الذين سمى الله عز وجل في هذه الآية يأكل بغير إذنه من التمر والمأدوم وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه (٢).

وقال عليه السلام في قوله «ليس عليكم جناح»: بإذن و بغير إذن

(٣). «لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَلَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ بَأْسٌ أَنْ يَأْكُلَ مَعَ غَيْرِهِ أَوْ مَنفَرِداً، وَهَذَا بَيَانٌ كَيْفِيَّةُ الْأَكْلِ بَعْدَ مَا بَيْنَ سَبْحَانِهِ مَكَانَ الْأَكْلِ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ وَحْدَهُ، وَأَشْتَاتٌ جَمْعُ شَتِيتٍ، وَمَعْنَاهُ الْمَتَفَرِّقُ (و)» إذ بين سبحانه كيفية الأكل و مكان الأكل جاء السياق لبيان بعض آداب البيوت عطفاً على ما سبق من الآداب فقال فإذا دخلتم أيها المسلمون بيوتاً من تلك البيوت أو غيرها فسلموا على أنفسكم أي ليسلم بعضكم على بعض،

قال الصادق عليه السلام: هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم

(٤) «تَحِيَّةٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، إِذْ هُوَ بِمَعْنَى تَسْلِيمِ أَي حَيَاةٍ تَحِيَّةٌ وَتَسْلِيمٌ تَسْلِيمٌ وَأَصْلُ التَّحِيَّةِ أَنْ الْإِنْسَانَ كَانَ إِذَا رَأَى غَيْرَهُ قَالَ «حَيَاكَ اللَّهُ» أَوْ «لَتَحْيِي» وَ الْمَعْنَى أَنْ يَبْقَى حَيًّا، حَتَّى يَشْرَعَ الْإِسْلَامَ السَّلَامَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ التَّحِيَّةِ - بِالْمَعْنَى الْمَتَقَدِّمِ - إِذْ الْحَيَاةُ لَا تَلْزَمُ السَّلَامَةَ، أَمَّا السَّلَامَةُ فَهِيَ تَلْزَمُ الْحَيَاةَ مَعَ الزَّائِدِ، وَ مِنْ هُنَاكَ سُمِّيَ كُلُّ تَرْحِيبٍ يَبْدَى بِهِ عِنْدَ الْإِقْدَاءِ، بِالتَّحِيَّةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَي أَنَّهَا تَحِيَّةٌ جَاءَتْ مِنْ عِنْدِهِ

(١) فقه القرآن: ج ٢ ص ٣٣.

(٢) الكافي: ج ٦ ص ٢٧٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٢٨٣.

(٤) وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٨

[سورة النور (٢٤): آية ٦٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْأَلُوا اللَّهَ فِي شَيْءٍ تَأْذِينَهُ مِنَ الَّذِينَ يَشَاءُ تَأْذِينُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

سبحانه، بأمره لكم أن تبدؤوا بها.

في حال كونها مباركة أي لها البركة، فإن السلام يوجب الزيادة في العلاقات، مع ما له من الآثار الغيبية طيباً لما فيها من طيب العيش بالتواصل والأجر الكبير،

وقد ورد أن في السلام والجواب مائة حسنة تسع وتسعون منها للمسلم و واحدة للمجيب،

و كما بين الله لكم هذه الأحكام كذلك يبين الله لكم أيها المسلمون آيات الدالة على الأحكام والآداب لعلكم تعقلون أي لكي تعملوا عقولكم فتسعدوا في الحياة.

[٦٣] و إذ بين سبحانه علاقة المسلمين بعضهم مع بعض في المأكل، و الاجتماع و التحية، و سائر ما تقدم بين الأدب اللازم رعايته مع

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَئِيسَ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْلَى فَقَالَ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِأَنْ اعْتَقَدُوا بِاللَّهِ، وَصَدَقُوا بِالرَّسُولِ، عَنْ حَقِيقَتِهِ وَقَلْبٍ، لَا بِمَجْرَدِ اللَّفْظِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ أَى مَعَ الرَّسُولِ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ أَى أَمْرٍ يَقْتَضِي الْجَمَاعَةَ كَالْمَشُورَةِ، وَ الْحَرْبِ، وَ مَا أَشْبَهَ لَمْ يَدْهَبُوا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى يَشْتَأْذُنُوهُ أَى يَطْلُبُوا الْإِذْنَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْذَهَابِ وَالْإِنْصِرَافِ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَأْذُنُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا صَادِقًا رَاسِحًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٩

[سورة النور (٢٤): آية ٦٣]

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْأَدَّاءَ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذْ عَدِمَ الْاسْتِثْذَانُ دَلِيلَ عَلَى عَدَمِ تَمَكُّنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَ نَشُوبِ الْإِيْمَانِ فِي أَعْمَاقِهِمْ فَإِذَا اسْتَأْذُنُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ وَ لَعَلَّ الْإِيْتَانَ بِهَذِهِ الْجَمْلَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا اعْتِبَاطًا لِلتَّخْلِصِ مِنَ التَّبَعَةِ، وَ إِنَّمَا الْاسْتِثْذَانُ لِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمَحْتَاجِ إِلَيْهَا فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتُمْ مِنْهُمْ فَإِنْ إِعْطَاءَ الْإِذْنَ بِيَدِ الرَّسُولِ، إِنْ شَاءَ أَذْنٌ وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ وَ اسْتِغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ أَى اطْلُبْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْغُفْرَانَ، فَلَعَلَّ الْاسْتِثْذَانَ كَانَ عِبْثًا لِمَحَاوَلَةِ الْفِرَارِ عَنِ الْأَمْرِ الْجَامِعِ فَهَمَّ فِي مَعْرُضِ سَخَطِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الْاسْتِغْفَارَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ الذَّنْبَ رَحِيمٌ يَنْفَضِلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللِّطْفِ وَ الرَّحْمَةِ،

وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَنْظَلَةَ، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِي صَبِيحَتِهَا حَرْبٌ أَحَدٌ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَقُمْ عِنْدَ أَهْلِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَ جَلًّا هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَقَامَ عِنْدَ أَهْلِهِ ثُمَّ أَصْبَحَ وَ هُوَ جَنْبٌ فَحَضَرَ الْقِتَالَ وَ اسْتَشْهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمِزْنِ فِي صَحَائِفِ فَضَاءٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، فَسُمِّيَ غَسِيلَ الْمَلَائِكَةِ «١».

[٦٤] وَ مِنْ جَمْلَةِ الْأَدَابِ الَّتِي يَلْزَمُ مِرَاعَاتُهَا مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا بَيْنَهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: لَا تَجْعَلُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ دُعَاءَ الرَّسُولِ نِدَاءً عِنْدَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٠

الْمَخَاطَبَةَ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ لَعَلَّ الْإِيْتَانَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، لِيَبَانَ أَنَّهُ يَنْبَغِي احْتِرَامُهُ وَ هُوَ بَيْنَكُمْ، فَإِنَّهُ الرَّسُولُ، فِي قِبَالٍ مِنْ يَحْتَرِمُ غَيْرَهُ فِي الْخَارِجِ دُونَ الْخَلْوَةِ فِيمَا بَيْنَهُمَا كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا كَمَا يَنَادِي بَعْضُكُمْ بِأَسْمَاءِ أَوْ اللَّقَبِ فَلَا تَقُولُوا يَا مُحَمَّدُ، وَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، بَلْ قُولُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ،

قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ هَبَّتْ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَ لَهُ يَا أَبَتِ، فَكُنْتُ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعْرَضَ عَنِّي مَرَّةً أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَ قَالَ: يَا فَاطِمَةُ إِنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ فِيكَ وَ لَا فِي أَهْلِكَ وَ لَا فِي نَسْلِكَ أَنْتَ مِنِّي وَ أَنَا مِنْكَ، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْجَفَاءِ وَ الْغُلْظَةِ مِنْ قُرَيْشٍ أَصْحَابِ الْبَذَخِ وَ الْكِبْرِيَاءِ، قَوْلِي يَا أَبَتِ فَإِنَّهَا أَحْيَا لِلْقَلْبِ وَ أَرْضَى لِلرَّبِّ «١».

أقول: لعل المراد بالنسل الأئمة عليهم السلام.

ثُمَّ رَجَعَ السِّيَاقُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ لُزُومِ الْاسْتِثْذَانِ لَدَى إِرَادَةِ الْإِنْصِرَافِ قَدْ يَعْلَمُ قَدْ لِلتَّحْقِيقِ، أَوْ جَارٍ مَجْرَى التَّعْرِيفِ، فَقَدْ تَقُولُ لَوْلَدِكَ - مَهْدَدًا - قَدْ أَطْلَعَ إِلَى عَمَلِكَ، بِمَعْنَى أَنَّ احْتِمَالَ إِطْلَاعِي كَافٍ فِي أَنْ تَرْتَدِعَ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ التَّسَلُّلَ الْخُرُوجِ فِي خَفِيَّةٍ وَ هَدُوءٍ وَ حَذْرٍ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ لَوْأَدَّاءَ وَ هُوَ أَنْ يَتَسْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ مَخَافَةَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، مِنْ لَازِمِ مَعْنَى: التَّجَأُ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَقُومُونَ فِي هَدُوءٍ وَ حَذْرٍ وَ يَتَسْتَرُونَ بِبَعْضِ الْأَصْحَابِ الْجَالِسِينَ أَوْ

(١) المناقب: ج ٣ ص ٣٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣١

[سورة النور (٢٤): آية ٦٤]

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

الواقفين، لثلا يراهم الرسول حين يريدون الانصراف، بدون الاستئذان، وفي قوله «قد يعلم الله» تهديد لمن يفعل ذلك فليحذر أى يجب أن يحذر ويخاف الذين يخالفون أى يعرضون عن أمره تعالى أن تصيبهم فتنة أى بينه و عقوبه فى الدنيا أو يُصيبيهم عذاب أليم فى الآخرة.

[٦٥] أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فالكل ملكه و الكل تحت تصرفه، فكيف يمكن أن يخالفه أحد و لا يخشاه؟ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ من الأعمال و الكلام فى «قد» ما تقدم، و فى هذا تهديد لمن يخالف و يَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ و هو يوم الموت، أو يوم القيامة، و المراد الرجوع إلى حسابه و جزائه فَيُنَبِّئُهُمْ أى يخبرهم، إخبارا يتعقبه الجزاء، و هذا كقولك لمن تريد وعده أو إيعاده «سأخبرك بما عملت» بما عملوا من الطاعة و المعصية و اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيجازى كلا حسب عمله و ما صدر منه، و «يوم» منصوب على الظرفية، أى «ينبئهم فى يوم يرجعون إليه»، و إنما دخل «الفاء» لإفادة الترتيب بين الإخبار و بين و الرجوع.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٢

٢٥ سورة الفرقان مكية / آياتها (٧٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الفرقان» و هى كسائر السور المكية تتعرض للعقيدة و ما يتبعها و حيث ختمت سورة النور بأن لله ما فى السماوات و الأرض، ابتدأت هذه السورة بأن لله التشريع، لتلائم التشريع مع التكوين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، و قد اعتاد الإنسان أن يجعل شعاره أفضل شىء يشير إلى نفسه و منهاجه، و هل هناك شىء أفضل من اسم الله سبحانه ليحمله شعاراً؟، و هل بعد ذلك شىء أفضل من الرحمة التى تعم التكوين و إعطاء الخير و الهداية، ليعقب باسم الإله؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٣

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

[٢] تَبَارَكَ هو من باب التفاعل، من البركة، إما بمعنى تكاثر خيره، أو من البروك، بمعنى الاستقرار، أى دام و ثبت الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ أى القرآن، وسمى فرقانا لأنه المفرق بين الحق و الباطل عَلَى عَبْدِهِ محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِيَكُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْعَالَمِينَ أى جميع عوالم العقلاء من الإنس و الجن فى الأجيال المختلفة و الأصقاع المختلفة نَذِيرًا أى منذرا عن المعاصى و الكفر و الآثام، و إنما ذكر هذا الوصف، لأن التنقية عن الشرك و المعاصى مقدم على التحلية بالإيمان و الطاعات.

[٣] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المالك، و حق للمالك أن يشرع، كما أن المالك أعرف بما يصلح مملوكه من غيره، فهو أحسن نظاما و خير دينا من غيره و لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا كما زعمت اليهود و النصارى و المشركون جعلوا عزيزا و المسيح و الملائكة أولاد الله تعالى و لَمْ يَكُنْ لَهُ تَعَالَى شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ يشاركه فى الكون، كما زعم المشركون، حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله سبحانه وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَله الخلق، كما أن له الملك، و صرح بذلك لعدم التلازم بينهما فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا حسب الحكمة و الصلاح، أى وضع

لكل شيء حداً في الكيفية والكمية ومدّة البقاء إلى غير ذلك من الأمور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٤

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣ الى ٤]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا (٣) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا (٤) المكتشفة بكل مخلوق.

[٤] وَ اتَّخَذُوا أى اتخذ الكفار مِنْ دُونِهِ من دون الله آلِهَةً المراد بالجمع الجنس حتى يشمل الواحد، كما يراد بالجنس الجمع فى كثير من الموارد، و تلك الآلهة لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا لا تقدر على خلق شيء وَ هُمْ تلك الآلهة يَخْلُقُونَ مخلوقه لله سبحانه، و الإتيان بلفظ العاقل سيرا على مذهب القوم الذين كانوا يزعمون عقل الأصنام وَ لَا يَمْلِكُونَ تلك الآلهة لِأَنفُسِهِمْ فكيف لغيرهم ضَرًّا بأن تدفعه عن نفسها وَ لَا نَفْعًا بأن يجلبونه لأنفسهم، فى مقابل الله الذى يخلق و لم يخلق، و يتمكن على كل نفع و إضرار بالنسبة إلى جميع الناس وَ لَا يَمْلِكُونَ لأحد مَوْتًا وَ لَا لميت حَيَاةً وَ لَا لأحد نُشُورًا أى إحياء بعد الموت، فكيف يترك الكفار عبادة الله القادر على كل شيء و الخالق لكل شيء و المالك لكل مملوك، و يعبدون هذه الأصنام التى لا تقدر على شيء و لم تخلق شيئاً و ليس لها شيء؟.

[٥] وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا حول القرآن الذى أنزله الله على رسوله إِنَّ هَذَا أى ما هذا القرآن إِلَّا إِفْكُ أى كذب افتراه الرسول، على الله سبحانه، بأن نسبه إليه تعالى بالكذب، وَ أَعَانَهُ أَعَانَ الرسول عَلَيْهِ على هذا الإفك قَوْمٌ آخَرُونَ فقد كانوا يقولون إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٥

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٥]

وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٥)

عداس مولى حويطب و يسار غلام العلاء و حبر مولى عامر، هم الذين أعانوا الرسول على إنشاء هذا القرآن، و قد كان أولئك من أهل الكتاب.

و عن الباقر عليه السلام: يعنون أبا فكيهه و حبرا و عداسا و عابسا مولى حويطب

«١» فَقَدْ جَاءُوا أى هؤلاء الكفار ظُلْمًا إذ ظلموا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بهذه النسبة إليه وَ زُورًا أى افتراء، فكيف يمكن للبعد أن يأتى بمثل هذا القرآن الذى لا يمكن أن يأتى به فصحاء قريش و عقلائهم؟ كما قال سبحانه: (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) «٢»؟.

[٦] وَ قَالُوا أى قال جماعة آخرون من الكفار أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا جمع أسطورة، و هى الحديث الخيالى الذى لا واقع له، أى قالوا أن هذا القرآن أحاديث المتقدمين و ما سطره فى كتبهم جمعها محمد و كتبها ليدعى بها النبوة فَهِيَ أى هذه الأساطير تُمْلَى عَلَيْهِ تقرأ عليه يقرأها عليه بعض أصدقائه بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى صباحا و عشيا، ليحفظها و يقرأها على الناس، و قد كانوا مناقضين فى أقوالهم فمرة يقولون إفك افتراه، و مرة إنها أساطير الأولين، مع أن الرسول لم يكن كاتباً، ثم ينسبون الإلقاء إلى أفراد لم يكن لهم علم و لسان، و مع ذلك كله لم يقدروا على أن يأتوا بأقصر سورة مثله.

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ١١١.

(٢) النحل: ١٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٦

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦ الى ٧]

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيراً (٧)

[٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ أَنْزَلَهُ أَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ أَى الْخَفِيِّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ بَعْلَمُهُ الشَّامِلُ يَعْلَمُ مِقْدَارَ قُدْرَةِ الْبَشَرِ، وَ لَذَا تَرَى الَّذِي أَنْزَلَهُ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ إِذْ لَا يَتِمَكَّنُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَ لَوْ كَانَ افْتِرَاءً مِنْ عِنْدِ جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ مِقْدَارَ قُدْرَةِ النَّاسِ لِأَمْكِنُوا مِنْ مَعَارَضَتِهِ وَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ. إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ كَانَ غَفُوراً حَيْثُ لَمْ يَعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، لِيَتُوبَ مِنْ يَتُوبُ رَحِيماً يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ.

[٨] لَقَدْ كَانَ هَذَا قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ أَمَا قَوْلُهُمْ حَوْلَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ أَصْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى «أَى شَيْءٍ لَهُ» وَ لَكِنْ اسْتَعْمَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَجْرَدِ الْاسْتِفْهَامِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ أَى كَيْفَ يَكُونُ رَسُولاً وَ هُوَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ فَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَنَافَى شَأْنَ الرِّسَالَةِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ، كَى نَرَاهُ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيراً أَى مَعِيناً لَهُ عَلَى الْإِنذَارِ وَ التَّخْوِيفِ وَ «لَوْ لَا» بِمَعْنَى «هَلَا» وَ لِنَسْأَلُ هُوَ لَاءِ الْقَائِلِينَ: لِمَاذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ لَا- يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَ لَا يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟ وَ لِمَاذَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَلَكٌ يَرَى؟ إِنْ الْكُفَّارَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْطِقٌ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ إِلَّا السَّخَافَةُ وَ الْاِقْتِرَاحُ الْمَجْرَدُ وَ الْعِنَادُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٧

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٨ الى ١٠]

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)

[٩] أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ جَانِبِ السَّمَاءِ، أَوْ الْمَرَادُ يَعْطَى كَنْزٌ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ سَائِرِ الْجَوَاهِرِ، حَتَّى يَكُونَ ذَا مَالٍ، فَقَدْ كَانُوا يَسْتَعْرَبُونَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ لَا- مَالٌ لَهُ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ أَى بَسْتَانٌ يَأْكُلُ مِنْهَا مِنْ تِلْكَ الْبَسْتَانِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى اشْتِرَاءِ الْفَوَاكِهِ وَ الْخَضِرِ مِنَ السُّوقِ وَقَالَ الظَّالِمُونَ أَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ إِنْ تَتَّبِعُونَ أَى مَا تَتَّبِعُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا قَدْ سَحَرُوهُ، وَ ذَهَبَ عَقْلُهُ، وَ مِنْ ذَهَابِ عَقْلِهِ ادْعَاؤُهُ النَّبُوَّةَ، وَ كَلَامُهُ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ.

[١٠] انظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ أَى الْأَشْبَاهَ فَتَارَةً شَبَّهُواكَ بِالسَّحُورِ، وَ تَارَةً بِالْمَجْنُونِ، وَ تَارَةً بِالشَّاعِرِ، وَ هَكَذَا فَضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ، وَ سَبِيلِ الْهَدَايَةِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ حَيْثُ أَبْعَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَنكَ سَبِيلًا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، إِنْهُمْ بَعَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْكَ، وَ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ سِوَاكَ، فَهَمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْهَدَى.

[١١] تَبَارَكَ أَى تَقَدَّسَ وَ تَعَالَى- وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ- الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ الَّذِي اقْتَرَحُوهُ، مِنْ الْكَنْزِ وَ الْبَسْتَانِ، ثُمَّ فَسَّرَ سَبَّحَانَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ بِقَوْلِهِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٨

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١١ الى ١٢]

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا (١٢)

تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَ يَجْعَلُ لِمَكَ قُصُورًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَ لَكِنَّ الْإِيمَانَ حَيْثُ كَانَ مَرْتَبًا بِالْقُلُوبِ، وَ لِأَجْلِ الْاِمْتِحَانِ، يَلْزَمُ تَجَرُّدَ الْأَنْبِيَاءِ عَنِ الْمَالِ- بَدَأَ الدَّعْوَةَ- لِيُظْهِرَ صِدْقَ الْمُؤْمِنِ، وَ إِلَّا فَالنَّاسُ تَبِعَ لِلْمَالِ، يَمِيلُونَ حَيْثُ مَالٌ.

وَ لَعَلَّ ذِكْرَ هَذِهِ الْمَحَاوِرَاتِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَ بَيْنَ الْقَوْمِ، وَ بَيَانِ مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ فِي الْقُرْآنِ، لِأَجْلِ تَعْلِيمِ النَّاسِ كَيْفِيَّةَ الْاِحْتِجَاجِ، وَ إِرْشَادِ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْإِصْلَاحَ إِلَى الْأَتْعَابِ الَّتِي يُوَاجِهُونَهَا فِي طَرِيقِهِمْ، لِأَخْذِهَا أَهْبَتَهُمْ عِنْدَ الْحَرَكَةِ، وَ يَسْتَعِدُّونَ لِلدَّفْعِ وَ الْكِفَاحِ حَسَبَ اِطْلَاعِهِمْ عَلَى مِقْدَارِ قُوَى الْخَصْمِ، وَ لِتَظْهِرَ مَنزِلَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ

مكانته السامية.

[١٢] هؤلاء لا يكذبونك لأنهم لم يجدوا دليلاً على صدقك بل إنما يكذبونك لأنهم لا يخافون المعاد فقد كذبوا بالساعة أي بالقيامة وأعدنا هيناً لمن كذب بالساعة سعيراً نارا تسعر وتلظى.

[١٣] إذا رأيتهم أي رأيت النار هؤلاء الكفار من مكان بعيد وإنما نسب الرؤية إلى النار، مع أن النار لا عين لها، لزيادة التهويل حتى كأن النار تراهم وتنظر إليهم نظرة الغضبان الحاتق، والقلب من أنواع البلاغة كما قال الشاعر:

ولما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السباعا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٩

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٣ الى ١٥]

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أُولَئِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِرًا (١٥)

سَمِعُوا لَهَا أي للنار تعظيماً فإنها تنقطع عند اشتدادها، كما يسمع الإنسان صوت الأعواد حين تنقطع في النار وزفيراً وهو صوتها عند النفس والالتهاب.

[١٤] وَإِذَا أُلْقُوا أي ألقى هؤلاء الكفار منها من النار مكاناً ضيقاً أي في مكان ضيق من النار،

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنهم في النار كالوتد في الحائط

مُقَرَّنِينَ قرن بعضهم إلى بعض، أو قد قرن أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو قرنوا مع الشياطين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا الثبور: الهلاك أي طلبوا هلاكهم، قائلين وا ثبوراً، أي يا هلاك احضر و أرحنا من هذه المشقات.

[١٥] فيقال لهم حينذاك لا تدعوا أيها الكفار اليوم في النار ثبوراً واحداً و هلاكاً واحداً و ادعوا ثبوراً كثيراً و لعله كناية عن أن قول الويل لا ينفعكم و إن كثر، كما يقال لمن يبكي حزناً على فقد شيء، ابكى كثيراً، يراد أن البكاء لا ينفع، و إن بكى الإنسان كثيراً.

[١٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلاءِ الكفار الذين يصرون على كفرهم و عصيانهم أُولَئِكَ أي هل هذا المرجع و هذه العاقبة السيئة خيرٌ للإنسان أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ أي: البساتين التي يخلد فيها الإنسان و لا يخرج منها إلى الأبد الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الذين يتقون الكفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤٠

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٦ الى ١٧]

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤْنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُلاً (١٦) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَا مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَ أَنتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)

و العصيان؟ كانت تلك الجنة لهم أي للمتقين جزاءً على أعمالهم و مصيراً أي محلاً يصيرون إليه.

[١٧] لَهُمْ فِيهَا أي في الجنة ما يشاؤون من أنواع النعيم و اللذات خالدين باقين إلى الأبد كان إدخالهم في الجنة- المفهوم من الكلام- على رَبِّكَ وَعْدًا أي وعدهم ربك وعداً مسؤلاً أي يسأل الله عن هذا الوعد، و السائلون هم الأتقياء فإنهم يسألون الله أن يفى لهم

بالوعد، و هذا تأكيد للأمر، يعني إن الوعد وعد قطعي حتى إنه يسأل عنه، و ليس من قبيل وعد بعض الناس الذي هو مجرد لقلقة لسان.

[١٨] وَاذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ أي يجمع الله هؤلاء الكفار للحساب و الجزاء، و هو يوم القيامة و يحشر ما يعبدون من الآلهة مِنْ دُونِ اللَّهِ و لعل المراد هنا المسيح و الملائكة و أمثالهم، أو الأعم منهم و من الأصنام، و ينطق الله الأصنام بقدرته ليتكلموا حتى

يكون زيادة في تقرير الكفار.

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَؤُلاءِ المعبودين الذين جعلوا شركاء له أَ أَنتُمْ أَيُّهَا المعبودون أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي المشركين هَؤُلاءِ الذين تشاهدونهم إلى

جنبكم أم هم ضلوا السبيل بطغيانهم، بأن أشركوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤١

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٨ الى ١٩]

قالوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

فتاهاو طريق الحق و الرشاد؟.

[١٩] قالوا أى قال أولئك المعبودون سُبْحَانَكَ أى تنزيها لك، و هو مصدر منصوب بفعل مقدر أى نسبحك سبحانك ما كان يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ أى ليس لنا أن نوالى أعداءك، فإننا لم نوال هؤلاء، فكيف نأمرهم بعبادتنا و اتخاذنا آلهة، فمن ليس بينه و بين أحد مجرد الصداقة و الولاية، كيف يكون داعيا له إلى نفسه؟ وَ لَكِنْ إِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ فَقَدْ مَتَّعْتَهُمْ أى تفضلت عليهم بالنعم و متع الحياة الدنيا وَ مَتَّعْتَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَشَاءُوا فِي النِّعَمِ، فبطروا و استكبروا حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ المنزل على الرسل، فإن الإنسان إذا طال عمره فى خير و أموال و أولاد، طغى، و لم يبال بالأوامر، حتى كأنه نسيها وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا أى هلكى فاسدين، فإن بور جمع بائر، و هو الهالك الذى لا نفع فيه، و منه يقال للخراب بائر.

[٢٠] ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين فى دار الدنيا، بعد أن يتم الكلام حول تلك الحكاية عن حالهم مع المعبودين فى القيامة فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ- أى كذبكم الشركاء، إذ بينوا أنهم لم يأمرؤكم بعبادتهم، خلاف ما كنتم تقولون من أن المسيح و الملائكة و من أشبههم أمرؤكم بعبادتهم بِمَا تَقُولُونَ من أمرهم لكم باتخاذهم شركاء فَمَا تَسْتَطِيعُونَ أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ، فى الآخرة صَرْفًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤٢

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٢٠]

وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تُصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

للعذاب عن أنفسكم وَ لَا نَضِيرُكَ أَنْفُسَكُمْ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ، بأن تغلبون عليه حتى تخمدوه- مثلا- وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ وَ الْعِصْيَانِ نُذِقْهُ فى الآخرة عَذَابًا كَبِيرًا أى عظيما شديدا.

[٢١] ثم ارتد السياق ليجيب عن بعض مجادلات الكفار مع الرسول فى باب رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فى الْأَسْوَاقِ وَ أَنْتَ مِثْلَهُمْ فكيف يقول هؤلاء متعجبين ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق؟ وَ جَعَلْنَا نَحْنُ بَعْضُكُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ وَ يَا أَيُّهَا الْكُفَّارُ لِبَعْضٍ فِتْنَةً وَ امْتَحَانًا فَالْكَفَّارُ يَمْتَحَنُونَ بِالرَّسُولِ حتى يعلم من يؤمن و من لا- يؤمن، و الرسول يمتحن بالكفار حتى يظهر صبره و صموده و سائر مزاياه، و يكون ذلك سببا لارتفاع درجته أَ تُصْبِرُونَ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى الْامْتِحَانِ، حتى تخرجوا ناجحين، أم يسرع الكفار إلى شهوات الدنيا، فلا صبر لهم على الطاعة وَ كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَصِيرًا بمن صبر و بمن لم يصبر، و بمن نجح فى الامتحان و بمن لم ينجح- هذا هو الذى استظهره من الآية بمقتضى السياق- و قال بعض المفسرين معنى لا يلائم السياق، و الله العالم.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بنادر البحار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ

الصّدوق، الباب ٢٨، ج ١ / ص ٣٠٧).

مؤسس مُجتمَع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتَهَرَ بشَعْفِهِ بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقه لم ينطفي مصباحها، بل تُتَبَعُ بأقوى و أحسن موقِفٍ كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشِطَتَهُ من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دامَ عزه - و مع مساعِده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرّي الأذق للمسائل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريّة، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المُنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخريّ مع عشرات مراكز طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفتق" و فاني / بنايه "القائمية"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميته، و غير ربحيته، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينيه والعلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الاعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ان يوفق الكل توفيقاً متزائداً ليعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - ايانا في هذا الامر العظيم؛ ان شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

